الهيئة العامة لقصور الثقافة

القومية في السياسة والتاريخ

فردريك هرتز

ترجمة
عبد الكريم أحمد

مراجعة
د. إبراهيم صقر

القومية فى التاريخ والسياسة

تأليف: فردريك هرتز

ترجمة: عبد الكريم أحمد

مراجعة: د. إبراهيم صقر

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• القومية فى التاريخ والسياسة
• ترجمة: عبد الكريم أحمد
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2011م
17×24 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور.
• رقم الإيداع: ٤١٠٠/ ٢٠١١
• المراسلات:
باسم / إدارة النشر
على العنوان التالى: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897
البريد الإلكترونى:
elnashr@yahoo.com
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

القومية فى التاريخ والسياسة

مقدمة

هذا الكتاب دراسة للطبيعة البشرية والمجتمع البشرى. ويتطلب موضوعه مزيجا من البحث التاريخى بأساليب سيكلوجية واجتماعية . وبرغم ان نطاق الكتاب قد يبدو أكثر شمولا من الكتابات السابقة التى عالجت المشكلة ، فيجب أن نؤكد أنه لم يقصد به أن يكون مناقشة شاملة لجميع الجوانب وكل المادة المتاحة . فمثل هذه المناقشة تملأ دائرة معارف كاملة وتتطلب تعاون عدد كبير من المختصين . فضلا عن أن ظروف الحرب تفرض قيودا مشددة على حجم الكتب . فقد اضطررت الى اغفال عدة فصول مهمة والاقتصاد فى المساحة كلما أمكن . ومن ثم ينبغى ألا يفترض أن المسائل التى لم تعالج بالتفصيل أو لم تعالج أصلا قد فاتت على أو اعتبرتها غير هامة . وكان من بين القواعد الرئيسية فى اختيار المادة تجنب المعالجة التفصيلية للمسائل التى نوقشت على نطاق واسع من قبل والتى يفترض فى معظم القراء معرفة كافية بها، الا اذا كنت قد اضطررت لعرض تفسير جديد أو حجج اضافية مهمة . وبالاضافة الى أن كثيرا من مشاكل الجنسية سبق أن عالجتها فى كتاباتى فانى ازمع أن أنشر قريبا كتبا أخرى وبحوثا تنطوى على استمرار لابحاث هذا الكتاب . وقد اقتصدت فى المساحة أيضا بالاشارات الكثيرة الى مؤلفين آخرين حيث يستطيع القارىء أن يجد مناقشات أكثر تفصيلا لبعض القضايا مما استطعت أن أقدمه .

وماكنت لأستطيع أن أتابع دراساتى وكتابة هذا المؤلف لولا المساعدة السخية التى تلقيتها من « جماعة حماية العلم

والمعارف » فى كامبردج وكلية «أول سولز » فى اكسفورد ، وانى أنتهز هذه الفرصة للتعبير لهما عن عميق شكرى . وانى مدين بالفضل بصفة خاصة لدكتور و.ج.س. آدامز ، عميد «أول سولز» ، وسير وليم بفريدج وجورج ب.جوش ومستر الكسندر فاركوهارسون ، السكرتير العام لمعهد الدراسات الاجتماعية ، لما أبدوه من اهتمام وعطف على عملى . كما انى مدين أيضا لأصدقاء قرءوا فصولا من هذا الكتاب واقترحوا بعض تصحيحات ، وبخاصة مستر سيريل فوكس و د. ر. لافان ومس كاترين مارشال ومس أ . ت . آشتون ومستر أ . ت تيرنر . كما أدين أيضا بشكر خاص للدكتورة مارجريت آيزن التى كرست وقتا طويلا لطبع المخطوط على الآلة الكاتبة ومراجعته .

لندن ابريل ١٩٤٣ .



الفصل الأول

صور الوعي القومي وتكوينه

١ ـ لغز الشعور القومى

لوحظ فى بعض المناقشات الدينية التى أدت الى اضطرابات خطيرة فى الامبراطورية البيزنطية أن الجدل حول موضوعات قد لايفقهها العقل البشرى ، بله عقل الرجل العادى ، كثيرا ما أثارت انفعالات الجماهير الى أقصى حد • ويمكننا أن نقول نفس الشيء الى حد ما عن كثير من الصراعات السياسية فى عصرنا • ويعد الشعور القومى بصفة خاصة ، وهو أقوى عامل فى السياسة الحديثة ، أكثر هذه العوامل غموضا• اذ أثبت الشعور القومى أنه أقوى من أى مذهب سياسى آخر • فقد تحطمت تحت وطأة هجماته امبراطوريات كبرى ، وقامت باسم القومية حروب وثورات غيرت معالم العالم • ولم تستطع المصالح الاقتصادية ولا الاخلاق ولا الدين أن تحد من اندفاع التيار الذى يبدو انه يدفع مدنيتنا كلها نحو الهاوية •

ومع ذلك فان قلة من الناس «فقط» هى التى تهاجم الشعورالقومى صراحة ، فالانجليز درجوا على اعتباره والوطنية شيئا واحدا ، ولا يميلون الى استئصاله تماما بل ونجد أن مثل هذه المحاولة تقابل بمقاومة على نطاق واسع • والاتجاه السائد أن «الجنسية» «والشعور الوطنى» أو «القومى» لهما قيمتهما ولكن يجب أن يظلا داخل نطاق محـــدود • بل ان موقف التشكيك فى قيمة الشعور القومى أو العداء نحوه يكاد يعتبر جريمة فى بعض البلاد • ومع ذلك فلا يوجد بلد يستطيع الشخص المتوسط فيه أن يعطى تعريفا ملائما للشعور القومى أو أن يحدد بالضبط الخط الفاصل بين الشعور القومى الضار والمفيد • ومن الواضح أن أكثر وجهات النظر انتشارا هى أن القومية لاتعنى سوى حب الأمة أو الشعب والتحمس



لمصالحهما الحقيقية والولاء للدولة والتعلق بالوطن ، وأن «القومية» هى نفس الشىء «كالوطنية» تقريبا • واذا كان ذلك صحيحا فانه يكون من العسير أن نفهم لماذا أدت مجرد المغالاة فى الحب أو الحماسة فى بعض الحالات الى سياسة انتهت بمذبحة للشعب وتدمير ثروته ومدنيته واسمه الطيب • ويفسر آخرون القومية بأنها سياسة تدفع اليها الانانية القومية، أو بأنها وجهة نظر خاطئة وضيقة الأفق فى المصالح القومية • ومثل هذا التفسير أيضا لا يساعدنا كثيرا على فهم طبيعة القومية • فمن الواضح أن القومية ليست مجرد جهل وسوء تقدير . والا فانه لايكون هناك تفسير لواقعة أن القومية المدمرة بالذات ظهرت فى عصر انتشرت فيه المعرفة السياسية بصورة لم تعرف من قبل ، وأن دعاتها ومؤيديها كانوا فى الغالب من بين الطبقات المثقفة ثقافة عالية فى بعض البلاد •

واستخدام لفظ القومية للتعبير عن الشعور القومى ، الذى تفرد به العرف الانجليزى ، والذى درج عليه أيضا كثير من علماء الاجتماع والمؤرخين ، يؤدى الى بلبلة شديدة • ونجد مثالا ذا مغزى فى خطاب ألقاه رامساى مكدونالد ، رئيس الوزراء ، فى ١٣ من مايو ١٩٢٤ . فقد قال، طبقا لما جاء فى صحيفة «التايمز» ، ان عواطفه مع الأمم الصغيرة فى أوروبا وأنه يؤمن بالقومية ايمانا لايتزعزع ، وأنه يحترم الظروف القومية والسمات القومية . وأنه يكون من سوء طالع العالم أن يقضى على كل تلك الفوارق بين البشر التى خلقتها التجارب العديدة للأجناس والمذاهب والأجواء المختلفة ، وأن تصب فى قالب منمط واحد • ثم قال ان ذلك

ليس مثله الأعلى ، وليس مثله الأعلى كذلك المغالاة فى القومية بحيث تصبح عقبة كأداء فى سبيل أى شخص يعمل من أجل السلام · فالشعور القومى ليس شعورا عدوانيا اذ القومية هى احترام الذات ، وأكثر الناس احتراما لأنفسهم هم أكثرهم احتراما للغير ·

وبهذه العبارات يعتبر مكدونالد نفسه من دعاة القومية بمعنى ثقافى وأخلاقى بحت ، فهو يريد الابقاء على السمات القومية لكل أمة ومراعاة احترام الذات كشرط للاحترام المتبادل · وهو يسلم بأن هنـــاك أيضا عقليات أقل حبا للسلام تحمل اسم القومية ولكنه يعتبرها مجرد مغالاة فى القومية الحقيقية ، بل انه يذهب الى حد انكار حقها فى هـذا الاسم حيث ان القومية ليست عدوانية · ونظرية أن « القومية الشرسة » هى مجرد مغالاة فى « القومية الوديعة » واضح انها تؤدى الى اعتبار أن هتلر يمثل أساسا نفس الأهداف التى يعمل من أجلها مكدونالد ولكنه أكثر تطرفا أو يعمل على تحقيق أهدافه بوسائل خطأ لا يمـكن أن تؤدى الى النتائج المطلوبة · ومثل هذه النظرة تثبت بالتأكيد عدم فهم قومية هتلر، وهى قمينة بأن تضلل الرأى العام فيما يتصل بأخطار القومية ·

بيد أن عدم الوضوح يشمل أيضا مفهوم «الامة» وتعبير «القومى» وتركيب ألفاظ مثل الشـعور أو الوعى القومى والطابع القومى وتقرير المصير القومى وهكذا . فعندما نسأل ماهى الأمة يجيب معظم الناس : الامة هى الشعب ، والواقع أن الاستعمال المألوف فى اللغـة الانجليزية يوحد بين المصطلحين · وفى الديموقراطيـات ، بصفة خاصـة ، الأمة هى صاحبة السيادة ، والدولة هى أداة تنفيذ ارادتها ، والحـكومة هى أداة ادارة شئون الدولة التى تعينها الامة · وفى اللغة الانجليزية يعنى لفظ « قومى » شيئا مشتركا بين الشعب كله ، كاللغة القومية مثلا ، فضلا عن أنه لما لم يكن فى اللغة الانجليزية صفة مشتقة من «دولة» ، فان لفظ قومى يستعمل أيضا للتعبير عن أى شىء تديره الدولة أو تسيطر عليه ، مثل الدين القـومى « والتأمين الصحى القومى » · بل ان لدينا الآن « الزبد القومى » « والرغيف القومى » كناية عن الزبد أو العيش اللذين تحدد الحكومة مواصفاتهما للمصلحة العامة فى وقت الحرب · و «تأميم» السكك الحديدية يعنى أن الدولة تصبح المالكة لها والمسيطرة عليها · وتبعا لهذا الاستعمال تأخذ كلمة «قومى» بسهولة دلالة «الشعبى» أو «الديموطراطى» ومن ثم فان الرأى العام فى البلاد الديموقراطية اتجه منذ مدة طويلة الى العطف على الحركات التى تطلق على نفسها اسم الحركات القـومية فى

الخارج . ونادرا ما يدرك الناس أن لفظ «قومى» لا يعنى نفس الشيء فى كل مكان . وكثيرا ماااستعملت الأحزاب لفظ «قومى (١)» عنوانا فى عبارات مركبة مثلا كالحزب «الليبرالى القومى» و «الديموقراطى القومى» والاشتراكى القومى(٢)ويتوقف علىظروف كل بلد ما اذا كان لفظ قومى: يعنى تأكيد للفظ الثانى أم وصفا له ؟ وفى الاستعمال الالمانى ينطوى لفظ «قومى» على جانب عاطفى أكثر بكثير مما فى الاستعمال الانجليزى . فلفظ «أمة» تحمل بالنسبة للعقل الألمانى فكرة شعب عظيم قوى بلغ شأوا كبيرا من المدنية وله دولته الخاصة به ، ولا يستخدم لفظ «قومى» الا فى مفاهيم سامية مثل «الشرف القومى» «والوحدة القومية» و «اللواء القومى». ان تعبير «الزبد القومى» شيء مستحيل فى ألمانيا فاللغة الألمانية تستخدم تعبيرات أخرى فيما يطلق عليه فى الانجليزية لفظ «قومى» مثل « اللغة الأم» بدلا من «اللغة القومية» و «دين الدولة» بدلا من «الدين القومى» «وصحة الشعب» بدلا من «الصحة القومية» .

وسنبين فيما بعد ان لفظ «أمة» أيضا يستخدم بمعان مختلفة تماما ولا يعنى دائما نفس الشيء «كالشعب» وهذا الاختلاف فى الاستعمال كثيرا ما تكون جذوره فى تضارب الايديولوجيات أو المصالح ، وكثيرا ما يرجع الى نقص ملكة النقد . بيد أنه حتى الكتاب المدققين كثيرا مايضطرون الى استخدام مصطلحات غير دقيقة لأن الجمهور قد ألف استعمال نفس الألفاظ للدلالة على أشياء مختلفة بحيث لايقبل الالتجاء الى مصطلحات جديدة لمجرد الدقة العلمية . وأيا كان الأمر فان عدم وضوح المصطلحات وثباتها يسهم كثيرا فى اختلاط الأفكار ، بالاضافة الى أن هناك جماعات قوية لها مصلحة فى غموض اللغة . والقوميون بصفة خاصة لابد أن يرغبوا فى الابقاء على شيء من الغموض فى أهدافهم . فالبرامج التى تنطوى على عدوان قومى صراحة ، وسياسة السيطرة والهيبة بلا مواربة ، لا تجتذب جماهير الناس فى الأمم الحديثة . ولكن تأكيدات أن القومية تعنى حب الشعب بحماسة القتال الذى لا هوادة فيه من أجل مصالحه الحقيقية وحمايته ضد العدوان والمؤامرات الخارجية والمحافظة على اللغة القومية

---

(١) فى هذا المقام يستخدم لفظ «وطنى» فى اللغة العربية ، ولكننا سنتجنب كما أشرنا من قبل ــ استخدام هذا اللفظ حتى تستقيم الترجمة مع النص الانجليزى ــ المترجم .

(٢) ومما يدل على أن الاحزاب التى تحمل نفس الاسم قد تمثل أفكارا مختلفة تماما ان حزب دكتور بينز وحزب هتلر يطلقان على نفسيهما اسم «الاشتراكى القومى» .

والمدنية والتقاليد والعادات القـومية وتأكيد الوحدة والتضامن القوميين واخضاع المصالح الخاصة لمصالح الشـعب ككل - هذه التأكيدات وما يماثلها لها دائما قوة سحرية ·

وسر نجاح القومية انهـا تجتـذب الى حد ما حتى خصوم أهدافها العدوانية وتضللهم فتجعلهم يقعون فى أخطاء مميتة · وكان المحـافظون يجنـحون كثيرا الى الترحيب بالقومية كحليف ضـد الديموقراطية وهم مقتنعون بأنهم سيستطيعون دائما السيطرة عليها · ولم يدركوا الا بعد فوات الأوان أن ذلك وهم وأن القومية تنطوى على عناصر ذات طابع ثورى ضد الاتجاه المحافظ تماما · وكثيرا ما أشاد التحرريون بالحركات القومية بوصفها كفاحا من أجل الحرية ، وكانوا مقتنعين بأن الشعب الحر سيكون مسالما وعادلا ويكن نوايا طيبة نحو الشـعوب الأخرى . وعندما أظهرت هذه الأمم بعـد تحررها أنها فى حالات كثيرة متعصبة ومعتدية ضـد الأقليات فى داخل أقاليمها أو عدوانية بالنسبة لجيرانها عزا التحرريون ذلك الى نقص التربية السياسية لديهـا والى تآمر الحكومات والطبقات المتميزة · وعندما ظهر أخيرا تعصب القومية واتجاهها ضد التحررية بما لا يدع مجالا للشك ظل كثيرون من التحرريين يعزون أنفسهم بوهم أن كل ذلك ليس سوى مرحلة عابرة أو انه نتائج الضيق الاقتصادى وسرعان ماسيختفى عندما تتحسن الأحوال والأعمال . وكان الاشتراكيون عادة مقتنعين بأن القومية مجرد ستار يخفى وراءه المصالح الرأسـمالية ، أو وسيلة لتحويل الشعب عن الكفاح فى سبيل التحرر الاجتماعى · وكانوا يعتقدون أن الطبقات العاملة على الأقل محصنة ضد الشعارات القومية وأن أيديولوجية القومية لا تكاد تحتـاج الى مايدحضها · واعتقد الماركسيون السنيون أن الحرب الطبقية العنيفة هى العلاج الأمثل · بيد أن البلاشفة حاولوا أيضا استخدام القومية ، وبخاصة بين الشعوب الآسيوية ، على أساس أن مضطهديها الرأسماليين هم أيضا أعداؤها القوميون ·

فهل يستطيع البحث العلمى الاسهام فى الحل العملى للمشـاكل الضخمة التى أثارتها القومية ؟ من المستحيل الاجابة على هذا السـؤال اجابة مؤكدة ، فقوة الانفعالات والتحيزات والمصالح من الشدة بحيث قد لا يكون التحليل العلمى لمشكلة تتعلق بعـلم الاجتماع السياسى مجـديا بالنسبة للسياسة العملية · بالاضافة الى أنه حتى البحث العلمى تعترضه عقبات كبرى · وقد قال أحد العلماء البارزين الذين كرسوا جهدا كبيرا لهذه المشكلة ، وهو الأستاذ كارلتون هيز ، مايلى : «ماالذى منح القومية

تلك القوة الكبرى فى العصر الحديث ؟ نحن فى الحقيقة لا نعلم»(١) . وهذا الاعتراف من جانب واحد من أكبر الخبراء فى هذا الميدان يبين مدى تعقيد المشكلة .

٢ ـ تعبير « أمة » مستعمل فى معان كثيرة مختلفة

هناك خلط كبير سببه أن لفظ «أمة» يستعمل فى عدة معان مختلفة. فقد تغير معناه مع الوقت ، وكثيرا مايرتبط لدى الأمم المختلفة ،والأحزاب المختلفة داخل الأمة الواحدة بأفكار متباينة ، بل وحتى نفس السياسى أو الكاتب كثيرا مايغير مضمونه تبعا لمقتضيات بعض المصالح الخاصة التى يدافع عنها . ونادرا ، طبعا ، ما يصاغ المفهوم بوضوح ، فهو لا يتحدد أساسا الا ضمن مستخلصات عملية . والتحليل الناقد يبين أن هناك اتجاهات كثيرة مختلفة ارتبطت بمصطلح « أمة » ، وأن هذا الخليط المحير من المعانى نما عن طريق أن الأمم والأحزاب والفلسفات المختلفة تؤكد هذا العنصر أو ذاك من العناصر بصفة خاصة . ومما يساعد على توضيح هذا الخليط ان نشير أولا الى الخطوط الرئيسية للمداخل المختلفة الى هذا المصطلح .

ولنبدأ بالقاء نظرة على النمو التاريخى للأفكار المتصلة بلفظ «أمة» والخطوة التالية هى بحث المفاهيم الحالية للأمة ، وسيظهر بوضوح أن القانون العام يفهمها باعتبارها شيئا مختلفا تماما عن فهم علم النفس الاجتماعى أو علم الاجتماع لها . فهناك مفهوم قانونى وآخر اجتماعى للأمة ، الأول كما يعبر عنه مثلا جواز السفر ، والثانى كما يعبر عنه الوعى القومى . ولكن ماهو الوعى القومى ؟ ان التحليل يبين انه يتضمن أربع تطلعات رئيسية تظهر فى صور ومزائج عديدة ويرتبط ارتباطا وثيقا بالعوامل الموضوعية مثل الاقليم القومى واللغة القومية والتاريخ القومى . ويمكن تعريف الوعى القومى بأنه العمل على تحقيق الشخصية القومية ، ويثير هذا موضوع التركيب ، أى علاقات الأمة بكل من أعضائها مثل الكنائس أو الأسر الحاكمة أو المراتب أو الطبقات أو الأحزاب ، وبالأفراد الذين تتألف منهم الأمة ، وسنبين فى الفصل الخاص «بالارادة

---

(١) كارلتون هيز ، «التطور التاريخى للقومية الحديثة» ١٩٤١ ص ٣٠٢ . وهذا الكتاب يتضمن عرضا ممتازا لنمو الافكار . وقد حمل الاستاذ تلامذته كذلك على بحث بعض المشاكل الخاصة فى الجنسية ، ومن بين هذه الدراسات ثبت مفيدا جدا اعده كوبل بنسون ، « مدخل بيبيلو جرافى للقومية» ١٩٣٥ .

القومية» أن هناك أربعة مفاهيم رئيسية للأمة من ناحية التركيب يمكن أن تسمى المفهوم المحافظ والتحررى والديموقراطى والوطنى ، وهناك مشكلة أخرى خاصة بوضع الحد الفاصل بين أمة وأخرى . وكثيرا ما ثار نزاع عنيف بين الأمم بشأن المعيار الذى يعتبر فيصلا تحدد الحدود على أساسه فى حالات بذاتها ، وأى حل ينتهى اليه الرأى ينطوى على مفهـوم معين للأمة . وأخيرا ، لمشاكل العلاقات الدولية أثرها أيضا فى الموضوع : ماهى الأمة ؟ ان توضيح الأفكار المختلفة عن الأمة بجلاء ليست مجرد مسألة نظرية . فاننا اذا أردنا أن نبنى نظاما للقانون الدولى يحقق السلام لا بد أن نبدأ بتحديد المصطلحات التى يعمل على أساسها القانون الدولى بأوضح صورة ممكنة .

ان لفظ «أمة» له تاريخ طويل (١) . ففى العصور السابقة كان رئيس العشيرة الايرلندية يسمى « كابتن أمته » وكان من المألوف التحدث عن الأمم الهمجية (٢) . بيد أن هذه الكلمة ارتبطت بالتدريج بفكرة السلطان والسيادة ، فكانت الطبقات الحاكمة تسمى «أمة» وأخيرا صارت أمة تعنى

---

(١) ان لفظة Natio يعنى قبيلة أجنبية متخلفة ، أى ما نطلق عليه الآن لفظ Natives وهى من نفس المادة . ويستعمل فارو لفظ Natio للدلالة على سلالة من المواشى . وكانت الشعوب الكبرى المتمدينة تسمى Gens وكان الشعب الرومانى باعتباره صاحب السيادة يسمى نفسه Populus وفى الانجيل اللاتينى يعنى لفظ Natio و Gens أهل الذمة فى حين أن الشعب المختار هو Populus وفى اللغة الانجليزية فى العصور الوسطى كان يطلق على الشعب الانجليزى عادة Gens Anglorum ، ويبـدو أمرا غير مألوف عندما يتحدث ماتيوس باريس عن الانجليزية بوصفهم أمة بروح وطنية . ويتحدث روجر أوف وندوفر عن الاسكتلنديين وأهل ويلز باعتبارهم أمتين من البرابرة ، ويصف جنود الامبراطور فردريك الأول بأنهم Nationum ويستعمل براكتون لفظ Gens للدلالة على شعب عظيم فى حين يتحدث عن Tribus و Nationes باعتبارها خاضعة لحكم الحامين . أما فى الالمانية فقارن مثلا بين البرتوس ماجنوس ، تيوتونيكوس Natione ، وفى الجامعات كان الطلبة مقسمين الى Nationes تؤلف اتحادات مستقلة ذاتيا . ولم تكن هذه التقسيمات مقابلة للامم الحالية . فقد كانت Natio أقرب الى اقليم قبلى داخل الحدود الحالية للامم تتميز بوحدة اللغة والعادات ... الخ وفى القرون الاولى بعد العصور الوسطى كان لفظ Nation يستعمل فى ألمانيا وفرنسا للدلالة على الطبقات العليا الحاكمة فى معارضة Volk أو Peuple اللذين يقابلان بالانجليزية Populace أو Common People

(٢) يوجد هذا الاستعمال أيضا لدى الكتاب الحديثين أحيانا ، أنظر مثلا و . باجهوت « الطبيعة والسياسة » سنة ١٨٧٢ ص ١٠٠ و ١٠٦ وكذلك و هـ . ويفرز « التنظيم الاجتماعى » سنة ١٩٢٤ ص ٣٢ .

شعبا حرا يحكم نفسه (١) • وكانت أحيانا تستخدم أيضا بمعنى شعب عظيم على درجة كبيرة من المدنية أو القوة . وكان مازينى يفهم الأمة على أنها شعب ذو رسالةوتحدث عن ارتقاء الشعب الى مكانة الأمة وعظمتها.

وهناك عرف منتشر جدا بين الأمة والشعب الذى يؤلف دولة ، ومن وجهة النظر هذه كل دولة تؤلف أمة وكل مواطن عضو فى أمة • وهذا التعبير طبعا تعبير قانونى بحت ، وهو مثل كثير من التعبيرات الخاصة بالمساواة القانونية يتجاهل عدم المساواة الواقعية • وكثير من الدول كانت تتألف ، أو هى تتألف الآن ، من أمم أو جنسيات مختلفة • فالاسكتلنديون وأهل ويلز يعتبرون أنفسهم أمتين ، برغم أنهم يعيشون فى دولة مشتركة مع الانجليز ، وفى الامبراطورية النمساوية الهنغارية السابقة كانت هناك اثنتاعشرة جنسية مختلفةتعيش معا . ولم يكن الولاء للامبراطورية والدول والبلاد التى تتألف منها والمشاعر الوطنية معدومة ، ولكن ما كان أحد ليتحدث عن الأمة النمساوية الهنغارية أو الأمة النمساوية • وفى بعض الحالات كانت كلمة «أمة» تستخدم بمعنى شعب دولة متجانسة أو الشعب الحاكم ، فى حين كانت «جنسية» تعنى أقلية قومية . بيد أنه من المهم ان ندرك أن الجنسية القانونية والجنسية الاجتماعية تنطويان على أفكار مختلفة تماما • فالفرد قد ينتمى قانونا الى أمة يكرهها كرها عنيفا أو قد لا يعتبر نفسه منها حقيقة • ويحدث هذا بصفة خاصة فى الدول التى يكون فيها لقطاع من الشعب مركز مسيطر فى حين يكون الباقون «مضطهدين» بدرجة تزيد أو تنقص . بيد أن القوة المحركة فى التاريخ الحديث ليس هو المفهوم القانونى للجنسية ، بل القوة الاجتماعية للوعى القومى •

ومعظم تعريفات الأمة تقتصر على المعايير التى تميزها عن الأمم الأخرى مثل اللغة أو المدنية أو الدين أو الجنس أو الحقوق التاريخية أو الحدود الطبيعية أو المصالح الاقتصادية . والحق الذى تدعيه الأمة عادة فى اقليم بذاته يقوم كقاعدة على عدة حجج • فكثيرا ما يحدث مثلا أن يتفق معيار اللغة والمدنية والدين فى اقليم معين • ولكن ليس بينها

---

(١) عندما أعيد البرلمان الايرلندى فى سنة ١٧٨٢ كتب جراتان « انى أحدث الآن شعبا حرا — ان ارلندا الآن صارت أمة » وانظر مثلا أليس سانت جرين « الجنسية الارلندية » ص ٢٠٨ . وفى سنة ١٧٥٧ قال شستر فيلد : « لقد أخفقنا فى الداخل والخارج فالفرنسيون أسياد الموقف فى أمريكا يفعلون ما يشاءون • اننا لم نعد أمة » . والاشارة الاخيرة تعنى أن الهيبة هى المعيار الاساسى للامة .

ما هو ضرورى ضرورة مطلقة لتأليف الامة · فالامة قد تتحدث عدة لغات أو تتألف من عدة أديان ، كما قد يوجد نفس الدين أو اللغة فى أكثر من أمة . وفى حالات كثيرة عندما تكون هناك عدة أمم تتصارع من أجل الحصول على اقليم تقيم كل منها دعواها على معيار مختلف من معايير الجنسية ، فاحداها مثلا تقيم دعواها على اللغة وأخرى على المدنية أو الحقوق التاريخية أو الأمن ، وهكذا · وأحيانا يتقدم دعاة أمة بذاتها بمعايير متعارضة فيؤكدون مثلا حجة الحقوق التاريخية فى حالة من الحالات وفى حالة أخرى ينبذونها عندما تكون فى صف دعوى أمة أخرى .

وفى معارضة هذه المعايير الموضوعية كثيرا ما يعتمد على واقعة شخصية ، هى رغبة الشعب الذى يتعلق به الأمر ، باعتبارها المعيار الحاسم ، ويعتبر الاستفتاء أفضل طريقة للتأكد من هذه الرغبة · ولكن نتيجة الاستفتاء تتوقف الى حد كبير على الطريقة التى توضع بها حدود الاقليم الذى يتم فيه الاستفتاء ·

ويعترف القانون الدولى للأمم وحدها بأنها تملك بعض الحقوق المعينة ، وبصفة خاصة لا يتاح حق تقرير المصير الا للأمم · فالقبائل البدائية أو قطاعات الأمم لا حق لها فى المطالبة به · وليس من حق أى شعب أن يكون عضوا فى « عصبة الأمم » ، بل الشعوب المعترف بها كأمم «فقط» ، ويتوقف هذا الاعتراف على الموافقة المشروطة لأغلبية الجمعية العمومية · وتبين هذه الأمثلة على أن موضوع تعريف الأمة يكون أيضا مشكلة فى المركز الدولى .

ومن الواضح أن تكوين فكرة صحيحة عن الأمة لابد أن يدخل فى الاعتبار جوانبها المتعددة . والعامل الأساسى هو الوعى القومى . فبدون قدر كاف من هذا الوعى لاتوجد الأمة ، ولكن كثيرا مايكون من الصعوبة بمكان كبير التأكد مما اذا كان شعب بذاته لديه هذا القدر · وهناك جوانب أخرى تتصل بالتركيب الداخلى والحدود الخارجية والوضع الدولى . بالاضافة الى أن هذه الجوانب تعتمد بعضها على بعض الى حد ما . والتطلعات القومية الأساسية الأربعة تقابل النظريات الأربع فى التركيب القومى ، ولهذه النظريات مايقابلها فى ميدان الحدود الخارجية والعلاقات الدولية .

٣ ـ جوانب الجنسية وأساليب دراستها

ان دراسة الجنسية يجب أن تبدأ بالاتفاق على مصطلحات واضحة · فاذا لم نستطع دائما أن نستخدم كلمة مستقلة الدلالة على فكرة بذاتها

لابد أن يكون واضحا من المضمون على الاقل المعنى الذى يستخدم به اللفظ • والظواهر التى سندرسها بعضها موضوعى أو وقائع خارجية مثل اللغة القومية والاقليم والدولة والمدنية والتاريخ ، وبعضها ذاتى أو وقائع داخلية مثل الوعى القومى أو الشعور القومى • ويمكن التأكد من الوقائع الخارجية بدقة أكثر من الوقائع الداخلية ، فالانسان يستطيع استكشاف نمو اللغة القومية أو الانظمة القومية أو الدولة القومية وقواعدها بدقة كبيرة وبدون استجواب أعضاء الأمة التى يتعلق بها الأمر والتى قد تكون منقرضة مثل الرومانيين أو الاغريق القدامى • بيد ان الوعى القومى أو الشعور القومى شىء مراوغ تماما • ويمكن دراسة تعبيراته فى الكتابات السياسة أو الأحاديث العامة أو الأنظمة القومية ، ولكن تفسير مثل هذه الوثائق أو الأشياء فيما يتصل بما تنطوى عليه من روح القومية أمر غير مضمون دائما الى حد يزيد أو ينقص • واستجواب عدد كبير من الافراد المنتمين الى الأمة التى يتعلق بها الأمر فيما يتصل بمشاعرهم أو أفكارهم القومية عسير جدا ونتائجه غير مرضية (١) • ومن السهل التأكد من الجنسية القانونية والجنسية الثقافية لشعب ما ومركزه طبقا لما يجرى عليه العمل دوليا . ولكن الجنسية السياسية أمر معقد جدا حيث أنه يتوقف على درجة كافية من الوعى القومى لايمكن ملاحظتها وقياسها بأساليب دقيقة .

ووضع مصطلحات مناسبة يتطلب تحليلا للوعى القومى الذى يقوم على تركيب سيكلوجى معقد وتظهر فيه تنوعات تاريخية واجتماعية كثيرة • ومن ثم يجب ألا نقتصر فى تحليلنا على ظواهر وقتنا أو بلدنا ، بل يجب أن نوسعه ليشمل عصورا وشعوبا كثيرة • كما ينبغى ألا نعتمد أكثر مما ينبغى على بديهتنا السيكلوجية ونحاول تفسير عمليات معقدة

---

(١) فى الدول المؤلفة من عدة جنسيات يعتبر تحديد اعدادها مشكلة احصائية صعبة ، فالسؤال : الى أى الجنسيات تنتمى ؟ غير مجدى لأن كثيرا من الناس اما يفهمون الجنسية بمعنى المواطنة ، أو لايستطيعون الاجابة عنه لانهم بين أمتين (مثل الاشخاص الذين من أصل مختلط ويتحدثون اللغتين ولايفضلون جنسية على أخرى) ومن ثم كان السؤال الذى وجه فى الامبراطورية النمساوية الهنغارية هو : ماهى اللغة التى يستعملها الشخص فى حديثه اليومى • ولكن هذا الحل كثيرا ماوجه اليه النقد على أساس أن الذين كانوا يقومون بجمع البيانات الاحصائية أساءوا استغلال مراكزهم أحيانا لمصلحة جنسيتهم بتغيير البيانات . ومع ذلك فان هذا الحل كان فى الغالب أفضل حل ممكن . وقد ثبتت صحة الاحصاءات النمساوية فيما بعد بواسطة الاحصاءات التى أجرتها الدول التى انقسمت اليها الامبراطورية .

بواسطة مصطلحات سهلة عن الغرائز المتأصلة ، أو ننغمس فى حلول وهمية طبقا لنظريات دارجة تدعي الوصل الى مفتاح أسرار العقل البشرى ، فى بعض الصيغ القليلة • ومما يضلل أيضا الالتجاء الى التعميمات الاجتماعية قبل القيام بدراسة وافية دقيقة فى ميدان تاريخي واسع • بيد أن الدراسة التاريخية للجنسية محوطة بمصاعب فريدة • اذ لما كانت المصطلحات مثل الأمة والجنسية والشعور القومى تقبل تفسيرات مختلفة فان الطريق الذى ينبغى أن يتجه فيه المؤرخ ليس واضحا دائما • وكقاعدة عامة اختار كل مؤرخ تلك الوقائع التى لها صلة بالموضوع وتتفق أكثر من غيرها مع فكرته الخاصة عن الجنسية • والنتيجة أن تتكون صورة من جانب واحد كثيرا ما تختفى وراءها ايديولوجية سياسية •

فالمؤرخون التحرريون الذين تصوروا الأمة على أنها شعب مستقل ذو سيادة والقومية على أنها أساسا العمل من أجل الحرية السياسية ، حاولوا حل المشكلة بوصف ظهور الحرية فى الأمم وتحررها من السيطرة الأجنبية • وصحيح أن هذا الكفاح ذو أهمية قصوى بالنسبة لنمو الجنسية • ولكن مع ذلك فهو ليس سوى جانب واحد من جوانب المشكلة• فنحن نواجه اليوم صورة من القومية تنكر كل حرية لشعبها نفسه وللشعوب الأخرى على السواء ، وطبقا للمفهوم التحررى قد يبدو أن الشعب يفقد صفة الأمة فى ظل الدكتاتورية الشمولية . ورأى كتاب آخرون السمة الأساسية فى الأمة فى الوحدة الراسخة على نطاق واسع تضم بصفة خاصة كل الشعوب التى تتحدث نفس اللغة • ومن ثم فهم ينكرون أن الشعوب الصغيرة ، أو الشعوب التى تتحدث نفس اللغة ولكن تعيش فى دول متفرقة مثل « الدول ـ المدن » الاغريقية ، يمكن أن تسمى أمما • ومن وجهة النظر هذه على المؤرخ أن يتتبع السلطة المركزية القوية واندماج الدول الصغيرة فى دول كبرى • فالمدرسة البروسية فى التاريخ تجنح الى اعطاء فكرة أنه لاتكاد توجد جنسية ألمانية قبل أن يخلق ملوك هو هنز وللرن « الوحدة القومية » عن طريق دولتهم العسكرية القائمة على القوة ويفرضها بسمارك على ألمانيا كلها • ففردريك « الأكبر » وكثير من الأمراء الذين بذلوا قصارى جهودهم فى تدمير وحدة الامبراطورية القديمة ، وقوتها ، والذين سمحوا لقطاعات كبيرة من الشعب الألمانى بأن تقع تحت السيطرة الأجنبية للحصول على التأييد الأجنبى لهم فى توسعهم يبدون لهؤلاء المؤرخين أبطالا قوميين•ولكن كثيرا من المؤرخين الديموقراطيين أيضا اعتبروا الوحدة أهم هدف للتطلعات القومية واعتقدوا أن المركزية

الأقليمية كانت ضرورية للتوحيد الاجتماعى • وهذا هو السبب الذى ألغت من أجله الثورة الفرنسية التقسيم التاريخى لفرنسا الى مقاطعات •

واعتبر الرومانسيون والتقليديون الطابع القومى الأصيل المتميز أهم عنصر فى القومية واعتقدوا أن أنظمة العصور الوسطى والعادات الشعبية والتقاليد القديمة تنطوى على حكمة الأجداد وتعبر عن الروح الحقيقية للشعب • وقد أوحى هذا المفهوم للجنسية لكثير من الكتاب ، من بينهم علماء بارزون ، بتفسير تاريخ مدنية أمتهم على ضوء فكرتهم عن الطابع القومى • فحاولوا اثبات أن تاريخ الشعب كله كانت تحركه نفس القوى الروحية • ولم تستطع معظم هذه الكتابات ان تصمد امام النقد التاريخى وفقد مفهوم الطابع القومى كله قيمته بسبب هذه الأوهام الرومانسية • ورأى كتاب آخرون أيضا أن السمة الأساسية فى القومية هى الكرامة والشرف والقوة القومية والعداء نحو الأمم الأخرى • بيد أن معظم المؤرخين لم يتبعوا طريقا واضحا فى تناول الجنسية • وكقاعدة عامة تعرضوا لها بشكل عابر مستخدمين أمثلة رمزية كثيرا ما كان مغزاها موضع شك • ولم يتبع بعض الكتاب الآخرون نمو الوعى القومى وانتشاره فى عقول الناس بل أفكار الفلاسفة والكتاب السياسيين عما ينبغى أن تكون عليه الأمة ومثلها العليا وطابعها •

وقبل أن يبدأ المؤرخ فى وصف نمو الجنسية يجب أن تكون لديه فكرة شاملة عن تركيبها • والقيام بمثل هذا التحليل مهمة عالم النفس الاجتماعى ، الذى ينبغى أيضا أن يدخل فى اعتباره التجربة التاريخية الى حد ما • ويؤدى ذلك الى دائرة مفرغة لا سبيل الى تجنبها الا بوضع نظرية افتراضية مؤقتة للعمل بمقتضاها يجب أن يختبرها بعد ذلك بالبحث التاريخى وتعديلها فى ضوئه •

ودراسة الشعور القومى والتطلعات القومية لا يمكن فصلها عن دراسة المشاعر والتطلعات التى تتصل «بأكثر من دولة» (١) أو «الدولية» • فنحن نجد هذين الخيطين من التفكير ممتزجين ومتداخلين لدى كل كبار المفكرين ورجال السياسة الذين فكروا فى هذه المشاكل • واذا أخذ أحدهما « فقط » فى الاعتبار فان الصورة تأتى ممثلة لجانب واحدة ومضللة •

---

(١) نحن نفضل تعبير « أكثر من أمة » «Supra National» على تعبير « دولى » International الذى قد يكون أكثر شيوعا ولكن له معنى مختلف ، وكذلك على تعبير Super National الذى يمكن الخطأ فى فهمه على أنه ينبى عن التغالى فى القومية

٤ ـ التعريفات المقترحة للأمة وعدم كفايتها

ان معظم الكتاب الذين حاولوا تعريف مفهوم الأمة ذكروا عواملا موضوعية على أنها المعيـــار الحاسم ، مثل العوامل التى لا تخضع لارادة الأفراد . وأوضح المعايير وأكثرها ترددا هو اللغة . وأكد آخرون أهميـة الجنس أو الدين أو المدنية أو الاقليم أو المواطنة فى دولة . بيد أن كل التعريفات التى تعتمد على واحد أو أكثر هذه المعـــايير غير كافية . فليس بينها ما ينطبق على جميع حالات الأمم المعترف بها ، كما لا يفسر أى منهـا التطلعات النموذجية التى نطلق عليها التطلعات القومية . فضلا على أن كل هذه النظريات الموضوعية كثيرا ما استخدمها الدعاة القوميون لتبرير ضم شعوب بلا استشارتها .

وقد دفع هذا النقص الواضح فى جميع النظريات الموضوعية كثيرا من المنظرين السياسيين الى تعريف الجنسية بأنها مجتمع تكون بواسطة ارادة تكوين أمة . وتقابل وجهة النظر الذاتية هذه كفاح التحرريين فى سبيل الحرية والمفهوم الديموقراطى عن ارادة الشعب كما تعبر عنها الأغلبية فقد رأى جون ستيوارت ميل سنة ١٨٦١ وغيره جوهر الجنسية فى التعاطف المتبادل بين أبنائها ورغبتهم فى الاتحاد فى ظل حكومة خاصة بهم ، تعاطف ورغبة نجما عن طريق المشاركة فى التاريخ والسياسة وعن طريق مشاعر الفخر والحزن والفرح والألم المتصلة بتجـــارب الماضى (١) . وقد أفاض ارنست رينان أيضا فى نفس الفكرة فى محاضرة مشهورة له فى ١٨٨٢(٢)، فقال ان الجنس والدين واللغة والدولة والمدينة والمصالح الاقتصادية ليست هى ما يصنع الأمة . ان الفكرة القومية تقوم على ماض مجيد ورجال عظماء ومجد حقيقى . والتجارب المشتركة تؤدى الى تكوين الارادة المشتركة . والآلام المشـــتركة ، أكـثر من أى شيء آخر هى التى تربط الأمة بعضهـا ببعض ـ أكثر حتى من الانتصارات . ومن ثم فان الأمة تضامن كبير يقوم على الوعى بالتضحيات التى بذلت فى الماضى وعلى الاستعداد لبذل تضحيات جديدة فى المستقبل . ووجود الأمة يمثل استفتاء يتكرر كل يوم . ويتفق رأى رينان مع مبدأ تقرير المصير الذى أعلنته الثورة الفرنسية بالاضافة الى أنه كان الحجة الحاسمة للأمة الفرنسية فى المطالبة باعادة الالزاس واللورين الى فرنسا . ولهذا السبب بالذات نبذه المتحدثون باسم ألمانيا المنتصرة فى ازدراء .

---

(١) ج . س . ميل « آراء فى الحكم النيابى » ١٨٦١ ص ٢٨٧

(٢) أرنست رينان « ما هى الامة » ١٨٨٢ .

والتعريف الذاتي للأمة سليم فى جوهره غير أنه يحتاج الى صياغة بعناية • فالتطلعات القومية ليست دائما سعي فى سبيل الوحدة فى ظل حكم قومي ، كما أنها ليست مقتصرة على هذا السعي وحدة ولا هى تنطوى باستمرار على تمجيد التقاليد . فالاسكتلنديون والارلنديون مثلا يدعون أنهم أمتان ، مع أنهم لا يهدفون الى اقامة حكومتين قوميتين مستقلتين . والجمهوريات السوفيتية والأتراك فى العصر الحاضر نبذوا تقاليد ماضيهم الأساسية . واذا كان ميل يرى طبيعة الجنسية اساسا فى التعاطف المتبادل بين ابنائها ، فانه يغالى فى تقدير أهمية أحد عناصرها . وصحيح أن الشعب الذى يشترك فى اللغة والدين والتربية واللون .. الخ يكون أيسر عليه أن ينمى تعاطفا متبادلا بين أفراده . ولكن القوة الدافعة فى الحركة ليس التعاطف مع أعضاء الامة فرادى بقدر ما هى الاخلاص لنفس الأهداف • ان أشهر الوطنيين فى عصرنا ، أدولف هتلر ، لا يخفى فى كتابه « كفاحى » ازدراءه العميق لجماهير شعبه • وقد أعقب استيلاءه على السلطة حملة وحشية من الارهاب والتخويف ضد جميع الألمان الذين لا يقبلون سياسة النازى ، وكانوا فى ذلك بلا شك أغلبية الشعب الألمانى . وقد يكون هدف القوميين توحيد الشعب كله برباط من الحب الأخوى ، ولكن مما لا ريب فيه ان أساليبهم كثيرا ما تكون مثل تلك التى يصفها بيت الشعر الألمانى : « اذا لم تصر أخا لى نسأحطم رأسك بيدى » ومع ذلك فان الأمم الحديثة تكونت فى الحقيقة بهذا الأسلوب الى حد كبير .

واذا كانت النظرية الذاتية تؤكد ارادة تكوين الأمة فانها عادة ليست واضحة بدرجة كافية فيما يتعلق بمعنى ارادة ومعنى أمة . وكثيرا ما تتصور الارادة بطريقة « عقلانية » أكثر مما ينبغى • فهى ليست ارادة صريحة معلنة تعيش فعلا بين شعب بأكمله بقدر ما هى مجموعة من المشاعر والأفكار المبهمة تسود بين جزء كبير ذى نفوذ من الشعب وتجنح الى التبلور فى ظروف معينة • بالاضافة الى أنه فى تاريخ النمو القومى كانت هذه الارادة فى أول الأمر ارادة أقلية « فقط » نجحت مع الوقت فى الحصول على قبول الاغلبية بدرجة تزيد أو تنقص . وفى الأمم الراسخة الوحدة يعرف كل شخص الأمة التى ينتمى اليها . أما اذا لم يكن الشعب قد بلغ هذه المرحلة بعد ، او اذا دمرت الأحداث التاريخية ولاء قديما فلا توجد ارادة قومية تلقائية بل مجرد خليط من التطلعات المتضاربة • فضلا على أن النظرية الذاتية تحتاج الى مايكملها بادخال العوامل الموضوعية التى يعد عامل الاقليم من بينها على الأقل

ضروريا • فالمجتمع بدون اقليم لا يكون أمة كاملة حتى اذا كان يملك الوحدة والتضامن والتعاطف المشترك والرغبة فى العيش تحت حكم خاص به • فالكنائس والأحزاب تتسم بهذه السمات أيضا • بل ان هناك مجتمعات لها اقليم ولكنها ليست أمما مثل المدن والمقاطعات .

ان النظرية الذاتية ينبغى ألا تتسع أكثر مما ينبغى بحيث تلغى العوامل الموضوعية . فمجرد الارادة لا تصنع الأمة وحدها . فلا يمكن تأسيس أمة مثل شركة أو ناد • انها مجتمع اتحدث مصائره وجمعته الى حد كبير وصاغته الأحداث التاريخية والعوامل الطبيعية ، وفرصة الفرد عمليا فى اختيار جنسيته أو تغيير سماتها الأساسية ضئيلة جدا • ان المهاجر قد يتنازل قانونا عن مواطنة بلده الأصلى ويكتسب بعد مضى بعض الوقت مواطنة البلد الذى أقام فيه • ولكن ذلك لا يكفى لأن يصير عضوا حقيقيا فى الأمة الجديدة • فهو يجب أيضا أن يهضم وجهة نظرها الاجتماعية وتقاليدها القومية ، وحتى اذا نجح ، هو أو أولاده ، فى هذه المهمة فانه ليس من المؤكد انهم سيقبلون كأبناء حقيقيين للأمة بواسطة المجتمع القومى (١) • ان اليهود عاشوا فى ألمانيا منذ أمد طويل جدا — فى بعض الأجزاء منذ ألف العام أو ربما منذ ألفى عام ، وقد اسهموا بنصيب ضخم فى المدنية الالمانية ، ومعظمهم تماثل تماما • ومع ذلك فان نظام النازى الحالى وصمهم بأنهم أجانب وعاملهم كمنبوذين .

ان أول ما يتطلبه الأمر كنقطة بداية للدراسة هو تكوين فكرة واضحة عن روح الجنسية . ولا يساعدنا كثيرا أن نسمع ان هذه الروح متأصلة فى الأمة وتمتد جذورها فى تقاليدها ، وان الجنسية تتألف من ارادة تكوين الأمة • فذلك لا يفسر لنا الطبيعة الخاصة بالمجتمع الذى يسمى أمة أكثر مما يفسر مجتمع الكنيسة بالارادة فى الانتماء اليها .

---

(١) ان مشاكل «المماثلة» Assimilation ومنح الاجانب حقوق المواطنة تتطلب دراسة مقارنة بعناية تخرج عن نطاق هذا الكتاب . أنظر مثلا مجموعة « قوانين الجنسية» فى مختلف البلاد التى جمعها د . فلورنوى ومانلى هدسون (من منشورات مؤسسة كارينجى للسلام العالمى) ١٩٢٩ . وقد نشرت هذه المؤسسة أيضا دراسات الأمركة حررها آلن بيرنز (١٠ مجلدات من ١٩٢٠ الى ١٩٢٤) • وقد حدث قدر كبير من الهجرة أثناء هذه الحرب وسيعقبها هجرات أخرى • وسيظل جزء من المهاجرين فى الغالب فى بلادهم الجديدة وستصير مشكلة منح حقوق المواطنة والتكامل القومى ذات أهمية قصوى .

وقد جرت مؤخرا محاولة لتحديد روح الجنسية بواسطة آرنولد توينبى (١) . فهو يعرفها بأنها « روح تجعل الناس يشعرون ويتصرفون ويفكرون حيال جزء من أى مجتمع بذاته كما لو كان هو المجتمع كله». وهذا التعريف ينطوى على قدر عظيم من الحقيقة ، ولكنه يبدو مبهما الى حد ما . فالانسان يستطيع أن يشعر ويتصرف ويفكر حيال المجتمع بطرق عديدة مختلفة ، بعضها لاصلة له بالجنسية ، بل قد يكون متعارضا معها . بالاضافة الى أنه يمكن ان تكون هناك وجهات نظر متعددة فيما يؤلف الجزء والكل . فبعض الناس سيفكرون فى الجنس البشرى ككل ، وآخرون قد يعتبرون جنسا ما أو أمة أو مدنية أو مجتمعا دينيا أو طبقة هى الكل . واذا قبلنا مدنية ما ككل (وهى وجهة نظر توينبى) يظل أمامنا سؤال آخر ، هو : كيف نعرف هذا المصطلح ونحدده ؟ هل جميع الأمم المتمدينة فى الوقت الحاضر تنتمى أساسا الى نفس المدنية ، أو أن هناك مثلا مدنية انجليزية متميزة ومدنية فرنسية ويابانية ومدنية أمريكا الشمالية ؟ وهل ينتمى « النظام الجديد » الذى جاء به هتلر الى نفس المدنية التى تعبر عنها المثل العليا التى يقاتل من أجلها الانجليز ؟

ويقول عالم النفس المشهور الاستاذ وليم مكدوجال انه يكاد يكون من غير الممكن وضع تعريف ينطبق على جميع الأمم (٢) . ومن ثم فهو يفضل ان يصف النموذج الأمثل للأمة التى تجمع كل سمات الأمة بدرجة كبيرة ، ثم يصنف كل أمة طبقا لقربها من هذا النموذج .

ولا حاجة بنا الى الدخول فى مناقشة حول السمات الذاتية والموضوعية التى يصفها . ففكرته هى أن الجنسية تركيب معقد ومسألة درجة ، وهى فكرة صحيحة بلا شك . وقد أثبت ماكس ويبر أن أسلوب وضع نموذج أمثل هو طريقة لبحث التركيبات الاجتماعية المعقدة أفضل من طريقة وضع التعريفات المألوفة (٣) . بيد أن محاولة مكدوجال تتطلب تحديدا . اذ لا التعريف غير التاريخى المجرد ولا النموذج الأمثل للأمة المؤلف من تجميع السمات الملاحظة فى الأمم المختلفة يؤدى الى فهم سيكلوجى أعمق لديناميكية القومية .

(١) أ . توينبى « دراسة فى التاريخ » المجلد السادس ص ٤٠٧ وهذا المؤلف العظيم يسهم بنصيب كبير فى دراسة القومية ، وان كان توينبى نادرا ما يستخدم هذا اللفظ ويفضل أن يطلق عليه « المحلية » .

(٢) انظر مثلا و . مكدوجال « الامة الامريكية : مشاكلها وسيكولوجيتها » ١٩٢٥ ص ٤

(٣) أنظر مثلا ماكس ويبر « التواطن والتآلف ١٠٢٢ ص ٣ ١٠

فليس هناك تعريف جامد يستطيع تفسير وقائع ديناميكية تاريخية مجسمة مثل الشعور القومى والطابع القومى أو القومية . ومن ثم فانه يبدو لنا أكثر جدوى أن نبدأ بوصف العامل الديناميكى فى الوعى القومى كما يلاحظ فى الأمم الحديثة النموذجية ثم نعرف الأمة بأنها شعب لديه الوعى القومى ، الذى يعد هو أيضا مسألة درجة طبعا .

٥ ـ تحليل الوعى القومى

(أ) مشكلة العقل الجماعى

أن الوعى القومى نوع معين من وعى الجماعة أو تضامن الجماعة يؤلف رابطة بين أعضاء الجماعة فيما يتصل بالسعى لتحقيق أهداف معينة ، وهو ذو تركيب معقد جدا ويضم اتجاهات ومتنوعات عديدة ، ويمتد من حالة عقلية لاشعورية كامنة الى ايديولوجية واضحة محدودة . وهو يختلف اختلافا كبيرا بين الأمم وبين الافراد ، وتعريف أن الأمم تملكه لايعنى أن جميع الأفراد المنتمين الى أمة لديهم هذا الوعى بدرجة كبيرة ، أو حتى لديهم أصلا .

وعلم نفس الجماعة مشكلة موضع جدل كبير . فرجال علم الاجتماع وعلم النفس وضعوا نظريات كثيرة عن العلاقات بين العملية الفردية والجماعية (١) .

ولسنا فى حاجة الى مناقشة المسائل العامة هنا حيث أن ذلك سيبعدنا أكثر مما ينبغى عن غرضنا المباشر . ولكن من الواضح ان الغرائز أو شبه الغرائز (٢) تلعب دورا كبيرا فى تكوين الجماعات الاجتماعية وتحريكها ، وان كان ذلك فى صورة «مزائج» مركبة . ويفترض

---

(١) أنظر مثلا م . جينسبرج « سيكلوجية المجتمع » ١٩٣٣ ، وليم مكدوجال « عقل الجماعة » ١٩٢٠ ، ف جيدنجر « مبادىء على الاجتماع » (نشر لأول مرة ١٨٩٦) ، ل . جيك « علم النفسى الجماعى » ١٩٢٨ و « علم النفس الجماعى فى المانيا » ١٩٢١ (وهو عرض مفيد جدا لعدة نظريات) ، ج تارد « قوانين المحاكاة » ١٨٩٠ ، و « القوانين الاجتماعية » ١٨٩٨ ، وباجهوت « علم الطبيعة والسياسة » ١٨٧٢ ، و . توتر « غريزة القطيع فى السلام والحرب » الطبعة ١٢ سنة ١٩٤٠ .

(٢) ان تعبير غريزة لايستعمل هنابمعنى محدد تماما . بل انه من المشكوك فيه أن الحيوانات العليا تحركها غرائز حقيقية . أنظر مثلا يوهان ليزر « سلوك الحيوانات» ١٩٤٠ .

بعض الكتاب ، مثل جيد ينجز ومكدوجال وتوتر ، أن وعى الجماعة أو الانتماء الى القطيع هو نفسه غريزة . وكثير من رجال علم النفس أضفوا طابعا غريزيا بدرجة تزيد أو تنقص على أنماط معينة من السلوك ذات أهمية قصوى فى تأليف الجماعات ، مثل نزعة محاكاة تصرفات الجماهير والقابلية للايحاء والتعاطف وروح العدوان وتأكيد الذات وخضوع الذات . وقد ظهر قدر ضخم من الكتابات عن سيكلوجية الجماهير ، أى سلوك الأفراد تحت تأثير الجمهرة التى ينتمون اليها (١). ومن المتفق عليه الى حد كبير أن الجماعات غير المنظمة ، وبدرجة أقل حتى الجماعات المنظمة ، تزداد قابليتها للايحاء ويزداد انفعالها واندفاعها ويقل تعلقها واحساسها بالمسئولية وضبط النفس . والامة طبعا ليست تجمعا عرضيا مثل ذلك الذى يتجمع فى ميدان ما ويستمع الى خطيب . بل هى مجتمع منظم الى درجة كبيرة وذات امتداد كبير مكانا وزمانا . ومع ذلك فان نجاح هتلر فى الاستيلاء على السلطة يثبت أنه حتى الأمم الكبرى المتمدينة يمكن أن تنحدر الى مجموعة من الدهماء بالاستخدام الماهر لجميع وسائل الدعاية الفنية لاثارة غرائزها الكامنه (٢) .

وكثيرا ما يعتبر دعاة القومية الشعور القومى غريزة طبيعية لاتتطلب تفسيرا أو تبريرا ، وينظرون الى الأشخاص الذين ينقصهم هذا الشعور ، أو بالأحرى من ينقصهم النوع الوطنى منه ، باعتبارهم مخلوقات منحرفة منحطة (٣) . ويفترض التحرريون احيانا فى تفاؤل أن طبيعة الشعور القومى الحقيقى مثل طبيعة مشاعرنا نحو عائلتنا ، الذى ينطوى بالتأكيد على عنصر غريزى كبير . ويعتقد فرويد أن شعور

---

(١) ان أشهر دعاة هذا المذهب ، وان لم يكن أولهم ، هو .ج. لوبون «سيكلوجية الجماهير» ١٨٩٢ ، وفيما يتعلق بالنقد الموجه ضدها أنظر مثلا جيك «علم النفس الاجتماعى فى ألمانيا» ص ٣٢ ،جينسبرج «سيكلوجية المجتمع» ص ١٢٨ ، و . بيلسبورى «سيكلوجية الجنسية والنزعة الدولية» ١٩١٩ ص ١٦٤ .

(٢) واضح أن نظريات لوبون وبعض الكتاب الآخرين فى علم النفس الجماعى جنحت الى الحط من قدر الحركات الديمقراطية ، ولاريب فى أنها أسهمت فى نمو الايديولوجية الهتلرية والفاشية . وأيا كان الامر فان كثيرا من سمات هذه النظم الشمولية أقرب مايمكن أن يكون شبها الى الاوصاف التى أوردها لوبون ، مثل تنويم الجماهير مغناطيسيا بواسطة الزعيم واخماد الذكاء بواسطة الانفعالات الجماهيرية .

(٣) وقد كتب عالم نفسى ألمانى معروف ، هو الاستاذ أ . يانخ ، كتابا ضخما فى تنمية هذه النظرية . وهو يستخدم أحدث أجهزة البحث السيكولوجى لاثبات أن كل من ليس نازيا يعتبر منحطا .

الجماعة بصفة عامة نتاج الطاقة الجنسية « الليبيدو » فهو غريزة الحب بمعنى واسع مركز فى الزعيم (١) • بيد أنه فيما يتعلق بالشعور القومى يعتقد كثير من الكتاب أن جذوره توجد أساسا فى السعى فى سبيل السيطرة والهيبة وفى نزعة العدوان (٢) •

والذى يجعل من المحتمل أن دوافع الجماعات البشرية انما تنحدر من غريزة الانتماء للقطيع أمثلة الحيوانات الكثيرة التى تعيش فى قطعان أو جماعات • والانتماء للقطيع لا يتضمن الوجود مع الآخرين فحسب بل كذلك استبعاد الدخلاء ، وهذا الاتجاه كثيرا ما يؤدى الى قتال دون أى دافع آخر سوى شعور الجماعة • فكثير من الحيوانات تعيش فى مجتمعات مقفلة (٣) والغريب الذى يدخل وسط الجماعة بطريقة ما ، حتى اذا كان من نفس النوع ، يهاجم ويعامل بخشونة أو يقتل ، واذا عاش القادم الجديد فقد يسمح له بعد مضى بعض الوقت بأن يدخل الجماعة • ولا يرجع هذا السلوك الى أى نفور عنصرى ناجم عن اختلاف النوع . فأحيانا فى مستعمرات النمل المختلطة مثلا قد تكون عدة أنواع مواطنة فى نفس الدولة وتضامن فى السراء والضراء ضد غير المواطنين • والحيوانات أيضا تعقد صداقات مع حيوانات أخرى من أنواع مختلفة تماما ومع الانسان • كما لايمكن تفسير العداء ضد الغرباء دائما على أنه منافسة على الطعام أو على أنه غيرة جنسية • ويوحى هذا السلوك أحيانا بالرغبة فى السيطرة والعدوان • وبعض الكلاب تعيش فى وفاق مع قطط وحيوانات أخرى فى نفس المنزل ولكنها تهاجم كل كلب يمر قرب المنزل فى حين أنها أقل من ذلك بكثير ميلا للقتال عندما تكون بعيدة عن المنزل •

ويبدو أن الحياة فى قطعان تزيد الميل الى العدوان • فكثيرا ما يكون لدى القطعان والجماعات شعور بامتلاك اقليم معين يجب عدم السماح للغرباء بتخطيه • وفى مدن الشرق لكل شارع وزقاق قطيع خاص به من الكلاب نصف البرية التى لاتغادره أبدا • واذا دخل أحد هذه الكلاب زقاقا غريبا تنقض الكلاب المقيمة فيه عليه وتمزقه اربا الا اذا أنقذ نفسه بالهرب السريع • ان الانسان يستطيع أن يرى فى هذا السلوك بدايات النزعة القومية • وفى بعض مجتمعات الحيوان يعتبر فرد منها زعيما

(١) أنظر سجموند فرويد « سيكولوجية الجماهير وتحليل الانا » ١٩٢٣
(٢) لقد عرضت هذه النظرية بصورة ممتازة بواسطة الاستاذ والتر سولزباخ فى مقال.
(٣) أنظر مثلا الاب الفرديز « الحياة الاجتماعية فى عالم الحيوان » ١٩٢٧ ص ١٠٠

ويتمتع بسلطة خاصة (١) • بل قد يوجد أحيانا نوع من التدرج أو نظام الأسبقية يمنح من لهم الأولوية امتيازات معينة (٢) • ويكون الأفراد أكثر نشاطا وحيوية وجرأة عندما يعملون مع أضرابهم ، ولكنهم يكونون أيضا عرضة للايحاء والاصابة بالذعر • وبعض الحيوانات تمرض وتموت عندما تفصل عن الجماعة . بيد أنه يكون من الخطأ أن نضع تعميما على أساس الفرائز العدوانية . فهناك أمثلة كثيرة على عدم المبالاة أو الصداقة أو المساعدة المتبادلة (٣) • وبالمثل يجب أن نفترض أن البدائيين من الناس ميالون الى القتال ومتوحشون عادة . فكثيرون منهم يبدون مسالمين نسبيا .

(ب) الجماعات البشرية التى تدفعها

التقاليد والمصالح والمثل العليا

برغم هذا التشابه بين سلوك الجماعات البشرية وسلوك جماعات الحيوانات يجب عدم المغالاة فى العامل الغريزى كدافع للجماعات البشرية • فحتى الحيوانات نفسها لا تحركها مجرد الغريزة • والجماعات البشرية تربطها وتحركها ثلاثة أنواع من الدوافع ، وهى التقاليد والمصالح والمثل العليا • والتقاليد انماط من السلوك تعتبر قيما لمجرد أنها تراث جماعى بصرف النظر عن أية فائدة لها أو أى جمال فيها أو أية سلطة علوية تحلها . فالأمة تتمسك بلغتها حتى اذا كانت تستفيد اقتصاديا وثقافيا أكبر باتخاذ لغة أخرى أكثر انتشارا وتفتح أمامها الطريق الى ميدان أدبى

---

(١) انى أتذكر انى قرأت مرة مقالا فى مجلة المانية خاصة بالحيوانات وهو بحث يصف فيه أحد العلماء بحماسه الاحساس العجيب بالزعامة والولاء اللذين لاحظهما بين بعض الحيوانات المعينة فى وسط آسيا . وكان المقال يبدو تكريما لزعيم الشعب الالمانى، وان كان فى الامر شىء من السخرية حيث أن الحيوانات التى يصفها كانت حميرا برية .

(٢) بين الفراخ يتمتع بعضها باحترام الاخريات لانها تبدى شيئا من الجنوح الى العدوان وتنقر الفراخ الاخرى بسهولة . وقد أثبتت التجارب أن ذلك يرجع الى أن نصيبهن من هرمونات الذكور أكثر . أنظر مثلا مورنوفوكس «شخصية الحيوانات» ١٩٤٠ ص ١٠٢ . وقد يكون من المفيد أن نعرف ماذا كان الميل الى العدوان لدى يرجع الى أسباب مماثلة ،وأيا كان الامر فلايبدو أن هتلر يتمتع بقدر كبير جدا من الهرمونات المذكورة .

(٣) أنظر مثلا بيتركروبوتكين « المساعدة المتبادلة ١٩٠٨ » (مترجم عن الروسية)

أوسع . والمصلحة هدف يعتبر مفيدا لوجود الجماعة ورفاهيتها ، مثل كل ما يؤدى الى سلامتها وصحتها وثرائها واستعدادها العقلى والبدنى . بيد أن ما يعتبر مصلحة قومية يتوقف الى حد كبير على الايديولوجية القومية التى تختلف باختلاف البلد والزمن . والمثل الأعلى هدف ليس مصلحة مباشرة للأفراد . ويعتبر أن له سلطة عليا ومن ثم له قوة الأمر المطاع والتضحية بالمصالح الفردية . وتؤلف التقاليد والمصالح والمثل العليا اطارا معقدا . فالتقاليد تربط الأمة بماضيها والمصالح بحاضرها والمثل العليا بمستقبلها . بيد أنها فى معظم الحالات ليست منفصلة تماما بعضها عن بعض بل تؤلف أجزاء من تركيب سيكلوجى . ففكرة الاقليم القومى مثلا تجمع العناصر الثلاثة . اذ يعتبر الاقليم تراث الماضى القومى ، وهو قاعدة لوجود حاضر الأمة بأكمله ، فى حين أن نموه يعد مثلا أعلى فى المستقبل .

والتقاليد والمصالح والمثل العليا السائدة فى أمة ما كثيرا ما تسمى الطابع القومى . وبعضها متصل بصورة مباشرة بفكرة الأمة ، ومنها تتكون الايديولوجية القومية والتطلعات القومية . وهى تختلف باختلاف المنطقة والطبقات الاجتماعية والأديان والأحزاب . وكل قطاع لديه تقاليده ومصالحه ومثله العليا الخاصة ، وان كانت هناك عناصر كثيرة مشتركة بينها جميعا . وكثيرا ما تكون الخصائص المحلية والاجتماعية والعقائدية داخل الأمة من القوة بحيث قد تهدد الوحدة القومية وتؤدى الى نمو انماط مختلفة من التشيعية . ولكن الايديولوجية القومية تعمل على تقليل الاختلافات بل وقد تستغل المصالح القطاعية فى اغراضها . فجماهير الشعب مثلا ليست لديها معرفة كبيرة بالتاريخ القومى والمدنية القومية(١) ولكنها تتمسك بلغتها ودينها وعاداتها وتقاليدها المحلية . ومن ثم فان الايديولوجية القومية تحاول من ناحية نشر تمجيد الابطال القوميين والفخر بالمنجزات القومية ، ومن ناحية أخرى تضفى مغزى على الوقائع المحلية والقطاعية مثل العادات القديمة والأغانى الشعبيةوالرقصات الوطنية.. الخ . ففى المانيا مثلا رفع الملك فردريك الثانى ملك بروسيا الى مركز فريد ، بأن أطلق عليه « فردريك الأكبر » ، بواسطة الدعاية المركزة . فمثل أمام غير البروسيين بأنه رائد الجنسيةالألمانية ، وأمام البروتستانت

---

(١) أجريت قبل الحرب الاخيرة بعض الاختبارات التربوية للمجندين فى الجيش الفرنسى والالمانى . ففى فرنسا سئلوا مثلا : من هى جان دارك ؟ وفى ألمانيا : من هو بسمارك ؟ وكان من لديهم فكرة قليلين جدا .

بأنه حامى البروتستانتية وأمام الكاثوليك والمفكرين الأحرار بأنه داعية التسامح ، وأمام المثقفين بأنه الملك الفيلسوف ، وأمام الجنود بأنه المحارب المثالى ، وأمام الشعب بأنه صديق الرجل العادى • وتتألف الأيديولوجية القومية من أساطير عديدة تروق كل قطاع من قطاعات الأمة بعقليته الخاصة • وأدواتها هى المدارس والأدب والفن والموسيقى والصحافة والاحتفالات والشعارات وما الى ذلك •

وكل أيديولوجية قومية استفادت فائدة كبرى من نوعين من الأساطير ، الخاصة بالأصل النبيل الذى انحدرت منه الأمة ، والخاصة برسالتها العظيمة (٢) • ومن المشكوك فيه أن يكون هناك شعب لم يدع انه جاء من أصل نبيل بصفة خاصة ، على الأقل فى مرحلة معينة من تطوره • وحتى الشعوب البدائية الى حد ما تعتقد ذلك ، فكثيرا ما تصف نفسها بأنها وحدها « الرجال » وتصف الشعوب الأخرى باسم فيه تحقير ، أو تنسب أصولها الى الآلهة أو الابطال شبه المقدسين • فالتيوتون القدامى يدعون أنهم انحدروا من « مانو » بن « تويسكو » الذى ولد من الارض • وكذلك الاثينيون كانوا فخورين بأن أصلهم خرج من الأرض الى حدان آنتسين قارنهم بالدود الذى يخرج من بطن الأرض • وكانت الطبقات الحاكمة فى العصور الوسطى تعتقد انها تنحدر من أبطال طروادة ، وكان الفرانك من سلالة « فرانسيون » الابن المزعوم لهكتور • والدور الذى تلعبه فكرة الجنس فى النزعة القومية الحديثة معروف • وفكرة الرسالة السامية التى عهد بها الى شعب مختار تؤلف عصب تاريخ الاسرائيليين كما هو وارد فى الانجيل ، ولكنهم لم يكونوا الشعب الوحيد الذى تعلم أنه صاحب رسالة سماوية • فجميع الأمم الكبرى ، بل وبعض الأمم الصغيرة ، اعتنقت فى وقت ما فكرة انها اختيرت بواسطة الله للقيام بمهمة خاصة •

---

(١) هناك أمثلة كثيرة عن أساطير الاصل النبيل والرسالة السامية للامم فى كتاب روبرت ميشلز « الوطنية » ١٩٢٩ •

(٢) أنظر مثلا فنسنت سانت لين « مجموعات الامثال ــ الخ » المجلد الاول ، د .ا. مارفين « غرائب الامثال » ١١٩٦ ص ، م • بلو
«Deutsches Land und Volk im Volksmund» ١٨٩٧
(وهو يتضمن أيضا أحكاما أخرى عديدة عن أمم أخرى) ، و و • واشتموث
«Geschichte der deutschen Nationalitat» 1860, I, p. 126.
ومند أن لاحظ بيكون أن
عبقرية الامة وروحها وذكائها يمكن أن تكشف فى أمثالها بذلت محاولات عديدة للسير فى هذا الطريق • بيدأن النتائج لم تكن مرضية • أنظر مثلا أ • تيلور « الامثال » ١٩٣١ ص ١٦٤ •

والصورة المقابله للمعتقدات التي تمجد أمة الشخص هي التحيزات القومية التي تجنح الى الحط من الأمم الأخرى • والتحـيزات القومية منتشرة على نطاق واسع ويصعب التخلص منهـا بحيث يغلب أن قليلين جدا من الناس لا يتأثرون بهـا • فاذا نظرنا خلال المجموعات الكبيرة من الأمثال والأقوال الشائعة نجد عددا لا يحصى من المعتقدات الغريبة عن الشـعوب الأخرى أو عن فئة معينة من نفس الشـعب ومعظمهـا تحيزات أو اتهامات تتعلق بصفات غريبة مزعومة • ومما يثير الاهتمام أن كثيرا من الأفكار الحالية عن سمات بعض الشعوب المعينة قديم جدا ، وتدعم هذه الافكار وهم « طابع الجنس » (١) • وهناك أفكار أخرى تغيرت مع مرور الوقت . وكثيرا ماأثارت الأحداث التاريخية آراء معينة عن شـعوب بذاتها ثم عممت هذه الآراء وصارت تقاليـد باقية • وتعمل التحيزات على تقوية الاعتزاز القومي وقد يكون لها أثر في التضـامن القومي • ويقول الاستاذ بيلزبورى أن التحيزات القوميـة في الولايات المتحدة من أكبر القوى التي ترغم الأجنبى على التماثل (٢) •

(ج) التطلعات القومية الأربعة

صورها وتناقضاتها

تتألف التطلعات القومية من أربعة عناصر هي :

١ ـ السعي للوحدة القومية ، التي تتضـمن الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية ، والمشاركة والتضامن •

---

(١) مما هو جدير تماما بالدراسة تتبع نمو الافكار التي يعتنقها شعب عن شعب آخر ، واستكشاف أصول التحيزات . وفيما يتصل بأفكار الاجانب عن انجلترا أنظر مثلا مالكولم لتس « كما كان الاجانب يروننا » ١٩٣٥ ، ادوارد سميث « الزوار الاجانب في انجلترا » ١٨٨٩ ، والسجل الببليوجرافى « وصف السائحين لبريطانيا العظمى ، في صحيفة المكتبة البريطانية للعلوم السياسية » نوفمبر ١٩٢١ ، جورج آسكوتى «بريطانيا أمام الرأى العام الفرنسى منذ حرب المائة عام الى نهاية القرن ١٦ » سنة ١٩٢٧ وآراء الانجليز في الالمان مجموعة في مؤلف ويلى رادتزون «Das Englische Urteil uber die Deutschen bis » وآراء الفرنسـيين في العصور الوسطى تناولها فريتزكيرن في المجلد ١٠٨ سنة ١٩١٢ . وآراء الالمان في الانجليز من القرن السادس عشر الى التاسع عشر عرضها فرانز مونكر «Anschanngen vom englischen staad und volk» in Sitzungsberiechte der Bayerischen der Wisserschaften Phil. Kl.» 1918, 1925.

(٢) أنظر مثلا و . بيلزبورى « سيكولوجية الجنسية » سنة ١٩١٩ ص ١٤٠ . وفيما يتصل بدور المثل العليا في تكوين الامة : بيلزبورى ص ٢٢٤ ـ ٢٤٦ .

٢ ـ السعي للاستقلال القومي الذي يتضمن الاستقلال عن السيطرة والتدخل الأجنبي والحرية الداخليـــة من القوى التي تعتبر غير قومية أو محطة بكرامة الأمة .

٣ ـ السعي للانفصال أو التميز أو الفردية أو الأصالة أو التفرد بصفات معينة • وأهم الامثلة في هـذا الشأن هو ما يضـــفي على اللغة القومية المنفصلة من قيمة •

٤ ـ السعي للتفوق بين الأمم في الشرف والكرامة والهيبة والنفوذ وهو يتحول بسهولة الى رغبـة في الســـيطرة • والتطلع الى التفوق في الغالب أقوى التطلعات الأربعة جميعا ويبدو أنه وراءها جميعا •

وهناك عامل مهم أيضا في الجنســـية هو التطلع الى قدر معين من المساواة داخل الامة • فالمساواة مما لا غنى عنه للوحدة والحرية وينطوي هذان الهدفان عليها • اذ لا يمكن ان تكون هناك أي وحدة وتضامن بين سادة وعبيد ، أو بين طبقة متميزة بدرجة كبيرة وطبقة من الاقنـــان المضطهدين . ان شعار الثورة الفرنسـية الذي تعبر عنه هذه الكلمات « الحرية والمســـاواة والاخاء » يلخص العنـــاصر الجوهرية للتطلعات القومية •

ويتألف الوعي القومي من امتزاج السعي للوحدة والسعي للحرية والسعي للفردية والسعي للهيبة • وقد ظهرت في الأهداف المجسمة لهـذه التطلعات تغييرات تاريخية كثيرة • فحركة الاصلاح الديني كانت تنطوي على سعي قومي للحرية والفردية ولكن سرعان ما صارت الوحدة الدينية والسياسية الهدف القومي الأول • وصارت الحرية السياسية والتحرر الثقافي والاســتقلال الاقتصـــادي والمساواة الاجتماعية هدف الحركات القومية • وكثيرا ما تعارضت التطلعات القومية المختلفة وتضاربت بعضها مع بعض • فالمغالاة في الحرية القومية كثيرا ما أدت الى اضعاف الوحدة القومية ، أو الى فقدان الاستقلال تماما .. وقد بولغ في الوحدة القومية والمساواة الى حد أن الحرية ضاعت تماما وتحولت الأمة الى مجـرد آلة تنتج القوة • وكثيرا ما اتسع نطاق الانفصال القومي أو الهيبـة القومية الى حد تعريض الحرية والوحدة للخطر أو تدميرهما • فالتاريخ يبين أن كثيرا من الحركات القومية قضت على أهدافهـــا بنفسها وصارت عاملا مدمرا للامم التي يتعلق بها الامر • اذ ان الجنسية مليئة بعوامل التناقض الكامنة ، أي التضارب المحتمل بين المبادىء • فالثورة الدينية في القرن السادس عشر كانت تهدف الى الحرية ، ولكنها أدت في جزء كبير من

أوربا الى تعصب شديد والى قيام الحكم الاستبدادى ، كما كادت الحرب الدينية تدمر الوحدة القومية • وقد قضت الثورة الفرنسية على الحكم المطلق ، ولكن سرعان ما مهدت الفوضى السبيل لاستبداد نابليون وظهور النزعة القومية • وفى عصرنا الحالى عبر الاتجاه الى التناقض الكامن فى الجنسية عن نفسه فى سياسة الانعزالية التى تقابل مبدأ الاستقلال القومى المطلق ، ولكنه انتهى الى فقدان كثير من الامم استقلالها كلية •

وبجانب الروح العامةللعصر أضفت ايديولوجية كلأمة معنى خاصا على المبادىء التى تتضمنها الجنسية • فمعنى الحرية السياسية مثلا لم يكن دائما وفى كل مكان واحدا • فالقوميون الألمان الحديثون ينكرون أن انجلترا أو فرنسا تتمتعان بأية حرية حقيقية • وفى نظرهم ليس هناك أمة حرة سوى الألمان وتعلم ايديولوجيتهم الدوجماسية أن الحرية الحقيقية تعنى الخضوع للزعيم • ويتباهى هتلر بأنه اعاد الحرية الالمانية ، وان كانت بقية العالم تقول عن حالة الشعب الألمانى انها عبودية ، وكذلك تنوعت أفكار الاصالة والهيبة تنوعا كبيرا • وفى بعض الامم يفترض ان الفردية القومية تتفق مع الوحدة الأساسية فى الاخلاق بين الامم كلها ، تماما كما يظهر الافراد اختلافا فى الطبائع والتربية ومع ذلك يسلمون بمعايير مشتركة معينة فى السلوك • بيد أن بعض الرومانسيين الالمان ذهبوا الى أن كل أمة لها مثل عليها مختلفة تماما ، حتى فى الاخلاق ،وزعم بعض القوميين الحديثين أن هناك اختلافا سلاليا جذريا لا يمحى متأصلا فى الامم • ويعتقد دعاة كثير من الامم أن الهيبة القومية تعتمد على الانجازات الاجتماعية والثقافية للأمة وعلى نجاحها فى اقامة حكم تقدمى ومسالم ، فى حين لا يستطيع دعاة آخرون أن يتصوروا أية هيبة أخرى غير هيبة القوة والسيطرة • وفى العصور السابقة كان الالمان فخورين بأن يطلق عليهم الدارسون الاجانب لمدنيتهم شعب الشعراء والمفكرين ، أما أطفال المدارس النازية اليوم فيتعلمون أن فرقة من الجنود الممتازين أهم بكثير من جوته •

والوعى القومى متميع جدا ويظهر فى صور ودرجات متنوعة الى أقصى حد • وهو ليس نفس الشىء بالنسبة لجميع أعضاء الامة كما لا يوجد لديهم بقوة متساوية • فكثيرون ليس لديهم منه الا القليل جدا ، أو ليس لديهم منه شىء على الاطلاق ، على الأقل فى الأوقات العادية ، وان كان أحيانا كامنا فيهم ولا ينطلق الا فى أوقات الطوارىء القومية تحت تأثير موجة كبرى من الانفعال القومى • والذين تنمو لديهم التطلعات القومية أساسا هم قطاع معين من الأمة ويعتبرون زعماء ودعاة قوميين

بدرجة تزيد أو تنقص . بل انهم أحيانا ادعوا أنهم الأمة . بيد أن تلك القطاعات التى لا تكون « قومية » عن وعى ، أو حتى تعارض كل نوع من المشاعر القومية السافرة ، ترتبط بالأمة بروابط عديدة غير مرئية . فهمقد تشربوا دون أن يعرفوا بعناصر الايديولوجية القومية. ان الماركسية علمت أن البروليتارى لاوطن له وأن عمال البلاد كلها سيتحدون ويضعون حدا للحروب والاستغلال والاضطهاد فى جميع أنحاء العالم . وأعلنت أن المشاعر القومية ليست سوى مجرد ستار للمصالح الرأسمالية يقصد بها تحويل العمال عن الصراع ضد أعدائهم الحقيقيين ، الرأسماليين . وكان الاشتراكيون فى جميع البلاد مخلصين تماما فى نزعتهم الدولية . ومع ذلك فان كثيرين منهم لم يستطيعوا مقاومة الانطلاق الفجائى للشعور القومى . ففى ١٩١١ شنت ايطاليا حربا لغزو ليبيا لايدفعها سوى شهوة النفوذ والتوسع . وحظيت الحرب بشعبية كبيرة جدا حتى بين اليسار ، ومجد بعض الاشتراكيين الايطاليين مثل لابريوك رسالة ايطاليا فى نشر مدنيتها (١) . وفى سنة ١٩١٤ أغرقت الحكومة الألمانية العالم فى الحرب وعزت نشوبها الى هجوم غادر من جانب روسيا . واكتسحت الحماسة الديموقراطيين الاشتراكيين الألمان تماما وأدلوا بأصواتهم فى البرلمان بالموافقة على اعتمادات الحرب التى طلبتها الحكومة . فالايديولوجية القومية تحيط الأمة كلها بشبكة ضخمة لا تكاد تلحظ حتى تأتى أزمة فتشعل الشعور القومى . بيد أن الوعى القومى ليس بالضرورة من النوع العدوانى . فكثير من الأمم نمت لديها صورة منه مسالمة تماما .

والوعى القومى يؤلف الأمة بالمعنى السياسى . وأفضل تعريف للأمة هو أنها شعب لديه وعى قومى نام ، وان كان من العسير جدا فى كثير من الأحيان القول بما اذا كان الشعب لديه قدر كاف منه ليصل الى مرتبة الأمة وماإذا كانت عناصر الجنسية الأربعة أخذت وضعا لايدمر فيه بعضها البعض وما اذا كانت لدى الامة فرصة لان تعيش . ومجرد واقعة ان الشعب بلغ درجة معينة من المدنية أو أنه انتج رجالا عظماء لا تكفى . فالمعيار الحاسم هو ما اذا كان هناك قدر كاف من التضامن بينه ، وما اذا كانت فكرة واجب التضحية ببعض المصالح المعينة فى سبيل المصلحة القومية قد صارت سائدة . والفكرة الحديثة عن الأمة تنطوى على واجب التضامن غير المحدود والولاء دون شرط فوق كل مصلحة شخصية أو قطاعية . ويتطلب الدين والأخلاق والقانون الدولى

---

(١) أنظر بنديتوجروشه « تاريخ ايطاليا » ١٩٢٩ ص ٢٥٩ و ٢٦٣ .

طبعا أن تكون سياسة الأمة داخل حدود معينة ، وأن الولاء للأمة ينبغى ألا يتعدى هذه الحدود . بالاضافة الى أن الديمقراطية تضع سلطة تحديد المصلحة القومية فى أيدى أبناء الأمة . ان المثل الأعلى للتضامن غير المحدود لايمكن مطلقا أن يتحقق كاملا فى السياسة العملية ، ولكن ذلك ينطبق على جميع المثل السياسية ، بما فيها الديموقراطية ·

(د) الجنسية والمدنية

من الأفكار الشائعة جدا أن كل أمة حديثة انبثقت من مدنية مشتركة وأن قيام الدول القومية الموحدة حقق آمال شعوب صغيرة فى الوحدة ، وهى آمال خلقتها المشاركة فى الثقافة · بيد أن كلمة مدنية لها معان مختلفة · فهى من ناحية تستعمل فى أية مشاركة فى التقاليد والمصالح والمثل العليا مهما كانت بدائية ، ومن ناحية أخرى لا تعنى سوى مرحلة متقدمة من النمو الثقافى · وبالمعنى الأول يتحدث المرء عن مدنية «العصر الحجرى» ، فى حين أننا نقول بالمعنى الثانى ان الشعوب المتمدينة وحدها هى التى لها الحق فى أن تكون أمة . وأحيانا يستخدم التعبير أيضا بمعنى أضيق للدلالة على مجرد الانجازات الروحية السامية مثل الأدب أو الفن . ومن الجلى أن الاختلاف الكبير فى اللغة والتقاليد يعوق التوحيد السياسى ، وان كان هذا العامل أقل أهمية قبل ظهور مبدأ الجنسية فى القرن التاسع عشر · وصحيح أيضا أن نمو الوعى القومى يتطلب مستوى معينا من المدنية وانتشار المدارس والأدب واهتماما بالماضى والمستقبل ووجود فئة مثقفة · ومع ذلك فان المدنية المشتركة ونموها الى درجة مرتفعة لا يكفيان وحدهما لاندماج شعوب مختلفة سياسيا فى أمة واحدة · فأولا : لا يبدو أن كل أنواع المدنية تؤدى الى تكوين أمم بالمعنى الحديث · فالجنسية الحديثة نمت أول ما نمت فى تربة المسيحية الغربية ، ثم انتشرت أكثر فأكثر نحو الشرق . ان الهند والصين والشعوب الاسلامية أنتجت مدنيات كبيرة ومتجانسة نسبيا ولكن فكرة الجنسية الحديثة كانت غريبة عليها قبل أن تتسرب فيها الأفكار الاوربية · وقد اعترف كثير من رواد الجنسية الحديثة فى آسيا صراحة بأن شعوبهم لايمكن أن تعتبر حتى الآن أمما (١) ، وان تطلعاتها القومية محاكاة للنماذج الأوربية . ولكن حتى فى أوربا لم يكن تقدم المدنية وحده هو السبب فى بدء التوحيد القومى بالمعنى السياسى .

---

(١) أنظر صن يات صن « الوصية المثلثة » ترجمة ب · م · ديليا ١٩٣١ ص ٦٤

فاليونان القديمة وايطاليا والمانيا فى العصور الوسطى كانت لديها مدنيات متقدمة جدا فى حين لم يكن فيها اى تضامن قومى بين الشعوب التى انقسمت اليها . وقد كان لجمهورياتها ودولها الصغيرة الأخرى لغة ومدنية مشتركتان ولم تكن تنقصها مشاعر القربى فيما بينها والمصلحة المشتركة ضد الأمم الأجنبية • ولكن كل ذلك لم يكف لخلق احساس قوى بالتضامن السياسى بين هذه الشعوب الصغيرة ولم تكن لديها رغبة فى هجر جنسياتها المنفصلة والاندماج فى جنسية واحدة مهما كان ذلك مفيدا بالنسبة لها • بل أن ارتفاع مستوى المدنية كان ضد الوحدة القومية على نطاق واسع . فاتينا وفلورنسا ونورمبرج كانت فخورة ببهاء انجازاتها وتنظر بازدراء الى أقاربها فى المدن الأخرى . ومعظم المفكرين والشعراء والفنانين العظماء فى جميع الأمم كانوا عالميين ولم يبدوا اهتماما بالتطلعات القومية فى عهدهم ، وان كان بعضهم راودته أحلام عن الرسالة الروحية السامية لأممهم ، ويبين التاريخ أن تقدم المدنية كثيرا ماكان مصحوبا بضعف المشاعر القومية . ففى الامبراطورية الرومانية فى عهودها الأخيرة كان مستوى المدنية مرتفعا وكانت منتشرة على نطاق واسع نسبيا • ومع ذلك فلم تكن هناك أية حرية سياسية ولا قدر كبير من الوحدة والتضامن• ويعزو كثير من المؤرخين سقوط الامبراطورية الى عدم نمو الوعى القومى بدرجة كافية • فقد بلغ الرومان والاغريق مستوى مرتفعا من المدنية بحيث صاروا ينظرون الى الخدمة العسكرية باعتبارها شيئا لا يليق بمكانتهم ومن ثم تركوها للبرابرة وأدى ذلك الى انحلال الامبراطورية • وبعد ذلك بألف عام كان هناك رجل سياسة ومفكر مسلم عظيم ، هو عبد الرحمن بن خلدون ، استعرض ظهور المدنيةالعربية وسقوطها ووضع فلسفة للتاريخ محورها التضامن القومى (١) • وقد وجد أن البرابرة الخشنين لديهم هذا التضامن ومن ثم نجحوا فى بناء دول عظمى ، ولكن تقدم المدنية قضى عليها بالضرورة وأدى الى انهيار كل امبراطورية والمدنية نفسها • وبعد ذلك بخمسمائة عام ، وبعد هزيمة فرنسا فى سنة ١٨٧١ ، فكر ارنست رينان (٢) فى أسباب الكارثة وانتهى الى نتيجة تشبه من بعض النواحى آراء ابن خلدون ، وان لم ييأس من صحوة قومية جديدة •

---

(١) • فون كريمر « بن خلدون »

(٢) أرنست رينان « الاصلاح الفكرى والاخلاقى » ١٨٧١

٦ ـ فكرة الشخصية القومية

(أ) الشخصية و « العضوية » والحرية

ان التطلعات الأربعة ، من أجل الوحدة والحرية والتميز والهيبة يمكن أن تسمى تطلعا الى الشخصية القومية • وهذا التعبير نستخدمه هنا قياسا على الشخصية البشرية ، وأن كان يجب عدم التوسع فى التشبيه أكثر مما ينبغى . والشخصية فى الفرد ، كما فى الأمة ، مزيج من الوحدة والحرية والتميز والتفوق • فكل من هذه السمات ضرورى لفكرة الشخصية . وقد أثير اعتراض على تطبيق تعبير شخصية على الجماعات على أساس انها لا تملك نفس الدرجة من الوحدة كالافراد • وقد يكون ذلك صحيحا ، ولكن الشخصية الفردية أيضا ليست وحدة كاملة تماما • فهى تنطوى عادة على قوى متعارضة ويتطلب الامر وجود العقل باستمرار للتوفيق بينها • وهناك تشبيه آخر كثيرا ما يطبق على الجماعات وهو « العضوية » • ويعنى هذا التعبير ذلك النوع المعين من الوحدة الذى تتسم به الكائنات الحية • وهو ينبى عن الاختلاف داخل اطار الوحدة ، بمعنى أن هناك عددا من الأعضاء المختلفة تعمل وتتعاون فى وحدة وثيقة (١) • بيد أن الشخصية أكثر من الوحدة العضوية • فالشجرة أو السمكة كائن عضوى ولكنها ليست شخصية • فهذه الفكرة تنطوى الى جانب الوحدة ، على الحرية ونوع من التميز الروحى والهيبة ، أى الافكار التى تتألف منها أهداف التطلعات القومية •

وفكرة الشخصية القومية ، بصرف النظر عن حقيقتها عامل بعيد الأثر جدا فى الايديولوجية السياسية . فضلا على أن لها أهمية كبرى فيما يتصل بالقانون الدستورى والدولى • فأفكار الارادة القومية والسيادة

---

(١) ان مقارنة المجتمع بالكائن العضوى أو بالانسان موضع جدل شديد . ولاشك فى أنها استخدمت أسوأ استخدام لأغراض سياسية . وبخاصة فكرة العقل الجماعى التى أدت الى أفكار وهمية . أنظر مثلا فيما يتصل بنقد هذه الفكرة . جينسبرج « سيكلوجية المجتمع » ١٩٣٣ ص ٤٦، و ٩١١ وكذلك ب . بارث
«Philosophie der Geschichte Als Soziologie»
وانظر أيضا و . هـ . ريفرز « علم النفس والسياسة » ١٩٣٢ ص ٥٩ و أ . هانبورى هانكنر « القومية والعقل المشترك » ١٩٣٧ وفيما يتعلق بالجانب التاريخى أ . جيركه « النظريات السياسية فى العصور الوسطى » ١٩٠٠ مع مقدمة هامة بقلم ف . ميتلاند و أ . باركر « الكنيسة والدولة والدراسة » ١٩٣٠ ص ١٦٠ ، و هـ . لاسكى « أسس السيادة » ١٩٢١ .

وتقرير المصير والمسئولية تقوم على افتراض الشخصية · فليس هناك سوى الانسان يستطيع أن تكون له ارادة أو أن يكون مسئولا · وهذه المسئولية طبعا مجرد تطور قانوني ، ولكن تطبيقها العملي كثيرا ما يتأثر بصورة الشخصية القومية السائدة لدى الامة التي يتعلق بها الامر ، وهذه الصورة عادة تبالغ في وحدة الشخصية القومية وثباتها ·

والرغبة في الشخصية القومية يعبر عنها استخدام الشخصيات الرمزية التي تمثل الامة مثل الصور الرمزية لبريطانيا وجرمانيا وايطاليا، الصور الاكثر شعبية مثل جون بول(١) وميشيل الالماني وماريان الفرنسية والعم سام · ونستطيع أن نضيف الأسد البريطاني والنسر الالماني والديك الفرنسي والدب الروسي والتنين الصيني وتنين ويلز ، وشجرة السنديان الالمانية والزيزفون السلافيةوالبرسيم الارلندي وكرات ويلز ·· الخ وهذه الاساطير والاشجار والحيوانات القومية تكمل الفكرة المجردة عن الامة بصور أكثر تجسيما تستطيع اثارة انفعالات أكثر حرارة مما يستطيع التجريد البحت · ومثل هذه الصور هي الادوات التي يستخدمها الخطباء والشعراء والصحفيون والفنانون(٢) ·

والتطلع الى الشخصية القومية كثيرا ما ينطوي على تضحية بالشخصية الفردية · فنحن نرغم على اخضاع مصالحنا المادية والروحية للمصالح التي يعلن انها المصلحة القومية وأن نجعل عقلياتنا وسلوكنا مطابقين لما يسمى بالطابع القومي ·

---

(١) ان صورة جون بول يبدو أنها تعرضت لتغيرات غريبة . فالفهم الشائع لها في بريطانيا في عصرنا أنها رمز للجلد والاستماتة في حين أن الامم الاخرى كثيرا ما تقرنها بالمشاكسه أو العدوان . وجون بول يصحبه عادة في الصورة كلب من نوع البولدج . بيد أن آبارتنوت الذي ابتكر الصورة في ١٧١٢ استخدمها لمهاجمة اصرار حزب الاحرار (Whigs) على الاستمرار في القتال ضد لويس الرابع عشر . وفي كتابه « تاريخ جون بول » يرمز البطل الى الادراك البسيط العادي للطبقة الوسطى الذي قد تضلله لفترة ما عبارات السياسيين والمثقفين الزاهية وتورطه في قتال طويل ولكنه يتبين حقيقة أمرهم في النهاية ويضع حدا للنزاع . ويقول لستر بياتي في كتابه « جون آرباتنوت » ١٩٣٥ : ان أمة من أصحاب الدكاكين تستطيع أن ترى في جون بول صورتها في المرآة.

(٢) وللعلم القومي أيضا مغزى عاطفي كبير . وفي فرنسا واجهت الحكومة الثورية في ١٨٤٨ صراعا بين أولئك الذين طالبوا بالعلم الاحمر شعارا قوميا وأنصار العلم المثلث الالوان ، وفي ١٨٧٣ ثار صراع شديد حول موضوع العلم الابيض الخاص بالبوربون والعلم المثلث الالوان أيهما يكون العلم الرسمي : وفي ألمانيا الجمهورية أثارت قضية العلم القومي وهل يكون اسود وأبيض وأحمر أو أسود وأحمر وذهبي انفعالات لاتصدق

ومن الاسباب الرئيسية لهذا الاتجاه أن الافراد يشعرون برهبة نحو قوة الأمة وعظمتها وشهرتها ويأملون توسيع نطاق شخصياتهم الفردية بالاندماج في الشخصية الجماعية • وهو شعور يحمل بعض سمات الشبه بالدين ، ومما لا ريب فيه ان نمو الشعور القومي في العصر الحديث شجعه ضعف الدين ونمو العقلية الجماهيرية • ومن الخطأ أن نعزو هذه العملية الى مجرد السياسة المقصودة من جانب الدولة أو الى ضغط المصلحة الاقتصادية ، وان كان الاثنان طبعا عاملين لهما أثرهما • ولكن تأثير جو التطلعات القومية حول الفرد وتسربه الى عقله أبعد أثرا بكثير •

والعضوية في الامة ليست مسألة اختيار كقاعدة عامة ، فالاغلبية العظمى من الناس تولد في أمة كما تولد في أسرة • وقد يكون لدى الاجانب فرصة التجنس ، ولكن ذلك ليس نتيجته أن يصيروا أعضاء كاملي العضوية في الامة في وقت قريب ، وفي كثير من الحالات لا يستطيعون أبدا التغلب على مصاعب التماثل والاندماج الكامل • وقد تختلف طرق التفكير والشعور التي تعتبر قومية اختلافا كبيرا عن طرق تفكير وشعور كثير من الافراد ، ولكن هؤلاء الافراد نادرا ما تكون لديهم فرصة تعديلها أو النجاح في مقاومتها • كما أنه ليست هناك أمة تستطيع باختيارها أن تنبذ ماضيها • وقد بذلت مثل هذه المحاولة أحيانا في ثورات كبرى ، ولكن النتيجة النهائية كانت عادة أن عادت بعض تقاليد الماضي الى الظهور مرة أخرى وأن يكن في صورة أخرى • ومن ثم فان الامة تبدو من عدة نواح وحدة في المصير أضفيت عليها حياة وشخصية خاصتان بها ولا تخضع لارادة الافراد •

وقد ناقش الفلاسفة الاغريق فعلا موضوع كون المجتمع بناء مصطنعا أو كائنا عضويا ، ولم يصل النقاش الى نهاية قط • والأمم الحديثة تعتبر على نطاق واسع جدا كائنات عضوية تاريخية ، وان كان ذلك عادة يأتي ضمنا أكثر مما يذكر صراحة • فالاقليم القومي مثلا ينظر اليه باعتباره كائنا عضويا لا يمكن بتر جزء منه دون التعرض لخطر تدمير الأمة كلها ، جسدا وروحا • وعندما أرغمت فرنسا في ١٨٧١ على التنازل عن الالزاس واللورين لالمانيا أثار كل من ميشيليه ورينان هذه الحجة(١) • وكثيرا ما يدافع عن قيود الهجرة والاجراءات الاخرى التي توضع ضد الاجانب على

---

(١) أنظر جولز ميشيليه (فرنسا في مواجهة أوروبا) ١٨٧١ ص ١١٣ ، أرنست رينان « ماهي الامة » ١٨٨٢ .

أساس انهم يؤلفون عنصرا غير عضوى لا يستطيع الكائن العضوى القومى أن يهضمه • ويحب القوميون أن يدافعوا عن رغبتهم فى التوسع بالغزو بحجة ان كل كائن عضوى صغير لا بد أن ينمو ، ويقـارنون الامم التى يريدون ضمها أو اغتصابها بالكائنات العضوية المنهـــارة التى أدركتها الشيخوخة •

وفى ايديولوجيات جميع حركات التحرير القومى والوحدة القومية صورت الامة على أنها مجتمع خلقه الله أو الطبيعة أو عبقرية الجنس لا ارادة الافراد ، واستخدم هذا التصور لتبرير مطـــالبة الافراد بوجوب التضحية بكل شىء فى سبيل الامة • ولم يفت فى عضد دعاة التطلعات القومية مطلقا حقيقة أن أغلبية الشعب الذى يريدون تحريره أو توحيده أو جعله قويا لا تبدى فى كثير من الاحيان أى اهتمام ان لم تقف من الامر موقف العداء • فهم يعتقدون انهم أصحاب رسالة تلقوها من سلطة عليا أسمى من الافراد •

ووضع المفكرون السياسيون فى كل الامم مذهب أن الدولة كائن عضوى روحى ونتاج نمو تاريخى يتضمن تجربة العصور كلها• فمنتسكيو وبيرك وهيجل ودى مايستر وروبيه كولار كانوا بعض من دافعوا عن هذه النظرية • وبرغم انهم اعتنقوا وجهات نظر مختلفة فى كثير من النقـاط فانهم اتفقوا فى رفض الرأى القائل بأن الامة هى مجرد الشعب يعيش فى دولة ، وذهبوا الى أن كلا من الانظمة السياسية للدولة والانظمة الاجتماعية للمجتمع ذات تكوين عضوى • وقـد عبر دزرائيـلى عن وجهة النظر هذه بالكلمات التالية(١) :

« ان تعبير « الشعب » هراء بحت • فهو ليس مصطلحا سياسيا • انه من تعبيرات التاريخ الطبيعى • فالشعب نوع من الانواع ، أما المجتمع المتمدين فهو أمة • والآن ، ان الامة نتاج فنى ونتاج الزمن • وتخلق الامة تدريجيا بواسطة مجموعة من المؤثرات المتنوعة ـ تحت تأثير التنظيم الاصلى والجو والتربة والدين والقوانين والعادات وقواعد السلوك والاحداث غير العادية فى تاريخها والطابع الفردى لمواطنيها البارزين • وهذه المؤثرات تخلق الامة ـ فهى تكون العقل القومى وتنتج مع مرور القرون درجة مرتفعة من المدنية • فاذا انت دمرت الانظمة الســـياسية التى أوجدتها هـــذه

(١) دزرائيلى « روح التحررية » ١٨٣٦ ، وأعيد طبعهـــا فى مجموعـة كتاباته بعنوان « الاحرار والتحررية » ١٩١٣ ص ٣٤٣ •

المؤثرات ، والتى تعتبر الأجهزة التى تعمل بواسطتها باستمرار ، دمرت الأمة • والامة فى حالة القلق والانحلال تصبح عندئذ شعبا ، وبعد أن تتعرض لكل ما يترتب على ذلك من شقاء ، مثل جماعة من النحل فقدت ملكتها ودمرت خليتها ، تشرع مرة أخرى فى تحويل نفسها الى مجتمع • »

وفكرة أن الامة أو الدولة تؤلف نوعا من الكائن العضوى الروحى كثيرا ما فسرت بمعنى ينطوى على عداء نحو الحرية والديموقراطية والتقدم • ولكن هذا التفسير ليس التفسير الوحيد الممكن • فبعض كبار المفكرين الانجليز ، مثل جرين وبرادلى وبوزانكيه ، نموها بروح مختلفة (١) •

(ب) الامة ككائن عضوى طبيعى

وقد شجع ظهور الفلسفة الطبيعية وانتشارها بين الناس على تفسير المجتمع على أساس انه كائن عضوى طبيعى • ومن وجهة النظر هذه تعتبر الجماعات الاجتماعية أعضاء الكائن العضوى الاجتماعى والافراد خلاياه • وهذه النظرية أكثر تعرضا لسوء الاستخدام أساسا لسياسة لا تحررية ولا ديموقراطية • فأهداف الكائن العضوى الروحى ووظائفه يمكن أن تكون هى العقل والحق والحب ، فى حين أن أهداف الكائن العضوى الطبيعى يمكن أن تكون مجرد الحياة والبقاء والقوة • وقد استغل العديد من الكتاب نظرية داروين الخاصة بالصراع من أجل البقاء للدفاع عن سياسة الغزو والسيطرة والاضطهاد ، وان كان داروين نفسه لم يشجع مثل هذه الآراء • ومن الغريب حقا أن تشبيه الكائن العضوى الاجتماعى بالكائن العضوى الطبيعى كان من صنع هربرت سبنسر الذى كان من دعاة الفردية المتطرفة (٢) • وموقفه هذا ، وكذلك موقف المدرسة الهيجلية الانجليزية ، يدل على أن التفسير العملى لاى فلسفة يعتمد الى حد كبير على الروح القومية • فنفس هذه الفلسفة استخدمت فى ألمانيا لنبذ حقوق الفرد وفى انجلترا لتأكيدها •

---

(١) أنظر روبرت موراى « دراسات فى المفكرين الاجتماعيين والسياسيين الانجليز فى القرن التاسع عشر » ١٩٢٩ المجلد الثانى ص ٢٧٤ ، وفيما يتصل بالحجج التى ضد هذه النظرية انظر ل • ت • هوبهاوس « النظرية الميتافيزيقية فى الدولة » ١٩١٨ و هـ • لاسكى « الدولة نظريا وعملا » ١٩٣٨ وس • جود « دليل للفلسفة والاخلاق والسياسة» ١٩٣٨ ص ٥٧٢ •

(٢) موراى — نفس المرجع ، المجلد الثانى ص ٢٥ ، ٢٧ • وقبل سبنسر عرض هذه النظرية شايفل •

وعلى أى حال فان اعتبار الكائن العضوى الاجتماعى والجسم الطبيعى شيئا واحدا أو المقارنة بينهما مجرد مغالطة . فالمجتمع لا يتكون من أفراد كما يتكون الجسم من خـــلايا ، وهو ليس جسما بل حركة أو عملا ، ومكوناته هى العلاقات بين الافراد . وتختلف الجماعة الاجتماعية عن الجسم الحى من عدة نواح ، مثل الحـدود الواضحة والثبات والوحدة النوعية والخلق العضوى . فالافراد الذين تتكون منهم الامة نتاج خلق عضوى ، ولكن الامة ليست نتاجا من هذا النوع . انها تتألف من الوعى القومى الذى ليس فطريا بل نتاج التاريخ . وكثيرا جدا ما كانت التصرفات التحكمية أو العرضية هى التى حددت أى الشعوب والاراضى تكون أمة . والكائن العضوى الطبيعى لا يمكن أن يتكون بهذه الطريقة . ومن الممـكن أيضا الخروج من الامة اما جماعيا بتكوين أمة منفصلة ، كما فعل المستعمرون فى « اعلان الاستقلال » ، أو أفرادا بالهجرة أو بتغيير الجنسية . والخلية لا تستطيع أن تترك كائنا حيا وتنضم الى غيره الا فى حالة التوالد ، وهو أمر غير متيسر للامة . والفرد يستطيع أيضا أن ينتمى الى عدة جمـاعات كما ينتمى الى أمة ، الدولة والكنيسة والطبقة والحزب ... الخ بل وربما حتى لأكثر من أمة ، فى حين أن الخلية لا تستطيع أن تنتمى لعدة كائنات عضوية ، ولهذه الحقيقة مغزى خاص . فأىجزء من الكائن العضوى الطبيعى له وظيفة واحدة داخل هذا الجسد . ولكن الكائن البشرى لا ينتمى الى أمته وحدها وليس حتى مرتبطا بها برباط لا ينفصم . والانسـان عضو أيضا فى مجتمع أكبر ، وذلك يترتب عليه واجبات وحقوق انسانية ، لا واجبات وحقوق قومية فقط .

بالاضافة الى أن الامة لا تدركها الشـــيخوخة والانحـــلال بالمعنى البيولوجى تماما مثل الكائن العضوى الطبيعى ، برغم أن البعض يؤكدون انها معرضة لذلك . وأخيرا ، ان فكرة الانتخاب الطبيعى عن طريق الصراع من أجل البقـــاء لا يمكن تحويلها ببســـاطة من العلوم الطبيعية الى علم الاجتماع . فالتطور الاجتماعى تحكمه عوامل أخرى غـير مجرد العوامل البيولوجية . اذ ان كل الجماعات البشرية لها ثقافة ، فى حين أن الجماعات الحيوانية ليس لها شىء من هذا(١) .

ان فكرتى الكائن العضوى الاجتمـــاعى والتطور العضـــوى أداتان مفيدتان جدا للبحث العلمى والعرض العلمى . ولكنهما قد تؤديان الى خطأ

---

(١) أنظر شارلس ألوود « التطور الثقافى » ١٩٢٧ .

شنيع اذا استخدمنا كشعارات سياسية وصارتا من عناصر الايديولوجية السياسية ٠

٧ ـ الأصل التاريخي للجنسية

كثيرا ما ناقش المؤرخون وعلماء السياسة موضوع كون الوعي القومي وفكرة الامة قد وجدا في عصور سابقة ٠ والرأى السائد انهما من أصل حديث نسبيا وان كان هناك خلاف كبير حول الوقت الذى بدأا يظهران فيه (١) ٠ بيد أن محاولات تحديد مولد الجنسية في فترة معينة تتجاهل حقيقة ان الوعي القومي يتألف من عدة تطلعات ، فضلا عن أنه متصل اتصالا لا ينفصم بعوامل موضوعية مثل اللغة القومية والاقليم والدولة والمدنية ، وجميع هذه العوامل مرت بطور تاريخي طويل ، ولم يكن معدل التقدم واحدا في كل الميادين ٠ والسمات الأولية للجنسية قد تكون قديمة قدم البشرية ، أو حتى أقدم ، حيث أننا نرى ما يقابلها في قطعان الحيوانات ٠ أما الظواهر التي هي أكثر تعقيدا فقد ظهرت تدريجيا في أوقات مختلفة ٠ ومن ثم فانه من المستحيل تحديد وقت معين ولدت فيه الجنسية ٠ بيد أن الفكرة المنتشرة من أن الشعور القومي لم يكن معروفا في العصور السابقة ليست خطأ من الناحية التاريخية فحسب ، ولكنها مضللة أيضا فيما يتعلق بمشاكلنا السياسية ٠ انها تتجاوب مع أحلام السياسيين الذين يميلون الى التقليل من شأن قوة النزعة القومية ، وكثيرا ما يكون ذلك لأنهم يعتقدون امكان تحقيق السلام بواسطة نوع ما من التنظيم الدولي الذى لا يتفق مع روح القومية ، ومن يعلنون أن المشاعر القومية ليست متأصلة الجذور في الطبيعة البشرية حيث أن الناس لم يعرفوا عنها شيئا في الأزمنة الماضية ٠

ومن الممكن أن نتبين بعض المراحل والأنماط المعينة في نمو الجنسية٠ وينطوى نمطنا الحالي على أفكار كانت غريبة الى حد يزيد أو ينقص على

---

(١) يقول أوجست تيرى ان الروح القومية الفرنسية كانت تستيقظ فعلا في القرن التاسع في حين يعزو لونينون هذه العملية الى أوائل القرن الثاني عشر ، ويعزوها رانكة الى القرن الثالث عشر ٠ أما جيزو وميشيليه وآخرون كثيرون فيؤكدون على أهمية حرب المائة سنة في القرن الرابع عشر والخامس عشر ، عهد جان دارك ٠ وذهب كثير من المؤرخين الى أن تحقيق الوحدة السياسية والانتصارات الحربية العظيمة والازدهار الحضاري تجعل القرنين السادس عشر والسابع عشر هما الفترة الحاسمة ٠ في حين يعتقد لافيس وأولار ان الثورة العظمى في القرن الثامن عشر هي التي أيقظت الوطنية والنزعة القومية الفرنسية ٠

العهود السابقة مثـل المطالبة بالسيادة القوميـة غير المحدودة فى اقليم معين ، أو بوحدة القوانين واللغه والعادات ، وفكرة التضامن القومى غير المحـدود بصرف النظر عن المركز الاجتماعى والتقـاليد المحليه والحقوق الفيودالية • ففى العصور الوسطى كان معظم الناس يقرون بواجب القتال من اجل الكنيسة ومن أجل سيد الأرض أو دفاعا عن وطنهم الصـغير ، ولكنهم ماكانوا يفهمون فكرة أن الشرف القومى يقتضيهم بذل كل تضحية من أجل ناس تربطهم بهم رابطة اللغه والمدنية أو يخضعون لنفس الملك ولكنهم لا يكادون يعرفونهم أو يتصلون بهم • فضـــلا عن أن فكرة أن الجنسيه هى القيمة العليا وأن الولاء القومى له الأولوية على كل شىء آخر حتى الواجب الدينى ، لم يكن لها وجود • وحتى فى العهود القريبة جدا مرت فـكرة الجنسية بتغييرات كبيرة • ففى عصر الاستنارة والتحررية كانت القيمة الشخصية للفرد تعتبر على نطاق واســع جدا أكثر أهمية بكثير من جنسيته ، وكان الاجنبى الكفء عادة يفضل عادة على المواطنين الذين هم أقل كفاءة • وكثيرا ما تبنى الملوك والارستقراطيون هذا الاتجاه ولم يكن لديهم اعتراض على استخدام الأجانب ، حتى من المراكز الدنيا • ففى ١٨٦٢ سأل القيصر اسكندر الثـانى بسمارك ، وكان وقتئذ سفير بروسيا فى روسيا ، عما اذا كان يقبل العمل فى الســـلك الدبلوماسى الروسى (١) • ومثل هذا التحول فى الولاء يعتبر أمرا بشعا فى عصرنا • فالشعور القومى الحالى كثيرا ما ينطوى على أن الفرد لابد أن يولد بالنجسية اذا أريد أن يعتبر عضوا كاملا فى الأمة وأن الأجنبى يجب ألا يقبل الا فى حالات خاصة •

ومن ثم فان المؤرخ يجب أن يكون على حذر من اغراء تفسير الوقائع تبعا لتجربته فى الجنسية الحديثة • فيجب ألا يندفع الى القول بأن تكوين الاقليم القومى أو الدولة أو اللغة كان نتاج نمو الشعور القومى • اذ أن نموها يرجع الى حد كبير الى سياسة الملوك ومعاونيهم ولم تكتســـب مغزى قوميا الا مؤخرا • وينطبق هذا ايضا على تفسير الوقائع الذاتية • فاذا أشاد أحد كتاب العصور الوسطى بفضائل شعبه أو شعب آخر أو ندد بمساوئه فقد يكون الدافع له هو المشـــاعر الطبقية أكثر من الشـعور القومى • والولاء لقضية ما قد تكون جذوره فى مشــــاعر الولاء للأسرة المالكة أكثر مما هى فى المشاعر القومية ، والاحساس بالزهو بالأعمال العظيمة جذوره فى عقلية الفروسية • والتحيز ضد الأجانب وكراهيتهم

---

(١) بسمارك «Gedanken und Erinnerungen» ١٨٩٨ المجلد الاول ص ٣٠٩

ليست بالضرورة علامات على الوعي القومي ، بل قد يكون مرجعها التنافس الانانى على المراكز والأسواق • والتحيزات شبه القومية تقوم أيضا بين قطـــاعات قبلية أو محلية من نفس الأمة • واذا وجد أن وقائع بذاتها دلالات حقيقية على الشعور القومي ، يجب التأكد أيضا الى أى الطبقات أو القطاعات من الشعب تنتمى هـــذه الدلالات حتى يمكن تكوين رأى فى أهميتهـــا التاريخية ، ولا يمـــكن التثبت من أن شـــعارات التضامن القومى صحيحة أم لا الا فى حالات الطوارىء القومية ، وحتى عندئذ من العسير التمييز بين الحماسة الحقيقية والزائفة ، كما يتبين من اللغز الحالى فى المانيا أو ايطاليا •

ولم يسر نمو الجنسية فى خط مســتقيم طوال العصور حتى صورها الحالية • فالشعور القومى مر بفترات ارتفاع وهبوط كثيرة • فقد كان أقوى فى اليونان القديمة منه فى العصور التالية ، وكانت هناك اوقات كاد يمحى تماما بواسطة انفعالات أخرى • وهناك أوجه تشابه كثيرة بين ظواهر القومية فى عصرنا والعصور السابقة • ولكن كل أمة وكل فترة لها سماتها الخاصة وينبغى أن نكون شديدى الحذر فى تطبيق التعبيرات السياسية الحديثة على عهـــود ومدنيات سحيقة • والسمات الاساسية للطبيعة البشرية كانت طبعـــا واحدة فى كل زمان ومكان • ومن ثم فان كثيرا من الكتاب ينكرون أن عقليات الشعوب المختلفة والعهود المختلفة فيها أى اختلاف • بيد أن ذلك خطأ تماما فيما يتصل بالشخصية البشرية وبالعلاقة بين سيكلوجية الفرد وسيكلوجية الجمـــاعة • فحتى اذا كان الجهاز العقلى لدى الافراد من مختلف الجماعات واحدا تماما فان الاختلاف فى تكوين الجماعات وفى تقاليدها قد يؤدى الى تباين كبير فى العقليـــة الاجتماعية • وفيما يتصل بالجنسية ليس السؤال الحاسم هو : أهناك شعور قومى معين موجود فى وقت بذاته أم لا ؟ بل هو : ما مدى قوته بالنسبة للقوى الاخرى ؟ • فالتحليل التاريخى يجب ألا يكون وصفيـــا فقط ، بل كميا وتكوينيا أيضا ، وكثيرا ما تواجه المؤرخ مهمـــة وزن عناصر غير قابلة للوزن •

وبحث الجنســية فى فترة معينـــة لا يمكن أن يقتصر على مجموعة تعبيرات الشعور القومى • بل يجب أيضـــا أن نحاول تكوين فـــكرة عن عقلية الأمة فى هـــذه الفترة وأن ننفذ ببصيرتنا الى تكوينهـــا الاجتماعى وتطلعات الطبقات وعلاقاتها المتداخلة بعضها ببعض • فالشعور القومى ليس عاملا منعزلا بل عنصرا فى كائن عضوى قومى ولا يمكن فهمه تماما الا فى صلته بالتكوين الاجتماعى والتاريخى للأمة • وطبيعة هذا الكائن

العضوى القومى تعبر عنهـا مجموعة من المشاعر والأفـكار والتطلعـات تتألف منها الأيديولوجية القومية . وفى هذه الأيديولوجية تلعب فكرة الطابع القومى دورا ذا أهمية خاصة .

٨ - الوعى القومى والنزعة القومية

لقد أشرنا فعـلا الى أن الاستعمال فى اللغـة الانجليزية يوحد بين النزعة القومية والوعى القومى ، الأمر الذى كثيرا ما أدى الى اغفال الفرق بين الشعور القومى المسـالم والعدوانى عند الحـكم على الأمم الأجنبية ، وواضـح أن ذلك انما يرجع الى أن الايديولوجيـة المتفـائلة لبريطانيـا الحديثة تميل الى اغفاله . ان الاستاذ مكدوجال مثلا يقول : « من الضرورى جدا الاصرار بشـدة على أن التنديد بالنزعة القومية هو بمثـابة الوقوف موقف العداء من الديموقراطية » (١) وهذا الاستعمال قد يكون حتى موضع نقد من وجهة النظر اللغوية (٢) . فمنذ مائة عام تقريبا فرق مازينى بجلاء بين الجنسية ، التى اعتبرها مقدسة ، والنزعة القومية التى قال عنها انها ضيقة وحقيرة ومغتصبة ... الخ (٣) ويسـتعمل الفرنسيون والألمـان أيضا النزعة القومية بمعنى العدوانية القومية (٤) .

وقد نشر مؤخرا المعهد الملكى للشئون الدولية تقريرا ممتـازا وضـعته مجموعة من الدارسين بعنوان « النزعة القوميـة » (٥) . وفى مقدمته ذكر هذا التعريف للنزعة القومية :

---

(١) مكدوجال « الامة الامريكية ، مشاكلها وسيكلوجيتها » ١٩٢٥ ص ٧٠

(٢) ان تعبير « النزعة القومية » من التعبيرات التى ينتهى بـ (ism) وتدل على سـعى جماعى أو على مدرسة فكرية تتسم بالتأكيد الشديد جـدا على مبدأ معين ، تأكيد من زاوية واحدة فى الغالب أوله طابع الجهاد . ومن هذه التعبيرات تعبير « الشيوعية » فالشيوع فى ملكية المشروعات وخدمات الرفاهية لا تساوى لفظ « الشيوعيـة » . ومنها أيضا « النزعة العسكرية » وهى تعنى أكثر من مجرد الاهتمام بالمسائل العسكرية.

(٣) مازينى « أفكار عن الديمقراطية فى أوروبا » (١٨٤٧) فى مجمـوعة أعماله المجلد السادس ص ١١٥ ، وتاريخ حياته بقلمه المجلد الثالث ص ١٠ و ١٢ و ٧٧ .

(٤) كارلتون هيز « فرنسا ، أمة من الوطنيين » ١٩٣٠ ص ٢ و ٣١٨ . واللفظ الالمانى «Voelkisch» ، وهو ترجمة « قومى » تعنى نوع النزعة القومية التى يمثلها هتلر .

(٥) انظر « النزعة القومية » تقرير وضعته مجموعة باحثين من (المعهد الملكى للشئون الدولية » ١٩٣٩ . وكان رئيس المجموعة الاستاذ أ هـ . كار وسكرتير ها هوم. بالفور والكتاب اضافة قيمة جدا لدراسة هذه المشكلة .

« ان تعبير النزعة القومية استعمل فى هذا التقرير للدلالة على الوعى بالطابع المتميز للأمم المختلفة ، بما فيها الأمة التى ينتمى اليها الفرد ، والرغبة فى زيادة قوة الأمم وحريتها ورخائها • ولا يقصد بأثرها انه يقتصر بالضرورة على أمة الفرد نفسه ، وان كان من المسلم به أن هذا هو الوضع فى حالات كثيرة جدا ، وكذلك لا يقصد بالشخص القومى أنه بالضرورة من يضع مصلحة أمته فوق كل ملصلحة أخرى • وباختصار يستعمل هذا التعبير هنا بالمعنى الذى يمكن بمقتضاه وصف مازينى وجلادستون وودرو ويلسون ، وكذلك هر هتلر ، بأنهم دعاة قوميون » •

واستعمال مصطلح « النزعة القومية » بهذا المعنى الواسع الذى يضم كلا من جلادستون وهتلر يبدو ، فى رأينا ، مشجعا على القول بأن الفرق بين عقلية هذين الرجلين هو فرق فى الدرجة فقط ، وأن هتلر لديه نفس المثل العليا التى كانت لدى جلادستون • وواضح أن مثل هذا القول مضلل • ان الغموض الذى يحيط بمعنى « النزعة القومية » أحد الوسائل الكبرى التى تستغلها الدعايات القومية فى الخارج ، فهو يساعد القوميين الأجانب على كسب تأييد شعور تعارض الحروب والغزو تماما ، وذلك عن طريق عرض أهدافهم بصورة لا تنطوى على أى ضرر •

وينجم أيضا عن استخدام « النزعة القومية » بمعنى الشعور القومى أن الروح العدوانية القومية يعبر عنها بالفاظ مثل الامبريالية والشوفينية والوطنية المتطرفة (١) ، ويبدو كأن فى ذلك تأييدا للنظرية الألمانية والايطالية التى تذهب الى أن فرنسا وبريطانيا هما وحدهما اللتان تحدوهما النزعة العدوانية ، حيث أن الأمم الأخرى ليست لديها حتى الفاظ تعبر عن هذا الاتجاه • بالاضافة الى أن ابهام معنى « النزعة القومية » ساعد على انتشار الاعتقاد بأن هتلر استمرار « للقومية » الثقافية التى قال بها هردر وفيشته •

واذا سئل أحد القوميين فى قارة أوربا ، غير بريطانيا : أيعرف مذهبه ؟ فانه سيقول: انه الاخلاص العميق للأمة ووضع مصالحها فوق كل شىء آخر • ولكن السؤال اكثر من ذلك سيكشف ان المصالح التى هو على

---

(١) لقد قال جنرال سمطس فى خطاب له سنة ١٩١٩ : « ان الجنسية نمت أكثر مما ينبغى فصارت امبريالية ، وتعيش الامبراطورية فى اضطراب دائم على أنقاض حرية الامم التى تتألف منها » .

استعداد للتضحية بكل شيء من أجلها مصالح محدودة بالذات • فهو لايفكر أولا فى زيادة الحرية السياسية أو فى تحقيق مستوى معيشة أفضل للشعب ، ولا هو يعلق الأهمية الأولى على زيادة الكنوز الروحية للأمة • بل ان أول ما يفكر فيه هو الشرف القومى • ولا يعنى القوميون بالشرف ان يكون الشعب موضع التقدير أساسا لارتفاع مستوى المدنية أو للصفات الأخلاقية والروحية لديه ، كما لا يعنى بالنسبة لهم المساواة مع الامم الاخرى • فالشرف بالنسبة للقومية يعنى التفوق ، أى المرتبة العليا بين الأمم والهيبة والسيطرة • ومن ثم فان السياسة القومية تتطلب جهاز دولة قوى لتحقيق أهدافها فى الهيبة • وكل الأشياء المادية والروحية تقدر اساسا باعتبارها أدوات لزيادةاستقلال الامة وقوتها وهيبتها •وطبعا لايستطيع القوميون أن يعيشوا على القوةوالهيبة وحدهما ،كما أنهملايأملون الحصول على أنصار كثيرين بين الشعب اذا هم أهملوا كل مصالحه الأخرى • فالأهداف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تؤلف أيضا جزءا من برنامجهم • بيد أن الدعوى القومية النموذجية تفترض أن القوة القومية والهيبة هما أفضل السبل لجميع كنوز العالم وان الأمة القومية وحدها هى التى تستطيع أن تحل المشاكل الاجتماعية وتحصل على أفضل الظروف الممكنة لتنمية المدنية القومية • بالاضافة الى أنه اذا كان على القوميين أن يختاروا بين الهيبة القومية والأهداف الأخرى فانهم بالتأكيد يفضلون الهيبة • وأخيرا ينمو مذهب القوة الحقيقى وتصبح النزعة القومية نوعا من الدين « آلهته » الهيبة والقوة •

ولا تكون طبيعة النزعة القومية واضحة عادة لأغلبية دعاتها • فهى تتطلب قدرا كبيرا من التحليل النقدى للكشف عما وراء الستار الايديولوجى الذى تختفى وراءه أهدافها الحقيقية • فلا يمكن أن نتوقع من رجل الشارع أو السياسى المتوسط أن يكون قادرا على تكوين حكم بعيد النظر فى الشئون الدولية عندما نرى أنه حتى الخبراء الذين تتوفر لديهم فرص غير عادية لدراسة الأمم الأجنبية كثيرا ما يبدون آراء اقرب الى البدائية عن عقلية الشعوب الأجنبية والأفراد الغرباء • وفى جو التوتر يبدو أن قلة قليلة جدا من الناس تستطيع أن تحكم على الأمم الأخرى بنظرة صائبة • فالأغلبية قمينة بأن تقع اما فى تفاؤل متطرف أو تشاؤم لا مبرر له •

بيد أننا ينبغى ألا نغفل عن أن النزعة القومية تبدو فى صور أخرى بجانب الصورة العدوانية ضد الأمم الأجنبية • ففى حالات كثيرة يكون

التعصب القومى والاضطهاد موجها ضد « أعداء » داخليين أساسا ، اما ضد أقليات قومية وبخاصة ضد اليهود ، أو ضد قطاع عنصرى ، وبخاصة الملونين • بالاضافة الى أن هناك أيضا نوعا من النزعة القومية المستترة التى لا تعلن صراحة وتظهر عادة مرتبطة بالأنانية الاقتصادية • وهى أحد الدوافع التى تؤدى الى جميع أنواع الحماية الاقتصادية مثل الرسوم المرتفعة على الواردات والاجراءات المماثلة • والتحيز القومى والعداوات القومية كذلك وراء القيود التى توضع على الهجرة ووراءوالسياسات العمالية التى تنكر حق العمل ، على الأجانب أو على الملونين • وتتخذ الحماية الاقتصادية بسهولة صورة عدوانية ، وكذلك التمييز العنصرى والقومى فيما يتعلق بالهجرة أو العمالة كثيرا ما يكون لها طابع عدوانى مثير اذا تجاوزت حدودا معينة وبدا أنها تحط من قدر الشعوب التى يتعلق بها الأمر وتعاملهم على أنهم أجناس « أدنى » •• وحتى البلاد الديموقراطية والتحررية التى تخلو من الروح العدوانية ضد الامم الاجنبية كثيرا ما تتبع سياسة عنصرية وضد الغرباء •

ولروح الجنسية جانبان • جانبها الايجابى البناء وهو السعى للتضامن القومى والحرية ، وجانبها السلبى الهدام وهو التعنت العقلى ضد الأمم الأخرى الذى كثيرا ما يؤدى الى عدم الثقة والتحيز المتبادل والى السعى للتفوق والسيطرة • وهناك بعض الميل المبهم المحدود نحو التضامن القومى منتشرعلى نطاق واسع• أما بلوغه درجةكبيرة تنطوى على الاستعداد للتضحية بالنفس فأمر نادر • فهو مثل أعلى يحدو أقلية ضئيلة فقط ، ولكن الأغلبية العظمى تضع المصالح الأنانية والتضامن الطبقى والولاء الحزبى عادة فى مرتبة أعلى بكثير من واجب التضحية بالنفس فى سبيل الأمة • وعنصر التعنت والبغضاء ، الذى يظهر فى النزعة القومية ، والعنصرية والتحيز ضد الغرباء أكثر بكثير فى كثير من الأمم من الأنواع الخيرة من التضامن القومى • بيد أنه كثيرا ما يكون من الصعوبة بمكان كبير تقدير قوة أى من العنصرين بصورة موثوق فيها حيث أن مظاهرهما قد تكون راجعة الى ضغط الدولة والرأى العام الى حد كبير جدا • وكثيرا ما يفترض أن العداء ضد الأمم الأخرى لا بد منه للتضامن القومى الداخلى • ويشير الأستاذ بيلسبورى الى أن الكراهيةالمشتركة من أبعد العوامل أثرا فى قيام الأمم وتوحيدها (١) والحقيقة أن التاريخ يبين أن كل الامم تقريبا انبثقت من حروب عظمى وخلال عداء طويل وعنيف نحو أمم أخرى •

---

(١) بيلسبورى ص ٨٣

٩ ـ فكرة الطابع القومى

(أ) أفكار شائعة ونظريات علمية

ان الاعتقاد بأن لكل شعب طابعا خاصا مستمرا طوال العصور ويمكن تتبعه خلال تاريخه كله وفى جميع فروع المدنية اعتقاد منتشر جدا · وهو يؤلف عنصرا قويا فى كل أيديولوجيــة قومية وينطوى عادة على تمجيـد للطابع القومى لأمة الشخص والحط من قدر العدو القومى · وحتى الناس المدربون على التفكير الناقد فى كل المسائل الأخرى يتمسكون بتحيزات من هذا النوع دون أن يناقشــوها · ويدرك بعض النــاس ضرورة فحص مثل هذه المعتقدات بعناية ، وينبذون الصور الفاضحة من التحيز القومى ولكنهم يذهبون الى أنه لا يمـــكن انكار وجود الطـــابع القومى وان لم يستطيعوا أن يحددوا ماهيته الحقيقيــة · ان ليوبولد فون رانكه ، وهو مؤرخ من أعظم المؤرخين فى العالم وأبعدهم عن التحــيز ، انتهى الى أن الروح القومية يمكن الاحساس بها فقط ولكن لا يمكن فهمها ، فهى عنده « هواء روحى » يتخلل كل شيء (١) · بيد أن كثيرا من المؤرخين الآخرين لم يشاركوه فى وجهة نظره المتحفظة · ومن اليسير أن يجمع المرء عددا كبيرا من الأحكام السهلة الخاطئة التى أصدرها رجال مبرزون فى كثير من الأمم عن السمات القومية (٢) ومعظم هذه الآراء تنطوى على التوحيد بين الأمة وجماعة عنصرية · بيد أن موضوع الطابع القومى كثيرا ما نوقش أيضا بروح أقل تحيزا (٣) ، فالسائحون والسياسيون والكتاب القدامى كان

(١) أ · جاسباريان : «Der Begriff der Nation in der deutschen Geschichtsschreibung des 19 Jahrunderts» ١٩١٨ ·

(٢) وجه النقد لعدد كبير من هذه الاحكام بواسطة جون · م · روبرتسون فى « الساكسون والكلت » ١٨٩٧ و « الالمان » ١٩١٦ ، وكذلك جون أوكسميث « الجنس والجنسية » ١٩١٩ ، و ف · هرتز « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ ، وهاملتون فايف «وهم الطابع القومى » ١٩٤٠ ·

(٣) لقد عرضت كثيرا من أوصاف السمات القومية وتفسيراتها فى عدة مقالات. مثلا مقالى عن النظريات اليونانية فى «Koelner Vierteljahrshefte fur Soziologie» ١٩٢٣ ، وعن هذه النظريات فى العصور التالية «Archiv fur Sozialwissenschaften» المجلد ٥٤ ، ١٩٢٦ ص ١ ـ ٣٥ وص ٦٥٧ ـ ٧١٥ · وهناك كتابات أخرى فى الموضوع أوردتها فى مقالى فى « مجلة علم الاجتماع » المجلد ٢٦ ص ٣٦٩ · سنة ١٩٣٤ ·
وهناك عرض طيب مفيد للمشكلة بقلم م · جينسبرج بعنوان « الطابع القومى » فى مجلة علم النفس البريطانية » (القسم العام) الجزء ٣٢ بسنة ١٩٤٢ ·

يصدمهم تباين القوانين والعادات والعرف والامزجة بين الشعوب ، وفكروا فى أسبابه . ولم يول مفكرو العصور الوسطى هذه الاختلافات اهتماما كبيرا ، ولكن « الانسانيين » أعادوا الاهتمام بها وأخذوا عن القدامى تفسيراتهم لاسبابها . ومنذ ذلك الوقت كتبت مؤلفات لاعداد لها عن السمات القوميه ، أما فى مجرد وصفها أو فى محاوله تتبع اصلها وأسبابها . وفى العصور السابقه كان التفسير الرئيسى للسمات القومية هو تأثير القوى الطبيعيه ، مثل النجوم والجو والتربة ، على الدم وعلى الافرازات الداخلية للناس وعلى أمزجتهم . وهناك مصدر كلاسيكى لجميع النظريات المتأخرة عن تأثير الجو ، وهو كتاب يعزى الى هيبو قراط . وتقدم بطليموس وجالين بالنظرية الاسترولوجية . بيد أن بعض الكتاب الاغريق ، مثل ثيوسيديد وسترابو، أدركوا أن الأمر انما يرجع الى عوامل جغرافية كثيرة تؤثر فى الظروف الاجتماعية ، التى تحدد بدورها عقلية الناس ، أكثر مما يرجع الى التأثير المباشر للطبيعة على دم الناس فعقولهم . ووجهة النظرية الثانية هذه تفسر طابع الشعوب التى تعيش فى الصحراء مثلا بالتأثير المباشر لاشعاع الشمس ، فى حين تذهب الأولى الى أن الصحراء تدعو الى التنقل والترحال وأن ذلك ينتج نموذجا معينا من العقليات . كما تبين الدارسون أيضا أن السمات الخاصة بالشعوب تتأثر بديناميكية التاريخ ، مثل الحروب والهجرات والانتقال والاختلافات الاجتماعية والاكتشافات والاختراعات والثورات والاتصال الثقافى وما الى ذلك ، وأن هذه الأشياء هى التى تحدد سيماء مدنية الشعب . وتخضع هذه الحركات التاريخية طبعا للظروف الطبيعية جزئيا . ولكن صار من الواضح ان الطبيعة عامة عامل نسبى . فتأثير نوع بذاته من البيئة الطبيعية ليس واحدا على جميع الشعوب وفى جميع الظروف بل ان أثرها يتوقف على عوامل عديدة . والشخصية ، الفردية والجماعية ، قوة ذات فاعلية كبرى بين هذه العوامل .

ومن القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر كان موضوع تباين العادات والقوانين وأسبابها من الموضوعات المفضلة لدى الكتاب الذين تحدوهم أفكار « الانسانية » و « الاستنارة » . وأكثر هذه الكتب نفوذا هى تلك التى كتبها بودان وهورتى وباركلاى ومنتسكيو . وبصفة خاصة مونتسكيو الذى جمع ثروة من الملاحظات الهامة والأفكار المثيرة وكان له أكبر نفوذ على جميع ما جاء بعده من تفكير فى الموضوع ، بيد أنه بالغ فى أثر الجو . وقد كان هيوم وهردر من أوائل من هاجموا فكرة أن الجو

هو القوة الكبرى (١) وفى حين كان كتاب القرن الثامن عشر كثيرا ما يبالغون فى تاثير القوى الطبيعيــة ، وضع « الرومانسيون » الثقل على النمو التاريخى العضوى وكثيرا ما انغمسوا فى بناء روح قومية روحانية زعموا أنه يمكن تتبعهــا خلال تاريخ الشعب بأكمله . وحاول كثير من المؤرخين ، وبخاصه فى ألمانيا وفرنسا ، اثبات أن تاريخ امتهم كله يدل على استمرار طابعها القومى ، وكثيرا ما فسروا انجازاتها على أنها نتاج العبقريه القومية وعزوا فشلهــا الى عوامل أجنبية . بيد أن هذا الاتجاه ثبت أنه مما لا يمكن الدفاع عنه ونبذه الدارسون الجادون .

وقد أدت زيادة المعرفة الجغرافية والتاريخية ونمو أساليب النقد الى تناول مشاكل الطابع القومى بطريقة علمية ومنظمة أكثر . ووضع علماء بارزون فى الجغرافيا ، مثل كارل ليتر وفردريك راتزل وجين برونيــه ، خططا شاملة أطلق عليها « الجغرافيا البشرية » (٢) . وكذلك أولى كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء الأجناس وعلماء النفس اهتماما كبيرا لبحث السمات القومية . وفضلا على ذلك كان مما له قيمة بصفة خاصة أن الدراسة لم تقتصر على القضايا العامة بل درست أيضا ظروف بعض الأمم المعينة ، مع تأكيد خاص على نمو تقاليدها ومثلها العليا واتجاهاتها العقلية والدور الذى لعبته (٣) . وأدى المدخل الجغرافى الى تعميمات عامة تصورها أمثلة من شعوب مختلفة وذات قيمة فى توجيه البحث وان كانت أيضا لا تخلو من أخطار معينة . فدراسة البناء الاجتماعى لشــعب واحد فقط فى ضـــوء ظروفه الطبيعية والتاريخية وبغرض تحـديد العقليــة القومية نتاجا للقوى الاجتماعية والتاريخية كانتأفضل لتجنب التعميات المتسرعة وفى حين كان الكتاب فىالماضى كثيرا ما يبدءون منفكرة مسبقة عن الطابع القومى ويحاولون اظهار تعبيراتها فى جميع أحداث تاريخ الشعب

(١) أنظر دافيدهيوم «المقالات» رقم ٢١ بعنوان «فى الطابع القومى» ، وكذلك ج.ج. هردر «Ideen Zu einer Philosophie der Geschichteder Menschheit» ١٧٨٤

(٢) أنظر ف . راتزل «Anthropogeographie» مجلدين سنة ١٨٨٢ ـ ١٨٩١) طبعة جديدة) و «Politische Geographie»، الطبعة الثالثة ١٩٢٣ ، وكذلك جين برونيه «الجغرافية البشرية» ١٩٢٠. وقد عرضت أ.ش. سمبل فكرة راتزل مع اضـافات كثيرة فى «مؤتمرات البيئة الجغرافية» ١٩١١ .)

«Esquisse Psychologique des peuples Européens»

(٣) أنظر بصفة خاصة الفرد فوييه «Esquisse psychologique des peuples européens». الطبعة الخامسة ١٩١٤ ،

«La psychologie des individus et des Sociétés chez Taine» ١٩٠٦ ،

هـ . ث . باكل « مدخل لتاريخ المدنية فى انجلترا ١٨٥٧ ـ ٦١ » جون ماكنيسون روبرتسون «باكل ونقاده» ١٨٩٥ ، أرنست باركر «الطابع القومى وعوامل تكوينه» ١٩٢٧ ، أ . هيرفيتز Die Seelen de Volker ١٩٢٠ .

الذى يتعلق به الأمر ، يصف الدارسون الآن أنظمة الشعب ومدنيته ويحللونها ثم يبحثون عن السمات العامة التى يتميز بها هذا الشعب • واذا كانوا لا يزالون يستعملون تعبير «الطابع القومى» الذى فقد الاحترام الى حد ما ، فانهم عادة يقصدون به الاتجاهات السائدة فى هذه المدنية • بيد أن هذا الأسلوب أيضا يثير بعض الانتقادات • اذ يمكن الجدل فيما اذا كانت نفس الاتجاهات العامة تسود فى جميع المجالات التى تتألف منها المدنية ، فىالسياسة والاقتصاد كما فىالأدب والفن ، بل لقد كان موضع شك ما اذا كان مجال واحد منهـا يتسم بهـذه الوحدة الوثيقة بحيث يستطيع المرء أن يتحدث مثلا عن روح الادب الانجليزى ككل (١) • فضلا عن أن المدنية القومية ليست مجرد تعبير عن الطابع القومى • فكل شعب استورد أجزاء كبيرة من مدنيته من الخارج • وكثيرا ما فرضت الأنظمة على شعب بدون رضاه • فالمسيحية مثلا كثيرا ما فرضت على شعب برغم مقاومته العنيفة ، وان كانت فيما بعد صاغت اتجاهه بأكمله • بالاضافة الى أن الصورة الخارجية قد يكون لها مغزى مختلف لدى أمم مختلفة • وأخيرا تدل الدراسة المقـارنة للأمة التى فى نفس المرحـلة من التطور الاجتماعى على أنه لا توجد صفة واحدة تنفرد بها أمة واحدة أولا توجد مطلقا فى عقل أية أمة • فالاختلافات تنصب على الدرجة والوقت والمزيج فقط • فسمة من السمات قد تظهر مبكرة أو قد تكون أكثر أو أوضح لدى أمة ما أكثر من الأمم الأخرى ، أو قد تكون ممتزجة بسمات أخرى بطريقة تتفرد بها أمة ما •

والحجج الرئيسية ضد الطابع القومى هى (١) التنوع الكبير فى الطابع الفردى والسمات الثقافية فى كل أمة (٢) عدم وجود أى اختلاف حاسم واضح فى الطابع الفردى والسمات الثقافية بين الأمم ، على شرط أن تتم المقارنة بين الأنماط الاجتماعية القابلة للمقارنة وحدها (٣) التغير الجذرى المسـتمر فى الآراء التى تعتنق فيما يتعلق بطابع أمم بذاتها • وهذه الحجج تدحض بصورة قاطعة كل تلك الآراء التى تبالغ فى وحدة السمات القومية واستمرارها وتفردها ، مثل الآراء التى تقوم على جميع التفسيرات العنصرية بصفة خاصة • فالعنصرية تفترض أن الأمم تفصلها جذريا عقلية العنصر المتجانسـة والتى لا تتغير • ومثل هـذه الأفكار لا ريب فى أنها خطأ • ومع ذلك فان فكرة الطابع القومى الموحد الذى لا يتغير

---

(١) انظر ف • بولدنسـبرجر « الادب » ١٩٢٧ ص ٢٨٧ و ل • م • برايس « المؤثرات الادبية الانجليزية الالمانية » ١٩١٩ ص ١٢٠ •

منتشرة على نطاق واســـع حتى بين الناس الذين لا يؤمنون بالعنصر • ويرجع ذلك الى حد ما الى وجهة نظر خطأ فى الطابع بصفة عامة • فكما أشرنا من قبل ، حتى الطابع الفردى ليس موحدا تماما ولا هو غير قابل للتغير مطلقا • فهو يضم اتجاهات متعارضة كما أنه قابل للتغير داخل حدود معينة • ونستطيع أن نفهم الطابع على أنه مجموعة من القوى تجنح نحو وحدة وثبات معينين ، تحت تأثير اتجاهات موروثة وارادة مركزية وظروف خارجية • ومن الجلى أن الفرد كقاعدة عامة يظهر وحدة وثباتا فى الطابع أكثر من الجماعة • والسـبب هو أن ارادة الفرد تمثل قوة مركزية أكثر مما يطلق عليه الارادة الجماعية ، وأن الجماعة تعيش مدة أطول ومن ثم لديها فرصة أكبر فى تنمية وتغيير نفسها ، ونحن نستطيع التحدث عن الطابع القومى على سبيل المقابلة فقط كما نتحدث ايضا على طابع منظر طبيعى يضم أشياء كثيرة مختلفة ومع ذلك فهو يمثل وحدة معينة فى نظر عالم طبقات الأرض وعالم النبات وعالم الحيوان والجغرافى والفنان • وقد يكون من الأفضل استبدال تعبير « الطابع القومى » بتعبير آخر أقل ابهاما ، وقد اقترح البعض تعبير « التقاليد القومية » بدلا منه • ولكن عقلية الأمة ليســت مجرد مســألة تقاليد ، بل انهــا تتأثر أيضا بالتكوين الاجتماعى وبالأفراد الأقوياء • ان التعبير الصحيح هو « العقلية القومية » •

(ب) تكوين الطابع القومى

لا يمكن تعريف الطابع القومى الا بأنه جمــاع التقاليد والمصــالح والمثل العليا المنتشرة فى أمة ما وتؤثر فيها وتصوغ صورتها فى عقل كل من الأمة التى يتعلق بها الأمر والأمم الأخرى • وقد ناقشنا من قبل فى فصل سابق مغزاه الذاتى بالنســبة للوعى القــومى ، ولكننا ينبغى أن نفحص أيضا مغزاه الموضوعى • ان المعتقدات التى تعتنقها أمة فيما يتصل بطابعها الخاص وطابع الأمم الأخرى تؤلف عادة مزيجا من بعض الحقيقــة وقدرا كبيرا من المبــالغة والتشــويه • ولكن حتى الأوهام تعتبر حقائق عقلية وقد يكون لها نصيب كبير فى انتـــاج التضامن القومى والطموح القومى والمنافسات القومية • فضلا على أن الأوهام كثيرا ما تكون وراءها ظروف طبيعية واجتماعية قد يكون لها تأثير كبير على التاريخ • وخطورة الأوهام والتحيزات القــومية تكمن بالذات فى أن فيها أيضــا شيئا من الحقيقة • بالاضافة الى أن الأفكار التى تتكون عن السمات القومية كثيرا ما يمكن تتبعها فى الماضى قرونا ، وهذا أيضا يقوى الاعتقاد فى صحتها كما

يخلق فكرة الطابع العنصرى الموروث • بيد أن استمرار السمات القومية ليس قاعدة ثابتة بأى حال من الأحوال فتاريخ معظم الأمم يظهر أيضا تغيرات فجائية فى العقلية القومية • ففى العصور السابقة كان الانجليز هم الذين عرفوا بأنهم شعب متمرد وثورى و « غير مأمون » فى حين كان الفرنسيون يفخرون بولائهم لملوكهم وبثبات أنظمتهم •

وواضح أن موضوع مدى تغير عقلية الأمة ، اذا كانت تتغير أصلا ، ذو أهمية قصوى لتفسير التاريخ وللسياسة العملية أيضا • وقبل أن نناقشه لا بد من أن نقول بعض الملاحظات القليلة الأخرى عن تكوين الطابع القومى • ان التقاليد والمصالح والمثل العليا التى يتألف منها ينصب بعضها على حياة الأفراد وبعضها على حياة الأمة • وكل أمة لها ميول معينة فيما يتعلق بالطعام والشراب والسكن والملبس وطرق الحياة الأخرى ، وكذلك لها عادات فى الفكر والشعور • فاهتمام الانجليز بالرياضة فى الهواء الطلق قديم جدا • وفى القرن الثامن عشر وصفه وليم فيتزستيفن وصفا شائقا فى كتابه عن حياة القديس توماس بيكيت • وقد ترك هذا الاهتمام أثره أيضا فى المثل العليا القومية • والتعبير « ليس هذا رياضيا » يدل الى أى حد ارتبطت الرياضة بالانصاف فى العقل الانجليزى • وكثيرا ما لام الكتاب القوميون الألمان الانجليز على النظر حتى الى الحرب من زاوية الرياضة (١) فقد بدا لهم ذلك تجديفا « بقدسية الحرب » ، فى حين ان فكرة الانجليز هى أن الحرب أيضا يجب أن تدور على أساس قواعد الانصاف • وقد يكون سير ريشارد آكلاند مبالغا عندما قال : « اننا كأمة نعطى لمباراة كرة قدم من اهتمامنا ألف مرة ما نعطى لسياستنا الخارجية » (٢) ، ولكن أيا كان الامر فان كرة القدم من الأنظمة ذات المغزى بالنسبة للطابع القومى الانجليزى •

والاختلافات القومية فى عادات الحياة الخاصة كثيرا ما تثير تحيزات. فكل أمة تقريبا تزدرى الأمم الأخرى بسبب ميولها فيما يتعلق بالطعام وتشيد بأطعمتها هى المفضلة (٣) • ففى الأزمنة الماضية كان الانجليز مثلا يسخرون من الفرنسيين باعتبارهم « آكلى الضفادع » ويحتقرونهم

(١) و • سومبارات «Hundler und Helden» ١٩١٥ ص ٤٧

(٢) لماذا أنا ديمقراطى « حلقة باشراف د • آكلاند » ، ١٩٣٩ ص ١٤ •

(٣) هناك أمثلة عديدة فى كتاب روبرت ميشلز «Der Patriotismus» ١٩٢١ • وهذا الكتاب اضافة قيمة جدا للدراسات الاجتماعية الخاصة بالشعور القومى والايديولوجية القومية •

لأنهم يلبسون أحذية خشبية ، فى حين كانوا يفخرون « بالشواء الانجليزى القديم ». ولكن الاختلاف فى التفكير والشعور أيضا اعتبر من السمات القومية . فالفرنسيون يعتبرون العقلانية والمنطق الصارم والوضوح اللغوى من ميزاتهم الخاصة ، ويعتبر الانجليز الأسلوب التجريبى والادراك السليم والنفور من التفكير المجرد طريقتهم الخاصة فى التفكير ، أما الألمان فيفخرون « بالعمق » الألمانى وتفضيلهم « للنظرة الشاملة للعالم » . وهناك مجموعة خاصة من المعتقدات ، هى تلك التى تتصل بالأصل النبيل و « الدم الأفضل » ومصير الأمم ورسالتها وقد ناقشناها من قبل . ولبعض هذه المعتقدات صلة مباشرة بالتطلعات القومية ، وبعضها ليس له صلة مباشرة بها وان كان من الصعب وضع حد فاصل بين هذه وتلك. والأولى يمكن أن تسمى حقا « بالايديولوجية القومية » .

ومعظم أفكار السمات القومية تجمع التقاليد والمصلحة والمثل العليا ، ويكون أحد هذه العناصر متغلبا عادة . فالحرية موضع اعتزاز بالتأكيد فى بريطانيا كتقليد يرجع الى « الوثيقة العظمى » ولكنها أيضا مصلحة ومثل أعلى. وتحتفظ التقاليد بحيويتها أساسا عن طريق ارتباطها بالمصالح والمثل العليا لتلك الطبقات التى تؤلف ما يسمى « بالارادة القومية » وتضع المعايير للأمة . وهذه الطبقات تتغير باستمرار وتظهر طبقات جديدة وتحصل على نصيب فى السلطة الاجتماعية والسياسية . ويبدو أن هذه التغييرات هى السبب الرئيسى فى اختفاء التقاليد ونمو تقاليد جديدة . فقد ظلت المحافظة على « ميزان القوى » مثلا هى المبدأ الأول للسياسة الخارجية البريطانية قرونا طويلة ، ولكنها نبذت بعد الحرب الأولى وحل محلها مبدأ « الأمن الجماعى » . وواضح أن التغيير فى هذا التقليد جاء نتيجة لتغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى بريطانيا وفى الأمم الأخرى .

وتنطوى البيئة الطبيعية والتكوين الاجتماعى على عوامل عديدة تشجع نمو وحدة معينة فى الطابع الى حد ما ، وتعوقها الى حد ما . فالشعب الصغير الذى يعيش فى ظروف طبيعية واجتماعية متماثلة نسبيا يكون أكثر تجانسا فى عقليته من شعب يمتد فى أقاليم واسعة تتنوع فيها الظروف الجوية والاقتصادية والاجتماعية تنوعا كبيرا . وقد دفعت هذه الحجة المفكرين السياسيين القدامى الى افتراض أن الشعوب الصغيرة هى وحدها التى تستطيع أن تؤلف أمة ، أى مجتمعا توحده وجهة النظر المشتركة . وقد اعتنق عدد كبير من الكتاب الحديثين هذه الفكرة ولكن الظروف الحديثة أدت الى تغيير كبير . فمن ناحية صار نمو الفروق الفردية بصورة غير

عادية فى حيز الامكان بسبب التقدم الاجتماعى والثقافى . ومن ناحية أخرى أدت المخترعات التكنولوجية وتقدم التنظيم السياسى والاجتماعى الى ظهور عدد كبير من عوامل التوحيد مثل المدارس الابتدائية والصحافة والسكك الحديدية والبريد والبرق والتليفون والسينما والراديو وتكدس كتل ضخمة من الجماهير فى المدن والمناطق الصناعية . بيد أن أقوى العوامل جميعا هى الدولة الحديثة التى تركزت فى يدها وسائل لصياغة عقلية الأمة لم تكن معروفة فى العهود السابقة . ودرجة نفوذ الدولة تختلف طبعا من أمة الى أمة . ويقول دافيد هيوم فى مقاله « عن الطابع القومى » : ان الحكم المختلط فى انجلترا والحرية التى تتمتع بها جميع الأديان والطبقات والأفراد تعمل ضد ثبات الطابع القومى . بل انه يقول : « ان الانجليز من بين شعوب الكون كلها لهم أقل طابع قومى ، اللهم الا اذا كانت هذه السمة بالذات التى تفردوا بها تعتبر طابعا قوميا » . ولكن هيوم يغفل فى هذه الملاحظة عن أن النظام السياسى ليس بأى حال من الأحوال العامل الوحيد فى تحديد الطابع القومى ، ويناقش هو نفسه عوامل أخرى فى مواضع أخرى . فالحرية الانجليزية لم تحل دون نمو التقاليد المنتشرة على نطاق واسع جدا بين جميع طبقات الأمة . بل ان كثيرا من الملاحظين الأجانب وجدوا أن الشعب الانجليزى يتسم بتجانس عقلى أكثر من غيره ، وهو رأى فى حاجة الى تحديد . ان وجود نوع معين من الوحدة فى الآراء والعادات والعرف لدى أمة يرجع الى حد كبير الى أن الطبقات الحاكمة تستخدم نفوذها السياسى والاقتصادى والاجتماعى لنشر الآراء والعادات التى تخدم مصالحها ، وأن جميع الطبقات تقلد الى حد يزيد أو ينقص النماذج التى تضعها الطبقة الحاكمة أو « المجتمع الراقى» . وفى العهود السابقة كان لكل مرتبة أسلوبها المنفصل فى الحياة ، وكان محرما أن يتخذ المرء عادات مرتبة أعلى أو يلبس ملابسها . بيد أن نمو الوحدة القومية حطم هذه الحواجز وبدأت كل طبقة تقلد ما أمكن أسلوب حياة الطبقة التالية . ولما كانت تقاليد الطبقات الحاكمة ثابتة جدا فى كثير من الأحيان فان ذلك أضفى على الطابع القومى نوعا من الثبات . والفرق فى الطبائع بين الألمان والانجليز يرجع السبب الأكبر فيه الى أن طبقة النبلاء الألمان حافظت الى حد كبير على طابع فئة المحاربين وأن الطبقات الأخرى حذت حذوها ، فى حين أن النبلاء فى انجلترا اتخذوا عقلية ملاك الأراضى والرأسماليين الأثرياء وخلقوا نمطا فى الحياة قلدته الطبقات الأخرى على نطاق واسع . ومما له مغزى فى العلاقات بين الطبقات فى انجلترا أن تعبير «جنتلمان» الذى كان يقصد به أصلا مركز

اجتماعى صار يستخدم فى وصف أسلوب معين من السلوك لدى جميع الطبقات · ولا ينطبق ذلك على اللفظ الفرنسى أو الألمانى المقابل الذى له نفس الأصل · بل ان الفرنسيين والالمان يستعيرون لفظ « جنتلمان » من اللغة الانجليزية للتعبير عن نمط معين من السلوك (١) ·

(ج) الأيديولوجية القومية

كثير من عناصر الطابع القومى ليست بالضرورة مرتبطة بالتطلعات القومية بذاتها بل هى مجرد قومية بمعنى انها منتشرة على نطاق واسع جدا بين الأفراد من كل الطبقات · فواقعة أن الشعب الانجليزى كقاعدة عامة يحب الحيوانات أو يغرم بالرياضة ليست لها علاقة بالشعور القومى، اللهم الا اذا أثارت مباراة فى كرة القدم مع فريق أجنبى روح المنافسة · ولكن هناك أيضا سمات مرتبطة بصورة مباشرة منتظمة بالسعى نحو تكوين الشخصية القومية · ولعل هذا السعى هو أكبر قوة تعمل على توحيد الطابع القومى وتؤدى الى نمو الأيديولوجية القومية · ولا تنطوى الايديولوجية الكاملة النمو على مذاهب سياسية متميزة فحسب ، بل كذلك على تفسير معين للتاريخ وعلى فلسفة معينة· اذ تتألف الايديولوجية القومية من أفكار عن طابع الأمة وطابع الأمم الأخرى ، وعن ماضى الأمة وحاضرها ومستقبلها، وعن رسالتها فى العالم، وعن مهمة الدولة وواجبات الأفراد تجاه الأمة · والتطلع الى استقلال عن جميع الأنماط الأجنبية كثيرا ما يؤدى الى تأكيد التفرد بالسمات الخاصة فى ذاته ، حتى اذا لم يكن هذا التفرد مما يدعو الى الفخر كثيرا · فالخيلاء القومية أقوى من الادراك السليم · ويحكى لنا هلفسيوس فى كتابه « عن الروح » اسطورة هندية عن شعب من ذوى الظهور الحدباء يعتبر فيه الأجنبى السليم البنية موضع سخرية كمخلوق غريب ويضيف : « أن كل أمة تعجب بنقائصها الخاصة وتحتقر الصفات المضادة · ولكى ينجح المرء فى بلد ما يجب أن يكون مثل أهله » ·

وكثيرا ما يؤدى نمو الايديولوجية القومية الى اختلاف فى قواعد السلوك اختلافا يكاد ينطوى على تكوين طابعين للشخص الواحد ، طابع خاص فيما يتصل بشئونه الخاصة وطابع قومى فى المسائل القومية (٢) ·

---

(١) انظر سمايث «المثل الاعلى للجنتلمان» ١٩٠٨ ·

(٢) قال لورد سالسبورى فى خطاب له ألقاه فى ١٠ من مارس ١٨٩٧ انه كثيرا مافكر فى التناقض الغريب بين الطابع الفردى والجماعى وأعطى مثلا يسترعى الانتباه عن الطابع الانجليزى ·

ويمكننا أن نعثر على أمثلة ذات مغزى فى مذكرات جنرال فون مولتكه ، رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألمانى فى بداية الحرب العالمية الأولى (١) • فمذكراته اليومية وخطاباته لزوجته يبدو فيها رجلا ودودا طيب القلب يتحدث عن الحروب باستبشاع وعطف عميق على من يعانون ويلاتها • وتراوده الشكوك فى المسيحية لأن مذهب موت المسيح للتكفير عن آثام البشر ومذهب القضاء والقدر مما يبدو له قاسيا • ومع ذلك فان هذا الرجل نفسه كان له نصيب كبير فى اشعال نار الحرب وذهب الى أن الموقف كان مواتيا تماما لألمانيا بحيث يجب استغلاله على أى الأحوال • ورفض أن يحترم حياد بلجيكا حتى اذا وعدت انجلترا بأن تظل على الحياد•

وهذا التعدد فى المعايير الأخلاقية يبين فى جلاء لماذا يعد المفهوم الفردى عن الطابع القومى غير ملائم بالمرة • فالناس قد يكونون مسالمين وانسانيين فى شئونهم الخاصة ، واعتدائيين بلا رحمة فى المسائل القومية ، وبخاصة فيما يتصل منها بما يسمى بالمصلحة القومية والشرف القومى • وليس من الضرورى أن تكون المصالح الحقيقية والشرف الحقيقى هى ما تعتبره الأمم أمورا حيوية • فكثيرا جدا ما تعتبر من المسائل الخاصة بالشرف أشياء لايمكن أن يعتبرها من لم يتشربوا الايديولوجية القومية التى يتعلق بها الأمر من الاشياء التى لها أية قيمة • فالايديولوجية القومية يمكن مقارنتها بمنظارين ملونين أو مشوهين لا يستطيع خلعهما سوى أشخاص قلائل جدا فى الأمة •

ونمو طابعين فى الشخص الواحد لا يؤدى الى تعدد المعايير الأخلاقية لديه فحسب ، بل انه يؤثر حتى فى التفكير المنطقى ، فكثيرا ما يكون من المستحيل مناقشة قومى مؤمن لأنه لا يستطيع التفكير منطقيا اذا لم تكن النتائج متفقة مع مطالب الايديولوجية القومية • وذلك القدر الهائل من الكتابات التى أنتجها الأساتذة الألمان ابان الحرب دفاعا عن السياسة الألمانية يعطينا أمثلة تستحق الاهتمام تماما • فالطبقات المثقفة الألمانية ، وبخاصة كثير من الأساتذة ومدرسى المعاهد العليا ، صارت من دعامات فلسفة العنف التى يقوم عليها النظام العسكرى الألمانى • وقد أعلن واحد من أكبر الأساتذة الألمان ، وهو ديبواريمون ، فى حديث اكاديمى له بفخر أن الاساتذة الألمان هم « الفرقة العلمية المحازبة فى سبيل بيت هو هنزوللرن » • وليس هناك بلد ظهرت فيه مثل ذلك القدر الكبير من الكتابات عن الطابع القومى الذى ظهر فى ألمانيا ، وكان الهدف الرئيسى

---

(١) انظر هلموث فون مولتكه «Erinnerungen, Briefe, Dokumente»

لهذه الكتابات هو تمجيد الجنس الألمانى وصوغ الطابع القومى فى قالب اعتبر النمط الألمانى الحقيقى • ففى عهد هتلر اكتشف نوع خاص من علوم الطبيعة والرياضة قيل عنه : ان الباحثين من غير ذوى الدم النوردريكى لايستطيعون الوصول اليه • أما فى الديموقراطيات الغربية حيث تحققت الدولة القومية قبل ألمانيا بكثير وحيث يتسم الشعور القومى بتوازن أكثر فان تكوين الطابع القومى بواسطة التعليم الاجبارى والخدمة العسكرية والسلطة العلمية لم يحظ بكل هذا المجهود الشامل • فالسعى نحو الأصالة القومية دفع القوميين الألمان الى نبذ قواعد السلوك التى تعتبر فى كل مكان آخر جوهرية للمدنية • فالنظام البرلمانى والديموقراطية وحقوق الانسان والمسيحية تحتقر جميعها لا لأنها تعارض الروح العسكرية فحسب ، بل لانها اعتبرت كذلك أجنبية الأصل ومن ثم لا تتفق مع المثل العليا الالمانية الحقة • بيد أن هذا لم يمنع القوميين الالمان من تقليد بعض أساليب الفاشيين الايطاليين والبلاشفة الروس •

وتجنح الايديولوجية القومية الى تجديد الطابع الخاص للأفراد ، وبخاصة فى البلاد التى يخضع فيها الفرد كلية للأمة • فحتى أكثر الأمور خصوصية التى يبدو لنا أنها لا علاقة بينها وبين الشرف القومي أو العظمة القومية ، مثل العلاقات بين الآباء والأبناء أو بين الرجل وزوجته ، تنظمها عندئذ الايديولوجية القومية • فالألمانى فى عهد النازى لا يستطيع أن يتزوج المرأة التى يحبها اذا لم يكن لديها قدر كاف من « الدم الآرى » ، والأب لا يثق اذا كان ابنه لن يشى به للشرطة لعدم كفاية اخلاصه للزعيم • وقبل هتلر بزمن طويل أحدثت العسكرية البروسية تغييرا ضخما فى طابع الشعب الالمانى بأكمله وفى صور السلوك لديه • وقد لاحظ نيتشه فى عصره أن طريقة جديدة مزعجة فى نطق اللغة الألمانية قد تسربت الى الأمة • وكان ذلك نتيجة للهجة شمال ألمانيا الخشنة الحادة التى يستخدمها الضابط البروسى عندما يصدر الأوامر الى رجاله والتى حلت محل النطق الرقيق السابق • فالنمساوى أو الألمانى الجنوبى يعرف على الفور الشمالى الالمانى بسبب لكنته ويجدها مزعجة • ومع ذلك فان كثيرا من ألمان الجنوب ايضا اصابتهم بالتدريج عدوى هذه الطريقة فى الحديث أكثر فأكثر ، وبخاصة وأولئك الذين حظوا بشرف العمل كضباط احتياطيين من بين الطبقات المتعلمة والحكومية •

ووظيفة الايديولوجية القومية هى ربط جميع الطبقات بعضها ببعض برباط وثيق وتوحيد عقلياتها وفرض نفوذ الطبقات التى تعد المركز

الرئيسى للايديولوجية القومية على السياسة أو تقوية هذا النفوذ • وفى كثير من الاحيان لا يمكن تحقيق هذه الأهداف بالدعوة لايديولوجيـــة واحدة لجميع الطبقات • وقد انتجت العسكرية الالمانية والنزعة القوميـة الألمانية قبل الحرب الأخيرة عدة مجموعات من الأفكار لكسب تأييد جميع الطبقات للحرب • فكانت واحدة من هذه المجموعات للجماهير التى لا تميل الى الحروب العدوانية ، والغرض منها اثبات ان المانيا فى خطر دائم من الهجوم عليها بواسطة الانجليز والفرنســيين والروس الذين يريدون تحطيم ألمانيا ، ومن ثم فان التسليح الألمانى الضخم دفاعى بحت • وقد استخدمت كثيرا حجة أن بريطانيا تغار من تجارة الصادرات الألمانية وتريد القضاء عليها • وغرست أيديولوجية ثانية فى قطاعات الأمة الأخرى التى كانت أقل عزوفا عن الحرب ، مثــل الطبقات الوسطى المتعلمة والطلبة والموظفين • وتذهب هذه الأيديولوجية الى أن ألمانيا فى حاجة الى «متنفس» • فاذا لم يجد شبابها مراكز طيبة يعملون فيها أو ساء حــال التجـــارة فان ذلك انما يرجع الى جشع انجلترا وفرنسا وضراوتهما • فقد اقتسمتا العالم فيما بينهما ولم يتركا شيئا لألمانيا • ومن ثم فان الحرب لها مايبررها لايجاد متنفس للوطن • وهناك أيديولوجية ثالثة خصصت للنخبة من القوميين المتحمسين الذين لا يعوزهم أى تبرير للحرب • وهى تمثل العلاقات الدولية باعتبارها صراعا لاهوادة فيه من أجل القـــوة • فكل أمة كبرى تبوأت مركزها عن طريق القوة ، وقد جاء دور ألمانيا • ونوع رابـــع من الايديولوجيات للقوميين الذين بلغوا درجة أكبر من الثقافة • وتقوم على أن الأفكار الألمانية والانجليزية عن الدولة والمجتمع متعارضة تعارض النعيم والجحيم فالثقافة الألمانية مثالية والمدنية الانجليزية مادية • والأولى تهدف الى أعظم المثل العليا فى حين أن الثانية تهدف الى اشباع الغرائز الدنيا لدى الانسان • ومن ثم فان سيادة المانيا فى العالم تعنى انتصار المبادىء العليا على السفلى • وبرغم أن بعض العنــاصر المفردة فى كل من هــذه الايديولوجيات المختلفة كثيرا ما تناقض بعضها البعض فان كثــيرا من الناس كانوا يصدقونها جميعــا • فللأيديولوجيات القومية من القــوة والسيطرة على العقول ما يجعلها تغفل عن هذه المتناقضات أو تتجاهلهــا عمدا ، تماما مثل المؤمنين بالانجيل الذين لا يزعزع ايمانهم بمذهبهــم أى تناقض فيه •

(د) الايديولوجية القومية والعلاقات الدولية

تتكون الأفكار السائدة فى الدول الديموقراطية المسالمة عن العلاقات الدولية طبقا للمعايير المعترف بها فى السياسة الداخلية • فأيديولوجياتها القومية تتضمن الاعتقاد بامكان سيادة حكم القانون دوليا وقيام برلمان من الأمم والتخلص من الحرب بالتفاهم والتحكيم • أما الأمم العسكرية فانها على النقيض من ذلك تطبق وجهة نظرها فى العلاقات الدولية ، التى تعتبرها حربا دائمة سافرة أو مستترة ، على السياسة الداخلية ايضا • ويعبر هذا الاتجاه عن نفسه حتى فى اللغة • فموسولينى أبتكر شعار « معركة القمح » للحث على زيادة انتاج القمح ، وتحدث النازيون عن « جبهة الزبد » عند مناقشة اجراءات الحكومة لتنظيم انتاج الزبد • ومن الأمور التى اعتبرت منذ أمد طويل مبدأ فى السياسة الخارجية أن الاختلاف فى النظم الداخلية يجب الا يؤثر بأى حال فى العلاقات بين الأمم • فاذا كان المقصود هو ان الأمم ذات الايديولوجيات المختلفة قد تستطيع أحيانا أن تتعاون تعاونا مثمرا ، وأن التجاذب والتنافر الناشئين عن أوجه الشبه أو الاختلاف فى النظم الداخلية يجب الا يكون عائقا ، فاننا نستطيع أن نوافق على ذلك ، ولكن الاعتراض الشامل على كل تفكير فى السياسة الداخلية للامم الاخرى عند تحديد السياسة الخارجية يؤدى الى كوارث• فهذا المبدأ كان صحيحا عندما كانت الاختلافات فى الايديولوجية السياسية عند الامم عديمة الأهمية نسبيا • ولكنه فى عصرنا الحاضر بمثابة قرار بأن نغلق عيوننا وآذاننا عن الواقع ونتبع الأوهام • فالواقع ان كل اتفاق أو تعاون بين الأمم ذات الايديولوجيات القومية المختلفة تماما لا يوثق قط فى ثباته اذ تتوقف فعالية كل اتفاق على تفسيره ، ويتوقف التفسير على الأيديولوجية •

ان كل عظماء السياسيين أدركوا تماما أهمية أثر الشعور العام على السياسة • وقد قال لورد جراى مرة للسفير الألمانى : انه لا السياسة ولا المصلحة هى التى تدفع الامة الى الحرب ، بل الشعور • وقال سالسبورى فى ١٨٩٧ : « اذا استطعت أن تحافظ على هدوء غير الرسميين فانى أعدك أن الرسميين لن يعلنوا الحرب قط • ففى عصرنا الحاضر من الجلى أن الحكومات المنظمة تفقد قوتها فى حين يزيد الرأى العام قوة بوضوح • والحقيقة أن الرأى العام قوة كبرى • ولكن يحسن التمييز بين عاملين يدخلان عادة تحت نفس الاسم • فهناك أولا رصيد التقاليد الأصلية التى نمت مع مرور الزمن ولا تتغير بسهولة • وهذه أستطيع ان أسميها الروح

القومية • ففى انجلترا يعد التاكيد على الحرية والرفاهية الفردية باعتبارها الهدف الأسمى للدول من هذا النوع من التقاليد • وفى المانيا لقوة الدولة وسلطتها أولوية فى الغالب على حقوق الفرد ومصالحه • والى جانب مثل هذه التقاليد نرى كثيرا من الحركات على سطح المحيط السياسى أستطيع أن أسميها الرأى العام • والرأى العام فى أى بلد يتجه مرة الى اليمين ومرة الى اليسار • يكون أكثر ميلا الى المسالمة تارة وأكثر ميلا الى روح القتال تارة أخرى ، وهكذا • ولكن الأساس ، وهو الروح القــومية ، لا يتغير بسرعة • وبرغم أن رجال السياسة كانوا يدركون عادة أن عقل الشعب وتقاليده من العوامل الحاسمة فى السياسة فانهم كثيرا ما اخطأوا فى تقدير هذه القوى •

وقد ألقى جوزيف شمبرلين فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ خطابا مشهورا فى ليشستر طالب فيه بتحالف ثلاثى جديد بين انجلترا وأمريكا وألمانيا ، وذكر من بين الحجج التى ساقها أن مثل هذا الحلف هو التحالف الطبيعى لأن الطابع السلالى لهذه الأمم الثلاث واحد تقريبا • وواضح أنه اعتقد أن الأمم التى من نفس الدم لها طابع سياسى واحد وأن ذلك يجعل التعاون سهلا • بيد أن هذا الرأى لم تؤيده الأحداث التالية • وقد ظل الدبلوماسيون الألمان والانجليز يتحدثون حول فكرة عقد حلف عـــدة سنوات ، وان كانت المحادثات انقطعت مرات • ومنذ ذلك الوقت أخـذ مؤرخون كثيرون يحللون تقاريرهم وحاولوا أن يحددوا أى الجانبين هو المسئول عن الفشل النهائى لهذه المفاوضات • وأعتقد أن ذلك كان محتوما لان كلا من الجانبين يقف فوق تقليد قومى لا يمكن التوفيق بينه وبين تقليد الآخر • وفى الوثائق البريطانية ينتهى الموضوع بخطاب يستعرض الموقف السابق من البارون هو لشتاين الذى كان فى ذلك الوقت صاحب النفوذ المسيطر فى وزارة الخارجية الألمانية • وقد استشهد هو لشتاين فى خطابه بملاحظة ألقاها مؤخرا الرئيس روزفلت يلخص فيهـــا أفكاره عن السياسة البريطانية • ويقول الرئيس روزفلت : « يبدو لى أنه يجب ان يحدث اصلاح جذرى فى الطابع البريطانى اذا أرادت بريطانيـــا ان تستمر فى الصف الاول وتحمل أعباء امبراطوريتها الكبيرة الواســعة الأرجاء » • ومن ثم فان زعماء الأمم الثـلاث جميعا آمنوا بأهمية الطابع القومى فيما يتصل بالسياسة الخارجية • واعتقدوا أن تشابه الطـــابع ضرورى للتعاون الوثيق • ولكن شمبرلين اعتقد ، أو تظاهر بالاعتقاد ، بأن الجنس المشترك ضمان للطابع المشترك ، وهو الأمر الذى اختلف فبه الزعيمان السياسيان الآخران معه بحق •

والأحلاف العابرة ضد خطر مشترك أو من أجل كسب مشترك يمكن أن تنجح دون المشاركة فى الايديولوجيه ، ولكن التعاون الدائم لا يمكن أن يتحقق بين أمم تشربت أفكارا مختلفة اختلافا كبيرا • ومن هذه الناحية كانت المصاعب أقل قبل نمو القومية الحديثة • « فالحلف المقدس» الذى تألف بعد سقوط نابليون كان يقوم على أيديولوجية مشتركة بين الملوك المتحالفين • فقد كانوا جميعا يريدون المحافظة على النظام القائم ومنع الحروب والثورات ، وأعلنوا عزمهم على اتباع مبادىء المسيحية فى العلاقات الدولية ، وان كان اخلاصهم فى هذا المجال موضع شك • وكان « التعاهد الأوربى » التالى يقوم أيضا على تشابه فى الأفكار • فقد كان مؤلفا من عدد صغير من الدول الكبرى تختلف فى دساتيرها الداخلية وأهدافها الخارجية ولكن بينها مع ذلك أشياء كثيرة مشتركة فيما يتصل بالقانون غير المكتوب للاتصالات الدولية • فكان من المستطاع الاعتماد بصفة عامة على حكامها وحكوماتها فى مراعاة المعاهدات والتعهدات ، اذ كانوا يتصرفون عادة كرجال شرفاء لا كرجال عصابات وكانوا جميعا يرغبون فى السلام ويميلون الى التعاون الاقتصادى والى قدر كبير من الحرية الاقتصادية • وكان الخطر يكمن فى قوة النزعة القومية خارج الحكومات • وبعد الحرب الكبرى أنشئت « عصبة الأمم » للتعاون الدولى ، ولكن تزايد النزعة القومية وظهور البلشفية والفاشية أحبطا نمو الأيديولوجية المشتركة التى بدونها يستحيل أن تقوم « العصبة » بأى نشاط مثمر •

الفصل الثانى

الجنسية والأجناس

١ ـ أوجه الاختلاف والتقابل فى أفكار الجنس والأمة

ان « الأمة » تعبير من تعبيرات علم الاجتماع و « الجنس » من تعبيرات علم الطبيعة • ومن ثم فان المفهومين ينصبان على جانبين مختلفين من جوانب الوجود البشرى ، والباحث المعتنى لا يستعملها بدون تفرقة• بيد أن الفكرتين مرتبطتين ارتباطا وثيقا وكثيرا ما يستعملان بمعنى واحد لدى العامة • وواضح ان السبب هو أن معظم الناس يصعب عليهم تصور وحدة اجتماعية متماسكة دون رابطة طبيعية (فيزيقية) ، ولا يستطيعون التفكير فى عقلية مشتركة دون أن يكون الدم مشتركا • فالتضامن الوثيق أو الأخوة بين أعضاء الأمة تبدو لهم أنها تنطوى على قرابة حقيقية كالتى بين أفراد الأسرة • والواقع أن طبيعة وعى الجماعة شيء معقد جدا بحيث أنه حتى الملاحظ العلمى المدرب كثيرا ما يضل فى تفسيرها • وينطبق نفس الشيء على قوة التقاليد التى يتصور عادة العقل الذى لم يدرب على فهم حقيقة القوى التاريخية انها تمثل انتقالا بالوراثة •

ومعظم الناس يجهلون أن كل أمة تتكون من عناصر من أجناس مختلفة وأن تكوينها يتغير مع الزمن • فمن المؤكد أن هتلر ليس من نفس الأصل الذى أتى منه شارلمان ، وينبغى ألا نفسر حقيقة أن كلا منهما كان يسعى الى السيطرة على العالم على أنها دليل على الاتجاه المتأصل فى « جنس ألمانى » لا وجود له • والى حد ما طبعا توجد وحدة فى الجنس بين كثيرين من أعضاء الأمة الواحدة وبين أجيال مختلفة من الأمة • اذ لما



كان التزاوج بين الأفراد من نفس الجماعة القومية أكثر حدوثا من الزواج بين الأفراد الذين ينتمون الى جماعات قومية مختلفة فانه لابد من وجود قدر معين من قرابة الدم داخل الأمة • ومن ثم فان هناك اتجاها الى التوحيد فى الجنس فى كل أمة ، بيد أن هناك اتجاهات أخرى تعارضها وهى عزل الصفات السلالية الذى اكتشفه مندل والانفصال الاجتماعى بين قطاعات من الأمة وغزو الأجناس الأجنبية وهجرتها أو تسللها •

والاستعمال الشائع لا يضع حدا فاصلا بين الجنس والأمة • بل ان الكتاب المعروف الذى وضعه كراب عن المترادفات الانجليزية يقول : ان الأمة هى شعب يرتبط بالمولد ، ومن ثم فان الأمريكيين والانجليز شعبان مختلفان لأن لهما حكومتين ولكنهما أمة واحدة لأنهما من أصل واحد • بيد أن قاموس أوكسفورد يشير الى الأصل المشترك باعتباره أحد العوامل التى تكون الأمة ، ثم يقول عن استعمال كلمة أمة أن الأمثلة التى هى أقدم عهدا كانت فيها فكرة الجنس عادة أقوى من فكرة السياسة ، فى حين أن فكرة الوحدة السياسية والاستقلال أقوى فى الاستعمال الحديث • والناس الذين يفكرون صاروا الآن يعزفون عن الخلط بين فكرتى الجنس والأمة لأن ذلك يبدو أنه يشجع العنصرية السياسية من النوع النازى • ومع ذلك فان كلمة جنس بمعنى الأمة لاتزال تستعمل كثيرا فى الخطابة السياسية دون جنوح عنصرى • فعندما يريد رجال السياسة التأكيد على

فكرة الأمة كثيرا مايتحدثون عن « الجنس البريطاني » مثلا ، وان لم يقصدوا بها معنى عنصريا مطلقا (١) • ويدل على ذلك أن كلمة جنس تنطوى على ارتباطات ذات قيمة عاطفية كبيرة •

٢ ـ الشعور القومي والشعور العنصرى

وعلى أى الأحوال فان البحث فى الشعور القومى يتطلب البحث فى الشعور العنصرى أيضا • اذ يوجد بين المفهومين كثير من أوجه التقابل ، وليس من السهل فصلهما أحيانا • والتمييز بينهما نظريا سهل طبعا • فالشعور العنصرى يتألف من الاعتقاد بوجود اختلاف طبيعى عميق لا يتغير بالتربية والتماثل ، فى حين أن الشعور القومى يفترض مجرد الاختلاف التاريخى والاجتماعى الذى يمكن المجتمع أن يغيره • بيد أنه يبدو أن قليلين من الناس لديهم أية فكرة واضحة عن هذا الفرق عمليا • فالأغلبية العظمى لا تدرى عنه شيئا وتفسر الاختلافات القومية باستمرار على أنها اختلافات عنصرية • بل ان قوة العنصرية كبيرة لدرجة أن المتعلمين علما عاليا الذين يعرفون هذا الفرق وينبذون المذاهب العنصرية كثيرا ماينزلقون دون وعى فى المشاعر العنصرية والتفكير العنصرى • وبالمثل قد يعارض الناس باخلاص الكراهية الطبقية ، ومع ذلك فانهم فى بعض الحالات العملية يظهرون عوارض التحيز الطبقى هم أنفسهم •

والعجرفة العنصرية والنفور والتحيز العنصريان أشد عنفا وتعصبا من المشاعر القومية المقابلة • فالنفور القومى يخفف من حدته ويقيده عادة الاعتراف بنوع من المشاركة فى المعايير الثقافية والأخلاقية بين الأمم المتنافسة • وكقاعدة عامة لا ينكر أن هناك شيئا طيبا أو بعض الحق لدى الجانب الآخر ـ والأفراد الذين ينتمون الى أقلية قومية ويأخذون جنسية الأمة الحاكمة يكونون موضع ترحيب ويتمتعون بمعاملة وحقوق متساوية • بيد أن هذا لا يحدث اذا كان لون الجلد مختلفا أو اذا وصمت الأقلية بأنها من عنصر أدنى نتيجة للدعاية والايديولوجية العنصرية • ففى الاضطهادات السابقة التى تعرض لها اليهود كان اليهودى الذى يعتنق المسيحية وينبذ بذلك عاداته ولغته وعزلته السابقة ، والتى تؤلف شبه جنسية ، ينجو من الاضطهاد بعد ذلك • ولكن فى ظل حكم النازى

---

(١) والشىء الذى يؤسف له أكثر من ذلك أن كلمة عنصر استعملت بمعنى أمة فى معاهدات السلام فى ١٩١٩ • وقد فسرت احدى الحكومات النمساوية هذا التعبير المزدوج لاغراض ضد اليهود كانت متناقضة تماما للمقصود بمعاهدات السلام .

لا يؤدى ذلك الى أى فرق في المعاملة ، لأن الخصائص اليهودية تعتبر سمات عنصرية لا يمكن أن تمحى ٠

ويجنح الازدراء العنصرى الى انكار أن هناك أى شيء مشترك بين العنصر المحتقر والآخرين ويحط من قدره كما لو كان نوعا من الماشية أو يأنف منه كما لو كان من الحيوانات الضارة التى تشمئز منها النفس٠

والاعتقاد العنيف لدى شخص ما بتفوق عنصرا من المذاهب التى تجنح لأن تصير نوعا من التسلط العقلى ٠ فالتمييز العنصرى قد يبدأ ضد العنصر الأسود ، ثم يمتد الى العنصر الأصفر ، ثم الى الأوربيين من أهل الجنوب أو الشرق واليهود ، وأخيرا تتوتر العــــلاقات بين العناصر البيضاء فى البلد ٠ والعنصرية اذا لم تقيد بشدة تشجع على نمو الظلم وعدم الانسانية والتعصب بصـــفة عامة ٠ وسرعان ماتلوث الجـو كله وتســم جميع العلاقات ٠ فالعنصر المسيطر يعتبر أن الشرف يقتضى الاصرار بشدة على الامتيازات العنصرية وتوسيع نطاقها ، وكل اقتراح بالتفاهم يوصف بأنه خيانة قومية ٠ ويصير العنصر المضطهد فى حالة توتر شديد يشك فى كل ملاحظة على أنها اهانة ويتصور اعتداء حتى عندما لا يكون هناك اعتداء ٠ ومن ثم فان الصراعات القومية تصير غير قابلة للحل عندما تأخذ طابع العداء العنصرى ٠

ونقاط الخلاف الرئيسية فى الصراعات العنصرية هى : (١) حق التزاوج ٠ فالجنس المتميز كثيرا مايضع قيودا قانونية أو اجتماعية تحرم التزاوج مع الجنس « الأدنى » ٠ وانكار حق الزواج المختلط قد ينشأ أيضا عن أســـباب دينية أو طائفية أو بسبب المركز أكثر مما يقوم على أسس عنصرية ٠ (٢) فرصة عادلة للارتقاء الاجتماعى ٠ وعدم المساواة فى فرص الحصول على العمــل المجزى والتعليم الأعلى والوصـــول الى مركز اجتماعى أفضل والحصول على نصيب فى الحقوق السياسية لا يثير بالضرورة العداء العنصرى ٠ ولكن اذا كان الجنس المسيطر يحتفظ لنفسه بجميع المراكز الطيبة والتعليم المتقدم كله والنفوذ السياسى بأكمله ، واذا كان الجنس المضطهد قد حكم عليه بأن يعيش فى ظروف تعسة الى الأبد بدون أمل فى التحسن ، يكون من العسير ألا تعتبر هذه المعاملة احتقارا عنصريا ٠ (٣) امكان الاتصال الاجتماعى ٠ وحتى داخل الأمة الواحدة لا يوجد اتصال اجتماعى كثير بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا ٠ ولكن عدم وجود اى اتصال اجتماعى بين الطبقات المتقابلة فى الأجناس المختلفة لابد أن يثير التذمر العنصرى ويؤدى الى نفور كامل بين المعسكرين ٠

والتنافس القومي بين شعبين يعيشان جنبا الى جنب كثيرا مايزيد حدة بسبب الاختلاف فى الثراء والتربية والنفوذ السياسى وعدم وجود فرص للاتصال الاجتماعى وللفهم المتبادل والتماثل • وفى مثل هذه الظروف يجنح كل جانب الى العزلة وتجنب أى اتصال بالجانب الآخر • ويصبح الأمر متوقفا على مدى الاحساس بالفرقة وعلى الذكريات التاريخية ليتحول الى عداء عنصرى • واذا بلغ هذه النقطة يصير من المستحيل تسوية النزاع مطلقا • وحتى اذا وجد حل عادل ومعقول فانه لا يقبل عندئذ ، لأن المشاعر العنصرية تراكمت أكثر مما ينبغى ويصير التذمر من الأخطاء الماضية وعدم الثقة فى حسن نيـة الطرف الآخر والعـوامل النفسية الأخرى حاجزا لا سبيل الى التغلب عليه (١) •

والتحالف الحديث بين النزعة القومية والعنصرية له أثر غريب فى الحيلولة دون تحقيق الأهداف الأساسية للتطلعات القومية • فالشعور القومى يسعى الى وحدة قومية وتضامن وثيقين ، ولا يتفق هذا مع الفوارق الحادة التى تقوم على المرتبة ولا مع نظام الطائفية الوراثية داخل الأمة • بالاضافة الى أنه يجنح الى توسيع نفوذ الأمة وهيبتها ، أما عن طريق نشر المدنية القومية سلميا أو ، فى مرحلة النزعة القومية ، بالغزو وبارغام الشعوب المغلوبة على التماثل بالقوة • ولكن العنصرية تعرقل هذه الاتجاهات الى التوسع والتماثل • فالجنس الأدنى لا يمكن ارغامه على التماثل ، وكل ما يمكن حياله هو استئصاله أو ارغامه على الخضوع بالقوة • فضلا على أن مذهب الدم النبيل المتأصل فى العنصرية يؤدى الى اقامة حواجز طائفية داخل الشعب الذى تسيطر عليه أيديولوجية العنصرية وبذلك يعمل على تدمير الوحدة والتضامن القوميين •

٣ ـ الأصل الاجتماعى للشعور العنصرى وأثره فى الجنسية

كان المجتمع البدائى يقوم الى حد كبير على جماعات تربطها رابطة الدم الحقيقية أو المفترضة ، ولم يكن للشعور القومى أو العنصرى أى دور كرباط

---

(١) من الواضح أن الايرلنديين لا يستطيعوا أن ينسوا أن الانجليز عاملوهم فى مرحلة حرجة بازدراء عنصرى ، وذهبت كل جهود السـياسة البريطانية بعـد ذلك فى مداواة الجرح أدراج الرياح • وقد أشار بيرك الى أن فئات الشـعب المختلفة فى ارلندا كانت منفصلة عن بعضها كما لو كانت أنواعا مختلفة من المخلوقات لا أمما مختلفة فحسب . وقال شيسترفيلد فى ١٧٦٤ ان الفقراء فى ارلندا كانوا يعـاملون أسوأ من المعاملة التى يلقاها الزنوج من سادتهم • ج• مورلى «بيرك» ١٩٠٢ ص ٣٥ .

للجماعة . ويبدو أن العزلة أو النفور من الأجانب كان ينبثق فى الغالب على أساس من الدين أو السحر . وليس هناك دليل على أن النفور العنصرى غريزة طبيعية برغم أن نفور الجماعة من الأجانب أو الدخلاء قد يكون له أصل غريزى . والظاهر أن الشعور العنصرى انبثق الى حد كبير من الاختلافات والنزاعات الاجتماعية . ويمكن تتبعه فى حالات كثيرة الى ظهور طبقات قوية اعتبرت نفسها ، واعتبرها الآخرون ، ذات دم نبيل ولها الحق فى مركز ممتاز ينطوى على العزلة كطائفة . وفى الهند نما نظام الطوائف بطريقة فريدة . فقد كان أصله انعزال الغزاة عن الشعب المغلوب ، وانعزال الجماعات الوظيفية والمهنية العليا عن الجماعات الدنيا وكان دعامتاه الرئيسيتان هما هيبة طبقة البراهما ، التى عزيت اليها قوى سحرية وقدسية وراثية ، وقوة طبقة المحاربين . وأدى نمو روح الطائفية وانتشارها الى تكوين طوائف لا عدد لها يفصل بينها الانعزال الاجتماعى والازدراء المتبادل . وهذا النظام هو المسئول أساسا عن أن الهند خضعت لسيطرة الغزاة الأجانب طوال الجزء الأكبر من تاريخها . ويقول أحد الدارسين الفرنسيين ، هو أ . سينار ، عن ظروف الهند السابقة : « لا يكاد يكون للشعور القومى وجود على الاطلاق ، فالحياة مركزة فى حيز أضيق بكثير . اذ أن وحدة الطائفة أو القبيلة قوية فى التضامن والتقاليد الى حد يسد جميع الحاجات . وهذا المجتمع هو الوطن الحقيقى » (١) .

وفى أوروبا فى العصور الوسطى كانت الروح القبلية والغزو يثيران عداوات وتحيزات مريرة . وكان الفرسان المحاربون يؤلفون مراتب متميزة تصير عادة وراثية «ومقفولة» على نفسها . ومع ذلك فان الغربيين لم تصر لديهم طوائف حقيقية . وكانت العداوات التقليدية العنيفة تتخذ أحيانا طابع العداء العنصرى . فقد كان الفرسان الألمان مثلا ينظرون الى السلافيين الملحدين كما لو كانوا مجرد بهائم ويجدون متعة فى قتلهم كما لو كانوا يصطادون خنازير برية أو أيائل . وأدت بداية الدول القومية والصراعات القومية الى بعض الظواهر المبكرة لما يكاد يكون حقدا عنصريا (٢) . بيد أن المرتبة الاجتماعية بصفة عامة كانت أهم من

---

(١) أنظر اميل سينار «الطوائف فى الهند» ١٩٣٠ ص ١٦ .

(٢) طوال العصور الوسطى كان الفرنسيون والاسكتلنديون فى كراهيتهم القومية للانجليز يجدون لذة فى ترديد قصة أن الانجليز لهم ذيول مثل الحيوانات ، كما صدقت هذه القصة فى بلاد أخرى أيضا . وكانت تحكى فى بعض أجزاء انجلترا عن الاجزاء الاخرى ، وفى القرن التاسع عشر سمع بيرنج جاولد من مربيته التى كانت من أهل ديفونشاير أن جميع أهل كورنوول يولدون بذيول ، وظل يصدق =

الجنس . فالفرسان الألمان أو الفرنسيون أو الانجليز كانوا يعتبرون الفرسان العرب الذين قابلوهم فى الحروب الصليبية أندادا . ولم يعترضوا على الزواج المختلط بين نبلاء من ألوان مختلفة (١) ، ولكنهم كانوا كقاعدة عامة يعتبرون من الحطة بقدرهم أن يتزوجوا شخصا من مرتبة أدنى حتى اذا كان من نفس الجنس . وكان النبلاء فى جميع أنحاء أوربا يعتقدون أنهم ينحدرون من أصول مختلفة عن أصول أقنانهم . فأساطير الفروسية ترجع أصل النبلاء الى محاربى طروادة الذين هربوا الى الغرب بعد سقوط طروادة . ومن الجلى أن السبب فى مثل هذه الأساطير هو اقامة صلة مع الرومان المشهورين الذين ادعوا أولا أنهم من أصل طروادى (٢) . وأرجع أصل الأقنان الى حام الذى لعنه نوح لمروقه وحكم عليه بالعبودية الى الأبد ، ومع ذلك فان فكرة الأصل المشترك للجنس البشرى كله التى يعلمها الانجيل والمذهب المسيحى الخاص بأن الناس كلهم اخوة والجهود السياسية للكنيسة والملكية والنمو الاقتصادى قللت من ألوان التفاوت فى المرتبة الاجتماعية وبذلك مهدت السبيل لقيام الأمم . وسبقت انجلترا جميع الشعوب فى هذه العملية ، ويرجع السبب الرئيسى فى أنها كونت جنسية قوية موحدة فى وقت مبكر الى أن الفوارق الطبقية الوراثية كانت أقل بروزا مما هى فى بلاد القارة . فالقانون العام فى البلاد لم يتضمن أية امتيازات مهمة متصلة بالمولد بين الأحرار ، كما أن نظام الأقنان اختفى قبل اختفائه فى القارة بقرون . أما فى ألمانيا فان الطبقات العليا

= ذلك الى أن قابل أحدهم وسأله فى الموضوع . انظر جورج نيلسون ١٨٩٦ . وهذا مثل نموذجى لأثر النفور القومى .

وقد كانت هناك شعوب محتقرة مثل « الاجناس الحزينة » الغامضة فى فرنسا والتى كانت تعامل مثل المنبوذين أو المتشردين ، وان لم يكن هناك من يعرف السبب فى ذلك . انظر فرانسيسك ميشيل « تاريخ الاجناس الحزينة » ١٨٤٧ . وفى ألمانيا فى العصور الوسطى كانت هناك بعض الحرف ، الريفية فى الغالب ، تعتبر مرذولة مثل الطحانين والرعاة والحلاقين الجراحين والصباغين والحواة والنساجين ، ولعل ذلك يرجع الى ما تتسم به هذه الحرف من طابع ذليل ، ولم يكن يسمح لاصحابها أو لأبنائهم بدخول الطوائف الحرفية . انظر هـ . ما شر «Das deutsche Gewerbewesen» ١٨٦٦ ص ٧٤ و أ. أوتو «Das deutsche Handwerk» ١٩٠٠ ص ٤٣ .

(١) فى القرن الثالث عشر اقترح بيير دوبوا أن تتزوج النساء الفرنسيات المثقفات أمراء شرقيين لتحويلهم الى المسيحية والى مذهب الزواج بواحدة فقط ولتمهيد السبيل لسيطرة فرنسا على الشرق .

(٢) كان جيوفرى مونماوث أحد المصادر الرئيسية لهذه الاسطورة ، بيد أنها توجد فى السجلات المعروفة باسم «فريديجار» فى القرن السابع الميلادى .

تشربت على نطاق واسع باعتزاز غير عادى بالمرتبة الاجتماعية ونظرت الى الطبقات الدنيا باحتقار ٠

ويتسم التاريخ الألمانى الى حد ما بعداوة حادة بصورة غير عادية بين المراتب الاجتماعية والطبقات ، وكان ذلك من العقبات الرئيسية فى سبيل التضامن القومى والوعى القومى ٠ وكان نفس الاتجاه يوجد فى فرنسا ، وان كانت بعض العوامل المضادة قد وقفت ضده ٠

وفى أسبانيا أدى الصراع الطويل بين المسيحيين والمسلمين الى تمجيد الفضائل الحربية والى مذهب « الدم النقى » ، أى النقى من الاختلاط بدماء المغاربة واليهود ٠ وقد تشربت الأمة الاسبانية بعد انتصارها باعتقاد أن الخدمة فى الجيش هى وحدها المهنة الشريفة ، فى حين احتقرت التجارة والصناعة والزراعة التى كانت فى يد الكفرة واليهود ٠ ويقول أحد الدارسين الانجليز : « بلغ الحماس من أجل نقاء الدم فى القرن السادس عشر مستويات نازية وصارت الشهادات التى تصدرها محاكم التفتيش من المتطلبات الأولى لأى عمل طموح (١) » ٠ وأخيرا طرد المغاربة واليهود، وكان لهذا الانتصار العنصرى وما صاحبه من ازدراء لمعظم ألوان النشاط الاقتصادى وعقلية حربية بصفة عامة أثر كبير فى انهيار قوة اسبانيا ورخائها ٠

والأصل الاجتماعى للتحيز العنصرى واضح أيضا فيما يتصل بالعلاقات بين الأوربيين والأجناس الملونة ٠ وكثيرا ما لوحظ أن الأمم الأوربية تختلف فى موقفها من الشعوب الملونة ٠ ويعتقد الأستاذ توينبى أن الأمم الجرمانية والبروتستانتية أظهرت تحيزا أكثر من الأمم اللاتينية والكاثوليكية ، وهو يرجع ذلك الى تأثير « العهد القديم » الذى كان له تقدير خاص عند البروتستانت والذى يحث « الشعب المختار » على استئصال الكفرة الذين يسكنون أرض الميعاد (٢) ٠ وقد يكون لذلك بعض الأثر فى مناسبات بذاتها ، ولكنه بالتأكيد ليس السبب الرئيسى ٠ فضلا عن أن ملحوظة توينبى فى حاجة الى تحديدات معينة ٠ ففى الجانب الكاثوليكى كان الاسبان ذوى وعى عنصرى شديد ضد المغاربة واليهود ، ولكن ذلك يرجع الى صراعهم الطويل مع المسلمين لامتلاك اسبانيا والى عقليتهم الحربية التى نظرت الى العمل فى التجارة والصناعة باحتقار ٠

---

(١) انظر د٠ تريفور ديفيز « القرن الذهبى فى أسبانيا » ١٩٣٧ ص ١٦

(٢) انظر أ٠ توينبى « دراسة فى التاريخ » المجلد الاول ص ٢١١ ٠

وبين البروتستانت كان الهولنديون متسامحين عنصريا تجاه الشعوب الملونة فى مستعمراتهم • وكثير من العائلات الهولندية الارستقراطية فيها نساء ملونات بين أجدادها • وبصفة عامة صحيح أن الشعوب الكاثوليكية كانت أقل جنوحا الى التحيز العنصرى من البروتستانت •وكانت الكنيسة الكاثوليكية رائدة فى أعمال التبشير بين الأهالى والعمل على حمايتهم ورفعهم • وجاء البروتستانتيون بعدها ، ولكنهم قاموا أيضا بأعمال طيبة • وفى عصرنا الحاضر تقف الكنيسة الكاثوليكية ضد التحيز العنصرى بثبات أكثر من أى مجتمع بروتستانتى • ففى حين أن البروتستانتيين لديهم كنائس منفصلة للبيض والملونين ترفض الكنيسة الكاثوليكية هذا الانفصال • ويقول أحد الخبراء البروتستانت البارزين ، هو مستر أولد هام سكرتير « المجلس التبشيرى الدولى » : « ان الكنيسة الكاثوليكية كانت فى هذا الموضوع أقرب الى جوهر المسيحية من الهيئات البروتستانتية » • وفى المانيا أظهر رجال الكنيسة الكاثوليكية والزعماء الكاثوليك الآخرون الى حد كبير شجاعة فائقة فى التنديد بشرور العنصرية ونظام النازى ، فى حين يبدو أن الكنائس البروتستانتية كانت أقل مقاومة للهتلرية ، باستثناءات قليلة بارزة • ويعزو الأستاذ هانزكون أصل العنصرية والنزعة القومية ، بخاصة فى ألمانيا ، الى أن البروتستانت فصلوا الدين عن السياسة (٢) • فالمذهب الدينى الحقيقى يتطلب ولاء المرء كاملا غير منقوص • ولكن الفصل الذى دعا اليه لوثر ترك تسوية كل المسائل غير الدينية للدونة ، الأمر الذى أدى الى نمو مذهب القوة والنزعة القومية • ولا شك فى أن هذه النظرية تفسر أحد جذور النزعة القومية ولكنها لا تنطبق على حالة العنصرية وتتجاهل واقعة أن كالفن لم يشارك لوثر فى اتجاهه • بل ان الكالفنية جنحت الى اخضاع الدولة للكنيسة واخضاع الحياة بأكملها لوصايا الدين • ويبدو أن السبب الحقيقى فى الاختلاف بين موقف الكنيستين من التحيز العنصرى هو أن الكنيسة الكاثوليكية ظلت نظاما فوق القوميات يتمتع فيه القس بطابع قدسى وسلطة متدرجة مستقلة عن المجتمع ، فى حين أن الكنائس البروتستانتية صارت قومية ، وأما خضعت للحكومة أو لمجالس أبرشيات ، وبذلك اعتمدت الى حد يزيد أو ينقص على الرأى العام ، ومن ثم صارت عرضة لعدوى التحيزات السائدة •

ومما يدل على أنه لا العهد القديم ولا أى عامل دينى آخر كان

---

(١) انظر • هـ• أولد هام « المسيحية ومشكلة الاجناس » ١٩٢٤ ص ٢٦٣ •

(٢) هانزكون « النزعة القومية فى الاتحاد السوفيتى » ١٩٣٣ ص ١٢٣ •

السبب فى خلق التحيز العنصرى أن التحيز كان أضعف بكثير ، أو غير موجود أصلا ، فى الأزمنة السابقة عندما كان الدين أقوى بكثير • فحتى الهولنديون فى جنوب افريقيا ، الذين يختلفون عن الهولنديين فى هولندا أو فى جزر الهند الغربية فيما يتصل بموقفهم من « اللون » البشرى ، لم يكن لديهم فيما مضى اعتراض قانونى على الزواج من النساء الملونات(١) • وينطبق نفس الشىء على التجار الانجليز فى الهند والبلاد الأخرى التى يعيش فيها سكان ملونون • ففى أيام الرحلات البحرية الطويلة الخطرة حول رأس الرجاء الصالح كان النساء البيض قليلات فى المناطق الحارة ، وكان الأوربيون أكثر اتصالا بالطبقات العليا من الأهالى مما كان عليه الحال بعد ذلك • ومما له مغزى أنه فى القرن الثامن عشر لعب الزنوج والأفراد الملونون الآخرون من ذوى الثقافة والكفاءة دورا لامعا فى بلاط مختلف الدول الأوربية وكانوا يعاملون معاملة الأنداد وتزوجوا سيدات من سلالة ذوى المراتب (٢) • وقد كانت الارستقراطية فى كثير من الأحيان أقل تحيزا بكثير فى مسائل اللون منها فى المسائل المتصلة بالبورجوازية والعمال بعد ذلك • فالامتيازات الارستقراطية لم تتعرض للخطر بالاعتراف ببعض الأفراد ، كما أن كثيرا من ارستقراطيى عصر « الاستنارة » كانوا أقل تشربا بروح الأنانية التافهة مما هو الحال فى عصرنا •

ويرجع ظهور التحيز العنصرى الى الرق الى حد كبير • فاستخدام الزنوج بصورة متزايدة كعبيد فى المزارع جعل البيض يتعودون النظر الى الرجل الأسود كمجرد دابة من دواب الحمل • وكان الانجليز هم أكبر تجار العبيد فى العالم ، ومن ثم فانهم اكتسبوا أيضا هذه العقلية • وفيما بعد أكدت المسيحية والروح الانسانية نفسها فى انجلترا أكثر من أى بلد آخر وأحرزت أكبر انتصار أخلاقى بتحرير العبيد • بيد أن هذا الاتجاه

---

(١) فيما يتصل بالظروف السابقة فى جنوب افريقيا انظر ج• هوج «Zeitschrift fur Rassenkunde» ١٩٣٨ • وفيما يتصل بجزر الهند الهولندية انظر أ• رودنوالت «Archiv fur Rassen-und besellschafts» ١٩٣٠ و ١٩٣٨ •

(٢) فى عهد القيصر بيتر الاول صعد زنجى الى مركز جنرال فى المدفعية . وكان الشاعر الكبير بوشكين حفيده . وفى بلاط لويس السادس عشر كان الفارس الخلاسى دى سان جورج يتمتع بالحظوة بسبب مواهبه الكثيرة وكان أيضا صديقا شخصيا لأمير ويلز الذى صار جورج الرابع فيما بعد . وفى فينا كان الزنجى المثقف انجلو سليمان موضع تقدير كبير بين الطبقة العليا . ويصف شكسبير عطيل بأنه زنجى من افريقيا ، ولكنه كان يعامل باحترام كبير من جانب الارستقراطية فى البندقية .

عارضته عدة اتجاهات أخرى جديدة • فاختراع السفن التجارية وشق قناة السويس سهلا الرحلة الى الهند وزادا من عدد النساء البيض هناك وجعلا من الممكن تكوين مجتمع أبيض صار مغلقا فى وجه الهنود أكثر فأكثر • وفى أمريكا الشمالية وبلاد الدومينيون أدى ظهور قوة العمال البيض والطبقة الوسطى الدنيا الى اتخاذ اجراءات مشددة ضد هجرة العمال الملونين الذين اعتبروا منافسين خطرين • وفى محاولة لتبرير الدوافع الأنانية التى دعت الى هذه السياسة عمل دعاتها على تغطيتها بادعاء أنها دفاع ضرورى عن المدنية البيضاء ضد همجية السود والصفر وانحطاطهم الأخلاقى (١) •

ومن ثم فلا ريب فى أن التحيز العنصرى يرجع أساسا الى أسباب اجتماعية واقتصادية • فهو جزئيا عقلية الطبقة الحاكمة التى تحتقر العمل اليدوى وتحاول الاحتفاظ بالرق عمليا بالقول بأن الجنس الأدنى انما جعل بالطبيعة لخدمة الجنس المتفوق • وجزئيا هو أنانية من العمال والتجار البيض الذين يريدون احتكار كل المراكز الطيبة لأنفسهم ومن ثم يرفضون الاعتراف بحق الأجناس الملونة فى المساواة أو المعاملة العادلة• وكثيرا ما يكون هذا الموقف ضارا بالمصالح الاقتصادية والقومية للبيض أنفسهم •

كما يثبت الأصل الاجتماعى للتحيز العنصرى أن الشعوب التى لم تكن عبيدا قط والتى أظهرت روحا حربية ، مثل الهنود الحمر وأهالى استراليا الأصليين ، لا ينظر اليهم البيض باحتقار • فالأمريكيون الشماليون الذين يشمئزون حتى من أقل اختلاط بالدم الافريقى يعتبرون ان وجود عنصر من الدم الهندى فى الشخص لا يحط من قدره ، بل يرون فيه ارستقراطية •

٤ ـ ظهور الأيديولوجية العنصرية الحديثة (٢)

ان تكوين الأمة الحديثة يتوقف على التغلب على الانقسامات

(١) ان بعض الظروف المعينة التى لا مجال لمناقشتها هنا قد تبرر طبعا تحديد الهجرة . بل انه قد يكون من الافضل تحديد دخول بعض الجنسيات طبقا لنظام الحصص ولكن التحريم الكامل لهجرة جماعات عنصرية كبيرة لا يمكن تبريره ، ومن الجلى انه نتيجة للنفور العنصرى •

(٢) انظر كونت ذى بولانفييه «تاريخ الحكم القديم فى فرنسا» ثلاثة مجلدات ١٧٢٧ •

الاجتماعية التي تقوم على « الدم الأفضل » • اذ لا يمكن أن توجد وحدة قومية حقيقيــة بين أشخاص يحرم عليهم القــانون التزاوج أو الاختلاط الاجتماعي ، أو حيثما لا تكون هنــاك أية فرصــة للمراتب الدنيــا فى الترقى • ومع ذلك فان الاتجاه نحو المساواة فى المركز الاجتماعى قوبل دائما بمقاومة سافرة أو مستترة • ففى القرن الثامن عشر تقدم المدافعون عن طبقة النبلاء الفرنسية برأى مؤداه أن النبلاء انحدروا من نسل الغزاة الفرانك وأن العامة من نسل الرومان والغاليين المهزومين ، وحاولوا أن يجعلوا من هذا الرأى حجــة لدعواهم في أن يكونوا فى مركز الحــكام • وكانت هذه نقطة البداية فى جدل طويل حول الأصل العنصرى للبنــــاء الاجتماعى وأثره فى التاريخ والسياسة الفرنسية • وقد اشترك فى هذا الجدل أشهر المؤرخين الفرنسيين وزعماء السياسيين والكتاب وعرضت عدة نظريات مختلفة (١) • وقد أثار الادعاء بأن الطبقات العليا تنتمى الى جنس أسمى من الدنيا معارضة عنيفة وساعد كثيرا على تسميم العلاقات الطبقية وعرض التضامن القومى للخطر • والحقيقة أن الاختلاف فى أجناس الطبقات كان قد محى تماما بالاختلاط ابان العصور الوسطى ، ولــكن الاختلاف فى التقاليد بقى وأدى الى عداوة حادة بين عقليات النبلاء والطبقة الوسطى جعلت التطور القومى فى فرنسا مختلفا كل الاختلاف عنه فى انجلترا• وبعد ثورة ١٨٤٨ تناول كونت دى جوبينو حجة الأرستقراطيين القديمة وصاغها صياغة حديثة بأن جعل النبلاء والعناصر المنتجة ثقافيا فى الأمة من الآريين والتيوتون (٢) • وقد اعترف أنه يهدف بهذه النظرية الى تقويض التحررية ولما كان من المعجبين بالفيودالية فانه كره بصــــفة خاصة فكرة «الوطن» التى أطلق عليها «مخلوق فظيع من ابتكار الساميين» وصار جوبينو الرائد الأول للعنصرية الحديثة (٣) ، ودخل هذا المذهب

---

(١) جمع أوجستين تيرى هذه المناقشات وبحثها فى كتابيه « مــذكرات من عهد الموراتيين » و « تأملات فى تاريخ فرنسا » ، وكذلك عرضها أرنست سيير فى مقدمة كتابه « كونت دى جوبينو » . وقد تناول جاك بارزان مؤخرا هذا الموضوع فى كتابــه « الجنس الفرنسى ، أصوله ودلالاتها الاجتماعية والسياسية قبل الثورة » ١٩٣٢ .

(٢) انظر ارنست سيير « كونت دى جوبينو والارية التاريخية » ١٩٠٣ ، وفريتز فردريك « دراسة عن جوبينو » ١٩٠٦ ، ول• شيمان «جوبينو» •

(٣) بيد أن دزرائيلى عرض أفكارا عنصرية قبل جوبينــــو ، وان كان ذلك فى الغالب على لسان شخصيات فى قصصه . وقد حاول كارل كونيه اثبات أن جوبينو أخذ فكرته عن دزرائيلى ، ولكن يبدو لى أنه ليس هناك دليل كاف على ذلك . انظر كونيه فى «Archiv fur Rassen-und Gesellschaftsbiologie» ١٩٢٦ . وهناك =

المانيا عن طريق صداقته بريشارد فاجنر ووجد فيها أنصارا كثيرين • ولم يلق جوبينو فى فرنسا نفسها نجاحا وظل منسيا مدة طويلة الى أن « لفتت » اليه الأنظار شعبيته فى ألمانيا •

فقد دعا فاشـــيه دى لابوج وبعض الكتاب الآخرين الى نظرية أن الطبقات العليا لديها قدر من الدم النورديكى النبيل أكبر مما لدى العامة. ولكن التقاليد القومية الفرنسية تشربت بعمق بروح المساواة وحقـوق الانسان ولم تكن تربة صالحة للعنصرية •

وفى ألمانيا انحسر نفـوذ جوبينو بنفـوذ هوسـتون ستيوارت شمبرلين (١) الذى كان أحد تلامذة ريتشـارد فاجنر المتحمسين وتزوج ابنته • وكان من أصل انجليزى ولكنه صار فيما بعد من دعاة الجرمانية المتعصبين ويكره انجلترا • وكان الامبراطور وليم الثـانى من أصدقائه المتحمسين وساعد كثيرا فى نشر آرائه فى ألمانيا(٢) • وفى شـيخوخته رحب شمبرلين بهتلر واعتبره مخلص ألمانيا • والواقع أن عنصرية هتلر ليست سوى مذهب شمبرلين وقد صيغ ليلائم الجماهير •

وقد استخدم هتلر مذهبه العنصرى ، كما فعل السابقون عليه من دعاة الجرمانية ، فى أغراض ضد الديمقراطية وسياسة عدوانية • فقد اعتبر الجنس النورديكى أو الجرمانى النخبة الممتازة فى الجنس البشرى وأنه لا بد أن يحكم الأجناس التى هى أدنى ويستغلها • ولم يستطع طبعا حتى دعاة العنصرية الألمان أن يقولوا : ان ألمان اليوم من دم نورديكى نقى• فقد أثبت العلم أن جميع الأمم مكونة من خليط من الأجناس المختلفة• ولكن دعاة العنصرية ذهبوا الى ان العنصر النورديكى فى الأمة هو العنصر الوحيد الخلاق حقيقة ، وأن قيمة الأمة وحقها فى مكان تحت الشمس يتوقفان على نصيبها من الدم النورديكى • بيد أنه لا يوجد ما يثبت أن النبوغ وقف

= رواد آخرون للعنصرية الحديثة ذكرهم ل. شيمان فى
«Die Rasse in den Geisteswissenschaften» •
٣ مجلدات ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠ • و ث • بيدير Geschichte des Germanenforschung
مجلدان ١٩٢١ •

(١) انظر أ • سيير هـ • «سانت شمبرلين» ١٩٢٨ ، وفردريك هرتز«الجنس والمدنية» ١٩٢٨ • ويتضمن كتابى نقدا تفصيليا لمذاهب العنصرية ولمذهب شمبرلين بصفة خاصة •

(٢) تدل الوثائق الدبلوماسية الالمانية والمذكرات الخاصة بفترة وليم الثـانى على أن القيصر كانت تحدوه تحيزات عنصرية قوية ضد الروس والسلافيين الآخرين واليابانيـين والصينيين ، وحتى الأمم اللاتينية • بيد أن عمه الملك ادوارد السابع أعلن أن اليـابانيين لا يختلفون عن بقية الناس الا فى لون الجلد •

على أى جنس بذاته • فجوته وبيتهوفن عبقريا المدنية الألمانية ليسا بالتأكيد من النمط النورديكى • فكلاهما كان شديد السمرة وكثير من سماتهما الجثمانية يبدو أنها تدل على أنهما ليسا من أصل تيوتونى • وأكبر شعراء الروس : بوشكين ، حفيد زنجى ، ودوستويفسكى وتولستوى وجوركى فيهم سمات منغولية واضحة • وقد كان اسكندر ديماس وابنه ، وكلاهما مؤلف مشهور ، فرنسيين نموذجيين برغم أنهما كانا من المولدين • بيد أن أبرز حجة تدحض التفسير العنصرى للطابع القومى تظهر من مقارنة المثل العليا الانجليزية والألمانية • فالشعبان بالتأكيد متقاربان جدا فى الجنس ، وان لم يكن جنسهما واحدا تماما • ومع ذلك فان نمو الأمتين فيما يتعلق بالأيديولوجية السياسية والفلسفة والتقاليد الأدبية وروح اللغة مختلف اختلافا بينا •

٥ ـ الأصل الاجتماعى للمذاهب العنصرية الألمانية : العنصرية المناهضة للسامية :

ان ما أحرزته العنصرية من نجاح غير عادى فى ألمانيا مهدت له السبيل التقاليد القومية • ففى قسم كبير من ألمانيا كانت طبقة المحاربين دائما هى العنصر الأقوى • ففى بروسيا جعل فردريك الثانى «اليونكرز» طائفة متميزة تماما صارت تقريبا جنسا عسكريا حاكما يحتقر كل الطبقات الأخرى • ومنح بسمارك العسكرية البروسية السيطرة على ألمانيا وجعلها قومية بأن حصل على تأييد البورجوازية وجزء كبير من الطبقة الوسطى البروتستانتية بانتصاراته وبانشاء امبراطورية قوية • وكان المذهب الألمانى الحديث الخاص بتفوق الجنس النورديكى موجها فى أول الأمر ضد الطبقات الدنيا من الشعب الألمانى نفسه أكثر مما كان موجها ضد الأمم الأخرى أو اليهود • فدعاة العنصرية الألمان القدامى مثل ج • كلم وأوتوامون كانوا مهتمين أساسا باثبات أن الطبقات الدنيا فى ألمانيا أقل نبلا فى أصولها من الطبقات الحاكمة • وجعل مذهبهم الفئات العليا آرية والدنيا منغولية لكى يبرروا سيطرة الطبقات العليا على الدنيا •

ومن السمات التى تميزت بها العنصرية الألمانية الحالية الحط من قدر ما يسمى بالجنس اليهودى الى أقصى حد • وقد كان الشعور المناهض لليهود قويا فى عهود كثيرة وعند شعوب كثيرة وانبثق من عدة دوافع •

ولكن ما يهمنا هنا هو مناهضة السامية • لقد وجد علماء

الانثروبولوجيا أن اليهود ليسوا جنسا متجانسا بل هم خليط من عناصر مختلفة الاجناس يماثلون فى الغالب الأجناس التى يتألف منها أهل جنوب وشرق أوربا مع خليط من الدم النورديكى والشرقى • ولسنا فى حاجة هنا الى مناقشة آراء النازيين فى عقلية الجنس اليهودى ومعاملتهم لليهود والرد على ادعاءاتهم • بيد أن فكرة أن نجاح اليهود فى التجارة يرجع الى اتجاهات سلالية متأصلة ليست مقتصرة على النازى أو على ألمانيا وحدها بل منتشرة جدا فى بلاد أخرى أيضا • والحقيقة أن التقدم الاقتصادى لليهود فى القرن التاسع عشر يرجع الى ظروف تاريخية واجتماعية ولا علاقة له بالجنس • فمن الاسباب الكبرى انتشار اليهود نتيجة للاضطهادات ، وقد أتاح لهم هذا الانتشار تجاربا واتصالات عديدة على نطاق دولى ومعرفة باللغات والاسواق • وفى فترة النمو الرأسمالى جعل ذلك فى وسع اليهود أن يصيروا الى حد كبير الوسطاء الاقتصاديين والماليين والثقافيين بين الامم المختلفة • وكان نجاحهم كبيرا بصفة خاصة فى البلاد التى لا تزال الطبقات الحاكمة فيها متشربة بالفيودالية والروح الحربية وتنظر الى التجارة على انها عمل فيه حطة لقدرها ، ولم تكن قد نمت بعد طبقة وسطى تجارية ، كما كان الحال فى أجزاء كبيرة من وسط وشرق أوربا • فالنبلاء فى هذه البلاد كثيرا ما تركوا أمر بيع محصولاتهم الزراعية والتنمية الصناعية لضياعهم فى أيدى اليهود ، وكثيرا ما كانوا يحمونهم أيضا من عداء الطبقة الوسطى الوليدة • وهكذا أتيحت لكثير من اليهود فرص استثنائية لتكوين ثروات • بيد أن أبناءهم وأحفادهم سرعان ما حاولوا هجر عالم التجارة والانضمام الى المهن القانونية أو الطبية أو أن يصيروا كتابا أو علماء أو موظفين حكوميين • وكقاعدة عامة لم يظهر الجيل الثالث للعائلات اليهودية الثرية اهتماما كبيرا أو قدرة فى مجال التجارة بل ظهر بينهم كثير من المثقفين ، وهذا وحده يقضى على التفسير العنصرى للنجاح الاقتصادى لدى اليهود •

وقد أشرنا من قبل الى الظروف التى مهدت السبيل للعنصرية فى ألمانيا فقد استغل هتلر غرائز الغوغاء ، الكائنة فى قطاعات كبيرة من الطبقات المختلفة ، التى تحسد اليهود لثرائهم وأرادوا سرقتهم أو التخلص منهم كمنافسين • بالاضافة الى أن الانجازات غير العادية التى قام بها عدد كبير من الباحثين والعلماء والمحامين والمؤلفين والموسيقيين والفنانين والمنظمين الاقتصاديين والماليين اليهود برغم أن العالم يضيفها الى حساب الالمان فانها تثير نفورا عنيفا لدى منافسيهم من الالمان الذين رأوا أن اليهود قد تفوقوا عليهم • كما ان هتلر أراد كبش فداء عالمى تلقى عليه مسئولية

جميع الشرور الاجتماعية وهزيمة الحرب الاخيرة • فالالمان لما كانوا من دم نبيل لا يمكن أن تلقى عليهم المسئولية الاولى دون تناقض مع الاساس الذى تقوم عليه العنصرية • ومن ثم كان اليهود هدفا سهلا فى متناول اليد ليكون رمزا لقوى الشر وهدفا ينصب عليه الغضب الشعبى(١) • بيد أن السبب الرئيسى لتعصب هتلر ضد اليهود هو أن عددا كبيرا من اليهود الالمان كانوا عصب المعارضة لسياسة الاعتداء بلا رحمة ضد الامم الاخرى • فكثير من اليهود الالمان كانوا وطنيين متحمسين، بل كان بعضهم من دعاة القومية ، كما كان كثيرون منهم بلا اهتمامات سياسية • ولكن لا ريب فى أن أغلبية المثقفين ورجال الاعمال اليهود كانوا يحبذون بشدة سياسة من التوفيق والتعاون الدوليين بما يتفق وتقاليدهم ومصالحهم • وكان عدد كبير منهم من أنشط دعاة هذه السياسة وكان لهم ، كمحررين وصحفيين وكتاب ، نفوذ كبير على الرأى العام • ومن ثم فان تصرف هتلر كان منطقيا تماما عندما قرر سحق اليهود واستئصالهم لتمهيد السبيل لغزو العالم •

وبرغم ان هتلر أطلق على حركته اسم « حزب العمال الاشتراكى الوطنى » فانه من الجلى أن هذا النداء الموجه الى المشاعر الديمقراطية والاشتراكية كان مجرد ستار لسياسة تقوم على حكم القلة البحت • فهتلر نفسه فى كتابه «كفاحى» لم يخف ازدراءه للجماهير • وحتى التعليق الرسمى للبرنامج النازى يتضمن بالاضافة الى ذلك ملاحظتين شديدتى الازدراء عن « الخليط العنصرى التعس » الذى يتألف منه الرجل الألمانى العادى • والغرض الحقيقى لسياسة النازى هو اقامة حكم أكثر العناصر عنفا وقسوة على الاغلبية الساحقة بحجة أنها ذات دم نورديكى متفوق • أما الجماهير فتظل فى حالة خضوع بواسطة أيديولوجية أفاكة وتخدير مستمر من ناحية ، وبواسطة نظام من التجسس والارهاب لم يعرف له مثيل من ناحية أخرى • وينسى الشعب الالمانى عبوديته عن طريق الاحساس بالفخر بالانتماء الى أنبل الاجناس فى الارض •

٦ ـ العنصرية فى بريطانيا

كان التحيز العنصرى والقومى منتشرا فى انجلترا أيضا • ففى

---

(١) لقد ظل موسولينى سنوات يسخر بالعنصرية المناهضة للسامية ، ولكنه اكتشف مؤخرا فائدة هذا الابتكار فاستخدمه فى أغراضه • وقد لوحظ ان اليابانيين كانوا يشكون بمرارة من أنه لا يوجد لديهم يهود يمكن استخدامهم كبش فداء •

العصور الوسطى وبعدها لاحظ كثير من الزوار الأجانب لانجلترا الكراهية والازدراء اللذين يبـــديهما الشـــعب الانجليزى للغرباء ، فى حين كان الفرنسيون مشهودا لهم عادة بالود نحو الأجانب (١) • وكان معظم هذا الشعور راجعا اما الى المنافسة التجارية أو الغيرة من العمال الاجانب • ولكن من الجلى أن السبب الرئيسى كان النمو المبكر والانتشار الواسع للاعتزاز القومى الذى كثيرا ماكان يقرب من العجرفة العنصرية • وعندما هوجم وليم الثالث من خصومه الانجليز بسبب أصله الأجنبى وبطانته الاجنبية كتب دانيل ديفو كتابه الممتاز « الانجليزى المولد الحق » الذى سخر فيه من الاعتزاز والعداء العنصريين ، وأشـــار الى مدى اختـــلاط الاجناس فى الشعب الانجليزى • وبصفة عامة كان العداء نحو الغرباء اقوى ما يكون لدى الطبقات الدنيا • فعندما تقدمت الحكومة فى ١٧٥٣ بمشروع قانون يسهل التجنس على اليهود الأجانب وأيده الأساقفة ووافق عليه البرلمان حدث انفجار شـــديد فى انفعالات الغوغاء بحيث سرعان ما ألغى القانون (٢) •

وفى القرن التاسع عشر أثار سجل بريطانيا ، بوصفهـــا محررة العبيد وصديقة الحرية والسلام فى العالم كله ورائدة الاصلاح الاجتماعى الاعجاب العام • وأيا كان ما يمكن أن يقـــال عن الجانب الآخر لهـــذه الصورة فلا نزاع فى أن بريطانيا أسهمت بنصيب ضـــخم فى تقـــدم المساواة العنصرية والاجتماعية فى جميع أنحاء الكرة الارضية • فلم تكن مركز تجارة العالم فحسب ، بل كانت كذلك مركز اهتمام نشط بالأجناس المضطهدة ومساعدتها وحركات السلام العالمى • فكل أجنبى على استعداد لأن يقوم بعمل مفيد أو يبحث عن ملجأ من الاضطهاد كان يجد ترحيبا • وهناك وقائع كثيرة تثبت اتساع الافق فى المسائل العنصرية لدى قطاعات كبيرة من الشعب • فقد انتخبت عدة دوائر انتخابية انجلـــيزية ممثلين هنودا عنهـــا فى مجلس العموم ، من بينهم الوطنى الهنـــدى المشهور داد ابهاى ناروجى • كما أن أشخاصا من أصل يهودى شغلوا مناصب رياسة

---

(١) انظر كثيرا من الاحكام على الزوار الاجانب فى كتاب د . ايرنبوج «Hamburg und England in Zeitalter de Königen Elisabeth» ١٨٩٦ ص ١٥ ـ ١٩، ومالكولم لتسى « كما رآنا الاجانب » ١٩٣٥ ص ٢٨ ، و٤٩ و٥١ • وانظر أيضا روبرت ميشلز «Der Patriotismus» ١٩٢٩ ص ١٢١ و «Ethos» ١٩٢٥ المجـــلد الثانى ١٩٧ • وبولوير ليتون « انجلترا والانجليز» ١٨٨٣ ـ (طبعة ١٨٧٤ ص ٣٧) •

(٢) انظر جيرالد هرتز « الامبريالية البريطانية فى القرن الثامن عشر » ١٩٠٨ .

الوزارة والوزارة ونائب الملك في الهند والحاكم العام لأستراليا فضلا على كثير من المراكز الكبيرة الأخرى .

وكان التحيز القومي أيضا منتشرا طبعا ، ولكنه نادرا ما عبر عن نفسه بالصورة العنيفة التى يعبر عنها فى بعض بلاد القارة ، الا فى وقت الحرب . وقد ظهر التحيز العنصرى أيضا فى بعض الأوقات . ومما هو جدير بالاهتمام أن الذين عيروا دزرائيلى بأنه يهودى واكتشفوا أن سياسته ليست انجليزية بل «شرقية» (١) كانوا من الأحرار البارزين . والحقيقة أن مبادىء دزرائيلى السياسية هى نفس مبادىء بولنجبروك وبيرك وقد كيفها لتلائم وقته ، كما أن سياسته الخارجية كانت استمرارا لسياسة بالمرستون باستثناء أن دزرائيلى كان أقل ميلا بكثير للتدخل فيما لا يعنيه ولم يشجع الحركات الثورية فى الخارج . وتأكيده للطابع القومي والشرف القومي وسياسته الخارجية البراقة كانت بالتأكيد من النوع الذى يشيد به القوميون المعتدلون فى كل البلاد باعتباره « قوميا حقيقة » . ومع ذلك فواقعة أنه من « دم » مختلف كان لها أثر أكبر بكثير عند خصومه من العلاقة الروحية بين موقفه السياسى والتقاليد القومية الانجليزية .

وقد كان أكثر ظهور التحيز العنصرى تجاه الارلنديين . فقد أعلن كثير من الكتاب والسياسيين أن الارلنديين غير صالحين لأن يحكموا أنفسهم بسبب دمائهم السلتية (٢) . وبصفة خاصة أظهر كارلايل وتلامذته ميولا عنصرية . ومع ذلك فان المذاهب العنصرية لم تجد بصفة عامة تشجيعا كبيرا من جانب الساسة والدارسين الانجليز ، كما نبذها كبار المفكرين مثل ج . س . ميل و أ.ت. بكل و ت.هـ. هكسلى نبذا تاما .

وقد ظهرت مؤخرا صوره معتدلة من العنصرية عرضها عالم النفس المعروف الأستاذ وليم مكدوجال . فقد تقدم بنظرية مؤداها أن الاتجاه الى الاستنتاج المنطقى لدى المفكرين الفرنسيين والى الاستقراء التجريبى لدى

---

(١) هناك أمثلة لذلك فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة « مناهضة السامية » بقلم ل. وولف . كما يقول أحد المؤرخين الممتازين ، هـو و.هـ. دوسون ، فى كتابه « الامبراطورية الألمانية وحركة الوحدة » ١٩١٩ المجلد الثانى ص ١٢٠ « انه يهودى تماما، وهو رجل عجيب يمثل صفات جنسه ونقائصه فى نفس الوقت - لقد كان دزرائيلى شرقيا خالصا وحاول أن يصبغ الفكر السياسي الانجليزى بالصبغة الشرقية » .

(٢) هناك أمثلة عديدة ونقد فى كتاب جون ماكينون روبرتسون « الساكسون والسلت » ١٨٩٧ .

الانجليز لهـما جذورهما فى الجنس ، وان كانت التقـاليد قد ضاعفت هذه الاختلافات وزادتها حدة (١) • والواقع ان المرء يستطيع أن يلاحظ مثل هذه الاتجاهات ، ولكن معرفة التاريخ تدل على أنها لم تكن موجودة منذ البداية ولم تكن سمة مميزة لمدنية الأمتين كلها كما ينبنى على التفسير العنصرى للطابع القومى • ففى ميدان العلوم السـياسية مثلا يبـدو أن التعارض بين روسو وبيرك يؤيد وجهـة نظر مكدوجال (٢) • ولكن ذلك لا يتفق مع عدد كبير جدا من الوقائع الأخرى •

فأكبر المفـكرين السياسيين الفرنسـيين ، مثل بودان وهوثمـان ومنتسكيو وفولتير وكونت وتوكفيـل ، ينتمون الى المدرسـة التـاريخية التجريبية ، فى حين أن فلاسفة سياسيين انجليز مثل هوبزولوك وبنتام وأوستن وكثيرين غيرهم بدا فى تفكـيرهم النمط المجرد من التفـكير السياسى •

ومن الخطأ أن نفترض أن المعتقدات العنصرية لم يكن لها أى أثر فى بريطانيا • ويقول أوكسميث (٣) انه لا يوجد كاتب بريطانى بارز واحد حاول الدفاع عن النظريات العنصرية ، ومع ذلك فانها تسربت الى كثير من الكتابات والسياسة فى بريطانيا • وحتى اذا لم تكن موضع تأكيد صريح فانه يعترف بها ضمنا ويستخلص منها نتائج مهمة • بالاضافه الى أنه برغم أن الحـكومة والبرلمـان والصحافة المسـئولة تتجنـب التفرقة العنصرية ، بل وتهاجمها أحيانا ، فمن المؤكد أنه يوجد قدر من العنصرية الاجتماعية يصعب تحديد مداه • وقد كانت هنـاك شكاوى كثيرة من أنه حتى الهنود ، وهم انجليز تماما فى اللغـة والتربية والعادات ، رفضتهم بعض الفنادق ومنـازل الاقامة فى لندن • وللعلاقات الاجتماعيـة بين الأجناس المختلفة أهمية خاصة طبعا فى الامبراطورية •

---

(١) انظر و • مكدوجال « العقل الجماعى » ١٩٢١ ص ١١٢ ـ والواقع أن المدنية الفرنسية ، مثل مدنية كل أمة أخرى ، يظهر فيها تنوع كبير جدا فى الأنماط بحيث لايمكن تلخيصه فى صيغة مختصرة • انظر مثلا أ• جيرارد « المدنية الفرنسية من بدايتها الى نهاية العصور الوسطى » ١٩٢٠ ص ٥٨ • ويعبر مكدوجال عن آراء عنصرية أيضا فى كتـابه « هل أمريكا مكان أمين للديمقراطية ؟ » ١٩٢١ (نشر فى انجلترا بعنوان « الرفاهـة القومية والانهيار القومى ») • بيد أنه ينبذ المذاهب المتطرفة فى هذا المجال •

(٢) وحتى روسو لم يكن مفكرا مجردا فقط • ففى قسم كبير من كتاباته يبدو تفكيره تجريبيا ويهتم اهتماما كبيرا بالظروف التاريخية والاختلافات القومية • انظرك.أ. فوجهان « الكتابات السياسية لروسو » ١٩١٥ المجلد الاول ص ٧١ ، ٧٨ ، ٨٢ •

(٣) جون أوكسميث « الجنس والجنسية » ١٩١٩ ص ٣٩ •

٧ ـ العنصرية خارج أوربا

لفت بعض الخبراء البريطانيين ممن لهم وزن كبير الأنظار الى أن قطاعات معينة من البريطانيين فى الهند اتخذوا من الهنود موقف الاستعلاء الذى خلق انطباعا بالعجرفة العنصرية وزاد الى حد كبير جدا من حدة التوتر بين الأجناس (١) • ومما لاريب فيه أن تعميم مثل هذه الملاحظات خطأ • فقد أثبت عدد من البريطانيين فى الهند بما قاموا به من أعمال طوال حياتهم صداقتهم المخلصة للشعب الهندى واعجابهم به ، وكرسوا جهودهم بصفة خاصة لتشجيع المساواة • وقد بذلت حكومة الهند جهدها لمحاربة هذه الاتجاهات • ومع ذلك فان بعض الوقائع الأساسية للحكم البريطانى فى الهند والقوانين غير المكتوبة « للمجتمع الراقى » يبدو أنها عرقلت جهود الخبراء والسياسيين ذوى النظر البعيد • وقد كان من الأسباب الرئيسية التى حالت دون قيام اتصال اجتماعى ودى أكثر بين الجنسين ذلك العدد الصغير من البريطانيين المقيمين فى الهند ، والعدد الأصغر من البريطانيين الذين اعتبروا الهند موطنا دائما • بالاضافة الى بعض تقاليد الحياة الاجتماعية والنوادى التى حرم دخولها على الهنود من ناحية البريطانيين ، وقواعد الطائفية وابعاد النساء من ناحية الهنود • وأيا كان الأمر فان هذا المثل يبين سهولة اثارة الريبة فى العجرفة العنصرية اذا لم يكن هناك اتصال وثيق وعلى نطاق واسع بين جنسين يعيشان فى اقليم واحد • ولا يتطلب التباعد العنصرى حتى مجرد اختلاف حقيقى فى الجنس • فهناك أمثلة عديدة من أوربا وأمريكا وافريقيا يمكن الاستشهاد بها على أن الجنسيات التى تنتمى الى نفس الجنس وتعيش فى نفس البلد لا يكاد يكون فيها أى اتصال اجتماعى • فأبناؤها يعيشون جنبا الى جنب كما لو كانوا يعيشون فى عالمين مختلفين ، وهذا يفسر الى حد كبير جدا لماذا لا يوجد بينهم تفاهم أو تعاطف ، بل وكثيرا ما يكون بينهم قدر غريب من سوء النية والفرقة •

---

(١) انظر ما قرره بعض الخبراء فى و • هانكوك « عرض لشئون الكومنولث البريطانى » المجلد الاول ، و « مشاكل الجنسية » ١٩٣٧ ص ١٧١ ، وسيوج • سستر و ج• وينت « الهند والديمقراطية » ١٩٤١ ص ٦٣ ، و ك•اندروز و ج موكيرجى « ظهور المؤتمر فى الهند ونموه » ١٣٩٨ ص ٨١ ، و ك• كريشنا « مشكلة الاقليات » ١٩٣٩ ص ٤٢ ، وس • زيماند « الهند الحية » ١٩٢٨ ص ١٨٧ ، ٢١٢ •

لقد قامت الادارة البريطانية فى المستعمرات ، يدفعها المبشرون والرأى العام المتحرر ، بمجهود يستحق الاعجاب لدعم رفاهة الشعوب المتخلفة وفتح الطريق نحو المساواة العنصرية • ولكن مع ذلك فحيثما وجد أى عدد كبير من البيض المستوطنين وكانت بيدهم سلطة سياسية أنكر على الشعوب الملونة عادة أية مساواة • (١)

ومما هو جدير بالاهتمام أن نقارن بين روح الادارة البريطانية والادارة الفرنسية فى المستعمرات فى افريقيا والأجزاء الأخرى من العالم (٢) • فالفرنسيون يحاولون أن يجعلوا الافريقيين فرنسيين فى اللغة والمدنية ويحولوهم الى جزء من الأمة الفرنسية سياسيا • وينطوى ذلك على الاعتراف الكامل بالمساواة وعلى أن يكون الحكم مركزيا • والواقع أن الرجل الأسود فى المستعمرات الفرنسية القديمة لديه حق الانتخاب وله ممثل فى البرلمان فى باريس • أما فى المستعمرات الأخرى فلا يحصل على حق الانتخاب من الأهالى الا من تتوفر فيه اشتراطات معينة • وقد شغل الزنوج مناصب كنواب فى البرلمان ووكلاء لوزارة المستعمرات وحكام للمستعمرات وكبار موظفين وقواد بريين وبحريين • وفى المستعمرات يعيش البيض والسود جنودا وموظفين وعمالا وطلبة وأطفالا ويعملون جنبا الى جنب على أساس من التفاهم والمساواة الكاملين • وهناك عائلات سوداء كثيرة فرنسية فى اللغة والاتجاه فعلا • فضلا على أنه توجد مدارس للقبائل التى هى أكثر بدائية يتعلم فيها الافريقيون لينموا فى أطرهم الخاصة •

أما النظام الانجليزى فلا يهدف الى جعل الأهالى بريطانيين تماما • فهو يمنحهم اما تربيه انجليزية أو تدريبا لمهام الحياة المحلية ، ويستخدم الى حد كبير نظام الحكم غير المباشر الذى يبقى فيه الأهالى تحت حكم

---

(١) يوجد عرض مختصر وطيب جدا للتفرقة العنصرية فى أنحاء مختلفة فى العالم فى كتاب ج• أوكسميث « المسيحية ومشكلة الاجناس » ١٩٢٤ ص ١٥٩ •

(٢) هناك ثلاثة كتب مفيدة جدا وضعتها مجموعات دراسية تحت اشراف « المعهد الملكى للشئون الدولية » هى : « مشكلة المستعمرات » ١٩٣٧ ص ٥٨ و ١١٤ و ١١٧ و ١٢١ ، و « الامبراطورية البريطانية » ، «الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية» وهناك مقارنة بين النظام الفرنسى والبريطانى فى التربية فى افريقيا فى كتاب بقلم و • بريانت و ح • أورد براون «الافريقيون يتعلمون أن يصيروا فرنسيين» •

زعمائهم ولكن تحت السيطرة البريطانية • وهناك مجال أوسع للاستقلال المحلى فى النظام الانجليزى مما فى النظام المركزى الفرنسى • ويبدو أن الطريقة البريطانيـــة تؤدى على المدى الطويل الى الاســـتقلال القومى للافريقيين • ولا توجد قيود قانونية على الزواج المختلط أو الاتصـــال الاجتماعى ، ولكن العلاقات محددة بحكم العادات . ولم يقبل الجيش البريطانى أو الأسطول رجالا من السود للخدمة جنبا الى جنب مع البيض وان كان يبدو أن هناك تغييرات فى هذا المجال الآن • وفى الامبراطورية الهولندية لا توجد قيود على أساس اللون ، فأهل جاوة يتمتعون بالحقوق السياسية وباستقلال ذاتى كبير • ومن نتائج الادارة الهولندية أن شعوبا عديدة مختلفة اللغـــات والعادات تكتسب شعورا بالوحدة شيئا فشيئا وقد ينتهى الأمر بتأليف أمة واحدة ، قد تقوم على أساس فدرالى •

أما فى الممتلكات البريطانية « الدومنيون » فان العداء نحو الأجناس الملونة سافر • ودعاته الرئيسيون هم البوير فى جنوب افريقيا • ولكن هناك قطاعات من الســكان الانجليز ، وبخاصـة الفلاحين والعمـال ، تشاركهم فى اتجاههم • ووجهة النظر التقليـدية لدى البوير هى اعتبـار الأهالى أقنانا لديهم ، وان كانوا يعاملون أحيانا كما لو كانوا فى رعاية البوير • ويؤلف الأهالى ثلاثة أرباع سكان جنوبى افريقيا و ٧٤ فى المائة من العمال الزراعيين و ٨٩ فى المائة من المعدنين و ٦٠ فى المائة من العمال الصناعيين (١) • ومع ذلك فان ســيطرة البوير فى اتحاد جنوبى افريقيا والموقف الجديد للعمال البيض ينكر عليهم حقوقهم المدنية والسياســية الأساسية ، بل أنه استباح حقوقا كان الملونون يتمتعون بها منذ أجيال • فمــدارس الأهالى غير صــالحة وأجورهم وصــحتهم ومســتوى معيشتهم منخفضة جدا ، ومن ثم فان انتــاجهم منخفض جدا أيضا • بالاضــافة الى أن فرض مبـدأ عدم المســاواة العنصرية له أثر سيىء فى اخلاق العمـال البيض الذين يعتبرون العمل الشاق حاطا بأقدارهم ويصرون على الحصول

---

(١) أكثر الكتب فائدة فى هذا الموضوع هى : « مشاكل اللون فى جنوب افريقيا » ١٩٣٤ تأليف ادجاربروكس ، وكتاب الفرد هورنليه « السياسة المتبعة تجاه الاهالى فى جنوب أفريقيا والروح التحررية » ١٩٣٩ ، ومؤلف « بلوغ سن الرشـــد ، دراسات فى المواطنة والسياسة فى جنوب افريقيا » بقلم عدة كتاب مختلفين ، ١٩٣٠ ، وبخاصة الفصل الخاص بالبيض الفقراء والاهالى ص ١٢٩ ، وكتاب ج• كالبين « ليس هناك جنوب افريقيون» ١٩٤١ ص ١٧١ •

على عمل من أعمال ذوى « الياقات البيضـاء » فى الحكومة • فضلا عن أن النقابات أقامت « حاجزلون » جعل جميع الأعمال ذات الأجور الطيبة وقفا على العمال البيض فعلا (١) • وقد شجعت الظروف السـائدة فى اتحـاد جنوبى افريقيا المستوطنين البيض فى أجزاء أخرى من افريقيا على الضغط لمعاملة الأهـالى بصـورة مماثلة • بيد أنه يجب أن نذكر أن كثـيرا من البريطانيين والهولنـديين فى جنـوبى افريقيـا من ذوى المراكز الـكبيرة يحاربون التفرقة العنصرية الحادة ويحاولون تحسين الوضع الاجتماعى للأفريقيين السود وظروف معيشتهم •

وتؤثر العنصرية أيضا فى الهنود الذين استوطن عدد كبير منهم فى جنوبى افريقيا منذ أجيال • فالتنميـة الاقتصادية جلبت أعدادا كبيرة من العمال المأجورين من الهند عاشوا وعملوا فى ظروف شبه عبودية •وقد بلغ التذمر فى الهند حدا كبيرا بحيث أوقفت الهجرة فى النهـاية الى افريقيا الجنوبية• ومن ناحية أخرى أراد المستوطنون فى جنوبى افريقيا منع الهنود من الاقامة هناك ومن الترقى الى مراكز أفضل ومن ثم اتبعوا ضدهم سياسة من التفرقة العنصرية أثارت غضـبا شديدا فى الهنـد واحتجت الحـكومة الهندية ، وبعد نزاع طويل استقر الأمر على حل وسط فى ١٩٢٧ (٢) • ومع ذلك فحتى الآن ليس للهنود المولودين فى جنوبى افريقيا والذين لديهم المواطنة ــ حق الانتخـاب ، وكذلك لا يسمح لهم فعلا بدخول الجامعـات والمدارس التى يؤمها البيض (٣) • وقد كانت السـياسة العنصرية فى

---

(١) هناك كتاب عن تاريخ حياة جنرال سمطس فيه تفسير لهذا التغير فى اتجاه النقابات بأن الحـركة العمالية فى جنوب افريقيا كانت قبـل الحرب تحت نفوذ زعماء بريطانيين وتقاليد بريطانية ، ومن ثم لم تشجع سياسة الاضطهاد العنصرى • ولكن فى أثناء الحرب ذهب معظم الانجليز الى ميادين القتال وحل محلهم شبان من البوير الذين سرعان ما طالبوا باخضاع العمال السود اخضاعا كاملا • انظر س •ج• ميلين «جنرال سمطس » المجلد الثانى ص ٣٤٧ •

(٢) هانكوك « الهند والمساواة العنصرية » فى مؤلفه الممتاز « عرض لشـئون الكومنولث البريطانى » ص ١٦٦ •

(٣) وهناك أماكن مخصصة للبيض وحدهم فى مكاتب البريد وعربات « ترام » خاصة للأهالى ، ولا يسمح لهم بدخول الفنادق ولا عربات الاكل فى القطارات فى معظم الحالات ، ولا يوجه اليهم الحديث بلقب « سيد » أو « سيدة » وهكذا • والصينيون الذين ينتمون الى أمة حليفة يعاملون معاملة الاهالى الوطنيين فى جنوب افريقيا ، فى حين أن اليابانيين ، الذين ينتمون الى أمة معادية يعتبرون بيضا •

جنوبى افريقيا دافعا قويا على ظهور النزعة القومية الهندية . فقد اعتنق غاندى سياسة عدم التعاون بسبب تجاربه فى جنوب افريقيا . وقد حاولت الحكومة البريطانية أن تحمل جنوب افريقيا على تجنب الألفاظ التى تغضب الهنود ، ولكنها لم تحقق نتائج جدية فى المسائل الأساسية حيث أن أى ضغط يثير رد فعل عنيف فى الدومينيون .

ولم تذهب ممتلكات التاج الأخرى « الدومينيون » الى الحد الذى ذهب اليه جنوب افريقيا فى التفرقة العنصرية ، وبصفة عامة لم تثر سياستها فى هذا المجال نفس التذمر فى الهند. ولكن فيما يتعلق بالهجرة اتخذت كلها كثيرا من الاجراءات المباشرة وغير المباشرة لابعاد الآسيويين(١). بالاضافة الى أن القيود تشتد بصورة متزايدة وصارت تطبق على شعوب أكثر فأكثر ، حتى الأوربية . وقد ذكر الاستاذ بيلى ، من جامعة ملبورن ، ان الفكرة فى مبدأ الأمر كانت جعل استراليا مركزا أماميا للمدينة البيضاء . وبعد الحرب العالمية الكبرى ووصول أعداد كبيرة من شعوب جنوبى شرق أوربا ضاق المفهوم وصار هو جعل استراليا مركزا أماميا للجنس البريطانى . ثم ضاق المفهوم أكثر من ذلك وصارت استراليا للاستراليين.

بيد أن هناك حالة غريبة هى عدم وجود تحيز عنصرى ضد أهالى البلاد الأصليين « الماوورى » فى نيوزيلاندا (٢). فهؤلاء الأهالى يؤلفون ٥ر٤ فى المائة من السكان ولا يوجد « حاجزلون » بالمعنى الموجود فى استراليا أو جنوبى افريقيا . وكثير من العائلات البيضاء التى استوطنت من مدة طويلة تفخر بأن دماء أجدادها مختلطة بالدم الماوورى ، وقد استمر التزاوج المختلط وقام المولدون بدور كبير كوسطاء بين الجنسين. وقد كان سير جيمس كاول مولدا وأكثر من حاز الثقة بين زعماء الماوورى فى عهده، ومع ذلك فانه كان يمثل دائرة انتخابية بيضاء . وقد حصل الماوورى على حق انتخاب وكان هناك وزير للشئون الأهلية منهم . وبرغم أن هناك قدرا

(١) للتفاصيل انظر الكتاب المفيد جدا «المركز القانونى للاجانب فى بلاد المحيط الهادى » بقلم عدة كتاب وباشراف نورمان ماكنزى ، ١٩٣٧ . وانظر كذلك أ. جاى فلان بيتيوس « الجنسية داخل أمم الكومنولث البريطانى » ١٩٣٠ ص ١٦٣ ، ٦/ وهناك مراجع أخرى مذكورة فى « دائرة معارف العلوم الاجتماعية » مجلد ٧ (١٩٣٢) ص ٥٩٤

(٢) و . موريل « نيوزيلاندا » ١٩٣٥ ص ٢٩٩ .

معينا من الانفصال الاجتماعي والتفرقة الاجتماعية فان ذلك يقابله ويضيع أثره تقليد طويل من حسن النية والاحترام المتبادلين (١) .

وفى الولايات المتحدة تلعب التفرقة العنصرية ، التى يرجع جزء منها الى القانون وجزء الى الضغط الاجتماعي والتهديد ، دورا خطيرا . فنسل الزنوج العبيد ، الذين يبلغون حوالى ١٢ مليونا ، مواطنون أمريكيون قانونا . وقد تأمركوا تماما ، وعندما يحصلون على التربية والظروف الاجتماعية اللازمة أثبت نموهم بما لا يدع أى مجال للشك امكان تماثلهم عقليا تماثلا كاملا ومساواتهم المعنوية والفكرية أساسا (٢) . ومع ذلك فان الأمريكيين الملونين يتعرضون لأوضاع تحط بالكرامة تختلف باختلاف أجزاء « الاتحاد » (٣) . فهناك عدد من الولايات يحرم الزواج المختلط وقد أخذ النازى عن تشريعاتها النموذج الذى طبق فى وضع قوانين نورمبرج . ويوجه النقد باستمرار الى هذه الأوضاع من جانب الرأى العام المتحرر وتبذل الجهود لتحسينها .

وقد فرضت قيود متزايدة على هجرة الاسيويين ، وفى النهاية حرمت تماما (٤) . وبعد الحرب الكبرى قيدت هجرة الأوربيين أيضا الى حد كبير جدا ، وبخاصة فيما يتعلق بشعوب شرقى وجنوبى أوربا . وقد كان للمذاهب العنصرية الألمانية ، التى يمثلها فى أمريكا عدد كبير من الكتاب ، بعض

---

(١) وقد أعلن رئيس الوزراء فى ١٩٣٧ أنه « برغم أن هناك جنسين فى نيوزيلاند فاننا شعب واحد » . انظر هانكوك المؤلف السابق المجلد الثاني ص ٧٠ .

(٢) انظر العرض الشامل لهذا الموضوع الذى دار حوله جدل كثير فى « القدرات الجسمانية والعقلية للزنجي الامريكى » الذى وضع تحت اشراف قسم التربية بجامعة هوارد - واشنجتون ١٩٣٤ .

(٣) لقد عالج مشكلة الاجناس فى أمريكا بصورة ممتازة مؤخرا باحث هولندى هو دكتور شريكه الاستاذ بجامعة باتافيا ومدير التربية فى جزر الهند الهولندية . أنظر ب . شريكه « الامريكيون الاغراب . ودراسة فى العلاقات بين الاجناس » ١٩٣٦ ومعه قائمة بيبلوجرافية . انظر كذلك أولد هام ص ١٦٤ - ١٧٧ .

(٤) يقول الاستاذ مكدوجال ، وهو نفسه من دعاة العنصرية ، ان سياسة مناهضة الآسيويين التى طبقتها ولايات الباسفيكى لم تقدرها الولايات الشرقية فى أول الامر حق قدرها ، بل وكاد الاختلاف فى وجهات النظر يهدد وحدة الأمة لأن « سكان الغرب كانوا على استعداد للقتال والانفصال اذا تعرضت القيود التى وضعوها للهجرة للرفض من جانب الحكومة الفدرالية » . ولكن الأمة كلها قبلت فى النهاية وجهة نظرهم . و . مكدوجال « الأمة الأمريكية » ١٩٢٥ ص ١٤٧ .

الأثر فى تمهيد السبيل لهذه السياسة . وكان للتقييد الشديد للهجرة أثر بعيد المدى على مصير العالم ، بتشجيع نمو النزعة القومية العنيفة فى اليابان وبعض البلاد الأخرى من ناحية ، وبزيادة حدة التوتر الاجتماعى فى أوربا الى حد كبير ، مما مهد السبيل لظهور هتلر ، من ناحية أخرى .

والأسباب التى تساق لاستبعاد الشرقيين من البلاد التى يستوطنها البيض هى الادعاء بأن هناك خطرا من انخفاض الأجور والمستوى العام للمعيشة وضرورة حماية الجنس الأبيض ومدنيته . بيد أنه من المشكوك فيه أن تكون هذه الاجراءات هى وحدها التى تحقق هذه الأهداف دون غيرها (مثل تحديد حصص للهجرة وحد أدنى للأجور لا تنخفض عنه) ، أو أن هذه الأخطار حقيقة أصلا فى ظل خطط معقولة لتنظيم الهجرة . فبعض البلاد التى تقيد الهجرة سكانها قليلون فعلا وتستفيد كثيرا بزيادة العمال والمستهلكين . وفيما يتعلق بصور التفرقة العنصرية الأخرى من العسير أن يرى المرء كيف يمكن أن تخدم هذه الأغراض . فالمدنية البيضاء لا يهددها قطعا أن يجلس الهندى أو أحدأبناء البانتو فى نفس المدرسة أو نفس عربة القطار مع الرجل الأبيض ، الذى قد يكون أقل مدنية منه بكثير. ومن الواضح أن هذه الاجراءات ترجع الى حد كبير جدا الى مجرد التحيز العنصرى .

واذا كان صحيحا ان البشر بصفة عامة، أو البيض بصفة خاصة ، كائنات عدوانية حقودة لاتقبل التفاهم الى حد لايستطيعون معه أن يعيشوا جنبا الى جنب مع أشخاص ذوى لون مختلف دون أن يؤدى ذلك الى تعريض النظام الاجتماعى للخطر الشديد ، فعندئذ يكون المهرب الوحيد طبعا هو فصل الأجناس المختلفة بعضها عن بعض . ويكون للشعوب الملونة ، وهم يؤلفون القسم الأكبر من سكان العالم ، الحق عندئذ فى ابعاد البيض عن بلادهم . ولست أنوى البحث فيما اذا كانت وجهة النظر المتشائمة هذه فى الطبيعة البشرية صحيحة . ولكنها اذا كانت صحيحة فان ذلك يكون بمثابة ضربة قاسمة للايمان بالديمقراطية فى جذورها .

٨ ـ العنصرية والعلاقات مع اليابان

ان اقفال جميع بلاد البيض تقريبا فى وجه الهجرة الآسيوية أثار مرارة شديدة فى الهند والصين واليابان . فأجزاء كبيرة من هذه البلاد أما مزدحمة بالسكان أكثر مما ينبغى أو تمنعها العوامل الجوية وأسباب

أخرى من التنمية الزراعية والصناعية • وكثافة السكان فى الميل المربع القابل للزراعة (على حسب متوسط تعداد ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣) كانت ٢٧٥٠ لليابان فى حين أنها كانت ٢٢٩ فقط للولايات المتحدة و ١٧٢ للاتحاد السوفيتي و ٤٧٦ لفرنسا و ٨١٩ لايطاليا(١) وكانت فى بريطانيا ٢١٧٠، ولكن بريطانيا لا تعتمد على منتجات أرضها وتعيش الى حد كبير على الصناعات والتجارة الخارجية • وأمر طبيعي أن تثير مشكلة ضغط السكان القلق فى اليابان• وبدا للكثيرين أن البديل الوحيد هو اما الهجرة السلمية أو استعمار بلاد بحد السيف • بيد أن الاقتصاديين وجدوا أن الاستعمار والهجرة على حد سواء ليس لأى منهما سوى أثر محدود جدا (٢) • وكثير من اليابانيين يعزفون تقليديا عن مغادرة وطنهم • وقد أغلق الباب فى وجه اليابانيين أكثر فأكثر من جانب كل البلاد الصالحة للهجرة تقريبا مثل الولايات المتحدة والمكسيك وكثير من دول أمريكا اللاتينية وجميع بلاد الدومنيون والاتحاد السوفيتي • كما أن بعض البلاد فرضت أيضا التفرقة فيما يتعلق بفرص العمل والتجارة وحق امتلاك العقارات وما الى ذلك وقد تذمر اليابانيون كثيرا من هذه التفرقة ـ لا بسبب أثرها الاقتصادى السيىء ، كما أعلنوا مرارا ، بل لما فيها من مهانة (٣) ولم يكن هناك صراع تجارى كبير بين اليابان والولايات المتحدة (٤) ، وكان كل من البلدين من أحسن عملاء البلد الآخر • كما لم يكن اغراق أمريكا باليد العاملة اليابانية الرخيصة محتملا • ومع ذلك فقد بدأت فى سنة ١٩٠٦ حركة عنيفة ضد الهجرة اليابانية فى كاليفورنيا وأبعد الأطفال اليابانيون من المدارس العامة • واعتبر أن جلوسهم على نفس المقعد مع الأطفال البيض خطرا أخلاقيا • ولم يكن مجموع عدد الأطفال الذين يتعلق بهم الأمر سوى ٩٣ وكانوا موزعين على ٢٣ مدرسة ! وأوقفت اليابان هذه الحركة بعقد ما يسمى « باتفاق جنتلمان » مع الولايات المتحدة تعهدت بمقتضاه بايقاف هجرة العمال اليابانيين الى أمريكا تماما • ولكن فى ١٩٢٠ عادت الحركة الى الحياة ثانية • فقد اتخذ « فدرال العمل الامريكى » الكبير قرارا يطلب

---

(١) البرت هندمارش « أسس السياسة الخارجية اليابانية » ١٩٣٦. ص ٤٣ .

(٢) Ryoichi Ishii « ضغط السكان والحياة الاقتصادية فى اليابان » ١٩٣٧ ص ١٩٤ و ٢٥٢ (أوردها هندمارش ص ٩٩).

(٣) هندمارش ص ١٩٣ و ٢١٥ .

(٤) هندمارش ص ٢٢٨ .

من الكونجرس « الغاء اتفاق الجنتلمان وطرد جميع الأشخاص اليابانيين والاسيويين الاخرين كلهم من أمريكا » . والواقع ان الهجرة سرعان ما حرمت كلية .

وعندما وضعت صيغة ميثاق عصبة الأمم طلب اليابانيون ادراج بند يؤيد المساواة بين الأمم وحقها في معاملة متساوية وعادلة (١) . وقد حالت أقلية في اللجنة دون قبول هذا البند ، وقرر الرئيس ويلسون ، حيال المعارضة الرسمية أن الاجماع ضروري. وقد وافق على البند كل من اليابان وفرنسا وايطاليا والبرازيل وتشيكوسلوفاكيا والصين واليونان ويوغوسلافيا ، ورفضته كل من بريطانيا والولايات المتحدة وبولندا والبرتغال ورومانيا . وقال مستر بالفور ان « فكرة أن جميع الناس خلقوا متساويين من أفكار القرن الثامن عشر ولا أعتقد أنها سليمة » .

وكانت بريطانيا قد عقدت في ١٩٠٢ حلفا مع اليابان تجدد مرتين وكانت فيه فائدة كبيرة للطرفين . وفي الحرب الكبرى كانت القوافل البريطانية تسير في حماية السفن الحربية اليابانية . بيد أن هذا التحالف لم يلق ترحيبا في الولايات المتحدة والدومينيون ، لأن الروح الحربية والتوسعية اليابانية كانت تثير الريبة فيها من ناحية ، وبسبب العداء العنصري عموما من ناحية أخرى. وكان تاريخ انتهاء التحالف سنة ١٩٢١. وكان كل من بريطانيا واليابان يريدان تجديده ولكن تأثير الولايات المتحدة والدومينيون نجح في انهائه (٢) . وقد أدى « مؤتمر واشنجتون » الى « ميثاق الدول الأربع للسلام » والى اتفاقات أخرى غيره ، ولكن الصداقة بين بريطانيا واليابان لم تعد الى سابق عهدها . وكان السبب في التنافر الى حد كبير هو نشاط الحزب العسكري في اليابان . فالروح الحربية والنزعة القومية كانتا دائما قويتين في هذا البلد . وبعد الحرب الكبرى فقد الحزب العسكري قوته في حين أخذت المصالح التجارية والمالية التي تؤيد التوسع السلمي بحثا عن أسواق جديدة تزداد نفوذا (٣) . وقد قال

---

(١) انظر التفاصيل في جورج شوارزنبرجر « سياسة القوة » ١٩٤١ ص ٣١٢ و ك.أ. ماكارتني « الدول القومية والأقليات القومية » ١٩٣٤ ص ٢٢٠ .

(٢) انظر د. جب « الامبراطورية في أفول » ١٩٢٦ ص ٤٠ .

(٣) أ. كاوستون « النزعة العسكرية والسياسية الخارجية في اليابان » ١٩٣٦ ص ١٣٠ .

أحد الأمريكيين البارزين ، هو الرئيس شيرمان ، بعد زيارة اليابان : انها في رأيه ستصير فيمدى عشرين عاما بلدا من أكثر بلاد العالم ديمقراطية. وقد عبر بعض الخبراء الأمريكيين أيضا عن وجهات نظر متفائلة في هـذا الصدد (١) . وقد حذر أحد الكتاب الأمريكيين ، هو دكتور سيدني جاليك ، بلاده من أن عودة الحركة ضد اليابانيين في أمريكا يساعد بصورة مباشرة أخطر العناصر وأقساها في اليابان ويضع في يد العسكريين اليابانيين أقوى الحجج لنشر الشعور المضاد لامريكا في اليابان ،(٢) . وفي سنة ١٩٣٠ انتهى الصراع بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية في اليابان حول « معاهدة لندن البحرية » بانتصار ساحق للحكومة المدنية (٣) . ولـكن العسكريين رتبوا « حادثا » في الصين كحجة لاتباع سياسة غزو تعيد اليهم هيبتهم. وأدت الأزمة الاقتصاديةالعالمية الى تفرقةجديدة ضد البضائع اليابانية وجعلت في وسع العسكريين بمسـاعدة الطبقات التي أصـابتها الضائقة أن يهزموا حكومة الأحرار . وغادرت اليابان عصبة الأمم ونبذت « المعاهدات البحرية » ، وفي ١٩٣٦ نشر ضابط بحري ياباني كتابا انتهى فيه الى أنه لا يكاد يكون هناك أمل في تجنب الحرب مع بريطانيا . وقال : « أن العلاقات العدائية بين البلدين كانت النتيجة الطبيعية لنبذ التحالف الذي كان بينهما » (٤) . ويعد نمو قوة العسكريين في اليابان المسـئول الأول عن كل الـكوارث التي أعقبت ذلك . ولـكن من أهم العوامل التي سـاعدت العسـكريين على الاسـتيلاء على السـلطة كان بلا ريب التفرقة العنصرية ضد اليابان التي طبقتهـا عدة أمم . وكان هنـاك عامل آخر هو الموقف الضعيف الذي اتخذته الدول الديمقراطية من الاعتداءات الفاشية.

---

(١) ايشيريو توكوتومي « العلاقات اليابانية الامريكية » ١٩٢٢ ص ١٤٨ .

(٢) سيدني جاليك « المشكلة اليابانية الامريكية » ١٩١٤ ، و « نحو فهم اليابان » ١٩٣٥ .

(٣) كاوستون ص ١٣٧ .

(٤) توتا ايشمارو « اليابان لا بد أن تحارب بريطانيا » الترجمة الانجليزية ١٩٣٦ ص ٥٥ س. جاليك « نداء آسيا الى امريكا » .

ولم يكن سبب الحركة ضد اليابانيين فى أمريكا هو الخوف من العدوان الياباني ٠ فالصينيون والآسيويون الآخرون الذين لا ينتمون لشعوب عدوانية كانوا يعاملون معاملة أسوأ حتى من ذلك ٠ وقد كتب الأستاذ جاليك ، وهو خبير بهذه المشكلة والمتحدث باسم منظمة كبرى للكنائس الامريكية ، عن الاضطرابات الصينية فى الثمانينات : « لقد اغتيل عشرات من الصينيين وجرح مئات منهم وسرق آلاف بواسطة الغوغاء الهائجين ضد الآسيويين دون حماية للضحايا أو عقاب للمجرمين » ٠ وقد أوقفت الهجرة الصينية تماما بواسطة عدة قوانين برغم أن ذلك كان فيه مخالفة صريحة للمعاهدات الصينية الامريكية التى عقدت فى سنة ١٨٦٨ ، وسنة ١٨٨٠٠ وقررت « المحكمة العليا » أن الكونجرس ليس مقيدا بالمعاهدات الدولية ويستطيع أن يلغيها أو يعدلها كما يتراءى له ٠

الفصل الثالث

الجنسية واللغة

١ ـ اللغة كرمز للشخصية

ليست اللغة مجرد وسيلة للتخاطب مع الآخرين فحسب ٠ فهى أيضا أقوى عوامل نمو الشخصية ، الفردية والجماعية ٠ وكل اختلاف اجتماعى يؤدى الى صور خاصة من الحديث تؤكد الاختلاف الاجتماعى وتزيده ٠ وقد وجد اللغويون أن كل قرية ومنطقة تقريبا وكل حرفة ومهنة وكل اتحاد ومندمجة وطبقة اجتماعية لها خصائصها المميزة فى الحديث ٠ كثيرا ما تعتبر شعارا لهذه المجموعة الخاصة (١) ٠ وفى المجتمعات البدائية تحدد لغة حديث خاصة لكل من الرجال والنساء ولكل من الكبار والصغار . وهناك أمثلة كثيرة لاستعمال لغة خاصة فى الاغراض الدينية وللتحدث الى الله ، كما تستعمل اللاتينية حتى الآن فى الكنيسة الكاثوليكية والعبرية فى الكنائس اليهودية . وفى الأزمنة الماضية كثيرا ما كان نفس الشخص يستعمل لغات مختلفة ، أو لهجات مختلفة ، لصور مختلفة من الادب ، اما تبعا للمركز الاجتماعى للقراء أو طبقا للتقاليد (٢) .

٢ ـ الجنسية واللغة فى العصر القديم والعصور الوسطى

أصبح المجتمع القومى فى عصرنا هو القوة الكبرى وفقد كل منافسيه

(١) توجد أمثلة كثيرة فى كتاب ج٠ فندريز « مدخل لغوى للتاريخ » ١٩٢٥ ص ٢٤٠ . وفيما يتصل باللغة والشخصية انظر ك . فوسلر « روح اللغة فى المدنية » ١٩٣٢ الفصل الثانى .

(٢) فندريز ص ٢٧٢ ٠



المحليين والاجتماعيين هيبتهم ونفوذهم . وصارت اللغة القومية أحد أوثان دين جديد . فكل الامم تعتبرها رمزا لاستقلالها وشرفها بوصفها التعبير الاسمى عن شخصيتها ، وتقدر السيطرة المطلقة للغتها على اقليمها القومي أهم من كثير من المزايا الروحية والمادية الواضحة . وقد تمسكت الشعوب طبعا بلغتها دائما وكثيرا ما جنحت الى ازدراء الاجانب الذين بدا حديثهم همجيا(١) . ومع ذلك فلا يبدو أنه كان هناك في العصور القديمة مايقابل تقديسنا للغة القومية وتعصبنا ضد اللغات الاخرى . ففي العهود القديمة كان الحكام والشعوب يتسامحون في وجود لغات أخرى في أقاليمهم ، بل انهم اتخذوا أحيانا لغات أجنبية ، مع انهم لم يكونوا بغير مشاعر قومية واعتزاز قومي . ولعلهم كانوا يسخرون من الاجنبي وهو يلوك لغتهم ، ولكننا لم نسمع قط عن استخدام الاكراه لفرض لغة قومية على أقليات أو على غرباء .

وقد نتج هذا الموقف عن الظروف الاجتماعية . ففي العهود القديمة لم يكن الناس قد التصقوا بعد بالارض تماما . وكانت الهجرات والغزو والتسرب والاعداد الكبيرة من الأرقاء الأجانب ونقل شعوب بأكملها أو

(١) ان المعنى الاصلي لكلمة « همجي » ربما كان التلعثم واللجلجة واللكنة .. وهناك شعوب أخرى كثيرة لديها شيء من هذا القبيل . فاللفظ السلافي « لألماني » يعني أبكم . انظر ج. جوثنر «Hellenen und Barbaren, Aus der geschichte des Nationalbewusstseins» ١٩٢٣ ص ١ و ٤ و ١٢٤ .

استئصالها واستيطان الجنود في الاراضي المغزوة كثيرا ما تؤدى الى تغيير في اللغة • وكان الملوك والارستقراطيون يرحبون دائما بالاجانب الذين يمكن أن يخدموهم •

وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد كانت لغة بابل وحروفها تستعمل بواسطة جميع الملوك الشرقيين فى مراسلاتهم الدولية ، حتى بواسطة المصريين الذين كانوا يحتقرون «الآسيويين التعسين» (١). وقد استخدم البابليون الى حد كبير جدا اللغة السومرية فى كتاباتهم الدينية ووثائقهم القانونية • وفى الوقت الذى لم يعد هناك شعب سومرى بقيت لغته وقامت بنفس الدور الذى قامت به اللاتينية فى العصور الوسطى لدينا • وفيما بعد صار الاشوريون أصحاب السيطرة السياسية ولكن فى نفس الوقت حلت اللغة الآرامية محل البابلية والاشورية على نطاق واسع وصارت اللغة العامة للتخاطب فى الجزء الاكبر من جنوب غربى آسيا •

وعادت قوة بابل مرة أخرى لمدة قصيرة بواسطة أسرة من الملوك الآراميين • وعندئذ غزا الملك الفارس سيروس وابنه قمبيز جميع الامبراطوريات الاخرى •

ولكنهما كانا يقدران لقبهما كملوك لبابل أكثر من جميع ألقابهما الوطنية واتخذا اللغة الآرامية فى اتصالاتهما برعاياهما فى الغرب • وبعد موت قمبيز ثار الفرس على سياسة هذه الاسرة وتفضيلها لبابل (٢) . وحتى اليهود ، برغم وعيهم القومى القوى بعد الاسر ، هجروا العبرية فى حديثهم اليومى واستعملوا الآرامية الى حد أن الناس لم يعودوا يفهمون نص التوراة وصار لا بد من ترجمته الى الآرامية ليتلى فى المعابد اليهودية (٣) .

وفى عهد الاغريق انتشرت اللغة الاغريقية على نطاق واسع فى الشرق ، وان كانت أساسا لغة المدن والطبقات المثقفة ، فى حين احتفظ الريف والعامة بلغاتهم الخاصة • وعندما اتسعت سيطرة روما اعقبها

---

(١) هـ• وينكلر «Babylonische geisteskulture» ١٩١٩ ص ٢١ ،و ب• ميسنر «Kultur Babyloniens» ١٩٢٥ ص ١١ •

(٢) وينكلر ص ٢٧ •

(٣) و• روبرتسون سميث « العهد القديم فى الكنيسة اليهودية » ١٩٢٦ ص ٣٥ ومعظم الكتابات السابقة على الانجيل أيضا كانت بالآرامية أيضا • ولم يكن انتشار هذه اللغة راجعا الى القوة السياسية ولا الى الانجازات الثقافية • ويبدو أن من الاسباب الرئيسية الاهمية التجارية للاراميين وسهولة حروفهم . انظر « تاريخ كامبريدج القديم» ١٩٢٥ المجلد الثالث ص ٢٤٨ و ٤٢٣ ، و س• شيفر « الآراميين » ١٩١١ •

بسرعة انتشار اللغة اللاتينية ، وان لم يعمل الرومان على نشرها قهرا : فقد كان استيطان المحاربين الرومان فى البلاد المهزومة واغراء المواطنة والمدنية الرومانية كافيين • واختفت تماما لغات شعوب كبيرة ومتمدينة مثل الأتروبيين والغاليين ولغات أخرى كثيرة ، ويبدو انه لم تحدث مقاومة كبيرة للرومان • كما لا يوجد أثر لشخصية هذه الشعوب فى أواخر الامبراطورية الرومانية • فالغاليون والاسبان سرعان ما صاروا رومانيين متحمسين وأسهموا فى السياسة والادب الرومانيين بنصيب وافر (١). ومن ناحية أخرى كانت الطبقات المتعلمة فى الامبراطورية الرومانية تستعمل الى حد كبير اللغة الاغريقية فى الأغراض الثقافية ، فى حين ظلت اللاتينية هى اللغة الرسمية • وسرعان ما اصطبغ التيوتون الذين احتلوا أرض الامبراطورية المنهارة بالصبغة الرومانية وهجروا لغتهم الاصلية الى اللغة اللاتينية •

وعندما اجتاح العرب عالم البحر الأبيض المتوسط اتخذوا وضعا مسيطرا فى جميع البلاد التى غزوها ولكنهم لم يعملوا على فرض لغتهم على الشعوب المهزومة • بل على النقيض من ذلك لقد حرم عمر على المسيحيين أن يتعلموا اللغة العربية وحرم على المسلمين استخدام أية لغة أجنبية • بيد انه سرعان ما ثبت أن هذه الحواجز غير كافية وانتشرت العربية بصورة هائلة • وقد كان الاسلام ، على خلاف الاديان القديمة ، مذهبا ديمقراطيا وتلقت حتى أدنى الطبقات تعليما لكى تقرأ القرآن • بالاضافة الى أن الاسلام اجتذب كثيرا من العقول المثقفة ثقافة عالية من أمم كثيرة ولا سيما الفرس والاغريق والسوريين والاقباط والمغاربة والقوط • وكل ذلك ساعد على انتشار اللغة العربية •

وقد نجح النورمانديين نجاحا باهرا كغزاة وكمنظمين للدول • ومع ذلك فانهم لم يبدوا اصرارا وتمسكا بنشر لغتهم فى أى مكان • ومعظمهم غيروا لغاتهم مرتين أو ثلاثا خلال بضعة قرون قليلة • ففى نورمانديا سرعان ما تركوا لغتهم التيوتونية الاصلية واتخذوا الفرنسية لغة • وفى انجلترا احتفظوا بالفرنسية مدة أطول ، ولكنهم سرعان ما خلطوا بها عناصر انجلو ساكسونية وطوروها الى الانجليزية • وفى ارلندا سرعان ما اصطبغ البارونات الانجلو نورمانديين بالصبغة السلتية ، وأخفق دستور كيلكنى فى ١٣٦٧ فى الحيلولة دون ذلك • وفى اسكتلندا أيضا

(١) فيما يتعلق بأسباب صبغ الغاليين بالصبغة الرومانية انظر فوستل دى‌كولانج « تاريخ الانظمة السياسية فى فرنسا القديمة » ١٨٧٧ ص ٣٧ ـ ٥٥ •

اتخذوا اللغة السلتية وتزعموا السلتيين ضد العدوان الانجليزى • وفيما بعد صارت اللغة الانجليزية هى لغة أسكتلندا أكثر فأكثر • ويقول الأستاذ ريت : « ان الملوك السلتيين أرغموا القسم الأكبر من اسكتلندا السلتية على اتخاذ القانون الانجليزى والعادات الانجليزية ، وبدرجة أقل ، اللغة الانجليزية»(١) • بيد أن اللغة التى صارت لغة قومية هى لغة شمال انجلترا وأصبحت خصائصها المتميزة رمزا للجنسية الاسكتلندية •

وابتداء من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر تسربت اللغة والحضارة الفرنسية الى أقاليم واسعة فى أوربا والشرق ، فى حين انتشرت اللغة والحضارة الالمانية فى شرق أوربا • فقد غزا المغامرون النورمانديون والمجاهدون الفرنسيون دولا عديدة وأدخلوا فيها اللغة والعادات الفرنسية • بالاضافة الى أن المجتمع الأرستقراطى فى أوربا كلها تبنى بحماس مدنية الفروسية الفرنسية وتعلم اللغة الفرنسية (٢) • وكان التوسع الالمانى بعضه نتيجة لعمل الفرسان الغزاة ، كما فى بلاد البلطيق ، وبعضه من انجازات التجار والمعدنين والحرفيين والفلاحين الألمان الذين استوطنوا فى أوربا الوسطى والشرقية بين السلافيين والهنغاريين والرومانيين • وقد شجع الأمراء السلافيون والهنغاريون هذه الهجرة التى دعمت التقدم الاقتصادى والثقافى • ففى القرن الحادى عشر أعلن الملك ستيفن الاول ملك هنغاريا : ان بلدا بلغة واحدة ونوع واحد من العادات فقط لهو بلد عاجز وضعيف (٣) • وفى بوهيميا حبذ الملك التشيكى العظيم أوتاكار الثانى هجرة الالمان ، كما فعل سابقوه ، وقد منحهم امتيازات عظيمة ، ووجه اليه التشيكيون الغيورون اللوم لهذا السبب • وكان بلاط الملوك التشيكيين مركزا للشعر الألمانى • واتخذ الارستقراطيون التشيكيون العادات واللغة والمدنية الالمانية ، وكان لقلاعهم اسماء ألمانية صارت أيضا اسماء أسرهم (٤) • بيد انه يكون من الخطأ أن نفترض أن الملوك والنبلاء لم يكن لديهم شعور قومى •

---

(١) انظر ر• ريت « تاريخ اسكتلندا » ص ١٤ • وقد أمر جيمس الاول بأن يذهب أبناء لوردات الاراضى العالية الى مدارس الاراضى المنخفضة ليتعلموا الانجليزية •

(٢) ل• رينو « التاريخ العام للنفوذ الفرنسى فى المانيا » ١٩١٤ ص ٦٦ ، و ف• كلوج «Deutsche Sprachgeschichte» ١٩٢٠ ص ٢٧٤ •

(٣) انظر Decr. Steph. Lib. 1, Cap. 11, 3.

(٤) ف•م• ماير «Geschiehte Osterreichs» ١٩٠٩ ص ٢٦٦ •

فأوتاكار الثانى مثلا دافع عن اللغة التشيكية بقوة عندما بدا ذلك ضروريا (١) ٠

٣ ـ أصل اللغات القومية الحديثة

كانت الدولة والمجتمع فى العصور الوسطى مقسمين بسبب الاقطاع الى شذرات لا عدد لها ، وفى بعض البلاد نجح الملوك ومساعدوهم فيما بعد فى بناء وحدات أكبر صارت نواة لامم جديدة ٠ ولكن داخل الدول القومية الناشئة كان يوجد اختلاف كبير فى اللغات واللهجات ٠

ففى انجلترا مثلا كان هذا الاختلاف من الوضوح بحيث أن أهل الجنوب فى القرن الرابع عشر كانوا لا يفقهون حديث أهل الشمال ، وكانت الكتب التى تكتب باحدى هذه اللغات تترجم الى اللغات الاخرى ليفهمها أهل الجهات الاخرى (٢) ٠

وفى ألمانيا ، حتى انجيل لوثر ، الذى كتب بلغة متوسطة ، ترجم الى «الألمانية الواطئة» (٣) ، وفى فرنسا وايطاليا والبلاد الأخرى كانت هناك ظروف مماثلة ٠ وحتى عندما بلغ الوعى القومى مرحلة معينة من النمو كانت اللغة القومية غير موجودة بعد ٠ ومن ثم كان الشعور القومى مقتصرا على تلك الطبقات التى تستطيع التفاهم بعضها مع بعض ، ولكن امتداده الى جميع الطبقات كان يتطلب وحدة لغوية أوسع ٠ وفى البلاد التى كانت فيها حكومة مركزية كانت هذه الوحدة الى حد كبير من صنع مستشارى الملوك ، وصارت هذه اللهجة الموحدة أساسا للغة القومية التى تستعمل فى مقر الحكومة حيث كان يوجد أيضا مركز التجارة والعلم والأدب ٠

وقد شجعت الملكية تكوين الامم ، وان كان بغير أن تستهدف ذلك٠ فهنرى الثانى كان ، عن غير وعى منه ، أكبر مشجع للجنسية الانجليزية٠ اذ كان ما يحتاج اليه الملوك للتغلب على الاقطاع والروح القبلية هو لغة صالحة للاستخدام فى الاغراض القانونية والادارية والدبلوماسية وتفهمها الطبقات المتعلمة ٠ وقد ظلت اللغة اللاتينية مدة طويلة تؤدى هذا الغرض على أحسن وجه ٠ وقد تمت خطوات حاسمة فى التقدم نحو تكوين اللغة القومية فى كل مكان فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذين تميزا

---

(١) ف. بالاكى «Geschichte von Boehmen» ١٨٣٩ ص ٢٩٤ ٠

(٢) ج٠ مكتايب « اللغة الانجليزية الحديثة تتكون » ١٩٢٨ ص ٧ ٠

(٣) ج٠ نادلر «Literaturgeschichte der deutschen Staemme und Landschaften» ١٩١٢ ص ٢٣٤ ٠

أيضا بحركات كبرى ديمقراطية واجتماعية وضد الكنيسة وقومية . وحتى فى « المجالس العظمى » للكنيسة كان أعضاؤها منذ ١٢٧٤ مقسمين الى أمم ، وكذلك الطلبة فى الجامعات ، وكانت هناك منافسات وخصومات قومية شديدة بينهم (١). وقد أسهم الصراع الكبير بين انجلترا وفرنسا الذى استمر قرنين بنصيب كبير فى نمو الشعور القومى . وعندما التجأ الملك ادوارد الاول فى ١٢٩٥ الى « البرلمان النموذجى » للدفاع عن انجلترا ضد النوايا العدوانية للملك الفرنسى ، حاول اثارة الشعور القومى بأن اتهمه بأنه يريد مسح اللغة الانجليزية من وجه الارض . وفى ١٣٦٢ بدأت اللغة الانجليزية تحل محل الانجلو نورماندية فى البرلمان والبلاط . وفى فرنسا أعلن نهائيا أن اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية فى البلاط سنة ١٥٣٩ ، وان كان أهل الاقاليم قد احتجوا ضد استبعاد لغتهم .

وكان نمو اللغة الوطنية مرتبطا ارتباطا وثيقا بظهور الطبقتين الوسطى والدنيا . ويقول ماثيو أوف ويستمنستر فيما يتصل بسنة ١٢٦٣ : « ان كل من لم يستطع التحدث باللغة الانجليزية اعتبره العامة شخصا دنيئا يستحق الازدراء » . وفى القرن الرابع عشر كانت اللاتينية تستخدم فى كتب العلم والفرنسية فى كتابات الطبقات العليا والانجليزية فى الكتابات التى يقصد بها الطبقات الدنيا . وكان جون جوار يكتب كتبا باللغات الثلاث . وفى شباب دانتى كانت تستعمل فى فلورنسا أربع لغات ، اللاتينية للمؤلفات العلمية والفرنسية للادب التهذيبى الانيق ولغة أهل بروفانس لأغانى الحب الارستقراطية والايطالية فى الكتابات الديمقراطية البورجوازية (٢) . وقد ترك دانتى ، وهو نفسه ارستقراطى ، أثرا ضخما فى تطوير اللغة الايطالية ، اذ كتب فى الدفاع عن استخدامها ، ولكنه أيضا سخر من الخيلاء البشرية التى تدفع كل شعب وكل مدينة صغيرة الى اعتبار لغتها الخاصة أجمل لغات البشر وأكثرها أصالة .

٤ ـ اللغة والارستقراطية والاستنارة

كان اختراع الطباعة وانتشار التعليم الشعبى والاصلاح الدينى والمذهب الانسانى عوامل حاسمة فى نمو اللغة القومية وانتشارها ،

(١) فى « مجلس كونستانس » فى ١٤١٧ أنكر الفرنسيون على الانجليز الحق فى تكوين أمة منفصلة ، فى حين أشار الانجليز الى أن اللغة عامل حاسم، وأن الامة الانجليزية تستطيع حتى المطالبة بحق تكوين خمس أمم حيث أن هناك خمس لغات مختلفة تماما تستعمل فى انجلترا .

(٢) ك. فوسلر «Frankreichs Kulturentwicklung in Spiegel Seiner Sprachentwiklung» ١٩١٣ ص ٣٠ .

واغنائها • ولكن فى نفس الوقت اتخذت الطبقات العليا فى كثير من البلاد لغة أخرى وقد اجتذبتها بريق مدنية أجنبية مهذبة وكرمز للانفصال الارستقراطى • ففى القرن السادس عشر كانت الايطالية هى السائدة فى البلاط الفرنسى ، وفى السابع عشر أخذت الاسبانية مكانها ، بتأثير الملكتين الايطالية والفرنسية وبلديهما الى حد كبير (١) • واتخذ المجتمع الراقى الانجليزى فى عهد عودة الملكية الاساليب والاذواق الفرنسية • واتبع البلاط فى فينا النموذج الاسبانى ، ثم الروسى ثم الالمانى ثم الفرنسى • وفى القرن السابع عشر دخلت كلمات أجنبية كثيرة جدا ، وبخاصة فرنسية ، فى اللغة الالمانية عن طريق البلاط والنبلاء والجنود والباحثين الى حد أن الشعور القومى تمرد وأسست جمعيات لتنقية اللغة، ولكنها كانت محاكاة للاكاديميات الايطالية والفرنسية • وكانت الفرنسية مسيطرة تماما فى المجتمع الراقى الالمانى فى القرن الثامن عشر • وعندما كان فولتير فى برلين ضيفا على فردريك الثانى كتب لاصدقائه فى باريس بأنه يحس كما لو كان فى فرنسا • فالفرنسية كانت وحدها لغة الحديث والالمانية « لا تصلح الا للخيل » • ونصح شقيق الملك أحد النبلاء البروسيين بأن يتعلم الفرنسية حيث انه بالتأكيد لا يريد أن يكون «بهيما ألمانيا» • وحتى بعد ذلك بمدة طويلة كان الوزراء البروسيون والنمساويون يفضلون الفرنسية فى مراسلتهم الرسمية مع ملوكهم ومع الآخرين •

بيد أن المشاعر التى عبرت عن نفسها بهذه الطريقة لم تكن مجرد الانعزالية الارستقراطية حدها • فروح « عصر الاستنارة » العالمية والتحررية كانت تعكس الى حد كبير عقلية الارستقراطيين المثقفين ، وكثير من كبار المتحمسين للانسانية الذين زانوا العصر كانوا من المراتب العليا فى المجتمع • وقد حاول الملوك الذين وضعوا أسس الدول القومية أن يجعلوا لغة واحدة هى اللغة الرسمية لتسهيل الادارة المركزية ، ولكنهم لم يهتموا كقاعدة عامة بفرضها على جماهير الشعب • وكان يكفى أن تفهمها طبقات الموظفين والمتعلمين • ولم تكن الصراعات القومية غريبة عن ذلك العهد ، ولكن الدين هو الذى كان رمزا للجنسية لا اللغة • وقد كان هنرى الثامن ، وهو من أصل ويلز ، هو الذى أدخل الانجليزية فى بلاط ويلز وقال عنها: «اللغة القومية الأم فى هذه المملكة» • ومع ذلك فان «نيته

(١) كان ذلك لا يزال موضع تذمر فى وقت الثورة الفرنسية ، وقد هاجم بارير سنة ١٧٩٤ فى الجمعية الوطنية « رجال البلاط الذين لم يكتفوا بتمييز أنفسهم برذائلهم واعتداءاتهم بل أرادوا كذلك أن يتميزوا فى بلدهم بلغة أخرى بحيث يستطيع المرء أن يقول ان هناك أمتين فى أمة واحدة » •

لم تكن عدوانية وليس فيها ما ينطوى على محاولة لاستئصال جنسية ويلز فى ذاتها » (١) . ولكن فى ارلندا صدر قانون فى عهد هنرى الثامن عنوانه : « قانون لتطبيق النظام والعادات واللغة الانجليزية » يلزم بمقتضاه كل رجل من رجال الكنيسة بأن يتعهد مقسما بأن يعلم اللغة الانجليزية لجميع من فى دائرته ، وأن يقيم مدرسة لتعليم الانجليزية أو يعمل على اقامتها . وقد تأيد هذا القانون فى عهد وليم الثالث ولم يلغ لمدة طويلة بعد ذلك .

وقد أراد جوزيف الثانى فى أواخر القرن الثامن عشر أن يجعل الالمانية لغة رسمية فى جميع أجزاء الامبراطورية النمساوية المتعددة اللغات ، وهو مقتنع بأن جميع الشعوب ستستفيد من ذلك فائدة ضخمة، ويأمل أن تربطها اللغة المشتركة برباط من الحب الاخوى وتجعلها وطنية. وكان رد الفعل على النقيض تماما وفشلت المحاولة . ومع ذلك فان الامبراطور لم يكن من دعاة القومية الالمانية بأى حال . وكانت خطاباته كلها بالفرنسية والشعراء الوحيدون الذين يقرأ لهم ايطاليون ، وأسهم بنصيب وافر فى حماية الجنسيات المضطهدة وتمهيد السبيل لانتعاشها القومى (٢) . ووجد عصر الاستنارة فى اللغة أداة للتعبير عن الافكار وتبادلها ، وكانت مرتبة اللغة تتوقف على كنوز المدنية التى تقود اليها هذه اللغة .

وكثيرا ما اتخذ كل من يصبو الى الترقى الاجتماعى وبلوغ مرتبة أعلى من المدنية من أمثولة الطبقات الحاكمة قدوة . وكانت النتيجة أن لغة الطبقات العليا فى كثير من البلاد المختلطة الجنسيات تمت لها السيادة الكاملة وهى وحدها التى تكيفت مع مطالب المدنية الجديدة . وصارت لغة كتلة الشعب لغة دارجة لا يتحدثها سوى الناس غير المتعلمين ، ومن ثم لم تكتسب المفردات والمرونة اللتين يطلبهما التعبير عن الافكار والمشاعر لدى المثقفين . وبهذه الطريقة هجرت العناصر النشيطة فكريا فى شعوب كثيرة لغتها الاصلية الى لغة ثانية ، مثلما هجرت لغة البريتون فى بريتانيا الى الفرنسية ، والفلمنكية فى الفلاندر الى الفرنسية ، والسلتية فى ارلندا واسكتلندا وويلز الى الانجليزية ، والتشيكية الى الالمانية فى بوهيميا ، والسلوفاكية فى سلوفاكيا الى الهنغارية ، والروثينية فى غاليسيا الى البولندية ، والكرواتية فى دالماسيا الى الايطالية ، والنرويجية فى النرويج

---

(١) ك. أ. مكارتنى : «الدول القومية والاقليات القومية» ١٩٣٤ ص ٤١ .

(٢) جاكوبيك ونوفاك : «Geschichte der tschechischen Literatur» ١٩١٣ ص ١٢٥ ، وبول فون ميتروفانوف «جوزيف الثانى» ١٩١٠ مجلد (١) ص ٢٦٥ .

الى دانماركية ·· والخ · ولم تتم مثل هذه التغييرات بالاكراه أساسا بل لأغراض عملية · فالناس الذين كانت لهم صلة كبيرة بالادارة أو التجارة أو أرادوا الاختلاط بالطبقات العليا اتخذوا أكثر اللغات المحلية ملاءمة لأغراضهم · وكثيرون أيضا اكتسبوا معرفة بلغة استخدموها كوسيلة للاتصال الدولى · فكانت الفرنسية لغة العالم الارستقراطى والالمانية لغة التجار وذوى المهن الحرة فى أجزاء كبيرة من وسط وشرق أوربا ، فى حين كانت الايطالية واليونانية تستخدمان فى أنحاء أخرى للاتصال الدولى·

٥ ـ موقف الديمقراطية والرومنسية من اللغة

ان التغيير الكبير فى مركز اللغة الذى أدى الى النزعة القومية الحديثة كان السبب فيه تقدم الديمقراطية وظهور الرومنسية. ففى عصر الاستنارة والتحررية فى أول عهدها كانت الطبقات المتعلمة وحدها هى التى تعتبر الأمة الحقيقية ، فى القارة على الأقل · وعندما بدأت الجماهير تطالب بنصيب فى السلطة السياسية وتحصل عليه ، اعتبرت لغتها جزءا لايتجزأ من شخصية الامة · بالاضافة الى أن الديمقراطية زادت حدة الاتجاه نحو المركزية · ففى فرنسا مثلا كانت الملكية متسامحة نحو لغات الأقليات وعاداتهم · وكانت هذه الروح لا تزال سائدة حتى الثورة الفرنسية ، ولا يظهر فى « كراسات المظالم والتعليمات » التى وضعتها الجمعيات الانتخابية أى اثر للتعصب القومى تقريبا (١) · بيد أن التعصب القومى نما فى اثناء الثورة وصار زعماء اليعاقبة يريدون استئصال اللغات غير الفرنسية فى فرنسا ، وهى البريتونية ولغة أهل الباسك والالمانية والايطالية · فقد رأوا فيها أدوات فى أيدى القساوسة الملكيين والارستقراطيين للدفاع عن النظام القديم · وقال عنها بارير فى تقريره الى « الجمعية الوطنية » : انها لكنات بربرية ولهجات فجة لا تصلح الا للمتعصبين والمناهضين للثورة · واتهم أهل الالزاس بأنهم متعاطفون مع المانيا وخونة (٢) ، وطالب سان جوست ومونيه وبعض زعماء اليعاقبة

(١) بياتريس فراى هيسلوب « النزعة القومية الفرنسية فى ١٧٨٩ كما جاءت فى الكراسات العامة » ١٩٢٤ ·

(٢) أحاديث بارير وجريجوار التى القياها في ٢٧ يناير و ٤ يونيه ١٧٩٤ عن نشر اللغة الفرنسية فى مجموعة (مختارات من التقارير والأفكار والأحاديث التى ألقيت أمام الجمعية الوطنية ـ المجلد ١٥ ص ٢٤٧) · وانظر كذلك ك·هيز « النمو التاريخى للقومية الحديثة » ١٩٣١ ص ٥٠ ، وج · فان دويش «سييز ، حياته ونزعته القومية» ١٩٣٢ ، و أ· ويتمان « حق تقرير المصير بين ماضية ومستقبله » ١٩١٩ ، وفيما يتصل بموقف اليعاقبة من الالزاسيين انظر ج· فندى «Die deutschen Republikaner Unter der Franzoesischen Republik» ١٨٧٠ ص ٧٠ و ١٠٢ و ١٩٣ ·

الاخرين باتخاذ أقسى الاجراءات نحوهم ، حتى الى حد ترحيل جميع الالزاسيين الذين لا يتكلمون الفرنسية بالجملة وتوطين فرنسيين ثوريين فى الالزاس يستولون أيضا على ثروات « الخونة » • وقد ظل النشاط القومى والنشاط الديموقراطى متحالفين باستمرار طوال القرن التاسع عشر كله • وصارت اللغة رمز السيادة القومية والاستقلال والهيبة القوميين •

وكانت الرومنسية أصلا الى حد كبير حركة مثقفى الطبقة الوسطى الذين يعطفون على الافكار الثورية • فقد اكتشفوا أن كل لغة لها قيمة فريدة بصرف النظر عن مستواها من المدنية • وكان الرومنسيون يعتقدون أن الطيبة الطبيعية فى الانسان لم يحفظها من الضياع سوى الشعوب والطبقات التى لم تفسدها المدنية ، وأشادوا بجمال اللغات الشعبية المهملة وحكمتها • وأكد روسو وهردر وفيشته وتلامذتهم أن روح الشعب كلها تعيش فى لغته الاصلية ، وان كل شعب ليس لديه تراث أكثر قدسية من لغته • وبرغم ان نظريات الرومنسيين عن اللغة لم تثبت فى وجه النقد الى حد كبير فقد كان لهم تأثير كبير فى تنشيط دراسة اللغات والادب وفى السياسة والتربية • ففى العصور السابقة لم يهتم الدارسون كثيرا بلغات الشعوب الأخرى ، الا لدراسة الانجيل والكتب القديمة أو لأغراض تبشيرية • وصاروا الآن يدرسون لغة كل شعب فى العالم وتاريخه وأدبه دراسة بعناية لاكتساب أكبر قدر ممكن من الفائدة للعلم والذوق وفهم أكثر عمقا للعقل البشرى • لقد أثارت الرومنسية الحماسة لاتجاه جدى نحو العالمية كان أجدى ثمرة من الثقافة السطحية المتنوعة التى تحلت بها العناصر الأنيقة فى القرن الثامن عشر • وقد بدا أن الاهتمام بالحياة الروحية لجميع الشعوب سيساعد فى نشر المشاعر الدولية الطيبة والاحساس بالأخوة البشرية • وفى نفس الوقت أيقظ الرومنسيون أيضا روح الاهتمام القوية بماضى الامة وأسهموا بنصيب كبير فى صعود الجنسية والنزعة القومية •

٦ ـ اللغة فى عصر القومية •

يرى الوعى القومى فى اللغة القومية الرابطة التقليدية الرئيسية للمجتمع ووسيلة تعليم الشعب التضامن ، ورمزا للشخصية القومية • فضلا عن أن النزعة القومية تعتبر السيطرة المطلقة للغة القومية فى بلادها مسألة هيبة وكثيرا ما طالبت بضم جميع العناصر التى تتحدث نفس اللغة ولكنها تعيش فى بلاد أخرى • وفى كل الدول التى لهـا طابع قومى

متميز تحتل اللغة القومية مركزا متميزا . ويريد دعاة القوميـــة كذلك تنقية لغتهم من كل خليط أجنبى (١)، وتدفعهم غيرتهم من كل لغة أخرى فى البلاد حتى الى النفور من الأجانب عندما يتكلمون لغتهم علنـا بصوت مرتفع . ان الصالح الحقيقى للمدنية يتنافى مع هذا الاتجاه . وقد قال جوته : « ان من يجهل اللغات الاجنبية لا يعرف شيئا عن لغته » .

بيد أن دعاة الجنسية احيانا يجرفهم تيار رغبتهم فى الهيبـــة فيبدون استعدادهم للتضحية باللغة التى تفردت بها أمتهـــم . فقد كان رواد النهضة السلافية يحلمون بتوحيد جميع الشعوب السـلافية فى أمة سلافية تصير أقوى أمم الأرض وأكثرها عددا . ورأى بعضهم أن افضل السبل الى ذلك هو ادماج جميع اللغات السلافية فى لغة واحدة مشتركة ، واعتقد آخرون ان الروسية ستصير اللغـــة المشتركة بين جميـــــع السلافيين (٢) . ولكن اللغات السلافية كانت بعيدة بعضهـــا عن بعض بحيث لا يمكن دمجها ، وقد اضطر كثيرون من هؤلاء الرواد الى كتابة مؤلفاتهم باللغة الالمانية لكى يمكن ان يفهمها السلافيون الآخرون . كما أن فكرة اتخاذ اللغة الروســية لغة مشــتركة لم ترق الســلافيين غير الروسيين . فقد تمسكوا بلغاتهم وتقاليدهم الخاصة ، ولم يقبلوا التضحية بها لمجد روسيا أكثر مما قبلوه من أجل شبح لغة مصطنعة .

وهناك مشكلة أكثر صعوبة من هذه المشكلة ، هى اختيار لغـــة هندية مشتركة للشعوب الهندية . ففى الهند أكثر من مائتى لغة يتحدث بها الناس ، وهناك عدد لا يحصى من الطوائف الدينية والاجتماعيـــة المتنوعة . وصحيح أن هناك اقتراحات بخلق لغة هندية موحدة للاتصال، ولكن بلا نتيجة حتى الآن ، مما يرجع السبب الأســاسى فيه الى أن

(١) هناك نقد يسترعى النظر للنزعة القومية فى اللغة فى كتاب لوجان بيرسول سميث «اللغة الانجليزية» ١٩٣٤ ص ٥٥ . وهناك متخصص كبير آخر وصل الى نفس النتائج ويقول « نحن لانستطيع أن ننكر أن اللغة الانجليزية تحسنت بصورة لا تقاس بادماج العناصر الغريبة » . انظر هـ . برادلى « اللغة الانجليزية » ١٩٠٤ ص ١١٠ . وللقربى الوثيقة بين النزعة القومية والنزعة العنصرية قام اعتقاد بأن اللغة نتاج ميل عنصرى وان الشعب يعقم عقليا اذا فقد لغته الاصلية واتخذ لغة أخرى . بيد أن هذا الرأى دحض تماما بالتجارب التاريخية التى لا تعدو بالبحث اللغوى . فالزنجى أو الصينى قد يتحدث الانجليزية أو الفرنسية كما يتحدثها أى رجل انجليزى أو فرنسى . بشرط أن يتلقى نفس التعليم ويتاح له الاتصال بنفس الدوائر الاجتماعية . انظر ف . هرتز « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ ص ٩٣ وج. فندرير « اللغة » ١٩٢٥ ص ٢٣٨) .

(٢) ل . ليجير « الوحدة السلافية والمصالح الفرنسية » ١٩١٧ . و ا . فيشر «Der Panslavismus bis Zum Welthrlege».

المهتمين بهذه المسائل يستطيعون تبادل أفكارهم باللغة الانجليزية (١) • وأيا كان الأمر فانه اذا أعلن ان احدى هذه اللغات هى اللغة القومية فان ذلك سيثير بلا ريب نفور الشعوب التى تتكلم اللغات الاخرى •

وتواجه الدول التي تعيش فيها شعوب تتحدث لغات مختلفة عادة صراعات عنيفة بين هذه الشعوب على المركز القانونى للغاتها فى المحاكم والادارة والمدارس .. الخ • ومن وجهة النظر العملية قد لا يكون من العسير دائما ايجاد حل يرضى جميع الحاجات الحقيقية • بيد أن مثل هذه المقترحات كثيرا ما قوبلت بالرفض من جانب شعب أو آخر من الشعوب التى يتعلق بها الأمر • ففى معظم الحالات لا تعتبر الاقليات والاغلبيات على السواء اللغة أداة للمدنية بقدر ما تعتبرها رمزا للسيطرة، وتضع هيبتها فوق اعتبارات الادراك السليم • وقبل الحرب الاخيرة كانت روسيا وبروسيا تنكران على الاقليات كل حق تقريبا فى استخدام لغاتها بطريقة مناسبة • وفى النمسا القديمة ، التى كان الناس يتحدثون فيها عشر لغات أو أكثر ، لم تكن هناك « لغة دولة » متميزة ، وان كانت الالمانية تستعمل كوسيلة للاتصال بين الحكومة والموظفين وفى الجيش • ولكن لم يرغم أى شخص على تعلم لغة أخرى غير لغته ، وكان لكل انسان الحق فى استخدام لغته فى المحاكم والادارة والمدارس (٢) • وفى هنغاريا كانت للاقليات مظالم كثيرة بسبب رفض الأمة الحاكمة ، المجريين، لحقها القانونى فى مركز مناسب للغاتها • وفى فرنسا حظر استخدام اللغة البريتونية السلتية فى المدارس الابتدائية حظرا تاما ، واستخدم الجيش أيضا للقضاء عليها . ومن الأمثلة فى الانصاف النموذج السويسرى (٣). فالمادة ١٦ من الدستور تقرر ان هناك ثلاث لغات رئيسية تعتبر لغات قومية ، هى الالمانية والفرنسية الايطالية ، للاتحاد السويسرى ، وفى بعض الاقاليم أيضا يعترف بالرومانية •

وبعد الحرب الكبرى ظهرت عدة دول قومية جديدة تضم أقليات كبيرة • وكان المفروض أن عصبة الامم ستشرف على معاملة هذه الدول لأقلياتها ، ولكن هذا الاشراف لم يكن فعالا جدا • وفيما يتعلق بحقوق اللغة

---

(١) لورد مستون «الامة الهندية» ١٩٣١ ص ٤٥ . بيد أن هناك لغات أخرى منتشرة تستعمل أيضا كلغات اتصال .

(٢) أنظر ص ٥٢٣١ ويوجد تفصيل للمركز القانونى للغات فى النمسا القديمة فى «Das Nationalitatenrecht des Alten Oesterreich». لعدة مؤلفين باشراف هيوجلمان ١٩١٠ .

(٣) انظر هـ . فيلنمان «Die Vielsprachige Schweiz».

اتخذت بعض الدول الجديدة موقفا تحرريا ، مثل تشيكوسلوفاكيا (١) ، فى حين كان بعضها أقرب الى التعصب ٠.فايطاليا ، التى لم تكن خاضعة لاشراف عصبة الامم بوصفها دولة كبرى ، اضطهدت كثيرا اقلياتها السلافية والألمانية ، أما الاتحاد السوفيتى فانه منح شعوبه العديدة المساواة والتشجيع فيما يتعلق بلغاتها وتعليمها ٠ بيد أن المعاملة المنصفة للاقليات القومية ليست مجرد الاعتراف بحقها فى لغتها القومية ٠

٧ ـ ارلندا ولغتها القومية

تنص المادةالاولى من الدستور الارلندى الحالى على أن الارلندية هى اللغة القومية واللغة الرسمية الاولى ٠ ويؤدى ذلك الى موقف غريب ، بل هو فريد ، يعلن فيه أن اللغة القومية لغة لا يتحدث بها سوى قطاع صغير من السكان فقط ٠ بيد أن الحكومة الارلندية تأمل أن تغير ذلك مع الوقت ، وأعلنت أن صبغ المدارس الابتدائية باللغة السلتية هو الهدف الأول للتربية (٢) ٠

وتصور حالة ارلندا التغير الذى حدث فى الموقف من اللغة كما اشرنا من قبل. فالانجلو نورمانديون الذين استقروا فى أرلندا اتخذوا بسرعة اللغة الغالية لسانا والعادات الارلندية ٠ ولكن منذ عهد هنرى السابع ، وبخاصة منذ عهد جيمس الاول ، انعكست الآية (٣) ٠ فقد صارت الأرستقراطية الارلندية القديمة تتحدث الانجليزية ، أو هاجرت الى فرنسا واسبانيا والنمسا حيث التحقوا بجيوشها ٠ ونقل كثير من الانجليز والاسكتلنديون الى ارلندا للاقامة فيها وتعرض الارلنديون لاضطهاد شديد ٠ وبالتدريج نمت جنسية ارلندية جديدة من اندماج العناصر القديمة والجديدة ٠ وكانت الطبقات العليا والوسطى تتحدث الفرنسية ولكنها كانت ارلندية بشعورها ، فى حين احتفظت جمهرة الفلاحين باللغة الغالية ٠ ومن هنا صار لارلندا نوع من الجنسية المزدوجة ، ـ ويفترض كثير من الكتاب أنه كانت هناك أمتان ارلنديتان ولا

---

(١) ومع ذلك فان اللغة التشيكية كانت « لغة الدولة » وكان لها مركز ممتازتأكد بعدة طرق لأسباب تتعلق بالهيبة ، وان كان ذلك قد أثار التذمر ٠ ومن الأمثلة البارزة ان بلدية براغ حظرت حظرا تاما كتابة أية لافتات أو ملصقات باللغة الالمانية فى الفنادق والمصارف والمحلات التجارية الخ . برغم أن براغ كانت عاصمة بلد تعداده ٣ر٤ مليون من الالمان ، وبرغم أنها مقر الجامعة الالمانية وعدد كبير من الصحف الالمانية والمؤسسات الالمانية الاخرى ٠ فى حين كان التشيكيون قبل الحرب أحرارا فى فينا فى عرض أية لافتات باللغة التشيكية يريدونها .

(٢) « دليل البرلمان الارلندى » ١٩٣٩ ص ١٨٤ ٠

(٣) أ٠ كيرتس « تاريخ ارلندا »١٩٣٦ ص ١٧٠ و ٢٢٠ ٠

تزالان موجودتين جنبا الى جنب (١) . وجميع دعاة الجنسية الارلندية وحرية ارلندا قبل جماعة « سين فين » ، مثل سويفت وجراتان وفلود وأوكونل وبارنل وردموند وكثيرين غيرهم ، كانوا من الأمة الارلندية التى تتحدث الانجليزية . ومعظمهم لم يهتم كثيرا ، أو حتى لم يهتم قط ، باحياء اللغة الغالية كلغة قومية ارلندية . وكان أعظمهم جميعا ، وهو أوكونل ، يعارض ذلك تماما ، برغم أنه كان يتحدث الارلندية منذ طفولته (٢). فقد كان مقتنعا بأن مصلحة الارلنديين أن يستخدموا اللغة الانجليزية التى تفتح أمامهم الطريق لأسمى الثقافات وللعالم . وفى بداية القرن التاسع عشر كانت أغلبية الارلنديين ما زالت تتكلم الغالية ، وربما استمر ذلك الى منتصف القرن . وفى ١٩٢٦ كان ١٧ر٩٪ من السكان يتكلمون الارلندية والانجليزية و ٤٢ر٪ يتكلمون الارلندية وحدها . ففى فترة الاضطهاد الطويلة تمسكت جماهير الشعب الارلندى باللغة الغالية . ولكن فى القرن التاسع عشر عندما ألغيت التشريعات الاضطهادية ، أو صارت بلا فاعلية ، هجروها باختيارهم . ولكن حدث تغير فى موقف الحركة القومية الارلندية ابتدأ بانشاء « العصبة الغالية » فى ١٨٩٢ . وتهتم « السين فين » الآن اهتماما شديدا بجعل معرفة اللغة الغالية عامة . ومن المشكوك فيه أن تنجح محاولاتها. فالأطفال يتعلمون الارلندية فى المدارس ويتكلمون الانجليزية فى بيوتهم ، وكثيرا ماينسون الارلندية بمجرد أن يغادروا المدرسة . ومن وجهة النظر العملية يستفيدون أكثر اذا تعلموا لغة أخرى من اللغات الواسعة الانتشار بجانب الانجليزية . ومن الجلى أن الهيبة الثقافية لارلندا ستتأثر أيضا اذا حلت الغالية محل الانجليزية . فكثير من الشعراء الارلنديين والكتاب والسياسيين والعلماء صاروا مشهورين فى كل مكان عن طريق استعمالهم للغة الانجليزية . فقد حظى سويفت وبيرك وشريدان وجولد سميث وبيركلى ومور أوكونل وشو وأرلنديون آخرون بتقدير كبير فى جميع انحاء العالم . ولو أنهم كتبوا أو تحدثوا باللغة الارلندية وحدها لما عرفتهم حتى أغلبية الارلنديين . وصحيح أن كثيرا من الكتاب النرويجين والسويديين والدانمركيين حصلوا على شهرة دولية عن طريق الترجمات ، ولكن ذلك يرجع الى حد كبير الى ظروف خاصة يبعد أن تتوفر فى حالة ارلندا . واذا تكلم الجميع لغتين فسيقضى طبعا على خطر العزلة الثقافية . ولكن فى

---

(١) و.ف. مونيبنى «الامتان الارلنديتان» ١٩١٣ — وكثيرا ما كان القطاع الذى يتحدث الانجليزية يسمى « الأمة الوسطى » .

(٢) ستيفن جوين « ارلندا » ١٩٢٤ ص ١٣٥ .

حالة ارلندا يغلب أن تصير اللغة الارلندية لمجرد التعبير عن الوطنية فى حين تظل الانجليزية لغة كل يوم والأدب والعلم • وأخيرا من الواضح أن أية محاولة للحد من استعمال اللغة الانجليزية ستؤثر تأثيرا بالغا فى العلاقات مع ذلك القطاع من الأمة الارلندية الذى يتكلم الانجليزية ، وتصير عقبة لا سبيل الى التغلب عليها فى الاتحاد بين ارلندا الشمالية والجنوبية •

وقد حافظ أهل ويلز على لغتهم أكثر من الأرلنديين ، برغم أنهم لم يظهروا نفس التعصب القومى• ففى حين كان عدد السكان الذين يتكلمون الارلندية فى الجمهورية الارلندية فى ١٩٢٦ هو ٥٤٣٥١١ شخصا (منهم ٥٣١٠٥١ يتحدثون الانجليزية أيضا) كان عدد من يتحدثون لغة ويلز من أهلها حوالى ٩٠٠٠٠٠ لم ينقص منهم شىء تقريبا فى الأربعين سنة الماضية وهناك رجل من أهل ويلز ، هو مستر لويد جورج ، لعب دورا كبيرا فى تاريخ العالم بوصفه رئيسا لوزراء بريطانيا وأضاف الى اسم ويلز هيبة أكثر مما فعل أى سياسى فى بلد مستقل صغير (١) •

٨ ـ اليهود واللغة

فى العصور الوسطى تعرض اليهود لاضطهاد قاس فى ألمانيا واسبانيا ، وأخيرا طردوا • ووجدوا ملجأ فى بولندا وتركيا ، واحتفظوا هناك باللغة الألمانية والاسبانية اللتين كانوا قد اتخذوهما لغة فى المانيا واسبانيا ، وان كان مع شىء من الخليط • وفى العهود التالية هاجر كثير من اليهود البولنديين الى الغرب ثانية ، وظلوا مدة محتفظين ببعض السمات الخاصة فى الحديث • بيد أن هذه السمات اختفت أكثر فأكثر مع انتشار التربية الغربية بينهم ، وهناك كثير من الكتاب والمتحدثين اليهود يعدون بين أكبر اساتذة الألمانية والفرنسية واللغات الغربية الأخرى • وهذا أيضا يناقض العلاقة المزعومة بين اللغة والجنس ، وان لم يكن اليهود طبعا جنسا متجانسا • وفى العهود الأخيرة دفعت زيادة الاتجاه المناهض للسامية ونمو الصهيونية العديد من اليهود فى شرق أوربا ووسطها الى الهجرة الى فلسطين • وكان يحدو كثير منهم الأمل فى انشاء أمة يهودية، ومن ثم أثير موضوع اللغة التى تتخذ لغة قومية • ودعا قطاع منهم الى

---

(١) يعترف وطنى متحمس من أهل ويلز ، هو مستر ج• فيرنوى مورجان ، فى كتابه « دراسة فى الجنسية » ١٩١١ ص ٣٢٤ و ٤١٤ بأن شعبه حصل على مزايا كبرى عن طريق الاتحاد مع الشعب الانجليزى وأنه أصاب رخاء كان من المستحيل أن يصيبه لو أنه كان فى ظل نظام من الاستقلال لويلز •

العبرية ، التى احتفظت باستمرار بمكان معين فى التعليم الدينى لدى اليهود يماثل مكان اللغة اليونانية واللاتينية فى مدنيتنا ، وان كان من يستطيع التحدث بالعبرية بين يهود غرب أوربا الحديثة قليلين • ومن الناحية الأخرى كان عدد كبير من المهاجرين يتكلمون لغة الشلخت ، وأساسها المانية العصور الوسطى مع خليط من العبرية والسلافية • وقام صراع بين دعاة كل من اللغتين ، ولا يزال مستمرا ، وقد ظهرت كتابات كثيرة باللغتين (١). فالمشاعر الدينية والتاريخية تدفع نحو العبرية ، فى حين تؤيد الاسباب العملية والتقاليد الشعبية الى لغة الشلخت التى كانت لغة حية مرتبطة بحياة جماهير اليهود الشرقيين ومشاعرهم ويفضلها بصفة خاصة النساء ، اللاتى لم يتعلمن العبرية •

٩ ـ التصادم بين لغة الادب واللغة الشعبية • اليونان والنرويج

وفى اليونان أيضا نجد اختلافا بين موقف الطبقات التى نالت تعليما عاليا والطبقات الدنيا تجاه اللغة القومية • وقد حاول عالم اللغة أدامانتيوس كواربيس أن ينقى اللغة الشعبية من جميع العناصر الاجنبية بهدف أن تصير اللغة أقرب ما تكون من اللغة الاغريقية القديمة • وصار هذا النتاج المصطنع لغة البرلمان والقوانين والكنيسة والعلم والمدارس والادارة ومعظم الصحف • ولكن لسوء الحظ وجد الشعب صعوبة فى فهم هذه اللغة ، ولم تكن ملائمة جدا للتعبير عن عواطف الرجل الحديث وأفكاره • وكان هدف توحيد اللغة الحديثة فى اليونان مع اللغة القديمة هو التوحيد بين الشعب الحالى والشعب الاغريقى القديم • ومن الجلى أن هذا الاتجاه انبثق من الاعتقاد الرومنسى بأن روح الشعب مرتبطة بلغته ، وان اعادة اللغة الاصلية خالية من كل خليط متأخر ستعيد نبوغ الاغريق القديمة الى الأمة الحديثة . وقد أثارت ترجمة عيون المؤلفات الاغريقية القديمة والانجيل الى اللغة الشعبية دعاة القومية وأدت الى شغب واراقة دماء ، والى ادراج نص يحظر افساد اللغة فى دستور ١٩١١ • ويستطيع المرء أن يتصور التأثير السيىء الذى أحدثته معاملة اللغة الحية بهذا الأسلوب اذا تخيل أن الكتاب الانجليز الحديثين مرغمون على اتباع قواعد

(١) س • و • بارون « التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود » المجلد ٢ ص ٣٣٣ ، والمجلد ٣ ص ١٢٦ و ١٦٨ حيث يشير الى مؤلفات كثيرة •

اللغة فى عهد بيوولف ومفرداتها • وايا كان الأمر فقد استخدمت مع الوقت قوالت حديثة أكثر فاكثر فى الشعر والقصص (١) •

وفى النرويج قامت حركة لاصلاح اللغة القومية واتبعت عكس هذا الطريق (٢) • ففى هذه البلاد كانت لغة حوالى ثلثى السكان ، بما فيهم القسم الأكبر من المتعلمين وسكان المدن ، صورة معدلة من اللغة الدانماركية تسمى « ريكسمال » • ويرجع تاريخها الى الصلة الطويلة السابقة مع الدانمارك التى قطعت فى ١٨١٤ • بيد أن قسما من الفلاحين كانوا يتحدثون عدة لهجات نرويجية استخدمها ايفار آيش لتكوين لغة جديدة تسمى « لاندسمال » • ولم يكن شعور النرويجيين نحو الدانماركيين سيئا ، بل انهم فى ١٩٠٥ انتخبوا أميرا دانماركيا ليكون ملكا لهم • ومع ذلك فقد قامت حملة كبرى تهدف الى ابدال « الريكسمال » الأجنبية « باللاندسمال » القومية • وقد استعمل اكبر كتاب النرويج من بجورنسون وابسن الى هامسون وأوندست كلهم اللغة «الاجنبية» • كما أثير ايضا اعتراض بأن اللغة المصنوعة لا يمكن أن تصلح للأدب الرفيع وأن تبنيها بواسطة شعب صغير سيؤدى الى عزلة ثقافية • وبعد صراع طويل جدا صدر قانون يجيز حلا وسطا بدمج اللغتين • وقد احتج المحافظون بشدة على « تبسيط » اللغة كما سموه ، فى حين أن أغلبية اليسار حبذت الاصلاح •

١٠ ـ حروف الكتابة والجنسية

تعتبر حروف الكتابة أيضا ، الى جانب اللغة ، من الأمور ذات المغزى بالنسبة للجنسية . فقبل ظهور حروف الكتابة ، ولمدة بعدها ، كانت قوانين الشعوب وتقاليدها الى حد كبير فى يد الطبقات الحاكمة ، وكانت صياغتها كتابة خطوة هامة نحو تحرير الطبقات الوسطى والدنيا ونحو الجنسية التى تقوم على أساس شعبى واسع . وكل لغة تحتاج حقيقة الى حروف خاصة تناسب نظام أصواتها • فضلا على أن الحروف الخاصة بالشعب كثيرا ما كانت رمزا للشخصية القومية (٣) • فدعاة

---

(١) ب• مارتن « اليونان فى القرن العشرين » ١٩١٣ ، وك• كرومباخر «Populaere Aufsaetze» ١٩٠٩ ، وج• ديشامب «La Grèce d'Aujourd'hui» ١٩٠٥ ص ٩٥ •

(٢) ج• جاتورن ـ هاردى « النرويج » ١٩٢٥ ص ١٧٧ •

(٣) فى الكمرون اخترع ملك شاب حروفا خاصة لشعبة ، برغم أنه كان يعرف الحروف الاوربية والعربية ولكنه رفضها بدافع الكبرياء القومى . وسرعان ماستطاع ٦٠٠ من رعاياه أن يتعلموا قراءة هذه الحروف . أنظر «Anthropos». مجلد ٣ ص ٨٣

القومية الألمان اعتبروا الحروف القوطية هى الحروف الالمانية الاصلية ، وهو أمر لا يؤيده التاريخ ، وحظروا استعمال الحروف الرومانية باعتباره أمرا غير ألمانى • ويتحدث الصربيون والكرواتيون نفس اللغة تقريبا• ولكن الصربيين يستعملون الحروف السلافية فى حين يستعمل الكرواتيون الحروف اللاتينية ، ويقابل هذا ما بينهما من اختلاف فى الكنيسة والتقاليد • وفى تركيا بعد الحرب الكبرى حلت الحروف اللاتينية محل العربية ، لا لأسباب عملية فحسب ، بل وكرمز أيضا لروح قومية جديدة •

١١ ـ الحروف واللغة والجنسية فى الصين

لقد احتفظت الصين بالحروف القديمة الكلاسيكية برغم صعوبتها الفائقة (١) • وتسهم الحروف الصينية فى الوحدة القومية عن طريق طابعها الفريد • فهى كتابة رمزية كل علامة فيها تشير الى فكرة لا الى صوت • وهذا يجعل فى حيز الامكان أن يفهم الناس ذوى اللغات المختلفة معانيها • اذ أن هناك اختلافات لغوية كبيرة بين الصينيين • والمتعلمون كقاعدة عامة يعرفون اللغة الصينية الكلاسيكية • فضلا عن أن القسم الأكبر من الشعب يتحدثون صورة من صينية « الماندارين » ، وهى اللغة التى تستخدمها أيضا الادارة المركزية ، وتنتشر هذه اللغة الآن فى جميع أنحاء الصين وصارت اللغة القومية ، والناس الذين لايفهم بعضهم بعضا يتفاهمون بالكتابة • فكل واحد يعرف أن علامة معينة تعنى « منزلا » وان كان المشتركون فى الحديث قد يطلقون عليه كلمة مختلفة تماما فى كلامهم (٢) • وتجعل هذه الطريقة أيضا فى وسع الصينيين الحاليين أن يقرءوا كتاباتهم الكلاسيكية ، كتب كونفوشيوس مثلا (التى كتبت قبل ميلاد المسيح بستة قرون) ، فى حين أن الأوربى الحديث لا يستطيع أن يفهم ما كتب بصورة لغته نفسها فى عهد الاقطاع اذا لم يكن قد درسها دراسة خاصة • ومن ثم فان هذه الكتابة تدعم نفوذ الكتب القديمة على الفكر الصينى الحديث • والصينية الكلاسيكية لا تزال اللغة المستعملة

(١) ألف جميس بن حروفا مبسطة بأن اختار ألف حرف تصلح لتعليم الشعب. انظر هـ• هودجكين « المشاكل الحية فى الصين » ١٩٣٢ •

(٢) ح• أسكارا «الصين وقتئذ والآن» ١٩٤٠ ص ٦٨ • وقد كان من أفكار لسنتن المفضلة أن يبتكر لغة رمزية عالمية يستطيع كل انسان أن يفهمها بصرف النظر عن لغته الأصلية • انظر كونوفيشر « ح•و•ليبنز» ١٩٠٢ ص ١٤ و ٣٧ •

فى الشعر والتاريخ والفلسفة والدين والـكتابات الادارية ، فى حين أن القصص والمسرحيات تكتب باللغة الدارجة ٠

ويقول الاستاذ لانسلو فورستر من جامعة هونج كونج : ان صعوبة اللغة الصينية الكلاسيكية كانت العامل الرئيسى فى المحافظة على النظام الاجتماعى والسياسى القديم قبل الثورة ٠ فقد « كانت معرفتهـا معرفة تامة ، وهى متفاح المعرفة الضرورية للانخراط فى الحكومة ، تتطلب فترة طويلة من الدراسة وقدرة على التركيز والتذكر كان المستحيل تماما معها أن يصل الفرد المتوسط الى معرفتها تماما » ٠ ثم يقول : انها مع ذلك حظيت بالقبول العام من جانب الناس ، وكانوا يكنون احتراما عميقا لمن يصل الى ما يعد مستحيلا بالنسبة لهم (١) ٠ ومن ثم فانه يمــكن القول بأن تفرد اللغة الصينية وحروف الكتابة بطريقة خاصة بهما كان له أثر عميق فى البناء الاجتماعى والسياسى للشعب ٠

١٢ ـ اللغة كمعيار للجنسية

لقد نظرنا حتى الآن فى مغزى اللغة بالنسبة لمركز الأمة وبنائها ٠ ولها بالاضافة الى ذلك أهمية كبرى فى تحديد الامم ٠ ففى الرأى العادى تعد الأمة ببساطة شعبا ذا لغة مستقلة ، وفى حالات النزاع حول جنسية شعب ما يحكم معظم الناس على الفور على أســاس العلاقات اللغوية ٠ اذ يبدو لهم من الطبيعى أن الشعوب التى تتكلم لغة واحدة ، أو نفس اللغة تقريبا ، تؤلف أمة واحدة ، والحالات التى لاتتفق مع هــذا الرأى تعتبر استثناءات ٠ بيــد أن هذا التوحيد بين الأمة والمجموعة اللغوية لا يقوم عليه دليل ٠ وهو يتعارض مع كل من المفهوم القانونى والمفهوم الاجتماعى للأمة ٠ فالجماعات التى تتألف بوحدة المشاعر والمواطنة واللغة كثيرا جدا مالا تكون متفقة ، بل تتداخل بعضها فى بعض ٠ وفى حالات كثيرة تكون شعوب ذات لغات مختلفة مؤلفة من مواطنين فى دولة واحدة، وتعتبر بعضها البعض أعضاء فى نفس الأمة أحيانا ٠ ومن الناحية الأخرى تتحدث أمم مختلفة كثيرة لغة واحدة ٠ فضلا عن أن التحديد تبعا للغة قد يكون فى بعض الحالات عسيرا بسبب أن أجزاء كبيرة من السكان تتحدث لغتين ، أو لغة متوسطة بين لغتين ، بحيث أنه لا يكون من الســهل تحديد أقرب الأمم صلة بها ٠

ان الانجليز وأهل أمريكا الشمالية وجزءا كبيرا من سكان الدومينيون

---

(١) ل ٠ فوستر « الثقافة الجديدة فى الصين » ١٩٣٦ ٠

يتكلمون الانجليزية • والفرنسية يتكلمها ايضا أهل بعض أجزاء سويسرا وبلجيكا وكندا ، والألمانية يتحدث بها اهل بلاد أوربية كثيرة ، والسويديه يتحدث بها أهل فنلندا ، وفى أمريكا الجنوبية والوسطى تعتبر اللغة الاسبانية لغة قومية في ثماني عشرة دولة • ومع ذلك فان مواطنى كل دولة يعتبرون أنفسهم أمة منفصلة ، وتوجد عداوات كبيرة بين بعض هذه الأمم • واللغة الهولندية والفلمنكية ، والتشيكية والسلوفاكية، والصربية والكرواتية ، والدانماركية والنرويجية لهجات من لغات واحدة تقريبا • ومع ذلك فان الاختلاف فى اللهجات كثيرا ما ساعد على اثارة العداوات القومية أو اعتبر من الخصائص الأثيرة عند أصحابه • والألمان والنمساويون يتكلمون الالمانية ، ولكن الالمانى الشمالى يجد صعوبة عادة فى فهم اللهجة النمساوية والعكس بالعكس • ولهجة السويسرى الالمانى تكاد تكون غير مفهومة لدى الشعوب الاخرى التى تتكلم الألمانية ، ويهتم السويسريون اهتماما كبيرا بالتحدث بها فيما بينهم ليظهروا تميزهم القومى عن الألمان •

ومن الواضح اذن أن اللغة فى حالات كثيرة ليست معيارا كافيا لتحديد الجنسية ، وان كانت دائما عاملا مهما • فعندما صيغت معاهدات الصلح فى ١٩١٩ افترض بصفة عامة ان الناس الذين يتحدثون لغة واحدة تقريبا يرغبون فى تأليف أمة واحدة ، وأن اشتراكهم فى جنسية واحدة لا يحتاج الى أى دليل آخر. وهكذا تألفت الأمة التشيكوسلوفاكية من التشيك والسلوفاك ، وكانت تكتب « تشيكو- سلوفاكيا » ثم ألغيت الفاصلة فيما بعد لتأكيد وحدة الأمة. ووحد أيضا الصربيون والكرواتيون والسلوفينيون فى أمة واحدة سميت فى مبدأ الأمر « دولة الصرب والكروات والسلوفينيين » ثم أعيد تسميتها يوغوسلافيا للتعبير عن وحدة الأمة • وقد قوبلت جميع هذه التسويات بمعارضة كبرى ومقاومة شديدة لا من جانب الاقليات فحسب بل أيضا من جانب الجنسيات التى ادمجت فى اسم الدولة واعتبرت بذلك اجزاء ممتازة من الامة ، مثل السلوفاكيين والكرواتيين • وفى بعض الحالات جعلت معاهدات الصلح أو التسويات اللاحقة القرار متوقفا على استفتاءات عامة تبين رغبة السكان فى الأمة التى يريدون الانتماء اليها • ومما يسترعى الانتباه أن نتيجة هذه الاستفتاءات كانت عادة تناقض افتراض أن الجنسية تتحدد بدرجة كافية بواسطة اللغة • فهناك سلافيون مثل المازوريين فى بروسيا الشرقية وكثير من السلوفنيين فى كارينتا صوتوا ضد الاندماج فى الدول السلافية وأعلنوا رغبتهم فى الانضمام الى سكان يتحدثون الالمانية فى المانيا أو

النمسا • ومن ناحية أخرى قرر شعب أودنبرج (سوبرون) الذين تسود بينهم اللغه الألمانية الانضمام الى هنغاريا • قد ضم أهل هولتشبين أو هلوسين ، الذين كان حوالى ٨٠ فى المائة منهم يتحدثون لهجة تشيكية الى تشيكوسلوفاكيا بمقتضى معاهدة الصلح ودون استفتاء • ومع ذلك فانهم سرعان ما ابدوا معارضة شديدة للنظام التشيكى ، وصوت ٨٠ فى المائه منهم حتى مع حزب السوديت الالمانى الذى كان يتألف من قوميين المان (١) • بيد أن الحلفاء انفسهم لم يعتبروا اللغة عاملا حاسما فى حالات أخرى • فالسكان الذين يتحدثون الالمانية فى مناطق مثل النمسا وشمال بوهيميا وبعض الجهات الأخرى لم يسمح لهم بالانضمام الى المانيا •

ووجهة النظر التى تقول بأن اللغة هى معيار الجنسية تلعب دورا خاصا فى أيديولوجية النزعة القومية الالمانية ، وان لم تكن مقتصرة عليها وحدها • فالأحداث التاريخية بعثرت السكان الذين يتحدثون الالمانية فى منطقة واسعة من وسط وشرق أوربا انفصلت عن ألمانيا مع الوقت أو لم تكن تابعة لها قط • وقد نظر دعاة الوحدة الالمانية وخلفاؤهم النازيون الى هذه الشعوب دائما باعتبارها أجزاء من الأمة الألمانية ، وأعلن هتلر مرات كثيرة أنه حاميها • والألمانية لغة النمساويين وأغلبيةالسويسريين • فضلا عن أنه توجد ، أو كانت توجد ، اقليات تتكلم الالمانية فى دول البلطيق وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وروسيا وايطاليا وفرنسا والولايات المتحدة والبرازيل وكثير من دول أمريكا الأخرى وفى المستعمرات الالمانية السابقة . بالاضافة الى ان دعاة الوحدة الالمانية يعتبرون الهولنديين والفلمنكيين والدانماركيين أيضا من الالمان بمعنى أوسع ، وينظرون الى لغاتهم كمجرد لهجات المانية . ولكن وجهة النظر الالمانية فى الجنسية لا تأخذ بها معظم الامم الأخرى . والا لطالب الانجليز بادماج امريكا الشمالية فى الكومنولث أو العكس ، وطالب الفرنسيون بادماج السويسريين الذى يتحدثون الفرنسية والبلجيكيين فى فرنسا وباستعادة جزء من كندا . ويكون للاسبانيين الحق فى معظم أمريكا الجنوبية وللبرتغاليين حق فى البرازيل • ويستطيع فى هذه الحالة الهولنديون العمل على توسيع حدودهم لضم جزء من بلجيكا وكذلك على ضم البوير •

---

(١) اليزابث ويسكمان « التشيكيون والالمان » ١٩٣٨ ص ٢٣١ • وهناك تفاصيل مهمة فيما يتصل بالاستفتاءات العامة فى كتاب ادوارد • هـ• كار « شروط السلام » ١٩٤٢ ص ٤٥ ، وساره وامبو « الاستفتاءات منذ الحرب العالمية » مجلدان أصدرا تحت اشراف مؤسسة كارنيجى للسلام الدولى ، ١٩٣٣ •

الفصل الرابع

الدّين والجنسيّة

١ ـ الدين كقوة اجتماعية .

استخدم تعبير الدين دلالة على ظواهر مختلفة تمـــاما بحيث أن أحد الدارسين المتخصصين انتهى الى أنه لا يمكن تعريفه (١) ٠ ومن العسير فعلا القول : أين يبدأ الدين ؟ وأين ينتهي ؟ ، وفصله فى حالات معينة عن الأخلاق والفلسفة والشعر والسحر والخرافات والسياسة ٠ وأيا كان الأمر فمن الواضح أن الموضوع يتصل اتصالا وثيقا بالجنسية من عدة جوانب ٠ فالدين كان ، وما زال الى حد كبير ، رابطة قوية بين أفراد المجتمع ٠ وقد انبثقت الوحدة القومية والتضامن القومى الى حد كبير جدا من جذور دينية ، وكل مدنية قومية تأثرت تماما بالقوى الدينية ٠ ويجب أن نؤكد أن هذا البحث يقتصر على الدلالات القومية للدين ، وليست هناك أية محاولة هنا للحكم على صحة أية نظم دينية أو مزاياها أو مساوئها العامة ٠ بيد أنه لما كان من المستحيل فهم روح كل جنسية الا فى ضوء مدنيتها ، فلا بد أيضا من أن نحاول تقييم تأثير الأديان فى المدنيات ٠

لقد لعب الدين دورا ضخما كمركز للجنسية ٠ والدافع الحقيقى للكثير من الصراعات التى تعتبر دينية كان هو الشـــعور القومى الوليد يحاول التعبير عن نفسه فى شخصية قومية ٠ ومن الناحية الاخرى ، أن الدين الى حد بعيد هو الذى علم الناس ذلك التضامن الوثيق الذى تنطوى عليه فكرة الأمة ، والذى أسهم قطعا فى نمو الاعتقاد بأن الاخلاص للقضية

(١) كلمنت ويب « نظريات الجماعة فى الدين والفرد » ١٩١٦ ص ٥٩ ٠



القومية والتضحية من أجلها واجبان تأمر بهما سلطة أسمى من أية حكومة بشرية ·

والتأثير الاجتماعى للدين لا يمكن استنتاجه ببســـاطة من معتقداته الدوجماسية · ففى بعض الأحيان نمت عقليات قومية متباينة تماما من كنائس متقـــاربة تماما فى معتقداتها ، كمـــا يتبين من أمثلة الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية ، ومن كنيسة لوثر وكنيسة كالفن· ومن الناحية الأخرى كثيرا ما أدت أديان مختلفة تماما ·· مثل التوحيد وعبادة الكون وتعدد الآلهة ، الى ظواهر متماثلة جدا مثل معايير أخلاقية واحدة · فضلا عن أنه يجب ألا ننسى أن كل دين من الأديان الكبرى انبثقت منه على طول الزمن معتقدات ومشاعر وتنظيمات مختلفة تماما فى صورتها ومن ثم أثرت فى العلاقات الاجتماعية ، وبخاصة الجنسية ، بطرق مختلفة تماما · ونحن كثيرا مانجد أن التوحيد دخل ، عن طريق التصوف أو التأمل ، فى عبادة الكون ، أو أخذ لونا تعدديا عن طريق الخرافات الشعبية ، أو العكس بالعكس · فالتأثير المتبادل بين الدين والقوى الاجتماعية معقـــد ، وكثيرا ما يكون غير مباشر أو واع ·

ويمكن أن نعثر على المشاعر والأفكار التى تقترب من الجنسية الحديثة الى حد يزيد أو ينقص لدى كثير من الشعوب فى جميع العصور ، وفى بعض الحالات القليلة يبدو التقابل واضحا · ومع ذلك فان التطلعات القومية تحققت بدرجة كبيرة نســبيا وبلغت صورة واعية جدا لأول مرة فى

أوربا الغربية · ومن الجلي أن النمط الحديث من الجنسية نتاج المدنية الغربية التي نمت في تربة المسيحية الغربية. فالشعوب الشرقية العظيمة ، وحتى أثينا وروما في عهد الاغريق والرومان ، لم تخلق هذا النمط من الجنسية والدولة القومية · كما أنها لم تنتج شيئا مثل العلم التجريبي والتاريخ النقدي والتنظيم التكنولوجي والاقتصادي والأنظمة الاجتماعية والسياسة الأساسية التي نعرفها حاليا والتي ارتبطت ارتباطا وثيقا بظهور الجنسية الحديثة · وليس السبب اختلاف الاجهزة العقلية لدى هذه الشعوب بأي حال من الأحوال (١) · فكثير من الاختراعات التي كانت أساسية بالنسبة لمدنيتنا ظهرت منذ وقت طويل في آسيا ، مثل الطباعة ، ولكنها لم تستخدم كثيرا لأن النظام الاجتماعي لم يكن في حاجة اليها ·

ولقد عرفنا التطلعات القومية بأنها السعي نحو الوحدة والحرية والتفرد والهيبة ، أو نحو الشخصية · ومن ثم فان مهمتنا الحالية هي أن ننظر كيف أثر الدين في هذه التطلعات · ان السمة المميزة الأولى لمدنيتنا هي تلك الدرجة الرفيعة من الحرية الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تنطوي على اتجاهات تعمل على المساواة والتوحيد · وقد دعمت المسيحية نمو هذه الروح وشجعتها بشكل حاسم · بيد أنه يحسن أن نلقي نظرة عابرة على بعض الجوانب العامة المعينة لهذه المشكلة قبل بحث هذه الصلة بذاتها ·

ان أهم أسس أي دين هي فكرة القدسية · وفي المجتمعات البدائية يختلط الدين كقاعدة عامة بالسحر ، أي بمحاولة ارغام قوى مافوق الطبيعة على اطاعة ارادتنا وتحقيق رغباتنا (٢) · وقد أثبت السحر دائما أنه أكبر عقبة في سبيل الحرية الروحية والتقدم الفكري والتحسين الفني والاجتماعي والأبداع الشخصي · وتخلف بعض الشعوب المعينة يكون

(١) يجب التأكيد بشدة على أن روح المدنية نتاج لقوى تاريخية واجتماعية معقدة جدا ، ولا يمكن تفسيرها بأنها تعبير عن جوهر جنس ما · ولا يثبت اختلاف المدنيات عدم وحدة العقل البشري · ويقول عالم هندي : « من المستحيل أن نذكر نظاما واحدا أو مثلا أعلى واحدا في الغرب ليس له مقابل أو مثيل في الشرق » · بنوى كومار ساركار «الانظمة والنظريات السياسية لدى الهندوس » ١٩٢٢ و « مستقبل آسيا الفتاة » ١٩٢٢ حيث توجد أمثلة كثيرة على هذا التقابل · وانظر أيضا كتابي « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ ·

(٢) هناك مساهمة مهمة في التمييز بين السحروالدين قام بها كارل بث في «الدين والسحر » الطبعة الثانية ١٩٢٧ . فبرغم انهما نمطان مختلفان تماما من السلوك فانهما ينبثقان من نفس الجذور التي تقوم على الشعور بالوحدة مع الكون أو مع جزء منه ·

عادة نتيجة لنمو اعتقاد قوى بصفة خاصة فى السحر (١) وفى الطقوس السحرية (٢) • الى جانب أنه من الواضح أن الاعتقاد فى تعدد الآلهة أكثر تعرضا بكثير من التوحيد للسحر . والتوحيد يدعم فكرة أن هناك قانونا عظيما واحدا ينظم سير الطبيعة ويشجع الانسان على البحث عن هذا القانون • ان الرواد العظام فى العلم والفكر كانت تدفعهم فى أبحاثهم الرغبة فى اكتشاف النظام الالهى فى الطبيعة والمجتمع • وتؤكد أخلاقيات التوحيد أيضا وحدة الجنس البشرى وتتغلب على حواجز الجنس والطائفية والطبقية • ويحط ذلك كله من قيمة الطقوس السحرية البحتة وينكرها ، فى حين يؤكد ضرورة نقاء الارادة (٣) •

ولم يكن الاعتقاد فى تعدد الآلهة قطعا عقبة كؤودا فى سبيل تحقيق مستوى أخلاقى رفيع من جانب الأفراد ، ولكنه بصفة عامة لم يشجع النمو فى اتجاه المستويات الرفيعة • والأساطير الدينية الخاصة بمذاهب تعدد الآلهة كلها تزخر بالقصص عن تصرفات للآلهة تبدو شائنة للمشاعر الأخلاقية المرهفة بعد أن يكون معناها الأصلى قد نسى • ومن ثم ساد الاحساس على نطاق واسع بأن الانسان ليس فى حاجة لأن يهتم كثيرا بالقوانين الأخلاقية التى لم يهتم الآلهة أنفسهم بمراعاتها • وأدى عدم ملاءمة المذاهب التعددية الى اتجاه الفلاسفة الى تحويل المعتقدات الشعبية فى اتجاه التوحيد أو عبادة الكون • ولكن الفلسفة لم تكن قط أكثر من ميدان لنخبة مثقفة قليلة وتأثيرها المباشر على الدوائر الواسعة محدود جدا • بالاضافة الى أن مذهب عبادة الكون يتصور العالم عادة سرابا

---

(١) أنظر بخاصة راءول آلبيه «Le non civilisé et nous» ١٩٢٧ و (الترجمة الانجليزية « عقل الهمجى » ١٩٢٩) •

(٢) ان العقلية البدائية السابقة على المنطق وصفها ل. لفى برول «Les Fonctions mentales dans les Sociétés inférieures». ١٩٢٢ و «L'âme Primitive» ١٩٢٧ (الترجمة الانجليزية «العقلية البدائية» ١٩٢٣) . بيد أن ما انتهى اليه فيه مبالغة في القرون بين الفكر البدائى والمتمدين . انظر النقد في آلبيه وويب فى مؤلفهما الذى سبقت الاشارة اليه .

(٣) صحيح أن هناك مفكرين مسيحيين كبار بشروا بمبدأ القدرية الذى ينكر الحرية المعنوية والمساواة الانسانية • ولكن الجوهر الاخلاقى للانجيل تغلب على الدلالات الخطرة لهذا المبدأ • وقد وصل كل من لوثر وكالفن بمبدأ القدرية الى حد القول بأنه حتى مايفعله الانسان من شر لا يفعله باذن الله أو بعلم الله فحسب ، بل بقوة الله أيضا • فهو يضع ارادته فى الشيطان والشرير كما يشاء • بيد أن كثيرين من الكالفنيين الحديثين نبذوا مذهب القدرية • انظر جيمس مكنيون « كالفن وحركة الاصلاح الدينى » ١٩٣ ص ٢٣٤ و٢٩١ وما بعدها •

لا تنفذ اليه الملاحظة التجريبية · ومن ثم خنق العلم بالتأملات الميتافيزيقية ولم يعد هناك مجال لينمو بحرية · ومذهب عبادة الكون بصفة عامة يقود بسهولة الى اللامبالاة الاخلاقية : فالخير والشر يتصوران على أنهما تعبيرات الهية · ويحس الفرد بأنه نصف اله أو فوق مستوى البشر لا يخضع لقيود الفضيلة ، أو كفقاعة عابرة فى محيط الطبيعة اللانهائى · ومن ناحية الحرية السياسية فانها لا تزدهر فى ظل مذهب تعدد الآلهة ولا مذهب عبادة الكون · فكلاهما يشجع على تماثل القوة بالحق · وتصور لنا الهيجلية وبعض الفلسفات الالمانية الاخرى الاخطار السياسية لمذهب عبادة الكون·

وقد كانت أخلاق التوحيد عاملا حاسما فى نمو مدنيتنا وقوميتنا الحديثة ، وان كانت هناك قوى كثيرة أخرى أسهمت أيضا فى نموها · ولاشك فى أن مذاهب تعدد الآلهة وعبادة الكون فى الشرق وعند الاغريق كانت لها سمات من السمو غير العادى فى الفكر والمشاعر ، وقد انتهى رأى العلماء المسيحيين المهتمين الى أن التقوى والبر والفكر فى الشرق كثيرا ما فاقت مستويات المسيحيين الاوربيين (١) · ولكن برغم هذه الانجازات لم يؤد التيار الرئيسى الى الحرية والجنسية · ولعل من الأسباب التى أدت الى ذلك أنه ما من مدنية شرقية أنتجت تنظيما يقارن بالكنيسة المسيحية ·

٢ ــ اليهودية

فى العصور القديمة ظهر فى كثير من الشعوب ارتباط وثيق بين الدين والجنسية · وقد نمت داخل اليهودية اتجاهات خطيرة الشأن نحو الجنسية ونحو مثل عليا فوق القومية فى نفس الوقت · وسحقت الأحداث التاريخية الاستقلال القومي لليهود ، فقد فقدوا دولتهم وانتزع قسم كبير منهم من أرضهم الأصلية واستقر فى بابل · وبرغم أن هذه البعثرة القومية عولجت الى حد ما ، فان الشعب تعرض لكارثة جديدة فى ظل الامبراطورية الرومانية · وتبعثر اليهود فى جميع البلاد ، وكانوا قد هجروا لغتهم فعلا واستبدلوها بالآرامية · واصطبغت الطبقات العليا بالصبغة الاغريقية الى

---

(١) فيما يتعلق بمقارنة المسيحية بالأديان الاخرى انظر د·أ· ستيوارت « مكان المسيحية بين الأديان الكبرى فى العالم » ١٩٢٠ ، وسيدنى كيف « المسيحية وبعض الاديان الحية فى الشرق» ١٩٢٩ · وهناك أوجه شبه من اليسير التأكد منها من النصوص الخاصة بالاديان الكبرى التى جمعت فى « انجيل العالم » باشراف روبرت باللورف · شبينبرج ١٩٤٠ ، و « انجيل الجنس البشرى » باشراف ميرزا أحمد صحراب ١٩٣٩ ·

حد كبير جدا (١). وقد أدت الكوارث القومية الأولى الى ظهور مبشرين دينيين وأخلاقيين كبار ، هم أنبياء اليهود ، أحسوا بأنهم يتلقون الوحى من الله بأن يبينوا لشعبهم الطريق الصحيح فى الحياة • وتظهر فى تعاليمهم اتجاهات ومراحل مختلفة لا حاجة بنا الى الدخول فى تفاصيلها هنا (٢). وكانت النتيجة الرئيسية هى ظهور التوحيد الأخلاقى والتطور التدريجى لفكرة الاله المفرد القوى العادل الذى اختار الشعب اليهودى لرسالة كبرى بشرط أن يطيعوا أوامره طاعة تامة • وكان المنتظر فى مبدأ الأمر أنه سيعيد اليهم استقلالهم ويجعلهم شعبا عظيما على حساب بعض جيرانهم أو حتى سيعطيهم المرتبة الأولى بين الأمم • ولكن هذه الفكرة تسامت أكثر فأكثر نحو العالمية الأخلاقية (٣). وينبغى لليهود بصفة خاصة أن يكونوا نموذجا للشعوب كلها بأن يعيشوا حياة دينية أخلاقية صارمة ، وعندئذ سيتم خلاصهم بمعجزة مقدم المسيح ثم يتمتع البشر بالسلام والأخوة والحق والحب •

ومن السمات الأخرى ذات الأهمية القصوى بالنسبة لنمو المدنية والجنسية الحديثة التنديد بالطقوس المتهتكة والجنوح الى الحط من قيمة الطقوس عموما (٤) وتمجيد النقاء الروحى أو التقوى والمطالبة بالعدالة الاجتماعية والمساواة وفكرة المسئولية الجماعية لكل فرد تجاه المجتمع كله مع فكرة خلاص الفرد • وقد تأكدت وصية حب الجار أيا كان ، بما فى ذلك الغرباء ، ولكن غرس أيضا الانفصال عن الاجانب كوسيلة للمحافظة على النقاء الدينى والروحى • وضعف شأن التأمل الفلسفى عن الله والكون • وقد أدى الاحياء القومى تحت ظل عزرا ونحميا وظهور شيعة المتطهرين فى الفارسيين وشيعة التلمود الربانى ، وكذلك فيما بعد الصراع مع المسيحية والاسلام ، الى دعم العمل على الانفصال عن غير اليهود ، وأدى

---

(١) ومن الامور ذات المغـــزى انه حتى فيـــلو ، أعظم ممثلى اليهودية فى العالم الاغريقى ، برغم تقواه ووطنيته لم يكن قد قرأ الانجيل بالعبرية • انظر س• و• بارون « التاريخ الاجتماعي والدينى لليهود » ١٩٣٧ ص ١٤٥ •

(٢) يعرض ماكس ويبير تحليلا اجتماعيـــا ممتازا لنمو الدين اليهودى فى كتابه «Gesammelte Aufsatze Zur Religionssoziologie» ١٩٢٣ المجلد الثالث•

(٣) انظر نورمان بنتوتيش «الاسس الدينية للعالمية» ١٩٢٣ ، واسرائيل زانجويل « الشعوب المختارة : المثل العبرى مقابل المثل التيوتونى » ١٩١٨ •

(٤) والأضـحيات أيضا اتخذت مغزى رمزيا وروحيا أكثر فأكثر ثم اختفت فى نهاية الأمر • انظر و• روبرتسون سميث « العهد القديم فى الكنيسة اليهودية » ١٩٢٦ ص٣٧٨ وبارون ص ١٠٠ و ٢٩٧

الى التشدد فى الوصايا العديدة التى يجب اتباعها بدقة الى شكلية مبالغ فيها ، وان لم يغفل الاتجاه نحو العالمية قط . ولعل اليهود هم أكثر الشعوب القديمة التى ظهر فيها تشابه بالجنسية الحديثة ، بل وحتى بالنزعة القومية . ومع ذلك فان هناك أيضا اختلافات كبيرة . اذ حتى قبل الغزو الآشورى كان اليهود منقسمين الى دولتين وشعبين. وكانت دوافع الأنبياء دينية أساسا وكثيرا ماتعارضت مع مايمكن أن نسميه الآن وجهة النظر القومية . وقد صار الدين أقوى عامل وحدة بين اليهود الذين جاءوا بعد ذلك ، وكان الدين بالنسبة لكثيرين منهم بديلا للجنسية ؛ ولكنه كان يسمو أيضا على مجرد التطلعات القومية .

٣ ـ بدايات المسيحية

بلغت العالمية الاخلاقية ، التى ظهرت فى اليهودية ، ذروتها فى المسيحية التى تعد فى جوهرها مذهبا فوق القومية . فكل البشر كانوا عند المسيح أطفال الله وأخوة وأخوات . وبرغم أن بعض أقواله توحى برسالة خاصة الى اليهود ، فان هناك أقوالا كثيرة أخرى ترفض دعاويهم بأنهم شعب مختار وتؤكد المساواة بين اليهود وغير اليهود . فمملكة الله التى كان يبشر بها لم تكن دولة قومية يهودية أو أى تنظيم سياسى آخر . فليست هناك صورة من صور الحكم ولا نظام سياسى أو اجتماعى يمكن أن يدعى أنه هو الدولة المسيحية أو المجتمع المسيحى (١) . والمهم هو روح الفرد ، روح الحب والصدق والخدمة المتواضعة والحرص ، وليس أى جهاز خارجي يعمل بالاكراه والانفعال والخديعة . وقد نصح المسيح بالخضوع للسطة الزمنية مالم تتعارض مع الواجب نحو الله ، ولكنه لم يحبذ أى عنف أو حرب أو انتقام أو عقاب . وكان موقف المسيحيين الأول من الدولة موقف الريبة العميقة والنفور . وقد رفضوا تقديس صورة الامبراطور باعتباره الها ، وكثيرون أيضا عارضوا الحرب والخدمة العسكرية . واعتبر المسيحيون أنفسهم أمة منفصلة ، شعب الله (٢). وانسحبوا من المشاركة

---

(١) انظر سيسل ج. كادو « الكنيسة الاولى والعالم ، تاريخ موقف المسيحية من المجتمع الوثنى والدولة حتى عهد كونستانتين » ١٩٢٥ ، وأرنست ترولتش «Die Soziallehren der Christlichen Kirchen» ١٩١٢ (الترجمة الانجليزية « التعاليم الاجتماعية للكنائس المسيحية » مجلدان ١٩٣١) .

(٢) أنظر أ. هارناك « توسع المسيحية فى الثلاثة قرون الاولى » ١٩٠٤ ص ٣٠٠ ويقول مارسيانوس اريستيد انه كانت هناك اربع أمم هى البرابرة والاغريق واليهود والمسيحيين ، ومن الجلى أنه اعتبر الرومان غير المسيحيين من الاغريق .

العاملة فى المجالس وفى الحياة العامة ، والفوا مجتمعا منفصلا يقوم على عدم الاكراه والحب الاخوى ، وقد بدا هذا المجتمع لأعدائهم دولة داخل الدولة . ونبذ المسيحيون الأول أفكار الولاء لأى وطن بذاته . ويمكن تتبع هذا التقليد طوال تاريخ المسيحية . وفى أواخر القرن الثانى يذكر « خطاب الى ديوخيتس » الذى يعزى الى جوستينوس ان المسيحيين مثل الغرباء فى بلادهم ويعتبرون كل بلد أجنبى وطنا لهم . أما وطنهم الحقيقى فهو النعيم . وبعد ذلك بأكثر من ألف عام استشهد فينسنت أوف بوفيه بهوجوسانت فكتور قائلا : « ان من لايزال يرسف فى أغلال الارتباط بالوطن ضعيف ، والقوى هو من يعتبر كل بلد وطنه ، والكامل من يعتبر العالم كله منفى بالنسبة له » (١). وكان هذا أيضا هو اعتقاد توماس مور .

وكان المسيحيون الأول أيضا لا يبالون بالثراء ودراسة العلم ومرفهات المدنية ، بل انهم كانوا يقفون منها موقف العداء . بيد أن هذا الاتجاه لم يلبث أن تغير عندما زاد باستمرار عدد من اعتنق الدين الجديد من الطبقات العليا والمثقفة . فكثير من الزعماء الجدد كانوا من الدارسين المتعمقين للفكر اليونانى والشرقى وللقانون عند الرومان وسياسة الحكم عندهم ، وحاولوا التوفيق بينها وبين المسيحية . وارتبط العهد القديم أيضا بالمسيحية ، برغم انه ينطوى فى كثير من الأحيان على روح غير روح المسيح ، فضلا على أنه كان ضروريا لملء الفراغات فى تعاليم المسيح . وعندما نمت الكنيسة واحتلت مركزا قويا فى الامبراطورية اتخذت بذلك طابعا يتعارض فى كثير من الأحيان مع روح الانجيل .

٤ ـ المسيحية عامل أساسى فى الحرية والجنسية الحديثة

كان لكل من الانجيل والكنيسة أثر ضخم فى تكوين مدنيتنا والتمهيد للجنسية الحديثة . ولم تكن هذه النتيجة الى حد كبير جدا مقصودة ولا متوقعة ، ولا حتى موضع ترحيب من جانب زعماء المسيحية والكنيسة . ومع ذلك فلاشك فى أن روح المسيح كانت أقوى أداة لنمو المثل العليا ، وأن الكنيسة كانت أكبر العوامل التنظيمية فى التاريخ .

---

(١) ابتداء من القرن السادس بعثت ارلندا أفواجا من الرهبان الذين كانوا ينتقلون من بلد الى بلد وينشئون أديرة فى كل مكان أو يعيشون نساكا ، من مصر الى ايسلندا. وكان الدافع لهم هو الانكار المقصود للوطن كوسيلة للتقشف والخلاص . وتقول «حياة القديس كولومبا الارلندية.» ان الحج الكامل هو حج الرجل الذى يترك وطنه تماما ، جسدا وروحا ، ويصير منفيا في العالم . « كنيسة ارلندا » . باشراف بل وأمرسون ١٩٣٢ ص ٧٥ .

فضلا على أن الاعتقاد فى وحدة الجنس البشرى وأخوته تنطوى على بذور الأفكار الحديثة عن الحرية والمساواة والتضامن • بيد أن نموها أعاقته الى حد ما تعاليم الكنيسة وطقوسها . فالآباء علموا أن الله خلق الانسان للحرية والمساواة . والكنيسة أرغمت على الاعتراف بالسلطات الموجودة واستخدمت الاكراه هى نفسها ، ولكن الاقتناع بأن ذلك فى أساسه معارض لروح المسيحية لم يختف قط • فلم تبد أية مطالبة بالالغاء المباشر لعدم المساواة • ولكن الكثير بذل للتخفيف من وطأتها وشجع اختفاءها تدريجيا • وتحسن وضع النساء بشكل حاسم بالاصرار على تعدد الزوجات وعلى حقوق النساء • وقضى على وأد الاطفال أو بيعهم ، الأمر الذى كان كثير الحدوث بين الاغريق والرومان والتيوتون (١) • وأدى الاعتقاد المسيحى فى قيمة روح كل فرد الى فكرة حقوق الانسان التى لا تنفصم عنه والتى لا تستطيع دولة الاعتداء عليها حيث أن ذلك يدمر أساسها المعنوى • وكانت الفكرة معروفة لدى بعض الفلاسفة القدامى ، وبخاصة الراقيين • ولكنها لم تكن قط الأساس الذى تقوم عليه الدولة فى عهد الاغريق والرومان • فلم يتورع شعب أثينا صاحب السيادة ولا أباطرة الرومان عن الحكم بالموت على أشخاص يرتابون فى آرائهم أو يتطلعون الى ثرواتهم ، حتى رجال مثل سقراط وسنكا • وقد وجدت فكرة سيادة الشعب أيضا مايؤيدها فى الانجيل ، وقد استشهد الهوجنوت والمتطهرون أعداء الحكم المطلق بحجج كثيرة من العهد القديم •

٥ ـ المسيحية والاختلافات القومية

بيد أن الجنسية تنطوى أيضا على تطلع نحو الفردية والهيبة ، اللذين لا قيمة لهما من وجهة النظر المسيحية ، أو يعتبران حتى من الشرور •وتشير قصة برج بابل فى الانجيل الى أن الاختلاف فى اللغات والجنسيات كان عقابا الهيا • ومن العسير حقيقة الجمع بين فكرة التوحيد الأخلاقى والقانون الأخلاقى العام الذى يصلح لكل الشعوب وواقعة أن الشعوب المختلفة لديها معايير أخلاقية مختلفة تماما • وقد أحس غير المسيحيين الذين تقدموا فى اتجاه التوحيد بهذه الصعوبة • فالامبراطور جوليان يهاجم ، فى مقاله ضد المسيحيين ، وهو المقال الذى رد سيريل السكندرى عليه ،

(١) طلب البابا جريجورى السابع من كبير الاساقفة لانفرانك ان يخمد عادة الاسكتلنديين فى بيع زوجاتهم •

الاتجاه المسيحى الى تجاهل السمات القومية المميزة أو الحط من قدرها ، ويسخر باسطورة برج بابل • وهو يصف العادات المختلفة تماما لدى الشعوب باعتبارها من الاشياء المتأصلة الجذور فى استعدادات الجنس ويعتبر طابع الهتهم رمزا لها • فالاله الأعلى وضع كل أمة وكل قطاع من المدنية تحت رعاية اله منفصل يحميها • ففى حين يحب التيوتون الحرية والاستقلال يقبل الشرقيون طواعية الخضوع لكل حاكم مستبد • وينفر الاغريق بشدة من زواج الأقارب ، فى حين لا يرى الفارسيون فيه عيبا •

وحاول جوليان أيضا أن يسمو بمذهب « أم الآلهة » البشع الفاحش لدى الفريجيين بأن يضفى عليه طابع الرمز • ومن ثم صار من الممكن الدفاع عن مذهب تعدد الآلهة على أساس الاختلافات التى لا يمكن تغييرها فى الطابع القومى بسبب أن الآلهة مختلفة • وكان للامبراطور شخصيا معايير دينية وأخلاقية سامية لا تختلف كثيرا عن معايير المسيحيين (١) • ولكن تبريره لتعدد الآلهة يمس النقطة الأساسية • فتعدد الآلهة يمثل عدم المساواة العنصرية والابقاء على كل سمة قومية متميزة مهما كانت لا أخلاقية فى حين يمثل التوحيد الأخلاقى وحدة البشر وشمول القانون الأخلاقى • وتعدد الالهة يخضع الفرد تماما للجماعة القومية ، فى حين يرى التوحيد الأخلاقى فى الفرد أسمى قيمة •

وبرغم عدم مبالاة المسيحية بالسمات القومية المميزة فانها أسهمت بنصيب وافر فى الابقاء عليها وتنميتها لأنها كانت متأصلة الجذور فى روح الشعوب ، ولأن الدعوة للعقيدة تطلبت استخدام اللغات المحلية وشيئا من التكيف مع العادات والتقاليد الشعبية • فالكنيسة كثيرا ما اصطنعت عادات وثنية وحاولت أن تضفى عليها معنى مسيحيا جديدا (٢) •

وكان من الضرورى أن تدخل الكنيسة فن الكتابة الى البرابرة وبذلك

---

(١) وان كان بعض الآباء الأول قد ظهر بينهم اعتقاد مشابه الى حد ما لمعتقد جوليان• فعادوا بالفوارق بين الجنسيات الى توزيع الهى للجنس البشرى بين ملائكة حارسين لقنوا الامم التى تحت اشراف كل منهم عادات مختلفة • وعندئذ تعرضت هذه الملائكة لغواية الشيطان الى حد كبير أو تغلب عليها ، الأمر الذى يفسر السمات الشريرة فى الطبائع القومية المختلفة • انظر كادو « الكنيسة الاولى والعالم » ١٩٢٥ ص ٢١١ و ٢٩٥ و ٤٦٥ و ٥١٠ •

(٢) هناك أمثلة كثيرة فى كتاب ك•س• لاتوريت « تاريخ توسع المسيحية » ١٩٣٨ مجلد ٢ ص ٤١٣ •

فتحت الطريق لمدنية أرفع ولنمو الخصائص القومية • فأدب كل لغة حديثة في أوربا ، وفي نطاق أوسع بكثير ، يبدأ بكتب كتبها الرهبان • وقد كتب « بيوولف » ، برغم وثنية موضوعه ، وكذلك أغاني « كادمون » « وسينولف » ، في أديرة •

وواقعة أن الكنائس المسيحية نفسها سرعان ما أظهرت اختلافات قومية يرجع بعضها الى أثر المدنيات السابقة على المسيحية وبعضها الى الظروف التي نمت فيها العقيدة الجديدة وانتشرت (١) • وكثيرا ما أدرك بعيدو النظر من حكام الشعوب البربرية أن الدين الجديد والمدنية المتصلة به يمكن أن يعملا على تقدم شعوبهم وزيادة قوتهم شخصيا • ومن ثم كانوا أول من اعتنقه ثم حملوا شعوبهم على قبوله ، بالقوة في أحوال كثيرة •

وكان هذا التمسيح سطحيا طبعا وكثيرا ماعمد آلاف من الناس دون أي تعليم ديني ، وان كان التعليم الديني يعقب ذلك • وفي حالات كثيرة كان للملوك الوثنيين زوجات مسيحيات اقنعوهن باعتناق المسيحية • وكانت النساء بطبيعة الحال يملن الى الدين الذي يمنحهن مركزا أكثر كرامة • أما في الشرق بمدنيته القديمة فقد واجهت المسيحية ظروفا مختلفة تماما • واعتنق الكثيرون في الشرق الدين الجديد بايمان ديني عميق •

ولكن من ناحية أخرى كانت الشعوب المتمدينة في الشرق في مرحلة انحدار قومي وخراب وقد تشربت الى حد كبير جدا باليأس من العالم ، في حين أن برابرة الغرب كان يحدوهم تفاؤل شاب • ويفسر هذا الاختلاف الى حد ما اختلاف تأثير المسيحية في الطابع القومي بين الشرق والغرب (٢) •

٩ ـ الكنائس القومية في الشرق

فضلا عن أن أحد أوجه الاختلاف الكبرى كان أن الكنائس الشرقية اتخذت طابعا قوميا في حين ظلت الكنيسة الغربية فوق القومية في

(١) فيما يتعلق بتاريخ توسع المسيحية قارن هارناك ولاتوريت وشارلس هـ • روبنسون «تمسيح أوروبا» ١٩١٧ •

(٢) أنظر ر• تشيرش « من بعض المؤتمرات المسيحية في الطابع القومي » ١٨٧٣ ص ١٠٩ •

روحها . فقد دمرت الامبراطورية الرومانية الاستقلال القومى فى كل مكان واحتلت اللغة اليونانية والفكر الاغريقى مكان اللغات القومية والمدنيات القومية على نطاق واسع . وكانت هناك اتجاهات دينية عديدة تتنافس على السيادة .

وأراد الفكر الاغريقى أن يجمع بين تعدد الآلهة وعبادة الكون فى « الأفلاطونية الجديدة » ، وافترض الفرس عداء بين مبادىء الخير والشر أدى الى دين ازدواجى . وهكذا حدث نمو اللاهوت المسيحى فى خضم من الأفكار المتصارعة وانتهى الى تكوين كنائس مستقلة .

وكان للصراعات الدينية فى كثير من الأحيان أصل قومى واجتماعى (١) . اذ تتكشف الصراعات الروحية أحيانا عن عداوات قومية ، كما يبدو فى العداء المرير المتحيز الذى يكنه اللاأدريين الاغريق لليهود ، أو التحدى الذى أعلنه تاتيان السورى بأن البرابرة أفضل من الاغريق .

وقد وجدت الشعوب التى فقدت دولها القومية وتراثها الحضارى بديلا فى الدين . فكان بالنسبة لها من عوامل الفخر القومى أن تعتنق الدين الوحيد الذى يضمن الطريق الى النعيم . وهكذا استخدم الدين كشعار قومى ، وكانت بعض الصراعات التى تعتبر دينية بحتة تنطوى على تطلع نحو الجنسية . وكان العداء القومى أحيانا يزداد حدة بسبب العداء بين الطبقات .

ففى مصر نظرت طبقات الحكام الاغريق والرومان الى المصريين وكأنهم ليسوا كائنات آدمية برغم انجازاتهم الحضارية الباهرة فى الماضى .

وانحطت اللغة المصرية الى لهجة دارجة للفلاحين الأميين ، ولم تحى الا عندما بدأت المسيحية تتحدث الى الفقراء والمضطهدين بلغتهم . وقد استخدم كثير من الكنائس الشرقية لغة قومية مثل اليونانية والسورية والأرمنية والقبطية والجورجيانية والسلافونية والعربية والأثيوبية (٢) .

---

(١) أنظر أ. وودوارد «المسيحية والقومية فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية» سنة ١٩١٦ .

(٢) فيما يتعلق بالكنائس الشرقية قارن بين ثلاثة مؤلفات لآدريان فورتسكيو

واعتنق كثير من التيوتونيين الآريانية ، وهى مذهب من أصل شرقى ، واستخدموا القوطية واللغات المحلية فى الكنائس .

وفى سوريا أدت الانقسامات الدوجماسية والكنيسة الى نمو جنسيات ولغات مختلفة .

وقد كانت الكنائس الشرقية حصنا من حصون الجنسية فى كل وقت ، وفى عهد السيطرة العثمانية دعم نظام « الملل » هذا الاتجاه أكثر اذ منح الكنائس استقلالا ذاتيا واسعا فى الشئون المدنية والتربية والمالية وغير ذلك .

فكانت هذه المجتمعات الدينية كالأمم تقريبا ، والعضو الذى يعتنق مذهبا آخر كان يعتبر كافرا قوميا .

بيد أن المبدأ القومى فى الكنائس لم يكن كله نعمة . فانقسام المسيحية الشرقية الى عدة جماعات ، يتصارع بعضها مع بعض صراعا مريرا فى كثير من الأحيان ، كان مصدر ضعف وجعل الكنائس تعتمد على الدولة وأدى الى الفصل فى المسائل الدينية بما يتفق والمصالح السياسية فى كثير من الحالات . وثبت أن القيصرية البابوية فى بيزنطة عقبة لا تقهر فى سبيل الحرية .

وفى الكنيسة العثمانية كان البطارقة الأرثوذكس والأساقفة محصل ضرائب للحكومة ، واستغلوا ذلك لجمع المال وكانت مناصبهم تباع عادة لمن يدفع أكثر .

وفى العهود التالية تورطت الكنائس الارثوذكسية فى الصراعات القومية القاسية التى أثارتها شعوب البلقان بعضها ضد بعض . وكذلك كان لاستخدام اللغات القومية فى الكنائس نتائج غير حميدة . فاللغات كما يتحدثها الناس عادة كانت تتعرض لتغيرات بسبب الهجرات وتغير العادات والعرف ، ولكن الكنائس الشرقية تمسكت باللغات كما كتبت بها الكتب المقدسة والطقوس الدينية ، وحافظت على سيطرتها أيضا فى العلم والأدب والتعليم العالى .

وكانت النتيجة أن الطبقات المتعلمة فى كثير من البلاد استمرت مدة

= «الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ١٩٠٧ و «الكنائس الشرقية الصغيرة» ١٩١٣ و «كنائس التوحيد الشرقية » ١٩٢٣ ، وكذلك ب. كيد « كنائس المسيحية الشرقية » ١٩٢٧ ، وبروكلمان وفينك وليبولت وليتمان «Geschichte der Christlichen Literaturen des Orients» ١٩٠٩ .

طويلة تستعمل لغة فصحى ، وبخاصة فى الأعمال الأدبية ، لا تفهمها الطبقات الدنيا ولا صلة لها بمشاعر العصر وأفكاره • ومن ثم كان استخدام اللغات القومية فى الطقوس الدينية سببا فى تحجرها وأضر بالوحدة القومية وبروح الخلق الأدبى •

٧ ـ موقف الكنائس اليونانية والرومانية الجنسية وأثرها فى الطابع القومى ـ الامبراطورية البيزنطية

كانت أكبر الكنائس الشرقية جميعا الكنيسة اليونانية الاورثوذكسية، الكنيسة القومية للامبراطورية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تضم أيضا شعوبا كثيرة غير اليونانيين وشجعتها الى حد ما على استخدام لغاتها فى الطقوس الكنائسية ، وان كانت قد حاولت أيضا أن تشجع انتشار اللغة الاغريقية الكلاسيكية •

وكانت الكنيسة الارثوذكسية مقسمة الى عدد كبير من البطريركيات المتمتعة بالاستقلال الذاتي والكنائس والجماعات التى تؤمن كلها بنفس العقيدة وتقوم بنفس الطقوس ولديها نفس الترتيب الكهنوتى ولكنها مستقلة بعضها عن بعض وتستخدم لغات مختلفة ، وكثيرا ما كانت تمثل جنسيات مختلفة (١) •

وفى حين كانت الكنيسة الشرقية قومية كانت كنيسة روما فوق القومية من ناحية المبدأ • وكانت الكنيسة الأورثوذكسية ، بصفة خاصة، تدار بواسطة بطريركية هى جزء من جهاز الدولة فى الامبراطورية البيزنطية ، وكثيرا ما كانت مشاكلها الدينية تقرر بواسطة الاباطرة على أسس سياسية الى حد كبير • ولكن باباوات روما صاروا يؤكدون استقلالهم عن السلطات الزمنية ، بل وتفوقهم عليها أحيانا •

وكانت لغة الطقوس واللغة الرسمية لكنيسة روما هى اللاتينية فى

---

(١) ذكر فورتسكيو في ١٩٠٧ ستة عشر كنيسة نقص عددها في ١٩٣١ الى اثنتى عشرة • انظر م • كونستانتينيدس « الكنيسة الاورثوذكسية » ١٩٣١ ، ويجب أن يضاف الى هذا العدد كثير من الكنائس الشرقية التى لا تنتمى الى المذهب الاورثوذكسى وكذلك عدد من الكنائس الموحدة التى تعد شرقية فى طقوسها ولغتها ولكنها كاثوليكية فى ولائها للبابوية •

كل مكان ، وان كان رجال الدين من أوائل من عملوا على نمو الأدب باللغات المحلية أيضا (١) ·

وكان سبب هذا الاختلاف هو ان الكنيسة اليونانية نمت فى تربة من المدنيات القديمة وفي ظل حكم يحافظ على التقاليد الرومانية ، فى حين نمت كنيسة روما على انقاض العالم الرومانى القديم وبين شعوب غير متمدينة · ومن ثم كانت كنيسة روما مما لا غنى عنه مطلقا بالنسبة للحكام الزمنيين للمحافظة على الادارة والمدينة أو لبنائهما · وأتاح ذلك لكنيسة روما سلطة فريدة حتى فى المسائل الزمنية البحتة ، ففى الغرب قامت أسس الدول الحديثة فى كل مكان بيد رجال دولة أصلهم من رجال الكنيسة ، فى حين أن الادارة فى الشرق كانت فى يد بيروقراطيين من رجال الدين ·

وقد حظيت الكنيسة الأورثوذكسية بعطف عميق بين علماء اللاهوت المناهضين لروما فى الغرب ابتداء من وايكليف ولوثر الى عصرنا · وقد أشادوا بها بصفة خاصة لاتجاهها القومى وطابعها الديموقراطى المفروض اللذين قورنا باستبداد البابوية وعدم قوميتها (٢) ، وان كانت هذه الاشادة تطلب فى الحقيقة شيئا من التحديد ·

فلا ريب أن الكنيسة الأورثوذكسية أنتجب شخصيات دينية عظيمة وانجازات ممتازة ، ومع ذلك فان نفوذها كان أقل ملاءمة للحرية والتقدم والجنسية من كنيسة روما ، وان كان من المبالغة أن نقول : ان نمو هذه

---

(١) الواقع أن الكنيسة فى بعض البلاد ظهرت فيها سمات مميزة وبخاصة فى ارلندا · فقد تمسكت الكنيسة الارلندية القديمة باصرار بطقوسها الخاصة التى من الواضح ان لها مغزى قوميا · ولكن لغتها كانت لاتينية ولم تنبذ سلطة البابا قط . انظر «تاريخ كنيسة ارلندا» باشراف و· فيليبس ١٩٣٣ ثلاثة مجلدات · والحالة الوحيدة المهمة التى سلمت فيها روما باستخدام لغة أخرى غير اللاتينية هى حالة الكنائس السلافية ، وكان ذلك نتيجة للمنافسة القائمة بينها وبين الكنيسة الاورثوذكسية وسرعان ما ألغى ذلك . أنظر م · ميركو «Geschichte älteren Sudslawischen Litteraturen» سنة ١٩٠٨ ص ٣٦

(٢) فى انجلترا حاول كثير من رجال الكنيسة البارزين قرونا طويلة أن يحققوا تقاربا أو حتى اتحادا بين كنيسة انجلترا والكنائس اليونانية ، وأراد البعض أن يضم البروتستانتية الالمانية أيضا . وقد لعبت هذه الفكرة دورا كبيرا فى تفكير جلادستون أيضا . وكانت متصلة بموقفه الودى من روسيا وضد النمسا الذى صار تقليدا له وزن سياسى كبير بين سياسيى الاحرار . أنظر برونوباور «Einfluss des englischen Quakertums auf die deutsche Kultur und auf das english-russische Project einer Weltkirche, 1878»

الأشياء فى الغرب يرجع أساسا الى تشجيع متعمد من جانب روما ، أو أن الكنيسة الاورثوذكسية هى المسئولة عن اخمادها فى الشرق ٠

فالاتراك فى اليونان والمغول فى روسيا كانوا بالتأكيد عقبة ضخمة فى سبيل التقدم ، ومع ذلك فان الاختلاف فى روح الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية كان عاملا هاما فى خلق الهوة الثقافية والسياسية بين غرب أوربا وشرقها ٠

وكان التباعد بين الكنيستين عملية تدريجية وتم الانفصال النهائى فى سنة ١٠٥٤ ٠ وكانت الاختلافات فى الطقوس والمذاهب ضئيلة ٠ وبرغم أن التنافس بين روما والقسطنطينية على السيطرة كان من الدوافع الى الانفصال فانه لم يكن الدافع الوحيد (١) . ونجم عن الاحتكاكات العديدة نفور قومى عميق وغيرة ٠ فكان اليانونيون ينظرون الى الرومانيين وحماتهم التيوتونيين باعتارهم أجلافا غير مثقفين وبرابرة، وكان الرومانيون يعتبرون اليونانيين محدثى نعمة اقليميين أغتصبوا حقوق روما كما اتهموهم أيضا بأنهم غير صادقين ٠ وأثار ثراء بيزنطة حسد الغربيين ووضعت خطط كثيرة لغزو أقاليمها ٠ وعندما حدثت اضطرابات قامت الغوغاء بأعمال وحشية ضد التجار الأجانب فى القسطنطينية وانتقم الصيلبيون انتقاما فظيعا ٠ ومنذ ذلك الوقت لم يعد من الممكن اجتياز الهوة التى بينهما. وقد قام بعض البابوات بمحاولات متعددة لتوحيد الكنيستين ، وكذلك الأباطرة البيزانطيون وكبار رجال الكنيسة من الطرفين ، ولكنها اختفت بسبب المعارضة من جانب القسم الاكبر من رجال الكنيسة اليونانيين والشعب اليونانى وقال الامبراطور مانويل الثانى . «ان كبرياء اللاتين وتصلب اليونان لن يتفقا» . وكانت القسطنطينية فى خطر كبير فعلا من غزو الأتراك عندما وصل الامبراطور والبطريرك الأورثوذكسى الى اتفاق مع البابا على الاتحاد ثانية ، وكان اتفاقا عادلا ومصحوبا بوعد بابوى بدعوة المسيحية الغربية للدفاع عن أخوانهم فى الشرق .

ولكن حتى فى هذه اللحظة الحرجة رفض كبرياء القومية اليونانية هذه التسوية وأعلن الفراندوق لو كاس نوتاراس أنه يفضل عمامة السلطان على قبعة الكاردنيال . بيد أن السلطان عندما غزا القسطنطينية بعد ذلك بسنوات قلائل أعدم نوتاراس وجميع عائلته .

---

(١) انظر ش. ديهل «Byzance, Grandeur et Decadence» ١٩١٩ ص ٢٤١، و ن. نورجا «Histoire de la vie Byzantine» ١٩٣٤ المجلد الثانى ص ٢٦٣.

وكانت سيطرة الأتراك على القسطنطينية وعلى جزء كبير من شرق أوربا كارثة من أكبر كوارث التاريخ . اذ أن معظم الصراعات القومية التى أقلقت السلام فى أوربا قرونا طوالا ، بما فيها الحروب الأوربية الكبرى فى عصرنا ، ترجع أساسا الى ظروف ترتبت على قيام الامبراطورية العثمانية وانهيارها ، ويشترك الشرق والغرب فى مسئولية هذه الكارثة ، ولكن السبب كان واحدا فى الجانبين ، وهو قوة الأنانية القومية والانعزالية التى جعلت الحكام والشعوب تعمى عن رؤية الخطر المشترك .

وقد حاول اينياس سليفياس ، كبير الدبلوماسيين البابويين ، دون جدوى أن يثير الحكام الغربيين الى جهاد دينى ضد الأتراك ولكنهم ردوا، قبل سقوط القسطنطينية ، بأن الخطر مبالغ فيه ، وبعد سقوطها منعتهم الغيرة المتبادلة عن الاتحاد فى القيام بحملة مشتركة ، وقد كتب آينياس سليفيتوس فى ١٤٥٤ :

« ليس للمسيحية رئيس يطيعه كل الناس .. فالبابا والامبراطور صارا مجرد ألقاب فخمة ولكنها جوفاء ، ولم يعد لهما نفوذ أكثر من صورتين عاجزتين داخل اطار .. فهناك عدد كبير جدا من الأمم المختلفة ، ومن الذى يستطيع أن يرعى مثل هذا القطيع المختلط ؟ من الذى يسيطر على هذا الخليط من اللغات التى يتحدثونها ، أو يستطيع التعامل مع أشخاص بينهم هذا الاختلاف الواسع فى السلوك والطبائع ؟ أين هو الانسان الفانى الذى يستطيع أن يوفق بين انجلترا وفرنسا أو بين جنوا وآراجون أو يصلح بين الألمان والهنغاريين وأهل بوهيميا فى نزعاتهم » ؟

ولم تكن قومية الكنيسة الاورثوذكسية عقبة فى سبيل التعاون مع المسيحية الغربية فقط . بل انها كانت أيضا مسئولة عن عدم التضامن القومى داخل الامبراطورية . وصحيح أن الامبراطورية البيزنطية كان عليها أن تقاتل باستمرار أعداء أقوياء فى الداخل والخارج ، ولكنها لما كانت أكثر دول العصور الوسطى تنظيما ومدنية فانها كانت تستطيع أن تغزوهم وتضمهم اليها الى حد بعيد لو أن شعبها كان أكثر اتحادا .

ولكن برغم الوعى القومى القوى والكبرياء الزائدة عن الحد لدى

---

(١) انظر و . باولتنج « اينياس سيلفيتوس » ١٩١٨ ص ٢٠٧ . وقد انحط قدر البابوية نفسها فى ذلك الوقت بالانقسام الكبير الذى نجم الى حد كبير عن ظهور الدول القومية . وبرغم كل جهود البابوية لم يحمل السلاح ضد الاتراك سوى ملكى هنغاريا وبولندا ولكنهما هزما . انظر ج. هرتزبرج «Geschichte der Byzantiner und des Osmanischen Reiches» ١٨٨٣ ص ٥٦٦ وقد حاول باباوات آخرون لتنظيم حرب صليبية واسهموا في طرد الاتراك نهائيا في ١٦٨٣ .

الطبقات اليونانية المتعلمة فانه من المشكوك فيه أن بيزنطه كانت أمة . فسكانها كانت بينهم اختلافات كبيرة فى اللغة والتقاليد . واتبعت الحكومة سياسة أبوية تحمى الطبقات الفقيرة وتنظم كل شيء بروح تكاد تكون اشتراكية (١) . ومع ذلك فالتاريخ البيزنطى ملء بالثورات والحروب التى كثيرا ما استعانت فيها الأحزاب المختلفة بالغزاة الأجانب دون أية مراعاة للمصلحة القومية (٢) .

وكان السبب الأكبر فى الانتفاضات هو الأعباء الزائدة على الحد التى فرضتها المركزية البيروقراطية وعنف النزعة العسكرية اللذان ورثتهما بيزنطة عن الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكنها كانت ترجع أيضا الى حدة الصراع اللاهوتى والدينى وكذلك الى ظهور الفيودالية . ودفع عدم وجود الحرية السياسية جماهير ضخمة من الناس الى الانغماس فى صراعات دوجماسية اتخذت طابعا حشيا .

فالتصوف والتقشف فى الكنيسة الأورثوذكسية لم يكونا مواتيين للحرية الفكرية والابتكار الفردى . فقد كان مركز الفكر فى الأديرة ، وكان للرهبان نفوذ كبير على كل من الجماهير والأباطرة . وكان النساك الذين عاشوا فى كهوف قذرة والمتقشفون الذين أمضوا حياتهم وقوفا على أعمدة يحظون بمركز أكثر تبجيلا حتى من الرهبان (٣) .

ولم يكن الرهبان الأورثوذكس روادا فى الزراعة والفنون والحرف وأعمال الخير كما كان الرهبان الغربيون . فالعالم لم يبد لهم أنه يستأهل التحسن . فقد فضلوا تعذيب أنفسهم لكى يحصلوا على مكان فى الجنة (١)

---

(١) انظر ستيفن رانسيمان « المدنية البيزنطية » ١٩٣٣ ص ١٠٢ و ١٧٣ .

(٢) انظر ديهل ص ١٣٧ و ١٧١ .

(٣) اعتقد رهبان جبل آثوس « المتجردين » انهم بالصوم والتأمل المركز يستطيعون رؤية النور الذى ظهر للرسل عند صلب المسيح . وقد أقر « مجلس القسطنطينية » أن مذهبهم يتفق والارثوذكسية فى سنة ١٣٤١ . انظر أ. هور « ثمانية عشر قرنا عاشتها الكنيسة اليونانية الاورثوذكسية » ١٨٩٩ ص ٤٥٨ .

(٤) انتهى واحد من أكبر مؤرخى الكنيسة ، هو ادولف فون هارناك ، فى دراسة مقارنة لروح الكنيستين الغربية والشرقية الى أن بين المدينتين الغربية والشرقية هوة عميقة لا سبيل الى عبورها بسبب تأثير كنيستيهما . فعداء المسيحيين الأورثوذكسيين للمسيحية الغربية كان أكبر من عدائهم لسيطرة الأتراك . وقد أعلن كثير من البطارقة وزعماء الكنيسة الاورثوذكسية الآخرين أن السيطرة التركية نعمة لأنها حافظت على المسيحية الشرقية ضد الروح الغربية التى تعمل على تحللها . وقد ركزت الكنائس الشرقية جهودها على الحياة الأبدية التى بعد هذا العالم ، واهملت العمل على تحسين معنويات الناس فى هذه الحياة على عكس كنيسة روما . ولم يتقدم الفكر الدينى كثيرا بعد القرن السادس . وكانت روح الكنيسة الشرقية متجرد ومتصوفة وتأملية تعارض التقدم ومتشائمة بالنسبة لهذا العالم =

وكثيرا ما نجد رهبانا على رأس عصابات من الغوغاء المتعصبين هائجين على الحكومات بسبب مسألة غامضة من مسائل اللاهوت .

وقد أنتجت المسيحية الشرقية قدرا وافرا من التأملات اللاهوتية الدقيقة ، ولكنها لم تنتج أى فكر فى المسائل الفلسفية أو الأخلاقية أو السياسية مثلما فعل المدرسيون فى الغرب . فقد نبذ العلم الدنيوى الى حد كبير باعتباره اغراء على الكبرياء الفكرى . ومجدت الكنيسة بدلا منه الخشوع والاحسان بين أرواح جاهلة .

وقد أكد الكبرياء القومى البيزنطى أهمية الانتساب الى الاغريقى القدامى ومن ثم حاولت أن تقيد اللغة والأدب بالأنماط الكلاسيكية القديمة متجاهلة اللغة اليونانية المحلية الحية والمشاعر الشعبية والفكر الشعبى .

وتقع على هذا الاتجاه الى حد كبير مسئولية عدم ظهور النبوغ الخلاق فى الأدب (١) وعدم ارتفاع المستوى الفكرى للشعب والاخفاق فى صبغ العناصر غير اليونانية بالصبغة الاغريقية . وقداستمر الرق فى بيزنطة فترة أطول بكثير مما بقى فى الغرب برغم أن الكنيسة كانت تقف منه موقف عدم التشجيع . كذلك تصور المقارنة التالية الفرق فى الروح بين الكنيستين والمدنيتين .

استخدمت الامبراطورية البيزنطية « الخصيان » بكثرة فى أسمى المراكز حتى كرؤساء وزارات وقواد ورؤساء كنيسة (٢) . وكانت أنبل العائلات تخصى أبناءها لتساعدهم فى الرقى ، وكان الموظف « الخصى » يتقدم على الموظف غير الخصى الذى من نفس المرتبة .

= ففى الكنيسة الارثوذكسية بقيت المدنية المتحجرة التى سادت فى أواخر عهد الاغريق وفى الشرق . وفى السياسة ترددت هذه الروح بين الفوضوية اللينة والسلمية اللتين دعا اليهما تولستوى وبين التعصب الثورى . وبين هارناك أيضا أن العداء بين المدنية الشرقية والغربية لم يكن نتاج الاختلافات العنصرية . انظر أ . فون هارناك «Ausder Friedens und Kriegsarbeit» ١٩١٦ ص ١٠١ الى ١٤٠ . ويعارض وجهة النظر هذه ، وبصفة خاصة من ناحية المسيحية السلافية (وعلى الاخص المسيحية الروسية)، بأول كوربال في «Das Slawentum und der deutsche geist» ١٩١٤ .

(١) أهم استثناء هو القصة الشعبية باللغة المحلية عن مغامرات ديجينس اكريتاس انظر فيما يتعلق بالأسباب الاجتماعية لنقص الابتكار ك . ديتريش Geschichte der Byzantinischen Litteratur ١٩٠٩ .

(٢) رنسيمان ص ٩٢ و ٢٠٣ .

والفكرة التى وراء ذلك هى أن الخصى يمكن الاعتماد عليه أكثر كخادم للدولة والكنيسة حيث أنه لا يستطيع أن يؤسس عائلة وليست له مصلحة فى تكوين ثروة أو اكتساب السلطة من أجل أبنائه .

وفى الغرب كانت نفس الفكرة سببا فى تشجيع « العزوبية » فى الكنيسة الأمر الذى أدى الى سيادتها الى حد كبير فى الخدمة المدنية أيضا (١) — حيث أن كبار رجال الدولة كانوا من رجال الكنيسة. ومع ذلك فأى فرق ! والانسان يستطيع أن يفهم أن مجتمعا يضع الخصى فى مركز أفضل من الشخص العادى لأسباب مدنية لا يمكن أن ينتج شعرا عظيما (٢) . وبعد سقوط الامبراطورية صارت روسيا وريثة القيصرية البابوية البيزانطية والتقاليد الأورثوذكسية وتأثرت سماتها القومية الى حد كبير جدا بهذه العوامل .

٨ — الكنيسة الرومانية وأصل الجنسية فى الغرب

كثيرا ما وصفت الكنيسة الرومانية بأنها العدو اللدود للجنسية . فيقول الاستاذ ماسترمان مثلا :

« كانت الامبريالية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية العدوين الكبيرين للجنسية فى التاريخ . وفى الحالتين انبثق العداء من نفس السبب — عدم الثقة فى قيمة الحرية . وقد كانت الكنيسة الرومانية فيما مضى أما عظيمة للأمم فى مهدها ، ولكنها نفرت من جهودها فى أن تنمو وقاومتها » (٣) .

ولكن برغم الاعتراف بذلك فى الماضى البعيد فان هذا الرأى فى حاجة الى تحديد كبير . ففى امبراطورية الفرانك ، وفى دول غيرها أيضا ، كانت

---

(١) وان كان الأمر قد تطلب فى انجلترا فترة طويلة حتى سادت العزوبية .

(٢) وان كان يجب أن يذكر أن مغنين من الخصيان ظلوا يستخدمون فى الفرقة البابوية حتى العصور الحديثة . وكان ليو الثامن هو الذى أبعدهم نهائيا عن الحرم البابوى سنة ١٨٧٨ .

(٣) انظر ج. ماسترمان «حقوق الكنائس القومية ومسئولياتها» ١٩٠٨ . وقد أورد المؤلف أيضا محبذا قول ف . د . موريس من أن الكنيسة « اعتقدت انها يمكن أن توجد دون أمم متميزة ، وان دعوتها ستقلب الأمم ، ومن ثم فان الفضائل الكبرى التى تشجعها الأمم ، مثل الضمير الفردى المتميز والشعور بالمسئولية الفردية والصدق والولاء ضعفت بسببها : وهكذا اعتبرت الخير شرا والشر خيرا : وهكذا قلدت الامم وهى تطأها بأقدامها: وهكذا صارت أكثر تعطشا للدماء من أى داعية قومى » .

الكنيسة فى مبدأ الأمر تعتمد على الحكومة ، فى حين ان الدولة والكنيسة فى انجلترا الانجلو ساكسونية كانتا مندمجتين تقريبا ولكن تحت توجيه الكنيسة عمليا • وفى أثناء عملية النمو تصارعت الكنيسة والدولة فى كل مكان على السيطرة ، وكثيرا ما كان هناك شك فى أى الجانبين هو المدافع حقيقة عن القضية القومية •

وكان الطابع فوق الدولى للكنيسة الرومانية يعمل على وحدة المسيحية وبخاصة فى أوربا المسيحية (١) ، ولكنه شجع أيضا على تكوين مجتمعات محلية أوسع وأكثر رسوخا على انقاض الفوضى القبلية والخلافات والمنافسات الفيودالية • وقد بدت هذه الاختلافات التقليدية قليلة الأهمية لرجال الكنيسة الذين كانوا يعتبرن المسيحية كائنا حيا روحانيا عظيما واحدا •

وقد كتب القديس توماس أكويناس : « برغم أن المرء يستطيع تمييز الشعوب تبعا لاختلاف الأسقفيات والدول ، فمن الجلى أنه لما كانت هناك كنيسة واحدة فلابد أيضا أن يكون هناك شعب مسيحى واحد » ، وكانت الكنيسة هى التى بدأت بالنظر الى الشعوب الانجليزية والفرنسية والألمانية كوحدات تعمل على القضاء على وجود عدة قوانين قبلية فى اقليم واحد كل منها لا ينطبق الا على قبيلة بذاتها فقط ، وتشجع بعدة طرق ذلك التوحيد الروحى والاجتماعى والسياسى الذى أدى الى فكرة الأمة (٢) .

كما عارضت الكنيسة الاتجاه التيوتونى والفيودالى اعتبار الحكومة اداة مفيدة تابعة لملاك الأراضى (٣) بفكرة أنها أولا مسئولية تجاه الله ومن

(١) هناك عرض ممتاز في كتاب كريستوفر روسون «تكوين أوروبا ، مدخلا لتاريخ الوحدة الاوروبية » ١٩٣٢ •

(٢) وليم ستايز « التاريخ الدستورى لانجلترا » مجلدا ١ فصل ٥ ، وش.بتى دوتاييس «الملكية الفيودالية فى فرنسا وانجلترا » ١٩٣٦ ص ١١٣ ، الفردرامبو «Histoire de la civilisation française» ١٩١١ ص ١٤٩ • وكان القس الانجلو ساكسونى بونيفاس ومساعدوه فى عملهم التبشيرى بين القبائل الألمانية أول من تصوروهم كوحدة وأطلقوا على لغتهم اسم « ثيوديسكا » = (الشعبية) التى أدت الى ظهور لفظ دويتسن الذى يستعمله الالمان اسما لهم الآن . انظر بصفة خاصة مقالين عن «عودة مبدأ الجنسية الى التاريخ » ونحو اسم ألمانى « في كتاب الفريد دوت «Ausgewöhlte Schiftchen» ١٨٩٨ وكذلك ف• كلوج «Deutsche Sprachgeschichte» ١٩٢٠ ص ٢٢٥ •

(٣) وقد طبقت نفس الفكرة على الكنيسة أيضا . فقد كان أصحاب الاراضى الالمان يعتبرون الكنائس التى فى أقاليمهم ملكا خاصا لهم وانها استثمار مربح حيث انها كانت تدر دخلا من الجنازات والزواج ••• الخ • انظر أوليرنج ستوتز «Die Eigenkirche» و «Geschichte des Kirchlichen Benefiziolwessens» ١٨٩٥ ، وكذلك لوينتج Geschichte des Deutschen Kirchenrechts» ١٨٧٨ ص ٣٢٧ و ٣٧٥

ثم حوربت عادة التيوتين فى تقسيم الاقليم بين أبناء الملك بعد وفاته . كما لقى أيضا الاتجاه الفيودالى الى تقسيم الطبقات بصورة قضت على وحدة الشعب معارضة من جانب الكنيسة • وقارن كثير من كتاب الكنيسة ، مثل جون أوف سالسبورى ، الشعب بكائن حى عظيم يعتمد كل عضو فيه على جميع الأعضاء الآخرين ويؤلف وحدة لا تنفصم • وبعد الغزو النورماندى لانجلترا كانت الكنيسة هى الجسر عبر الهوة التى بين الشعب الحاكم والشعب المحكوم وساعدت على اندماجها (١) •

بيد أن البابوية كانت عقبة فى سبيل توحيد ايطاليا سياسيا حيث أن ذلك كان يهدد مركزها . بالاضافة الى أن الكنيسة جعلت سلطة الملوك أغنى بطقوس التتويج التدشين التى أضفت عليهم مشروعية الهية وجعلتهم فى مركز القاضى المعين من قبل الله وقد دعم ذلك أيضا القوى التى تعمل للوحدة .

ولكن الكنيسة كانت أبعد ما تكون عن اعلان أن الملك حاكم مطلق بواسطة هذه الطقوس • فطبقا لمذهب الكنيسة لم يكن الملك ولا الشعب صاحب سيادة بمعنى السلطة غير المحدودة ، وهى فكرة لا تتفق أيضا مع فكرة الدولة ككائن عضوى • فكلاهما كان خاضعا للقانون الالهى والطبيعى، وكانت الكنيسة تدعى حق تقرير ما اذا كان هذا القانون قد خرق والمطالبة بالتكفير عن هذا الخرق اذا تطلب الأمر (٢) .

وفى حفلة تتويج كل ملك يسأل الأسقف الذى يقوم بالمراسم : هل كان الشعب موافقا ؟ • وكان الحاضرون طبعا من كبار النبلاء الذين اعتبروا ممثلين للبقية • ومع ذلك فان المبدأ ينطوى على أن الشعب هو مصدر السلطة الملكية وأن ارادة الله تعمل عن طريق الشعب •

وكان حصول البابوية على السلطة الملكية ونمو قانون الكنيسة

---

(١) و • ستيفنس «الكنيسة الانجليزية من الغزو النورماندى الى عهد ادوارد الاول» ١٩٠٩ ص ٤٧ و ١٩٤ • ومن الملاحظ أن هذا التوفيق القومى كان اساسا من عمل رجال دين من أصل أجنبى •

(٢) انظر بصفة خاصة المؤلف الكبير الذى كتبه د• كارلايل و أ• كارلايل «تاريخ النظرية السياسية فى العصور الوسطى فى الغرب » ٦ مجلدات ١٩٠٣ ، وفريتزكرن «Gottesgnadentum und Widerstandscrecht im fruheren Mittelalter. 1915» ومقالات فى مؤلف جماعى باشراف ف• هيرنشو « الافكار الاجتماعية والسياسية لبعض مفكرى العصور الوسطى العظام » ١٩٢٣ •

وأجهزتها الادارية والمالية نموذجا لحكام الدول • فكان معظم وزرائهم ومستشاريهم من رجال الكنيسة ، وكان كثير منهم أجانب أو من أصل غير نبيل • وقد خلف هؤلاء الرجال الأنظمة التى صارت أساسية فى نمو الدول والأمم الحديثة • فلم يضعوا أسس السلطة الملكية فحسب ، بل كان لهم نصيب كبير أيضا فى التمهيد للأنظمة البرلمانية وتنميتها •

فأصل البرلمان الانجليزى ، بصفة خاصة ، يرجع الى حد كبير جدا الى نصائح رجال الكنيسة ، وفى برلمان سيمون دى مونفور كان للوردات الروحيين سيطرة غير عادية على اللوردات العاديين •

وقد ساعد كثيرا على تطور انجلترا وفرنسا الى أمم أن علاقاتهما بالبابوية ظلت ثابتة نسبيا ولم تتأثر بالصراعات الكبرى بين الامبراطور والبابا على السيادة ، وهى الصراعات التى كان لها أسوأ الأثر على الوحدة القومية الألمانية . وفى هذه الصراعات كثيرا ما أيد البابوات ، بل وأثاروا ، التطلعات القومية والديموقراطية للشعوب ضد الاباطرة •

فضلا عن أنهم ادعوا السيادة على عدد كبير من الدول ، ولم يكن ذلك مجرد نتاج سعيهم للسيطرة ، بل كان يقصد به أيضا أن يشجع القوى التى تسعى الى الحرية • فالبابوات لم يعملوا على زيادة سلطتهم فقط ، بل انهم أكدوا أيضا سيادة الروح على السيف ، وكان صراعهم ضد الحكام الدنيويين موجها الى حد كبير ضد ادعائهم الحق فى استخدام الكنيسة كممتلكات مربحة فى مصلحتهم ومصلحة مساعديهم ، النبلاء الفيوداليين •

وقد كتب جريجورى السابع ، وهو ابن فلاح ، الى أسقف ألمانى يقول : «من الذى لايعرف أن الملوك والأمراء انحدروا من رجال ازدروا الله وساروا وراء الشيطان ، سيد هذه الأرض ، وعملوا على السيطرة بالعجرفة والاساءة والاغتيال وكل نوع من أنواع الجرائم على مخلوقات بشرية مثلهم يدفعهم انفعال أعمى وادعاء لا يحتمل » •ويكشف الجنوح الثورى فى هذه الكلمات عن الأصل الكهنوتى للأفكار الديموقراطية التى ظهرت فيما بعد •

وقد ظلت الحياة السياسية فى المدن والامارات الايطالية قرونا مسرحا للصراع بين الحزب الامبراطورى والحزب البابوى ، وكان الأول يتألف عادة من الطبقة الارستقراطية فى حين كان الثانى يتكون من عناصر أكثر ديموقراطية • وقد علم جون أوف سالسبورى أن الطاغية الذى بخرق

القانون الطبيعي يمكن عزله أو حتى قتله ، وبدا أن أكويناس يوافق على هذا المبدأ • وأعلن لاوترباخ أن للشعب الحق فى طرد الملك السيىء كما لصاحب الحقل الحق فى أن يطرد راعى الخنازير السيىء • وبعد ذلك أعلن كثير من الكتاب من رجال الدين أن السيادة للشعب ، وأن كان خاضعا فى ذلك للقانون الابدى .

٩ ـ تأميم الكنيسة الغربية وحركة الاصلاح الدينى

كان البابوات هم أول من التجأ الى الشعوب فى صراعهم مع الأباطرة والملوك ، ولكن سرعان ما انتقم منهم الأباطرة والملوك بالالتجاء بدورهم الى الشعوب ضد البابوات • وقد كان هناك باستمرار تقريبا منافسة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، بين المحارب والقس ، وتتأصل جذور هذا العداء فى اختلاف المثل العليا وتضارب المصالح •

وكثيرا ما اتخذت هذه الصراعات طابع الحرب بين المبدأ القومى والمبدأ فوق القومى ، وبخاصة عندما وقف ممثلو الأمة ، أو رجال الدين فى بلد ما ، الى جانب الملك ضد البابا . بيد أن هناك قضايا أخرى كثيرا ما ارتبطت بمطلب تأميم الكنيسة ، مثل المطالبة باصلاح الكنيسة اصلاحا عاما أو محاولة التأثير على البابوية • وقد بدأت حركة التأميم فى انجلترا (١)، وسرعان ما أحرزت تقدما فى كثير من البلاد :

وكانت الشكوى من البابوية مالية وسياسية وروحية • فقد حاول البابوات الابقاء على رجال الكنيسة هيئة منفصلة داخل الأمم الناشئة كدولة داخل الدولة لا يتبعون سوى رياستهم ولا يدفعون شيئا الا لخزانتهم • وكثيرا ما تعارضت أيضا سياسة البابوات الدولية مع التطلعات القومية ، وكان فساد الكتيسة أمرا معروفا • بالاضافة الى أن طمع الملوك والنبلاء فى الاستيلاء على ثروة الكنيسة وسلطانها ، وغيرة الطبقات الوسطى التجارية منها بسبب المنافسة الاقتصادية كانت عوامل

---

(١) لقد عرض هدف الكنيسة القومية بوضوح ممتاز حوالى سنة ١١٠٠ «بواسطة» عضو مجهول من أعضاء جماعة كبير الاساقفة جيرار أوف يورك . بالاضافة الى أن أفكاره الدينية تحمل أوجه شبه كثيرة تسترعى الانتباه بأفكار المصلحين البروتستانت • انظر هيتريخ بوهمر «Kirche und Staat in England und der Normandie in 11 und 12.Jahrhundert» ١٨٩٩ • وقد دعا وايكليف فيما بعد الى اقامة كنيسة قومية وسبق بكثير من تعاليم «الاصلاح الدينى» . انظر هربرت وركمان «جون وايكليف» ١٩٢٦ ـ مجلدين .

هامة . وقد تعرضت البابوية لهزيمة ساحقة على يد ملوك فرنسا وانحدرت مدة طويلة الى مجرد أداة للسياسة الفرنسية . وبلغت هذه الحركة ذروتها فى « الانقسام العظيم » و « مجلس كونستانس » و « مجلس بازل » • وقد أخفق الاصلاح الكنسى الى حد كبير بسبب العداء بين فرنسا وانجلترا فى حرب « المائة سنة » • ولكن البابوات عقدوا اتفاقات مع الحكام أتاحت لهؤلاء الحكام سلطة واسعة على الكنيسة فى بلادهم (١) • وقد اجتمعت عدة قوى ، من الطموح والمنافسات للعمل على ظهور الدولة القومية ولتمهيد السبيل لمقدم « حركة الاصلاح الدينى » •

ولم يكن « المصلحون » الكبار مدفوعين بسعى مقصود من أجل الجنسية ، ولكن تطلعات حلفائهم السياسيين وسير الأحداث أضفت على حركة الاصلاح الدينى فى كل مكان طابعا قوميا قويا • وقبل حركة الاصلاح كان أتباع هاس يستوحون أفكارا كثيرة تعلمها هاس من وايكليف، وقد ادمجوها مع الصراع القومى للتشيكيين ضد السيطرة الألمانية • وصار الدين خلال حركة الاصلاح رمزا للجنسية فى كل مكان وهيأ الوسيلة لبلورة الشخصية القومية والتعبير عنها • وقد اتخذ القرار بقبول الدين الجديد أو الوقوف ضده فى حالات كثيرة بناء على الأوضاع السياسية أكثر مما قام على أسس دينية ، واختلطت مصالح الأسر المالكة بالدوافع القومية .

وفى انجلترا يرجع انتصاره الى حد كبير الى النفور من الكثلكة باعتبارها دين العدو القومى ـ الأسبان ، وفى اسكتلندا ارتبط اعتناق البروتستانتية بواسطة لوردات المحفل الدينى فى سنة ١٥٥٧ ارتباطا وثيقا بتمردهم ضد السيطرة الفرنسية •

وتشرب الهنغاريون فى كفاحهم الطويل ضد بيت هابسبورج والجزويت من أجل الاستقلال القومى والحرية الدينية بروح الكلفنية الثورية المحاربة واطلقوا عليها اسم « المذهب الهنغارى » فى معارضة كل من الكثلكة والبروتستانتية •

---

(١) فيما يتعلق بالعامل القومى فى هذه الصراعات انظر ج• هاللر «Papsttum und Kirchenreform» ١٩٠٣ ، و أ• فليك « اول كنيسة العصور الوسطى » ١٩٣٠ فى مجلدين و ا• ورمنجهوف «Nationalkirchliche Bestrebungen im deutschen Mittelalter» ١٩١٠ •

وقد ظلت الكثلكة ، بعد عدة أحداث ومصاعب ، الدين القومى فى فرنسا لأنها كانت لمصلحة الوحدة القومية . فالبروتستانتيون الفرنسيون كانوا يحبذون المحلية الاقليمية وتحديد سلطة الملك بواسطة سيطرة الأرستقراطيين . وفى ألمانيا أدى الصراع الدينى الى تغلب النزعة المحلية على الوحدة القومية . وصارت بعد ذلك الصراعات بين الأمم أكثر حدة فى كثير من الأحوال بسبب الجمع بين الحقد القومى والدينى . ففى الحروب الأهلية البشعة التى حدثت فى ذلك الوقت كثيرا ما سعى البروتستانت الى طلب المساعدة الأجنبية ، أو قبلوا هذه المساعدة ، حتى من الأعداء القوميين أحيانا .

وفى الحروب الداخلية والخارجية كان كل جانب يعتقد أنه يحارب فى سبيل الدين الصحيح وفى خدمه الله ، ولكن محاولات تكتيل كل القوى التى تنتمى الى نفس الدين ضد قوى الدين الآخر لم تنجح قط . فالمصالح السياسية أثبتت أنها دائما أقوى من المصالح الدينية .

وكان أتباع هاس قد اتخذوا العهد القديم فعلا كقانون للأخلاق والفضيلة وسارت حركة الاصلاح الدينى فى هذا الطريق الى حد يزيد أو ينقص . وشجع ذلك الأفكار المتصلة بالتطلعات القومية « للشعب المختار » القديم ، وبخاصة فيما يتصل باحياء الروح الجمهورية المحاربة التى كان كهنته يتسمون بها . واعتقد كثير من المتطهرين الانجليز أن الانجليز هم « الشعب المختار » الجديد . وقد وجد فردريك الثانى ملك بروسيا ، برغم أنه كان يهزأ بجميع الأديان المسيحية ، أنه من المفيد أن يبدو كمدافع عن البروتستانتية ، واتخذ البروسيون عبارة من أجل الله والملك والوطن » شعارا للمعركة ، وكان الروس يعتقدون أن السلافيين سينقذون البشرية من الانهيار عن طريق نقاء مفهومهم عن المسيحية ، ووحدوا بين الجنسية الروسية والمذهب الأورثوذكسى .

وما زال تأثير الدين فى تكوين الشخصية القومية عاملا مهما ، وهو يتغلب أحيانا حتى على وحدة اللغة . فالفلمنكيون البلجيكيون والهولنديون يتحدثون نفس اللغة تقريبا ولكن الدين يفرقهم الى حد كبير . وعندما وحدهم مؤتمر فينا فى دولة واحدة سرعان ما تحطم اتحادهم بثورة البلجيكيين . ويتحدث الكرواتيون والصربيون أيضا نفس اللغة تقريبا . ولكن الأولين كاثوليكيون والثانين أورثوذكسيون ، الأمر الذى ينطوى على اختلافات ثقافية أيضا وكان سببا كبيرا فى انقسامهم الى جنسيتين منفصلتين وقيام قدر كبير من العداء القومى بينهم .

والسلوفاكيون قريبون جدا من التشيكيين فى اللغة ودينهم واحد ، وهو الكثلكة . ومع ذلك فان السلوفاكيين يدعون الحق فى أن يكونوا جنسية منفصلة برغم أن مؤسسى تشيكوسلوفاكيا أكدوا وحدة السلوفاكيين والتشكيين وابتكروا لفظ « تشيكوسلوفاكيين » .

ويبدو أن وجه الاختلاف الأساسى بينهم هو الموقف تجاه الكنيسة، حيث ان السلوفاكيين كاثوليك متحمسون فى حين أن التشيكيين اعتنقوا التقاليد القومية لمذهب هاس ، وان لم يعتنقوا هذا المذهب بأى معنى دينى .

١٠ ـ الكنيسة ونمو الحرية

لا حاجة بنا هنا الى أن نبحث بالتفصيل العلاقة الوثيقة بين الصراعات الدينية التى بدأتها حركة الاصلاح الدينى والحرية السياسية. فقد استعان زعماء البروتستانت والكاثوليك (١) على السواء بسيادة الشعب وأدت الحروب الأهلية الطويلة بينهم الى رغبة شديدة فى الوحدة القومية ، وبخاصة فى فرنسا حيث استخدم الحكم الملكى المطلق هذه الرغبة فى فرض سلطانه .

وفى ألمانيا دعمت حرب الثلاثين عاما أيضا قضية الحكم المطلق ومهدت ، بصفة خاصة ، لظهور بيت هو هنزللرن ونزعته العسكرية . واتبع البابوات سياسة توازن القوى التى وضعت مصالحهم السياسية قبل مصالحهم الدينية وشجعت مباشرة على ظهور البروتستانتية (٢) . وكانت فى جوهرها هى نفس السياسة الخارجية التى اتبعت مع انجلترا ، وكانت ترجع لنفس السبب ، وهو عدم وجود جيش قوى ، وأدت الى نفس النتيجة وهى حماية الأمم الصغيرة ضد اعتداءات الدول القوية .

فقد كان أكثر ما يخشاه البابوات هو وصول أية دولة الى درجة من

---

(١) ر. هـ. موراى ، « النتائج السياسية لحركة الاصلاح الدينى ، دراسة فى الفكر السياسى فى القرن السادس عشر » ١٩٢٦ ، بيير سنار «L'essor de la philosophie politique au XVIe siècle» ١٩٣٦ ، ج.ب. جوش « الافكار الديموقراطية الانجليزية فى القرن السابع عشر » ط٢ سنة ١٩٢٧ .

(٢) مارتن فيليبسون «Westeuropa im Zeitalter von Philip II, Elisabeth und Heinrich» ١٨٨٢ ص ١١ و٨٦ و٩٢ و١١٢ و٣٥٤ و٣٦٨ ، جورج وينتر «Geschichte des dreissig Jahr igen Krieges» ١٨٩٣ ص ٨٦ و ٣٣٠ وليم بارى « البابوية والعصر الحديث » ١٩١١ .

القوة تجعل استقلال الدول الأخرى · ومركزهم كباباوات ، مهددا · ولهذا السبب بذلوا جهودا كبيرة للحد من توسع الحكام الكاثوليك الذين كانوا يدافعون عن الكثلكة ، مثل شارل الخامس وفيليب الثانى وفرديناند الثانى ولويس الرابع عشر ، بل وتحالفوا مع البروتستانت ضدهم .

وعندما نزل وليم الثالث بقواته فى انجلترا وحارب ضد لويس الرابع عشر كان البابا الى جانبه واستعمل نفوذه فى البلاد الكاثوليكية فى تأييده · ان تقدم الحرية القومية والسياسية يرجع الى حد كبير الى المنافسة التى لا تنتهى بين السلطات الروحية والسلطات الزمنية ·

وقد عزى كثير من المؤرخين البارزين تقدم الحرية الروحية ، وبخاصة روح البحث النقدى الحر ، الى البروتستانتية ، وهناك بالتأكيد شيء من الحقيقة فى هذا القول · فضلا عن أن كنيسة العصور الوسطى كثيرا ما مثلت على أنها عدو لحرية الفكر ، بل وقد أدمج بعض المؤرخين المسيحية فى هذا الاتهام (١) · بيد أن الأبحاث الحديثة أثبتت أنه لا الكنيسة القديمة كانت رجعية ولا الكنيسة الجديدة كانت تقدمية بقدر ما كان مفروضا (٢) · فالحقيقة أنه كانت هناك قوى فى الجانبين تعمل من أجل الحرية الفكرية والتسامح ، وقوى تعمل فى الاتجاه الآخر ·

ودين الحرية الحديثة الذى تدين به لجريجورى السابع وفرانسيس الأسيسى وتوماس أكويناس أكبر من دينها للوثر ، واذا كانت الكثلكة قد ظهر فيها نوركمادا وكثيرون آخرين مثله ، فانها أنتجت أيضا دانتى ونقولا الكوزى وارازموس ومور وفنلون ولامنيه · وكان بعض المدرسين يفكرون فعلا فى أن اختلاف الدين كان جزءا من خطة الهية لتربية الجنس البشرى (٣)

ومن ثم فان كل دين يحتوى على شيء من الحقيقة وتكمل الأديان المختلفة بعضها البعض ، وقد تكون هناك لتعددها ذاته منافسة مفيدة لقد كانت الانسانية المسيحية تشجع التسامح ، ولكن صراعات عصر

---

(١) انظر مثلا ما قاله الاستاذ ج·ب· بيرى « تاريخ حرية الفكر » ١٩١٣ ص ٦٧: « ومن ثم فانه فى الفترة التى كان للكنيسة فيها أكبر نفوذ صار العقل مقيدا فى السجن الذى أقامته المسيحية حول العقل البشرى » ·

(٢) ان الحكم التاريخى يجب أن يزن بين الآراء المبالغ فيها التى عرضها كل من الكتاب الكاثوليك والبروتستانت . أنظر أ·س· تيربرفيل « الفكر ومحاكم التفتيش فى العصور الوسطى » ١٩٢٠ ·

(٣) انظر آلوا دمبف «Sacrum Imperium» ١٩٢٩ ص ٢٠٢ و ٢٤١ ·

الاصـلاح الدينى والاصـــلاح المضاد أثارت تعصـبا جديدا • وقد كانت الكنائس البروتستانتية الحرة هى أول من دعا الى حرية الضمير وبخاصة فى هولندا وانجلترا وأمريكا (١) •

١١ ـ النزعة القومية الحديثة والدين

تجد النزعة القومية الحديثة نفسها فى وضع صعب فيمـــا يتعلق بالدين • فهى من ناحية تقف موقف العداء من تقسيم ولاء أتباعهـا بين الأمة والله ؛ اذ هى تجنح الى عبادة الأمة نفسها بدلا من الله وجعل النزعة القومية دينا • بالاضـافة الى أن أهداف النزعة القومية العدوانية لا تتفق مع المسيحية ، فضلا عن أن العنصرية تستبعد ذوى الأصل اليهودى من الأمة • ومع ذلك فلا يستطيع دعاة القومية فى كثير من الأحوال أن يظهروا عداءهم صراحة أكثر مما ينبغى حيث ان ذلك قد يؤذى شعور أتباعهم فى القومية • كما أن العنصر التقليدى فى كل أيديولوجية قومية يتطلب الاعتراف بالدور القومي للدين فى الماضى • ومن الأمثلة النموذجية موقف النازيين الذين ترددوا بين الازدراء العلنى للدين والتظاهر بالدفاع عنه ، بين الاشادة بلوثر لثورته ضد روما والأفكار المضادة تماما لمذهب لوثر ، بين الحط من قدر المسيحية « اليهودية » ومحاولات جعل المسيح « آريا » واحياء الأساطير التيوتونية •

وهناك متناقضات مماثلة فى أيديولوجية النزعة القومية لدى أمم أخرى أيضا • فدعاة القومية الفرنسية مثل شارلس مورا مثلا لا يعطفون كثيرا على المسيحية لأسباب مماثلة لأسباب دعاة القومية الألمانية • ولكنهم يؤكدون الدور العظيم الذى قامت به الكنيسة الكاثوليكية فى بناء الجنسية الفرنسية والمدنية الفرنسية • ومن ثم فهم ضد المسيحية ولكن مع الكنيسة الكاثوليكية • بيد أن الكنيسة رفضت مثل هذا الولاء الغريب • فقد اتجه كثيرون من دعاة القومية الفرنسية الى اعتبار الكاثوليـــكى هو الفرنسى الحقيقى الوحيد • وكان دعاة القومية الألمانية من النوع القديم مقتنعين بأن البروتستانت وحدهم هم الألمان الطيبون ، وأظهروا ريبة كبيرة فى الكثلكة ونفورا منها • ويبدو أيضا أن عددا غير صغير من الشعب الانجليزى لايزال

---

(١) قارن فيما يتصل بنمو التسامح المقالات المكتوبة عن التسامح فى دائرة معارف «Die Religion und Gegenwort» ١٩١٣ المجلد الخامس ص ١٢٧١ ، و « دائرة معارف الدين والأخلاق » ١٩٢١ المجلد السابع ص ٣٦٠ •

يعتقد أن الكاثوليكي لا يستطيع الاحساس كانجليزي (١) · وكل جنسية في الحقيقة تريد أن يكون لها دين خاص بها يمثل روحها القومية ·

١٢ ـ تأثير الدين في الطابع القومي

كثيرا ما كان اتخاذ الدين رمزا قوميا مصحوبا بصراعات بين الأمم ، كما أنه كثيرا ما كان يرجع الى أسباب تتعلق بالقوة والهيبة القوميين · وكان من الدوافع القوية العمل على تحقيق الوحدة القومية التي بدت غير آمنة الا على أساس الوحدة الدينية · ومعظم الاضطهادات التي تعرضت لها أقليات دينية كانت موجهة في الحقيقة الى جماعات اعتبرت خطرة على النظام السياسي أو الاجتماعي · ففي انجلترا كانت قضية البروتستانتية مرتبطة لمدة طويلة بقضية الحرية ، في حين كانت الـكثلكة تعتبر في فرنسا وأسبانيا ضمان الحكم الملكي المطلق · ومن الواضح أن هذا الاعتقاد لم يكن أساسه الروح التي تميزت بها بهذه الأديان بقدر ما كان الدور الذي لعبتـه في تاريخ الشعوب التي يتعلق بهـا الأمر · وصحيح أن الدلالات الاجتماعية والسياسية لكل دين لا يمكن أن تكون عديمـة الأثر قط ، ولكن تفسيرها اعتمد دائما على التقاليد التاريخية المعنية وتطلعات الأمة · وقد أدى ظهور الأسلوب الحديث في التاريخ الى زيادة الاهتمام بقيمـة الدين في التقاليد القومية · فضلا عن أن نمو النزعة القومية روج فكرة أن الدين كان نتاج الروح العنصرية للأمة · بيد أن هذه النظرية لا تتفق

---

(١) كتب العميد انج « من المستحيل أن تطيل الحديث مع كاثوليكي دون أن تحس بوجود حاجز لايمكن التغلب عليه ، واذا فكرنا في ماهية هذا الحاجز نجد أننا لانستطيع ان نلجأ باطمئنان الى تلك الغرائز والتقاليد الاخلاقية التي تعد الميراث المشترك لكل الشعب الانجليزي » انظر وليم ·ر· انج « انجلترا » ١٩٢٦ ص ٦٨ · ويهاجم هـ·ج· ويلز في (« دليل الى العالم الجديد » ١٩٤١ ص ٣٥) الكثلكة لا على أنها مذهب غير انجليزي بل لأنها لا تتفق مع أسس الاتصال الاجتماعي : « انك لا تستطيع أن تثق في كاثوليكي متحمس في منزلك أو أن تمنحه ثقتك أكثر مما تستطيع أن تخاطر بالتحدث في صراحـة الى جاسوس نازي أو تختلط به · فالكاثوليكي المتدين لن يكون صريحا معك أبدا · فهناك دائما تحفظ ، فالقس دائما يحوم في الجو ·· واذا تزوجت كاثوليكية فكأنك نصف متزوج فقط وأولادك لا يكونون أولادك بكليتهم · وبصراحة اذا أنت تعاملت مع محل كاثوليكي أو اذا تبرعت للأعمال الخيرية الكاثوليكية أو اذا عهدت بأولادك الى مدرسين كاثوليك فانك تساعد في دعم حملة عدائية ضد الحياة الطيبة » · ان هذه الآراء التي يدعو اليهـا مستر ويلز تشتم منها رائحة القرن السابع عشر لا رائحة القرن العشرين ·

مع التاريخ . فكل الأديان الكبيرة ظهرت فيها مفاهيم مختلفة ، تتأرجح بين طرفين متعارضين من وحدة الاله وتعدده ، بين حرية الارادة وحتمية المصير ، بين محو الذات تصوفا وتأكيد الذات سحرا ، وهكذا بحيث لا يمكن تفسيرها على أساس أنها تعبير عن الميول العنصرية المحدودة بالضرورة . كما لا يمكن اثبات أن مفاهيم بذاتها كانت موضع تفضيل من جانب أجناس بذاتها ، بيد أن الربط بين الأفكار الدينية والطابع القومى بمعنى التقاليد التاريخية أكثر اتفاقا مع الوقائع . فكل دين تشكل الى حد ما بالتجارب والتلطعات القومية كما أثر فيها بدوره . ومن ناحية أخرى رأت كل أمة مثلها الدينية فى ضوء تقاليدها ومن زاوية مزاجها الخاص (١) ، وقد أشرنا من قبل الى أن كلا من الكنيسة اليونانية والكنيسة الرومانية كان لهما تأثير مختلف تماما على الطابع القومى . وينطبق نفس الشيء على المذاهب المختلفة التى وجدت بعد حركة الاصلاح الدينى . فقد كانت معظم الشعوب الكبيرة فى أوربا قد دخلت لتوها فترة من التشكل والنمو الروحى والاجتماعى الخاص عندما بدأت حركة الاصلاح الدينى ، وهذا يفسر لماذا ظلت التقاليد التى تكونت فى هذه الأيام تسيطر الى حد كبير جدا على عقول الأمم حتى الآن ، حتى بعد أن فقد الدين نفسه قسما كبيرا من قوته . ويجب أن نحدد أنفسنا هنا بأمثلة قليلة تصور التأثير الذى كان لبعض الاديان على الأفكار الاجتماعية والسياسية وعلى الفلسفة (٢) .

١٣ – روح الكثلكة وتأثيرها على الطابع القومى فى انجلترا وفرنسا والمانيا .

نما فى كنيسة العصور الوسطى العديد من نظم الفكر ، تجتمع تحت اسم « المدرسيين » ، تبلورت فيها فلسفة مسيحية صارت التقليد

---

(١) « اتسمت جميع العصور وكل الأمم بحماسة وشغف فى الرجوع بجذور مثلها العليا اليه (هو) ... فهل يكون من غير اللائق أن نقول ان « مسيح » رينان كان فرنسيا ، و « مسيح » سيلى كان انجليزيا و «مسيح» بعض المؤرخين الألمان الحديثيين ألمانى من النموذج الجديد ؟ و.ر. اينج » المثل العليا الشخصية والتصوف » ١٩٠٧ ص ٨٩ . ويعرض جوستاف فانمولر فى «Jesus im Urteil der Jahrhunderte» ١٩٠٨ ، المفاهيم المختلفة عن شخصية المسيح فى ضوء العصور المختلفة .

(٢) وصف الروح الاجتماعية للكنائس ارنست ترولتش فى «Die Soziallehren der christlichen Kirchen und Sekten» ١٩١٢ .

الأساسي للكثلكة • وكان الهدف العام هو التوفيق بين العقل والوحي • بين الطبيعة البشرية وأسرار الايمان • ولهذا حاول « المدرسيون » الجمع بين فلسفة الانجيل والفلسفة الاغريقية وفلسفة العرب واليهود ، وفي نفس الوقت كان رجال القانون الكنسي يدمجون أجزاء كبيرة من القانون الروماني في اللوائح الدينية وكان رجال الدولة من الدينيين في جميع البلاد يضعون باستمرار حلولا وسطا بين مبادىء المسيحية وضرورات الوقت والمكان • ومن ثم كانت تحدو الكنيسة الرومانية موجة نشاط فكري قوية والايمان بقدرة العقل البشري على فهم خطط الله ، وبقدرة الارادة البشرية على التصرف طبقا لما جاء فيها •

بيد أن هذا الايمان لم يكن تفاؤلا غير محدود • فالعقل المقصود لم يكن عقل كل فرد بصرف النظر عن تربيته وتجربته وأخلاقه ، بل عقل النخبة بين رجال الكنيسة الآباء الكبار والقديسين والمفكرين وكبار رجال الدين ، تحت القيادة الملكية للبابا •

وصحيح أن هذه العقلانية كانت مقيدة من كل جانب بعدة عوامل مثل الطابع المقدس لكل كلمة في الانجيل ، واغراءات التفسير الرمزي والتأمل الصوفي ، وسلطان المعلمين الكبار في الماضي ، والمصالح السياسية والتدرج الكنسي وتخلف المعرفة العلمية والنقد العلمي • ومع ذلك فقد كانت « المدرسية » Scholsticism تدريبا ضخما على التفكير • فقد وضعت أسس العلوم السياسية والطبيعية ، وكانت تزخر ببذور الأفكار المتقدمة ، وحتى نتائجها السلبية كان لها على الأقل تأثير في اثارة روح التسامح لدى المفكرين المتقدمين (١) •

---

(١) وصف هرمان رويتر ظهور العقلانية في العصور الوسطى بالمعنى الواسع في كتابه «Geschichte der religiosen Aufklarung im Mittelalter» الذى طبع فى ٧٥ ــ ١٨٧٧ ، كما حظيت نقائص كثلكة العصور الوسطى وخرافاتها باهتمام مؤرخ عالم آخر هو : ج•ج• كولتون فى « عشر دراسات عن القرون الوسطى » ١٩٣٠ و « خمسة قرون من الدين » ١٩٢٩ • ووصف جوستاف شنورر مساهمات الكنيسة فى المدنية من زاوية كاثوليكية فى كتابه «Kirche und Kultur im Mittelalter» الذى ظهر فى ثلاثة مجلدات ٢٤ ــ ١٩٢٩ ، وكذلك جورج كروب فى كتابه
«Kulturgeschichte des Mittelalter»
الذى ظهر فى ستة مجلدات : الطبعتين الثالثة والرابعة ١٩٢٣ ــ ١٩٣٢ ، وفيما يتعلق بالنظريات السياسية والاجتماعية انظر كارلايل وترولتش •

وقابلت روح التفاهم النسبية لدى الكنيسة القديمة روحا مماثلة في عدة امبراطوريات حاولت أن تخلق وحدة روحية واسعة · بيد أن ذلك كان ينطوى على خطر التساهل الاخلاقي والديني ، وكانت حركة الاصلاح الديني الى حد كبير تمردا ضد هذا التساهل الذي ظهر في تصرفات الكنيسة المتسمة بالفساد الشديد · وترجع الأهمية القصوى للبروتستانتية في نمو الأفكارالحديثة الى أنها أحيت روح عدم التسامح فيالدين والحماسة للفضيلة : وقد نقيت الكنيسة الكاثوليكية أيضا في حركة الاصلاح المضادة ومن ثم صارت أكثر صرامة · بيد ان نبذ التفاهم أدى من ناحية أخرى الى « التطرف الراديكالي » في كل ميدان · ومهدت العناصر التي تعمل على المساواة في المسيحية السبيل لمقدم الديموقراطية الحديثة والجنسية الحديثة ، وعاش الجدل الديني في الخلافات الحادة التي تثور بين الاساتذة والمفكرين المحدثين ·

وقد اعتنق الانجليز المسيحية بحماس أكثر من بقية الشعوب التيوتونية (١) · وتأثرت القوانين والأنظمة الانجلوساكسونية بالكنيسة أكثر من أنظمة الفرانك وقوانينهم · وكسب المبشرون الانجليز بلادا واسعة في القارة لروما · وعندما هدأت هذه الروح جاء النورمانديون الذين تأثروا بعمق بالاحياء الديني الذي انبثق من دير «كلوني»(٢) . وتجددت الحماسة الدينية مرة أخرى بمجيء الفرنسيسكان والدومينيكان الذين قوبلوا بحماسة أكبر ، وكان لهم نفوذ أقوى على الملوك والنبلاء والشعب ، وأسهموا مساهمة فعالة في تقدم أعمال البر والعلم والدراسة (٣) · وكان لهم دور كبير أيضا في الاعداد للبرلمان وانشائه ، وفي الحركات الثورية في أواخر العصور الوسطى دافعوا عن الفقير ودعوا حتى

---

(١) وهذه الحقيقة تؤيدها مقارنة تفصيلية لنفوذ الكنيسة في أنظمة الشعوب التيوتونية المختلفة وتقاليدها آمل نشرها فيمكان آخر ، اذلايسمح هذا المجال بتلخيصها الآن ·

(٢) ت· كبرنويل « الكنيسة والغزو النورماندى » ١٩٠٩ · و · ستيفنس «الكنيسة الانجليزية من الغزو النورماندى الى عهد ادوارد الاول » ١٩٠٩ ·

(٣) انظر شهادة البرت أوف بيزا في كتاب ادوارد هاتون « الفرنسيسكان في انجلترا » ١٩٢٦ ص ١١٢ · ويقول فلدر « ان الأمة الانجليزية أهدت الفرنسيسكان عددا من العلماء البارزين أكثر من جميع الأمم الاخرى مجتمعة ، وكان كل كبار الخبراء من الانجليز باستثناء القديس بونا فنتورا » من كتاب هيلا ريوس فلدر «Geschichte der Wissenschaftlichen Studien im Franzis kanerorden bis um die Mitte des 13 Jahrhundersts» ١٩٠٤ ص ٢١٦ ·

الى الشيوعية(١) . وكان الكفر في انجلترا أقل منه فى أى مكان آخر ، ولم تظهر هناك قط محاكم التفتيش . وكانت الضريبة الدينية فى انجلترا هى عصب خزانة البابا ، ولكن الحروب الصليبية لم تثر الحماسة التى أثارتها فى فرنسا وقد قاوم الملك والبرلمان منذ مرحلة مبكرة افتئاتات البابوية مقاومة ناجحة ، ولم يكن الكفاح بها مريرا بقدر ما كان فى ألمانيا وفرنسا . ان وايكيليف نشر المبادىء الأساسية فى الاصلاح الدينى قبل لوثر بمائة وخمسين عاما (٢) . وقد نمى الفكر الانجليزى فى العصور الوسطى بصفة خاصة الجوهر العقلى للفلسفة المسيحية . « فتجريبية » روجر بيكون و « اسمية » وليم أوف أوكام تنطويان على عناصر كثيرة تقابل الاتجاهات المميزة فى الفكر الانجليزى الحديث (٣) . ومن ناحية أخرى كانت انجلترا أقل الأمم مشاركة فى روحانية العصور الوسطى . ومما يدعو الى التأمل حقا عدم وجود الروحانيات فى الأديرة الانجليزية التى لم تظهر فيها أية شخصيات يمكن مقارنتها بكبار الصوفيين الألمان (٤) .

وتدين الكنيسة فى ألمانيا وفرنسا بتنظيمها وتربيتها لبوينفاس والكوين الانجلو ساكسونيين الى حد كبير . بيد أن الكنيسة أصابها بعد

---

(١) لقد شنق كثيرون منهم بسبب دعايتهم . انظر آرثر ينينجز « كنيسة العصور الوسطى والبابوية » ١٩٠٩ ص ٢٠٧ ومابعدها ، وبيد جاريت «الدومنيكان الانجليز» ١٩٢١ ص ١٧ ، ١٤٩ . وفيما يتصل بتأثيرهم على البزلمان انظر أ. باركر « الدومينكان ومجالس الاكليروس » ١٩١٣ ، وكذلك نقد أ . بولار « تطور البرلمان » ص ١٣٧ . ويطلق كولتون فى « عشر دراسات من العصور الوسطى » ١٩٣٠ ص ٥٨ على الفرنسيسكان « الأصول العليا للتطهرية » ويصفهم بأنهم تطهريون بالمعنى التعصبى للكلمة .

(٢) بيد أن روحها كانت مختلفة ، فلوثر كان مدفوعا أساسا بنزعة دينية فى حين أن وايكليف ، كما يقول هيرنشو كان وقميا أولا وقبل كل شيء آخر . انظر ف. هيرنشو فى « الافكار الاجتماعية والسياسية لدى بعض كبار مفكرى العصور الوسطى » ١٩٣٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

(٣) فيما يتصل بالسمات القومية لفلسفة العصور الوسطى انظر كارل فيرنر «Die Scholastik des späteren Mittelalters» ١٨٨٧ المجلد الرابع ج١ ص ٥ و أ. دمف « الامبراطورية المقدسة » ١٩٢٩ ص ٣٥٥ .

(٤) ايلين باور « أديرة الراهبات الانجليزيات فى العصور الوسطى» ١٩٢٢ ص ٢٣٩ . والفرق الروحى بين الاديرة الانجليزية والالمانية فى رأيى يرجع بعضه الى الظروف الاجتماعية ويرجع بعضه الى أن الأديرة الانجليزية كانت تحت اشراف البندكتين والسيسترسيان الذين كانوا يمثلون الروح الفيودالية أكثر من الدومنيكان الذين كانوا يشرفون على الأديرة فى ألمانيا .

شرلمان الدمار بتقدم الفيودالية التى انتقلت عدواها الى روح الكنيسة نفسها ، وصار دير كلونى مكان ميلاد حركة تدعو للاصلاح الدينى ، ومركزا للعمل على تحريرها من سيطرة السلطات الدنيوية فى جميع أنحاء العالم المسيحى (١) • وكان من بين الانجازات المميزة للكنيسة الفرنسية ترويض النبلاء المحاربين شبه البرابرة وتطوير الفروسية الفرنسية بما انطوت عليه من قواعد الشرف الرفيعة والمدنية الرائعة اللتين كانتا موضع اعجاب الفرسان فى جميع البلاد وتقليدهم • وقد خلقت هذه الفروسية مثلا عليا كان لهـا أقوى تأثير عدة قرون فى تكوين العقل القومى (٢) • وكان من بين هـذه المثـل مفهوم روحى جديد للعلاقة بين الجنسين : ظهور فكرة رومانسية عن الحب • وكان تأثير الكنيسة فى بناء الأمة واعداد الوحدة القومية حاسما كما فى انجلترا •

وقد تميزت تقوية السلطة الملكية فيها أيضا بصراعات حادة مع البابوية ، وبمحاولة اقامة كنيسة قومية ، وكان أعظم عوامل الفخر لفرنسا علمها « المدرسى » ، ولكن كبار المعلمين فى جامعة باريس كانوا من الانجليز والايطاليين والألمان ،ومع ذلك فان تفضيل العقلانية التى تسيطر الآن على المدنية الفرنسية يرجع بعضه الى ميراث ذلك العهد • بيد أن العداء الفرنسى للكنيسة قديم جدا أيضا • « فالمدرسية » انتهت الى حد كبيربالشك ، وهدم انتشار « عبادة الكون » التى جاءت من العرب واليهود دعائم الأورثوذكسية • وكانت ألوان الكفر فى جنوبى فرنسا التى من أصل شرقى والعداء نحو الكنيسة قد انتشرا جدا قبل أن تستأصلهما الحروب الصليبية البربرية ضد الالبيجنسيين ، وظهر فيها أيضا متصوفون كبار ، خصوصا الذين من النوع العاطفى ، وان كان قد ظهر فيها بعض المتصوفة التأمليين • وفى الفن بلغ الشعور الدينى ذروته فى هندسة البناء القوطية التى انتشرت من فرنسا الى جميع البلاد •

وفى ألمانيا أقامت الأسرة المالكة السكسونية سلطتها على الكنيسة ، حيث كان اللوردات العلمانيون ممن لا يعتمد عليهم مطلقا • وتلقت الكنيسة هبات وامتيازات ضخمة ، ولكنها كانت تحت سيطرة الامبراطور تماما ،

---

(١) انظر البرت هوك «Kirchingeschichte Deutschlands» ١٩٠٠ المجلد الثانى ، و ك• فيرز «Alkium und Sein Jahrhundert» ١٨٧٦ •

(٢) لقد لجأ السياسيون الراديكاليون والاشتراكيون فى فرنسا الى المبارزة من أجل الشرف فى القرن العشرين ، فأثبتوا قوة تقاليد الفروسية .

وأدى ذلك الى الصراع الكبير مع البابوية الذى سوى فى آخر الأمر « باتفاق وورمز » ٠

بيد أن الأباطرة فقدوا نفوذهم فى بداية القرن الثالث عشر ، ووقعت الكنيسة فى أيدى النبلاء ٠ وارتقى معظم الأساقفة ورؤساء الأديرة الى مصاف حكام الامارات ، وصارت الأديرة تقريبا مجرد مؤسسات لاعالة النبلاء وجلب المكاسب لهم (١) ٠ وقد ظهر فى التاريخ الكنسى الألمانى كثير من رجال الكنيسة العظماء والقديسين ، ولكن النوع السائد ظل فترة طويلة هو الأسقف الذى يقضى حياته كالنبلاء الفيوداليين فى القنص والخمر والنساء ٠ وكان كثيرون من هؤلاء الأساقفة محاربين أشداء لا تأخذهم رحمة ، بل يجدون متعة فائقة فى القتال ، ولهذا ارتكبوا أبشع الفظائع ضد الناس ٠ وعندما انتخب ريتشارد اوف كورنوول امبراطورا وجاء الى المانيا أدهشه ذلك الوضع الغريب فى الكنيسة الألمانية ٠ وكتب الى شقيقه هنرى الثالث ملك انجلترا : « ان هؤلاء الأساقفة الألمان محاربون يتصفون بالعنف : وقد قال كايزاريوس أوف هيسترباخ : ان رجلا فرنسيا ذكر أنه يستطيع أن يصدق أى شىء ولكنه لا يصدق أبدا أنه يمكن خلاص روح الأساقفة الألمان » (٢) ٠

وكانت السمة البارزة للفكر الألمانى فى العصر الوسيط هى النمو غير العادى للتصوف الدينى الذى نما أساسا فى الأديرة تحت التوجيه الروحي للدومينيكان ، ومثله رجال دين علماء وكثير من الراهبات ذوات النبوغ الواضح ٠ وقد اعتبر هيجل والرومانسيون هؤلاء المتصوفة واضعى أسس الفلسفة الألمانية والتعبير المميز للروح الألمانية ، وكرر هذا الرأى مرارا من مؤلفين لا حصر لهم ، وصار عقيدة قومية تهدف الى الاشادة بالتعمق الألمانى والاتجاه الروحى على حساب السطحية والمادية الغربية ٠

---

(١) انظر آلويز شولت «Der Adel und die deutsche Kirche im Mittelalter» ١٩١٠ و أ ٠ ورمنجوف «Verfassungsgeschichte der deutschen Kirche» ١٩١٣ ص ٦٠ و ٦٩ ٠ وفي اسكوتلندا أيضا أدت قوة النبلاء الى فساد الكنيسة ٠ وكان نصيب الكنيسة فى بناء الدولة الحديثة وعدد المستشارين الكنيسيين أقل بكثير منه فى انجلترا : « ان حالة الكنيسة ، التى كانت بدون شك أسوأ بكثير منها فى انجلترا ، تفسر الى حد كبير عنف حركة الاصلاح الدينى الاسكتلندى وشدته » ر٠ ريت «تاريخ اسكتلندا » ص ١٢٤ و ١٣٠ ٠

(٢) كايزاريوس أوف هيسترباخ « محاورة في المعجزات » الفصل ٢٧ ٠

بيد أن البحث الحديث بين أن التصوف الألماني تأثر الى حد كبير جدا بالأنماط الأجنبية ، فسار جانبه التأملي على طريق الأفلاطونية الجديدة ، وسار جانبه العاطفي فى الطريق الذى رسمه برنار أوف كليرفو وفرنسيس الأسيسى (١) • وكانت ألمانيا متخلفة عن فرنسا وانجلترا وايطاليا فى فلسفة «المدرسيين» ، التى تعتبر النوع العقلانى من الفسلفة المسيحية ، على الرغم من أنها تعد البرتوس ماجنوس من بين أبنائها• ويرجع السبب فى ذلك الى أن الجامعات التى كانت مراكز « المدرسية» ، أنشئت فى ألمانيا بعد هذه البلاد بوقت طويل • ومن ثم التجأ الفكر فى الغالب الى الأديرة التى نجت من تأثير فساد الكنيسة ، بيد أن هذه الأديرة ، وأكثر منها أديرة الراهبات ، كانت تشجع التصوف • فضلا عن أن الظروف السياسية والكنيسة فى ألمانيا دفعت كثيرا من المسيحيين الصادقين الى الانسحاب من العالم الذى بدا أنه يسيطر عليه الشيطان ، وأن يتلمسوا ملاذا فى أغوار أرواحهم ، وينغمسوا فى التأمل التصوفى • وكان بلوتينوس ، الأستاذ القديم لأعظم المتصوفين الألمان ، ينتمى أيضا الى عصر ساده الانحلال والدمار القومى • وصار التقليد الصوفى من أقوى العوامل فى التطور الدينى والفلسفى والشعرى فى ألمانيا • لقد تأثر لوثر والميتافيزيقيون الحديثون والرومانسيون جميعا بالأفكار التصوفية تأثيرا شديدا •

١٤ ـ لوثر والعقل الألمانى

فى أواخر العصور الوسطى كانت شكوى الشعب الألمانى ضد الكنيسة أكثر مرارة من الأمم الغربية ـ فى انجلترا وفرنسا واسبانيا ، التى كانت قد أحرزت فعلا تقدما كبيرا فى تأميم كنائسها والتى يغلب أنها كانت تعانى أقل من الألمان من ضغط مطالب البابوات ورجال كنائسها الخاصة • ولم تكن دوافع لوثر فى القيام بثورة ضد البابوية ومذهبها قومية ولا سياسية ، بل دينية • فقد انحصر تفكيره فى العلاقة بين الله وروح الفرد كأى قديس كبير من قديسى العصور الوسطى ، وكان اتجاهه كله الى حد كبير جدا اتجاه العصور الوسطى (٢) •

---

(١) مارتن جرايمان «Die Kulturwerte der deutschen Mystik des Mittelalters» ص ٥ و ١٠ و ٢٣ و ٤١ و ٦٢ و ١٢٣ •

(٢) يعترف كثير من المؤرخين البروتستانتيين البارزين اليوم بقوة عنصر العصور الوسطى فى لوثر ، وان كان قد عاد فى بعض النقاط المهمة الى بول ، وفى بعض المسائل=

ولكن مزاجه العنيف وخشونته المقاتلة كانتا نقيض صـــــفات القديسيين • وكان مفهومه عن الطبيعة البشرية متشائما جدا • فقد قال عن العقل : انه « عاهرة الشيطان التى لا تستطيع أن تفعل شيئا سوى التجـديف والخـلط من كل ما يقوله أو يفعـله الله » • وينظر الى الارادة البشرية على أنها مكبلة تماما ولا تستطيع أن تتجنب الخطيئة الا برحمة من الله • وكل المعرفة البشرية ليست سوى هراء ، وفضائل الاقدمين مجرد رذائل لامعة • وبدت محاولة ايرازموس لاظهار الاتفاق بين المسيحيـــة والعقل الطبيعى ــ التى كانت أيضا هدف المدرسيين ــ شيئا فعليا للوثر • ان المسيح جعل الحب فوق كل شىء آخر ، وقال : أننا يجب أن نصفح عن من يخطىء من اخوتنا سبعين سبعة من المرات • ولكن لوثر صاح مرعدا « لعنة الله على الحب فى أعماق الجحيم اذا كان فيه أضرار بالايمان » •

ولم يهتم لوثر بالسياسة ؛ فكل ما على المسيحى هـــو طاعة أوامر حكومته مهما كانت قاسية وغير عادلة • فكل حكم من أمر الله ، والحكام الشريرون عقاب ينزله الله برعاياهم لخطيئتهم • ولم يعترف لوثر بأى حق فى المقاومة • وقد قال : « انه من الأفضل أن يرتكب الطغاة الخطأ فى حق الشعب مائة مرة من أن يخطىء الشعب مرة فى حق الطغاة » • فانحطاط الطبيعة البشرية لايكبته سوى الحكم الصارم• والمحافظة على النظام والأمن يتطلب عدالة صـــارمة بلا رحمة • وعنـــدما ثار الفلاحون المضطهدون على

= الاخرى تكونت لديه مفاهيم عصرية أكثر . بيد أن مدرسى العصور الوسطى كانت لهم أفكار أكثر تقدما بكثير من لوثر فى عدة قضايا ، وبخاصة فيما يتعلق بالحرية السياسية والاجتماعية وحقوق الشعب والتســـامح والخرافات والتجـــارة • انظر مثلا ترولتش فى «Soziallehern» ص ٤٢٧ ، و أ•ف• هارناك «Domengeschichte» ١٨٩٨ ص ٣٨٠ «Die Reformation und ihre Voraussetzungen» (فى «Erforschtes und Erlebtes» ص ٧١ ــ ١٤٠) ، وه• بومر «Luther im Lichte der muren Forschung» ١٩١٣ ص ١٣٤ ــ ١٤٩ ، وك• هول «Gesammelte Aufsätze Zur Kirchen Geschichte» المجلد ١٩٢٧ (ضد ترولتش) • ومن أهم المؤلفات لفهم حركة الاصلاح الدينى الالمانى البحث العظيم الذى كتبه فردريك فون بيزولد «Geschichte der deutschen Reformation» ١٨٩٠ • وكذلك فون رانك Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation ١٨٩٠ ، وه• جريسار «S.J. Luther Leben und sein Werk» ١٩٢٧ ، ور • باسكال « الاساس الاجتماعى للاصلاح الدينى الالمانى » ١٩٣٣ ، ج•فون بيلو «Ursachen der Reformation in Hist. Zlachr. ١٩٦ ، وف• مانيكه «Germeinwessen und christlichen staat» «Hist. Ztschr» ١٩٢٠

مضطهديهم وطالبوا بالغاء نظام القن باعتباره مخالفا لمبـــادىء المسيحية رفض لوثر مطالبهم المعتدلة بعنف شديد جدا ، وحث الأمراء والنبلاء فى ألفاظ شديدة القسوة ألا يظهروا أية رحمة · وأخمد التمرد فى سيول من الدماء وانتقم النبلاء أبشع انتقام · وقد قال لوثر فيما بعد : « أنا مارتن لوثر قد قتلت جميع الفلاحين المتمردين لأنى نصحت بقتلهم – وكل دمائهم فوق رأسى – ولكنى أعزو الأمر لله لأنه أمرني بأن أقول ذلك » ·

وقد كانت نظرة لوثر المظلمة الى الطبيعة البشرية هى التى دعته الى عدم الثقة فى الناس · فقد أصر على أنه يجب كبح السكان بشدة لأن « الحمار يحتاج الى الطعام والحمل والســـوط » · وقد رأى ميلانختون ، تلميذه الأول ومساعده ، أنه حتى نظام الاقنان نظام أفضـــل مما ينبغى « بالنسبة لشعب همجى فظ مثل الألمان » · وصحيح أن لوثر كان يرغب فى حكم أبوى مسالم ، فالأمير يجب أن يحكم كالأب فى أسرته . والواقع أن كثيرا من الحكام الألمان استمعوا الى هذه النصـــيحة وحكموا اماراتهم الصغيرة بطريقة أبوية الى حد يزيد أو ينقص · وبعضهم قام بجهود كثيرة فى أعمال البر والتعليم · بيد أن الكارثة فى تأثير تعاليم لوثر على العقل الالمانى هى أنها غرست فى الألمان الخضوع الكامل للحكومة ، وأنها كانت لا تحررية ولا ديموقراطية بصورة مطلقة ، وأنها مهدت السبيل لمذاهب جاءت بعد ذلك تمجد القوة والعنف فى خدمة النزعة العسكرية والقومية· ولم يكن لدى لوثر رسالة خاصة للأمراء ولكنه من الناحية العملية شجع الحكم المطلق عن طريق أن الحكام وقعت فى أيديهم سلطة كاملة على الكنائس وممتلكات الكنيسة ·

ويشيد دعاة القومية الألمانية الحديثون بلوثر باعتباره أعظم بطـل قومى وأنه كان التعبير الحقيقى عن الروح الألمانيـــة · والواقع أن لوثر كثيرا ما أثار العـداء القومى لتحقيق أغراضه فى هجماته ضد البابوات ، ولكن الجنسية والوطنية بوصفهما هذا لم يكن لهما فى نظره قيمة · وهو يعرف « الأمة الألمانية » بأنها الحكام الذين عهد اليهم الله بالشعب · ومن ثم فان فكرة « الأمة » كانت غريبة عليه وما كانت لتستطيع أن تنمو فى جو اللوثرية الأورثوذكسية · وقد تعلم آل هو هنزللرن ، الذين وضعوا أسس الجنسية البروسية فيما بعد ، الكثير من هولاندا الكلفينية وفرنسا الكاثوليكية ، واعتنقوا الكلفينية هم أنفسهم · وقد أغرقت الثورة التى بدأها لوثر ألمانيا فى نزاع داخلى فظيع وعجز خارجى · وقد زعم الأمراء

البروتستانتيون انهم يدافعون عن « الحرية الألمانية » ضد « الطغيان الأسبانى » ، ولكنهم كانوا على استعداد دائما لبيع المصالح القومية لملك فرنسا • وقد تعثر التقدم نحو الوحدة القومية وتكوين « الأمة » ، وظلت ألمانيا أمدا طويلا متخلفة عن الدول الغربية فى كل شيء ، وفقدت نصيبها فى « العالم الجديد » عبر البحار بسبب الصراعات الداخلية • وكان لهذا الوضع أثر عميق فى العقل الألمانى وأدى الى المطالبة «بمكان تحت الشمس» والى كارثة عصرنا •

وكان أهم تأثير للوثر هو تأثيره على الأخلاق الألمانية • فقد استمدت تعاليمه الأخلاقية والاجتماعية العملية من « العهد القديم » الى حد كبير ، وان كان ذلك لم يمنعه من اثارة الألمان ضد اليهود بعنف لم يفق عليه فيه حتى هتلر • وكان التركيز الرئيسى لمفهوم لوثر عن الايمان والتقوى على الحالة الذاتية للروح ، فى حين لم يكن للأعمال قيمة عنده • وقد أثر هذا الموقف فى اتجاه تطور الفلسفة الأخلاقية الألمانية كلها • فمنذ ذلك الوقت ركز كل الفلاسفة الألمان تقريبا اهتمامهم على الجانب الذاتى للفضيلة ، ورفضوا أى اهتمام من أجل السعادة الانسانية والتحسين الاجتماعى الذى كان له أكبر دور فى الفلسفة الانجليزية •

ومن اليسير أن نقارن بين أقوال لوثر وأقوال المسيح ونرى الى أى حد لا يمكن التوفيق بينها • ومع ذلك فان لوثر اعتقد باخلاص أنه ينطق بأمر من الله ، كما فعل عندما وضع مسئولية مذبحة الفلاحين على الله • وهناك ما يقابل ذلك فى روح دعاة القومية الألمان الذين يرون أفظع الاعتداءات وأقسى أنواع الهمجية على أنها مجرد دفاع عن النفس ضد النيات السيئة للأمم الأخرى ، وكخدمة « للثقافة » • وكثير من السمات المسيطرة على الروح الألمانية مثل تفضيل التصوف على العقل والتطرف على الحل الوسط والبطولة على الادراك السليم والاعتقاد فى أنهم يعملون بوحى الله وهم يتصرفون كالشيطان يمكن تتبعها الى شخصية لوثر ، وان كانت هناك عوامل أخرى أيضا تركت أثرها فى نموها • وحتى « سوبرمان » نيتشه يعد من سلالته الشرعية (١) • وفى نفس الوقت هناك أيضا الرجل الالمانى الذى يختلف عن ذلك تمام الاختلاف — رب العائلة الطيب الذى لا يكل ويعمل بضمير فى كل ميدان ، حالم يصبو الى النجوم ، ومتأمل يعجب بالطبيعة ،رجل سهل يحب«الخمر والنساء والأغنية». وكل هذه التقاليد

---

(١) وقد أثبت ذلك بطريقة مقنعة أحد رجال اللاهوت المبرزين والمدافعين بحماسة عن لوثر هو كارل هول ، فى المرجع السابق ص ٥٣٣ •

أيضا مدينة بالكثير للوثر ٠، فقد أثر فى المدنية الألمانية بعدة طرق ٠ ففى الجو السائد فى منزل « قس الناحية » نشأ عدد لا يحصى من الألمان الدارسين . وقد كان للعنصر الصوفى فى ايمان لوثر مغزى بعيد الأثر فى نمو الفلسفة والشعر والموسيقى الألمانية ٠ وقد مهد السبيل بصفة خاصة للرومانسية وعبادة الكون اللذين ألهما كثيرا من الشعراء والفنانين العظام، ولكن كان لهما نصيب كبير أيضا فى تحطيم المعايير المسيحية فى ألمانيا الحديثة (١) ٠ ان هيجل وفاجنر ونيتشه وبسمارك وتريتشكه حملوا تقاليد اللوثرية وحولوها الى صورة لو كان رآها لانزعج اشمئزازا .

١٥ ـ الكلفنية والطابع القومى

ان بروتستانتية لوثر لم تستطع الدفاع عن نفسها ضد الحكام والنبلاء الذين عملوا على استغلال الدين لصلحتهم الأنانية الخاصة ٠ وصارت الكنيسة مهددة بأن تصير مجرد أداة فى يد الدولة مثل الكنيسة الشرقية. وفى هذه اللحظة قام كلفن يؤكد بقوة استقلال الكنيسة ، وبذلك كانت دعوته استمرارا لسياسة البابوات العظام الذين نازعوا السلطات الزمنية من أجل الحرية ، وعمليا من أجل سيادة السلطة الروحية على السلطة الزمنية (٢) ٠

وبرغم أن المبادىء الدينية الأساسية لدى كلفن هى نفس مبادىء لوثر تقريبا ، فان تأثير الكلفنية على الطابع القومى كان مختلفا تماما عن تأثير اللوثرية ٠ فعند لوثر كان الله يبدو أبا محبا وسعت رحمته كل من آمن به باخلاص ٠ وكان الدين أولا أمرا يتعلق بالتقوى والخشوع ، وكل من وضع ثقته باخلاص فى الله يستطيع أن يثق تماما فى الخلاص ٠ فى حين تصور كلفن الله حاكما صارما جليلا اختار بعض الأشخاص بطريقة تحكمية للخلاص وحكم على الباقين بالجحيم ليزيد من مجده ٠ فبالنسبة له كان الله أولا قوة وارادة ، والعمل بنشاط فى خدمة الله هى أفضل دليل على أن الانسان ينتمى الى النخبة المختارة ٠ وكان لوثر يريد انقاذ أرواح الأفراد ولا تهمه المجتمعات ٠ وفضل المعاناة بصبر على العمل ، وترك الشئون العامة فى يد السلطات القائمة ٠ فى حين كان هدف كلفن هو

---

(١) ومن ناحية أخرى أثر لوثر أيضا فى الرواد السابقين للكويكرز وويسلى ٠

(٢) برنارد لورد مانتج « كيف تكون الدين الانجليزى الحديث» ١٩٢٩ ص ٩٤

اقامة الحكم الدينى الكامل مجتمع من القديسين ، أو شعب الله المختار على نمط « العهد القديم » . وأكد على النظام الأخلاقى الصارم وعلى التقشف المخلص فى العمل والكفاح كوسيلة لضبط النفس . فلم يكن هناك مجال للتسامح فى مجتمعه ، اذ كان عديم الثقة فى الناس مثل لوثر تماما ، ورفض كل حق فى الثورة وان كان قد حبذ الدفاع عن الحقوق القائمة بواسطة سلطات تقام لهذا الغرض مثل جمعيات « الطبقـــات الثلاث » . بيد أن الأحداث أضفت على الكلفنية اتجاها ثوريا . ففى عدة بلاد اعتنقها النبلاء فى صراعهم ضد الحكم الملكى المطلق . وفى اسكتلندا نظم جون نوكس الكنيسة على أسس ديموقراطية وضد التدرج الكنسى . وقد أمسك خليفته آندروملفيل ذات مرة برداء الملك جيمس السادس وناداه بالتابع الغبى لله .. وقال له : ان هناك ملكين ومملكتين فى اسكتلندا ، المجتمع المدنى تحت حكم الملك جيمس والكنيسة تحت حكم المسيح (١) . ولا عجب فى أن الكلفنية فى فرنسا ، حيث كانت القضية القومية والملكية تعتبران شيئا واحدا عند الـكثيرين ، بدت خطرا على الوحدة القوميـة ، وعلى هذا الأساس تقرر مصيرها . وفى المسائل الاقتصادية كانت الكلفنية أقل عداء للرأسمالية من اللوثرية ، بل انها شجعت نموها الى حد ما وان لم يكن ذلك قصدا (٢) .

١٦ ــ الكنائس البريطانية والطابع القومى

ان كنيسة انجلترا تفخر بروحها التقليدية التى تتسم بالاعتـــدال والتسامح وتؤكد أن هذه الصفات تقابل الطابع القومى . وليست تعاليمها المذهبية وطقوسهـا تجديدات ثورية ، بل هى استمرار للفـكر المسيحى القديم وما جرى عليه العمل ، وهى تحافظ على طريق وسط بين الاتجاهات المتطرفة ، ويتمتع رجال الكنيسة وأعضاؤها بقدر كبير من الاستقلال فى معتقداتهم . وصحيح أن الكنيسة لم تكن متسامحة دائما ، وكثيرا ما وجه

(١) وكانت هذه هى بالضبط نظرية كنيسة العصور الوسطى . انظر أ. جيركه « النظريات السياسية فى العصور الوسطى » ١٩٠٠ ص ١٠٤ .

(٢) انظر فيما يتصل بالموضوع الذى ثار حوله جدل كثير ، تأثير الكلفنية فى نمو الرأسمالية كتاب ماكس ويبرت Gesammelte Aufsätze Zur Religionssoziologie ١٩٢٢ مجلد ، ونقد ر.تونى «الدين وظهور الرأسمالية»١٩٢٦ ص ٢١٢ و ٢٢٦ و ٣١٩ ، وكذلك نقد ج. كراوس «S.Z. Scholastik, Puritanismus und Kapitalismus» ١٩٣٠ .

اليها النقد الشديد فيما مضى لتبعيتها للسلطات الحاكمة . بيد أنما تدعيه وتفخر به له ما يبرره مع بعض التحفظات المعينة . وكان السبب الرئيسى فى الروح المعتدلة للكنيسة الانجليكانية هو رغبة الرجال الذين وجهوا سير الاصلاح الدينى الانجليزى فى أن يجعلوا الكنيسة قومية وفوق القومية فى نفس الوقت ، باضفاء سمات قومية عليها والاحتفاظ بوضعها كعضو فى الكنيسة العالمية فى ظل «مجلس عام» (١) . وكانت تحدوهم فى ذلك فكرة قيام كونفدرال عالمى يؤلف نوعا من عصبة الأمم الكنسية . وكانت هناك عوامل أخرى هى عناية هنرى الثامن واليزابث ووليم الثالث بالوحدة القومية ، واتجاه أغلبية الأمة الى المحافظة ،واعتدال كرانمر واتساع أفق هوكر ، ثم تأثير روح « الاستنارة » فيما بعد .

بالاضافة الى أن الطابع الانجليزى تأثر بشكل حاسم بنشاط « الكنائس الحرة » ، التى اتفقت ، برغم اختلاف وجهات نظرها ، فى محاولة احياء الروح المسيحية الحقيقة . فالشيع التطهرية ،مثل «المستقلين» تعرضت للاضطهاد فصارت رائدة فى الدعوة للتسامح والديموقراطية وحاولت تحقيق المثل العليا للمجتمع المسيحى فى مجاهل «الدنيا الجديدة»، ورأى «الكويكريون» جوهر روح المسيحية فى نبذ العنف والتضحية بالنفس والحب الأخوى . وحاول « الموحدون » الجمع بين الفكر المسيحى والفكر المستنير والفكر الانسانى . وقرب « النظاميون » المسيحية الى الجماهير مرة أخرى ، وكان لهم نصيب كبير فى تنمية الوعى الاجتماعى .

واذا بحثنا الى أى حد تتفق المثل العليا فى الأمم الحديثة مع المعايير المسيحية فسنجد البريطانيين فى الغالب على رأس القائمة ، وان كان لا يمكن القول بأن الدوافع التى وراء نمو تقاليدها وأنظمتها كانت دينية أساسا . فالميل الى السلام مثلا ليس وصية مسيحية فحسب ، بل هو أيضا قاعدة للنجاح الاقتصادى والادراك السليم عموما . وأيا كان الأمر فان الصورة الخلفية المسيحية للمدنية البريطانية واضحة حتى فى كثير من السمات التى لم تعد لها صلة واعية بالدين . وقد تعود الكتاب الألمان وغيرهم أن يعتبروا أية اشارة من جانب الساسة البريطانيين الى المسيحية مجرد رياء ولكن ذلك لا يثبت الا عدم الفهم المتأصل فى عقليتهم القومية المختلفة تماما .

---

(١) الاستاذ هـ. شاتلوورث « النظم الدينية فى العالم » ١٩٠٣ ص ٥٠٨ .

وليس من الممكن ولا هو من الضرورى بحث هذه المشاكل بالتفصيل هنا • ولكننا نستطيع الاشارة الى أنه من بين الأسباب الرئيسية لنجاح صبغ الحياة الاجتماعية فى بريطانيا نسبيا بالصبغة المسيحية هو تعدد الكنائس فى بريطانيا مما أثار منافسة مفيدة فى المسيحية العملية • ان عمل الكنائس البريطانية يذكرنا برؤيا المفكر والمصلح العظيم الكردينال نيقولا الكوزى الذى علم أن كل دين فيه جزء من الحقيقة ، وان كل ايمان وكل أمة لهما فضيلتهما الخاصـــة ، ومن ثم فان اختلافها جزء من خطة الله (١) •

١٧ ـ الدين والروح فوق القومية

لقد سمت الأديان الكبرى فى بعض مراحلها المعينة على حدود الجنسية ولكنها سرعان ما واجهت مقاومة مستترة أو سافرة من المبدأ القومى • وقد اضطرت الى الوصول الى حلول وسط مع الجنسية أو حتى خضعت لسيطرتها ومع ذلك فان روحها فوق القومية لم تمح أبدا • فقد كانت التطلعات ذات الطابع العالمى قوى حقيقية ، ولكن فى تربة الشعور الدينى بصرف النظر عن العقائد والكنائس (٢) • ومجرد الاهتمامات الاقتصادية أو السياسية أو الفكرية أو الفنية لا تغنى عن روابط الدين • ولا شك فى أن عدم التسامح الدينى كثيرا ما زاد حدة العداوات القومية • ومن الناحية الاخرى نجـــد التسامح نفسه فى جوهره فكرة دينية أيضا •

وفى روما القديمة كان كهنة « الفيتيال » يراقبون بدقة تنفيذ القانون

---

(١) هناك تقييم ممتاز لأفكار كوزا وشخصيته بقلم د• ستادلمان «Vom Geist des Ausgehenden Mittelalter» ١٩٢٩ ، انظر كذلك ج•م• دوكس «N. von Cusa und die Kirche peiner eit» مجلدين ١٨٤٧ •

(٢) انظر نورمان بنتويتش « الأسس الدينية للعالمية » ١٩٣٣ • وقد تتبع ف• لوران تاثير الدين فى نمو أفكار الانسانية فى مؤلفه الضخم Histoire de droit de gens et des relations internationales, Etudes sur l'histoire de l'humanité. ١٨ مجلدا الطبعة الثانية ١٨٦٥ ـ ١٨٨٠ •

الدولي وكان من واجبهم منع الحروب التي تقوم لأسباب غير عادلة (١) . وفي العصور الوسطى نظرت الكنيسة الى الجنس البشري باعتباره مجتمعا واحدا تحت رياسة البابا ، وان كانت الشعوب المختلفة تتمتع باستقلال ذاتي (٢) . وادعى البابوات حق الحكم النهائي في النزاعات الدولية وكثيرا ما قاموا بهذه الوظيفة بطريقة تدعو الى الاعجاب . ومن الناحية الاخرى كانوا هم الذين بدءوا الحرب الصليبية ضد المسلمين . ولم يكن هدفهم الأول توسع المسيحية . فجريجوري السابع دعا المسيحيين في أول الأمر لا لتخليص الأرض المقدسة ، بل لتحرير آسيا الصغرى وخلاص القسطنطينية . بيد أن فكرته لم تتبلور عن شيء . وكان الدافع الرئيسي للبابوات هو العمل على نشر السلام بين المسيحيين بتحويل الانفعالات الحربية لدى النبلاء الفيوداليين من النزاعات الداخلية الى حرب كبرى مقدسة ضد الكفرة تحت توجيههم الأعلى ، الأمر الذي ينطوي على تقوية مركزهم جدا (٣) . بيد أن فشل الحروب الصليبية أضعف سلطة البابوية ، وصار الصليبيون من الأمم المختلفة أكثر ادراكا للاختلافات القومية بين المسيحيين ، وبدأ المفكرون بينهم يعجبون بالعرب لشهامتهم وأخلاصهم وفضائلهم الأخرى . وأعرب كثير من الامراء والفرسان وشعراء الفروسية عن اعتقادهم في المساواة الانسانية وفي التسامح الديني والقومي (٤) واكدوا مرارا الأخوة البشرية باعتبارها مبدأ مسيحيا . وقد شاركهم كثير من المسلمين في هذه المشاعر .

وقد بدأ كذلك نمو أفكار القانون الدولي والتنظيم الدولي كوسيلة للمحافظة على السلام بين الأمم بين المفكرين الدينيين . وكان «المدرسيون» قد فكروا فعلا في هذه المشاكل ، ثم أحيا الانسانيون المسيحيون ايرازموس وفيفر وموروجروتيوس وغيرهم ،الاستبشاع المسيحي القديم ،للحرب ودعوا الى العالمية . ويمكن القول بأن أساس القانون الدولي وضعه رجلان من رجال الدين الاسبان هما القس الدومينكاني فرانسيسكوس فكتوريا والجزويتي

---

(١) كولمان فيلبسون «القانون الدولي وعرف اليونان القديمة وروما » ١٩١١ مجلد ١١ ص ٣١٨ .

(٢) جيركه ص ١٠ .

(٣) ولسياسة البابوات هذه مثيل لدى كثير من رجال الدولة الذين استخدموا الحروب الخارجية لتحقيق السلام الداخلي ودعم التضامن القومي .

(٤) توجد أمثلة عدة ليقظة الوعي القومي والمنافسات بين المسيحيين ولروح التسامح والزمالة في الفروسية نحو المسلمين العرب في الحروب الصليبية في كتاب هـ. بروتز «Kulturgeschichte der Kreuzzüge» ١٨٨٣ .

فرانسيسكو سواريز ، وسرعان مانما على أيدى جنتيلى وجروتيوس • وكان فرانسيسكوس فكتوريا وكثير من رجال الدين الآخرين كذلك من كبار المدافعين عن حقوق الأهالى فى الدنيا الجديدة التى اكتشفت حديثا • وفى انجلترا كان الضمير المسيحى هو الذى أدى الى القضاء على الرق • وكان المبشرون المسيحيون من الشيع المختلفة أول من درس روح الشعوب المختلفة واعترفوا بهم كأخوة • وكانت الارساليات تحمى الأهالى ضد جشع التجار والمستوطنين البيض وقسوتهم وقادتهم فى طريق مدنية أرفع • فضلا عن أن المبشرين صاروا مؤسسى علم الأجناس الحضارى الذى ترك أثرا ضخما فى وجهات النظر الحديثة فى التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع •

١٨ ـ الدين والجنسية فى الهند

ان أهمية الدين كعامل فى نمو المدينة الغربية والجنسية الغربية تصبح واضحة بصفة خاصة عندما نقارنها بالظروف فى الهند • ففى الهند تشكلت الحياة الاجتماعية والفكر بعمق بواسطة الدين • وتمثل الأديان العديدة التى ظهرت فى تاريخها جميع الصور الممكنة للدين تقريبا. والعامل المسيطر فى الحياة الهندية هو الهندوسية ، وهى مجموعة غير محدودة تماما من العادات والمعتقدات تضم تنوعات عديدة مختلف بعضها عن البعض الى حد كبير ، وتطورت الى فلسفات دينية عميقة كما تطورت الى مذاهب بدائية تقدس القوى الطبيعية والشياطين • وقد أنتجت كثيرين من القديسين والمتدينين الذين اخلصوا لافكارهم الدينية اخلاصا لا يفوقه اخلاص ، وكثير من تعاليمها الاخلاقية مما يدعو الى الاعجاب ، ومن ناحية أخرى نجد الحياة فى الصور السائدة من الهندوسية محكومة بالتقاليد ومحدودة بطقوس لها مغزى سحرى وكثيرا ما تبدو لنا خرافات قاسية ولا تتفق مع الأخلاق • وهناك بعض الأنظمة الهندوسية تحدوها روح سامية وكثيرا ما تتشابه الى حد غريب مع المسيحية فى أفضل صورها • بيد أن الهندوسية كقوة حية فى الحياة الاجتماعية لم تمثل بصفة عامة تلك المثل العليا الاخلاقية التى مهدت السبيل لفكرة الأمة فى اوربا ، أى الوحدة الروحية والحرية والمساواة والاخاء بين البشر كما علمها الأنبياء اليهود والمسيح •

والهندوسية اساسا مذهب قومى ، أو عنصرى ، لا يمكن ان يعتنقه من لم يولد هندوسيا ، وان كانت هناك استثناءات قليلة لذلك فى بعض

أجزاء الهند وأظهر سماتها تقسيما للمجتمع الى عـدد كبير جدا من الطوائف والطوائف الفرعية التى يفصل بينها حواجز لاعدد لها تحرم الزواج المختلط والصلات الاجتماعية ، بل والاتصال العابر ، أو تعوقها الى حد كبير. وفى حالات كثيرة تكون الطائفة مرتبطة أيضا بمهنة معينة يأخذها ابناؤها بالوراثة . وقد كان أصل نظام الطوائف، وهل انبثق أكثر من الانقسمات الدينية أو من التقسيمات المهنية ، موضع نقاش كثير.. ولكن لاشك فى أن أعضاء الطائفة يعتبرون أنفسهم وحدة عنصرية أسمى من طوائف أخرى كثيرة ، وأن كل طائفة تنظر الى الطوائف التى هى أدنى منها بتعال وتحاول أن تتجنب الاتصال بها حتى لاتشوب نقاءها شائبة(١). أما من يطلق عليهم المنبوذون وهم ينتمون فى الحقيقة الى طوائف دنيا ـ فانهم يعاملون بازدراء لا يصدقه العقل . فمجرد الاقتراب منهم يعتبر بأنهم من لا يمسون ، وكان عددهم يقدر فى سنة ١٩٣٠ بحوالى ٤٣٫٦ مليونا أو ٣٠ في المائة من السكان الهندوس تقريبا (٢) . فضلا عن أن بعض تلوثا ، ويتعرضون لأشد أنواع المهانة والقيود المضرة . وهم يعرفون أيضا الطوائف الصارمة بصفة خاصة تحرم حتى الاختلاط بالطوائف العليا ولا تقبل الطعام أو الماء من يد براهمى . وفى نظر الهندوس «الارثوذكس» يعد الأوربيون أيضا ممن لا يمسون (٣) . وهناك قدر كبير من النزاع العنيف بين الطوائف بيد أن الظروف تختلف الى حد كبير فى الأجزاء المختلفة من الهند ، وفى حالات كثيرة تعتبر العلاقات بين الطوائف مسموحا بها . وبرغم ان نظام الطوائف يقره الدين فانه كثيرا ما لا يعد ضروريا ان يكون جميع أبناء الطائفة من نفس الدين .

ولا شك فى أن لنظام الطوائف جوانبه الطيبة أيضا ، ولكنه يعتبر الآن اكبر عقبة فى نمو الوحدة والتضامن القوميين فى الهند . فالطائفة

---

(١) ان جميع المنبوذين ، حتى أكثرهم تعرضا للازدراء ، تحدوهم روح الخيلاء ورغبة حاسمة في أن يبعدوا أى دخيل . الأمر الذى جعل هذه الصراعات أكثر مرارة . اميل لستار » الطوائف فى الهند » ١٩٣٠ ص ١٩.

(٢) فيما يتصل بمركزهم انظر بصفة خاصة الفصل الثامن في ل . أو مالى « عادات الطوائف الهندية » ١٩٣٢ ص ١٣٧ .

(٣) « أن البريطانيين المقيمين فى الهند لايدركون دائما أن بعض السادة الهنود الذين يصافحونهم يعتقدون أنهم ملزمون بازالة العدوى التى نتجت عن هـذه الملامسة بالاستحمام ، أو مالى ص ١٤١ .

بالنسبة للهندوسى الأورثوذكسى أكثر بكثير من الأمة أو الوطن بالنسبة لمعظم الاوربيين . ومن ناحية أخرى نجد أن بعض سمات هذا النظام مؤذية حقا • وقد وصفه رابندرانات طاغور بأنه « نظام هائل من الاضطهاد المتعمد » ، ومن رأيه أن احياء الشعب الهندى يتوقف بصورة مباشرة على ازالته بل وان ذلك هو السبيل الوحيد . ويعمل النفوذ الاوربى والمصلحون الهنود فى هذا الاتجاه • ففى ظل الحكم البريطانى يعامل المنبوذون بالمساواة ، وقد تحسن وضعهم من عدة نواح . ولكن معارضة الهندوسية لأى اصلاح شديدة جدا وكثيرا ماتصل الى الارهاب ضد أولئك الذين يعترفون بالمنبوذين كآدميين وأخوة ، وحتى غاندى تعرض للتهديد بالعنف ضد شخصه عندما ندد بهذا النظام واعتبره فضيحة وحث على الغائه . ولكن غاندى لاينبذ نظام الطوائف ككل ولايوافق هو شخصيا على الزواج خارج الطائفة . ومما له مغزى أنه فى حين يزداد تراخى قواعد التفرقة الطائفية بين الهنود المتعلمين تعليما عاليا والطبقات التى تعيش فى المدن ، الذين ينتمون فى الغالب الى الطوائف المتميزة ، فان جمهرة الهنود الكبرى التى تعيش فى القرى وتنتمى الى الطوائف الدنيا تتمسك فى اصرار بالوصايا الصارمة لهذا النظام ، والمنبوذون ، الذين يتوقون الى التخلص من وصمة المولد ، نادرا ما يقترحون الالغاء الكامل للطوائف .

والى جانب الطوائف توجد أنظمة هندوسية أخرى لا تتفق ايضا مع فكرتنا عن الأمة كمجتمع يقوم على الحرية والمساواة والحكم الذاتى • فمركز النساء بصفة خاصة لا يزال ، تبعا للهندوسية الأورثوذكسية ، بعيدا كل البعد عن الحرية والمساواة . ومع ذلك فان النساء ، وخصوصا المسنات منهن فى الريف ، هن عماد الاورثوذكسية والمحافظة . ويقال : ان لورد كيرزون أشار مرة الى أن ماتحتاج اليه الهند هو نوع جديد من الجدات. فضلا عن أن الفكرة الأوربية عن الأمة هى فكرة الشعب المتقدم النشط التقدمى • وفى الهند كثيرا ما تشل التحريمات السحرية الابتكار الفردى وتخمد التقدم الثقافى والاقتصادى (١) . كما أن هناك قواعد وعادات كثيرة فى الهندوسية تضر صحة الجنس وحيويته مثل زواج الأطفال ونبذ القواعد الصحية الحديثة والأساليب الفنية والطبية • وقد أخمدت الادارة

---

(١) لورد ستون « الهند كأمة » ١٩٣١ ص ٢١ و٢٧ • وهناك تحليل تفصيلى عن الهندوسية وتاثيرها على الحياة الاجتماعية فى كتاب ماركس ويبر «Gesammelte Aufsätze Zur Religionssoziologie» المجلد ١١ ـ ١٩٢٣ •

البريطانية أكثر هذه الظواهر ضررا ، مثل حرق الأرامل (١) ، والضحية البشرية ووأد الاطفال والرق والخصى ومعاشرة من هن دون سن الحادية عشرة فى بيت الزوجية ، والاحوال التى تساعد على نشر الأوبئة والمجاعات وما الى ذلك • وقد ووجهت معظم هذه الاصلاحات بمقاومة عنيفة من جانب الهندوسية الأورثوذكسية ، وقد أغتيل كثير من الموظفين البريطانيين الذين يعملون فى مقاومة الأوبئة لانهم يقومون بواجبهم • هذا بالاضافة الى أن الادارة البريطانية شقت الطريق لنمو الروح القومية بما أدخلته من اصلاحات ايجابية كثيرة • وفى العصور القديمة نجح بعض الحكام العظماء فى توحيد الهند كلها تقريبا مرتين لفترات قصيرة فى امبراطورية واحدة ، ولكنهم لم يضعوا أسس أمة هندية ، وسرعان ما انحلت امبراطورياتهم الى شذرات كثيرة • لقد كان النظام الدينى والاجتماعى للهندوسية هو العقبة الكؤود فى تكوين أمة هندية • وكان الحكم البريطانى ونفوذ المدنية الغربية هما اللذين خلقا الظروف المواتية للوحدة القومية والحرية عن طريق المحافظة على السلام والأمن وحكم القانون ، ونشر التربية والافكار الحديثة وتنمية الموارد الاقتصادية• كما انهما اثارا ايضا تطلعا متزايدا للاستقلال بين الهنود الذين قلدوا بحماس نموذج الجنسية والنزعة القومية الغربية • بيد انه يبدو أمرا حتميا ان تؤدى هذه الروح الى ظهور عدة جنسيات بدلا من أمة هندية واحدة كما يأمل الوطنيون من انصار « المؤتمر » •

وقد أدرك كثير من الدعاة الأول ورواد الحركة القومية الهندية الحديثة ضرورة اصلاح الهندوسية اصلاحا كاملا لتمهيد السبيل لنمو الامة (٢) • فقد احتفظوا بالتقليد الاساسية للهندوسية وفى نفس الوقت استمدوا كثيرا من الأفكار والحافز من الاتصال بالمبشرين المسيحيين والمناقشات معهم • وقد حاول رام موهان روى وغيره أن يوفقوا بين التقاليد الشرقية والغربية • ولكن مع ظهور الحركة القومية السياسية بدأ الوعى القومى الجديد ينبذ كل شىء أجنبى بصرف النظر عن قيمته •

---

(١) عندما حرم بنتك حرق الآرامل في سنة ١٨٢٩ قامت معارضة قوية في الدوائر الهندوسية السنية ، واستمروا يمارسون هذه العادة سرا مدة طويلة • وكانت آخر الحوادث المعروفة فى ١٩٣٧ بالقرب من آجرا • وفى البنجاب قتل عشر زوجات و ٣٠٠ محظية على محرقة جنازة أحد نبلاء السيخ فى سنة ١٨٤٤ • انظر د• كوبلاند « بريطانيا والهند » ١٩٤١ ص ٢٦ •

(٢) ش • أندروز و ج • موكرجى « ظهور المؤتمر فى الهند ونموه » ١٩٣٨ ص ١٣ _ ٥٣ •

فالنزعة القومية الحديثة تؤكد على الهندوسية الى حد كبير جدا وتدافع عنها باعتبارها رمزا للجنسية الهندية بالرغم من عدم ملاءمة بعض قواعدها لفكرة الامة الحديثة (١) ٠

١٩ ـ الاسلام والجنسية

ينطوى دين محمد على سمات أخلاقية استمدها الى حد كبير من اليهودية والمسيحية ، وكان رجال الدين والفقهاء الذين فسروا تعاليمه بحيث صارت نظاما من المذاهب المتماسكة متأثرين أيضا بالأفكار المسيحية واليهودية والأغريقية والفارسية وكذلك بالقانون الرومانى ٠ وفى الاسلام عدد كبير من أوجه التشابه بينه وبين الفكر المسيحى فى العصور الوسطى الذى كان بدوره متأثرا بنفوذ المدنية الاسلامية على المسيحية (٢) ٠ وكانت القوى التى مهدت السبيل للجنسية فى أوربا المسيحية موجودة أيضا فى الدين الاسلامى وفى المدنية والسياسة الاسلاميين ، ولكنها لم تنم أكثر مما استطاعت فى جو يقرب من الجو الفكرى فى العصور الوسطى ٠ فكل المؤمنين المخلصين أخوة وقد ساعدت وصايا الاسلام بصورة تدعو الى الاعجاب فى ادماج المسلمين فى أخوة كبرى (٣) ٠ ومع ذلك لم يلغ عدم المساواة بين الرجل والمرأة وعدم المساواة فى المركز الاجتماعى٠ فالمسلمون يمكن ان يكونوا عبيدا ، وكان مركز النساء بعيدا عن المساواة بالرجال وكثيرا ما كان له طابع محط ، وكانت أخوة المؤمنين تسمو على الحدود القومية ، ولكن محمدا لم يعلم ان جميع الناس أخوة ٠ وقد كانت تعاليمه تقضى بالتسامح مع اليهود والمسيحيين ، ولكن على أن يدفعوا جزية ، وقد تعرضوا فيما بعد لانواع من التفرقة شديدة الوطأة ٠ اما الوثنيون فكان لهم الخيار بين الاسلام والموت ٠ وتتغير أحكام الدين فيما يتعلق بالشعوب الأخرى الى حد كبير بتغير ظروف الموقف ٠ فهو ينكر احيانا أى اكراه فى مسائل الايمان ، ويعلن أن الله منح كل شعب قانونه المنفصل وسبيله

---

(١) متسون ص ٢٤ و ٣٤ و ٦٥ و ٨٩ ٠ ويعتقد لورد متسون أن النزعة القومية الهندية هى الى حد كبير ثورة طبقة متميزة ضد المؤثرات الحديثة التى تهدد سيطرتها الاجتماعية وصراع مدنية قديمة لايقاف تقدم الأفكار والحرية الغربية ٠

(٢) ش٠هـ٠ بيكير «Islamstudien» ١٩٢٤ ص ٣٨٦ ٠ وفيما يتصل بالطابع العام للاسلام ٠ انظر د٠ مارجوليوث « النمو الاول للاسلام » ١٩٢٤ ، وهورتن «Religion in Geschichte und Gegonwart» المجلد الثالث ١٩١٢ تحت «اسلام» ٠

(٣) ت٠و٠ أرنولد « تعاليم الاسلام » الطبعة ٣/ سنة ١٩٣٥ ص ٤١٦ ٠

المفتوح الى الخلاص وانعلى كل الشعوب أن تعمل ليتفوق بعضها على بعض فى الأعمال الطيبة · ولكن هناك مواضع أخرى تتغير فيها هذه الروح تماما · وأيا كان الأمر فان الحكام المسلمين فى الماضى بصفة عامة كانوا أكثر تسامحا تجاه الأديان الأخرى من سلطات الكنيسة وان كان بعض السبب فى ذلك يرجع الى حسن السياسة ·

ولم يكن الاسلام منبثقا من التقاليد العربية وحدها ، ولكن شخصية مؤسسه ارتبط تماما بالشعب العربى · وكان التوسع المفاجىء للعرب فى عدة بلاد نتيجة الى حد كبير لرغبة العرب فى السلطة والثراء · بيد أن الدين الجديد منح القبائل تماسكا قوميا ودعم روحهم المحاربة الى درجة كبيرة . وأعلنوا أن واجب الحاكم المسلم أن يخضع كل الدول غير المسلمة بقوة السلاح وكان الاستشهاد هو السبيل الى الجنة .

ويمكن أن يقال عن دولة العرب ، وبخاصة فى عهد بنى أمية ، انها دولة قومية من عدة وجوه . فقد كان لدى القبائل العربية وعى قبلى كان كافيا ، عن طريق الغزو المشترك والدين الواحد ، كأساس لوحدة تقرب من الوعى القومى · بيد أن العرب كانوا فى مبدأ الأمر أقرب الى جيش الاحتلال منهم لأمة وكانوا محرومين ، بأمر عمر ، من امتلاك الارض حتى يحتفظوا بقدرتهم على الحركة . ولم يكن مسموحا للشعوب الخاضعة أن تتعلم العربية ، ومن ثم لم تنم جنسية مشتركة · بيد أن العداوات العنيفة بين القبائل العربية مالبثت أن عادت الى الظهور وقوضت دعائم وحدة الأمة وقوتها · ولم تكف قوة الترابط الدينية لتكوين جنسية موحدة دائمة . بيد أن الجنسية لم تكن قد نمت أيضا فى العالم المسيحى فى ذلك الوقت وكان الغزاة العرب فى كثير من الأحيان موضع ترحيب من جانب قطاعات من المسيحيين ، فى أسبانيا وصقلية ونابولى وجنوبى فرنسا مثلا ، ودعوهم للحصول على مساعدتهم ضد مسيحيين آخرين .

فضلا عن أن الشعوب الخاضعة فى الامبراطورية العربية العالمية ولاسيما الفرس والسوريين كانت أكثر مدنية من الحكام العرب وصارت مما لا غنى عنه للقيام بالمهام المتزايدة للادارة . وكان انتصار العباسيين دليلا على تفوق الفرس على العرب . وتفقد الامبراطورية عندئذ سماتها القومية وتتحول الى حكم مستبد يقوم على القوة العسكرية للحاكم وليس على الرضاء الضمنى للمحكوم . واستخدم الحكام اكثر فأكثر جنودا مرتزقة كانوا يهددون الاستقرار ، كما فعل الحرس البريتورى

فى الامبراطورية الرومانية ، بالتمرد المتكرر واغتصاب سلطة حاسمة فى الشئون السياسية. ولعدم وجود رابطة قومية قوية بين الشعوب الخاضعة ركز الحكام على الدين باعتباره عاملا موحدا . وجاءت كل الدول الاسلامية بعد ذلك على أساس الدين أكثر منها على أساس الجنسية . بيد أن الدين لم يكن كافيا لهذه المهمة . فالنزاع الدينى وظهور الشيع المختلفة ، مع صورة خلفية من الجنسية فى كثير من الأحيان، والمنافسات المتكررة على العرش على أسس دينية (على أساس الانحدار من سلالة قبيلة النبى عادة) ، ثم أخيرا ضعف الدين نفسه بخلطه بالسياسة والمصالح الدنيوية ، كل هذه صارت سمات مشتركة فى العالم الاسلامى. وليس فى الاسلام كهنوت حقيقى أو كنيسة بالمعنى المسيحى . فقواعد القرآن التى لا يدخل عليها التغيير تحافظ عليها طبقة من رجال الدين والفقهاء . وبرغم أن هذه الطبقة أنتجت أعمالا فكرية وأخلاقية عظمى فان نفوذها على وجه العموم كان غير موات لنمو الجنسية . فخضوع القانون والعلوم خضوعا كاملا للعلوم الدينية كان عقبة كئودا فى سبيل التقدم أكثر من حدود العالم الاقطاعى .

وكانت هناك عقبة خاصة فى سبيل الابتكار الفردى والتقدم هى روح التسليم بالقدر التى نشأت عن مذهب الجبرية . بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن المعتقدين المتأخرين من المسيحيين فى الجبرية ، مثل الكلفيين ، لم تظهر فيهم مثل هذه الروح ، بل انها حفزتهم الى القيام بنشاط غير عادى سياسيا واقتصاديا ، ومن ثم فيغلب أن قدرية المسلمين نتاج مشترك للدين والاستبداد العسكرى .

وقد مهد السبيل للغزو التركى للعالم الاسلامى وكثير من البلاد الاخرى استخدام الحرس التركى والجنود المرتزقة من الأتراك بواسطة الحكام العرب ، كما مهد السبيل لسيادة التيوتون فى العالم الرومانى دورهم فى الجيش الرومانى . وبغزو القسطنطينية صارت الامبراطورية العثمانية خليفة للامبراطورية البيزنطية وأخذت عنها بعض انظمتها . وتعاونت التقاليد الاسلامية والتركية والبيزنطية فى خلق نظام استبدادى لم يكن قائما من ناحية المبدأ على الجنسية المشتركة بل على الدين السائد (١) . ولم يكن الاتراك قط أكثر من أقلية وكانوا أقرب الى

---

(١) أ. توينبى و ك. كيركورد « تركيا الحديثة » ١٩٢٦ . وكذلك سير هارى لوك « ظهور تركيا الحديثة . من بيزنطة الى انقره » ١٩٣٦ .

جيش الاحتلال منهم الى الأمة . وكان تنظيمهم قريبا من النظام الفيودالى ، ويعيشون على ما تدره أسلاب الحروب التى لا تنقطع وعلى جزية الشعوب الخاضعة . بيد أن أهم دور فى الجيش والادارة كان يقوم به جنود وموظفون من أصل غير تركى اعتنقوا الاسلام وكانوا يعتبرون قانونا عبيد السلطان . فبعد غزو البلقان كان معظم من شغلوا منصب الباب العالى والقادة ممن اعتنقوا الاسلام من السلافيين والألبانيين وغيرهم . وترك جميع النشاط الاقتصادى والفكرى للشعوب الخاضعة . وكانت هذه الشعوب منظمة فى مجتمعات دينية (الملل) تتمتع باستقلال ذاتى واسع وتؤلف دولا داخل الدولة . وقد استخدم الأتراك «الملل» كأجهزة لتحصيل الاموال، أمافيما عدا ذلك فقد كانوا أميل الى عدم التدخل فى الشئون الداخلية للمسيحيين . فضلا عن أن التجار الأجانب منحوا امتيازات كبرى أتاحت لهم وضعا خاصا ، واحتمى المسيحيون فيما بعد بالحكام الاجانب . وكانت هذه الاوضاع مناقضة تماما لمبدأ الدولة القومية الغربية وساعدت كثيرا على دمار الامبراطورية العثمانية . بيد أن العامل الاكبر فى هذا الصدد هو استبداد السلطان. فارادته التحكمية لايحدها سوى قوانين الاسلام كما يفسرها رجال الدين الفقهاء الكبار لديه . وقد تضمنت مذاهبهم أيضا بعض الافكار التى تعتبر حديثة فى جوهرها (١) . ولكن تأثيرهم الرئيسى كان ضد الحرية والتقدم . وكان الطابع الدينى للامبراطورية ينطوى على وضع خاص للمسلمين مسىء جدا لأبناء المجتمعات الدينية الاخرى ، ولكنه أنقذهم أيضا من الفناء . وعندما وضع السلطان سليم خطة توحيد جذرى للامبراطورية يفرض الاسلام ديناوالعربية لغة الجميعأعلن الفقهاء الدينيون أن ذلك مخالف للشريعة ، وعدل السلطان عن خطته .

وتحللت الامبراطورية ثم انهارت أخيرا لعدم وجود الوحدة القومية ولنزعتها العسكرية وفساد الجنود والموظفين فيها وعدم احترامهم للقانون وعدم المبالاة من جانب معظم شعوبها ثم تمردها فيما بعد . وبلغ سوء الحكم من جانب حكامها وتذمر المحكومين فيها ذروتهما فى عهد الحكم الطويل للسلطان عبد الحميد . وكانت ترهبه روح الوطنية التى أخذت تقوض دعائم الامبراطورية فى كل مكان ، ولذلك جعل يؤكد أهمية الاسس الدينية .وبدت له الوحدة الاسلامية علاجا لمبدأ الجنسية الثورى . وضاع أثر الاصلاحات التحررية التى نفذها سابقوه تحت

---

(١) كونت ليون أوستروروج « اصلاح انقرة » سنة ١٩٢٧ .

ضغط انجلترا وفرنسا ، وانهار أمل تحقيق الوحدة القومية بسبب زيادة الاستبداد والاغراق فى الروح الاقطاعية ، وبسبب التعصب الدينى لدى الجماهير التركية والتعصب القومى من جانب الجنسيات المسيحية المتمردة . وكانت حركة «تركيا الفتاة» التى قلبت الحكم الاستبدادى فى سنة ١٩٠٨ تهدف الى ادماج جميع الجنسيات فى أمة عثمانية واحدة لغة التفاهم فيها هى التركية . ونبذ أنصار « تركيا الفتاة » فكرة اقامة الامبراطورية على الاسلام ، فقد كانوا على عداء مع رجال الدين المسيطرين ووعدوا بالحرية والمساواة لجميع الجنسيات والاديان . مع ذلك فانهم حاولوا أيضا اثارة الحماسة الوطنية التركية بالالتجاء الى النعرة العنصرية التركية . ولهذا الغرض شجعوا «الوحدة الطورانية» والمباهاة بالأصول المنغولية المزعومة للأتراك (١) والدعوة لفكرة تضامن كل الشعوب الطورانية ووحدتها القومية التى تنطوى على تحرير ملايين من سكان الامبراطورية الروسية . وظهرت حركة لتنقية اللغة التركية من الألفاظ الفارسية والعربية واتخاذ مصطلحات مستمدة من جذور طورانية . بيد أن الفكرة الطورانية لاتتفق مع فكرة الامة العثمانية التى تقوم على المساواة بين جميع الأجناس ، ولاتتفق بصفة خاصة مع سياسة أنصار «تركيا الفتاة» التى أدت الى زيادة التباعد بين الأتراك والعرب . وفشلت محاولات انقاذ الامبراطورية بسبب الحروب التى انتهت بدمارها . وبعد الحرب الكبرى الأولى قطعت أوصال الامبراطورية العثمانية ، وهددت شروط السلام التى وضعها الحلفاء سلامة الأقاليم التركية نفسها والمستقبل القومى للأتراك بأكمله . ونظم الجنرال مصطفى كمال باشا مقاومة ظافرة ضد هذه الشروط واستولى على السلطة وشرع بعد ذلك يخلق دولة قومية على أسس جديدة تماما .

---

(١) فى السبعينات والثمانينات مجد كاتب فرنسى هو ليون كاهون فى كتبه الغزاة المغول من جنكيز خان الى تيمور لنك ، وهم أفظع جزارين شهدهما التاريخ ، واعتبرهما رجلين فوق البشر واعتبر المغول جنسا ارستقراطيا . والأتراك ، تبعا لما يقول ، من نسل المغول وكانوا متفوقين كثيرا على العرب والفرس كمحاربين . وقد أفسدهم العرب وأضعفوهم وأفقدوهم جنسيتهم ، وحالوا بذلك دون قيام امبراطورية عالمية تركية تضم آسيا وأوروبا كلهما . وتبدو فى نظرياته أوجه شبه باشادة نيتشه بالمحارب الذى لا يقيم وزنا لأى مبدأ ، « الوحش الاشقر » ، العظيم وازدرائه للمسيحية . وقد لقيت أفكار كاهون استحسانا ضخما من جانب المثقفين الأتراك وقامت عليها أسس الوحدة الطورانية . انظر أوستروروج ص ٥٦ .

وبدأت هذه السياسة بتوحيد الدولة عنصريا بطرد جميع العناصر التى أعتبرت غريبة ، وباستقبال المهاجرين الأتراك الذين طردوا من البلقان (١) . ولكن مما له مغزى أن المعيار الذى تحددت على أساسه العناصر الغريبة هو الدين . فقد طردت تركيا المسيحيين حتى من كان يتكلم منهم التركية وحدها ، وطردت الأمم البلقانية المسلمين حتى من كان يتكلم منهم اللغة السلافية أواليونانية فقط . بيد أنه سرعان ما استبعد المصلحون الأتراك التقاليد والانظمة الدينية من الحياة السياسية . فاختفى نظام « الملل » كما اختفت الامتيازات الأجنبية ، وأعلنت سيادة الشعوب واعترف بحق العرب فى تقرير المصير الذاتى ، وصارت انقره العاصمة بدلا من القسطنطينية ، والغيت الخلافة ، التى كانت تنطوى على واجب الدفاع عن الاسلام والتى كانت لا تزال اثيرة عند مشاعر ملايين المسلمين خارج تركيا ، وبخاصة فى الهند . وحلت اللغة التركية فى المساجد محل العربية المقدسة ، وترجم القرآن الى اللغة التركية ، واستمرت تنقية اللغة أو طورنتها . وحلت الحروف اللاتينية محل العربية ، الأمر الذى كان يعنى توفيرا كبيرا للوقت فى فن تعلم القراءة والكتابة . وألغى « الطربوش » الذى كان قد صار رمزا للمحافظة الدينية ، واستخدمت القبعة الأوربية بدلا منه وتخلص القانون تماما من الدين ، وأقر القانون المدنى السويسرى جملة ودرن مناقشة لأى بند فيه . وتغير المركز القانونى للنساء جذريا بالغاء جميع القوانين والعادات التى تنتقص من مساواتهن بالرجال . وقضى على تعدد الزوجات بتحريم أى زواج جديد بأكثر من واحدة . وكذلك قضى على العادة المقدسة التى تلزم النساء بلبس الحجاب على وجوههن . وانتزعت التربية من أيدى رجال الدين وأصلحت طبقا للمستويات الاوربية . وكانت كل هذه الاصلاحات وغيرها مما لايتفق مع وصايا الاسلام وتقاليده . وتنطوى على الاعتراف بأن الجنسية الحديثة لا يمكن أن تنمو الا فى جو تشرب بالأفكار الاوربية . ومن هذه الناحية اختلف الأتراك ، والصينيون من قبلهم ، فى حركة الاحياء النومى عن الحركة القومية الهندية .

---

(١) ش. مكارتنى « الدول القومية والاقليات القومية » ١٩٣٤ ص ٤٣٣ ، وفيه وصف لعملية تبادل الاقليات بعد الحرب العالمية الاولى ونقد لها .

ويبدو أيضا ارتباط الأفكار الحديثة عن الجنسية بالمدنية الغربية بظهور التطلعات القومية العربية داخل الامبراطورية العثمانية وبعد سقوطها . ومما له مغزى أن رواد البحث القومى العربى كانوا أساسا من المسيحيين الذين تعلموا فى مدارس التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية (١) . فالمبشرون وتلاميذهم هم أول من قدم تربية عصرية باللغة العربية وانشئوا مطابع عربية ونشروا عدة كتب وصحف مهمة ووحدوا المذاهب المتحاربة بين العرب بمثل أعلى مشترك . بيد أن مصر نزعت نفسها من القضية العربية حيث أثيرت فيها النعرة القومية بالمدنية العظيمة لمصر القديمة ، التى كانت اقدم بكثير من المدنية العربية .

---

(١) ج· انطونيوس « يقظة العرب ، قصة الحركة القومية العربية » سنة ١٩٣٨ ص ٤٣ و ٥٤ و ٧٩ ·

الفصل الخامس

الإقليم القومي

١ ـ مغزى الاقليم بالنسبة للأمة

يقصد بالاقليم القومى البلد الذى ترتبط به الأمة ارتباطا وثيقا بحكم التقاليد القديمة بحيث تعتبره وطنها وجزءا لا يتجزأ من كيانها . ونحن نستطيع أن نتصور أمة بدون دولة ولكننا لا نستطيع ان نتصورها بدون منطقة محدودة بدرجة تزيد أوتنقص تسكنها وتتوغل فيهاجذورها ماديا وروحيا . فتماسك المجتمع وشخصيته اللذان تنطوى عليهما فكرة الأمة يفترضان سبقا هذا الارتباط بالاقليم . فالشعب المشتت فى عدة بلاد وليست له جذور فى التربة سرعان ما يفقد شخصيته كقاعدة عامة. فسيقل عدده ويفقد قوميته ويختفى فى النهاية .

والروابط بين الأمم والأقاليم عديدة ومتبادلة . فالأمة الى حد بعيد جدا نتاج اقليم طبيعى . اذ أن التربة والجو والتكوين تنتج بناء اجتماعيا معينا يخلق عندئذ تطلعا الى جنسية منفصلة ويؤدى الى نمو سمات قومية . ومن ناحية أخرى يعد الاقليم أيضا انتاج الامة . فطبيعة كل بلد تغيرت تغيرا هائلا بنشاط الشعوب التى عاشت فيها على مر العصور . وهذا التفاعل واضح بصفة خاصة فيما يتعلق بما يسمى الحدود الطبيعية . فبذور الأمة تنمو أولا داخل حدود ضيقة فى حماية الحواجز الطبيعية ، ثم تتجه التطلعات القومية فيما بعد الى حواجز طبيعية أوسع مثل البحر والأنهار الكبرى والجبال العالية. ويعتبر الاقليم الذى بين هذه الحدود المجال الحيوى المشروع للأمة الناشئة ثم



يكون لنجاحها أو فشلها أعظم الأثر على الظروف الطبيعية للبلد .

والاقليم القومى ليس مجرد مكان للاقامة يمكن بسهولة أن تقتسمه عدة أمم كمنزل بين أسر مختلفة . فالوعى القومى الحديث يختلف عن الصور القديمة فى المطالبة بالسلطة المطلقة على الاقليم (١) . فمطلب تقرير المصير الذاتى هو أولا مطلب بالسيطرة على أقليم معين . بيد أنه كثيرا ما يعيش شعبان أو أكثر فى نفس البلد ، وقد لا يكون لأحدها أغلبية

(١) لم يكن الوضع كذلك فى مجتمعات العصور الوسطى السابقة على التكوينات القومية . فقد كان هناك كثير من الشعوب الشرقية والاوروبية لاتعترض على أن يتولى التجار والمستوطنون الاجانب تسوية شئونهم بأنفسهم طبقا لقوانينهم الخاصة وبواسطة قضاتهم . وهذا هو أصل « الامتيازات الاجنبية » التى لعبت دورا كبيرا فى تركيا والصين وغيرهما . وعندما اتجهت الشعوب الشرقية الى القومية اعتبرت هذا النظام حاطا بكرامتها القومية وطالبت بالغائها . ولكن فى البداية كان الشرقيون أنفسهم هم الذين لم يريدوا أن يشغلهم الاجانب بشئونهم الخاصة وكان يسرهم أن يتركوا هذه الأمور لرؤساء الجاليات الاجنبية . وفى أوربا كان هناك الى عهد قريب نسبيا كثير من الملوك الذين حبذوا اقامة الاجانب الذين يتوقع أن يجلبوا حرفا وصناعات جديدة الى ممالكهم . وحاولوا اجتذابهم بمنحهم حق تطبيق قوانينهم الخاصة فى شئونهم والعيش فى جماعات تتمتع باستقلال ذاتى . ويرجع انتشار الاقليات القومية فى كثير من بلاد وسط أوروبا وشرقها الى هذه السياسة . وفي انجلترا كان التجار الالمان الذين نظموا أنفسهم في «الهانزا» يؤلفون دولة داخل الدولة . بيد أن جميع التجار الاجانب هناك كانوا يحاكمون أمام محاكم نصف أعضائها من جنسيتهم .

أو حق أكثر من الآخرين فيه ، ويكون التقسيم غير عملى . ويؤدى ذلك الى عدة أسئلة مهمة جدا ، منها مثلا : هل يمكن أن يكون الاقليم موطنا لأكثر من أمة واحدة ؟ وهل يمكن أن تدفع مزايا امتلاك مساحة واسعة بالاشتراك مع أمة أخرى شعبا الى ادماج شخصيته القومية فى شعب أوسع ؟ وهل أدى التوسع بالغزو الى تكوين أمم حقيقية ؟ وما الأسباب التى تؤدى الى خلق أمم جديدة أو انقسام أمم قديمة ؟ وما الى ذلك . وقد يتساءل المرء أيضا : على أى المبادىء يمكن أن يقوم حق الامة فى اقليم ما ، اذا كانت هناك مثل هذه المبادىء ؟ وهل لكل شعب مثل هذا الحق بصرف النظر عن قدرته على استغلال الاقليم بصورة ملائمة ؟ كما يؤثر حجم البلد الى حد كبير فى مصيرنا السياسى . فكثير من الشعوب فى التاريخ اما لم تصل الى تكوين أمة ، أو لم تحتفظ بهذه الصلة ، لأنها كانت اما أصغر أو أكبر مما ينبغى . وعلى أى الأحوال يتحدد تكوين الامة وطابعها الى حد كبير جدا بحجمها وظروفها الجغرافية .

٤ ــ هل الاقليم ضرورى لمفهوم الأمة ؟

حالة اليهود

لقد ذهب البعض أحيانا الى أن الاقليم ليس ضروريا بصفة مطلقة للأمة وان كان بالتأكيد ذا أهمية قصوى . والواقع أن هناك مجتمعات مبعثرة فى بلاد عديدة تعتبر على نطاق واسع أمما مثل اليهود والبارسيين والغجر . بيد أنه برغم بعض أوجه التشابه ينبغى الا تسمى أمما فى العصر الحاضر ، فاليهود كانوا يوما ما أمة ، وقد حافظ دينهم على الأمل فى قلوب كثير منهم بأن تعود جنسيتهم الى الحياة . فضلا عن أن اليهود كانوا حتى العصور الحديثة منعزلين بحاجز دينى مزدوج ، فقد كانوا يؤلفون مجتمعات صغيرة تعيش فى الأحياء اليهودية ولهم قضاتهم وقوانينهم وعاداتهم ، وكثيرا ما كانوا يتحدثون لغات أخرى غير التى يتحدث بها المسيحيون . ويفسر ذلك .. لماذا كان من المألوف أن يسمى اليهود أمة قبل أن يتحرروا (١) . بيد أن الغاء الحظر الاجتماعى

(١) س. بارون « التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود » ١٩٣٧ المجلد الثانى ص ٢٦٢ . ولكن حتى فى ذلك الوقت كان من نتيجة تشتيت اليهود اقليميا أن ظهرت بينهم اختلافات كبيرة . وقد قام بين السفرديين (اليهود الاسبانيين والبرتغاليين) والاشكنازى (يهود ألمانيا وشرق أوروبا) عداء بلغ أحيانا مرتبة العداء العنصرى . بيد أن أصله كان عداء اجتماعيا .

والاقليمى سرعان ما أدى الى اختلاط وتمـاثل ، ونبذت الأغلبية الساحقة من اليهود الذين يعيشون فى ظل المساواة فى الحقوق المدنية فكرة تكوين أمة منفصلة . وأحسوا بأنهم أمريكيون أو انجليز أو فرنسيون بالجنسية ويهود بالدين ، وهجر عدد كبير جدا منهم الدين اليهودى لتسهيل عملية التماثل . وقد أدى ارتفاع موجة مناهضة السامية والنزعة القوميـة والشـعور القومى بصـفة عامة الى نمو الصهيونية التى تفترض أن هناك جنسية يهودية · ومع ذلك فانالتطور الأخير للمشكلة اليهودية يبين بوضوح أن التطلعات القومية ، بدون رابطة تاريخية قوية بأقليم ، لا تكون أمة . وصحيح أن الصهيونيين يعتبرون فلسطين الاقليم القومى اليهودى ويريدون ان يقيموا فيها دولة قومية يهودية وأن يجعلوا العبرية لغة قومية . وهناك يهود آخرون يفكرون فى فلسطين ، أو فى بعض البلاد الأخرى ، كملجأ للمضطهدين من اخوانهم فى الدين دون التأكيد على التطلعات القومية ، أو يكفيهم مشاركة العرب فى اسرائيل . وبعض المفكرين اليهود يريدون أن يخلقوا فى فلسطين مجرد مركز للمحافظة على التراثالثقافى اليهودى.وهناك كثير من اليهود الأورثوذكسيراودهم الأمل فى أن شعبهم سيعود يوما الى الارض الموعودة تحت قيادة المسيح الجديد ، ولكنهم يرفضون أفكار الصهيونيين القومية ويحاربونها لأنها تتعارض مع وجهة نظرهم الدينية البحتة . وفى شرق أوربا عدد كبير جدا من اليهود يعتبرون أنفسهم جنسية منفصـلة ويرغبون فى الاعتراف بهم قانونا كأقلية قومية ، ولكن معظمهم يريدون البقاء فى البلاد التى يعيشون فيها ويعارضون فكرة العودة العامة الى فلسطين . وتعتبر لغة الشلخت فى نظرهم هى اللغة القومية وليست العبرية . وتدل هذه الاختلافات فى الرأى على أن اليهود لا يمكن أن يقال عنهم انهم أمـة برغم أن كثـيرين منهم يهـدفون الى ذلك · وفى البـلاد التى يتمتعون فيهـا بالمساواة فى الحقوق تشترك الأغلبية الكبرى فى التقاليـد والتطلعات القومية السائدة فى هذه البـلاد ، وكثيرون منهم يعـدون مواطنين متحمسين بصفة خاصة ، لسبب واضح هو أنهم يواجهون تحيزا ·

٣ ـ الحنين الى الوطن والشعور القومى

والمغزى الرئيسى للاقليم بالنسبة للجنسية هو تأثيره على الشعور القومى . وكثيرا مايفترض أن الروح القومية ليست سوى الارتباط بالأرض الوطنية · ومع ذلك فان الشعور القومى والحنين الى الوطن ليسا نفس الشيء · والاقليم القومى ، أى التى تعتبره الأمة بلدها ، ليس هو

الموطن بالمعنى الضيق أى المكان الذى ولدنا فيه أو الأثير الى قلوبنا بسبب طول الاقامة وكثير من الذكريات العزيزة (١) • ولهذا الاقليم الضيق مغزى سيكلوجى يختلف تماما عن الاقليم القومى • اذ أنه يعنى ذكريات الطفولة والشباب والحياة العائلية والاقارب والاصدقاء القدامى • وغاباته ومراعيه ووديانه وأنهاره وآثاره التاريخية أقرب الى قلوبنا من بقية أجزاء الوطن القومى التى قد لا نكون قد رأينا معظمها الا كزائرين ، اذا كنا قد رأيناها • ان أحلام شبابنا وآمالنا والمراحل الحاسمة فى نمونا وذكريات الآباء تتصل اتصالا وثيقا بأرض ميلادنا • وتفسر واقعة ان اقليما معينا ، صغيرا الى حد ما ، يرتبط بنمو شخصيتنا ، لماذا لا يضعف حبنا لوطننا عادة مهما كان مجدبا ، أو مقفرا ، ولماذا لا يحب الناس وطنهم أكثر أو يكونون أكثر وطنية اذا كانوا مولودين فى أرض خصبة أو جميلة • ان تأثير أرض المولد على العقل تعبر عنه تعبيرا مؤثرا أغانى الزنوج فى حنينهم الى موطنهم القديم فى كنتوكى ، الارض التى كانوا فيها عبيدا وتعرضوا فيها للشنق •

ان حب الاقليم القومى يغرسه فى عقولنا التاريخ المشترك وقوة الرأى العام والتربية والكتب والصحف والاغانى القومية والآثار وعدة أشياء أخرى (٢) • ومشاعرنا تجاه الاقليم الصغير نتاج كثير من التجارب

---

(١) ان اللفظ الألمانى Heimat يقصد به بصفة خاصة هذا الاقليم الضيق ، فى حين ان تعبير home country الانجليزى قد يستخدم أيضا للدلالة على الاقليم الأوسع• فتعبير Home office يقصد به وزارة الداخلية لانجلترا كلها وويلز Home Rule لا يعنى الاستقلال الذاتى المحلى ، بل الحكم الذاتى فى اقليم قومى أما لفظ Heimat فلا يمكن استخدامه بالمعنى الأوسع الا بطريقة رمزية • بالاضافة الى أن اللغة الانجليزية لا تستخدم كثيرا الألفاظ العاطفية مثل Vaterland و Patrie و Patria الخ • وصحيح أن قاموس اكسفورد يذكر عدة حالات يستخدم فيها لفظ Fatherland فى القرن السابع عشر ، ولكنها لم تكن مألوفة لدى الانجليز بالطريقة التى يطلق بها الهولنديون على بلدهم تعبير Fatherland كما يقول تمبل فى سنة ١٦٧٢ • واليوم يعنى لفظ Fatherland عادة ألمانيا ، مع شىء من التهكم أحيانا ، ويشكو شافتسبرى من أن الانجليز ليست لديهم كلمة مثل Patria برغم أن لديهم بالتأكيد وعيا عاما .

(٢) هناك دراسة مفيدة فىالوسائل التى تستخدم فى هذا الغرض فى كتاب كارلتون هيز « فرنسا أمة من الوطنيين » ١٩٣٠ • ولتعليم التاريخ دور خاص فى نمو المشاعر القومية والنزعة القومية • انظر ج•ف•سكوت « خطر النزعة القومية على التربية» ١٩٢٦، و ش • آلتشول « الثورة الامريكية في كتبنا المدرسية : محاولة لتتبع تأثير التعليم المدرسى المبكر على المشاعر تجاه انجلترا فى الولايات المتحدة » ١٩١٧ .

وبعد الحرب الكبرى الاخيرة ساد اتجاه قوى بين التربويين الديموقراطيين ، وبخاصة فى النمسا ، لتشجيع المشاعر المحلية عن طريق المدرسة واحلال التقدم الثقافى كما يبدو=

الشخصية الوثيقة فى مرحلة حاسمة من حياتنا • ومن ثم فان الشعور نحو الموطن أقرب الى طبيعة النمو العضوى ، فى حين أن الشعور القومى أقرب الىالاصطناع وان كانتهناك عدة روابط بينهما• وقد حاول موريس باريه أن يجعل محور مذهبه فى القومية الارض والموتى ، ودعا النازى الى انجيل من رابطة الدم والارض • وكلما كانت الامة اصغر اتخذ اقليمها طابع أرض المولد • وقد يكون ذلك من الاسباب فى ان الشعور القومى لدى الامم الصغيرة كثيرا ما يكون حساسا بصفة خاصة فيما يتعلق بسلامة ما تعتبره اقليمها القومى ، وايا كان الأمر فان التعلق بالموطن هو أحد العوامل التى تخلق الولاء القومى •

وتسعى الدول القومية الحديثة كقاعدة عامة الى تركيز كل مشاعر الولاء والفخر والحب فى الاقليم القومى على حساب كل من الاقليم الاصغر والاقليم الأكبر • وينطوى ذلك على انعزالية فيما يتعلق بمصير الأمم الأخرى من ناحية وعلى اخماد المشاعر المحلية داخلالأمة منالناحية الأخرى• فالثورة الفرنسية ألغت المقاطعات التاريخية فى فرنسا وأدخلت تقسيما مصطنعا جديدا لاقليمها الى مديريات • وحذت ايطاليا بعد توحيدها حذو فرنسا • وبعد الحرب الكبرى الأولى الغت الدول القومية التى تكونت من اقاليم النمسا والمجر مجالس المقاطعات والانظمة المماثلة • واهتم هتلر أيضا اهتماما عظيما بالقضاء على جميع الانظمة والتقاليد التى تساعد على بقاء المشاعر الوطنية بالنسبة للاقاليم التاريخية للرايخ والارض التى غزاها • بل انه محا حتى اسم النمسا الذى يرتبط بتلك الصفحات المجيدة فى تاريخ المدنية،وكبديل للمشاعر التى تكبت فيما يتصل بالاقاليم القديمة يشجع دعاة القومية التعبيرات التى لاضرر منها عن المشاعر المحلية مثل الرقصات الشعبية والاغانى الشعبية وملابس الفلاحين وما الى ذلك •

وفكرة الاقليم القومى عنصر هام فى كل ايديولوجية قومية حديثة• فكل أمة تعتبر بلدها ميراثا مقدسا لا يجوز الانفصال عنه ،ويبدو استقلاله وسلامته وتجانسه مرتبطا بالامن القومى والاستقلال القومى والشرف القومى • وكثيرا ما يوصف هذا الاقليم بأنه جسد الكائن القومى الحى واللغة بأنها روحه • ومن ثم فان الاقليم التاريخى ينظر اليه فى ايديولوجية

= فى الآثار والتقاليد المحلية محل تدريس سجل الحروب فى التاريخ • وكتبت الكتب المدرسية بهذا المعنى • وكان دعاة هذا التغير يدافعون عنه أساسا على انه أسلوب تربوى حيث كان الاعتقاد السائد ان الآثار والتقاليد المحلية تجتذب عقول الاطفال والمراهقين أكثر من الكتب المدرسية الجافة • ولكن كان من الدوافع الى هذا التغيير أيضا الرغبة فى تنقية التعليم من العناصر التى يحتمل أن تدعم النزعة القومية الحربية •

كل أمة تقريبا كأنه شخصية حية تقريبا لايمكن تقسيمها دون تدميرها كلية (١) • وهذه القيمة الرمزية للاقليم القومى هى أكبر عقبة للتسوية العادلة فى الصراعات القوميـــة • فكثير من الاقاليم تعتبره أكثر من أمة واحدة تراثها القومى على أساس حجج متساوية فى قوتها ، وتبدو عادة فكرة الحل الوسط لهذه الامم مكروهة كفكرة شخص يوافق على فقد احد أوصال جسده مقابل تعويض مادى .

٤ ـ العوامل التى تحدد تكوين الاقاليم :

تختلف وجهات النظر فى النمو التاريخى للاقليم القومى تبعـــا للايديولوجية السياسية الخاصة بالمؤرخ • فدعاة القومية الذين يجنحون الى التوحيد بين الامة والجنس يعتقدون أن وحدة الدم المصاحبة للطـابع المشترك والتعاطف المشترك اســـــاسية فى تحديد الاقليم • ويؤكد المحافظون أهمية تأثير سياسة الاسرات الحاكمة والحروب فى تجميع الامم وتوحيدها • ويعتقد الديموقراطيون الليبراليون ان وحدة اللغــة والمدنية تؤدى الى سعى تلقائى للوحدة وان التوحيد يتم عن طريق تقرير المصـير الذاتى •

ويعزو الاشتراكيون عادة تكوين الاقاليم القومية الكبرى الى نفوذ الرأسمالية التى تهدف الى أسواق واسعة . وكل هذه الآراء تحتوى على شيء من الحقيقة ، ولكن تطبيق أحدها بمفرده فى السياسة كثيرا ماكان له آثار سيئة .

فوحدة اللغة والمدنية والمصالح قد تؤدى بالتأكد الى وجهة نظـر مشتركة فى الســـــياسة وبذلك تؤثر فى نمـــو الاقليم القومى ولكن الديموقراطيين بالغوا عادة فى تلقائية الحركات القومية التى تعمل من أجل الوحدة والحرية • ويبين التاريخ ان هناك شـــعوبا تمسكت باصرار لمدد طويلة جدا بمواطنها الصغيرة ولم تظهر قط أية رغبة فى ادماج فرديتها فى أمة كبيرة • وفى معظم الحالات تكونت الاقاليم القومية الكبيرة والأنظمة المشتركة بواسطة الملوك ورجال الدولة ضد رغبة الشعوب • ولو أجريت

---

(١) لقد قسم لورد كيرزون فى سنة ١٩٠٥ اقليم البنغال الضخم الى نصفين لدواعى التحسين الادارى • انظر ل• فريزر « الهند فى عهد كيرزون » ١٩١١ ص ٣٨٥ • وقـد اعتبر القوميون الهنود هذا التصرف اساءة كبيرة للجنسية الهندية وأثار عاصفة ضخمة من الغضب أعقبتها حملة من الارهاب والمقاطعة والاعمال الثورية الاخرى • وبرغم ان هـذا الاجراء كان في ذاته مفيدا الا انه تعين تعديله .

فى وقتها استفتاءات عامة لجاءت النتيجة ضد التوحيد ، وبخاصة فى المدن والاقاليم التى كانت قد نمت فعلا روحا ديموقراطية ومن ثم كان لديها طابعا قوميا متأصل الجذور فى الشعب . فضلا على أن أمما كثيرة تكونت بالانفصال عن اقاليم أكبر ، اما عن طريق تحلل الامبراطوريات أو عن طريق التمرد ضد حكم اعتبر أجنبيا • وفىهذه الحالات أيضا جاءت المبادرة عادة من جانب أقليات صغيرة فرضت ارادتها شيئا فشيئا على الجماهير ، بارهاب الخصوم واثارة غريزة القتال والنعرة القومية والتلويح بالمصالح المادية والمثالية ، وفوق كل شىء آخر باكتساب هيبة لا تقاوم عن طريق الحروب المظفرة ضد العدو القومى •

وكثيرا ما يواجه دارس التاريخ بالثبات الغريب للتقاليد الأساسية للدولة بشكل يبدو أنه يسمو على كل الاختلافات والأحزاب والطبقات • فقد استمر كل من اليعقوبيين والبلاشفة من بعض الوجوه بتقاليد النظم التى قاموا أصلا لاستئصالها • وقد تجنح بعض العقول غير الناقدة الى تفسير هذا الثبات على أنه دليل على ميل متأصل فى الجنس • والحقيقة انه نتاج عدة عوامل، ومن بينها الاقليم القومى فقد لعبدورا هاما • وقد حاول الملوك بناة الأمم ان يحصلوا لمتلكاتهم على حدود قومية مواتية ، اذ اختاروا موقعا معينا لاقامتهم الدائمة وحددوا مناطق معينة للتوسع .ثم اندمجت كل هذه الوقائع والتقاليد فى الأيديولوجية القومية وأثرت بصورة لاتقاوم فى سياسة كل نظام جاء بعد ذلك • ولكن الملوك لم يكونوا هم وحدهم الذين حددوا التقاليد القومية • ففى حالات كثيرة كان نمو الجنسية المنفصلة راجعا الى أسباب جغرافية أدت الى نمو تركيب اجتماعى متميز • فاذا نحن نظرنا الى «خريطة» أوربا نجد أن معظم الأمم الصغيرة الموجودة تقع على شاطىء البحر أو على الانهار الكبرى أو على مفارق الطرق الدولية • وفى الأزمنة القديمة كانت هناك أمم أكثر من هذا النوع ، مثل البندقية وجنوا وراجوسا وجون هانسا والمدن الجمهوريات فى الأراضى الواطئة • وينبىء ذلك عن أن النزعة نحو نمو شخصية قومية منفصلة سببها عوامل اجتماعية . فالمدينة التى صارت مركزا للتجارة الدولية أو الاقليم الذى كان ينتج سلعا للتصدير تكونت فيهما مصالح وتركيب اجتماعى يختلف عما يكون فى الدول الداخلية الزراعية الواسعة التى سادت فيها الفيودالية والنزعة الحربية • ومن ثم فان الأولى حاولت أن تستقل بنفسها ونجحت فى كثير من الحالات •

ويمكن أن نتتبع مغزى الاختلافات الاجتماعية بالنسبة لنمو الفردية القومية فى معظم الصراعات من أجل التحرير من الحكم الأجنبى ، مثل

تمرد الهولنديين ضد الحكم الاسباني في القرن السادس عشر . فلم تكن أسباب هذا التمرد أساسا هي اضطهاد الشعب ، حيث أن الأراضي الواطئة كانت تتمتع باستقلال واسع جدا وكانت السيادة الاسبانية حريصة جدا في ممارستها لسلطانها . ويرجع أصل الصراع الى عدة أسباب ولكن لعل العامل الحاسم كان هو عدم التوافق بين الطابع القومي للشعبين . فالاسبان كانوا ، كما يقول أحد العلماء الانجليز (١) . يحتقرون الهولندي في كل شيء في روحه التجارية وميله الى الشراب وكثرة الأكل وعدم تعصبه الديني وعقليته المدنية بأكملها . وكان الهولنديون من الناحية الاخرى يسخرون من كثير من الصفات الاسبانية ويكرهون الجندي الاسباني المتعجرف الذي كان يعتبر نفسه ارستقراطية الجنس البشري (٢) . ومع ذلك فان التمرد بدأ بالطبقة العليا من نبلاء الأراضي الواطئة الذين كانوا انما يعملون لمصلحتهم الخاصة الى حد بعيد . وفي أثناء القتال دخلت طبقات وقضايا أخرى وارتكب الجانبان فظائع جعلت الهوة بينهما مما لا يمكن عبوره .

٥ ـ الامبراطوريات مهد الأمم ومقبرتها :

ان نمو الأمم يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الامبراطوريات المتعددة الجنسية (٣) . ويجنح الرأى القومي والديموقراطي الحديث الى الحكم بقسوة على الامبراطوريات باعتبار أنها تدمر الامم المسالمة وتضطهدها بدافع من شهوة التسلط . ومع ذلك فلا سبيل الى انكار أن بناة الامبراطوزيات هم في الغالب أول من شيد الدول الاقليمية (٤) والأنظمة

---

(١) انظر ر. تريفور ديفيز (القرن الذهبي لاسبانيا) ١٩٣٧ ص ٣١٨ .

(٢) ف. فون بيزولد «Geschichte der deutschen Reformation» ١٨٩٠ ص ٣١٨ .

(٣) ان لفظ امبراطورية ينطوي على ابهام مضلل . فأصلا كانت كلمة imperator تعني السلطة الالزامية للحاكم الروماني الأعلى ، سلطة على الحياة والموت كما يرمز اليها شعاره المخيف الذي يمثل اثنى عشر جنديا يحملون العصي والفئوس . وفيما بعد كان لفظ mperator يعني القائد الروماني المنتصر الذي سرعان ما صار عملا دكتاتورا وامبراطورا ومن ثم فان تسمية « الامبراطورية البريطانية » لم تكن شيئا طيبا حيث انها توحي بتشابه مع الامبراطورية الرومانية التي كانت مختلفة تماما . فكلمة امبراطورية حقا لا تعني سوى دولة كبيرة أو مجموعة من الدول تحت حاكم واحد وتضم عدة شعوب .

(٤) ان الحكومة البدائية لم تقم على أساس الاقليم بل على أساس القرابة كما أثبت مورجان وين ، وان كانت هناك دلالات يمكن أن تعتبر نواة للدولة . انظر روبرت لدوى « المجتمع البدائي » ١٩٢٠ ص ٣٩٠ .

السياسية التى صارت مهدا للأمم . وقد مهد السبيل على يد قبائل عدوانية من الرحل كانت تملك احساسا قويا بالتضامن والكفاية الحربية، بسبب تنظيمها الاجتماعى ، واستطاعت ان تخضع سكان البلاد الخصبة . واختلط نسل هؤلاء الغزاة بالشعوب الخاضعة واتخذوا لغتها وعاداتها ودمجوها فى وحدة قومية أوسع . ففى كل مكان كانت طبقة المحاربين ، النبلاء ، هم أول من نما لديه الشعور بالجنسية برغم انهم كانوا جزئيا من أصل أجنبى ، وحاول الملوك أيضا فى صراعهم مع النبلاء ان يكسبوا الشعوب الى جانبهم بأن صاروا قوميين فى اتجاههم. فالملوك الذين وضعوا أسس الدول القومية الحديثة فعلوا ذلك الى حد كبير بغرض استخدام الزيادة المتوقعة فى قوتهم لخلق امبراطورية . والحقيقة أن الدول القومية الكبرى فى الوقت الحاضر كانت اصلا امبراطوريات نجحت فى ادماج شعوب مختلفة فى أمة واحدة . ومن الناحية الأخرى يبين التاريخ انه كلما صار أمة قوية بدأت على الفور تقريبا فى العمل على التوسع وجعلت هدفها تكوين امبراطورية . وأدى تحلل الامبراطوريات أيضا الى ظهور الأمم ، فكثير من الامم الحالية فى أوربا أصلها اقاليم فى الامبراطورية الرومانية. وهناك طريقة أخرى تم بها تكوين شعوب جديدة هى الغزو المشترك . فالشعوب الجرمانية فى فترة الفرانك مثلا كانت مؤلفة من مزيج من عدة قبائل اندمجت بواسطة الهجرات الكبرى . وقد ابتلعت الأمم الكبرى مع الوقت كثيرا من الأمم الصغيرة ، ولكن التنافس بين الدول الكبرى ساعد أيضا على خلق أمم صغرى والمحافظة عليها ، مثل سويسرا والأراضى الواطئة ، حيث أن محاولات احدى الدول الكبرى لضمها كانت تعارضها الدول الكبرى الأخرى ، بالاضافة الى ان الدول الصغيرة عرفت كيف تضرب الدول الكبرى بعضها ببعض ، وصارت عن هذا الطريق مبتكرة للدبلوماسية و « توازن القوى » . وكانت الامارات الايطالية والبندقية رائدة فى هذا المجال (١) ثم تبنت انجلترا مبدأ « توازن القوى » وساعدت كثيرا من الامم الصغرى على الحصول على استقلالها او الاحتفاظ به . واعتبرت الدول الصغرى حاجزا بين الدول الكبرى ، ولعبت بعضها وبخاصة هولندا وسويسرا دورا مفيدا جدا كجسور ثقافية بينها .

ولحجم الاقليم أثر على تكوينه الاجتماعى والسياسى ، ويحدد الطابع

(١) أ. كايبر Die Idee des europaischen cleichgewichts in der publizistischen Literatur vom 16 bis zur Milte des 18 Jahrhunderts. ١٩٢٧ . وشارل ديبوى « مبدأ التوازن والمجتمع الاوروبى فى سلام وستفاليا » . ١٩٠٩.

القومى بعدة طرق • وكان الاغريق يعتقدون ان الدولة المدينة الصغير هى وحدها التى تكون وطنا ومجتمعا قوميا • والواقع أن التاريخ يعطينا أمثلة عديدة يبدو أنها تؤيد هذا الرأى فالدول الواسعة الارجاء كانت تؤلف عادة بالقوة ولابد من المحافظة عليها بالقوة • وكقاعدة عامة تضم مثل هذه الدول عدة شعوب مختلفة ومناطق عديدة لهاتقاليد ومصالح متباينة تؤدى بسهولة الى نمو انماط اجتماعية وجنسيات مختلفة • والاقاليم الواسعة لها أعداء كثيرون وكثيرا ما يصعب الدفاع عنها • وكثيرا ما يكون ذلك سببا فى ارغام حكامها على اتباع سياسة توسعية للحصول على حدود استراتيجية • والدولة الكبرى التى يواجهها اعداء أقوياء لابد ان يكون لها جيش كبير ، وكثيرا ما يؤدى ذلك الى سيطرة الطبقة العسكرية فى السياسة وتكون النتيجة اما اخماد نمو الديموقراطية أو تدمير نظام ديموقراطى قائم فعلا • فضلا عن أن الشعوب الديموقراطية تميل الى تركيز اهتاماتها السياسية على المسائل الداخلية وكثيرا جدا ما تهمل الدفاع والشئون الخارجية (١) • فالديموقراطية تزدهر أكثر ما يكون عندما تكون مشاكل الحكم بسيطة ومتصلة بصورة مباشرة برفاهية الشعب ، كما هو الحال فى ادارة الدول الصغرى أو المدن • فقضايا القوة غريبة ومنفرة عادة بالنسبة للسياسيين الديموقراطيين ومن ثم تكون عرضة للتجاهل أو تعالج بعدم اكتراث • ولا يحظى النمو السياسى للامم الاخرى باهتمام كبير ، أو ينظر اليه على ضوء غير واقعى يشجع على اتخاذ موقف سلبى • بالاضافة الى ان التجربة تدل على أن الديموقراطيات تجد من الصعوبة بمكان كبير أن تمارس تضامنا ايجابيا نحو اصدقائها فى الخارج عندما يكون على هؤلاء الاصدقاء ان يكافحوا من أجل بقائهم • ومن ثم فان نمو الجنسية والديموقراطية فى الدول الكبرى

---

(١) قال أحد المندوبين الكنديين فى مؤتمر علاقات الكومنولث فى تورنتو (١٩٣٣) في خطاب له : « ان حقيقة من الحقائق الصلبة فى هذا العالم ان كلا من الامم البريطانيه ديموقراطية ، وان لها برلمانا ، وان وراء هذه البرلمانات أحزابا وان الاحزاب مؤلفة من سياسيين وان من الاغراض الاولى للاحزاب السياسية العمل على اخراج الوزارة من الحكم ، وانه لا توجد قضية تفيد في قلب الوزارات مثل القول بأنها تولى المصالح الخارجية اهتماما أكثر من المصالح الداخلية» و «علاقات الكومنولث البريطانى» باشراف توينبى ١٩٣٤ ص ١٧٢) •

كثيرا ما ينطوى على خطر التحلل ، اما بسبب عدم الاستعداد العسكرى أو عدم الكفاية العسكرية ، واما بسبب الانعزالية العنيدة وعدم رؤية أشد الأخطار .

وقد ناقشت نظريات سياسية كثيرة العلاقة بين حجم الدول وبنائها السياسى ، وقد انتهى مونتسكيو الى أن الدولة الكبيرة لا يمكن ان تحكم الا حكما مستبدا (١) . فالجمهورية الكبيرة فى نظره معرضة للانحلال بسبب الاضطرابات الداخلية ، فى حين ان الجمهوريات الصغيرة يسهل تدميرها من الخارج . وبدا له أن السبيل الوحيد للخروج من هذه المعضلة والطريقة الممكنة الوحيدة للجمع بين القوة والحرية هى تكوين فدرال من الجمهوريات الصغيرة . ومنذ عهده عمل نمو وسائل الاتصال السريعة والتربية العامة والصحافة والسينما .. الخ على التقليل من خطر الانحلال الناجم عن بعد المسافات والاختلافات المحلية . بيد ان ظهور الوعى القومى من الناحية الأخرى زاد من حدة الانفصالية والانعزالية ، ومنذ ذلك الوقت ابدت الامم الديموقراطية ميلا اقل نحو التكاتف عن طريق تكوين الفدرالات . فقد اثبت حل الاتحاد بين بلجيكا وهولندا فى سنة ١٨٣٠ وبين النرويج والسويد فى سنة ١٩٠٥ وتكوين دول قومية صغيرة عديدة من الاقاليم التى كانت تتألف منها النمسا ـ المجر وروسيا فى سنة ١٩١٩ ، وكذلك حقائق أخرى كثيرة من هذا النوع (٢) ، ان السعى نحو الاستقلال القومى الكامل كان أقوى من مصالح الامن والازدهار الواضحة . وقد مهد انقسام الوحدات الكبرى الى أمم صغيرة جدا ، وتدمير « توازن القوى » عن طريق معاهدات الصلح عقب الحرب الكبرى الماضية، السبيل لانتصارات هتلر، ودفعت جميع هذه الأمم الصغرى ثمن تلك الفترة الصغيرة من الاستقلال الكامل بان فقدت حريتها تماما. واذا كانت ايرلندا قد ظلت قائمة بعد انفصالها عمليا عن بريطانيا فانها مدينة بذلك للاسطول البريطانى وحده ، وان كانت سياستها لاتبدى اى تقدير لهذه الحقيقة ولا تسهم بشىء فى الدفاع عن الحرية القومية .

---

(١) مونتسكيو « روح القوانين » المجلد الثامن ١٦ ـ ٢٠ والمجلد التاسع ١ ـ ٦. وكان الكتاب التحرريون والديموقراطيون فى عصر الاستنارة بصفة عامة يعتقدون انه من الأفضل للبشرية اذا تمزقت الامبراطوريات الكبرى الى دول صغيرة تعيش عندئذ فى سلام واتفاق . انظر أ . زايبر Die Idee des Kleinstaates bei den Denkern des 18 und 19Jahrhunderts ١٩٢٠ .

(٢) ونستطيع أيضا أن نذكر انفصال ايسلندا عن الدانمارك (١٩١٨) وكذلك الحركات الانفصالية بين القطلونيين والسلوفاكيين والكرواتيين . الخ . أما فيما يتعلق بالدولة الصغيرة فى عصرنا انظر أ.ه.كار « شروط السلام » ١٩٤٢ ص ٣٧ .

٦ ـ صراع «الألف عام» حول ميراث شرلمان

لقد كان الفكر السياسي في العصور الوسطى خاضعا تماما لفكرة الامبراطورية · وكان الاعتقاد السائد بناء على ما جاء في كتاب « دانيال » ان تاريخ الجنس البشرى يبين تعاقبا من الامبراطوريات العالمية وان آخرها كانت الامبراطورية الرومانية التى ستظل قائمة الى الأبد . وأعاد شرلمان الى الحياة فكرة الامبراطورية الرومانية ووحدها مع مملكته · وكانت مملكته بناء مفككا سرعان ما انحل بعد موته · ومع ذلك فقد ظلت تقليدا حيا مدى الف عام يثير طموح الأمراء والانفعالات القومية · وقد قسمت الامبراطورية بين احفاد شرلمان الى ثلاثة اجزاء دون اعتبار لجنسيات الشعوب · وكان كل من هذه الاجزاء فى الحقيقة امبراطورية تتألف من عدة شعوب مختلفة · وصار الجزء الغربى فيما بعد فرنسا والجزء الشرقى المانيا · وعرف الجزء المتوسط لفترة باسم لوثارنيجيا نسبة الى لوثار الثانى وكانت مرتبطة باللقب الامبراطورى ، وكان مؤلفا من الاراضى الواطئة وارض الرين واللورين (التى اخذت اسمها من لوثارينجيا) والالزاس وسويسرا الغربية وبورجندى وبروفانس وايطاليا كلها · وكان هذا الجزء يضم اقاليم الرين والميز والرون والبو التى سيظهر فيها بعد عدد كبير من المدن الصناعية ، التى تعد بصفة عامة أخصب أجزاء أوربا واكثرها مدنية · ومن الحقائق ذات الاهمية الكبرى ايضا بالاضافة الى ذلك ان هذه المناطق سرعان ما صارت معبرا بين المدنيات الكبرى وتكونت لها علاقات ثقافية واقتصادية وثيقة مع فرنسا وألمانيا ومع ايطاليا واسبانيا ومع سوريا · وكان فى ذلك حافز كبير على التقدم ونمت افاق اوسع فى الفكر مما كان سائدا فى اجزاء كبيرة فى اوروبا ··· وقد كتب فعلا احد قساوسة « سانت لامبر » فى لييج فى القرن الحادى عشر قائلا : « اننا نعتبر آخر الغاليين وأول الجرمانيين · اننا لسنا غاليين ولا جرمانيين ، فنحن ننتمى فى نفس الوقت اليهما معا » (١)· وكان الجو مهيئا فى المنطقة الوسطى بين الشرق والغرب لظهور روح فوق القومية ظهر أعظم صدى لها فيما بعد فى ايرازموس ·

وسرعان ما ضم الجزء الاكبر من الامبراطورية الوسطى مع المانيا ، وعرفت هذه الامبراطورية التى احتلت فيها المانيا مركزا مسيطرا باسم الامبراطورية المقدسة ·

ومن الناحية النظرية كان الملوك الالمان ، بعد انتخابهم بواسطة

---

(١) هـ· فان در لندن « بلجيكا ، أمة تتكون » ١٩٢٠ ص ٤٣

الامراء الالمان الرئيسين وتتويجهم بواسطة البـــابا ، يعتبرون خلفـــاء اباطرة الرومان العالميين يخضع لسلطتهم جميع الملوك • ولكن لم يحاول تأكيد هذا التفوق او يتبع سياسة توسعية طموحة جدا ســـوى قلة من الاباطرة • فقد كانت سلطة معظم الاباطرة نظرية أكثر منها عملية ، وحوالى نهاية العصور الوسطى كانت معظم البلاد غير الالمانيـــة مستقلة تمـــاما تقريبا (١) ، وكانت ســلطة الاباطرة ضعيفة جدا • ومع ذلك فان الادعاء بحق التفوق الدولى لم ينبذ قط وكان سببا الى حد كبير فى اثارة الاحساس بفخر عظيم (٢) • وبرغم ان الامبراطورية كانت رومانية بالاسم فانهـــا كانت المانية فعلا ، وكسب منها الامراء والبطاركة والفرسان الالمان كثيرا• وكانت الكنيسة تتمسك بأن البابا نقل الامبراطورية الى الالمان فى حين كان الالمان يميلون الى تأكيد أنهم كسبوها بالسيف .

وأثار ادعاء الألمان بحق التفوق العالمى تذمرا وغيرة على نطاق واسع فى البلاد الاخرى ، واسهم بنصيب كبير فى قيام الشعور والايديولوجية القومية • واستخدم الملوك الانجلو ساكسون فعلا لقب الامبراطور لتأكيد استقلالهم ومساواتهم فى المرتبة ، ومن وقـــت لآخر اعلن كثير من الملوك والملكات فى انجلترا ، وحكام بلاد أخرى أيضا ، انهم اباطرة فى ممالكهم• بيد أن أشد معارضة جاءت من جانب الفرنسيين ، الذين أكدوا أن حقهم اقوى بكثير فى ميراث شرلمان ــ وقد اعتبروه فرنسيا • وعمل كثـــير من الملوك الفرنسيين على أن ينتخبهم الأمراء الألمان أباطرة مؤملين بذلك ان يســتعيدوا امبراطورية شرلمان • بالاضـــافة الى أن السيانسة الفرنســية

---

(١) فى ذلك الوقت كانت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » تكمل بعبارة « للأمة الالمانية» ، وكان يعنى أصلا ذلك الجزء من الامبراطورية الذى كانت جنسيته ألمانية . وفسرت هذه العبارة فيما بعد بأن الامبراطورية نفسها خاضعة للأمة الألمانية • انظر ف• هارتونج «Deutsch Verfassungs — Geschichte» ١٩٢٢ ، و أ• ووربنجهوف «Hist. Vierteljahrschrift» ١٩٠٨ • و ج • برايسى « الامبراطورية الرومانية المقدسة » الطبعة الثانية ١٨٩٩ •

(٢) عندما مات هنرى السادس ، أقسى من حاول السيطرة على العالم ، فى سنة ١١٩٧ جاء فى حوليات دير سانت تلازاين فى الغابة السوداء تعليقا على وفاته « ان الشعب الألمانى سيحزن على موته الى الأبد ، لأنه بنى مجـــده بالثروات التى جاء بهـــا من البلاد الأخرى وجعل جميع الشعوب ترتجف أمام قدرته الحربية ، وكان من الواضح انه كان سيصير في المستقبل فوق كل الامم لو لم يختطفه الموت قبل الاوان » . وهناك أمثلةعديدة تبين مدى تأثير امبريالية العصور الوسطى على احساس الالمان بالكرامة القومية فى كتاب ف • لتشايس Geschichte des deutschen Nationalgefühls المجلد الاول ١٨٩٣ (حتى القرن الثالث عشر) •

حاولت باستمرار الحصول على اجزاء من الامبراطورية الوسطى السابقة، وكان يسكن هذه الاجزاء سكان يتحدثون الفرنسية فى الغالب • بيد ان فكرة الامبراطورية الوسطى عادت الى الحياة فى اواخر العصور الوسطى على يد «دوقات» بورجندى الذين كانوا يمتلكون أيضا المدن الثرية فى الاراضى الواطئة •

فقد بدءوا سياسة من التوسع ، على حساب فرنسا أساسا ، بل وهددوا أسس المملكة الفرنسية متحالفين مع انجلترا• وكان الانجليز أول من اخذ ينمو فى اتجاه الدولة القومية ، وسرعان ما صارت سياسة غزو فرنسا ، التى انبثقت من دوافع فيودالية تتعلق بالاسر الحاكمة ، مغامرة قومية • وبنفس الطريقة جاءت عقب تطور فرنسا نحو الوحدة القومية والقوة سياسة من الغزو فى ايطاليا • واثار ذلك الغيرة لدى اسبانيا والنمسا ، وادى ذلك بدوره الى خضوع ايطاليا للغزو الاجنبى والى التآمر والسيطرة قرونا طويلة •

٧ – امبراطورية شارل الخامس
امبراطورية فوق الدول

فى القرن الخامس عشر انتقلت اراضى بورجندى ، وتطلعاتها ، الى بيت هابسبرج بالميراث ، وجمع شارل الخامس الاراضى الواطئة واسبانيا وممتلكاته النمساوية والتاج الامبراطورى ، وان كان قد تنازل بعد ذلك بمدة قصيرة عن النمسا لأخيه فرديناند (١) . وأطلق شارل على نفسه ملك الممالك الخمس والعشرين وحاكم جزر الهند الشرقية والغربية وكل جزر المحيط وقاراته • وبدا أن حلم دانتى بامبراطور يرسى السلام والعدالة فى العالم لم يعد أمرا غير عملى • فشارل الخامس ، كان أحد المعجبين بايرازموس – برغم انه كان فخورا وطموحا ، ولم يسع الى اكاليل الغار الدامية كقيصر • وكان يسخر من فكرة الامبراطورية العالمية التى يعزوها اليه اعداؤه ، واكد ان هذا المفهوم لم يدخل فى نطاق تفكيره قط مهما بدا ممكنا • وبرغم ان حكمه كان زاخرا بالحروب فانها لم تكن نتيجة

---

(١) أدوارد ارمسترونج «الامبراطور شارل الخامس» مجلدان ١٩٠٢ •وكارل براندى «Kaiser Karl V» ومارتين هيوم « اسبانيا عظمتها وأفولها » ١٩٢٥ • ولاتريفور ديفيز « القرن الذهبى لاسبانيا » ١٩٣٧ • وليوبولد فان رانك «Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation» ستة مجلدات ١٩٢٥ • وه• بيرن «Histoire de Belgique» المجلد الثالث ١٩١٢ •

خطئه أساسا (١) • وكان الامبراطور مدينا بامبراطوريته أساسا الى سياسة بيت هابسبرج فى عقد الزيجات مع البيوت الحاكمة الاخرى والصلات العائلية الى حد اثار الشاعر الى قول :

«ليشعل الآخرون الحروب ، أما أنت أيتها النمسا السعيدة فتزوجي ! لان الممالك التى يدين بها غيرك لمارس اله الحرب ، تحصلين عليها أنت من الزهرة الهة الحب » (٢) •

واستمر شارل فى هذه السياسة التى كانت سمة هامة من سمات خطته •

فجميع الملوك تقريبا وكثير من الحكام المهمين الآخرين كانوا مرتبطين به بصلات عائلية وثيقة(٣)• وقد ساعد ذلك كثيرا على تسوية النزاعات، وبخاصة بتوحيد اى بيتين حاكمين يتنافسان على اقليم بالزواج واعطاء الاقليم المتنازع عليه للوليد . وساعد أيضا على الحصول على أراض جديدة بالميراث، ومن ناحيةأخرى سهل أيضا انفصال الاقاليم حيثانهاظلت دائما فى العائلة ولم تنتقل الى أيدى أعداء الداء (٤) • وكانت هذه الخطة تنطوى من ناحية المبدأ على امكانيات اوسع لتسوية سلمية للنزاعات الاقليمية اكثر من اية خطة تقوم على الاحتفاظ المطلق باقليم معين • فضلا

---

(١) ورأى واحد من أكبر المؤرخين المختصين « ان حروب شارل كانت كلها في الحقيقة دفاعية » آرمسترونج المجلد الثانى ص ٣٧٠ •

(٢) يعزى هذا الشعر الى مانياس كورفينوس ملك هنغاريا (القرن الخامس عشر) •

(٣) ففيما يتعلق بانجلترا مثلا كانت الملكة كاترين عمة الامبراطور . وقد كان هناك اتفاق على أن يتزوج هو نفسه ابنة عمته مارى ، ابنة هنرى الثامن ، وعندما فشل ذلك تزوجت مارى ابنه فيليب الذى ظل ملكا على اسبانيا حتى وفاتها وملكا لانجلترا وحاكما للأراضي الواطئة . بيد ان الاتحاد الشخصي بين اسبانيا وانجلترا لم يقصد به أن يكون دائما • فقد تم الاتفاق على أن أكبر أبناء فيليب ومارى سيأخذ انجلترا والاراضي الواطئة وبورجنديا الحرة . ولو ان مارى أنجبت ولدا لقام هناك فرع ثالث لبيت هابسبورج في انجلترا الى جانب فرع اسبانيا والنمسا . انظر رانكه المجلد الخامس ص ٣١٣ •

(٤) فى بداية حكمه كان شارل ، الذى ربى بين تقاليد بورجنديا ، يعلق اهمية قصوى على استعادة كل الاراضى البورجندية ، الامر الذى لم تقبله فرنسا بتاتا برغم انها كانت ستأخذ ميلان مقابل بورجنديا • بيد ان شارل سرعان ما صرف النظر عن هذا المطلب وعمل على تسوية النزاع بين البيتين المالكين بزواج واحدة من قريباته من أمير فرنسى • وكان هذا البيت المالك الجديد سيحصل اما على الاراضى الواطئة ومقاطعة بورجنديا الحرة أو دوقية ميلان • ولو ان احدى هذه الخطط نجحت لوفر ذلك على اسبانيا وفرنسا وأوروبا كثيرا من الكوارث الفظيعة • انظر هيوم ص ٧٢ ، ٧٥ •

عن أنها برغم طابعها الملكي في جوهره لم تكن متعارضة مع الشعور القومي.

فالامبراطور نفسه لم يكن منتميا بصفة خاصة لاى من جنسيات امبراطوريته وان كان بالتأكيد يعطف على الكثير منها ويفهمه (١) .

ورجال الدولة الذين كانوا مستشاريه الرئيسيين كانوا يختارون من جميع الامم . فكان أهم مستشاريه ايطاليا ، المستشار الاول جاتينارا . وبرغم أن أسبانيا صارت مركزا للامبراطورية أكثر فأكثر ، وكانت المصالح الاسبانية تحدد السياسة الاساسية التي تتبع ، فان الاسبان لم يحكموا الباقي . ومن بين المستشارين الثمانية للدولة لم يكن هناك سوى أسبانيين . فقد كانت هناك غيرة كبيرة في جميع البلاد من المستشارين الأجانب للامبراطورية ، وكان عليه أن يضع امامها ضمانات مناسبة لتهدئة الريبة والعداوة القوميتين بين شعوب امبراطوريته . بيد أن المشاعر المحلية كانت لا تزال من القوة في كل مكان بحيث أن الموظف الذى يجيء من مقاطعة مجاورة كان يعتبر أجنبيا . فالفلمنكي كان يعد أجنبيا عند الهولندى ، والقشتالي يعد أجنبيا في نظر الاراجوني . وقد ساعدت سياسة الامبراطور كثيرا على التغلب على هذه المحلية الضيقة ودعم الوحدة القومية . ولعله كان يستطيع التأثير في المانيا وايطاليا بنفس الطريقة لولا عقبات لا تقاوم وقفت في سبيله (٢) .

ومن ثم فان امبراطورية شارل الخامس لم تتماسك عن طريق سيطرة أمة واحدة حاكمة على بقية الشعوب . بل كانت في الواقع كونفدر الا من الدول المستقلة ذاتيا ، أو نوعا من « عصبة الأمم » في قالب ملكي فيودالي.

---

(١) ولد شارل في جنت ببلجيكا وكانت تربيته باللغة الفرنسية والمدنية الفرنسية في بلاط بورجنديا . وفيما بعد تعلم الاسبانية أيضا ثم الالمانية والفلمنكية . وكان يعتبر الفلاندر موطنه الأصلي . وفي أواخر حياته صار اسبانيا أكثر ، ولكنه كان يعلن بين الفينة والفينة انه « ايطالي طيب » أو أكد للألمان انه يحس بهم .

(٢) يصف ارمسترونج ، في المجلد الثاني ص ٣١٠ و ٣٢٥ ومابعدها و ٣٤٤ ، وكذلك بيرن في المجلد الثالث ص ١٨٦ و ٢٠٦ ، الدور الكبير الذى قام به الامبراطور في نمو فكرة الأمة في الأراضي الواطئة . كما أبدى شارل أيضا تفهما ممتازا للشعور القومي بادراكه انه قد يؤدى الى الرغبة في سيادة منفصلة . ومن ثم وضع خطة لخلق مملكة بورجندية تضم أساسا الأراضي الواطئة ومستقلة عن اسبانيا تحت حكم ابن ثان كان يتوقع مجيئه ولكنه لم يولد . وكان ذلك سيؤدى الى تجنب تمرد النذرلاند الذى اندلع في حكم فيليب الثاني الذى كان قد صار ملكا قوميا لاسبانيا وبذلك نفرت منه قلوب أهل الاراضي الواطئة . وبالنسبة لألمانيا اقترح الامبراطور اصلاحات ادارية شاملة كان من شأنها أن يعيد الوحدة الداخلية ، ولكن الامراء رفضوها .

فقد احتفظت كل دولة بامتيازاتها وانظمتها التقليــــدية • ففى كل من الأراضى الواطئة وأسبانيا لعبت « مجانس الطبقات » ، المؤلفة من مندوبى رجال الدين والنبـــلاء والمــدن دورا بارزا ، وكثـيرا مارفضت مطالب الامبراطور (١) • وفى البلاد الواطئة اجتمع « مجلس الطبقات » فى عهد شارل أكثر من خمسين مرة • وكثيرا ما عرقلت قوة « مجلس الطبقات » الأعمال الحربية ، ولم يكن الامبراطور يستطيع الاعتماد على مشاركة جميع بلاده فى حرب ضد العدوان . اما فى فرنســـا فان «مجلس الطبقات» لم يجتمع فى مناسبة واحدة طوال عهـــــد فرنسيس الاول ، الذى كان ينافس شارل • والى جانب التمتع بالاستقلال كانت شعوب الامبراطورية تحصل على ميزات اقتصادية عن طريق انتمائها الى الامبراطورية • فقد كان شارل من محبذى حرية التجــارة داخل الامبراطورية وفتح باب الممتلكات الاسبانية عبر البحار أمام جميع أعضائها • بيد أن الاسبان عارضوا فى ذلك بشدة • ومع ذلك فان التجارة البلجيكية والألمانيـــة استفادت كثيرا فى هذا المجال • بالاضافة الى أن وحدة الدين كان ينظر اليها على أنها ضمان مهم لوحدة الامبراطورية . وقد بذل شارل جهودا كبيرة لعدم انقسام الوحدة الدينية باصلاح الكنيسة ووضع الحلـــول الوسط بين الشيع المتنابذة • وقد أخفق ذلك بسبب ما أبداه الطرفان من روح عدوانية ، وكذلك الى حد كبير بسبب أن البـاباوات كانوا يخشون السيطرة السياسية للامبراطور الكاثوليكى أكثر بكثير من خطر الكنيسة البروتستانتية • ومن ثم فان البابوات كثيرا ما تحـــالفوا مع أعـــــداء الامبراطور حتى مع البروتستاتيين والأتراك •

بيد أن ألد أعــــداء الامبراطورية كان فرنسيس الأول ملك فرنســا الذى كان قد حاول أن يصير امبراطورا هو نفسه وفشـــل . وكان الملك الفرنسى ورجال دولته ينظرون الى قوة الامبراطور كحاجز لا يحتمل ضـــد توسع فرنسا فى ايطاليا والأراضى الواطئة ، بل وكتهـديد لهم حيث كانت فرنسا ، فى الواقع محوطة بممتلكات الامبراطور • وصارت بلاد امبراطورية لوثار الوسطى ، الأقاليم البورجندية والايطالية ، ميدانا لقتال جرى عدة قرون بين فرنسامن ناحية واسبانيا والنمسا من ناحية ،وحتى انجلترا أيضا تورطت فى هذه الحروب •

---

(١) ان الرأى القائل بأن شارل حطم قوة « مجلس الطبقات » فى اسبانيا خطأ • انظر تريفور ديفيز ص ٥٩ • بيد أن قوة التاج زادت عندما انضم صغار النبلاء (الهيدالجو) الى جانب الملك بعد أن اتخذت الحركة الثورية طابع الحرب الاجتماعية •

وكان لويس الرابع عشر من وجهة النظر القائلة بأن تاج شرلمان ينتمى شرعا للبيت المالك الفرنسى ، وكان هذا الطموح هو عصب الايديولوجية الفرنسية القومية (١) . وقد بدا أنه سيؤسس امبراطورية فرنسية تسيطر على أوروبا كلها وأقوى بكثير من امبراطورية شارل الخامس • وقد فشل فى ذلك بسبب المقاومة المشتركة من جانب انجلترا والنمسا ، وانتهى الصراع الطويل حول « الوراثة الاسبانية » بتقسيم الامبراطورية الاسبانية بين بيتى البوربون وهابسبورج •

٨ ـ امبراطورية نابليون القومية وظهور النزعة القومية الحديثة •

نجح نابليون فى فرض حكمه المباشر أو غير المباشر على القسم الأكبر من القارة • واهتم جدا بأن يظهر كوريث حقيقى لشرلمان • وكثيرا ما كرر ذلك فى أقواله العامة ومراسلاته السياسية ، أو أشار اليه وحاول حتى أن يحصل على التاج والشعار القديمين فى تتويجه ، ولكنه اضطر لأن يكتفى بتقليدها . بيد أن امبراطوريته كانت مختلفة تماما عن امبراطوريتى شرلمان وشارل الخامس . لقد كانت روحها هى روح امبراطورية ديوقليشان كما قال نابليون نفسه ذات مرة . اذ كانت امبراطورية فرنسية تحكم فيها جميع البلاد المغزوة تبعا لأوامرالامبراطور وتستغل بلا رحمة لتحقيقمطامعه الشخصية . فكل من البلاد التىضمت والدول التابعة كانتمرغمة على تقديم مساهمات ضخمة ، وأن تضعتحت تصرفه فرقاكبيرةمن الجندتستخدم طعاما للمدافع . وهكذا كانتالشعوب المغلوبة تكره على القيام بتضحيات كبرى فى الدماء والمال لغزوات أخرى • وجعل ذلك فى وسعه أن يوفر على الشعب الفرنسى العبء الأكبر من أعباء الحرب وبذلك يحتفظ بشعبيته (٢) • وقد أرغمت الشعوب «المحررة» فى ايطاليا وهولندا وغيرها على أن تسلم أيضا الى المحرر أثمن

---

(١) انظر لويس الرابع عشر « أعماله » ١٨٠٦ المجلد الاول ص ٧١ وما بعدها. وبعد الحصول على التاج الاسبانى أعلن لويس الرابع عشر ان الفرنسيين والاسبان قد صاروا وحدة الى حد انهم أصبحوا منذ ذلك الوقت أمة واحدة •

(٢) هـ.أ. فيشر «نابليون» ١٩٣٢ ص ١٥٥ •

كنوزها الفنية وآثارها التاريخية • وكان على جميع الشعوب الخاضعة أن تطبق القوانين والادارة الفرنسية • وكان يسيطر عليها وزراء فرنسيون ؛ وأرغمت على استخدام الفرنسية لغة رسمية الى جانب لغاتها الخاصة • وكثيرا ماغيرت حدودها ودساتيرها وحكامها بصورة تحكمية بواسطة الدكتاتور دون اعتبار لرغباتها . وكانت مرغمة الى حد كبير على السماح بحرية دخول المنتجات الفرنسية الى أسواقها فى حين كانت منتجاتها ممنوعة من دخول فرنسا بالتعريفة المرتفعة ، وكان عليها ان تنضم الى الحصار ضد انجلترا بما فيه من خسارة كبيرة عليها .

وكان تطبيق القوانين الفرنسية التي صيغت متأثرة بفكرة المساواة فى الثورة الفرنسية ينطوى ايضا على عدة مزايا ، مثل الغاء امتيازات المرتبة الاجتماعية ونظام الاقنان وبعض البقايا الفيودالية الأخرى ،وتحقيق المساواة الدينية وازالة العوائق التجارية وتحسين المواصلات • ومن الناحية الأخرى أخمدت هذه القوانين كل الأنظمة التى تحد من السلطة المطلقة مثل المجالس الاقليمية « الدايت » ، كما أخمدت الحكم الذاتى للمدن والاستقلال الكنسى وروح الحرية فى البحث والتربية والأدب والصحافة ، فى كل مكان ظهرت فيه (١) •

وكان الهدف النهائى للخطة النابوليونية هو تدمير جنسية الشعوب الخاضعة • وقد اتخذ نابليون أحيانا موقف المدافع عن الشعوب المضطهدة أو أثار الآمال القومية • ولكن ذلك كان مجرد دعاية ، ويمكن اثبات ان الامبراطور لم يأخذ هذه التصريحات مأخذ الجد قط بكثير من تصرفاته وأقواله هو شخصيا (٢) • ويقول تين : « ان نابليون اتخذ من روما التى صبغت حوض البحر الابيض بالصبغة الرومانية مثلا يحتذيه وأراد أن يجعل غرب أوربا بأكمله فرنسيا» (٣) . وقد قال نابليون : « ان أسبانيا يجب أن تكون فرنسية ــ الحكومة فرنسية والبلد نفسه يكونفرنسيا » •

---

(١) أدوار دريو «Napoléon et l'Europe : le grand Empine » ، ١٩٢٤ ص ١٦٢ • وهـ• أ• ل• فيشر « دراسات فى السياسة النابوليونية فى ألمانيا » ١٩٠٣ •

(٢) كثيرا ما أكد نابليون للايطاليين رغبته المخلصة فى حريتهم وعظمتهم فى حين انه كان يتحدث فى نفس الوقت ، فى الوثائق السرية ، عنهم بازدراء شديد ويصفهم بأنهم غير صالحين مطلقا للحرية . انظر أ• فورينيه « نابليون الاول » ١٩١٣ المجلد الاول ص ١٢٧ و ١٣٥ • وكان موقفه من التطلعات القومية البولندية يتسم بنفس الازدواج • انظر فورينيه المجلد الثانى ص ١٥٩ و ١٨٨ و ٣١٣ والمجلد الثالث ص ٨٧ و أ• فيشر « البونابرتية » ١٩٠٨ ص ٥٣ •

(٣) هـ • تين «Les Origines de la France Contemporaine» (الترجمة الانجليزية« النظام الجديد ») ١٨٩١ المجلد الاول ص ١٤٩ •

وفى ألمانيا أيضا كان هدف نابليون باعترافه هو القضـــاء على جنسية الشعب . ولاعادة تنظيم هولندا عين لجنة يقول عنها ديرو ، أحد المعجبين المتحمسين لنابليون : «انها سرعان مالم تترك فى هولندا شيئا هولنديا» . وكان المراد ببلجيكا ، كهولندا ، « أن تتحول الى أرض فرنسية وتدمج فى الوطن الفرنسى (١) » . وبنفس الطريقة نظمت ايطاليا تماما على النمط الفرنسى وادمجت فى الامبراطورية الفرنسية (٢) .

وقد يبدو لعقولنا اليوم أن اعتقاد نابليون فى امكان الغاء جنســية هذا العدد الكبير من الشعوب الكبيرة ذات التقاليد القومية وفرنستها غير مفهوم مطلقا ، بالنظر الى أنه كان لديه فيما عـدا هـذه النقطة ادراك سيكلوجى عجيب . ولكنه فى هذه النقطة كان يشاطر وجهة النظر المنتشرة فى عهده من أن الجنسية ، كالدين ، ليست أكثر من لـــون من ألوان التحيز التى يستطيع الحاكم المتنور اما أن يستخدمها أو يخمدها تبعـــا لما تقضى به أغراضه . بالاضافة الى أنه كان أساسا عســكريا ومن ثم آمن بأن الحكومة القوية تستطيع انجاز أى شىء تقريبا . وأخيرا ينبغى الا ننسى أن النزعة العالمية والمدنية الفرنسية كانتا منتشرتين بين الطبقات المثقفة فى كثير من بلاد أوربا وبخاصة فى ألمانيا . وقد تشرب قطاع كبير من المثقفين الألمان باعجاب عظيم بالامبراطورية الذى دمر الامبراطورية المقدسة وحط من شأن ألمانيا فجعلها مستعمرة فرنسية .

وتحطمت سيطرة نابليون فى آخر الأمر بواسطة الموجة المتقدمة للتمرد القومى . وكانت الثورة الفرنسية قد بينت مدى الطاقة الضخمة التى يمـــكن الحصول عليهـــا باثارة الجمـاهير .. وأرادت الحــكومة النمساوية فى سنة ١٧٩٤ أن تلجأ إلى تسليح الشعب عامة لطرد الغازى الفرنسى (٣) . ولكن روح الطائفية العســكرية البروســية عارضت هذا المبدأ الذى يعد فى نظرها ثوريا . ومع ذلك فان النمسا التجأت أحيانا الى شعوبها ، وقد قوبل تمرد أهل التيرول بقيـــادة أندرياس هوفر بترحاب

(١) هـ. فان درلیندن « بلجيكا : أمة تتكون » ١٩٢٠ ص ٢١٥ .

(٢) ان فكرة أن هدف نابليون النهائى كان أن يخلق ايطاليا موحدة وحرة غـــير محتملة بالمرة . وقد نقضها دريو ص ٢١٩ و ٢٦٥ .

(٣) لانجويرث فون سيمرن .
«Oesterreich und des Reich im Kampf mit der Franzossischen Rev.»
١٨٨٠ المجلد الاول ص ١٨ و ٢٤ و ٣١٤ و ٣٩٥ و ٥١٥ . وهو خطأ شائع بين معظم المؤرخين الانجليز أن يقال ، كما يقول هـ.أ. فيشر (نابليون (١٩٣٢ ص ١٧٦) ، ان النمسا كانت مجرد مجموعة من الدول لا يدفعها أى انفعال موحد وتطمع سيطرة حكم لا يصدر عن الارادة الشعبية ولا تقره هذه الارادة .

حماسي من جانب جميع أصدقاء الحرية • وكانت حرب انجلترا ضد القيصر الفرنسي صراعا قوميا ، على الأقل في البحر • وأظهر الاسبانيون طوال الصراع روحا قومية عنيفة أدهشت العالم وأثارت آمالا جديدة • وسرعان ما انتشر نفس التمرد في روسيا والمانيا ايضا ، وأدى ذلك الى سقوط حكم نابليون الاستبدادى نهائيا •

بيد أن المشاعر القومية التى اثيرت فى هذه الصراعات ظلت حية وصارت قوة سيطرت على جميع الشعوب • فقد مهدت الثورة الفرنسية السبيل لموجة عاتية من الشعور القومى والنزعة القومية أغرقت العالم • فانجيلها أثار الاحساس بالجنسية بعدة طرق • وهكذا فان نابليون دعم دون قصد انتشار هذا الشعور فى أوربا كلها . وكان من العوامل القوية التى ساعدت فى هذه العملية أيضا اخماد استقلال عدد لا يحصى من الدول الصغرى وفرديتها وولاءاتها وادماجها فى أقاليم أوسع • ويبين التاريخ أن الحركات القومية فى القرن التاسع عشر كلها ، وبخاصة لدى الايطاليين والألمان والبولنديين والسلافيين الجنوبيين واليونانيين ، انعشتها فرنسا الثورية ونابليون بشكل حاسم وان كان بغير قصد (١) • وتكمن جذور كل من الجامعة الجرمانية والجامعة السلافية فى هذه التقاليد •

لقد تتبعنا هنا تيارا رئيسيا واحدا من الطموح الامبراطورى وتأثيره على الجنسية ، وهو التقليد الخاص بالامبراطورية الرومانية كما بعثه شرلمان الى الحياة • بيد أن هناك تقليدا موازيا انبثق من الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية وأدى ، عن طريق بيزنطة ، الى تكوين الامبراطوريتين : التركية والروسية • فكلاهما ادعى أنه الوريث الحقيقى للامبراطورية الرومانية الشرقية • ويذكرنا تنافسهما فى السيطرة على البلقان بالتنافس بين الدول الغربية لامتلاك الامبراطورية الوسطى (٢) • وكانت هناك بالاضافة الى ذلك الامبراطورية النمساوية التى توحدت فيها تقاليد حيوية من تقاليد الغرب والشرق واشتركت فى الصراعات فى كلا القسمين من أوربا . وبدت هذه السياسة ممثلة فى النسر ذى الرأسين رمزا للامبراطورية النمساوية الذى أخذته عن بيزنطة • واخيرا قامت

---

(١) ان سويسرا أيضا صارت وحدة قومية نتيجة لتدخل نابليون فى استقلالها . انظر أ. شولنبرجر «Geschichte der Schweizerischen Politik» ١٩٠٨ المجلد الثانى ص ٧ وما بعدها •

(٢) يحول ضيق المكان دون وصف هذا التنافس وأثره فى الجنسية • ولكنى عالجت الموضوع فى كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول ١٩٣٧ ، الفصل السادس والتاسع والثانى عشر •

امبراطوريات من نوع آخر فى المستعمرات التى تمتلكها الأمم الاوربية ، وتحتل بينها الامبراطورية البريطانية وربيبتها الأمريكية مركز الصدارة ·

وقبل أن ننظر فى بعض الأمثلة الأخرى للتنظيم الامبراطورى والتنظيم فوق الدولى يجب أولا أن نناقش عملية الوحدة القومية ، أى اندماج وحدات قومية صغيرة لتكون أمما كبيرة · واذا كنا نستعمل لفظ « المحلية » لوصف الولاء للاقليم الصغير ينبغى الا نتجاهل حقيقة أن هذا الولاء كثيرا مايكون ولاء قوميا ، ولايبدو محليا الا نسبيا .

٩ ـ توحيد فرنسا قوميا

ان تاريخ الوحدة القومية يعتبر المثال الكلاسيكى للتوسع والمركزية فى ظل حكم البيوت المالكة · ففى العصور الوسطى كان مشرعو الملكية قد بدءوا فعلا يعلنون أن فرنسا هى الوريث الشرعى لبلاد الغال القديمة ، ومن ثم يستطيعون المطالبة بحدود بلاد الغال كما وصفها قيصر ، أى الرين والالب والبرانس (١) · وصار هذا المبدأ من تقاليد السياسة الخارجية الفرنسية وجعل فرنسا تشتبك فى عدة حروب كبيرة · وقد كانت هناك داخل اقليم فرنسا الحالية جنسيات مختلفة عديدة ، وكانت قوى « المحلية » قوية جدا (٢) · فالى جانب عناصر كبيرة من البريتونيين وأهل الباسك والألمان والفلمنكيين كانت تضم أهل بروفنسال الذين يتحدثون لغة مختلفة اقرب الى لغة القطالونيين منها الى الفرنسية ، والذين كانت لديهم مدنية رفيعة · وكان الصليبيون الفرنسيون قد غزوا بلادهم من الشمال بقسوة فظيعة· وفى حرب «المائة عام» كان أهل الجنوب الغربى وبخاصة أهل جويين وغسقونيا ، الى جانب الانجليز ، فى حين كان النبلاء

---

(١) انظر فيما يتصل بتطور هذه الفكرة وأثرها البرت سوريل «L'Europe de la Rév. Française» المجلد الاول ص ٣٠ و ٢٤٤ و ١٣٢٤ · وفريتزكين «Die Anfange der franzoesischen Ausdchmungs-politik bis Zum Jahr, 1308». ١٩١٠ ص ١٤ و ٢٧ و ٣٢٣ · وفيما يتعلق بتطور الشعور القومى انظر د· كيركلاند « نمو الشعور القومى فى فرنسا قبل القرن الخامس عشر فى التاريخ ١٩٣٨ · و أ · جاكيه Sentiment national 16e Siecle en Revue des questions hist. ١٨٩٥ · و م· أولار «Le patriotisme Français de la Renaissance à la Révolution» ١٩٢١ ·

(٢) كان اسم فرنسا أصلا يطلق على المنطقة القريبة من باريس والتى تحدهاخمسة أنهار ، ومن ثم كانت تسمى « جزيرة فرنسا » · ففى الجامعات مثلا كان الطلبة الذين يجيئون من الاقليم الذى يسمى فرنسا اليوم يقسمون الى «أمم» مختلفة ــ فى جامعة بولونيا الى ثمانى أمم ــ كانت احداها الامة الفرنسية . وكان «مجلس الطبقات» العام فى ١٤٨٤ مقسما الى ست أمم ·

كثيرا مايؤيدون الفرنسيين ، وان لم يكن ذلك لأسباب قومية (١) . وعندما انتهت الحرب لم يسر تجار بوردو لانتصار القضية القومية بل تأسفوا على أيام الحكم الانجليزى الذهبية . وفى ١٤٥٧ كتب ملك فرنسا لملك اسكتلندا : « ان شعب جويين يميل فى قرارة قلبه الى الجانب الانجليزى » (٢) . وفى القسم الأخير من الحرب أيدت عدة مدن فى الشمال دوق بورجندى الذى كان متحالفا مع انجلترا ، ضد الوحدة القومية تحت التاج الفرنسى . وبصفة عامة كانت المدن الفرنسية التى يحكم فيها الجانب الديموقراطي مع بورجندى ، فى حين كان النبلاء وكبار رجال المدن مع فرنسا . فالمدن الصناعية الحرة فى الأراضى الواطئة كانت عصب حزب بورجندى (٣) . وكان كثير من المدن الفرنسية يجذبها المركز الفخور الذى تحتله المدن البلجيكية أكثر مما تجذبها فكرة الوحدة القومية الفرنسية تحت ملك متحالف مع الفيودالية . ولو أن بورجندى وانجلترا كسبا الحرب لنمت عدة أمم مستقلة فى الاقليم الذى تتكون منه فرنسا الآن ، وبخاصة بلجيكا الكبرى فى الشمال وأمة البروفنسال فى الجنوب .

وكان الاحساس بالاستقلال قويا فى أجزاء أخرى من فرنسا أيضا . وعندما حاول لويس الرابع عشر وحلفاؤه أن يضموا بلادا كبيرة تتحدث الفرنسية كان النجاح وحده هو الذى نحدد به اليوم هل كانت سياسته توحيدا قوميا أو محاولة ضم . فالهجمات التى شنت ضد بلجيكا تعتبر اعتداء لا مبرر له ، فى حين أن ضم اللورين وفرانش كوميتيه يبدو اليوم مشروعا بمقتضى مبدأ الوحدة القومية. والحقيقة أنه لاشعب اللورين ولا شعب فرانش كونتيه أراد أن يصير فرنسيا أكثر مما أراد البلجيكيون. فأهل اللورين قاتلوا ببسالة ضد الفرنسيين ، وقتل منهم عدد كبير ، وفكرت الحكومة الفرنسية فى ترحيل الباقين الى كندا (٤) . ولم تتوحد لورين نهائيا مع فرنسا الا فى ١٧٦٦ . ان موريس باريه ، أبرز ممثلى الفكر القومى فى العصر الحاضر ـ وهو من أبناء لورين ، يقول : ان شعب لورين لم يصبح فرنسيا الا بالفوائد التى أتاحتها الثورة وبالأخوة فى

---

(١) يذكر فرواسار (المجلد الثالث ، ٤٣) ان النبلاء الغسقونيين في الحرب الكبرى بين فرنسا وانجلترا كثيرا ما انتقلوا من جانب الى جانب ، ولكنهم كانوا يحبون الانجليز أكثر لأن الحرب ضد الفرنسيين كانت أكثر ربحا وبخاصة أنها تتيح لهم فرصة نهب التجار الفرنسيين .

(٢) اليانور لودج «غسقونيا تحت الحكم الانجليزى» ١٩٢٦ ص ١٣٠ .

(٣) ف. فانك «التاريخ القومى الفرنسى» ١٩٢٢ المجلد الاول ص ٤٣٧ .

(٤) هـ . بريشفيلر «Geschichte Lothringens» ١٩٠٥ ص ١٠٧ و ١١١ .

القتال والمجد فى حروب الجمهورية ونابليون • وقد ضمت فرانش كونتيه الى فرنسا فى ١٦٧٤ ، ولكن بعد خمس وثلاثين سنة تلقى مؤتمر السلام الذى أعد « سلام أوتراخت » عريضة من شعب فرانش كونتيه يطلبون فيهـا تحريرهم من العبودية الفرنسـية وأن يسـمح لهم بالعودة الى الامبراطورية (١) • وقبيل الثورة كانت بعض مقاطعات فرنسـا تريد الاعتراف بها أمما منفصلة (٢) • ولكن فى حالة الالزاس نجح الفرنسيون فى كسب الشعب برغم لغتهم الألمانية وطابعهم الألماني ، وتقول العريضة المشار اليها : ان سـكان الألزاس قد صـاروا فرنسيين فعلا أكثر من الباريسيين •

وبرغم أن فرنسـا ظلت قرونا خاضـعة لنظام مركزى فان ذكرى الاستقلال القومى السابق لم تختف فى بعض أقاليمها • وفى القرن التاسع عشر ظهرت حركات للثقافة المحلية والاستقلال الذاتى السياسى فى أجزاء من فرنسا وأيدها كتاب بارزون ، وان لم تحظ بنفوذ سياسى كبير فى أى مكان (٣) •

وتتفق سياسة التوسع التى اتبعهاملوك فرنسا وخلفاؤهم مع مطامح ومصالح قطاعات ذات نفوذ من الفرنسيين كانت تعتبر وقتذاك هى وحدها الأمة • اذ كانت تشـبع تطلعهم الى المجد والتفوق بين الأمم ، وحولت أحيانا الانفعالات القومية عن النزاع الداخلى الى الحروب الخارجية • وكان مذهب الحدود الطبيعية متأصل الجذور فى الأيديولوجية الفرنسية بحيث أنه حتى دعاة الحرية القومية وتقرير المصير أخذوه عن النظام القديم • ان روسو كتب « ان الجبال والبحار والأنهار تكون الحدود للأمم التى تعيش فى أوربا ، وواضح أن الطبيعة نفسـها قد حـددت عدد الأمم وحجمها • فالنظام السياسى لهذه القارة من صنع الطبيعة • ان الالب والرين والبحر والبرانس ليست عقبات لا يمكن التغلب عليها فى وجه التوسع ، ولكن قوى أخرى تزيدها قوة ، وتعيد هذه الحدود الى سابق أصلها اذا اعتدى عليها أحد مؤقتا بالعنف » •

وقد أعلن زعماء الثورة حق كل شعب فى تقرير مصيره ، ورفضوا

---

(١) ب • اورمانسدورفر «Deutsche geschichte 1648-1740» المجلد الثانى ص ٢٥٧ •

(٢) انظر ب • فراى هيسلوب «النزعة القوميـة الفرنسـية فى ١٧٨٩» ١٩٣٤ ص ١٨٥ •

(٣) أنظر العرض المفيد فى كتاب الفونسى «Les idées traditionalistes en France» ١٩٣٧ ص ١١٠ الى ١٣٧ •

أية سياسة للغزو ، وقالوا : انهم قاموا بالحرب ضد الطغاة للدفاع عن النفس فقط ولتحرير الشعوب المضطهدة ، ولوضع حد للحرب واقرار سلام دائم بين الشعوب المحررة • بيد أن هذه النيات الطيبة سرعان ما تبخرت مع الريح • فغزيت بلجيكا وأقاليم أخرى بلا رحمة ونهبت واستغلت وضمت طبقا للتقليد الفرنسى القومى الخاص بالحدود الطبيعية.

أما فى ايطاليا فان هذا المبدأ لم يمكن تطبيقه ، ولكن ذلك لم يمنع بونابرت من معاملتها بنفس الطريقة •

١٠ ـ الوحدة القومية الألمانية :

كانت ألمانيا المثال الكلاسيكى للتعصب المحلى المتطرف (١) • ففى العصور القديمة كان هناك عداء متوارث شديد بين القبائل الألمانية وبخاصة بين السكسون والفرانك • وكان ألمان الشمال وألمان الجنوب لايكادون يفهمون بعضهم البعض ، وكانوا يلجئون الى اللاتينية اذا أرادوا الاتصال • وصعد عدد كبير جدا من النبلاء الى مصاف حكام الأقاليم ووضعوا سياستهم الخاصة وقاموا بحروبهم المنفصلة دون اى اعتبار للأهداف القومية المشتركة • وكانت سياسة « المحلية » هذه تقوم أساسا على مصالح البيوت الحاكمة ولكنها حظيت بتأييد كبير ايضا من « المدن الحرة » وبين الشعب • فالامبراطورية القديمة لم تكن دولة قومية بل فدرالا فضفاضا كان يضم فى القرن الثامن عشر ١٨٠٠ حاكم • وكان بعضهم ملوكا ودوقات ومركيزات وكونتات وبعضهم بطاركة واساقفة وما الى ذلك ، ولكن ١٤٧٥ منهم كانوا مجرد فرسان أحرار لا يخضعون لأحد ألا للامبراطور ويحكمون جميعا مائتى ميل مربع (٢) • وكانت هناك ايضا احدى وخمسون « مدينة حرة » بل وبعض « القرى الحرة » أيضا ، وكان كثير من الامراء يحكمون دولا أجنبية بجانب أراضيهم الألمانية . مثل بريطانيا وروسيا(٣) والسويد والدانمارك وبولندا وهولندا وبلجيكا وبوهيميا وهنغاريا وبعض الأقاليم الفرنسية وايطاليا وسويسرا • وحتى الامارات الصغيرة جدا كانت تدعى أنها أمم منفصلة • ففى سنة ١٧٩٤

---

(١) فيما يتصل بالشعور القومى الالمانى وحركة الوحدة أنظر ب • يواشيمس ١٩٢٠ • و ف • مانيكه ، «Vom deutschen Volk zum deutschen Staat» المجلد ٧ «Weltburgertum und Nationalstaat» ١٩٢٨ •

(٢) ماكس فون بوهن «Deutschland im 18 Jahrhundert» ص ٤ و ٢٢ •

(٣) صار دوق هولشتاين جوتورب في ١٧٦٢ قيصرا لروسيا، ولكنه لم يحكم سوى فترة قصيرة •

مثلا طلب مجلس الدايت فى كالنبرج الى حاكمها ، الملك جورج الثالث ملك بريطانيا ، أن يعلن حياد « أمة كالنبرج » فى الحرب ضد فرنسا (١) ؛ وكان جيش كالنبرج يتألف من ٢٢ من الفرسان و ١٤٠ م ن المشاة (٢) . وكانت هذه الأوضاع طبعا مضرة وغير طبيعية من عدة جوانب . وقد شكا بعض الكتاب من عدم الوحدة والقوة ، ولكن لم تكن هناك حركة قومية ، ولم يكن الألمان غير راضين عن تكوينهم السياسى بصفة عامة .

بيد أن الثورة الفرنسية ونابليون أحدثا فيهم تغييرا كاملا . فقد اكتسح نابليون معظم الامارات الصغيرة ، كما أن المهانة التى تعرضت لها ألمانيا على يده وبسبب مطالبه ، وكذلك أفكار الثورة والرومانسية ، أثارت رغبة فى تكوين أمة قوية ومتحدة . ومع ذلك فقد كانت المشاعر المحلية متأصلة الجذور فى العقل الألمانى . وفى مؤتمر فينا احتجت بافاريا وورتمبرج على اقتراح طرح على بساط البحث بأنه « يخلق من شعبين مختلفين مثل البروسيين والبارفايين ما يشبه أمة واحدة (٣) .

وقد كان التطرف غير العادى فى المشاعر المحلية سببا فى قدر كبير من المهانة لالمانيا . ومن ناحية اخرى فان له ايضا جوانبه الطيبة . فقد أدى الى تنافس بين الحكام والنبلاء والمواطنين فى انشاء جميع أنواع المؤسسات الثقافية ، وكان من يضطهدون بسبب دينهم أو آرائهم فى ولاية يجدون ملجأ فى ولاية أخرى قريبة تكون أكثر تسامحا . فالارتباط الخارجى بالأرض دعم حرية الروح الداخلية ، ووجد مواطن المقاطعة الصغيرة التى بلا قوة ولا ثروة من السهل عليه أن يصير مواطنا طيبا فى العالم (٤) . ويرجع النمو العجيب للمعرفة والفكر وللتربية والصناعات لحد كبير الى عدم المركزية فى المانيا . وبرغم كل نقائص « المحلية » لم يكن توحيد بسمارك

(١) أ. وارد «بريطانيا وهانوفر» ١٨٩٩ ص ١٨ .

(٢) هـ . برجهاوس «Deutschland vor hundert Jahren» ١٨٦٠ المجلد الثانى ص ١٣٦ .

(٣) ج. جرفينوس . «Geschichte des 19 Jahrhunderts» ١٨٥٥ المجلد الاول ص ٨٢٢ .

(٤) مما له مغزى كبير أن أعظم شاعرين ألمانيين ، جوته وشيللر ، خلقا أعمالهما الخالدة فى ويمار التى كانت وقتذاك مجرد قرية . وكان سفرهما قليلا ولم يذهبا الى برلين الا مرة واحدة فى حياتهما (على بعد ١٣٠ ميلا من ويمار) لمدة أيام قلائل لاعمال خاصة . ولم يريا فينا قط ، وكانت وقتذاك أكبر مدن ألمانيا ، ولا باريس أو لندن ، وقضي أمانويل كانت حياته كلها في كوينجسبرج أو بالقرب منها . ولم يخرج قط من مقاطعته الاصلية .

لالمانيا بصبغها بالصبغة البروسية متفقا مع الرغبات الحقيقية لأغلبية الشعب الألماني خارج بروسيا (١) ، وان كانت هذه السياسة قد حظيت بموافقة قطاعات ذات نفوذ • فقد أثارت تطلعهم الى القوة والنفوذ ، واستخدم بسمارك الحروب بمهارة لاثارة الانفعالات القومية ، واستخدم منح حق الانتخاب للرجال فى الحصول على تأييد المشاعر الديموقراطية •

وتتردد الآن ، بعد سقوط هتلر ، فكرة ما اذا كان ينبغي تشجيع « المحلية » فى المانيا • وليس هناك ريب فى أن البناء القديم القائم على « المحلية » للرايخ يدعم المحافظة على السلام فى أوروبا • فتعدد الحكام والتنافس بينهم وصلاتهم الوثيقة بجميع البيوت المالكة فى أوروبا تقريبا ، وروح العالمية لدى المثقفين وعدم قدرة الدول الصغيرة على اثارة الحرب – كل هذه العوامل وغيرها عقبات ضد السياسة العدوانية • ومع ذلك فيجب ان نقول : ان روح عصرنا لا تحبذ المشاعر الوطنية المحلية الشديدة والولاء للحكام الأبويين •

١١ – الوحدة القومية الايطالية :

كانت حدود ايطاليا موضحة تماما بالحدود الطبيعية والتقاليد التاريخية واللغة • وعرقل الصراع بين البابا والامبراطور توحيد ايطاليا تحت حكم واحد، كما كان للنمو المبكر للمدن المزدهرة الفخورة باستقلالها الجمهورى نفس الأثر • وساد بين من المدن نزاع عنيف (٢) • وقد قال سالمبين انه كان بين مواطنى بيزا وجنوا كره طبيعى كالذى بين نوعين مختلفين من الحيوانات، وان كلا من الشعبين كان يحاول استئصال الآخر يدفعه التنافس والخيلاء (٣) • ودعمت نزعة «الانسانية» الزهو القومى

---

(١) فيما يتصل بعدم شعبية بروسيا بين الاقطار الالمانية الاخرى ومعارضة «وحدة» بسمارك أنظر و.هـ. دوسون « الامبراطورية الالمانية ١٨٦٧ – ١٩١٤ وحركة الوحدة» المجلد الاول ص ٥٤ و ٢٧١ – ٢٧٨ و ٢٨٢ و ٣٧١ •

(٢) اثار تدمير ميلان بواسطة الامبراطور فردريك الاول المشاعر القومية الايطالية الى اليوم • ولكن ميلان كانت قد عاملت المدن الايطالية الاخرى نفس هذه المعاملة بالذات وترك الامبراطور مهمة تدميرها لاعدائها من مواطنى لودى وكومو ونوفارا الذين انتقموا منها انتقاما فظيعا • أنظر هـ • بروتز «Staatengeschichte des Abendlandes im Mittelalter» ١٨٨٥ المجلد الاول ص ٤٩٢ •

(٣) أوردها كولتون فى «النزعة القومية فى العصور الوسطى» فى (مجلة كامبريدج التاريخية) ١٩٣٥ ويتضمن البحث حقائق مفيدة أخرى عن النزعة القومية فى العصور الوسطى •

بتمجيد عظمة روما القديمة ، التى اعتبرت أصل الجنس الايطالى ، وبتأكيد تفوق المدنية الايطالية بمقارنتها بمدنية الشعوب الأخرى كلها التى أطلق عليها ازدراء اسم البرابرة . ومنذ نهاية العصور الوسطى صارت ايطاليا ميدانا للقتال بين فرنسا واسبانيا والنمسا التى كانت تتنافس كلها على امتلاك الأقاليم الايطالية . وقد تطلع مكيافللى بلا جدوى الى تحرير ايطاليا من الأجانب .

وفى القرن الثامن عشر انتهت حرب الوراثة الاسبانية بفرض حكم النمسا على ايطاليا ، وكانت الادارة النمساوية متنورة وتقدمية وشعبية ، ولم يكن هناك أثر تقريبا لحركة التحرر الوطنى والوحدة لأن المشاعر المحلية كانت متأصلة الجذور فى عقل الشعب . ولكن الثورة الفرنسية اثارت تطلعا نحو الحرية القومية ودعم توحيد ايطاليا الوقتى تحت حكم نابليون شعور الوحدة الى حد كبير . وبعد سقوط نابليون عادت سيطرة النمسا ، ولكنها سرعان ما واجهت موجة صاعدة من الحركة القومية . وزاد العداء نحو الحكم الأجنبى حدة بسبب الطابع اللاتحررى لنظام مترنيخ . وتطلعت حركة القومية الايطالية لا لمجرد الاستقلال فحسب ، بل كذلك للحرية السياسية . وكان من الطبيعى الا ترضى التطلعات القومية بمجرد الكفاية الادارية والميزات المادية لحكم وصم بأنه أجنبى ، برغم أن معظم الموظفين كانوا ايطاليين ، وارتبط بالمشاعر المحلية (١) .

ومع ذلك فان المشاعر المحلية كانت لا تزال قوية الأثر فى شعوب الأقاليم الايطالية المختلفة. وعندما توحدت جنوا مع مملكة سردينيا وسافوى فى مؤتمر فينا كان من الممكن أن يعتبر ذلك خطوة نحو الوحدة ، ولكن شعب جنوا تذمر بشدة لخضوعه لبيت سافوى المالك وكان يحن للاستقلال

---

(١) يعتقد بعض المؤرخين أن منح الاستقلال الذاتى أو الحقوق السياسية للايطاليين مبكرا كان سيجعلهم يقبلون السيادة النمساوية . أنظر بولتون كنج « تاريخ الوحدة الايطالية» ١٨٩٩ المجلد الاول ص ٥٢ والمجلد الثانى ص ٢٨١ . ويبدو ذلك فى نظرى غير محتمل مطلقا.وفيما يتصل بالادارة النمساوية يقول بولتون كنج (المجلد الاول ص ٥١) ان أهل نابولى وروما وبيدمونت لهم الحق فى أن يشعروا بالحسد نحو الانظمة التى كان أهل لومبارديا والبندقية يعيشون فى ظلها ، ويأتى بأدلة كثيرة على قوله . وكذلك توسكانيا وبارما اللتان كانتا تحت النفوذ النمساوى تتمتعان بحكم طيب . فقد كان الحكم المحلى الفعال وحق الانتخاب على نطاق واسع لايوجدان الا فى المقاطعات النمساوية وقد كان لديها حتى نوع من المجالس النيابية وان لم تكن لها وظائف تشريعية وحيل بينها وبين النمو بسبب عدم ثقة الحكم المطلق . بولتون كنج ص ٥٦ ــ ١٠٩ .

الجمهوري القديم . وكانت روما وميلانو والبندقية ونابلي أيضا مزهوة بماضيها المجيد وظلت فترة طويلة على غير استعداد للتضحية باستقلالها من أجل فكرة الوحدة القومية . وكانت الحركة القومية فى أول الأمر تضم أقلية صغيرة فقط كان من البارزين فيها ضباط نابليون وموظفوه السابقون من الايطاليين . ثم انضم الطلبة وكثير من النبلاء والطبقة الوسطى الى الحركة . ودعا اللبراليون الى فدرال من الأقطار الايطالية التاريخية (١) على رأسه ملك سردينيا أو البابا بوصفه رئيسا ، فى حين وقف الراديكاليون بقيادة مازينى يطالبون بالوحدة الكاملة فى جمهورية على النمط الفرنسى . وكانت الجماهير منذ أمد طويل على ولاء لحكامها التقليديين ، أو غير مبالية ، وكثيرا ما حاربت حتى ضد دعاة الثورة القومية (٢). بيد أن الحركة اكتسبت شعبية بنجاح متزايد ، كما حصلت على تأييد قوى من جانب نابليون الثالث الذى كان يراوده الأمل فى استخدامها لزيادة قوته ولكن تغلب عليه كافور بدبلوماسيته .

وبعد هزيمة النمسا على يد الجيوش الفرنسية والايطالية طرح توحيد الأقطار الايطالية تحت ملك سردينيا ، وكذلك اتحاد سافوى ونيس مع فرنسا الذى كان الثمن الذى تقاضاه نابليون لمساعدته ، فى استفتاءات عامة ، وتمت الموافقة عليها بالاجماع تقريبا فى كل مكان . وتم التوحيد فى صورة اتحاد كامل . ومسحت ايطاليا كل أثر «للمحلية» ، ومن ثم فان المعارضة الكامنة لحكم ايطاليا بواسطة بيت سافوى المالك دعمت صفوف الراديكالية المناهضة للملكية وبخاصة فى الجنوب .

١٢ ـ نمو الوحدة القومية البريطانية

بلغ الانجليز قدرا من الوحدة القومية قبل بقية الأمم الأخرى فى أوربا ، ولم يكن لقوى العصبية المحلية فيها نفس القوة التى كانت لها فى القارة قط . ومن الواضح أن الخطر الدانماركى هو الذى أسرع بالتوحيد فى كل من انجلترا واسكتلندا . وقد بنى خلفاء ألفريد ، على الأسس التى وضعها ، سيادة وسكس على كل الأقطار الأخرى ، الانجليزية والدانماركية والسلتية ، بل وحصلوا حتى على سيادة اسمية

---

(١) وكانت النمسا ايضا تحبذ قيام فدرالى ايطالى ، ولكن مقترحاتها نبذت من جانب سردينيا لان اشتراك النمسا كان سينطوى على سيطرتها .

(٢) ج. بيركلى «ايطاليا تتكون : من ١٨١٥ الى ١٨٤٦ » المجلد الاول ص ١٩ و ٣٨ و ٩٢ و ٩٤ و ١٢٥ .

على اسكتلندا وويلز • وقد ضعفت هذه الوحدة فى عهد كانوت وادوارد بظهور « ايرلات » كبار وبدا أن انجلترا ستتمزق « شذرا » مرة أخرى• بيد أن الغزو النورماندى أدمج البلاد بعضها فى بعض وحال دون تمزق فيودالى مثل ذلك الذى حدث فى القـــارة • ومنذ ذلك الوقت لم تلعب العصبية المحلية قط أى دور ســـياسى كبير فى انجلترا (١) • ولو أن الامبراطورية الانجفينية ظلت قائمة واستطاع الملوك غزو فرنســـا نهائيا لتغير تاريخ العالم فى الغالب • اذ يغلب عندئذ أنهم كانوا سيعتبرون فرنسا مملكتهم الرئيسية وسادت عوامل الانشقاق الداخلى فى انجلترا ، كما حدث فى ألمانيا بسيطرة الأباطرة على ايطاليـــا وبخاصة عن طريق الاستيلاء على صقلية •

بالاضافة الى أن انجلترا نجحت فى استكمال جنسيتها وتحويلها الى جنسية بريطانية باشراك ويلز واسكتلندا معها وانشاء دولة موحدة منها جميعا • اذ أن ادوارد الأول غزا ويلز التى ظلت بعد ذلك خاضعة للتاج البريطانى ، بعد فترة قصيرة استعادت فيها استقلالها • واستبعد ادوارد الأول أهل ويلز من أية مشاركة في ادارة بلادهم ، ولكن جنود ويلز لعبوا دورا كبيرا فى خدمة انجلترا فى الحروب مع فرنسا ، الأمر الذى لعله جعل ولاء ويلز لانجلترا أقوى • ولكن ويلز فى القرن الخامس عشر كانت فى فوضى • وقد حصل هنرى تيودور من ويلز على الجنود الذين كسب بهم معركة بوزوورث ، وكان الملك نفسه من نسل ملوك ويلز وأبطالها القوميين • وأدخل ابنه هنرى الثامن الادارة الانجليزية فى ويلز وكذلك القانون واللغة الانجليزيين ومنح أهلها نصيبا من الحكم المحلى كما منحهم تمثيلا فى البرلمان الانجليزى • ورحب أعيـــان ويلز وهم القادة الطبيعيون للشعب ، بعملية صبغ البلاد بالصبغة الانجليزية لأنها فتحت أمامهم آفاقا جديدة فى انجلترا ، ولم تجد هذه السياسة مقاومة من جانب الشعب • وقد ظلت ويلز باستمرار على ولاء لانجلترا ولم يجد اتحادهما معارضة شعبية قط (٢) ، فقد استفاد كل من أهل ويلز والانجليز فوائد

---

(١) بيد أنه كانت هناك عداوات تقليدية بين أجزاء مختلفة فى انجلنرا كمـا يظهر بوضوح فى النزاعات الطوْيلة المريرة بين طلبة اكسفورد . وهذه الصراعات بين أهل الشمال وأهل الجنوب لها أيضا خلفية ســـياسية ، وكانت تعتبر في القرن الثالث عشر بذرة الحرب الاهلية ۹ وقد أورد ماثيو باريس أمثلة على العداء بين فرسان الشمال وفرسان الجنوب . أنظر أ. بوللار «تطورات البرلمان» ١٩٣٤ ص ١٣٦ .

(٢) و . لوبلين « ويلز الحديثة تتكون ، دراسات فى تسوية آل تيودور لاوضـاع ويلز » ١٩١٩ ص ٨ و ٢٣ وكذلك ج.ب. ريس «سياسة آل تيودور فى ويلز» ١٩٣٥

هذا التعاون ، كما استطاع أهل ويلز أيضا الاحتفاظ بفرديتهم القومية وتنميتها وتنمية مدنية قومية تدعو الى الاعجاب ٠

وكانت تسكن اسكتلندا أصلا عناصر مختلفة اندمجت فى جنسية اسكتلندية بسبب خطر السيطرة السكندنافية والانجليزية ٠ وقد ظلت اسكتلندا فترة تحت الحكم الأعلى للانجليز ، ولكنها استعادت استقلالها فى القرن الرابع عشر وقامت بعد ذلك الحروب بين البلدين باستمرار تقريبا مدة ثلاثة قرون ، وكثيرا ماتحالفت اسكتلندا مع فرنسا فى هذه الحروب ٠ ومع ذلك فان اسكتلندا كانت قد اتخذت فعلا اللغة والقوانين والأنظمة الانجليزية الى حد كبير ، لا بضغط من الانجليز ، ولكن عن طريق نفوذ الملوك السلتيين والأقطاب الاسكتلنديين الذين انحدروا من نسل أنجلو نورماندى ، والمستوطنين والتجار الانجليز (١) ٠ ولم يحل ذلك دون أن ينمو لدى الاسكتلنديين وعى قومى فى منتهى القوة وأن يعتبروا انجلترا عدوتهم الوراثية ٠

وقد مهد السبيل لاتحاد اسكتلندا وانجلترا مجىء البيت المالك الاسكتلندى ، آل ستيوارت ، الى العرش الانجليزى فى سنة ١٦٠٣ ٠ وحاول جيمس الأول بدون جدوى أن يعقد « زواجا دائما بين الأمتين »٠ فلم يكن البرلمان الانجليزى على استعداد لقبول الاتحاد الا بشروط رفضها الاسكتلنديون ٠ ووحد كروموبل الأمتين بالعنف لفترة قصيرة ، ومنح الاسكتلنديون ٠ نصيبا فى البرلمان ٠ ولكن شارل الثانى أعاد اسكتلندا الى وضعها السابق وساعده ذلك على فرض حكمه المطلق عليها ٠ وقد تم الاتحاد النهائى الدائم تحت حكم الملكة آن ٠ وكانت العلاقات بين الانجليز والاسكتلنديين فى ذلك الوقت متوترة جدا ٠ وكان التحيز القومى والكراهية قويين لدى الجانبين ، وشعر الاسكتلنديون بصفة خاصة أن الاتحاد مع انجلترا تحت حكم بيت مالك واحد يجعلهم فى وضع خاضع ٠ وكانت سياستهم الخارجية فى الحقيقة تسيطر عليها انجلترا وكانت التجارة الاسكتلندية ممنوعة من دخول السوق الانجليزى وأسواق المستعمرات ٠ وكانت انجلترا مشغولة بحربها الكبرى مع لويس الرابع عشر ، وكان هناك خطر شديد جدا من استقلال اسكتلندا ، تحت حكم أحد أفراد بيت ستيوارت ، وتحالفها مع فرنسا ٠ وفى أثناء أن كانت مفاوضات الاتحاد بينهما قائمة اتخذ كل من البلدين اجراءات عدائية ضد الآخر بحيث بدا أنهما على وشك الدخول فى

---

(١) روبرت ريت « تاريخ اسكتلندا » ١٩١٤ ص ١٤ و ٢٨ ٠

حرب (١) • بيد أن البرلمانين قبلا الاتحاد أخيرا ، وان تم ذلك فى اسكتلندا بأغلبية ضئيلة وامتناع كثيرين عن التصويت ومصحوبا بموجة ضخمة من الاحتجاجات الغاضبة والشغب دلالة على عدم رضا الشعب عن هذا الاتحاد • ويقول رامساى موير : « لاشك فى أنه لو أجرى استفتاء عام فى هذه اللحظة لصوتت أغلبية كبيرة ضد الاتحاد » (٢) • ويقول ليكى ان أغلبية الأمة كانت بلا شك ضد الاتحاد • والواقع أن النبلاء والطبقات الثرية أساسا هى التى حبذت الاتحاد • أو على الأقل قبلته باعتباره أخف الضررين • وفقدت اسكتلندا برلمانها المنفصل ، الذى لم يكن على أى الأحوال أثيرا عند الشعب مثل « الجمعية العامة للكنيسة » التى ظلت باقية • وحظيت اسكتلندا بالتمثيل فى وستمنستر ، وان كان بخمسة وأربعين عضوا فحسب ، فى حين كانت تستطيع المطالبة بخمسة وثمانين عضوا على حسب التعداد وبثلاثة عشر عضوا على حسب الضرائب • وكان الثمن الرئيسى الذى دفعته انجلترا هو ضمان الاستقلال الكنسى لاسكتلندا والسماح للاسكتلنديين بدخول الأسواق الانجليزية وأسواق المستعمرات • وكان الاتحاد عملا فريدا فى أنه خلق بالتشريع أمة جديدة من شعبين • فمنذ ذلك الوقت صارت انجلترا واسكتلندا تؤلفان بريطانيا العظمى ، وبذلك تم وضع أساس مضمون لظهور دولة عظمى جديدة لتقود أوربا سياسيا وفكريا • وكان للاسكتلنديين نصيب كبير جدا فى هذه العملية • ولو ظلت سكتلندا مستقلة لبقى كيانها مهددا جدا • فما كان فى وسعها أن تحتفظ باستقلالها فى الغالب ، وكانت النزاعات الداخلية مزقتها وعوقت تقدمها بالاختلاف الدينى والفقر المدقع • وقد فتح أمامها آفاق واسعة لنشاط الاسكتلنديين ونبوغهم • ومنذ ذلك الوقت « لعبوا » دورا ضخما فى نمو الأمة البريطانية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا • وكان نصيبهم كبيرا بصفة خاصة فى بناء الامبراطورية ، ولا حاجة بنا أن نقول ان انجلترا مدينة للاتحاد • فالفوائد كانت لا تحصى بالنسبة للجانبين •

وكان لنجاح الاتحاد تأثير كبير جدا على العلاقات بين انجلترا وارلندا • فقد سيق باستمرار على أنه دليل على مزايا الاتحاد بين

---

(١) ج•م• تريفيليان «انجلترا فى عهد الملكة آن ، راميليز والاتحاد مع اسكتلندا» ١٩٣٢ ص ٢٤٧ •ويذكر تريفيليان أيضا أمثلة جديدة على العداء القومى العميق بين الامتين، أنظر ليكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر» الفصل السادس •

(٢) رامساى موير «تاريخ مختصر للكومنولث البريطانى» ١٩٢٠ ص ٥٨٥ •

البلدين . والواقع أن هذا الاتحاد تم سنة ١٨٠٠ ولكنه لم يحظ بنجاح مماثل . وبعد عام كامل من النزاع المرير ألغى . وقد ناقش المؤرخون كثيرا أسباب هذا الاختلاف بين الارلنديين والاسكتلنديين ، وواضح أن اختلاف الدين لم يكن العامل الحاسم ، لأن مذهب « المشيخية » الاسكتلندى لم يكن فيما مضى أقل معارضـــة لكنيسة انجلترا من الكثلكة . لقد كان السبب الرئيسى أن الارلنديين مروا بتجربة أشد مرارة بكثير من تجربة الاسكتلنديين منذ سيطر الانجليز فى ارلندا . فالاسكتلنديون لم يطردوا قط من أجزاء كبيرة من بلادهم بلا رحمة ويتعرضوا للاضطهاد الشـديد كالارلنديين فى عهد كرومويل وما بعده ، كما لم يخضعوا لحكم ارستقراطية أجنبية مثلهم . ولعله كان من ســوء الحظ أن الاســتقراطية الارلندية هاجر معظمها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر للخدمة فى الجيوش الأجنبية كما لم تكن هناك طبقة وسطى ثرية فى ارلندا . وهكذا لم يكن لدى الشعب الارلندى تلك الطبقات التى كان تأثيرها حاسما فى قبول الاتحاد فى اسكتلندا . وصــحيح أن الأعيــان الانجليز البروتستانت استوطنوا فى ارلندا وكان لهم نصيب كبير فى الحركة القومية الارلندية ، كما جاء فيمــا بعــد أيضــا من هــذه الطبقــة بعض الزعمــاء الارلنديين المرموقين (١) . ومع ذلك فقد أثبتت الأحداث أن هذه الطبقة لم تستطع الاحتفاظ بالزعامة . فالســياسة الارلندية تسممت بمزيج من الحقد القومى والاجتماعى من جــانب الارلنــديين ، وبنمو شعور بالتفوق العنصرى من جانب الانجليز . وقد التجأت الحــركة القومية الارلندية كثيرا الى أقصى أساليب العنف ، والى أعمال ارهابية وتعطيل أعمــال البرلمان ، وساعد ذلك على نمو روح عدوانية وتعصب كانت نتيجتهما كوارث بالنسبة لارلندا نفســها ، كما هو واضــح من خروج « ألستر » من القضية الارلندية . وقد بذلت انجلترا بالتأكيد جهودا كثيرة لاصلاح الأخطاء القديمة . بيد أن كل ذلك لم يحل دون أن تعلن ارلندا حيادها فى صراع كانت انجلترا تدافع فيه عن وجود المدنية المسيحية ضد أسوأ همجية عرفها التاريخ .

١٣ ـ المشاكل القومية فى الامبراطورية البريطانية

لقد انبثقت الامبراطورية البريطانية أساسا من المشروعات التجارية

---

(١) عند سويفت تعنى «أمة» الارلنديين البروتستانت لا الكاثوليك . أنظر ستيفن جوين «ارلندا» ١٩٢٤ ص ٧٤ . وادموند كيرتيس «تاريخ ارلندا» ١٩٣٦ ص ٢٨٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ .

الخاصة واستعمار أقاليم تسكنها قبـائل بدائية ، وان كان التنافس القومى مع فرنسا وأسـباب أخـرى أدت الى توسع أكثر عن طريق الغزو (١) • وقد نظر بعض رواد التوسع الاسـتعمارى الأول الى هذا التوسع من الزاوية القومية (٢) • ففى سنة ١٥٨٩ ، العام التالى لهزيمة الأرمادا ، نشر ريشـارد هاكلويت مؤلفه الكبير « الرحلات البحرية الرئيسية للأمة الانجليزية واكتشافاتها » وأوصى فيه بالاستعمار كعلاج للتعطل والفاقة والجريمة في الوطن • وكانت تحدوه رغبة حماسية فى تقـدم بلاده بين الأمم وراودته رؤيا عظيمة للمـركز الذى تصـل اليه انجلترا عن طريق استعمار الدنيا الجديدة • ولكن سير الأحداث أدى الى أن قيام الامبراطورية القديمة تم أساسـا بواسطة المغامرات التجارية الخاصة وليس كمشروع قومى • وكان هـدف الطبقات الحاكمة فى انجلترا أن تحصل على احتكار تجارى دون أن تتحمل عبء مسئوليات الحكم (٣) • أما فيما يتعلق بالمسـتعمرين فانهم هاجروا أساسا الى العالم الجديد لتحسين أحوالهم المعيشية أو ليهربوا من الاضطهاد الدينى ويعيشوا طبقا لما تمليه عليهم ضمائرهم • وعلى خلاف المستوطنين من الأمم الأخرى الذين كرسوا أنفسهم أساسا للتجـارة وصيد الحيوانات ذات الفراء أو استغلال أهالى البلاد ، صار قسم كبير من المستوطنين فى المستعمرات الانجليزية فلاحين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وجعل ذلك فى مكنتهم أن يصيروا آباء لأمم جديدة •

وعملت الثورة الأمريكية ، وأحداث أخرى ، على الحد من التوسع• وكان الرأى السائد أن كل مستعمرة يسكنها مستوطنون بيض ستحاول مع مرور الوقت أن تستقل وتصير أمة • وان أية محاولة لمنع تحقيق ذلك لا فائدة منها • وتغيرت الأفكار حول الامبراطورية تغييرا جذريا بالتوسع الضخم فى التجارة العالمية والتفوق الاقتصادى البريطانى ، وبنمو قوة

---

(١) ان المرجع الثقة لهذه التطورات هو «تاريخ كمبريدج للامبراطورية البريطانية» ثمانية مجلدات • وهنالك بحث مختصر للموضوع هو كتاب رامساى موير «التاريخ المختصر للكومنولث البريطانى » مجلدان •

(٢) أنظر مقالات بيكون « فى العظمة الحقيقية للممالك والطبقات »و«فى المزارع» • وكذلك المشروعات الاولى لرالى وتلاميذه ، أنظر سيدنى لى عن سير والتر رالى فى « عظماء الانجليز فى القرن السادس عشر » ١٩٠٧ • وعن هارينجتون أنظر هـ • رسل سميث «هارينجتون وأوسيانا» ١٩١٤ •

(٣) جيرالد هيرتز «الامبريالية البريطانية فى القرن الثامن عشر» ١٩٠٨ ص ٣٨ •

المذهب الانساني المسيحي والليبرالية السياسية (١) · فقد جنحت هذه القوى بنفوذها الموحد الى تحويل الامبراطورية من مشروع تجاري احتكاري الى اتحاد حر من الأمم المتقدمة وميدان مفتوح للمنافسة المسالمة بين جميع الأمم ومجال لهجرة أبنائها · وقد أدى نمو الامبراطورية على هذه الأسس ، برغم كثير من النقائص والعقبات ، الى فوائد لا حصر لها للعالم كله وليس لشعوبها وحدها · اذ جنحت الامبراطورية لأن تصير « عصبة أمم » حقيقية وعاملا رئيسيا في السلام العالمي · ومن ناحية أخرى أثار توسعها غيرة شديدة ومنافسة مع الأمم الأخرى وانتهى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى هجوم عام لاقتسام الأقاليم الباقية التي لا تعتبر دولا حديثة ومن ثم لا حق لها في تقرير مصيرها بنفسها · وأدى هذا التنافس والقضايا الداخلية فضلا على ذلك الى ظهور امبريالية جديدة (٢) ·

وكان كثير من أهل العصر الفكتوري مقتنعين بأن المستعمرات البيضاء الكبرى ستنمو لتصير أمما منفصلة وأنه لن تكون بينها روابط سوى المشاعر والمصلحة · بيد أن الامبرياليين الجدد كانوا يأملون أن تؤلف أمة واحدة في جوهرها ، وان كان ذلك في صورة فدرال · وهذه هي الفكرة التي يقوم عليها كتاب سيلي المشهور « توسع انجلترا » (١٨٨٣) الذي يمكن اعتباره تعبيرا عن الاهتمام الجديد بالوحدة الامبراطورية · ففكرته عن الامبريالية لا تلوثها قطعا شهوة التوسع والهيبة · وهو يسخر من المباهاة وتمجيد الدولة لمجرد أنها كبيرة ووجهة النظر التي تعتبر المحافظة على الامبراطورية مسألة كرامة أو عواطف ، أو أن الدول التابعة لانجلترا هي نوع من الممتلكات الخاصة بها · ولكنه نبذ أيضا المدرسة التشاؤمية في التفكير التي ترى في الامبراطورية مجرد نتاج للعدوان والنهب ، وأنها عبء لا فائدة منه

---

(١) هناك عرض ممتاز لتاريخ هذه الافكار ظهر مؤخرا في كتاب و · ك · هانكوك «عرض لشئون الكومنولث» المجلد الثاني : «مشاكل السياسة الاقتصادية» في جزأين ١٩٤٠ — ١٩٤٢ ·

(٢) فيما يتصل بأيديولوجية الامبريالية البريطانية الحديثة قارن ماجاء في كتاب وليم لانجي « دبلوماسية الامبريالية » ١٩٢٥ المجلد الاول ص ٦٧ — ٩٩ · وايزميه وينجفيلد ستراتفورد « تاريخ الوطنية الانجليزية » مجلدان · وجاك باردو «Essai d'une psychologie de l'Angleterre contemporaine, les crises belliqueuses» ١٩٠٦ · وفردريك برى «Imperialistische strommungen in der englischen literatur in Anglia» المجلد ٤٠ سنة ١٩١٦ ·

يعرض انجلترا للحروب والنزاعات فى كل ركن من أركان العالم • وبرغم أن سيلى يشـــير الى النظام الفدرالى باعتباره أحد الوسائل للمحافظة على دولة كبيرة فانه لا يهتم به كثـيرا • فاهتمامه الأساسى كان بالوحدة القومية • ثم يقول : « ان امبراطوريتنا ليست امبراطورية مطلقا بالمعنى المألوف للمصطلح • فهى لا تتألف من مجموعة من الامم تربطها القوة ، بل هى أساسا أمة واحدة ، كمـــا لو كانت دولة عادية وليست امبراطورية • فباستثناء الهند ، التى تعد امبراطورية فى ذاتها ، كانت الامبراطورية تبـدو له « أمة انجلبزية واســعة » مثل « دولة واسعة جدا » سكانها من الانجليز فى جميع الأرجاء • ولم يغفل سيلى عن أنها ليست متجانسة تماما • ولكنه اعتبر وجود « عدد كبير من الفرنسيين والهـــولنديين والكفرا والماوورى » فى الامبراطورية مجرد استثناءات لا تدحض وجهة نظره العامة • بيد أن وجهة نظر سيلى عن الامبراطورية كمجـرد دولة انجليزية واســعة وأمة واحدة لم تحققها التطورات التالية •

وكان أمام دعـــاة الامبراطورية الفدرالية مهـــمتين : توحيـــد المستعمرات المبعثرة فى كل من المناطق الطبيعية الكبرى من الامبراطورية فى اتحـاد اقليمى ، وجمع هذه الاتحـــادات فى امبراطورية فدرالية أوسع • وكانت مزايا التعاون فى كلا الأمرين واضحة • وقد ابتكر كثير من الخطط المحكمة وبذلت جهود كبيرة لتحقيق عملية التوحيد الفدرالى المزدوجة ، ولخلق الأنظمة المناسبة والروح الصحيحة لاستخدامها (١) • وكانت النتيجة تكوين اتحادات اقليمية فى ثلاث قارات صارت بالتدريج دولا مســتقلة ذات ســيادة داخل الامبراطورية ، أو « كومنولث الأمم البريطانية (٢) » كما ســمى فيما بعــد • بيد أن خطط تنمية أنظمة امبراطورية موحدة لم تحظ بنجاح كبير (٣) •

ولكن حتى الوحـــدة الاقليمية فى كل منطقة لم تتحقق فى بعض

---

(١) ج تايلر «الصراع من أجل الوحدة الامبراطورية (١٨٦٨ ـ ١٨٩٥» ١٩١٨ •

(٢) هناك عرض ممتاز فى كتاب « الامبراطورية البريطانيــة » ، تقرير عن تكوينهـا ومشاكلها بواسطة مجموعة من الدارسين الاعضاء في « المعهد الملكى للشئون الخارجية » ١٩٣٧ • وهناك كذلك آرثر بريديل كيث « حكومة الامبراطورية البريطانية » ١٩٣٥ و « كومنولث الامم البريطانية » ١٩٤٠ • و أ • باركر « أفـكار الامبراطورية البريطانيــة ومثلها » ١٩٤١ •

(٣) أنظر فيما يتصل بالتطورات منذ الحرب الماضية ريتشارد جيب «امبراطورية فى أفول» ١٩٢٦ •

المناطق الا بعد صراع طويل • ففى كندا كان السكان الفرنسيون منفصلين عن البريطانيين باللغة والدين والتقاليد والاقليم ولم يندمجوا معهم فى أمة واحدة ، وكانت هناك أيضا أقليات كبيرة أخرى • وأقل من نصف شعب كندا ينظرون الى المملكة المتحدة فى الوقت الحاضر بوصفها الوطن الأصل • وقد ثار نزاع طويل بين العناصر الفرنسية والبريطانية ووقع تمرد عدة مرات آخرها سنة ١٨٨٥ • وتعد هذه الروح الآن من شئون الماضى ، وتعلمت الجنسيتان أن تتعاونا وان كانت الاحصاءات تدل على أن الزواج المختلط بينهما لايزال قليلا • وتوجد بجانب مشاعر الجنسية الكندية المشتركة مشاعر محلية لاتزال قوية (١) ، ولكل من الجنسيتين الرئيسيتين مشاعر الولاء بالنسبة للبلد الأصل والتقاليد مما يؤدى أحيانا الى اختلاف فى المواقف السياسية (٢) • ويتنافس مع الولاء للامبراطورية شعور قوى بأن كندا أمة أمريكية أولا وأن العلاقات مع الولايات المتحدة ذات أهمية قصوى • وهناك بعض الفئات من المواطنين الكنديين محرومة من حق الانتخاب لأسباب عنصرية ، وبخاصة أولئك الذين من أصل شرقى ، ولكن هناك غيرهم أيضا • ومن ثم فانه من العسير الاجابة عن السؤال : هل كانت كندا تؤلف أمة واحدة ؟ (٣)

وفى جنوبى افريقيا بلغ الصراع بين المستوطنين الهولنديين الأصليين والبريطانيين ذروته فى حرب البوير الكبرى • وبعد الحرب بسنوات قلائل منحت بريطانيا جنوبى افريقيا الوحدة السياسية والحرية ، وان كانت حقوق الملونين ، وهم الأغلبية العظمى ، أغفلت الى حد كبير • ولاشك فى أن هذه السياسة ساعدت كثيرا على التئام

---

(١) وقد قيل ان الفدرال كان سيرفض فى الغالب اذا كان قد عرض فى استفتاءات لكل جزء على حدة . وقد رفضت نيوفوندلاند فعلا الانضمام ، ولكنها لم تستطع ان تحتفظ باستقلالها كبلد من بلاد الدومينيون .

(٢) كان الفرنسيون دائما من أنصار العزلة بقوة ، وان كان هناك آخرون كثيرون وقفوا نفس الموقف أيضا . وكان كثيرون من أنصار العزلة يفضلون الانفصال عن الامبراطورية على الاشتراك فى الحرب من أجلها .

(٣) و . أ . فالكونر « نوع الحياة الكندية (فى « فدرال كندا من ١٨٦٧ الى ١٩١٧ » الذى نشرته جامعة تورنتو ١٩١٧ ص ١١٢ وهو يقول : « انه ليكون من اليأس أن نشير بالعدول عن الايمان بامكان قيام أمة كندية موحدة » . ولكنه فيما بعد يفترض أن هناك أمة كندية واحدة . أنظر كذلك ر . ماك كاى و أ . روجرز . « كندا تتطلع الى الخارج » ١٩٣٨ . و ج . دافو « كندا ، أمة أمريكية » ١٩٣٥ .

الجـراح القديمـة • ومع ذلك فلعل الوقت لم يحن بعد للتفكير فى أهل جنوبى افريقيا كأمة واحدة (١) •

أما فى استراليـا فلم توجد جنسـيات متقـابلة ، ولـكن التعصب الاقليمى الذى ترجع بعض جذوره الى المصالح الاقتصادية كان قويا ، ولم ينته تماما حتى الآن • وقد أدى عدم رضا ولاية غربى استراليا عن الاتحاد فى سنة ١٩٣٣ الى استفتاء عام أعرب فيه ثلثا الناخبين تقريبا عن تفضيلهم للانفصال • وأرسل المجلس التشريعى للولاية التماسـا الى البرلمان البريطانى يطلب الانفصال عن الكومنولث الاسترالى ، ولكنه رفض لأسباب قانونية (٢) • وقد أظهرت نيوزيلاندا دائما ولاء قـويا بصفة خاصة للتقـاليد البريطانية وللامبراطورية ، وظل الفدرال الامبراطورى يحظى بشعبية فى نيوزيلندا مـدة طويلة وكانت عازفة جدا عن قبول الاسـتقلال الجـديد ، وأعلنت أنها راضـية تماما عن وضـعها فى الامبراطورية (٣) •

وكان موقف الدولة الارلندية الحرة مختلفا عن ذلك تمام الاختلاف، فقد سارت فى قطع الروابط التى بينها وبين الامبراطورية أكثر من أية دولة أخرى •

وفى كل من دول الدومنيون كان نمو جنسية منفصلة نتيجة لعوامل خاصة (٤) • ففى بعض البلاد كان معظم المهاجرين ينتمون الى الطبقـات الدنيا وكثيرون منهم غير بريطانيين . فقد كان بينهم أيضا عدد كبير من الأرلنديين والألمان والسلافيين . وكانت أيديولوجيتهم الخاصة تنطوى على عدم الثقة بالسياسة البريطانية التى اعتبر ان الدوافع الرئيسـية اليها دوافع رأسمالية وامبريالية • وظهر الطابع الديموقراطى الواضـح للبلاد الجديدة أيضا فى موقفها من الدفاع . فقـد تركت الاسـتعدادات

(١) أنظر كتاب التصريحات المتشائمة الاخيرة فى كتاب ج. كالبين « ليس هناك جنوب، افريقيين» ١٩٤١ . وفيما يتصل بجنسية جنوب افريقيا أنظر الكتاب المفيد جدا « بلوغ سن الرشد : دراسات في المواطنة والسياسة في جنوب افريقيا » الذى وضعته مجموعة من الكتاب سنة ١٩٣٠ وبخاصة الفصل الذى كتبه كاراى وهارشوف .

(٢) أنظر « تقرير المعهد البريطانى الملكى للشئون الخارجية » ص ٤٥ ، وكذلك و. هانكوك «استراليا» ١٩٣١ ص ٧٦ و ١٠٤ و ١٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) ريتشارد جيب « دراسات فى النزعة القومية فى المستعمرات » ١٩٥٠ . وهانكوك «استراليا» ص ٥١ و ٦٠ – ٨٠ .

العسكرية كلها تقريبا لبريطانيا ، وبخاصة للأسطول البريطانى . ومن ناحية أخرى كانت معظم بلاد الدومنيون تخشى التورط فى صراعات الامبراطورية وتحب ان تؤكد ابتعادها عنها . ودفعتها رغبتها فى تأكيد هيبتها الى التذمر من أى اعتماد قانونى أو عملى على بريطانيا او على الامبراطورية . ومن بين الدوافع القوية جدا أيضا الحماية الجمركية التى اعتبرت وسيلة للتحرر الاقتصادى ورفع الأجور ورفع مستوى المعيشة . ومن النقاط الأخرى التى اتبعت بلاد الدومينيون فيها سياسة مختلفة عن سياسة الوطن الأصل موقفها من الأجناس الآسيوية .

وكانت الاختلافات فى التقاليد ووجهة النظر العامة بين بريطانيا والدومنيون هى العقبة الرئيسية فى نجاح الفدرال .. وكانت بلاد الدومنيون واضحة الولاء للامبراطورية وبذلت تضحيات كبرى بالدماء والمال دفاعا عنها كلما تعرضت للخطر . وفى وقت السلام أيضا أظهرت مشاعرها بعدة طرق . وقد ظلت فترة طويلة تمنح بريطانيا تعريفات مفضلة من جانب واحد كان يقصد بها نوعا من التعويض لما تحظى به من حماية أسطولها .

ولكن بلاد الدومنيون لم تكن على استعداد قط لقبول قيوددستورية على استقلالها لصالح الأنظمة الفدرالية . ومن ثم فان الولاء للامبراطورية لم يكن مساويا للتضامن القومى . فالكومنولث ليس فدرالا ، ولاتحالفا لأنه أيضا ينطوى على التزامات محدودة . بل يقوم على مجرد الشعور والمصلحة فحسب ، وهو بذلك يتفق مع تنبؤات أحرار العهد الفكتورى أكثر مما يتفق مع توقعات دعاة الامبراطورية . وأيا كان الأمر فانه تكون من نمو تاريخى فريد بحيث يكاد يكون من المستحيل تعريفه على أساس من القانون أو علم السياسة . وتضم الامبراطورية أيضا عدة أعضاء شبه مستقلين ، ومن المحتمل أن يصلوا الى مركز الدومنيون . وتمثل التطلعات

---

(١) بيد أن الخوف من هذا التورط لم يمنع استراليا باستمرار من زيادة الاحتكاك بين بريطانيا والدول الاوربية بطلبها ابعاد هذه الدول عن انشاء مستعمرات فى الباسفيكى الذى تعتبره مجالا استراليا . ففى عدة مرات ضغط السياسيون الاستراليون على الحكومة البريطانية لعدم التنازل فى هذا الاتجاه لفرنسا أو المانيا فى المسائل الخاصة بالباسفيكى . ويتحدث هانكوك ، فى «استراليا» ص ٥٦ عن «الامبريالية المدوانية» الاسترالية ويعطى أمثلة ذات مغزى . وفى سنة ١٨٩٩ كادت مشكلة ساموا التى اتخذت فيها استراليا نفس الموقف ، ان تؤدى الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا وألمانيا ، وان كان اللوم الرئيسى فى هذا التوتر يقع على الامبراطور وليم .

القومية لشعوبها الكثيرة ظاهرة فى منتهى الاهمية بالنسبة لدارسى الجنسية (١) .

وتبدو الأمم المعادية للامبراطورية البريطانية أو المتحيزة ضدها غير قادرة على فهم طبيعتها . ففى أيديولوجية هذه الامم تسيطر بريطانيا على امبراطوريتها الضخمة وتستغلها ، وبذلك تحرم الأمم «مجال للحياة» . وتنبثق هذه النظرة منغيرتها وحسدها ويشجعها عليها لفظ «امبراطورية» الذى ينطوى على معنى السيطرة . والحقيقة أن بلاد الدومنيون كثيرا ماكان لها تأثير أكبر على شئون الامبراطورية ، بل على شئون بريطانيا نفسها ، مما لبريطانيا من تأثير على سياستها ، كما كانت ممثلة فى عصبة الأمم تمثيلا أقوى من بريطانيا من بعض النواحى . وقد اضطرت بريطانيا الى التسليم ضد رغبتها ، أمام رأى بلاد الدومنيون فى المسائل الحيوية فى السياسة الخارجية (٢) . وبرغم أن هذه البلاد منحت بريطانيا تعريفات جمركية أقل من الدول الاخرى فان التجارة البريطانية أصيبت اكثر من غيرها بالحماية الجمركية فى الدومنيون لانها أكبر بكثير وتعرضت لهذه التعريفات أكثر من غيرها . وتدفع السلع الامريكية فى المتوسط ضرائب جمركية أقل من السلع البريطانية فى كندا . وقد أرغمت النزعة القومية الاقتصادية فى بلاد الدومنيون بريطانيا على نبذ نظامها الخاص « بحرية التجارة» الذى كان يعتبر قبل ذلك حجر الزاوية فى رخاء بريطانيا وأقوى

---

(١) تناول و.ك. هانكوك كثيرا من هذه المشاكل بطريقة ممتازة في « عرض لشئون الكومنولث البريطانى » المجلد الاول ، و « مشاكل الجنسية ١٩١٨ – ١٩٢٦ » ١٩٣٧ . .

(٢) ويعترف كثير من الكتاب فى بلاد الدومينيون بأن السياسة العنصرية التى تتبعها هذه البلاد تؤدى الى اشكالات كثيرة للمملكة المتحدة فى سياستها الخارجية ومع ذلك فان هذه السياسة العنصرية صارت انجيلا لشعوب بلاد الدومينيون كما يقول ت. ماكنزى فى «النزعة القومية والتربية فى استراليا» ٩٣٥ ص ٣٧ وفيما يتصل بوجهة النظر التى تدافع عن سياسة استراليا العنصرية أنظر هانكوك «استراليا» ص ٧٧ وقد جاء فى كتاب « كندا تتطلع الى الخارج » ١٩٣٨ ، الذى نشر تحت اشراف المعهد الكندى للشئون الخارجية ، أن سياسة التفرقة العنصرية فى أمريكا والدومينيون « لاشك أنها تؤدى الى اثارة الشعوب الشرقية وانها قد تكون سببا فى مشاكل فى المستقبل – مشاكل، لا لكندا والبلاد الانجلوساكسونية الاخرى فى الباسفيكى ، بل وللكومنولث البريطانى أيضا . ان الشعوب الهندية من رعايا الملك مثل الكنديين تماما ، ولكن كندا تعاملها كأجانب غير مرغوب فيهم » ثم يستطرد الكاتب قائلا : ان هذه السياسة مع ذلك قد تكون ضرورية للاحتفاظ بعلاقات ودية مع الولايات المتحدة وان كندا يغلب أن تحذو فى هذا الموضوع حذو الولايات المتحدة لا بريطانيا العظمى .

ضمانات السلام العالمي (١) .

وكانت سياسة بريطانيا تجاه الأمم الأخرى تقوم منذ قرون على مبدأ « توازن القوى » . وبعد الحرب الكبرى الاولى حل محل هذا المبدأ نظام « الأمن الجماعى » عن طريق « عصبة الأمم » . ولم يكن هناك الا الاختيار بين هاتين السياستين اذا أرادت بريطانيا أن تكون لها أية سياسة خارجية بحيث لا تترك الشئون التى يتوقف عليها مصيرها تسير على غير هدى . بيد أن بلاد الدومنيون لم تؤيد أيا من هذين البديلين . وقد كان من المفهوم نفسيا أن تنبذ أية سياسة تقوم « على توازن القوى الأوربية » ، ولكنها رفضت أيضا تأييد أية سياسة فعالة « للأمن الجماعى » قد تورطها فى حرب . وفى سنة ١٩٣٧ أعلن رئيس وزراء كندا ، مستر مكنزى كينج ، فى البرلمان أنه يشك كثيرا فى ان الحكومة البريطانية سترسل قوة عسكرية الى أوربا ، وانه من المشكوك فيه لأقصى حد أن تفعل بلاد الدومنيون البريطانى ذلك . وقد شجعت مثل هذه التصريحات الدول المعتدية عن غير قصد . وقد كان هذا الموقف أيضا مفهوما . فقد اشتركت فيه كل الديموقراطيات فى العالم بأجمعه ، ومن ثم يجب تفسيره على أنه تعبير عن اتجاهات أساسية . ولم تدرك بريطانيا نفسها فى الوقت اللائم مدى ماتنطوى عليه الفاشية والنازية من دلالات . وفى أيام ميونيخ كان نفوذ بلاد الدومنيون مؤيدا بقوة لسياسة التهدئة . وأعلنت كندا واستراليا أنهما لا تستطيعان تأييد بريطانيا فى الحرب (٢) .

ومناقشة هذه القضايا بصورة كاملة يخرج عن نطاق بحثنا (٣) . ولكن كان لابد من ذكرها لأنها قد تكون ذات مغزى فى المشكلة العامة للامبراطورية والحرية التى أثارها منتسكيو دون أن يحلها . فالحل عن طريق الفدرال كما اقترح رفضته ديموقراطيات الكومنولث . ووجد بديل له فى قوة التقاليد والمصالح والمثل العليا . فعندما جاءت الحرب أدركت بلاد الدومنيون - باستثناء ارلندا الحرة وأقلية فى جنوبى

---

(١) فيما يتعلق بنقد مؤتمر أوتاوا أنظر هانكوك الكتاب السابق المجلد الثانى ص ١٩٨ - ٢٦٧ . وتقرير المعهد الملكى للشئون الخارجية ص ٢٧٩ . ورامساى موير «توسع أوربا» ١٩٣٥ ص ٣٠٥ .

(٢) جون كندى « لماذا نامت بريطانيا » ١٩٤٠ ص ٢٠١ .

(٣) أفضل عرض لعلاقات الكومنولث البريطانى (اجراءات مؤتمر تورنتو ١٩٣٣ ، الذى أشرف على اصداره أ. توينبى ١٩٣٤ .

أفريقيا أن مصيرها مرتبط بمصير بريطانيا ، واثبتت بما بذلته من تضحيات أن «كومنولث الأمم البريطانية» قوة حية حقيقية فى قلوب ملايين المواطنين وعقولهم ·

١٤ - أصل الجنسية الأمريكية :

لقد حدث نمو الفردية القومية لمعظم الأمم الأوربية الى حد كبير فى وقت لم يكن المؤرخون فيه مهتمين كثيرا ، اذ كانوا قد اهتموا أصلا، بالسيكلوجية الجماعية · ولكن أصل الولايات المتحدة الأمريكية ينتمى الى التاريخ الحديث ، ومن ثم فان المصادر التاريخية تتيح لنا الكثير من المعلومات عن القوى الدافعة فى تكوين الأمة الأمريكية . وقد نبذ الآن المؤرخون الأمريكيون الناقدون أسطورة أن الثورة قامت بسبب الطغيان الانجليزى . ولا شك فى أن السياسة الاستعمارية الانجليزية كانت فاسدة وقصيرة النظر وضيقة الأفق ، ولكنها لم تكن عدوانية .

وكانت المستعمرات مزدهرة ، ولم تكن هناك مظالم عامة عميقة. ويقول المؤرخون الآن : ان المستوطنين كانوا يتمتعون بحرية أكثر من الانجليز فى بلادهم ، وانهم انما تمردوا لأنهم كانوا أكثر الشعوب حرية (١) .

لقد كانت المسافة بين انجلترا وأمريكا سببا فى تباعد الشعبين ، وملأت القارة الشاسعة الخالية أذهان الامريكيين بآمال كبيرة عن مستقبل عظيم ، وخلقت حياة الحدود الخشنة روحا من الفردية الصلبة التى ترفض أى تدخل من جانب الدولة أو أية تبعية · وكان كثير من المستوطنين من سلالة رجال تركوا انجلترا لأسباب سياسية أو دينية · فضلا عن أن قطاعا كبيرا من السكان كان من أصل ارلندى واسكتلندى وألمانى وهولندى ، وكان يجدو الكثيرين منهم نفور تقليدى من انجلترا · فقد كانت أغلبية الشعب تنتمى الى الطبقات الفقيرة التى تنظر الى انجلترا باعتبارها تجسيدا للروح الارستقراطية وحكم الطبقة الرأسمالية .

---

(١) جيمس تراسلو آدامز « نيوانجلاندالثورية ١٦٩١ - ١٧٧٦ » ١٩٢٣ ص ١٤ وما بعدها. وكلود فان تاين «اسباب حرب الاستقلال» ١٩٢٢ ص ٤٥٦ · ويقول نيقولاى بتلر فى «بناء الامة الامريكية» ١٩٢٣ (ان السياسة التى اتبعتها انجلترا نحو المستعمرات أيا كانت ماكانت لتغير في الامر شيئا. فقد كانت لديها جميع العناصر لتكوين أمة منفصلة ومن ثم كانت ثورتها مسألة وقت فحسب .

وكانت أيديولوجية الراديكالية الديموقراطية احدى القوى الدافعة الرئيسية للعداء نحو انجلترا • وكانت صفوف المتمردين تتألف من الفلاحين ورجال الحدود والعمال والمستعمرين الذين من أصل غير انجليزى(١) • بيد أن كبار الزعماء كانوا فى الغالب من العناصر الانجليزية التى حظيت بتعليم أكبر وثراء أوسع • وفى البداية كان من يريدون الاستقلال قلة ضئيلة جدا ، ومن المحتمل أن الأغلبية العظمى ظلت فترة لا تؤيد قطع الروابط بانجلترا(٢) • بيد أن الدعاية الثورية التى قام بها الراديكاليون ، التى كثيرا ما دعمها وزاد اشتعالها خصومهم المحافظون ، وأخطاء السياسة الانجليزية والحرب ، حولت التيار • وقد كانت الحرب الأمريكية حربا أهلية أيضا قتل فيها أكثر من مائة ألف من خصوم الثورة، هم الموالون للتاج ، أو طردوا خارج البلاد(٣) •

وتظهر فى الصورة الخلفية أوجه شبه وتقابل كثيرة مع الحركات القومية والثورية الأخرى • بيد أن تكوين الأمة الأمريكية لا يمكن تفسيره تفسيرا ملائما على أساس القوى الاجتماعية وحدها • فقد كان أيضا من عمل زعماء عظام تحدوهم روح الاستقلال والطموح النبيل وكان بعضهم عباقرة ممتازون • وكانت رغبتهم هى التخلص من « تيه السياسة الأوربية الضار» وانشاء عالم جديد أفضل، وبذلك «يثبتون كرامة الجنس البشرى»• وكانت فكرة « الرسالة العظمى » من أقوى الدوافع لدى هؤلاء الرجال وكثيرا ما عبروا عنها فى كلمات رائعة (٤) • وقد قاد هؤلاء الرجال أمريكا

---

(١) فى حين كانت المستعمرات القديمة الغنية التى استقر فيها المستوطنون على الشاطىء من الانجليز الى حد كبير ، كان الفلاحون الرواد فى داخل البلاد من أصل غير انجليزى فى الغالب • أنظر فردريك • ج• تيرنر «الحدود فى التاريخ الامريكى» ١٩٢١ ص ٢٣ و ٢٠٦ •

(٢) •ح•ت• آدمز ، ص ٣٨٥ و ٤٠٧ • وكيلى « تاريخ انجلترا في القرن الثامن عشر » الفصل ١٢ و ١٤ و ١٥ •

(٣) كلودفان تاين « الملكيون فى الثورة الامريكية » ١٩٢٠ • ولويس اينشتاين « الولاء المنقسم ، الامريكيون فى انجلترا فى أثناء حرب الاستقلال » ١٩٣٣ •

(٤) كتب جون آدامز منذ ١٧٦٨ : انه يعتبر «استعمار أمريكا بداية باركته العناية لتنوير الجهلاء وتحرير القسم الذى لازال مستعبدا من الجيش البشرى في جميع أنحاء العالم» وفى ١٨١٣ كتب الى توماس جفرسون : « ان جمهوريتنا الفدرالية النقية الفاضلة التى تشيع فيها الروح العامة ستعيش الى الابد وتحكم الكرة الارضية وتحقق الكمال الانسانى » • أنظر شارلز سمنر « نبوءات تتعلق بأمريكا » ١٨٧٤ ص ٥٤ و ٦٢.

عبر أمواج الانفعالات الشعبية ، التى كانت نهددها بالانقسام والفوضى ، وصاروا مؤسسى أمة عظيمة .

بيد أن وحدة الأمة الأمريكية لم تكن قد تحددت بصفة نهائية بعد . وقد ظل السؤال: هل تتكون الولايات المتحدة من شعب واحد أو من شعوب بعدد الولايات موضع جدل حاد ؟ . وكان أعظم العوامل التى تؤدى الى الوحدة هو الاقليم الشاسع غير المستعمر الذى لا يمكن تنميته الا بجهود مشتركة والذى كان فى يد الحكومة الفدرالية ، وكذلك الخطر الناجم عن وجود مستعمرات مجاورة لعدة دول أوربية كبرى ، ثم هجرة الملايين الذين لا يدينون بالولاء الى أية ولاية أمريكية بذاتها ولكنهم يتطلعون الى أمريكا باعتبارها موئل الحرية . ومع ذلك فان قوى التفكك أيضا كانت قوية . فكل ولاية تقريبا ، فى الشمال والجنوب ، اتبعت من وقت لآخر سياسة من التعصب المحلى المتطرف ، وكذلك كلا الحزبين ، وكان أول من هدد بحل الاتحاد مجموعة من الولايات الشمالية التى أرادت تكوين أمة منفصلة ، فى تحالف مع انجلترا (١) .

وكما حدث فى جميع الأمم كانت الحرب عاملا حاسما فى دعم روح الوحدة القومية وانتشارها . وقد كانت حرب ١٨١٢ ضد انجلترا حربا عدوانية الى حد كبير قامت بها أمريكا لغزو كندا ، وبذلك تطرد انجلترا من القارة الأمريكية ، ولتوحيد الأمة كلها عن طريق المجهود المشترك ومشاعر الكراهية والفخر المشتركة . ويقول بابكوك : «ان الوعى بالجنسية الذى انبثق عن الحرب الثانية مع بريطانيا كانت النتيجة السياسية الرئيسية لها - أبعد النتائج كلها أثرا فى مفعولها » . فالحرب أعطت الشعب « احساسا جديدا يكاد يدير الرءوس ، باحترام الذات » (٢) . ومن بين الآثار المهمة الأخرى يقظة السعى نحو التحرر الاقتصادى عن انجلترا بواسطة الحماية. فاستبعاد المنافسة الانجليزية فى أثناء الحرب أدى الى ظهور صناعات فى أمريكا ، وبعد الحرب فرضت تعريفات عالية لكى تحميها وتشجع التصنيع أكثر . وكانت الحجج التى سيقت هى نفس

---

(١) كندريك ش بابكوك «ظهور الجنسية الامريكية ١٨١١ - ١٨١٩ » ١٩٠٦ ص ١٦ و ١٦٠ - ١٦٦ . وجيمس تراسلو « مأساة أمريكا » ١٩٣٤ ص ٤٤ و ٤٨ ونيقولا موراى بتلر « بناء الامة الامريكية » ١٩٢٣ ص ١٦١ .

(٢) ومن السمات ذات المغزى تلك الحماسة التى قوبل بها القواد المنتصرون . ويقول بابكوك (ص١٩٨): « ان الشعب الامريكى ، رغم أنه أساسا محب للسلام ولاتحدوه النزعة العسكرية بطبعه ، أظهر نوعا غريبا من عبادة الابطال للقواد العسكريين المنتصرين».

«الحجج التى لعبت من ذلك الوقت دورا حاسما فى جميع التطلعات القومية ـ أى الاستقلال القومى والاستعداد للحرب(١) • وصارت هذه الحماسة تعرف باسم « الخطة الأمريكية » ، وكان لها نصيب كبير فى نشر النزعة القومية الاقتصادية فى أوربا أيضا •

وبرغم هذا التقدم فى روح الوحدة لم يكن مؤكدا بعد أن «الاتحاد» سيتغلب على القوى المعارضة • وقد ناقش توكفيل فى كتابه الكلاسيكى عن أمريكا (١٨٣٥) موضوع كون الاتحاد سيدوم ، وذكر حججا كثيرة تؤيد دوامه وضده (٢) • وقد قال : « ان (الاتحاد) كائن ضخم لا يمثل هدفا محدودا لمشاعر الوطنية • فالحماس الوطنى ما زال موجها نحو (الولاية) ولا يثيره (الاتحاد) » • وكان من أقوى العوامل فى المحافظة على الوحدة التماثل العجيب فى الآراء والمشاعر بين شعوب الولايات الأربع والعشرين ذات السيادة ، الأمر الذى جعل منها فى الحقيقة شعبا واحدا • كما دعم هذه الوحدة أيضا الاشتراك فى الانفصال عن بقية الجنس البشرى • « طوال الخمسين سنة الماضية بذلت أقصى الجهود فى افهام شعب الولايات المتحدة أنه الشعب الحر المتدين والمتنور الوحيد فلديه اعتزاز بالتفوق أكثر مما ينبغى وليس بعيدا جدا عن التصرف كما لو كان ينتمى الى جنس متميز من البشر » ـ بيد أن الرق ، كما يقول توكفيل ، يخلق فرقا واضحا فى الطابع بين الشمال والجنوب ، وقد يدفع الجنوب الى الانفصال عن « الاتحاد » • بل ان توكفيل يرى أن قوانين الطبيعة البشرية تجعل دوام « الاتحاد » غير محتمل ، وان كان يبدو غير واثق تماما من ذلك فى أماكن أخرى من كتابه •

وقد زاد العداء بين الشمال والجنوب بسبب قضايا الرق والحماية باستمرار • وكان نصيب الجنوب فى توفير رجال الدولة «للاتحاد» كبيرا جدا بسبب زيادة التدريب السياسى لدى طبقته الحاكمة ، وكان ذلك من أسباب تذمر الشمال • وأحس أصحاب المزارع فى الجنوب أنهم ارستقراطيون ، بل لقد راودهم الاعتقاد بأنهم من العنصر النورماندى المتفوق وأن سكان الشمال من نسل الأقنان السلتيين والساكسونيين (٣) • وقد كان مصدر ايحاء هذه العنصرية الرومانسية قصص والترسكوت ،

(١) بابكوك ص ٢٣١ •

(٢) الكسيس دى توكفيل « الديمقراطية فى أمريكا ١٨٣٥ ـ ١٨٤٠ ـ » المجلد الثانى ص ٣٦٤ ـ ٤٢٣ •

(٣) ج • ت • آدامز ص ٩٥ و ١١٨ •

بالاضافة الى أن الجنوبيين استخدموا نظرية كونت جوبينو « الآرية » الغريبة التي لاءمتهم تماما في مقاومة مطلب تحرير عبيدهم • وبالتدريج بلغ العداء الاجتماعي درجة جعلت الشمال والجنوب مثل أمتين متعاديتين تمثلان مدنية ومثلا عليا لا يمكن أن تتفق •

وفي هذه المرة أثار الجنوب حق الانفصال ، وأنكره الشمال على أساس أنه لا توجد سوي أمة أمريكية واحدة ، وأن الجنوبيين الذين لا يؤلفون سوى جزء من هذه الأمة ليس لهم الحق في تقرير المصير الذاتي • واعتبر اعلانهم الاستقلال تمردا • ولا حاجة بنا هنا لمناقشة الحجج الدستورية لهذا الرأي • وحتى موتلي ، الذي انكر حق الانفصال في خطاب مشهور الى جريدة التايمز في سنة ١٨٦١ ، اعترف بأن التاريخ البريطاني والأمريكي زاخر بتمردات وثورات تجاوزت النص الحرفي للقانون • وكان الرأي العام في بريطانيا مع الجنوب(١) • وقد كان للتحيز ضد الديموقراطية الأمريكية والأنانية الاقتصادية نصيب كبير في هذا الموقف • ولكن حتي جلادستون الذى لم يكن عاطفا مطلقا على ملاك العبيد الجنوبيين وكان يعتقد أن مصالح انجلترا مرتبطة بالمحافظة على « الاتحاد » كان من رأيه ان الجنوبيين يؤلفون أمة وأن الحرب ستنتهي لمصلحتهم بالتأكيد(٢) • وكانت انجلترا في ذلك الوقت على وشك الاعتراف باستقلال الجنوب والتورط في حرب ضد الشمال • ويرجع السبب الأكبر في الحيلولة دون هذا التصرف الى الملكة التي تصرفت بناء على مشورة زوجها قبل موته بأيام قليلة •

وكل انسان اليوم يعتبر المحافظة على «الاتحاد» بركة على أمريكا وعلى العالم • ولو أن حق تقرير المصير منح للجنوب لأدى في الغالب الى انفصالات أخرى والى تفكك «الاتحاد» تماما • وقد أثير تساؤل : هل تسمح الولايات الداخلية الكبيرة للولايات التي تملك الموانى أن تحرمها منفذا مباشرا الى البحر ، وربما تخنق تجارتها الصادرة والواردة ؟ أما كانت الخصومات تشتعل فيما يتصل باستيطان الأقاليم الشاسعة غير المسكونة في الغرب بحيث تنتهي بخراب أمريكا بسبب الحروب المستمرة؟ وبعد أكثر من نصف قرن من انتهاء الحرب الأمريكية أعلن أحد الرؤساء

---

(١) افرام دوجلاس آدامز « بريطانيا العظمى والحرب الأهلية الأمريكية » مجلدان ١٩٢٥ •

(٢) عبر جلادستون في رعونة عن آرائه في حديث ألقاه في نيوكاسل اعتبره فيما بعد خطأ كبيرا • واختلاف أقواله فيما يتعلق بالحرب يدل على مدى تعدد الحجج التي في جانب الانفصال والتي ضده •

الأمريكيين حق تقرير المصير باعتباره مفتاح التهدئة الدائمة لأوربا . وقد صارت نتائج هذا الرأى المثالى معروفة تماما الآن بحيث انه ما من شخص يرجو لأمريكا أن تمر بتجربة عصيبة مماثلة .

وكان للحرب الأهلية أيضا أثر كبير فى تقوية فكرة الوحدة فى أجزاء واسعة من «الاتحاد». فقد استمر العداء بين الشمال والجنوب عشرين سنة أخرى على الأقل ، ولكنه انتهى فى آخر الأمر ، ولم تتعرض الوحدة الأمريكية بعد ذلك لأى خطر جدى . وانه لمما يدل على مدى استمرار التقاليد نصف الواعية أنه حتى فى جيلنا الحالى رفض مجلس كنسى اقتراحا باقامة صلاة من أجل الأمة الأمريكية على أساس أن ذلك ينطوى على تأكيد للوحدة أكثر مما ينبغى . وانتهى الرأى الى اقامة صلاة من أجل الولايات المتحدة بدلا من ذلك(١) .

وقد بدا ان نمو الوحدة القومية فى فدرال أمريكا الشمالية يؤيد توقعات منتسكيو فى أنه يمكن الجمع بين الوحدة والحرية فى الاقاليم الشاسعة بواسطة الفدرال . وكثيرا ما سأل الأمريكيون : لماذا لا تحذو أوربا حذوهم ؟ . بيد أنه من الجلى أن حالة أمريكا لا يمكن بأى حال أن تقارن بظروف أوربا . فعدد الولايات التى دخلت فى الفدرال كان فى الأصل أقل بكثير مما هو الآن . وكانت جميعها ضعيفة وكانت مضطرة للتضامن اذا أرادت أن تقف فى وجه انجلترا والدول الأخرى التى كانت لها فى ذلك الوقت مستعمرات واسعة بالقرب منها. كما أن معظم الولايات نمت فيما بعد فى الأراضى الخالية التى يملكها «الاتحاد» ، وبذلك خلقها الفدرالى حقيقة من جديد . وأخيرا ، لم يكن هناك تنافس وعداوات قديمة بين الولايات مثل تلك التى سممت العلاقات بين الأمم الأوربية . وباستثناء حرب الانفصال استطاعت القارة الأمريكية أن تنمو بسلام ، وكان هذا فى الغالب العامل الذى أدى الى نجاح الفدرال .

١٥ ــ المشاكل القومية فى الهند :

يقول دعاة القومية الهندية اليوم(٢) ان الهند كلها هى الاقليم القومى

---

(١) جيمس برايس « الكومنولث الأمريكى » المجلد الأول ص ٢ .

(٢) نحن نصف الحركة القومية الهندية بأنها « نزعة قومية » لأن هذا هو الاسم المتعارف عليه ، وان كنا نشعر بتردد كبير اذ نصف موقف غاندى السياسى بنفس الاسم الذى نصف به موقف هتلر .

الهندى ويجب أن تحكمها أمة هندية واحدة لا تنقسم • ويدرك المعتدلون منهم بدرجة تزيد أو تنقص أن هذه الوحدة ترجع الى حد كبير الى الحكم البريطاني ونفوذه ، فى حين يذهب الراديكاليون الى أنها النتاج التلقائى لتاريخ الهندى ، وأن البريطانيين لم يفعلوا أكثر من أنهم عـوقوا نموها بمنعهم الحرية السياسية وبالاسـتغلال الاقتصادى واثارة الانقسـام بين الهنود • ويقول خصومهم ان الهنـد لا تصلح لتكوين دولة قومية واحدة لأن سكانها يتألفون من عدة شعوب مختلفة اللغة والدين والجنس والعادات والتقـاليد (١) • فهى ليست بلدا بل قارة مثـل أوربا لا يمكن أن توحد قط فى دولة واحدة • فضلا عن أنهم كانوا يقولون : ان الوحـدة الحالية للهند ، باعتبارها نتاج الحكم البريطانى بدرجة تزيد أو تنقص ، لا يمكن أن تستمر بدون هذه الرابطة ، وبخاصة بدون تأييد الجيش والأسـطول البريطانى ، ووجود الادارة البريطانية كحـكم بين الطوائف المتنازعة • وأخيرا يدعون أن التخلف الاقتصادى والثقافى للأغلبية العظمى من الشعوب الهندية يستبعد استقلالها استقلالا كاملا فى الوقت الحاضر •

ان الصورة المتخيلة عن ماضى الهند التى يعرضها المؤرخون الهنود فى تأييد التهم الموجهة ضد البريطانيين موضع جدل كبير (٢) • فقد كان هناك غزاة عظام وحدوا الهند كلها تقريبا لمدد قصيرة تحت حكمهم اسما فى الغالب ، ولكنهم لم يحاولوا ادماج الأجزاء المختلفة بعضها فى بعض بحيث تتكون وحدة قومية ، كما ان حكمهم لم يؤد الى هذه النتيجة عن غير قصد • وكان هناك بعض الحكام العظام الصالحين ولكن تاريخ الهند فى الأغلب الأعم كان يتـأرجح بين الاستبداد المطلق والفوضى الـكاملة ، وكثيرا ما كان الناس فى حالة لا حد لها من الشـقاء • وكانت الظروف السائدة فى وقت انحلال امبراطورية المغول ، السابقة مباشرة على الحكم البريطانى ، زاخرة بصفة خاصة بفظائع لا توصف • والفرق الحاسم بين

---

(١) ان المسح اللغوى للهند يبين أن هناك ١٧٩ لغة و ٥٤٤ لهجة • بيد أن هذا الاختلاف يخفف من وقعه انتشار لغات التخاطب مثل الاردو والهندى والتاميل والانجليزية • والاردو خليط من الهندى والفارسى وبعض العناصر العربية ويعتبرها المسلمون لغتهم المشتركة ، فى حين يفضل الهندوس الهندية • والتاميل هى اللغة المشـتركة فى جنوب الهند وهى من أصل لغوى مختلف تماما • وتستخدم الانجليزية بين الطبقات المتعلمة عموما ، وحتى « المؤتمر » وهو منظمة الدعوة القومية ، كانت اللغة الغالبة فيه هى الانجليزية •

(٢) جاى وينت فى كتاب سيرج • شستروج و ج وينت « الهند والديمقراطية » ١٩٤١ ص ١٧ و « الهند الحديثة والغرب » باشراف ل • أومالى ١٩٤١ الفصل الأول •

نمو الهند ونمو أوربا هو أن القوى التي كانت تعمل من أجل الحرية السياسية والمساواة الاجتماعية ، ومن ثم من أجل الوحدة القومية ، أضعف بكثير في الهند منها في قارتنا • وليس هناك أدنى شك في أن الحكم البريطاني دعم هذه القوى الى حد كبير جدا باقرار السلام هناك وفرض حكم القانون والمدنية الغربية • وليست الكرامة القومية الهندية في حاجة لأن تجد في وجهة النظر هذه ما يسيئها لأن المدنية الغربية ليست مجرد نتاج العقل الغربي ، بل هي الى حد كبير قائمة على أسس وضعها الشرق القديم وتلقت كثيرا من الدروس من الهند •

والفكرة الحاضرة عن الوحدة الهندية حديثة الأصل بالتأكيد ، وقد أشرنا من قبل الى أنه لم تكن هناك كلمة «للهند» أو «الهندى» في أى من اللغات الشعبية الدارجة ، وأن البريطانيين هم أول من تحدث عن «الهنود»(١) ، بنفس الطريقة التي تحدث بها المبشرون الرومان عن الانجليز كوحدة والتي تحدث بها المبشرون الانجلو ساكسون عن الألمان كوحدة• وكان الحكم البريطاني أيضا هو الذى أدى الى ظهور الحركة القومية ، بنشر الأفكار الغربية من ناحية وبالتشجيع المباشر من ناحية أخرى(٢) ، وأهم من ذلك كله بتوحيد العناصر المختلفة تماما في معارضة مشتركة ضدهم • وهذا أيضا له ما يقابله في التاريخ الأوربي • بيد أن السؤال الهام الآن هو : هل هذه الوحدة مجرد وحدة سلبية أو أنها أيضا عامل ايجابي يستطيع البقاء بعد التخلص من الحكم البريطاني للهند ؟• ولا يمكننا أن نتجاهل أن امكان سيطرة الهندوس أثار أعنف معارضة من جانب الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يطالبون بانشاء دولة اسلامية منفصلة• وهناك خطر من أن الهند ستتعرض في حالة قيام حكم هندوسي لحرب أهلية مدمرة • ان غاندى نفسه أدرك ذلك ، وان كان قد أعرب عن رأيه بأن الحرب الأهلية لن تستمر طويلا لأن الهنود غير مدربين على استعمال الاسلحة (٣) • ولكن المسلمين لديهم تقاليد حربية وهم من القوة بحيث يستطيعون الوقوف في وجه الآخرين ، بل وأن يؤسسوا دولة اسلامية

---

(١) • كرادوك « معضلة الهند » ١٩٢٩ ص ١ •

(٢) كان مؤسس المؤتمر هو آللان هيوم وشجعه في تنفيذ خطته نائب الملك لورد دوفرين • أنظر ك • اندروز و ج موكرجى « ظهور المؤتمر في الهند ونموه » ١٩٣٨ ص ١٢١ و ١٢٣ و ١٤٦ • وسيرو • ويدربرن « أ • أ • هيوم » ١٩١٣ • فضلا عن أن الحركة القومية في الهند حظيت بتشجيع كبير من جانب أصدقاء بريطانيين ، وكثيرا ما رأس « المؤتمر » أفراد منهم •

(٣) شستر وديننت ص ٣٤٦ •

مستقلة . والى جانب الثمانين مليونا من المسلمين توجد شعوب أخرى قد تنمو مع تقدم التربية والاهتمام السياسى وتؤكد وعيها القومى المنفصل . فضلا عن أن هناك ستين مليونا من المنبوذين الذين ينظر اليهم معظم الهندوس كما ينظر النازيون الى اليهود تقريبا ، وقد يصبحون أيضا مشكلة فى دولة هندوسية بحتة . ان الادارة البريطانية أدخلت نظاما ، قصد به أن يتيح للأقليات المهمة قدرا من التمثيل العادل فى المجالس المنتخبة ، يسمى « تمثيل الجماعات المحلية(١) » .

وقدحددت الحكومةالبريطانية فى سنة١٩١٧ سياستها بأنهاالعمل على زيادة اشراك الهنود فى كل فرع من فروع الادارة ، والنمو التدريجى نحو الحكم الذاتى فى الهند كجزء لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية . وتضمن الاصلاح الدستورى الكبير الذى تم فى سنة ١٩٣٥ خطوة هامة جدا فى تحقيق ذلك . ففى الأقاليم التى تحت الحكم البريطانى المباشر حصل مالا يقل عن ٣٦ مليونا على حق الانتخاب ، وكان الفلاحون هم الذين حصلوا بذلك على القوة السياسية . وجعل البريطانيون تحقيق الهدف القومى الهندى كاملا متوقفا على حل مشكلتى الفدرال والأقليات. وقد أثبتت الحكومة البريطانية فى موقفها تجاه ارلندا انها على استعداد لاحترام مبدأ حق تقرير المصير القومى حتى على حساب الأمن القومى لبريطانيا . وفى الحالتين لم يحاول القوميون فى الجانب الآخر أن يسهلوا مهمة الجمع بين الحرية والوحدة(٢) .

والخلاصة أنه يجب القول بأن حق تقرير المصير لا يمكن انكاره على الهنود ، اذا أردنا أن يكون لهذا الحق أية قيمة ، وأنه يجب على بريطانيا الاعتراف بذلك وأن تكون على استعداد للعمل طبقا له . بيد أنه ثبت أن

---

(١) قبل الكونجرس المبدأ فى اتفاقية لوكنو سنة ١٩١٦ . أنظر اندروز وموكرجى ص ٢٥٣ . بيد أن كثيرين من القوميين يعارضون تمثيل الجماعات المحلية ، مثل ك . كريشنا فى كتابه « مشكلة الاقليات أو تمثيل الجماعات المحلية فى الهند » ١٩٣٩ . ويعزو المؤلف كل الشرور للامبريالية البريطانية التى جعلت الهنود « عبيدا فى بلادهم » . فالبريطانيون فى رأيه ، ابتكروا الاقليات ليزرعوا بذور التفرقة . والاقليات عناصر مختلفة تصبغ شكاواها الوهمية بألوان مقبضة ولا غرض لأبنائها سوى الحصول على مراكز فى الحكومة .

(٢) يقول ج . وينت ان كلا من غاندى ودى فاليرا شجعوا الانقسام فى بلادهما حقيقة اذ أثار غاندى معارضة المسلمين الشديدة للاهداف القومية الهندوسية ، ووسع دى فاليرا الهوة بين آير والستر . أنظر ت . شيناد وارى « الاختيار الذى أمام الهند » ١٩٤١ ص ١٦٩ كوجهة نظر هندية فى نقد المؤتمر .

تحقيق ذلك المبدأ عسير لعدة أسباب • فأولا ليس من الواضح مطلقا أى الجماعات المنظمة نها الحق فى تكوين أمة واحدة وكيف يمكن تحديد اقليمها القومى • وثانيا قد تكون هناك أمم كامنة قد تطالب ان آجلا أو عاجلا بحق تقرير المصير ، ولا ريب أنه من مصلحة الجميع أن يؤخذ ذلك فى الاعتبار مقدما • وثالثا ، أن المحافظة على نوع من الوحدة بين أجزاء الهند والابقاء على رابطة ما بين الهند والكومنولث البريطاني لهما أهمية قصوى بالنسبة للهند وبالنسبة للأمم الأخرى التى يتعلق بها الأمر ، بل والعالم أجمع ، بحيث أن كل صديق للهند وللسلام العالمى والرخاء العام لا يتردد فى التضحية بمجرد مشاعر التذمر الذى نجم عن مظالم سابقة وعن مركب النقص • ولو كانت الهند مأهولة بسكان كلهم أوربيون ولديهم أرفع مستوى من التربية العامة والسياسية بلغته أكثر البلاد الاوربية تقدما ولكنهم فى نفس الوقت يمثلون الاختلافات التاريخية الحالية بين الشعوب الهندية ، لما كان هناك شك فى أن الهند سرعان ما تتمزق شذرا وتصير بلقانا جديدا على نطاق أوسع بكثير(١) • ولكن هناك ثلاثة عوامل فى الوقت الحاضر تعوق هذا التحول : النفوذ البريطانى ، ومشاعر اللون التى تضفى على الهنود نوعا من التضامن ضد الأوربيين ، والمستوى المنخفض للتربية فى قطاعات ضخمة من الهنود وهو عقبة فى سبيل استيقاظ الوعى القومى الكامن فى كثير من الشعوب • ومن المحتمل أن قطع كل صلة بالكومنولث البريطانى سيضعف من تأثير مشاعر اللون ، وأن زيادة التعليم العام قد تؤدى الى نمو تطلعات جديدة لتكوين أمة منفصلة • وقد يقال: ان التجربة التى تكونت من دراسة التاريخ الأوربى لا تنطبق على الهند • بيد أن هذا القول لا تؤيده الدروس المستفادة من ماضى الهند ، كما أنه ينطوى على الاعتقاد بأن هناك اختلافا جذريا فى عقلية الأجناس المختلفة وهو اعتقاد يتفق مع نتائج البحث العلمى •

١٦ - الجنسية فى الامبراطورية الروسية والاتحاد السوفيتى :

أدت عوامل كثيرة الى نمو نظام من الحكم المطلق غير المحدود فى روسيا القديمة لم تظهر فيه سوى سمات قومية قليلة زمنا طويلا • ففى القرن الثامن عشر ، وحتى بعد ذلك ، كان البيت المالك والبلاط وكبار

(١) يقول أحد أصدقاء الهند المعروفين ، الاستاذ هارولد لاسكى ، فى كتابه « قواعد السياسة » ١٩٢٦ ص ٢٢٠ : « ان اختفاء انجلترا من الهند سيؤدى حتما تقريبا ، اذا حدث فى فترة قريبة ، الى فوضى لفترة ما ، ومع ذلك فان هناك آلافا من الهنود يفضلون فكرة الفوضى من صنع الهنود أنفسهم على السلام من صنع البريطانيين».

الموظفين والبيروقراطيين ألمانا أكثر منهم روسيين فى كثير من الأحيان واتخذ النبلاء اللغة الفرنسية وآداب السلوك الفرنسى • وكانت الدوائر العليا عالمية فى وجهة نظرها والطبقات الدنيا يكاد لا يظهر فيها أثر للوعى القومى باستثناء تمسك شديد بالمذهب الاورثوذكسى كان بديلا للجنسية • وبعد هزيمة نابليون منح القيصر اسكندر ، تحت تأثير الأفكار التحررية والمسيحية ، للبولنديين والفلنديين قدرا معينا من الاستقلال الذاتى ، ولكن خلفاءه عدلوا عن هذه السياسة ، أساسا كنتيجة للتمردات البولندية التى أخمدت بقسوة • وشجع ظهور الطبقة الوسطى نمو التطلعات القومية والنزعة القومية بين الروس وبعض الشعوب التى هى أكثر تقدما فى الامبراطورية • وسرعان ما أدى ذلك الى سياسة من « ترويس » • • الأقليات القومية الكثيرة بلا رحمة • فجعلت اللغة الروسية اللغة الوحيدة فى الادارة برغم أن الروس أنفسهم لا يزيدون على ٤٣ فى المائة من السكان • ولم يكن لدى الأقليات مدارس حكومية ولا مؤسسات ثقافية بلغاتها الخاصة الا فى حالات استثنائية قليلة • واستخدمت جميع الوسائل للقضاء على اللغات غير الروسية وبخاصة بين الاوكرانيين والسلافيين الآخرين الذين كانوا يعتبرون رسميا من الروس(١) • وتعرض اليهود الذين أبدوا فى روسيا بعض السمات القومية لاضطهاد بوحشية بالغة • وقد خففت ثورة ١٩٠٥ حدة هذه السياسة بعض الشىء ولكن سرعان ما تدهورت الحالة ثانيا •

واتخذ البلاشفة سياسة مختلفة تماما (٢) • فقد تألفت من كل من

---

(١) فيما يتصل بمعاملة الجنسيات أنظر Russen uber Ruszland, ein Sammelwerk herausge geben von J. Melnik ١٩٠٦ ص ٥٣٨ ــ ٦٧٠ • وفيما يتصل بالقومية الروسية قارن الفصل الذى بقلم س• أ • ياكوبسون ص ٥٧ فى كتاب « القومية ، تقرير وضعته جماعة دارسة للمعهد الملكى للشئون الخارجية » ١٩٤٠ ، وكتابى «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ ص ٣٠٩ •

(٢) هانزكون « القومية فى الاتحاد السوفيتى » ١٩٣٣ ، والفصل عن الجنسيات فى كتاب سيرجون ماينارد « الفلاح الروسى ودراسات أخرى » ١٩٤٢ ص ٣٧٧ • وس• ويب وزوجته « الشيوعية السوفيتية » ١٩٣٧ • وايوالد آمنده « الحياة البشرية فى روسيا » ١٩٣٦ • ومارك سلونين «Les onze Republiques Soviétiques» ١٩٣٧ • و «روسيا ــ الاتحاد السوفيتى » سجل كامل باشراف ب . مالفسكى ــ مالفيتش ١٩٣٦ (وفيه فصل عن الجنسيات بقلم ك . تشيدزه) وشيمناز اسلانوفا « حل المشاكل القومية » ١٩٣٩ . ويانكا كوبالا « التقدم الثقافى بين الجنسيات غير الروسية فى الاتحاد السوفيتى » ١٩٣٩ •

الجنسيات الكبيرة جمهورية منفصلة منحت فيها الاقليات استقلالا ذاتيا ومن ثم كان لها طابع فدرالى . وتكون «اتحاد الجمهوريات السوفيتيه» من جميع هذه الجمهوريات الفدرالية الطابع . ونبذ اسم الامبراطورية الروسيه القديم واستعيض عنه بهذا الاسم فوق الدولى . بل انه أعلن أن كل جنسية لها حرية الانفصال وان لم يكن ذلك ممكن التحقيق عمليا قط .

وطبقا لتعداد سنة ١٩٢٦ يسكن الاتحاد السوفيتي ١٨٥ شعبا يتحدثون ١٤٧ لغة . بيد أنه لا توجد سوى خمس لغات واسعة الانتشار. وقد انتظمت هذه الشعوب فى احدى عشرة جمهورية سوفيتيه فدرالية تتألف من اثنتين وعشرين جمهورية مستقلة استقلالا ذاتيا وخمسة أقاليم وثلاث وأربعين مقاطعة وتسع مناطق مستقلة ذاتيا وبعض المراكز القومية ذات الأهمية الثانوية . ويتبع التقسيم الادارى حدودا قومية أحيانا وحدودا طبيعية ، واقتصادية أحيانا أخرى . ومعقد السلطة العليا هو « مجلس السوفيت الأعلى » الذى يتألف من مجلسين هما «سوفيت الاتحاد» و «سوفيت الجنسيات» . ويتمتع المجلسان بحقوق متساوية . وترسل كل من الجمهوريات الرئيسية بصرف النظر عن عدد سكانها ٢٥ مندوبا الى «سوفيت الجنسيات»، كما ترسل كل من الوحدات الصغرى المستقلة ذاتيا نفس العدد . وبهذه الطريقة تحصل الجنسيات الصغرىعلى حماية اضافية ضد سيطرة الجنسيات الكبرى . و «للسوفيت المركزى» سلطات واسعة جدا ، فى حين ان السوفيتات الاقليمية تهتم أساسا بالشئون المحلية .

ومنحت جميع الجنسيات حرية ومساواة كاملتين فيما يتعلق بأستخدام لغاتهم فى الهيئات النيابية ودور القضاء والادارة والمدارس . وبذلت جهود ضخمة فى تنظيم التربية بجميع اللغات ورفع المستوى الاقتصادى والثقافى للجنسيات المتخلفة . فقد أنشأت السوفيتات جامعات ومدارس ومكتبات ومعاهد علمية ومتاحف ومسارح ودورا للسينما ومحطات اذاعة لجميع الشعوب ، وشجعت آدابها وضمت حروفا ابجدية جديدة ووضعت معاجم . ولم تعد اللغة الروسية تحتل مركزا ممتازا ، وان كانت قد تحولت الى لغة مشتركة « للاتحاد » كله(١) . ولم توضع للحروف الأبجدية الجديدة قائمة على أساس الحروف الروسية بل على الحروف اللاتينية . ونبذ التتار الأتراك حروفهم العربية والألمان حروفهم القوطية الى الحروف اللاتينية ، فى حين احتفظ الروس والأوكرانيون بحروفهم السلافية .

(١) فى سنة ١٩٣٨ جعلت اللغة الروسية اجبارية كلغة ثانية فى المدارس غير الروسية .

ولا ريب في أن ما تم من انجازات في دعم اللغات والأنظمة الثقافية القومية عظيم جداً ، وينطوى على تقدم ضخم اذا قورن بالظروف السائدة في الامبراطورية القديمة . واستخدمت السوفيتات بطبيعة الحال هذه النتائج في الدعاية في الخارج حيث ينشرون فكرة أن الحرية والمساواة القوميتين أمكن تحقيقهما في ظل النظام البلشفي . ويبدو أن هذه الفكرة كان لها وقع كبير في الهند بصفة خاصة . بيد أن هذا الادعاء يتطلب تحفظات كثيرة . فحق تقرير المصير القومي ، تبعا لوجهة النظر الديموقراطية المألوفة ، لا يتكون من مجرد حق استخدام اللغة القومية ، بل ينطوى أيضا على حق تحديد السياسة كلها التى تمس الأمة وتنمية ثقافتها بما يتفق مع التقاليد القومية . ولكن شعوب الاتحاد السوفيتى ليست حرة في اتخاذ السياسة التي تلائمها أكثر من غيرها . فهى لا بد أن تقبل الماركسية وتفسيرها العملي بواسطة المركز الشيوعى الرئيسى فى موسكو باعتباره القانون الأعلى . فمجلس السوفيت المركزى لديه كامل السلطة في وضع القواعد العامة في جميع المسائل المهمة . وقد انتهى رأى أحد كبار الخبراء الذين يعطفون على السوفيت ، وهو سيرجون مانيارد ، الى أن « النظام السياسى نظام شديد المركزية » وأن « الدستور لا يمنح الا النزر اليسير من السلطة الفعلية ، أو لا يمنح منها الهيئات الدستورية التى يتألف منها الفدرال شيئا » . وبخاصة حق الانفصال عن « الاتحاد » فليس سوى حق على الورق فقط . واذا جرؤت احدى الجمهوريات الفدرالية على اعلان استقلالها أو اصدار قوانين لا تتفق مع الأفكار البلشفية أو توجيهات الحزب الشيوعى فان هذه المحاولة تخمد بشدة تماما(١) .

فالبلاشفة يعترفون بمبدأ تقرير المصير الذاتى ولكنهم يخضعونه

---

(١) يبدو غزو جمهورية جورجيا وادماجها في ١٩٢١ مثلا واضحا . بيد أن مشكلة جورجيا معقدة جدا . ولاشك فى أن الحكومة الاشتراكية التى أيدتها أغلبية الشعب اسقطتها الجيوش السوفيتية وحطمت مقاومة الشعب . أنظر ك . كاوتسكى «جورجيا : جمهورية فلاحين ديمقراطية اشتراكية » ١٩٢١ . وقد انتهى وفد النقابات البريطانية الذى أرسل الى روسيا والقوقاز فى تقريره (نشرة ١٩٢٥) الى رأى فى جانب الاتحاد السوفيتى . ويقول التقريران ان أغلبية كبيرة جدا من أهل جورجيا يؤيدون الحكومة الاشتراكية السابقة (ص ٢١٢) ولكنه يقول ان هذا النظام فشل ماليا واقتصاديا وأن البلاشفة نجحوا (ص ٢٠٨) وهذا الحكم ينطوى على أن الكفاية الادارية والاقتصادية قد تكون لها الاولوية على حق تقرير المصير . ويعرض زوراب آفاليشفيلى فى كتابه « استقلال جورجيا والسياسة الدولية » ١٩٤٠ موقف الدول من هذه القضية .

لمصالح البلشفية أو البروليتاريا • وهم يمنحون الجميع حقوقا متساوية بصرف النظر عن الجنسية وفيها حق استخدام اللغة المحلية وتنميتها • ولكنهم لا يشاركون في وجهة النظر القائلة بأن الجنسية «قيمة» في ذاتها وأنه ، بناء على ذلك ، لكل جنسية مهما كانت صغيرة ومتخلفة الحق في تنمية شخصيتها الثقافية والسياسية بلا أية حدود ليكون هدفها النهائي هو الاستقلال • وصحيح أن وجهة النظر هذه هي نتاج الليبرالية والرومانسية وتفوح منها رائحة الفردية والفوضوية • كما أن البلاشفة لا يؤمنون بأن لكل أمة رسالة سامية • فهم يؤمنون برسالة الطبقة ، طبقة البروليتاريا ، وقد أعلن ستالين أن انتصار الشيوعية في العالم كله سيحمل الى جميع الشعوب ثقافة ولغة واحدة مشتركة • ومن ثم فان سياسة البلاشفة لا تدخل في تصورها الوجود الدائم لعدة لغات وثقافات قومية ، ولكنها تجد من الملائم أن تشجع نموها بعض الوقت كوسيلة لتقوية نظام المساواة الاجتماعية الذي يرتبط ارتباطا شديدا بالمساواة القومية ، وان كانت المساواة الاجتماعية لها الأفضلية • وستالين نفسه يمثل رمزا للمساواة القومية • فهو من أبناء جورجيا ، وقد تم غزو جورجيا على يديه الى حد كبير • ومن ناحية أخرى فان مركزه الكبير في الاتحاد السوفيتي فيه ارضاء للكرامة القومية لأبناء جورجيا وجعلهم يقبلون فقد استقلالهم •

وقد أمكن تطبيق السياسة السوفيينية فيما يتعلق بالجنسيات لوجود ظروف خاصة لا يوجد ما يقابلها في البلاد الأخرى • فالجنسية الروسية وحدها أكثر عددا من جميع الجنسيات الأخرى معا ، وتأتي بعدها الأوكرانية الذين يؤلفون حوالي ٤٠ في المائة من الروس • أما جميع الجنسيات الأخرى فهي صغيرة جدا بحيث تبدو أقزاما اجتمعت حول عملاقين(١) • فضلا على أن هناك ثلاث جنسيات ، هي الروسية والأوكرانية والروسية البيضاء مرتبط بعضها ببعض بحيث كثيرا ماتعتبر ثلاثة فروع لشعب واحد ، وهي تؤلف فيما بينها ٨٠ في المائة من مجموع سكان الاتحاد السوفيتي • بالاضافة الى أن معظم الجنسيات الصغرى كانت متخلفة تماما في النمو الثقافي ولم تكن قد بلغت بعد مرحلة الوعي القومي الفعال • فكثير منها لم يكن لديه أدب خاص ولا تقاليد تاريخية

(١) باستثناء الروس والاوكرانيين كانت هناك ثلاث جنسيات يبلغ عدد كل منها بين ٣ ملايين و ٥ ملايين ، وثماني جنسيات يبلغ عدد كل منها بين مليون و ٣ ملايين ، وسبعة بين نصف مليون ومليون • وليست هناك أية جنسيات أخرى بلغت نصف مليون ، بل معظمها لا يصل حتى الى ١٠٠٫٠٠٠ •

تذكى شعلة الكرامة القومية ، ولا طبقة المثقفين الضرورية لنمو الشعور القومي • وفي الشعوب التي هي أكثر تقدما التي وجد فيها فعلا مثقفون من الطبقة الوسطى أخمدهم البلاشفة لأنهم كانوا خطرا أو كان هناك خطر من أن يصيروا ، دعاة الاستقلال القومي • ولم تكن أى من الجنسيات المتخلفة الصغيرة قد أتيحت لها أية فرصة للوقوف على قدميها ، وما كانت تستطيع بالتأكيد أن تحافظ على كيانها كدولة منفصلة على عداء مع الاتحاد السوفيتى الذى يحيط بها• ولم يكن كثير من الجنسيات راضيا عن الشيوعية ، ولا عن دعايتها المناهضة للدين، ولا يضا عن فكرة التجانس الروسى• ومن الناحية الاخرى كانت ميزات الانتماء الى امبراطورية شاسعة والتمتع بحمايتها القوية وبمساعدتها المالية والاقتصادية والثقافية ميزات ضخمة • وكانت الجنسيات الصغيرة حرة فى تكوين فدرالات منفصلة على أسس ديموقراطية اذا لم تعجبها البلشفية • بيد انه ثبت أن ذلك مستحيل • فالجمهوريات الديموقراطية لم يكن فى وسعها التغلب على الكراهية القومية والقبلية التى كانت بين كثير من هذه الشعوب ، كما لم يكن فى استطاعتها مقاومة فوضى ما بعد الحرب ومصاعبها الاقتصادية والمالية والعسكرية • فكل هذه المشاكل لا يحلها الا حكم قوى يستطيع أن يفرض تضحيات كبيرة على الشعب • ولكن كيف تستطيع حكومة تعتمد كلية على ارادة شعب غير مدرب مطلقا على السياسة أن تنتهج مثل هذه السياسة ؟•

ومن ثم كانت الحجج التى تدعو الى اتحاد جميع هذه الجنسيات تحت زعامة السوفيت حججا لا تقاوم • ومع ذلك فان هذا الاتحاد لم يتحقق بدون اكراه • ومن المحتمل أن قسما كبيرا من هذه الجنسيات ما كان لينضم الى الاتحاد السوفيتى لو لم يرغم على ذلك ، كما ان انشاء حكم السوفيت وتطبيق سياسة الحقوق المتساوية بين جميع الجنسيات لم تضع حدا للتطلعات التى تهدف الى الانفصال عن الاتحاد أو الى استقلال ذاتى أوسع من ذلك بكثير• ويدل على ذلك وقوع عدد من الثورات والاضطرابات والمؤامرات التى اخمدت كلها بشدة(١) •

١٧ ـ الامبراطورية النمساوية :

تألفت الامبراطورية النمساوية فى سنة ١٨٠٤ ، وبعد سنة ١٨٦٧ سميت المملكة النمساوية الهنغارية (٢) • بيد أن أصلها الحقيقى يرجع

---

(١) ماينارد ص ٢٨٨ ـ ٢٩٨ ، أ . آمند « الحياة الانسانية وروسيا » ١٩٣٦ •

(٢) فرانزم • ماير «Geschichte Oesterreichs» مجلدان ١٩٠٩ • وفيما =

الى سنة ١٥٢٦ عندما هزم الملك لودفيح الثانى ملك هنغاريا وبوهيميا هزيمة نهائية على يد الأتراك وفقد حياته فى ميدان القتال . وكانت الامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت أكبر قوة عسكرية وهددت أوربا كلها بالعدوان . وكان هذا هو السبب الذى جعل بوهيميا وكردانيا وجزءا من هنغاريا تنتخب الغراندوق فرديناند حاكم النمسا ملكا لها ، وقد خلفه بعد ذلك أخيه شارل الخامس كأمبراطور . بيد أن البلاد الكثيرة التابعة لآل هابسبورج النمساويين لم تأخذ شكل الامبراطورية الموحدة الا بعد وقت طويل . وكانت أهم الخطوات نحو التوحيد هى دستور سنة ١٧١٣ . ومع ذلك فان الامبراطورية النمساوية لم تصر قط وحدة تامة وظهرت فيها باستمرار سمات الفدرالية بصورة تزيد أو تنقص . فكثيرا ما حدث مجالس (الدايت) فى اقاليمها المختلفة وروح العصبية المحلية من سلطة التاج وأرغمت الملوك على اتباع سياسة الحذر والاعتماد على الدبلوماسية والتفاهم أكثر من الحرب . ومع ذلك فان تاريخ الامبراطورية كان زاخرا بالحروب مع الأتراك والفرنسيين والسويديين والحكام الألمان ، وبخاصة بروسيا . وقد ظلت الامبراطورية قائمة أربعة قرون تقريبا كانت ثلثها فحسب فترة سلام . وكثيرا ما ثار نبلاء النمسا وبوهيميا وهنغاريا المتمردين ضد سلطة التاج وربطوا سعيهم فى سبيل القوة بالبروتستانتية والجنسية كقاعدة عامة . ولم تستطع الأسرة المالكة المحافظة على نفسها وعلى الأمبراطورية الناشئة أيضا ، الا بمحاربة تطلعات النبلاء والحد من سلطتهم عن طريق السياسة المركزية . ومن الامور ذات المغزى أن التاج عمل دائما على التشدد فى المركزية كلما تعرض وجود الامبراطورية للخطر ، كما حدث فى حرب الثلاثين عاما وفى الصراع ضد العدوان البروسى .

وعندما سحق الأباطرة التمردات الكبرى التى قام بها النبلاء فى القرن السابع عشر بدأت بعد ذلك عملية كثلكة لا رحمة فيها ونشر اللغة الألمانية بواسطة البيروقراطية الامبراطورية ، وان لم تكن أسباب ذلك ذات طابع قومى كلها . وقد تركت هذه الفترة أثرا بالغ المرارة فى عقول التشيكيين والهنغاريين ، وكل مؤمن بالتسامح الدينى وحقوق الانسان يحس بالاشمئزاز عندما يسمع الاجراءات التى اتخذها فرديناند الثانى وليوبولد الأول ضد البروتستانتيين المهزومين . وقد بدت فى هذه الاجراءات نفس الروح التى بدت فى اضطهاد لويس الرابع عشر

= يتصل بالصراعات القومية أنظر كتابى «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ ص ٣٣٥ ــ ٤٣٨ حيث أوردت بعض الكتابات المتصلة بالموضوع .

للهجونوت ، وان لم تصل فى قســوتها ما بلغه اضــطهاد كرومويل للارلنديين • بيد أن للتـاريخ طرقا غريبـة جدا بحيث أن المرء قد يعجب من أن المعاملة القاسية التى تعرض لها المتمردون البوهيميون والهنغاريون على يد آلهابسبورج المنتصرين فىالحقيقة كانت لمصلحةالامتين : البوهيمية والهنغارية الدائمة .. فبعد معركة « الجبل الأبيض » بثلاثة وستين عاما حاصر جيش تركى قوى فينا ولم تتم هزيمته الا بمجهودات ضخمة من جانب النمسا والامبراطورية وبولندا والبابا (١) . ولو أن النبلاء النمســاويين والبوهيميين والهنغــاريين انتصروا فى صراعهم مع آل هابسبورج لا نقسمت الامبراطورية الوليدة الى عدد كبير من الأقطار الصغيرة التى ما كانت لتستطيع قط أن تقاوم هجوم الأتراك . وكان الغالب أن تصير أوربا تركية حتى ضفاف الرين ، وكان غرب أوربا كله صار امبراطورية فرنسية ، وربما كانت هذه الامبراطورية ستبتلع انجلترا أيضا بعد أن تصـير أساطيل فرنســا وهولندا واســبانيا تحت تصرفها • واذا كان لويس الرابع عشر قد فشل فى جهوده للسيطرة على أوربا فان ذلك يرجع أولا الى تضافر قوى النمسا وانجلترا الذى حقق « توازن القوى » ، ولو أن النمسا تحطمت بانتصار النبلاء البروتستانت لما عادت هناك عقبة فى سبيل توسع الحكمين العسكريين ، الاستبداديين الكبيرين : فرنســـا والامبراطورية العثمـانية ، اللذين كانا حليفين باستمرار فى الصراع ضد آل هابسبورج • وقد كان الأمراء الألمان فعـلا مأجورين لملك فرنســـا الى حد كبير وبخاصة براندنبرج وبروسيا ــ وما كانوا ليستطيعوا مقاومته بصورة فعالة حتى لو أرادوا ذلك .

وكان السبب فى المركز القــومى الذى احتلته أسرتا هابسبورج المتحالفتان هو انهما كانتا تحكمان الجزء الاكبر من امبراطورية شارل الخامس • فضــلا عن أن رأس الأسرة المالـكة النمساوية صـار ينتخب باستمرار امبراطورا ، وكان له بهذا الوضع نفوذ كبير على الامراء الالمان • وقد كان ارتباط الأراضى النمسـاوية باسبانيا وايطاليا وبلجيكا وزعامة ألمانيا سببا فى تورط آل هابسبورج فى صراعات لا نهاية لها استنفدت مواردهم ومنعتهم من توطيد حكمهم ومملـكتهم الرئيسية بلاد الدانوب • وقد كانت لديهم فرصة طيبة لتحرير شعوب البلقان من النير التركى

---

(١) كان الجيش التركى أمام فينا ٢٣٠٫٠٠٠ جنـديا فى حين كان هناك ٢٣٫٠٠٠ يدافعون عن المدينة ، وكانت جيوش النجدة تتكون من ٨٦٫٠٠٠ منهم ٢٧٫٠٠٠ بولندى وكان للبابا دور كبير فى النصر بمساعدأته الدبلوماسية والمالية ٠

وتوسيع سلطانهم الى شواطىء البحر الأسود وبحر ايجه ولكن حال دون ذلك الضرورة المستمرة لشن الحروب فى جميع انحاء أوربا للاستيلاء على البلاد التى كانت تعتبر ميراثا للأسرة فى بورجنديا واسبانيا. وكان كثير من الساسة النمساويين يدركون تماما أن امتلاك بلاد بعيدة عبء ثقيل وينبغى نبذه لتركيز كل القوى على المهام القريبة . ولكن المحاولات التى بذلت للتصرف على هذا الاساس ، مثل استبدال بلجيكا ببارفاريا ، فشلت . وكانت الاسرة المالكة النمساوية ، مثل كل الاسر المالكة والدول مرتبطة، بصورة لا فكاك منها، بالمحافظة على المراكز التقليدية بحيث لم يكن فى وسعها التخلص من ميراث الماضى القاتل . ولم يستطع آل هابسبورج أن يكرسوا أنفسهم أخيرا للمشكلة الأساسية الحقيقية للامبراطورية النمساوية الا بعد أن أرغمهم بسمارك وكافور ونابليون الثالث على الانسحاب من ألمانيا وايطاليا .

وكانت هذه المشكلة هى تنظيم عشر جنسيات صغيرة أو أكثر للدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى والتنمية الثقافية . وكان لابد من قدر من الوحدة لأن كل هذه الشعوب كانت أضعف من أن تحقق استقلالها وتقدمها منعزلة . وكانت الوحدة تتطلب أنظمة مركزية قوية الى حد كاف ، وكان من الطبيعى أن يكون الشاغل الاول للتاج وموظفيه هو المحافظة على الوحدة والقوة . ومن الناحية الاخرى كانت كل من هذه الجنسيات تطالب بطبيعة الحال بحقوق قومية تتعارض مع وحدة الامبراطورية ومع مطالب الجنسيات الأخرى وحقوقها .

ويبدأ الصراع القومى الحديث فى النمسا والمجر بثورة سنة ١٨٤٨ ، وأعقبت هزيمة الثورة فترة من الحكم المطلق والمركزية . بيد أن هذا النظام انهار نتيجة لحروب ١٨٥٩ و ١٨٦٦ ودخلت النمسا المجر بعد ذلك فى حقبة من الاصلاحات الكبرى بروح التحررية . بالاضافة الى أن الامبراطور فرانسيس جوزيف أدرك ضرورة كسب ولاء جميع شعوبه بالاستجابة الى تطلعاتها القومية بقدر مايتفق مع وجود الامبراطورية وقوتها . ومن الاسس التى قام عليها التطور التالى بأكمله الاتفاق النمساوى الهنغارى الذى تم فى سنة ١٨٦٧ والذى أعادلهنغاريا مركزها القديم كمملكة مستقلة عن النمسا. ولم يبق بينهما شىء مشترك سوى السياسة الخارجية والجيش ، وان كان لكل من النمسا وهنغاريا جيشها الخاص بالاضافة الى الجيش المشترك ، كما نظمت العلاقات الاقتصادية باتفاقات يعاد النظر فيها كل عشر سنوات . وكانت التجارة الداخلية حرة والعملة واحدة فى المملكة كلها . وأعقب التسوية مع

هنغاريا منح كرواتيا استقلالا ذاتيا واسعا جدا وقانونا يضمن حقوق الأقليات فى هنغاريا . وكانت هذه التشريعات نموذجا للتحررية بالنسبة لعهدها ، وقد رحب بها الاحرار فى جميع الامم باعتبارها انتصارا لقضية الحرية والجنسية . ولكن لسوء الحظ سرعان ماصار قانون حقوق الأقليات القومية فى هنغاريا مجرد حبر على ورق بسبب نمو النزعة القومية الهنغارية والنزعة القومية عموما . فمثلا لم تنفذ البنود الهامة الخاصة بالمدارس الثانوية للأقليات ، وبدأ الهنغاريون سياسة من الاضطهاد والمضايقة نحو هذه الجنسيات بقصد تجريدها من جنسيتها . ولكن هذه السياسة لم تحظ بنجاح كبير ، الا أنها تركت أسوأ الآثار والضغينة .

وقد قسم الاتفاق النمساوى الهنغارى الامبراطورية الى نصفين مختلفين تماما : نصف هنغارى وآخر نمساوى . وكانت هنغاريا نظريا دولة قومية ، أى جنسية واحدة ، اذ سيطر المجريون أو الهنغاريون على الجنسيات الأخرى برغم أنهم لم يكونوا أغلبية السكان تماما . وقد أثار انتصار المجريين تطلعات الشعوب الأخرى فى الامبراطورية الى حد كبير للحصول على مركز مماثل . ومن ناحية أخرى استخدم المجريون نفوذهم للحيلولة دون تحقيق هذه التطلعات حيث ان ذلك كان يقلل من سلطتهم بطبيعة الحال . وكثيرا ما تعرض الامبراطور فرانسيس جوزيف للوم لأنه منح للمجريين مثل هذا المركز . ولكن ينبغى أن نتذكر أنهم حصلوا على هذا النصر بعد قرون من التمرد والمعارضة الشديدة والتعاون مع الأعداء الأجانب ، وأنهم ما كانوا ليقنعوا قط بأقل من ذلك . وقد بذل الامبراطور فى نهاية حكمه جهودا للحد من سلطة القوميين المجريين وطالب بتطبيق حق الانتخاب العام . وكان ذلك سيؤدى الى تحسين مركز الجنسيات الأخرى الى حد كبير ، ولكن نشوب الحرب فى سنة ١٩١٤ جعل من المستحيل الاستمرار فى هذه السياسة .

أما النصف الآخر من الامبراطورية ، الذى يسمى عادة النمسا ، فلم يكن دولة قومية . ولم تكن السيطرة لأية جنسية واحدة ولكنها ضمنت حقوقا متساوية لشعوبها العشرة كلها ، وان كانت هناك طبعا بحكم الواقع تفاوتات كبيرة فى الثراء والتربية والقوة السياسية . بيد أن هذه التفاوتات ضاقت بالتدريج بنمو الشعوب التى هى أكثر تخلفا . وكانت النمسا مجموعة مؤلفة من سبعة عشر بلدا مستقلا استقلالا ذاتيا لكل منه برلمانه المحلى المنفصل وادارته المنفصلة . وبالاضافة الى ذلك كان هناك البرلمان المركزى والادارة المركزية فى فينا . ولم يكن لهذه

الدولة حتى الاسم . فلم تكن رسميا تسمى النمسا ، بل « الممالك والبلاد الممثلة في البرلمان الامبراطوري » . وفي كل من مجالس الدايت الاقليمية كانت الأغلبية في يد الجنسية التي تتألف منها الأغلبية في البلد ، وكان كل دايت اقليمي ينتخب رئيس الجهاز الاداري . وكان هناك أيضا حاكم امبراطوري يدير الشئون المشتركة بين جميع البلاد . ومن الامور ذات المغزى أن مجالس الدايت الاقليمية هذه أخمدت بعد تفكك النمسا وتكوين الدول القومية .

وبعد التسوية التي حدثت مع هنغاريا وكرواتيا منح البولنديون في غاليسيا استقلالا ذاتيا واسعا جدا ، ومنذ ذلك الوقت ظل البولنديون على ولائهم باستمرار لعلاقتهم بالنمسا . وكان ولاؤهم واضحا الى حد أنهم كثيرا ما سموا « بالوطنيين النمساويين » الوحيدين . بيد أن كثيرا من البولنديين كان يراودهم الأمل في أن تستطيع النمسا يوما ما أن تحرر البولنديين في روسيا ، حيث كانوا يتعرضون لاضطهاد شديد ، وتوحيدهم مع الباقين . وكان لمركز البولنديين القوي في غاليسيا نتيجة مؤسفة اذ أنهم اضطهدوا الروثينيين أو الأوكرانيين في هذا القطر من عدة أوجه . ومع ذلك فان الروثينيين تقدموا تقدما اقتصاديا وثقافيا كبيرا وكانت أغلبيتهم الساحقة على ولاء للنمسا ، التي تمتعوا فيها بحرية قومية أكثر بما لا يقاس من بني جلدتهم في روسيا . وبعد حل النمسا سلموا الى بولندا وساء مركزهم كجنسية متميزة كثيرا .

وتشير أمثلة الهنغاريين والبولنديين الى أن زيادة الحرية لجنسية من الجنسيات تنطوي دائما على الحد عمليا من حرية جنسية أخرى تؤلف أقلية في بلد ما . فالمشكلة الحرجة في المشاكل القومية في النمسا والمجر كما في بلاد العالم الأخرى ، هي أن الأقاليم التي تسكنها جنسيات مختلطة لم تكن الجنسية القوية فيها على استعداد قط للاكتفاء بمركز المساواة الحقيقية مع الأقلية . فكل جنسية بلغت مستوى معينا من المدنية والنمو السياسي ادعت الحق في مركز الحاكم في اقليمها القومي والسيطرة على الأقليات . وفي النمسا ، بالاضافة الى ذلك ، كان مما شجع الاتجاهات العدوانية والاضطهادية لدى دعاة القوميات اتساع نطاق الاستقلال الذاتي الاقليمي أو المحلي ، الأمر الذي جعل في وسع الجنسية التي تسيطر على مجلس الدايت أو مجلس المدينة أن تسيء استخدام قوتها في تمييز نفسها عن الآخرين . وكثيرا ما اعترض التاج ، وكثيرا ما ألغت المحكمة

الادارية العليا والحكومات المركزية قرارات اتخذتها هيئات محلية فيها عدوان على جنسية أخرى ٠

وقد أثارت سياسة حماية الأقليات هذه الغضب طبعا لدى القوميين من جميع الأمم ، وكانت الحكومة النمساوية موضع هجوم من السلافيين بقدر ما كانت موضع هجوم الألمان ٠

وبعد ارضاء المجريين والبولنديين حاول الامبراطور أن يكسب التشيكيين أيضا بأن عرض عليهم استقلالا ذاتيا واسعا فى سنة ١٨٧١ ٠

وقبل الزعماء التشيكيون هذا العرض ورحبوا به باعتباره محققا لتطلعاتهم القومية ٠ ولكنه أثار معارضة شديدة من جانب الألمان الذين خشوا أن يستعمل التشيكيون سلطتهم فى الاضرار بهم ، وأيد المجريون الألمان ٠ ولما كانت هاتان الجنسيتان معا أكثر من ثلاثة أمثال عدد التشيكيين اضطر الامبراطور الى سحب عرضه ، ولكنه سرعان ما رجع الى سياسته فى صورة أخرى ٠ ففى سنة ١٨٧٩ عين الكونت تافيه رئيسا للوزراء وألف حكومة احتل فيها البولنديون والتشيكيون بعض المناصب المهمة جدا وأيدها جميع السلافيين وحزب المحافظين الألمان الصغير ٠ ووقفت الأغلبية الكبرى من الألمان موقف المعارضة ٠ واستمرت هذه الحكومة أربع عشرة سنة ٠ وقد جلبت الى السلافيين ميزات قومية كبيرة وزادت فى قوتهم السياسية والاقتصادية وساعدت كثيرا على تقدمهم نحو المساواة ٠

وقد أثار طول مدة هذه الحكومة التى يؤيدها السلافيون ، وكانت تعمل على توسيع حقوقهم باستمرار ، تذمرا مريرا بين الألمان ٠ ونمت حركة وحدة ألمانية اتهمت الحكومة بشدة بأنها تسعى الى جعل النمسا دولة سلافية وقامت بدعاية لضم النمسا الى ألمانيا ٠ ولما اتسع حق الانتخابات فشمل الطبقة الوسطى الدنيا أدى ذلك الى التعجيل بنمو النزعة القومية الديماجوجية بين جميع الأمم ٠ وفى سنة ١٨٩٣ حاول الكونت تافيه رئيس الوزراء ايقاف نمو هذه النزعة القومية الراديكالية غير المسئولية بقانون يمنح حق الانتخاب لجميع الرجال فى البرلمان المركزى٠ وكان يأمل أن فتح البرلمان لممثلى الجماهير العريضة سيحول السياسة من النزاع القومى غير المجدى الى اصلاحات اجتماعية مثمرة ٠ وكان وزير المالية ستاينباخ ، وهو رجل دولة كبير من أصل يهودى ، هو الذى أقنع الامبراطور بالالتجاء الى الجماهير العريضة ضد النزعة القومية

العميلاء لدى الأحزاب الحاكمة • بيد أن سياسة تافيه فشلت لأن الأغلبية الكبرى انقلبت ضده وأرغمته على الاستقالة •

وكانت السنوات العشرون التالية مملوءة بالصراعات العنيفة بين الجنسيات المتنازعة • وقد تفوق أنصار الوحدة الألمانية على الجميع فى العدوان وخلقوا الأيديولوجية التى حددت عقلية هتلر • وقامت الحكومة بعدة محاولات لتحقيق تسوية معقولة للصراعات القومية المختلفة ، وحققت بعض النجاح فى ذلك ، وان لم يمكن حمل الجوانب المختلفة على قبول تفاهم أوسع • وبالاضافة الى ذلك نجح بارون بيك رئيس الوزراء فى سنة ١٩٠٦ فى تحقيق اصلاح انتخابى كبير كان من نتيجته منح حق الانتخاب للرجال جميعا• ويرجع الفضل الى حد كبير فى هذا الاصلاح الجذرى للامبراطور فرانسيس جوزيف الذى استخدم كل نفوذه فى تحطيم مقاومة الأحزاب المحافظة ومجلس الأعيان للديموقراطية النمساوية • وبدا أن الآمال التى عقدت على هذا الاجراء تحققت • فقد أسفرت الانتخابات عن هبوط كبير فى أصوات القوميين وزيادة فى أصوات الاشتراكيين والاجتماعيين المسيحيين والأحزاب الزراعية • فقد سئم قسم كبير من الشعوب الشعارات القومية وأراد التقدم الاجتماعى •

ويبدو أن الرأى السائد الآن هو أن النمسا كانت دولة محتضرة ولا بد أن تتمزق شذرا عند موت الامبراطور • بيد أن وجهة النظر هذه موضع جدل كبير • فواحد من أكبر ثقات مؤرخى وسط أوربا كان لويس آيزنمان ، الأستاذ بجامعة باريس • ويحتوى « تاريخ كمبردج الحديث » المجلد السابع (الذى نشر لأول مرة ١٩١٠ ثم أعيد طبعه ١٩٢٠) على فصل كتبه عن التاريخ النمساوى قبل الحرب الكبرى ، وهو يلخص عرضه بأن الخوف على مستقبل النمسا والمجر قل كثيرا فى السنوات العشر الأخيرة •

«ولم يبدد الأزمة الحادة سوى القوى الداخلية للملكية . فالأخطار الخارجية ، أى الوحدة الألمانية والوحدة السلافية ، تبدو اليوم أفل مما بدا فى ذلك الوقت • فالوحدة الألمانية اكتسحها منح حق الانتخاب العام وأخذت مشاعر الوحدة السلافية تضعف ، ولا يزال هناك صراع عنيف بين الجنسيات ، ولكن الحل الحتمى صار قريبا • ويبدو ان جميع المشاكل النمساوية والهنغارية والمشاكل النمساوية الهنغارية يمكن أن تسوى داخليا » •

•• وهو يعزو نصيبا كبيرا فى هذا الانجاز الى الامبراطور ، ولكنه

يؤكد أيضا أن الشعوب أدركت المصـــلحة المشـــتركة التى توحدها فى الامبراطورية .. « ان الملكية لم تعد معتمدة على رابطة الأسرة المالكة وحدها ، بل كذلك على الرغبة الواعية فى الاتحاد . هذه هى النتيجة العظيمة الضخمة لحكم فرانسيس جوزيف » .

وقد كتب خبير كبير آخر ، هو الاستاذ ستون واطسـون ، فى مؤلفه « مستقبل النمسا المجر » (١٩٠٧) : ان الرأى القائل بأن الملكيه سرعان ما ستنهار رأى سطحى بحت، وأنه من جانبه لا يعتقد احتمال تفكك النمسا والمجر ، بل لا يعتقد أن ذلك ممكن ثم قال انه ينبغى ، أيا كان الأمر ، على فرنسا وانجلترا أن تبذلا كل جهد فى المحافظه على الملكية الثنائية كوحدة سياسية واقتصادية . ويصف ستون واطسون ، فى كتابه عن المشكلة السلافية الجنوبية (١٩١١ ط ٢ فى ١٩١٣) ، الرأى القائل بأن النمسا والمجر دولة آفلة أينعت للتقسيم بأنه أسطورة لا معنى لها . وفى نفس الكتاب يصف موقف الأستاذ مازاريك فى هذه الكلمات: « انه أكثر تحررية من أن يصير من دعاة الوحدة السلافية بالمعنى الروسى، فهو يؤمن برسالة النمسا وبمستقبل عظيم للسلافيين تحت حكم آل هابسبورج » (١) .

وقال كاتب آخر درس هذه المشاكل بعناية ، وهو مستر ويكهام ستيد الذى كان مراسلا لجريدة التايمز فى فينا ، فى كتـابه « ملكية آل هابسبورج » ١٩١٣ :

« لم أستطع أن أجد خلال عشر سنوات من الملاحظة والتجربة المستمرين — سنوات زاخرة بالصراع والأزمات — أى سبب كاف لأن يحول دون احتفاظ ملكية هابسبورج بمركزها الشرعى فى المجتمع الأوربى بشىء من بعد النظر المعتدل من جانب الأسرة المالكة . ان أزماتها الداخلية فى كثير من الأحيان أزمات نمو لا أزمات انهيار » .

وقد يكون من المفيد هنا أن نضيف رأى أبرز الزعماء التشيكيين فى فترة ما قبل الحرب ، د . كاريل كرامر ، الذى كان شديد العداء للألمان ويعطف صراحة على الوحدة السلافية . فقد كتب فى سنة ١٩٠٦:

« ليس هنـاك من ينكر الحقيقة الواضحة الجلية وهى أن شعبنا يتمتع بأحسن الظروف الممكنة نسبيا لنموه الثقافى والسياسى والاقتصادى

(١) ر.و. ستون واطسون « المشكلة السلافية الجنوبية وملكية هابسبورج» سنة ١٩١١ ص ٢٥٢ .

فى النمسا . وليست هناك طريقة اخرى : اذ أن مركز شعبنا فى قلب أوربا والظروف السائدة فى السياسة الدولية ترغمنا أكثر من أى وقت مضى على رؤية أن أفضل ضمانات لمستقبل شعبنا هى قوة النمسا وسلامتها داخليا » .

وقد نشر للدكتور ادوارد بينز ، الذى اشترك فيما بعد فى تأسيس تشيكوسلوفاكيا وصار رئيسا لها ، كتاب فى سنة ١٩٠٨ اقترح فيه تحويل النمسا الى فدرال (١) . ولم تكن مقترحاته ثورية بأى حال وكان من الممكن تحقيقها داخل اطار الامبراطورية القديمة . وقد انتهى د . بينز الى أن :

« الناس كثيرا ما يتحدثون عن تقسيم النمسا . أما أنا فلا أومن بذلك مطلقا . فالروابط التاريخية والاقتصادية بين الأمم النمساوية أقوى من أن تجعل هذا التقسيم ممكنا . وتطبيق حق الانتخاب العام ونشر الديمقراطية فى النمسا ، وبخاصة فى بوهيميا ، يمهدان السبيل للتهدئة القومية » .

وينتهى الكتاب بالقول بأن المشكلة النمساوية فى طريقها الى الحل.

وقد تصور لنا بعض الاحصائيات مركز التشيكيين من النمسا القديمة فى السنوات الأخيرة . فقد كانت نسبتهم فى السكان ٢٣ فى المائة ، وكانت نسبتهم فى عضوية البرلمان ٢١ فى المائة وفى مجلس الوزراء (١٩٠٠ — ١٩١٤) ١٩ فى المائة وفى الموظفين ٢٤ر٩ فى المائة وفى المدرسين ٢٤ر٩ فى المائة ، وبين المدارس الابتدائية كان ٢٤ر٥ فى المائة مدارس تشيكية، وبين المدارس الثانوية ٢٣ر٣٪ ، وبين طلبة الجامعات والكليات الفنية ١٩ فى المائة . وكانت نسبة الأميين بين التشكيين أقل نسبة بين جميع الجنسيات فى النمسا ، وهى ٢ر٤ فى المائة ، وبعدهم الألمان بنسبة ٣ر١ فى المائة . وكان التشيكيون يملكون أيضا زراعة وصناعة متقدمتين بالاضافة الى نصيب كبير فى المصارف التى ليس لها طابع قومى، عدا مصارفهم القومية التى تبلغ أصولها أكثر من ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى ، وتدل هذه الأرقام الى أى مدى كان السياسى البريطانى الشهير ، الذى قال فى خطاب له بعد الحرب الكبرى ان التشيكيين كانوا مضطهدين فى النمسا بحيث لم يكن أمامهم الا ان يصيروا عمالا فى مناجم الفحم ، مخطئا فيما لديه من بيانات .

---

(١) ادوار بينز « Le problème Autrichien et la question Tchèque » ١٩٠٨ ص ٣٠٧

بيد أن السلام ، الداخلي والخارجي ، تعرض للخطر بنمو حركات انفصالية بين اجزاء من السلافيين الجنوبيين والرومانيين والايطاليين. فلم تكن الأغلبية الساحقة للشعوب التي تعيش في البلاد النمساوية بالتأكيد تريد الانفصال عن الامبراطورية . ولكن كانت الانفصالية في البلاد التي تحت التاج الهنغاري والتي اعتدت الحكومة الهنغارية ، تدفعها نزعة قومية قصيرة النظر ، على حقوق الأقليات وأهملت مصالحها الثقافية وحاربت تطلعاتها القومية بصورة تحكمية . بيد أنه بصرف النظر عن مثل هذه الأسباب كانت جذور حركة السلافيين الجنوبيين قوية والرغبة في التوحيد القومي شديدة . ولم يكن السلافيون الجنوبيون في الامبراطورية وحدة قومية ، بل كانوا منقسمين الى ثلاث جنسيات : الكروات والصرب والسلوفينيين . وكانت بينهم اختلافات كبيرة في التقاليد والدين واللغة، بالاضافة الى انهم لم يكونوا تحت حكومة واحدة بل تحت عدة أجهزة ادارية مركزية واقليمية . ولا شك أن هذه الأوضاع كانت غير مرضية وكان من العسير ايجاد حل عملي . وقد نوقشت على نطاق واسع فكرة توحيد جميع السلافيين الجنوبيين الذين يوجدون في المملكة في دولة واحدة مستقلة ولكنها تحت نفس التاج مع البلاد الهنغارية والنمساوية وقد عزيت الى الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي العهد خطط من هذا القبيل .

ولا يمكن الحكم بنجاح مثل هذه الخطة أو لا ولسنا في حاجة هنا الى مناقشة هذا الموضوع . بيد أنه يجب القول بأن الصعوبات لم تكن ناجمة عن مقاومة المجريين والألمان والسلاف النمساويين فحسب ، بل كذلك كان من الصعوبة بمكان تهدئة العداوات القديمة بين سلافيي الجنوب أنفسهم . وقد خفف من حدتها مؤقتا المعارضة المشتركة للسيطرة المجرية والتذمر من التاج الذي ترك للمجريين حرية التصرف أمدا طويلا . ولكن عندما تم توحيد جميع سلافيي الجنوب بعد الحرب الكبرى في يوجوسلافيا نشب على الفور صراع مرير بين الكرواتيين والصربيين هدد بهدم الدولة من أساسها .

وقد انتشر قبل الحرب بين مثقفي السلافيين الجنوبيين ، وبخاصة بين الشباب ، ان الصرب ستحرر جميع سلافيي الجنوب وتوحدهم بمساعدة روسيا . وتألفت منظمات ثورية وارهابية ثورية أشترك فيها بعض كبار الضباط في هيئة اركان الحرب الصربية . وكانت هذه الحركة فرصة استغلتها مجموعة من كبار الضباط في هيئة أركان الحرب العامة للنمسا المجر يرأسها الجنرال كونراد فون هويتزندورف

رئيس هذه الهيئة . فقد ظل يدعو سنوات للقيام بحرب وقائية ضد الأعداء الأجانب للامبراطورية ، اما ضد ايطاليا أو ضد الصرب وروسيا • والواقع أن النزاع الذى لا ينتهى بين الجنسيات شجع جميع اعداء النمسا والمجر الخارجيين والداخليين وجعلهم يتصورون أن تحطيم الامبراطورية من السهولة بمكان . وكانت الرغبة فى مواجهة هذا التصور واستعادة هيبة الامبراطورية مصدر الوحى لسياسة خارجية مملوءة بالمخاطر مع البوسنة • ولما سويت الأزمة معها بطريقة سلمية استمر كونراد فى دعايته من أجل الحرب .. وكان الامبراطور معارضا فى الحرب وطرده شر طردة • ولكن لسوء الحظ سرعان ما أعيد الى منصبه السابق وهيأ له اغتيال الارشيدوق فرانز فرديناند بواسطة بعض المتعصبين الصربيين فرصة لتحقيق غرضه ، يؤيده فى ذلك بقوة حزب الحرب فى ألمانيا .

وقد حطم نشوب الحرب بطبيعة الحال كل أمل فى التهدئة القومية فى النمسا والمجر • وما كان من الممكن أن تؤدى الحرب التى خطط لها حزب الحرب فى النمسا والمجر لتقوية الامبراطورية الا الى تدمير أسسها المعنوية حتى ولو لم تنته بالهزيمة والانهيار • فمن المستحيل انكار أنه كان من حق الجنسيات المختلفة تماما ، بعد تجربة الحرب المريرة ، ان تحل الامبراطورية وتؤسس دولها القومية المستقلة • بيد ان الأمر مختلف تماما فيما يتصل بالحكم على ما اذا كان تقطيع أوصال الامبراطورية وبخاصة بالطريقة التى تم بها ذلك ، لمصلحة الامم التى يتعلق بها الأمر حقيقة أو لا ، وما اذا كان من الأفضل المحافظة على الوحدة بين بعض الأمم فى صورة فدرال ديموقراطى أو لا . وهناك رأى منتشر على نطاق واسع جدا فى الوقت الحاضر هو أن حل النمسا المجر كان كارثة كبرى بالنسبة لجميع جنسياتها ولأوربا والعالم .

الفصل السادس

الدولة القومية والإرادة والطابع القوميان

١ ـ الفيودالية والجنسية

ان الدولة القومية الحديثة نشأت الى حد كبير فى معارضة افكار الحكم الفيودالية والتيوتونية ، وان كانت بعض انظمتها وتقاليدها نمت من بذور فيودالية • وقد كانت القبيلة بالنسبة للتيوتونيين القدماء هى الأمة ، فلم تكن لديهم فكرة عن وحدة أوسع من ذلك ، ولم يكن لديهم الا اقل قدر من الحكومة . بل لقد ثار جدل حول امكان اعتبار مجتمعاتهم دولا أو لا (١) . فالهجرات الكبرى والاتصال بالرومان والسيطرة الألمانية على أرض الامبراطورية صحبها نمو السلطة الملكية وتكوين شعوب كبرى باندماج القبائل المختلفة . وبدأ الملوك عندئذ بناء دول بمعونة موظفين من الرومان والكنيسة ، ولكن سرعان ما سادت الفيودالية وأدت ، فى الأماكن التى لم تستطع ملكية قوية ايقافها ، الى انقسام الدولة والمجتمع الى شذرات لا عدد لها • وجنحت المقاطعات الفيودالية الى اتخاذ طابع الأقطار الوراثية او الضياع الخاصة التى اختلطت فيها حقوق الحكومة وحقوق الامتلاك بصورة معقدة جدا •

وكان من أثر نمو السلطة الفيودالية بلا كابح انه لم يكن هناك اقليم قومى ولا مواطنة قومية ، ولا تضامن قومى يذكر . ففى القرية قد ينتمى بعض الاشخاص ، أو بعض الرسوم أو بعض حقوق الحكم ،

(١) فيما يتصل بهذا الجدل أنظر ج • فون بيلو «der deutsche Staat des Mittelalters» ١٩١٤ المجلد الاول وكذلك ف • كويتجن «der deutsche Staat des Mittelalters» ١٩١٨ •



لأحد اللوردات والبعض الآخر للورد ثان . وقد يتبع النبيل الذى يحكم عدة مقاطعات لأكثر من ملك ويدين لهم بالولاء ، الأمر الذى أدى الى صدام فى الولاء حين يقع صدام بين الملوك . وكانت العلاقات الفيودالية معقدة فى كثير من الأحيان الى حد صار من المستحيل معه ان يحدد المرء حدود دولة ما . بالاضافة الى أن وحدة المرتبة الاجتماعية فى المجتمع الفيودالى كانت تنطوى عادة على ولاء متبادل أقوى من الجنسية المشتركة وكثيرا ما كان التضامن بين النبلاء ، أو بين المدن ، من البلاد المختلفة أقوى منه بين نبلاء ومدن البلد الواحد . ففى ساحة القتال مثلا كان الفرسان من البلاد المختلفة يوفر الواحد منهم حياة الآخر ويحاولون أخذ الأسرى فحسب ، وكان هؤلاء الأسرى يعاملون معاملة طيبة كقاعدة عامة ويطلق سراحهم مقابل فدية . أما فى المعارك بين المحاربين الذين من مراتب اجتماعية مختلفة ، حتى اذا كانوا من بلد واحد ، فلم تكن هناك مثل هذه المعاملة الطيبة . وصحيح أن الفرسان كانوا يظهرون أيضا اعتزازا بالكرامة القومية أو ازدراء لقومية أخرى ، ولكن الجانب الايجابى للجنسية وهو الشعور بالالتزام نحو الأشخاص الآخرين من نفس البلد أو نفس اللغة ، كان ضعيفا جدا . ومع ذلك فان الفيودالية أسهمت بنصيب كبير فى نمو الأمم الحديثة : فالبرلمان نما من أنظمة المجتمع الفيودالى . فضلا عن أن الفيودالية شجعت أفكار الحرية والشرف العسكرى التى صارت جزءا مندمجا من تقاليد الأمم الحديثة . ومما يثير الانتباه أن البلاد التى لم تظهر فيها طبقة نبلاء

فيوداليين من النوع الذى كان عندنا ، مثل الهند والصين وتركيا ، لم تظهر فيها برلمانات ولا وعى قومى حديث . ومن ناحية أخرى كانت اليابان ، التى ظهرت فيها طبقة نبلاء بينها وبين الأوضاع الغربية أوجه شبه كثيرة ، سباقة الى اتخاذ الأنظمة السياسية الغربية والمدنية والنزعة القومية الغربيتين .

٢ ـ بناء الدول القومية

ان الدول القومية بنيت الى حد كبير جدا بواسطة الملوك ومؤيديهم الذين لم تكن لديهم فكرة عن نتائج سياستهم . فقد كان هدف الملوك أساسا هو تقوية سلطاتهم للقيام بواجباتهم الملكية بصورة أفضل من ناحية ولتوسيع ممتلكاتهم من ناحية أخرى . ومن الأمور ذات المغزى أن أولئك الملوك الذين اتخذوا الخطوات الحاسمة نحو الوحدة كانوا حكاما يحدوهم طموح لتكوين امبراطوريات كبرى مثل هنرى الثانى فى انجلترا وفيليب الثانى فى فرنسا ، وكان كلاهما يحلم بالسيطرة على العالم . بيد أن الملوك فى انجلترا وفرنسا لم يبدءوا سياسة التوسع على نطاق كبير الا بعد أن دعموا سلطتهم فى الداخل ، فى حين أن الأباطرة فى ألمانيا أهملوا ذلك أو فشلوا فيه قبل أن يسعوا الى زيادة ممتلكاتهم فى الخارج . وقد أدت هذه السياسة الى كارثة واخفاق الوحدة القومية قرونا طويلة . ويرجع الاختلاف الكبير بين التقاليد والتطلعات السياسية لدى الألمان عنها لدى الأمم الغربية الى هذا الاختلاف فى تطورهم الى حد كبير .

وقد تعارضت جهود الملوك بالضرورة مع المصالح الفيودالية . ومن ثم كان من الأهمية بمكان كبير أن الكنيسة وقفت الى جانب الملكية ودعمت نمو الوحدة ، برغم انها كانت أكبر مالك فيودالى للأرض . وقد بذل النبلاء فى كثير من الأحيان أقصى جهودهم لمقاومة كل زيادة فى سلطة الملك ، وكانوا أحيانا سببا فى اخفاق التهدئة الداخلية . بيد أن النبلاء فى انجلترا سرعان ما فضلوا العمل الجماعى فى البرلمان على التمردات المنعزلة والعنف الفردى ، وهذا اتجاه يرجع الى حد كبير الى الاحساس بالوحدة بينهم الذى نجم عن سياسة الملوك .

وكانت الاداة الرئيسية التى استخدمها الحكام فى بناء اطار الدولة القومية ، والقوة الدافعة الحقيقية وراءهم فى كثير من الأحيان ، هى طبقة جديدة من الموظفين المدربين قانونيا الذين يعدون النواة الأولى

للبيروقراطية الحديثة . وكان هؤلاء الموظفون فى مبدا الأمر من رجال الكنيسة فى الغالب ، ولكن حل محلهم فيما بعد علمانيون الى حد كبير. وقد جاءت هذه الطبقة أساسا من الطبقات الوسطى وصفار النبلاء ، وفى بلاد كثيرة جذبت الخدمة الملكية رجالا طموحين من بلاد أخرى . وكان الملوك فى كل مكان يحبون استخدام الأجانب وأشخاص من الفئات الدنيا ممن لم يكونوا مقيدين بالتقاليد الفيودالية والمحلية وكانوا معتمدين كلية على رضا هؤلاء الملوك (١) . وكان من العمد التى قامت عليها سلطة الملوك أيضا الجنود المرتزقة ، الذين كانت أغلبيتهم الساحقة من الأجانب أيضا . وقد اتاح امتلاك الجيوش للملوك فرصة اكتساب قسم من النبلاء باستخدامهم ضباطا فيها . ومن الأشياء المهمة بالاضافة الى ذلك اسهام الطبقة الوسطى فى المدن فى التوحيد القومى . فقد وجد الملوك فى هذه الطبقة مستشارين ومساعدين قادرين ، كما زودتهم ، وان كان بشىء من النفور ، بالمال . بيد أنه من المبالغة أن نعزو الى الطبقة الوسطى الفضل فى بداية القومية والشعور القومى بالجنسية أو تصور الامكانيات الاقتصادية فى الوحدة القومية (٢) . فقد خدم التجار أغراض الملوك ، وأغدق الملوك عليهم الحظوة فى حدود ما اتحدت مصلحتهم ضد النبلاء أو رجال الكنيسة . ولم يكن التجار أنفسهم متحررين من الروح الفيودالية والعصبية المحلية . فالمدينة كانت وطنهم ، وكثيرا ما كانوا

---

(١) والصراع الكبير بين البارونات والأجانب الذين اصطفاهم هنرى الثالث معروف تماما ، ويذكر جوانفيل ان الملك لويس التاسع اتخذ قائدا للجيش غير فرنسى ونصح ابنه بأن يكسب حب الشعب ، والا فانه من الافضل أن يحكم البلاد حاكم أجنبى عادل . وكان مشرعو فيليب الرابع المشهورون ، مثل فيليب فلوت وجيوم دى نوجاريه وبيير دوبوا ، من جنوب فرنسا ومن نورمانديا ويعتبرون أجانبا . وكان فيليب دى كومين ، مستشار لويس الحادى عشر من الفلاندر . وفيما بعد كان الايطالى مازارين من بناة الدولة القومية الفرنسية . وقد استعان ملوك ستيورات ووليم الثالث وآل هابسبورج وهو هنزللون ورومانوف أيضا بخدمة عدد كبير من الاجانب . والمدن الايطالية كثيرا ما عهدت الى موظفين أجانب بالمناصب الادارية لتجنب الصراع العنيف بين الاحزاب والطبقات ولتحقيق حكم غير متحيز .

(٢) في فرنسا مثلا أقيمت عدة حواجز جمركية بين المقاطعات في نهاية القرن الرابع عشر في الوقت الذى نمت فيه قوة البورجوازية في « مجالس الطبقات ». وكانت الاسباب مالية . بيد أن مجالس الطبقات سرعان ما دعت الى سياسة حرية التجارة الداخلية ، ولكن الحواجز لم تزل الا في النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وقد بذل الملك عدة محاولات لتوحيد الموازين والمقاييس والعملة ، ولكن مندوبى المدن رفضوا هذه المقترحات باعتبارها ضد مصلحة الناس العاديين . والسبب فى ذلك أن النبلاء كان لابد أن يحصلوا على تعويضات . ولم تتم وحدة الموازين والمقاييس قبل الثورة .

عازفين عن التنازل عن امتيازاتها من أجل مصالح الوحدة القومية مثل النبلاء . فضلا على انهم صاروا فى البلاد التى لا تسيطر عليها ملكية قوية مصدر صراع اجتماعى وسياسى مرير عرض الوحدة القومية للخطر .

وقد تم بناء الدولة القومية فى عدة خطوات صغيرة لا حصر لها ، ويجب ان يترك الوصف التفصيلى لهذه العملية للتاريخ الاجتماعى والادارى والدستورى ، ولا نستطيع هنا الا الاشارة الى بعض الخطوط الرئيسية فيما يتعلق بتكون الدولة القومية . فقد كان نمو أية دولة قوية موحدة يعتمد على تسوية حقوق الوراثة فى العرش بحيث يتجنب الصراع من أجل السلطة عند موت الملك ، وكان مما يدعم ذلك أن تطول مدة حكم الأسرة المالكة حيث ان ذلك ينطوى على تراكم السلطة والتجربة فى يد الملكية . وفى العصور الوسطى تمتعت فرنسا بفترات استمرار كبير فى الاسرات الحاكمة ، فى حين أن الأمراء الذين كانوا ينتخبون الامبراطور فى ألمانيا كثيرا ما حاولوا تغيير الأسرة الحاكمة ليحولوا دون زيادة قوتها . ومن الامور التى تدعو الى التأمل ان فرنسا لم يعزل فيها ملك قبل ثورة سنة ١٧٨٩ ، فى حين أن خمسة ملوك عزلوا أو قتلوا فى انجلترا فى العصور الوسطى ، واثنين آخرين بعد ذلك ، كما تعرض غيرهم لخطر مصير مماثل . ولعل هذا هو السبب فى أن الانجليز عرفوا فى العصور الوسطى بأنهم « متقلبون » . والواقع أن هذا العزل كان علامة على قوة النبلاء . وقد تحققت الوحدة الاقليمية بمجرد أن سادت فكرة أن « المملكة » غير قابلة للتقسيم أو التصرف فيها . وتمت خطوات أخرى نحو توحيد الأمم بتقدم العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونمو القانون العام والادارة العامة واللغة المشتركة والغاء الرق ونظام الأقنان والامتيازات الطبقية المبالغ فيها وتوحيد الموازين والمقاييس والعملة والتعريفات وتحقيق حرية التجارة فى الداخل . ولم تستطع العصور الوسطى ان تحقق سوى جزء من هذه المهام . وقد مرت فكرة الدولة ايضا بتغيير كبير . فقد حلت محل الولاء الفيودالى لشخص الملك فكرة التاج اللاشخصى الباقى ، فكرة « روح الاندماج » التى يتضمنها القانون الانجليزى . كما أن الفكرة الجرمانية والفيودالية فى اختصاص الدولة هى أنه مجرد الدفاع عن الحقوق القائمة ، ومن ثم فان هدفها الرئيسى هو اقامة العدل وتوفير الدفاع . وقد اعتبر من مسئوليات الدولة العناية أيضا برفاهة الشعب فى الجمهوريات المدن فى العصور الوسطى لأول مرة ، واسهم ذلك فى نمو فكرة التضامن الوثيق بين المواطنين ، وهى الفكرة التى تنطوى عليها فكرتنا عن الأمة .

وفى حين كانت هذه التطورات تعمل أساسا على نمو الوحدة القومية ، كانت هناك اتجاهات أخرى تؤدى الى تغييرات كبرى فى فكرة الحرية القومية . ومن الأمور ذات الأهمية الحاسمة فى تكوين الأمم والطابع القومى خلق أجهزة تكوين الارادة القومية .

٣ ـ تأثير البرلمان على الوحدة القومية فى انجلترا وفرنسا والمانيا

نما البرلمان فى العصور الوسطى فى بلاد كثيرة من جذرين : الأول هو البلاط الفيودالى للملك أو الأمير الذى كان يضم كبار تابعيه وبعض السكرتاريين الذين كانوا يقدمون له المشورة ويساعدونه فى شئونه القضائية والادارية والسياسية . والثانى هو الجمعية غير العادية التى تتألف من عدد كبير من الأشخاص ذوى النفوذ أو الأثرياء الذين كان الملك يدعوهم فى أوقات المحنة ، وبخاصة عند خطر الحرب ، بغرض الحصول على تأييد المملكة كلها . وكثيرا ماسمى هذا المجلس « مجمع المملكة » وعندما صارت مثل هذه الجمعيات هيئات نظامية ومثلت قطاعا كبيرا من الأمم الوليدة اقتربت من طابع البرلمان بالمعنى الذى نعرفه . بيد أن هذه المجالس النظامية ظلت زمنا طويلا محكمة للنظر فى القضايا أكثر منها جميعة تتعلق مهمتها بالتشريع (١) .

وفى المرحلة الأولى من النمو البرلمانى كانت المبادأة دائما من جانب الملكية . فقد كون الملوك برلمانات على أساس أوسع لأغراض الحكم . وكان الفضل فى المبدأين الأساسيين للديموقراطية والجنسية ، وهما التمثيل النيابى والأغلبية ، يرجع عادة الى اصرار الملوك الى حد كبير . فالطبقة الوسطى فى المدن فى جميع البلاد لم ترحب بأن يطلب اليها ارسال مندوبين الى جمعية لفرض الضرائب من أجل الملك ، مع ما يترتب على ذلك من نفقات فى السفر والاقامة . ومن ثم فان كثيرا من المدن رفعت عرائض تطلب فيها اعفاءها من عبء ارسال مندوب .

(١) كان هذا هو الوضع بصفة خاصة في انجلترا . انظر شارلز هـ . ماك الوين « المحكمة العليا للبرلمان وسيادتها » ١٩١٠ ، أ.ف بوللار « تطور البرلمان » الطبعة الثانية ١٩٣٤ . بيد أن الرأى القائل بأن البرلمان الانجليزى في العهود الاولى كانت وظيفته مناقشة جميع المسائل التى تتصل بالامة كلها عاد الى الحياة فترة أخرى مؤخرا . انظر ب . ويلكنسون « دراسات فى التاريخ الدستورى للقرنين الثالث عشر والرابع عشر » ١٩٣٧ ص ٢٣٦ .

فضلا عن أن التعصب المحلى فى المدن والمبدأ التيوتونى والفيودالى الخاص بالاجماع كانا يتعارضان مع فكرة أن يكون للمندوب سلطة يقيد بها ناخبيه وفكرة أن يكون رأى الأغلبية ملزما للأقلية (١) ·

وكان النبلاء ، من بين جميع الطبقات ، هم الذين اظهروا ، البارونات أولا ثم الفرسان فيما بعد ، ميلا أكثر من أية طبقة أخرى الى تحويل البرلمان من أداة للملك الى اداة لحريتهم ، وان كانت فى كثير من الاحيان حرية فيودالية . بيد أنه حتى النبلاء لم يصروا فى مبدأ الأمر على ان يكون لهم نصيب نظامى فى حكم المملكة . فلم يطالب النبلاء بهذا الحق الا فى ظروف استثنائية عندما يثور بينهم وبين الملك نزاع . وقد مر وقت طويل قبل ان تأتى المرحلة التى طالب فيها ممثلو الأمة فى البرلمان بسلطة واسعة ودائمة للسيطرة على مصيرها .

وقد وجدت أنظمة مماثلة فى معظم البلاد وكثيرا ما قامت بدور كبير . ومع ذلك فان البرلمان لم يكن له نصيب فى تكوين الوحدة القومية والوعى القومى فى أى مكان آخر مثل انجلترا . ويقول الأستاذ أ . ف . بولارد :

« الواقع أن البرلمان كان الأداة التى صنعت الأمة الانجليزية والدولة الانجليزية . وهو فى الحقيقة معاصر لهما منذ البداية . وصحيح ان انجلترا كانت موجودة قبل أن يوجد البرلمان بعدة قرون ، ولكنها لم تكن أكثر من مجرد تعبير جغرافى . فلم تكن أمة بعد ، ولا دولة ، وكان ادوارد الأول هو أول ملك لشعب انجليزى يمكن أن يوصف بأنه متحد وواع بوحدته حتى جزئيا » ·

وكانت القيمة الرئيسية للبرلمان فى العصور الوسطى أنه كان معبرا فوق الحواجز الاجتماعية والمحلية والاقليمية ، وانه انتج رأيا عاما وشعورا مشتركا . « وبذلك كان البرلمان الوسيلة الخاصة التى حقق الشعب الانجليزى عن طريقها وحدته وجنسيته » .

فالأمم فى القارة (أوربا) تلقت وحدتها وتقاليدها القومية ووعيها القومى عن طريق الحكم الملكى المطلق والانتصارات العسكرية والدين والمدنية أكثر مما تلقتها عن طريق أنظمتها البرلمانية . ويرجع السبب

---

(١) وفيما يتصل بتطور مبدأ الاغلبية أنظر بولك وميتلاند « تاريخ القانون الانجليزى » المجلد الثانى ص ٦٢١ ، وجوزيف ردلنج «Recht und Technik des englischen Parlamentarismus» ١٩٠٥ ص ٥٣٦ .

فى أن البرلمان حقق نجاحا فى انجلترا أكبر بكثير من القارة الى أن الملوك فى انجلترا كانوا فى اللحظات الحرجة من القوة بحيث استطاعوا المحافظة على السلام الداخلى مع قدر من الوحدة القومية، فى حين كان النبلاء تؤيدهم الطبقات الوسطى من القوة بحيث يمنعون الملوك من أن يصيروا أقوى مما ينبغى • أما فى القارة فان هذا النمو عوقته الحروب الداخلية والخارجية الكثيرة ، التى أتاحت للحكام جيوشا قوية ، والتعصب المحلى والجنوح الى الانعزالية فى الاقاليم والمدن ، والعداء الحاد بين الطبقات • وقد أتاح هـذا العداء للملوك فرصة الاستعانة بطبقة ضد أخرى وحمل قطاعات كبيرة من الشعوب على الترحيب بالحكم الملكى المطلق لاعادة السلام الداخلى والنظام •

وكان المغزى القومى للبرلمان الانجليزى فى العصور الوسطى يقوم على فكرة التمثيل القومى كنظام قائم ، مع عدم وجود انقسامات حادة بين الطبقات وعلى شبكة واسعة من الحكم الذاتى المحلى (١) • ومن السمات الغريبة فيه أن تمثيل المدن كان يفوق تمثيل الريف بشكل غير عادى • ولكن روح الطبقة الوسطى فى المدنية لم تكن هى المسيطرة على البرلمان أو التى نمته • فالمدن عادة كانت تنتخب فرسانا ، وظلت أعداد كبيرة من مقاعد المدن فى البرلمان تحت التصرف المطلق أما للملك أو للأسر الارستقراطية أمدا طويلا • وكان حق الانتخاب فى دوائر الريف وفى بعض المدن على الاقل واسع النطاق الى حد ما ، ولكن بعد نهاية العصور الوسطى زادت قوة الملكية والاتجاه نحو حكم القلة • ومع ذلك فان البرلمان الانجليزى القديم كان ينظر اليه دائما باعتباره لسان حال الأمة ، ويرجع الفضل الأول فى هذا الى دور النبلاء الاقل شأنا وأعيان الريف الذين كانوا يؤلفون طبقة ذات حيوية سياسية ودراية وكفاءة عظيمة • ولم تكن هذه الطبقة طائفة يغلب فيها المحاربون الذين يتمتعون بامتيازات واسعة مثل الفرسان فى القارة • بل كانت أقرب الى الشعب وألفت حلقة بين جميع الطبقات وهيأت للأمة قيادة مجربة وتقدمية نسبيا •

وقد حاول الملوك فى انجلترا كما فى غيرها أن يتحالفوا مع الطبقات الدنيا ضد الطبقات العليا ، ولكن النقطة البارزة فى تطور السمات المميزة الانجليزية هى أن الطبقات العليا تغلبت فى النهاية على الملكية عن طريق تأييد قطاعات كبيرة من الطبقات الاخرى • وبعد ثورة القرن

---

(١) أنظر • و • ميتلاند « التاريخ الدستورى لانجلترا » ١٩١١ ، وجوليوس هاتشيك «Englische Verfassungsgeschichte» ١٩١٣ •

السابع عشر صارت انجلترا أكثر ارستقراطية من أى وقت مضى . فقد صارت فى الواقع جمهورية تحكمها قلة من الاثرياء فى صـــورة ملكية ويسيطر عليها عدد ضئيل من الأسر الارستقراطية . وهذا النظام ، برغم كل نقائصه ، هو النظام الوحيد الذى استطاع تنمية نظام مجلس الوزراء الذى يتألف منه عصـــب الديموقراطية البرلمانيـــة فى الوقت الحاضر • وفى هذا الوقت أيضـــا بدأت الثورة الصناعية ومهدت السبيل لتطور الديموقراطية • ومن المشكوك فيه أن انجلترا كان يمكن أن تصير دولة صناعية كبرى تحت الحكم المطلق أو الديموقراطية .

وفى فرنسا كان « مجلس الطبقات » يشبه البرلمان الانجليزى من عدة نواح (١) . وفى عدة برلمانات ، وبخاصة فى ١٣٥٧ و ١٤١٣ ، وضعت مبادىء لو انها طبقت لتحولت فرنسا الى دولة قومية برلمانية . بيد أن روح الحرية البرلمانية لم تتغلب على موجة الحكم المطلق الصاعدة . وكانت هناك أسباب كثيرة لاختلاف نمو انجلترا عن فرنسا . ففى حين كان فى انجلترا برلمان واحد فحسب ، نجد فى فرنسا عـــددا كبيرا من المجالس الاقليمية والمحلية ، وعندما كان الملك يفشل فى الحصول على ما يريد من « مجلس الطبقات » كان يطلبه من مجالس المقاطعات والمدن كل منها على حدة ، أو من جمعيات من الأعيان المختارين ، وكان ينجح عادة فى الحصول على ما يريد . وقد عاون على نجاح هذا الاسلوب التعصب المحلى وعدم استعداد المدن لمنح مندوبيها سلطات لتمثيلها . وصار حق الانتخاب فى فرنســـا أكثر ديموقراطية منه فى انجلترا • بيد أن الامارات الفيودالية الكبرى كان يمثلها أمراؤها فحسب • وقد خضعوا للتاج مع الوقت واصـــبحت البـــلاد كلها لأول مرة ممثلة بمنـــدوبين منتخبين فى سنة ١٥٦٠ . اما فى انجلترا فان البلاد كلها كانت منـــذ البداية ترسل ممثليها الى البرلمان . فضلا على أن الأمة ظهرت فى البرلمان متحدة فى انجلترا أكثر منها فى فرنســـا (٢) . ففى فرنســـا كانت الطبقات الثلاث : رجال الدين والنبلاء والطبقة الوسطى ، تؤلف كل منها هيئة منفصلة ولم يكن هناك قرار نافذ الا اذا وافقت عليه الهيئات الثلاث • وناحية الضعف الرئيسى فى « مجلس الطبقات » الفرنسى أنه

(١) بول فيوليه «Histoire des institutions politiques et administratives de la France» (١٩٠٣) و جورج بيكو «Histoire des Etats Généraux de 1355 à 1614» ١٨٧٢ :

(٢) ان وضع النبلاء والاستخدام العرضى لتعبير « الطبقات الثلاث » فيما يتصل بالبرلمان لا يتعارضان مع هذه الحقيقة ، كما يثبت بوللار (ص ٦١ و ٨١) • وقد كان لرجال الكنيســة مجاليسهم الخاصة ، ولكهم لم يحدثوا انشقاقا فى وحدة الامة .

لم يصر قط نظاما دائما ، بل كان يدعى بواسطة الملك فحسب من وقت لآخر .

وكانت تنافس « مجلس الطبقات » المحاكم العليا فى باريس وبعض المدن الأخرى وكان يطلق عليها برلمانات . وكان برلمان باريس يصبو لمركز مجلس الشيوخ الأعلى ، واعتبر نفسه حارس القانون غير المكتوب للمملكة حتى ضد الملك . وقد تألفت من أعضائه مجموعة من المحامين الارستقراطيين يتوارثون المنصب ، أصلهم فى الغالب من البورجوازيين ولكنهم حصلوا على ألقاب نبلاء . وكان نفوذ البرلمانات وهيبتها كبيرين، وكان المقعد فى برلمان باريس مطمحا يصبو اليه الناس أكثر بكثير من مقعد قصير العمر في مجلس الطبقات . فضلا عن أن مجلس الطبقات كان ينقصه الأساس العريض ومدرسة التدريب السياسى اللذين اتيحا للبرلمان الانجليزى فى الحكم الذاتى المحلى . وفى فرنسا فى العصور الوسطى كان هناك عدد من المدن تتمتع باستقلال ذاتى جعلها جمهوريات مستقلة تقريبا . وكثيرا ماعزفت عن اخضاع مصالحها لمصالح الأمة كلها . ولكنها لم تستطع المحافظة على هذا المركز ، وصارت ادارة البلاد كلها أكثر خضوعا لسيطرة الموظفين الملكيين .

وأخيرا من الأسباب الرئيسية فى أن الحركة البرلمانية الفرنسية لم تؤد الى نفس النتائج كما فى انجلترا أن كان هناك عدم ثقة وغيرة بين الطبقات المختلفة . فتحلل المجتمع عن طريق الفيودالية قطع شوطا أطول فى فرنسا بكثير منه فى انجلترا فى أى وقت من الأوقات ، واحتفظ النبلاء الى حد أكبر بكثير بطابعهم كطبقة محاربة متميز . وكان كثيرون منهم يحتقرون الطبقات الوسطى والدنيا . وكانت هاتان الطبقتان تكرهانهم لعجرفتهم وقسوتهم . وفى حين اشترت المدن فى انجلترا وثائق بحقوقها من التاج حصلت المدن فى ألمانيا وفرنسا على حريتها بالقتال ضد النبلاء الى حد كبير ، واحتفظ أبناء المدن بكراهيتهم لأعدائهم السابقين. بالاضافة الى أن النبلاء كانوا شديدى التذمر من الملوك وكثيرا ما استخدموا أشخاصا من أصل أدنى فى الوظائف العليا ومنحوهم ألقاب النبالة (١) . وكانت ريبة «الطبقة الثالثة» شديدة الى حد أنها

---

(١) ان ماثيوباريس في « تاريخ انجلترا » (تعريب جيلز ١٨٥٣ ص ٢٠٢) أورد وثيقة تعبر عن عقلية النبلاء الفرنسيين المتميزة . فالنبلاء يدعون أنهم « الرجال الاول فى المملكة لان المملكة لم تقم بواسطة قانون مكتوب ولا بعجرفة الكتبة بل بمشاق الحرب » ويتهمون الكتبة (الموظفين) بأنهم « اعتدوا على الاختصاص القانونى للامراء=

كثيرا ما رفضت حتى تعيين مندوبين للتفاوض مع الطبقتين المتميزتين (١). وكان أبناء هاتين الطبقتين بصفة عامة أكثر قدرة على الفهم السياسى وادراك المصلحةمن البورجوازيين ، ولكنهم كانوا هم أيضا يقدمون مصلحتهم الطبقية. ومن ثم لم يكن من العسير على الملوك أن يضربوا الطبقات بعضها ببعض. وفى حرب «المائةسنة» فقد النبلاء هيبتهم بسبب الهزائم العسكرية الكبرى والنزاع الأهلى، وكسبت الطبقة الوسطى فى باريس قوة حاسمة فى مجلس الطبقات (١٣٥٧و١٤١٣) . وأدى هذا التطور الى حركات ثورية من جانب الجماهير والى الدكتاتورية والارهاب والى خطر اشتعال المجتمع عموما . وكانت النتيجة أن دوائر كبيرة كانت أصلا تعطف على الديموقراطية انتابها الذعر ووضعت ثقتها فى الملكية (٢) . فضلا على أن الملك كان هو وحده الذى يستطيع تخليص البلاد من الغزاة الانجليز ومن اعتداءات الجنود المأجورين الذين يحاربون مع الفرنسيين ، وكان هؤلاء أفظع من الغزاة . ان حرب «المائة عام» دعمت قوة الملكية الى حد كبير جدا . ففى سنة ١٤٣٩ وضع الملك أسس جيش قائم وحصل من مجلس الطبقات على منحة لهذا الفرض وفسرها على أنها ضريبة دائمة . وكانت النتيجة أن الملك ظل فترة طويلة بعد ذلك فى غير حاجة الى دعوة مجلس الطبقات للانعقاد .

وبعد انتهاء الحرب بالانتصار حدث تقارب بين الطبقات المختلفة. ففى « مجلس طبقات » تورفى سنة ١٤٨٤ لم يعد النواب يجلسون منفصلين تبعا لمرتبة كل فئة ، وان كانوا قد انقسموا الى ستة قطاعات سميت « أمما » . وحتى الفلاحون كانوا ممثلين . وأعلن فيليب بوت ، سيد لاروش وأحد نواب نبلاء بورجندى ، أن صاحب السيادة هو الشعب ، الذى يضم جميع سكان المملكة ، وأن الملكية وظيفة وتعتمد على الشعب . بيد أن وحدة الطبقات كانت قصيرة العمر جدا ، فقد بدأت مع غزو فرنسا لايطاليا فى سنة ١٩١٤ فترة من الحرب دعمت الى حد كبير جدا الروح الحربية وروح السيطرة لدى النبلاء وازدراءهم للطبقة الوسطى . وجاءت حركة الاصلاح الدينى فأتاحت لهم لواء جديدا يحاربون فى ظله ضد الملكية لمصلحتهم الخاصة ، فى حين كانت الجماهير

= الى حد أن أبناء العبيد يحاكمون الاحرار طبقا لقوانينهم الخاصة برغم أنه كان من الاولى أن نحاكمهم نحن طبقا لقوانين غزاتهم السابقين » .

(١) ج . بيكو «Histoire des Etats généraux» المجلد الرابع ص ٢٠٩ و٢٩٠ .

(٢) ف . بيرنز «La Démocratie en France au Moyen Age» مجلدان ١٨٧٥ .

العريضة متحمسة للقضية الكاثوليكية . وأدى تعصب الحروب الدينية فى النهاية الى حمل جميع المعتدلين على الرغبة فى إقامة ملكية قوية تنقذ فرنسا من الفوضى .

وفى اجتماع مجلس الطبقات سنة ١٦١٤ – آخر اجتماع قبل الثورة الكبرى – عبرت الروح المتغيرة لدى النبلاء عن نفسها بلا مواربة . اذ حدثت مشادات حادة قام بعدها المتحدث باسم الطبقة الثالثة ، رئيس مجلس ميزم ، وقال ان الطبقات مثل ثلاثة أشقاء أبناء أم واحدة هى فرنسا واقر أن النبلاء يتمتعون بمرتبة أسمى ولكنه ناشدهم الا يحتقروا الطبقة الثالثة التى تضم عددا كبيرا من القضاة والموظفين المبرزين الجديرين بأن تعتبروهم اخوة . وأثار هذا الرجاء ثائرة النبلاء بشدة . وأعرب بعضهم عن أنه لا يمكن أن يكون هناك أى اخاء بينهم وبين الطبقة الثالثة حيث انهم من دم مختلف ومرتبة مختلفة وأنهم لا يقبلون أن يعتبرهم أبناء الاسكافيين أو صانعى الصابون اخوة ، وأن الاختلاف بين الطبقتين هو اختلاف بين السادة والخدم . وذهب وفد من النبلاء الى الملك وقال رئيسه ، بارون دى سينسى ، انه يشعر بالخجل اذ يبلغ الملك أن الطبقة الثالثة جرؤت على تمثيل الدولة بالعائلة المؤلفة من ثلاثة أشقاء . وأن ذلك يعتبر اهانة للنبلاء (١) .

وعندما قامت الثورة الكبرى بذلت محاولة لاعادة مجلس الطبقات للحياة ولكن هذه المحاولات كان لا بد أن تخفق . فلم تكن الطبقات قد التقت منذ ١٧٥ سنة ، ولم يترك هذا المجلس وراءه تقاليد ومشاعر يمكن أن تستجيب لحاجات الوقت . ان الملكية دعمت الاعتزاز القومى بالوحدة وبقوة فرنسا ومجدها . ولكن ذلك لم يكن بديلا للتدريب البرلمانى ، وبصفة خاصة ، لتربية المواطنين على التضامن عن طريق البرلمان . فلم يكن أمام الساعين لخلق نوع جديد سام من الوطنية القومية سوى أن يبدءوا من مبادىء عامة ووجهة نظر مثالية فى الطبيعة البشرية والمجتمع . ولم يؤد هذا المدخل الى خلق أمة متحدة . فسرعان ما تحولت الثورة الى صراع وحشى بين الطبقات والأحزاب وانتهت بالفوضى وقيام الاستبداد العسكرى الذى أعقبته سلسلة من الانتصارات والهزائم والثورات المضادة . وترجع أسباب هذا التطور الى جذور فى الماضى البعيد .

ولم تكن الامبراطورية الألمانية تملك برلمانا مركزيا ، اذ أن المجلس

---

(١) أ . ثيبودو «Histoire des Etats généraux» ١٨٤٤ المجلد الثالث ص ١٢١ .

الامبراطورى « الدايت » لا يستحق هذا الاسم • فقد كان أساسا جمعية من الأمراء وكانت السلطة كلها تقريبا في يد بعض حكام قليلين • ولم يعد « فرسان الامبراطورية » يشتركون في الاجتماعات بعد سقوط أسرة ستاوفر • ومن الناحية الأخرى بدأ عدد من المدن يشترك فيه في القرن الثالث عشر ، ولكن هذه المـــدن ظلت أمدا طويلا محـرومة من حق التصويت ولم يكن لهـا وزن كبير في أى وقت من الأوقات فضـلا عن أن التعصب الفيودالى كان متأصلا في المدن نفسها بحيث أنهـا كانت عازفة تماما عن التقـــدم بأية تضحية من أجل المصالح القومية • ولكن مجالس (دايت) نمت في الأقطار المختلفة التى كانت ألمانيا تتألف منها ، وكثيرا ما اتخذت هــذه المجالس طابع البرلمانات • وقد أسـهمت في نمـو الولاء الاقليمى الذى كان عقبة الى حد كبير في سبيل ظهور فكرة الجنسية الألمانية الموحدة • وفي حالات كثيرة كانت هــذه المجالس تخدم أساسا المصـالح الأنانية للطبقات المتميزة ثم أخمدت في نهاية الأمر أو أسكتت عندما حصل الحكام على السلطة المطلقة (١) •

٤ ـ أثر الحرب في تكوين الأمة والتقاليد القومية الأساسية :

لقد تكونت الأمم الـكبيرة الحديثة الى حد كبير بواسـطة الحروب ، بعضها عن طريق الغزو وبعضها عن طريق الاندماج تحت التهديد بالغزو• بالاضـافة الى أن كل أمة كونت شـخصيتها في حروب كبرى ، وتأثرت الأيديولوجية القومية والطابع القومى في كل مكان بهـذه الحروب تأثرا عميقا • فقد كان الاقليم واللغة والدين والمدنية وأفكار الشرف والمصلحة القومية وتنظيم الدولة وبناء المجتمع الى حد كبير نتاج حروب دائما (٢)•

وكانت الحرب ضد الأعداء الخارجين في جميع العصور تعتبر من جانب الطبقات القوية أفضل علاج ضـــد النزاع الداخلى • والواقع أن

---

(١) ف • هارتونج «Deutsche Ver fassungsgeschichte» ١٩٢٢ ص ٤٣ و ٥٤ • و ج • فون بيلو «Territorium und Staat» ١٩٠٠ ، و م • سبانجبرج «Vom Lehestaat Zum Standestaat» ١٩١٢ ، و ف • أونجر «Geschichte der deutschen Landstande» ١٨٤٤ •

(٢) وقد أكد أرسطو فعلا العلاقات بين التنظيم العسكرى والاجتماعى والسياسى، أنظر « السياسة » المجلد ٣ ، ١٠ والمجلد ٤ الخ • وقد أكد هانزدلبروك تأثير الحرب على البناء السياسى في مؤلفه العظيم «Geschichte der Krigskunst im Rahmen der Polit. Geschichte» ستة مجلدات ، وكذلك فعل تلميذه اميل دانيلز في مؤلفه «Geschichte des Kriegswessen»

حروبا لا حصر لها أشعلت لاخماد التفكك الداخلي أو تجنب خطره ، أو لدمج عناصر مختلفة في وحدات قومية أكبر عن طريق اثارة الكراهية المشتركة والاعتزاز المشترك • ومن ثم يمكن القول بأن الحرب أكبر أداة للتوحيد القومي لولا أنها تدعم أيضا نمو قوى كثيرا ما تنطوى على تهديد جديد للوحدة القومية • والمثل النموذجي لذلك هو حرب «المائة عام» بين انجلترا وفرنسا • فهي بلا شك دعمت الوحدة القومية لدى الجانبين ، كما أدت أيضا الى نمو تقاليد قومية أساسية • ولكن فيما بعد كان للفرسان والجنود الانجليز الذين عادوا من الحرب نصيب كبير في «تمردات» الفلاحين وحروب « الوردتين » الداخلية • وفي كلا البلدين تطلب الأمر يد الملكية القوية لاعادة الوحدة والسلام •

والحروب الكبرى التي تمس المصالح الحيوية للبلاد تؤدى عادة الى تركيز السلطة في أيدى الحكام والى سيطرة العنصر العسكرى على المدنى فيها • والنتيجة تقييد للحرية ، وبخاصة حرية القول ، والمطالبة بالطاعة العمياء وظهور الحكم الدكتاتورى• ومن الناحيةالأخرى ترغم الحروب الكبرى أيضا الحكومات على طلب مساعدة دوائر أوسع ، بل والى الالتجاء الى الشعب ككل ، ويعمل ذلك على زيادة في الحقوق الشعبية والمساواة الاجتماعية • ومن ثم فان الحروب تنطوي على اتجاه ديموقراطي واتجاه مضاد للديموقراطية •

وفي بلاد كثيرة أثرت الحروب الى حد كبير في عقليات الطبقات الحاكمة والنشيطة سياسيا والتي تمثل الأمة وتحدد مصيرها • وقد كان أهم فرق بين الظروف في انجلترا والظروف في القارة هو أن النبلاء الانجليز لم يعودوا فئة حربية متميزة منذ وقت مبكر جدا • فقد أظهرت الفيودالية بين الانجلو ساكسون منذ مبدأ الأمر أنها ذات طابع أقل عسكرية من طابع الفيودالية في امبراطورية الفرانك (١) • وقد غزا النورمانديون انجلترا بسبب تفوقهم في النظام العسكرى الى حد كبير ،

---

(١) كان الفرسان من الفرانك جنود امحترفين مدربين خصيصا على الحملات فى البلاد البعيدة . وقد كانت هناك اختلافات كثيرة بين فيودالية الفرانك وفيودالية الساكسون . انظر و.ستبز « التاريخ الدستورى » المجلد الاول الفصل السادس ص ٦٥ والفصل التاسع ص ٩٣ . وكذلك بول فينوجرادوف « المجتمع الانجليزى فى القرن الحادى عشر » • وفي عدة أماكن من كتاب س • م • سنتون « القرن الاول من الفيودالية الانجليزية » ١٩٣٢ • و ف • ليبرمان «Gesetze der Angelsachen» ١٩٠٣ المجلد الثانى • وكذلك هـ • دلبروك «Geschichte der Kriegskunst» ١٩٠٧ المجلد الثالث .

واحتفظ كثير منهم بروحهم الحربية قرونا طويلة . ومن الناحية الأخرى يبدو أنهم جلبوا معهم تقاليدا جعلتهم يساعدون الملوك فى وضع أسس الدولة الحديثة . فقد أحيا الملوك الميلشيا الوطنية القديمة وشجعوا على تجريد النبلاء من طابعهم الحربى بتحريم النظام الفيودالى والقلاع المحصنة وبتحويل الخدمات الفيودالية الى مبالغ من المال استخدموها فى تأجير الجنود المرتزقة . بيد أن النبلاء كانوا دائما يخشون ما ينطوى عليه وجود جيش ملكى قوى من خطر على سلطتهم ولهذا حاولوا أن يمنعوا نموه ، وعارضوا بصفة خاصة استخدام المرتزقة الأجانب . ويبدو أن كثيرين من النبلاء الانجليز سرعان ما صاروا أكثر اهتماما بادارة ضياعهم وبالسياسة منهم بالحروب (١) . وقد دفع الملك ادوارد الأول ظهور المشاعر القومية دفعة كبرى بتنظيمه للبرلمان النيابى وبحروبه الكبيرة التى استعملت فيها أساليب عسكرية جديدة . وسار ادوار الثالث على نفس السياسة بشقيها بنجاح مدهش . وقد كتب بتراركا فى خطاباته : «عندما كنت صغيرا كان الانجليز يعتبرون أكثر البرابرة تهيبا ، ولكنهم الآن قد هزموا الفرنسيين المعروفين بميلهم الى القتال » (٢) . وتدل هذه الملاحظة على أن الانجليز قبل الحرب الفرنسية كانوا يعتبرون شعبا غير عسكرى نسبيا . وقد شنوا الحروب الفرنسية بجنود جمعوا من جميع المراتب لا بجيوش فيودالية كما فعل الفرنسيون . وفى التاريخ الانجليزى اللاحق كانت هنا عوامل تزداد قوة جنحت فى المدى الطويل الى تثبيط النزعة الحربية ، وهى : البرلمان والمصالح التجارية والروح المسيحية

---

(١) وقد سبقت انجلترا جميع البلاد « باستثناء أسبانيا العربية » فى التقدم الزراعى كما يظهر من البحوث فى الفلاحة التى كتبها فيلتا ووالتردى هينلى وجروسنسته وفيتز هربرت . ويدل كتاب والتردى هينلى « الفلاحة » على انه كان هناك فى بداية القرن الثالث عشر لوردات مهتمون بالاساليب الجيدة فى الانتاج ومسك الدفاتر ولا يتركون ادارة ضياعهم كلها لأعوانهم . وقد بدأت الامم فى القارة بعد ذلك بوقت طويل فى انتاج كتب مماثلة ، وحتى عندئذ كانوا يستعملون فى مبدأ الامر أساليب الاغريق والرومان القدماء كما جمعها الرهبان أو حفظها كتاب بيزنطة . وبدأت البحوث الالمانية والفرنسية المهمة فى القرن السادس عشر ولكنها كانت تنصب أساسا على تربيةالحيوانات وعلاج جروح الخيل . أنظر ك . فراس «Geschichte der Landbau — und Eorsturssenschaft. ١٨٦٥ ص ٣١ و ٤٢ و ٤٥ وبين الكتاب الفرنسيين كان كتاب أوليفييه دى سيريز «Théâtre d'Agriculture» يمثل تقدما ملحوظا (١٦٠٠) . أنظر أ . راميو «Histoire de la Civilisation Française» ١٩١١ المجلد الاول ص ٤٩٢ .

(٢) هـ . و . ك ديفز « انجلترا في عهد النورمانديين والانجفيين » ص ١٠٣ .

والتحررية • وكان البرلمان أحيانا ذا نزعة حربية أكثر حتى من الملك ، ولكنه كان بصفة عامة معارضا بشدة فى تكوين جيش كبير لأنه رأى فيه خطرا محتملا لسيطرته •

أما فى فرنسا وألمانيا فان النبلاء احتفظوا بطابعهم كفئة محاربة أكثر بكثير مما حدث في انجلترا • وفى كلا البلدين لم تكن الحروب الكبرى ضد الأعداء الخارجيين هى وحدها التى حافظت على الروح الحربية، بل كذلك الحروب والنزاعات الداخلية المستمرة • وقد بذلت الكنيسة والملوك محاولات كثيرة للحد من هذه المنازعات ولكنهما ظلا أمدا طويلا بلا نجاح يذكر • ففى ألمانيا أدى انهيار السلطة الامبراطورية فى ايطاليا الى حرمان الفرسان من الخدمة الامبراطورية ودفعهم ذلك الى أحضان الفقر مما حولهم الى قطاع طرق ، وظلوا قرونا طويلة يرتكبون أشد الفظائع ضد الشعب الألمانى • وكان من أثر ذلك أن الفرسان والطبقة الوسطى صارا عدوين لدودين بحيث انتشرت روح العنف بين جميع الطبقات ، وصار التوتر الاجتماعى بين الطبقات العليا والدنيا أكثر حدة من أى بلد آخر • ومن بين الأسباب الرئيسية التى حالت دون قيام برلمان مركزى فى المانيا أن الفرسان تحولوا الى طبقة من قطاع الطرق بحيث لم يعودوا صالحين لتولى القيادة السياسية • وكان الأساقفة الألمان فى الغالب من النبلاء وقد انتشرت بينهم هذه الروح الحربية والقسوة بشكل عميق ، وأدى عدم وجود سلطة مركزية قوية الى صراع طبقي وثورات مستمرة • وفى المدن قلب التجار ورجال المال حكم الأساقفة والنبلاء وبعد ذلك قلب الحرفيون حكم التجار ورجال المال • وكان الفلاحون كثيرا ما يقومون ضد سادتهم ويهزمون ويعاقبون بقسوة • وجاءت الكراهية بين البروتستانت والكاثوليك فزادت من حدة العداء العقلية ، وهى السبب الرئيسى فى أن المانيا تخلفت كثيرا عن الأمم الأخرى فى طريق الوحدة القومية والحرية• ففى فرنسا أعيدت الوحدة القومية واتسع نطاقها فى آخر الأمر بتقدم الحكم الملكى المطلق ، وان كان ذلك على حساب الحرية • أما فى المانيا فقد كانت السلطة المطلقة للأمراء الاقليميين هى التى نجحت بالتدريج فى القضاء على الفوضى واعادة حكم القانون ، وان كان ذلك على حساب الوحدة والحرية •

ولم تغب الفوارق القومية فى وضع الطبقات وعقلياتها وفى أثرها على الطابع القومى عن بال كتاب العصور الوسطى • فقد شكا جون أوف

سالسبورى (فى القرن الثانى عشر) من عدم كفـــاية القواد الحربيين الانجليز وتكاسلهم فى الصراع مع أهل ويلز « الهمج » الذين كانوا يعيثون فسادا فى الأقاليم الانجليزية ، وأشاد بالقدرة الحربية الســـابقة لدى الانجليز وقال انه يمـكن استعادتهـا بالتدريب والنظام العسكرى (١) . واستشـــهد برأى البابا يوجينيوس الثـــالث من أن الانجليز مؤهلون بالطبيعة أكثر من أى ناس آخرين للقيام بأى عمل يقبلون عليـــه لولا رعونتهم . والواقع أن الانجليز لم يكونوا فخورين بقوتهم العسكرية ، بل بحريتهـم وثرائهم ومرحهم . ان اشـادة هنرى هنتنجدون بانجلترا بوصفها بلدا حرا ومرحا وثريا وكريما ترددت أصداؤها فى كتابات عدد كبير من الكتاب الانجليز ، وقد قبل الأجانب أيضا وجهة النظر هذه (٢).

وكانت مصالح الطبقات الدنيا فى انجلترا تحظى بحماية من المحاكم الملكية فى انجلترا أكثر من البلاد التى كانت فيها السلطة المركزية ضعيفة. وكان ذلك ملاحظا بصفة خاصة فى ممتلكاتهم الفرنسية ويفسر شـــعبية الحكم الانجليزى فيها . وقد كتب كونت أومانياك غاضبا الى هنرى الثالث بأن التجار والأجلاف لا يسيطرون على النبلاء فى أى مكان فى الدنيـــا كما هو الحال فى الاقليم الخاضع للملك . ويقول فرواسار : ان النبلاء الانجليز كانوا على شهامة وولاء فى حين كان الحرفيون والناس العاديون

---

(١) الواقع انه فى الحروب الفرنسية كان الاهتمام شديدا بالتدريب العســكرى للشعب كله . ففى ســـنة ١٣٧٧ وسنة ١٤٧٧ حرمت جميع أنواع الرياضة باستثناء رياضة القوس والسهم التى جعلت تدريبا اجباريا . وقد استمر هنرى الثامن فى هذه السياسة . أنظر ج . كولتون « الحياة الاجتماعية فى بريطانيا من الغزو حتى الاصلاح الدينى » سنة ١٩١٩ ص ٣٩٧ .

(٢) جورج اسكولى « بريطانيا العظمى أمام الرأى العام الفرنسى منذ حرب المائة عام حتى نهاية القرن السادس عشر » ١٩٢٧ ص ٣١ . وقد جمع اسكولى أيضا كثيرا من الآراء الفرنسية الاخرى فى الانجليز فى الفترة الاخيرة من العصور الوسطى . ويتحدث فرواسار ، الذى يعرف انجلترا جيدا ، عن عادة الانجليز فى امتاع أنفسهم بطريقة مقبضة وهو يعزو ذلك الى مزاجهم الخيالى الحالم . ويفسر بيير دى سيل هذا بتأثير المياه المحيطة بهم . وقد وصف الانجليز أيضا بأنهم يشربون البيرة كثيرا وأنهم مغرمون باستعمال الالفاظ الشديدة وبأنهم سذج وحركتهم بطيئة وبدون رشاقة ، ولكنهم أيضا أغنياء وكرماء ويزدرون الامم الاخرى كلها . وبعد غزوهم فرنسا اعترف الفرنســـيون بشهامتهم . وان كانت مقرونة بالقسوة . وأيا كان الامر فانهم عاملوا أسراهم معاملة سليمة ولكنهم كانوا يهتمون بالاسلاب أكثر من اهتمامهم بأعمال الفروسية . وبعض هذه الصفات ذات مغزى فيما يتعلق بالنزعة القومية الشعبية لدى الجيش الانجليزى .

قساة وخطرين ومتعجرفين ولا يدينون بولاء ، وأن النبلاء كانوا يتلهفون على المحافظة على علاقات طيبة معهم • فكانوا لا يطلبون من الشعب سوى ما هو معقول ولا يجرؤون على أخذ بيضة أو فرخة دون أن يدفعوا ثمنها • وفي القرن الخامس عشر أبدى فيليب دى كومين ، مستشار الملك لويس الحادى عشر ، اعجابه بالبرلمان الانجليزى وأشار الى أنه لا يوجد بلد آخر تدار شئونه العامة بطريقة أفضل ويتعرض الشعب فيه لعنف أقل • ورسم سيرجون فورتسكيو بفخر صورة الملكية الدستورية في انجلترا وقارنها بالحكم الفرنسى المستبد • وفى حين كان الشعب فى فرنسا يتعرض لاضطهاد فظيع على يد الجنود وللتصرفات التعسفية من جانب الحكومة، كان الشعب الانجليزى يعيش فى أمن ويتمتع بغذاء وكساء أفضل من أى شعب آخر •

وكان الفرسان الألمان والفرنسيون يتنافسون بعضهم مع بعض ويتباهون بتفوقهم فى القتال • ومع ذلك فقد بدا الألمان للأمم الأخرى محاربين قساة بصفة خاصة • ويعلن جون أوف سالسبورى بمرارة عجرفة الألمان ويقول عن الامبراطور فردريك الأول : انه « طاغية تيوتونى » (١) • ويشير أيضا الى الملك لويس السابع فى فرنسا الذى كان موضع ازدراء الألمان المقيمين فى باريس لأنه كان يعيش مثل مواطن بين شعبه ولم يظهر فى الأماكن العامة بحراسة الجنود مثل الطاغية الذى يخشى على حياته ، ويقص والترماب قصة يصور فيها الملك الانجليزى متصفا بالثراء والامبراطور الألمانى بالقوة الحربية والفرنسيين بحب التمتع بالحياة • وهناك بحث يستحق الاهتمام كتبه ألمانى فى سنة ١٢٨٨، لعله اسكندر أوف روزس أو جوردانوس أوف أوسنابروك (٢) ، يناقش فيه الاختلاف فى الطابع القومى • ويقول المؤلف : ان الايطاليين تحكمهم غريزتهم الاقتصادية ، والألمان تحكمهم شهوتهم للسيطرة ، والفرنسيين يحكمهم شغفهم بالمعرفة • ويؤدى ذلك الى سيطرة الشعب فى ايطاليا والمحاربين فى ألمانيا ورجال الدين أو العلماء فى فرنسا • وكل أمة فيها سمات طيبة وأخرى سيئة تقابل الاتجاهات الأساسية لدى الطبقة الحاكمة، ومعاييرها • ويصف المؤلف هذه السمات بتفصيل كبير ، ولا تزال بعض ملاحظاته متفقة مع آراء يعتنقها الكثيرون اليوم •

---

(١) كليمنت ويب « جون اوف سالسبورى » ١٩٣٢ ص ١٢٧ •

(٢) ف • ويلهم «Mitteilungen des Instituts fur Osterreichische Geschichtsforschung» ١٨٩٨ •

وعند نهاية العصور الوسطى كان الفرسان الألمان ، طبقا لما يقوله فرواسار ، ذوى سمعة سيئة جدا بالقسوة على أعدائهم واهمال قواعد الفروسية • ويصف فيليب دى كومين العدد غير العادى من الفرسان قطاع الطرق فى ألمانيا وقسوتهم وعدم خوفهم من الأمراء ، حيث أن الأمراء كانوا فى حاجة لخدماتهم الحربية فى حروبهم • وفى سنة ١٥١٩ كتب ايرازموس الى صديق يقول : انه اكتشف وحوشا بين المسيحيين ما كان يعتقد أنهم يوجدون • ويرجع بعض الفوضى فى ألمانيا الى العنف الطبيعى فى الجنس ، وبعضه الى انقسامه الى عدد كبير من الأقطار المنفصلة ، وبعضه الى ميل الشعب الى العمل كجنود مرتزقة (١) • وقد استمر هذا الميل عدة قرون بعد ذلك •

وقد أدت الحروب الداخلية وعدم الأمن اللذان سادا فرنسا وألمانيا فى العصور الوسطى الى انشاء مناطق كثيرة محصنة يلجأ اليها الناس تحولت فيما بعد الى مدن ، وقد عملت عوامل أخرى أيضا على نمو المدن • فضلا عن أن التفكك الفيودالى للحكم المركزى أتاح لعدد كبير من المدن فرصة اكتساب استقلال يكاد يكون جمهوريا • وقد بلغت هذه الحركة أقصى مداها فى ألمانيا حيث كان حكم العنف وضعف الحكومة ملحوظين بصفة خاصة ، فى حين أن ظهور القوة الملكية فى فرنسا أعاد السلام بصورة متزايدة وحد من الاستقلال الذاتى للمدن • أما فى انجلترا ، حيث كانت الأحوال أكثر سلاما فقد تأخر نمو المدن عنه فى ألمانيا ، باستثناء لندن ، وكانت المدن الانجليزية باستمرار تحت السيطرة الحازمة للحكومة المركزية • وقد حققت بعض مدن الجمهوريات الألمانية درجة كبيرة من النمو فى الثراء والمدنية أثارت أكبر اعجاب لدى المراقبين الأجانب ، مثل آينياس سيلفيوس وميكافللى وبودان • وقد قام التجار الألمان لفترة ما بدور رئيسى فى التجارة والشئون المالية الانجليزية ، الى حد أن ادوارد الثالث ارتهن التاج الانجليزى لديهم مقابل قرض • بالاضافة الى أن كثيرا من المدن الألمانية صارت مقرا للصناعات وتفوق الألمان فى كثير من الحرف والمصنوعات • وقد عبرت الاختلافات الأساسية فى التكوين الاجتماعى لدى الأمم عن نفسها أيضا فى مجال التطور الصناعى • ففى ألمانيا أدى الطلب الكبير على الدروع والسيوف وأدوات

(١) ت • أ • فرود « حياة ايرازموس وكتاباته » ١٨٩٥ ص ٢٦٠ •

الحرب الأخرى ، مع وجود الظروف الطبيعية الملائمة (١) ، الى تشجيع ظهور صناعات الحديد والمعادن وكذلك التعدين والآلات لهذه المنتجات • وصارت مدنية نورمبرج الحرة أول مكان فى أوربا للمنتجات الميكانيكية • وفى انجلترا شجعت الظروف الطبيعية والاجتماعية على ظهور رعى الأغنام، وصناعة الملابس فيما بعد ـ وفى فرنسا كان صعود الملكية مرتبطا بنمو المدفعية لأجل الجيش الملكى ، وكذلك نمو الصناعات الكمالية للبلاط والارستقراطيين مثل الحرير والزجاج والخزف • وما زالت السمات القومية المميزة فى ميدان الصناعة التى نمت منذ قرون مضت تميز الى حد ما الحياة الاقتصادية للأمم حتى يومنا الحاضر •

٥ ـ نمو النزعة العسكرية الحديثة

ان النزعة العسكرية من أهم العوامل التى ساعدت على ظهور النزعة القومية الحديثة • ويستعمل مصطلح « النزعة العسكرية » عادة بطريقة مبهمة ومضللة مثل الطريقة التى يستعمل بها مصطلح « النزعة القومية » • ويكاد المفهومان يأخذان أحيانا معنى واحدا ، وأحيانا أخرى يفصلان تماما كما هو الحال مثلا عندما يطلق على غاندى أنه داعية قومى برغم أنه معارض تماما فى أى نوع من النزعة العسكرية • والنزعة العسكرية لا تعتبر من وجهة نظر علم الاجتماع مجرد نزعة قومية ، ولا مجرد الاحتفاظ بجيش قوى ، ولا حتى اتباع سياسة قد تؤدى الى الحرب • فالنزعة العسكرية فى اصطلاحنا يقصد بها مجموعة معينة من الأفكار والمشاعر المتصلة بالسياسة والحياة الاجتماعية (٢) • وأحد جذورها التاريخية هى الروح الحربية القديمة كما تمثلت فى تقاليد الطوائف الحربية المتميزة ومثلها العليا • وكانت هذه الروح تنطوى على مجموعة معينة من قواعد الشرف محورها هو هيبة المحارب ومذهب البطولة الحربية والدم النبيل ورموز معينة مثل العلم والسيف، ثم الزى العسكرى والمبارزة وما اليها وكذلك الاعتقاد فى ان الحرب مهنة جديرة بالرجل النبيل وازدراء العمل اليدوى والتجارة وادعاء

(١) فى العصور القديمة كانت أهم المواد لافران المعادن هى الفحم والخشب ، ولطرقها هى القوى المائية . وكانت المانيا أغنى من انجلترا كثيرا في الغابات وفي القوى المائية ، ويفسر ذلك أيضا نموها المبكر فى الصناعات الميكانيكية .

(٢) ان أشمل وأفيد كتاب في الموضوع هو كتاب الفرد فاجت « تاريخ النزعة العسكرية » ١٩٣٨ .

الحق فى مركز متميز ، ونبــذ « المعــايير البورجوازية » والاتجاهات الديموقراطية والمساواة . وقد تعدلت هـــذه الروح بنمو الأساليب الحربية والتنظيم السياسى . ففى حين كانت الطريقة القديمة هى القتال بين فرسان أفراد ، صارت الحرب الجديدة تقوم على القتال المنظم بين كتل من البشر . وحل الضابط محل الفارس المدرع . ولم تعد الشـــجاعة والقوة الشخصية هما العامل الحاسم ، بل التكتيك والاســـتراتيجية وأســـاليب القتال الفنيــة والتأثير فى الرأى العــام . فقد ظهرت عقليــة جديدة تقدر صفات وأساليب غريبة تماما على روح الفروسية ، مثـــل وحدة القيادة والخضوع التام والطاعة الميكانيكية والاستراتيجية الماكرة والدعاية السياسية ومبــادىء ضرورات الدولة والازدواج فى معــايير الفضيلة . وتتكون النزعة العســـكرية الحديثة من خليط من معــايير الفروسية والعقلية التكنولوجية الجديدة وتطبيقاتها السياسية . بالاضافة الى أن النزعة العسكرية تحالفت فى الأزمنة الحديثة مع النزعة القومية ، واكتسب كلاهما قوة هائلة عن طريق هذا التحالف .

وقد كانت النزعة الحربية فى العصور الماضية أساسا اتجاهـــا مهنيا محصورا فى الجنود المحترفين . فالفرسان الذين يعملون مقــابل أجر والضباط المغامرون والمرتزقة والمغامرون العســـكريون الآخرون لم يكن لديهم ولاء لبيت مالك أو لقومية معينة ، وان كانت لديهم عقليـــة خاصة ومجموعة من قواعد الشرف . وقد خلق الملوك فيما بعد نزعـــة عسكرية مرتبطة بالبيوت المالكة كثيرا ما انطوت أيضا على بعض السمات القومية ، فى حدود ما كان الملك والنبلاء يمثلون الأمة . بيد أنه مضى وقت طويل قبل أن تصير النزعة العسكرية ذات طابع قومى كامل لدى بعض الأمم . ففى حرب « المائة عام » أثبت الجيش القومى الانجليزى تفوقه على الجيش الفيودالى الفرنسى . وقد أبدى النبـــلاء الفرنسـيون ازدراء شديدا نحو معاونى الملك الذين من أصل غير نبيل وعارضوا دائمـــا تسليح الناس العاديين حيث كان ذلك يعتبر مصــــدر خطر على مركز النبلاء . وفى القرن الخامس عشر ابتكر السويسريون تكتيكات جـديدة للمشـــــاة تفوقت على تكتيكات كل الدول الاخرى . وظهـــرت نزعة عسكرية عدوانية سويسرية فترة ما ، وان كان السويسريون فى الغالب قاتلوا كجنود مأجورين لملوك أجانب . وفى القرن السادس عشر كان الاسبانيون متفوقين فى فنون الحرب وكذلك فى النزعة العسكرية ، وفيما بعد أسهم الهولنديون بنصيب كبير فى التكتيك الحـــربى . وفى القرن السابع عشر تفوق الفرنسيون فى كلا الميدانين . وقد مهد لويس العظيم

السبيل لفردريك الأكبر • وتفوقت انجلترا على كل منافسيها فى تنمية قوتها البحرية •

وكان الحدث الحاسم في تاريخ النزعة العسكرية ظهور براندبنرج ـ بروسيا في القرن السابع عشر والثامن عشر (١) • ففى العصور الوسطى أسس الفرسان التيوتونيون دولة في بروسيا ذات ادارة وجيش منظمين تنظيماعاليا، ومن المحتمل أن ذكراها أسهمت فى خلق الروح البروسية اللاحقة• وفى القرن السابع عشر بدأ « المختار الأكبر » فردريك وليام سياسة توسعية طموحة لا تحفل بالمبادىء فنظم قوة عسكرية لتحقيق أهدافه • ونجح هو وخلفاؤه ، وبخاصة الملك فردريك وليم الأول والملك فردريك الثانى ، فى بناء آلة حربية عالية التنظيم ونظام ادارى ومالى محوره زيادة القوة العسكرية • وأهم سمة فى هذا النظام هى مركز الملك بوصفه القائد العسكرى الأعلى والدكتاتور الذى لاحد لسلطته • وقبل فردريك الثانى كان أكبر نموذج للسعى الى المجد العسكرى والقوة الحربية هو لويس الرابع عشر ، ولكن الملك نفسه لم يقد جيوشه باستمرار ، وكانت سلطته كدكتاتور أقل بكثير من سلطة فردريك • ففى بروسيا كان الملك جنديا أولا ، وكان الجيش أساس الدولة ، وكان ضابط الجيش يعتبر أسمى بكثير من أى مدنى • وصار فردريك الثانى أكمل ممثل لسياسة مكيافللية بلا مبادىء مطلقا أساسها مقتضيات الدولة • وقد سرد مبادئه لخلفائه فى (وصيتيه) السياسيتين اللتين كتبهما فى سنة ١٧٥٢ وسنة ١٧٦٨ : « ان أفضل طريقة لاخفاء مطامع المرء السرية هى اعلان النيات السلمية حتى تحين اللحظة الملائمة لاظهار المقاصد الحقيقية» • وهناك حافزان يحكمان الناس: الخوف من العقاب والأمل فى المكافأة • والجندى العادى يجب أن يوجه أساسا بواسطة الخوف • فهو يجب أن يخاف من ضابطه أكثر مما يخاف من جميع مخاطر المعركة • بيد أن الضباط يجب أن يكونوا مدفوعين بالطموح • والنبلاء وحدهم هم الذين لديهم احساس بالشرف ، ومن ثم فيجب أن يكونوا الأساس الذى تقوم عليه الدولة • وكانت الجنسية شيئا غريبا تماما بالنسبة للملك • بل ان سياسته كانت مناهضة للقومية صراحة ، وكان يتصور ألمانيا فى صورة تستبعد بعض أجزائها • وكان لايكاد يعتبر الطبقة الوسطى جزءا من الأمة • وكانت الطبقة الوحيدة التى يثق فيها هى طبقة الضباط ، ولا يمكن أن يصير انسان ضابطا الا الذى من

(١) فيما يتصل بالتفاصيل والمراجع أنظر ف . هيرتز Nationalgeist und Politik ١٩٣٧ المجلد الاول ص ٦٤ •

اصل نبيل • وقد منحت هذه الطبقة امتيازات غير عادية فى حين عومل الجندى العادى بوحشية وازدراء •

وصار فى وسع الملك ، بتركيز كل القوة فى يديه ، أن يحقق أيضا اصلاحات مفيدة ، وان كان كثير من الانجازات التى يعزوها اليه المعجبون به أسطورية • فاعلان فردريك لآراء متنورة واتصاله بفولتير وبعض المفكرين الفرنسيين الآخرين أكسباه مديح عدد كبير من المثقفين ، وان كان كثيرون من كبار الكتاب الألمان فى ذلك الوقت ينظرون اليه بنفور أو بمشاعر مختلفة • وعندما توفى الملك دهش ميرابو لأن أحدا فى برلين لم يحزن عليه • فلم تسمع كلمة أسف أو اشادة ، فكل الناس كانوا قد سئموا الملك تماما ، وكانت المعتقدات الجمهورية قد انتشرت الى حد كبير بين الطبقات المتعلمة فى بروسيا فى سنواته الأخيرة • وبرغم أن فردريك لم يبد اهتماما قط بالجنسية الألمانية فانه صار فيما بعد معبود النزعة القومية الألمانية ولا ينطق باسمه أبدا فى ألمانيا الحديثة الا مقرونا بلفظ « الأكبر » •

ولم تكن النزعة العسكرية البروسية قد صارت بعد قومية عندما نشب الصراع بين بروسيا ونابليون ، وكان ذلك من الأسباب التى أدت الى كارثة فى هذا الصراع • فمما لاريب فيه أن الدكتاتور الفرنسى كان أيضا من ذوى النزعة العسكرية صراحة ، وقد أدلى باعترافات متميزة فيما يتعلق بذلك • ولكنه كان قد عاش فى مدرسة الثورة وتعلم أن يستخدم مبدأ المساواة فى أغراضه • وأولئك الذين من أصل غير نبيل كانت لديهم نفس الفرص التى لدى النبلاء تحت حكمه ، وكانت الخدمة المدنية تحظى بمركز أكرم فى عهده مما كانت فى عهد فردريك • ومن ثم فان نزعة نابليون العسكرية كانت قومية • وقد أدار رءوس الجماهير فى فرنسا باثارة الاحساس بأنهم « الأمة العظيمة » • وبعد موته مثلته الأسطورة النابليونية كصديق للشعب والحرية والجنسية ، ونجحت فى ذلك الى حد كبير جدا •

وأدت هزيمة بروسيا فى صراعها مع نابليون (١٨٠٦) الى الحط كثيرا من قيمة النظام العسكرى والى اعادة تنظيم الدولة من أساسها بروح تحررية • وكان للبارون فون شتاين نصيب كبير فى ذلك (١) • وبذلك

---

(١) ج • ر • سيلى « حياة شتاين ووقته » ٣ مجلدات ١٨٨٠ ، و ل • ليهمان «Freiherr vom Stein» ثلاثة مجلدات ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥ •

استطاعت بروسيا أن تحظى بعطف على نطاق واسع بين العناصر التقدمية فى جميع أنحاء ألمانيا ، وأن تتولى القيادة فيما بعد فى اقامة وحدة قومية قوية • وصارت النزعة العسكرية البروسية أيضا قومية بالتدريج ، برغم أنه كانت هناك مقاومة كبيرة تطلب الأمر التغلب عليها • فقد ظل الملك وطبقة اليونكرز أمدا طويلا ضد تسليح الشعب كله بسبب ماتتعرض له سلطتهما من خطر محتمل من جراء ذلك ، كما نبذ الاحرار التجنيد الاجبارى على أساس أنه أمر معاد للمدنية • وكان جنايسنو هو الذى دعا الى « تحالف بين الحكومة والأمة » والى قيام الشعب ضد السيطرة الفرنسية • واعترض الملك فى أول الأمر على أساس أن الحرب الثورية الشعبية ليست ممكنة الا اذا كانت الأمة من الأمم التى وهبت الذكاء ، أما فى ألمانيا فانها تؤدى الى الفوضى (١) • وكان جنايسنو وكلاوسفيتز أيضا من الدعاة الممتازين لفلسفة فى النزعة العسكرية تقوم على فكرة دوجماسية هى أن الحرب لابد منها بين الحين والحين لتجديد معنوية الشعب • ولم تستعد النزعة العسكرية كامل سلطتها على بروسيا ثم على ألمانيا الا بعد انتصارها على ثورة ١٨٤٨ وانتصارها فى الحروب التى شنها بسمارك من أجل التوحيد القومى • وقد أدت سياسة بسمارك الى زيادة ضخمة فى النزعة القومية العدوانية الألمانية التى بلغت حدا تجاوز بكثير أهدافه ووجهة نظره (٢) •

٦ ــ نمو الحرب الشمولية وأثره فى السياسة

لم تكن الحرب فى العصور الماضية تعتبر بأى حال من شئون الشعب كله ، كما لم تكن الدولة على استعداد على استخدام كل قواها فى الحرب أو لديها القدرة على ذلك • واذا كانت الحرب كثيرا ماعرضت الجماهير لمعاناة بشعة فان ذلك كان يرجع أساسا الى أن الحكام لم تكن لديهم قوة

---

(١) أنظر أ . هرمان فيما يتصل بدور الملك فى اصلاح الجيش فى «Historische Vierteljarsschrift» ١٩٠٨ • ويصف هانز بينكو «Der Kampfgegen die Institution des Stehenden Heeres in Deutschland, 1815-1848» ١٩١٢ المعارضة الطويلة من جانب كل من التحرربين والديموقراطيين للتجنيد الاجبارى • وقد نشر ماكس ليهمان عدة أبحاث مهمة عن جنيسناو والمصلحين والعسكرين الآخرين ، أنظر مثلا «Historische Zeitschrift» المجلد ١٢٦ سنة ١٩٢٢ •

(٢) فيما يتصل بروح سياسة بسمارك الخارجية انظر كتابى «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ المجلد الاول ص ١١٣ والمراجع المذكورة فيه •

السيطرة على الجنود وكانوا مرغمين على اغضاء الطرف عن فظاعاتهم • وبنمو النظام العسكرى قضى على العنف الفردى أكثر فأكثر ، ولكن الحكومات نفسها نظمت استغلال كل قوى الأمم من أجل الحرب • وصارت الحرب قومية وشمولية ، وأدى ذلك الى حد كبير الى تمهيد الطريق لقيام الدولة الشمولية فى عصرنا ، وان كان قيامها قد تطلب توافر ظروف تاريخية معينة •

وفى عصر الفيودالية كانت الطبقات الفيودالية هى أساسا التى يتعين عليها أن تقوم بالحروب • وهناك قول فرنسى قديم : « ان واجب رجل الدين هو عبادة الله ، وواجب النبيل هو أن يقاتل ، وعلى الفلاح أن يوفر الخير » • وكان النبلاء يعتبرون الحرب رياضة الفرسان وأنها امتياز لهم • ولم يكن هدفهم بأى حال أن يقتلوا أعداءهم من النبلاء ، بل أن يأسروهم ويتقاضوا فدية كبيرة لاطلاق سراحهم (١) • وكانوا يزدرون استخدام أسلحة غير أسلحة الفروسية ، مثل القوس الطويل والقوس الصليب والبندقية ، ويعتبرونها غير مشروعة لأنها تجعل فى وسع أى شخص من أصل غير نبيل أن يقتل أعظم الفرسان من مسافة بعيدة (٢) • وكان الناس العاديون الذين يعيشون فى المنطقة التى تدور فيها الحرب كثيرا مايتعرضون لأفظع معاملة بلا تمييز بين الصديق والعدو ، برغم أن الكنيسة بذلت جهودا كبيرة لحماية الناس ضد العنف • وقرابة نهاية العصور الوسطى أثبت رماة السهام من الانجليز وأهل ويلز وحملة الرماح السويسريين تفوقهم على الفرسان فى المعارك •• ولم يراعوا قواعد الشرف الفيودالية ، فقد كانوا يطلقون سهامهم ليقتلوا العدو ، وكان المحاربون السويسريون معروفون بأنهم يرفضون الابقاء على حياة العدو حتى عندما تعرض الفدية •

وفى عصر الحكم الملكى المطلق كانت الحرب مهنة للمرتزقة من الطبقات الدنيا ، وكثيرا ماتعرض السكان المدنيون لمعاناة فظيعة على أيديهم • ولم يكن المدنيون ليستطيعوا الدفاع عن بلادهم • وكان تدريب الجنود كثير

---

(١) كانت هذه العادة لاتزال سائدة على نطاق كبير فى القرن الثامن عشر . أنظر ا . بابو «La vie militaire sous l'ancien régime» ١٨٨٩ المجلد الاول ص ٢٩٠ والمجلد الثانى ص ٢٦٣ .

(٢) يشير مونتانى الى أن النبلاء الفرنسيين في شبابه كانوا يعتبرون الشهرة بخسن المبارزة مضرة وامتنعوا عن تعلم فن المبارزة لان الحيل الماكرة محطة بالكرامة ومضادة للفضيلة الحقيقية . أنظر مونتانى « مقالات » ص ٢٧ .

الكلفة ، ولم يكن لدى الملوك مال كثير • ومن ثم فان التوفير فى اراقة الدماء كان ضروريا • وفى حالات كثيرة ضمت أعداد كبيرة من أسرى الحرب الى جيش عدوها السابق حيث كانوا لا يمانعون عادة فى القتال • وكانت الجيوش صغيرة وكان القتال يتوقف فى الخريف والشتاء • وحافظ الضباط ، الذين كانوا فى الغالب من عائلات نبيلة ، على تقاليد الفروسية الى حد ما • ففى معركة فونتنوى (١٧٤٥) واجه الضباط الانجليز والفرنسيون الذين يقودون الفرق بعضهم البعض وتبادلوا التحية قبل بدء القتال ، وان كان البحث الحديث قد أثبت عدم صحة رواية فولتير من أنهم ساروا فى المجاملة الى حد أن ترك كل جانب منهم للجانب الآخر أن يبدأ القتال أولا (١) • وكان من تقاليد المشاة الفرنسيين أن يهجموا بالسنكى أولا ولا يردون حتى على نيران العدو (٢) •

وكان من نتيجة نمو قوة الحكومات والنظام العسكرى وانتشار أفكار « الاستنارة » فى القرن الثامن عشر أن الحروب صارت أقل عنفا باستمرار • فلم يعد هناك تسامح فى التصرفات البربرية ضد السكان المدنيين ، وان كان يحدث أحيانا أن تدمر بلاد بأكملها لأسباب استراتيجية • وحتى أساليب فردريك الثانى تبدو أقل قسوة من أساليب نابليون • « وهناك عدة أمثلة فى القرن الثامن عشر على الطريقة التى فقدت بها الجيوش النمساوية بصفة خاصة النصر لتطرفها فى الامتناع عن الضغط على السكان المدنيين فى أى شىء » على حد قول أحد كبار الثقات الانجليز (٣) • وافتتحت الثورتان الأمريكية والفرنسية عهدا جديدا فى الحروب ، ثم اكتملت الأساليب الثورية على يد نابليون والبروسيين الذين نظموا حرب التحرير ضده • وبدأت الفرق المؤلفة من جماهير الشعب تحل محل الجيوش المحترفة الصغيرة ، وطبق مبدأ الخدمة الاجبارية العامة ، وكانت تحدو الجنود الحماسة للديموقراطية والقومية وفى وسعهم القتال فى نظام مفتوح بدلا من التكوينات المتلاصقة • ولم يعد فى حيز الامكان تموين الجيوش بواسطة مؤن تحملها القاطرات أو تحفظ فى مخازن بل

---

(١) ف هـ • سكراين « فونتنوى ودور بريطانيا فى حرب الوراثة النمساوية » ١٩٠٦ ص ١٧٢ •

(٢) أنظر فيما يتصل بهذا التقليد هنرى مارتن «Histoire de France» المجلد ١٨٦٠ ص ٢٨٢ • وفى فرق الفرسان النمساوية حتى فى الحرب الماضية كان يعتبر من غير الانصاف أن تقابل هجمات فرسان العدو الا على ظهر الخيل برغم أنه قد يكون من الافضل عسكريا مقابلتها بالمدافع سريعة الطلقات •

(٣) سير • ح • بتلر وس • ماكوبى «نمو القانون الدولى» ١٩٢٨ ص ١٤٥ •

صار لابد أن تعيش على البلاد نفسها. واستخدم الأمريكيون خدعا وأساليب حربية اعتبرها الانجليز مما لا ينطبق على سلوك « الجنتلمان » (١) ، وزادت الجيوش الفرنسية الثورية من شراسة القتال . وفيما يتصل بعلاقة الجيوش الغازية بالسكان كانت الجيوش الثورية الفرنسية قطعا فى مستوى أدنى من مستوى الجيوش الملكية القديمة (٢) . وقد قرر روبسبير « والمؤتمر » عدم الابقاء على حياة الجنود الانجليز والهانوفريين والاسبان ، وبرغم أن الجيش تردد فى تنفيذ ذلك ، ذبح فى سنة ١٧٩٥ حوالى ثمانية أو تسعة آلاف أسبانى . وطبق نابليون بصفة عامة المبدأ اليعقوبى الخاص بالارهاب فى الحرب ، وكثيرا ما طبق أساليب حربية لم يعتبرها أعداؤه مما يتفق والشرف . بيد أن الأهداف الحربية لا يخدمها عادة التدمير الشامل ، والحقيقة أن نابليون لم يستخدم الأساليب الارهابية الا بأقل قدر . وهناك مثال له طابع خاص فى الحرب الفرنسية النمساوية سنة ١٨٠٩ (٣) . اذ هزم الأرشيدوق شارل نابليون فى معركة آسبرن ، ولكن عندما أشير عليه أن يطارد الفرنسيين المتراجعين رفض قائلا :ان ما أسفك من دماء فيه الكفاية . وبعد ذلك بأيام قليلة هزمه نابليون فى واجرام بتركيز عدد غير عادى من المدافع لسحق الجنود النمساويين بنيران المدفعية بدلا من استخدام السنكى ، وبرغم أن نابليون لم يتعرض لأى وخز من ضميره من الناحية الانسانية فانه اعتذر عن استخدام هذا الأسلوب الجديد فى حديث مع الجنرال بوبنا بهذه العبارة : « ماذا كان ينبغى على أن أفعل ؟ ان أفضل مدفعيتى فى أسبانيا». ولكنه أدرك أيضا أن الأسلوب الجديد الذى كلفه من الأنفس أكثر من القديم ينطوى على مخاطرة ، ودفعه ذلك الى تفضيل الدبلوماسية على الحرب كما فعل الأرشيدوق فى نفس الوقت .

وفى أثناء القرن التاسع عشر كانت السياسة النموذجية للرجعية هى الغاء الخدمة العسكرية الاجبارية ، أو تحديدها ، لأن الملوك والطبقات الحاكمة كانت تخشى تسليح الجماهير ووصول أعداد كبيرة من أصحاب الدماء غير النبيلة الى مراتب الضباط . ومن الناحية الأخرى أعلن الديموقراطيون فى كل ثورة مبدأ «جيش الشعب» لأنهم رأوا فيه أداة لتأمين الحرية ضد القوى الرجعية وجيوشها المحترفة . وكانت النتيجة النهائية

---

(١) فاجستى ص ٩٩ و ١٠١ وفيما يتصل بالفرنسيين ص ١٢٠ ومابعدها .

(٢) تيلر وماكوبى ص ١٣٧ .

(٣) أوجست فورنيه «نابليون الاول» ١٩١٣ المجلد الثانى ص ٢٩٢ .

اتساعا غير عادى فى حجم الجيوش واخضاع حياة الأمم كلهـا للتنظيم العسكرى . ويرجع هذا التطور ، الذى تم تدريجيا ، الى عاملين : هما تطبيق الاجراءات التكنيكية الجديدة فى فن الحرب ونمو النزعة القومية . وكان مولتكه أول القادة العظام فى استعمال السكك الحديدية والبرق لتحريك الجيوش الضخمه التى تصل الى ٥٠٠٠٠٠ جندى وتوجيهها . وهى عملية كانت قبل ذلك تعتبر مستحيلة . ونجحت دراية بسمارك بالطبيعة البشرية والكفاية الألمانية فى التنظيم الشامل فى الادارة والتعليم العام فى جعل الشعب الألمـانى أداة يعتمد عليهـا فى أيدى العسكريين . وأصبح الجيش الجمـاهيرى الذى فكر فيه الديموقراطيون لاقامة حكم العـدالة والمساواة داخل الأمم وفيما بينها أحسن أداة فى الواقع لغرس التطلع نحو القوة والمجد القوميين والطاعة العمياء للقادة العسكريين فى نفوس الجماهير العريضة .

وفى القرن التاسع عشر دعمت التحررية السياسية ، برغم معارضتها للحرب والعنف ، نمو الجنسية وبذلك شاركت على غير ارادة منها فى اندلاع كثير من الحروب كان سببها التصادم فى التطلعات القومية واحتدم فيها القتـال بتعصب قومى . ومن النـاحية الأخرى حاولت التحررية الاقتصادية أن تمنع الحرب من السيطرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية بأكملها .. ففى حرب القرم استمرت روسـيا تدفع فوائد ديونهـا لحملة السـندات البريطانيين ، بل وعقـدت قرضـا فى حى المال بلنـدن لهذا الغرض (١) ، وكانـت المواد الأولية الروسـية تصدر الى بريطانيـا عبر بروسيا . وفى الحرب الألمانية الفرنسية فى سنة ١٨٧٠ لم تقطع العلاقات التجارية بين الدولتين المتحاربتين . فكان رجال الأعمال فى برلين يتلقون الرسائل من مراسليهم فى باريس ، التى كان الجيش الالمانى يحاصرها ، عن طريق البريد الطائر . واذا كان رجال الأعمال قد عزفوا عن الاشتراك فى الحروب التى تشنها الحكومات ، فان لم تر من واجبها الدفاع عن مصالح رجل الأعمال فى الخارج بالوسائل الحربية . وطبقا للمبدأ اللبرالى الخاص بعدم تدخل الحـكومة فى الشئون الاقتصـادية كثيرا ما أعلنت الحـكومة البريطانية وأجهزة الرأى العـام أنه اذا كان المستثمرون البريطانيون قد أقرضوا نقودهم لمدينين أجانب لا يريدون أن يدفعوا فانه ليس من شـأن الحكومة أن تتدخل لارغامهم على الدفع (٢) . والحالات الظاهرة التى خرق

---

(١) أ . ل . وود وارد « الحرب والسلام فى أوروبا ١٨١٥ ـ ١٨٧٠ » ١٩٣١ ص ٨٨ .

(٢) يعطى وود وارد أمثلة على ذلك ص ٩٥ ومابعدها و ١٠٤ .

فيها هذا المبدأ تفسر على أساس السياسة العليا • وأوضح استثناء هو تدخل بريطانيا فى مصر • بيد أن السبب الحقيقى لم يكن الاهتمام بمصلحة حملة السندات ، بل الرغبة فى حماية الطريق الى الهند بعد أن صار مهددا بسبب ضعف تركيا •

وفى الحرب الأهلية فى أمريكا تمت خطوة نحو مايسمى اليوم « بالحرب الشاملة » (١) • فقد صار من أهداف الحرب تحطيم معنوية السكان المدنيين بتدمير موارد البلاد — وكان الشمال الديموقراطى هو الذى بدأ بهذا الأسلوب الجديد فى فن الحرب فى حين تمسك الجنوب الارستقراطى بالفكرة القديمة عن الحرب باعتبارها مبارزة بين فرسان « حرب الجنتلمان » • وفى الحرب الالمانية الفرنسية فى سنة ١٨٧٠ أقام الجنرال الأمريكى شريدان مع بسمارك وراء الخطوط الألمانية فترة من الوقت • ومرة عندما أثيرت قضية الانسانية فى الحرب فى مناقشة اعترض شريدان وقال : انه يحسن معاملة السكان بأقصى شدة ، وان من الاهداف الاستراتيجية تعريض السكان لمعاناة شديدة بحيث يطلبون السلام ويرغمون حكومتهم على طلبه • ونصح شريدان بألا يترك للمدنيين شىء سوى عيونهم يبكون بها • وقد سر بسمارك لهذه الملاحظة (٢) •

وقد افتتحت الحروب التى شنها بسمارك لفرض سيطرة بروسيا فى ألمانيا عهدا من الأسلحة الكبرى التى أتاح لها التقدم التكنولوجى وسائل جديدة تماما • وفى كثير من الدول بذلت جهود كبرى لوضع جميع الموارد فى خدمة الحرب • ومع ذلك فان الاعتقاد فى حكم القانون كان لايزال قويا وفعالا بحيث بذلت محاولات جادة لنزع السلاح والتخفيف من وطأة الحروب • وفى سنة ١٨٩٨ أصدر القيصر نقولا الثانى قيصر روسيا بيانا يهاجم فيه أعباء التسليح التى لا تحتمل وفظائع الحرب ويقترح عقد اتفاقات دولية للحد منهما • ولاريب فى أن القيصر كان مدفوعا بحب حقيقى للسلام ، وان كان لدى روسيا فى ذلك الوقت أسباب مالية وعسكرية لتحديد الزيادة فى الأسلحة التى لم يكن فى مكنتها أن تجارى الدول الأخرى فيها (٣) • وكانت النتيجة

---

(١) جيمس ترسلو آدامز «مأساة أمريكا» ١٩٣٤ ص ٣٣٨ •

(٢) موريتز بوش « بسمارك ، بعض الصفحات السرية في تاريخه » ١٨٩٨ المجلد الاول ص ١٧١ و ٢٢٣ •

(٣) كان القيصر قد قرأ عدة كتب تدعو الى السلام مثل كتاب برنافون سوتنر والمؤلف العظيم عن الحرب الذى وصف فيه ج • دى بلوسن ، وهو مصرفي من أصل يهودى، الحرب كوصمة في جبين الانسانية وخطر يهدد النظام الاجتماعى •

أول مؤتمر فى لاهاى اشتركت فيه جميع الدول الكبرى ومعظم الدول الأخرى ٠ وكانت المقترحات الروسية الأساسية هى التوقف فى التسليح عند الحد الذى بلغه والتحكيم الاجبارى ٠ وكانت معظم الحكومات الممثلة فى المؤتمر موافقة على ذلك الى حد يزيد أو ينقص ، ولكن المانيا حطمت الخطة كلها بمعارضتها الشديدة ٠ وتكشف الوثائق الدبلوماسية الألمانية عن أن الامبراطور ولهلم الثانى ثار غضبا وتحدث عن ابن عمه نيقولا بأقبح العبارات وأشدها ازدراء ٠ واقترحت الحكومة الهولندية أيضا مناقشة عدم المساس بالملكية الخاصة فى البحار ٠ بيد أن الآراء كانت منقسمة الى حد كبير جدا وتأجلت المناقشة للمؤتمر التالى ٠ وقد ظهر أن الخبير البحرى البريطانى الاميرال سيرجون فيشر ، كان من أنصار النزعة العسكرية بدمه ، وان كان نشاطه من وراء الستار فحسب ٠ وعقد مؤتمر ثان فى لاهاى سنة ١٩٠٧ تلاه ، مؤتمر فى لندن سنة ١٩٠٩ ٠ واهتمت حكومة الأحرار فى بريطانيا اهتماما أكيدا بالسلام وتخفيف وطأة الحروب ، وكانت على استعداد للقيام بتنازلات كبيرة فيما يتصل بالحروب البحرية ٠ ولا حاجة بنا للدخول هنا فى تفاصيل القانون الدولى ، وكل ما نريده هو التدليل على مدى قوة العناصر التى كانت تعمل من أجل حكم القانون فى كثير من البلاد ٠ فحتى فى ألمانيا عارضت وزارة الخارجية فى النزعة العسكرية العدوانية التى أبداها قادة البحر والقيصر ٠

وحطم اندلاع الحرب فى سنة ١٩١٤ جميع الآمال فى تحقيق السلام عن طريق التعاون الدولى ٠ فقد كان غزو بلجيكا المحايدة وبعض الأعمال الأخرى ضربة قاسية ضد القانون الدولى وضد الثقة فى تعهدات الدول ٠ كما أن الطريقة التى أدارت بها ألمانيا الحرب أظهرت لأول مرة صورة الحرب الشمولية بجميع الوسائل الفنية الحديثة وعلى أوسع نطاق (١) ٠ وقد قضى هذا النوع من الحروب على كل فرق بين الجنود والمدنيين ٠ فجميع السكان ، وفيهم النساء والأطفال ، وضعوا فى خدمة آلة حربية هائلة ليس فيها للفرد وحقوقه أية قيمة ٠ وقد كانت دكتاتورية لورندووف الفعلية ايذانا بمجىء دكتاتورية زميله هتلر ، وان لم تبلغ بأى حال ما بلغته من الوحشية من عدة جوانب ٠ وبعد الحرب حاولت عصبة الأمم اقامة حكم القانون الدولى ٠ ولست أنوى هنا مناقشة العلاقة بين « العصبة » ومشاكل الجنسية ، ويجب أن نترك هذا الموضوع الى فرصة أخرى ٠

---

(١) جيمس جارنر « القانون الدولى والحرب العالمية » مجلدان ٠

٧ ـ الارادة القومية

ان بعض الأفكار المعينة المرتبطة بالجنسية مثل الشخصية والطابع القوميين والسيادة القومية وحق تقرير المصير الذاتي والرسالة والمسئولية القوميتين تلعب دورا في غاية الأهمية في السياسة الحديثة • فكلها تنطوى على وجود ارادة قومية ، بيد أن هناك اختلافا كبيرا جدا حول معنى هذا التعبير • فان كلا من لفظى « الارادة » و « القومية » يمكن فهمها بطرق مختلفة ، كما أنه من العسير فهم كيف أن جمهرة كبيرة من الناس الذين يختلفون فى المصالح والآراء والاتجاه يمكن أن تتكون منهم ارادة مشتركة بأى حال ، وبخاصة اذا كنا لا نعتبر « الارادة » مجرد نزعة عابرة تثيرها الانفعالات العمياء ، بل ارادة معقولة تتكون على أساس التفكير بعناية في كل الظروف وطبقا للمصالح الحقيقية للشعب ، أى الارادة التى تقابل مايريده الناس حقيقة • والأفراد الناضجون والمدربون على اصدار الاحكام كثيرا ما يقعون فريسة للأوهام والتحيزات والانفعالات التى قد تمنعهم عن تكوين ارادة معقولة ، كما أن الأغلبية العظمى من الأفراد لاتزال تحت سيطرة العوامل اللاعقلية • واذا كانوا برغم ذلك ينجحون فى تدبير أمورهم الخاصة بطريقة معقولة فان ذلك يرجع الى أن هناك فى معظم الحالات ما يحدد لهم مايفعلونه ، أو مالا يفعلون ، بواسطةالقوانين والرأى العام وتدريبهم الفنى وتجربتهم ومشورة الخبراء ، واذا هم تصرفوا ضد هذه القواعد فانهم يقعون تحت طائلة عقاب الدولة أو يتعرضون لخسارة معينة • أما فى الشئون القومية فان المخاطر التى تنجم عن الخطأ فى الحكم أكبر بما لا يقاس • فمن ناحية هذه الشئون فهى أكثر تعقيدا بكثير من الشئون الخاصة ونتيجة الخطأ قد تؤدى الى تدمير أمة بأكملها • ومن ناحية أخرى ليس لدى الأغلبية الساحقة من الناس أى تدريب خاص فى الحكم على مثل هذه الشئون ، بل هم يتأثرون الى حد كبير جدا بالتحيزات والأوهام ، والقانون الدولى تنقصه الجزاءات الفعالة •

ومشكلة الارادة القومية هى عقدة علم السياسة الحديث (١) • وقد ظهرت مع نمو الوعى القومى وفكرة ان الأمة هى صاحبة السيادة • وكان

---

(١) هارولد لاسكى « قواعد السياسة » و « أسس السيادة » ١٩٢١ ص ٢٠٩ • و ت • برايس « الديمقراطيات الحديثة » مجلدان ١٩٢٩ • هانز دلبروك «Regierung und Volkswille» ١٩١٤ •

القانون العام فيما مضى يميز بين قطاعات مختلفة من السكان بأسماء خاصة تشير الى مركزها السياسى • ففى البلاد التى كانت فيها حواجز محددة بين المراتب الاجتماعية كانت الطبقات العليا والحاكمة كثيرا ما تسمى « الأمة » ، فى حين كانت المراتب الدنيا « الشعب » • بيد أن هذه التفرقة لم تصر فى انجلترا عملية قط ، وان كان لا شك فى أن الطبقات كانت مختلفة تماما فى نفوذها السياسى • وقد عرف أحد رجال السياسة فى عهد اليزابث ، وهو سير توماس سميث ، فى كتابة عن الكومنولث الانجليزى (١٥٦٥) الكومنولث أو الأمة بأنهما مجتمع من الرجال الأحرار يوجد بينهم الاتفاق المشترك • أما الارقاء أو الأقنان فليسوا جزءا منهما • وفى البرلمان كل انجليزى من الملك الى أدنى الناس مفروض انه موجود أو ممثل • ويشيد سميث بصفة خاصة بطبقتى السادة (الجنتلمان) والزارعين الذين يبدو أنه يعتبرهم لب الأمة • وكانت أدنى الطبقات ، التى أطلق عليها الرومان « البروليتاريين » لا حق لهم فى التصويت ولكنهم كانوا يشاركون بنصيب ما فى الادارة المحلية •

وفى الوثائق الألمانية فى القرن الخامس عشر يعنى تعبير « الامة الألمانية » المدن الحرة والأمراء الذين يتألف منهم المجلس الامبراطورى (الدايت)• ويقول لوثر فى ندائه الى النبلاء المسيحيين ان « الأمة الألمانية ، أى الأساقفة والأمراء ، ينبغى أن تتصرف كمسيحيين وتحمى الشعب الذى عهد بمقاليده اليهم » • والأمة هنا غير الشعب بوضوح • وفى القانون الدستورى الهنغارى ، الذى جمعه فيربوتشى ، أطلق على النبلاء لفظ « الناس » Populus وعلى الطبقات الدنيا ، التى كانت بلا حقوق سياسية لفظ « العامة » (Plebs) (١) ويقول أولارد : ان تعبير « أمة » فى القرن الثامن عشر كان يعنى فى فرنسا الطبقات الثرية والمثقفة• وفى سنة ١٨٧٥ قال أحد متحدثى الطبقة الثالثة ، البورجوازية : انه أمر مشين أن يعتبر المحامون والمؤلفون والفنانون والتجار ورجال المال من الشعب، فهم ينتمون حقيقه للطبقات العليا من الأمة • وقد كتب أحد المؤرخين الألمان هو آرشنهولتز ــ وكان من كبار المعجبين بالحرية الانجليزية ، فى سنة ١٧٩٢ : « انى أفهم بلفظ الأمة الطبقات العليا من الشعب فقط • أما الطبقات الدنيا أى الحرفيين والفلاحين ، فهم بصفة عامة مخلوقات شبه آدمية فى كل مكان » • وقد ظل مفهوم أن الطبقات العليا والمتوسطة وحدها هى التى تتألف منها الأمة باقيا حتى القرن التاسع عشر فى ألمانيا • وقد

(١) أ • فون تيمون «Ungarische Verfassungs- und Rechtsgeschichte» ١٩٠٤ ص ٥٨١

وضع أحد الكتاب الفرنسيين ، هو فيفييه ، الفرق مع اضافة حجج أخرى ، فكتب سنة ١٨٠٢ يقول (١) :

« ان روسو وقع في خطأ وضلل كل العقول بكلمة واحدة هي « الشعب » • فكلما صادفك في « العقد الاجتماعي » لفظ « شعب » ضع بدلا منه لفظ « أمة » وستدهش كثيرا عندما تجد أن ما كان يؤثر فيك من قبل فقد معناه • والسبب بسيط • أنا لا أقول : ان كلمة «الشعب» في فرنسا وفي جميع البلاد تقريبا تمثل فكرة ذلك القسم من الأمة الذى استبعد بطريقة طبيعية من مناقشة مسائل الدولة الكبرى لفقره ونقص تعليمه • انى أقول أكثر من ذلك بكثير وأود أن أشير الى أن الشعب الفرنسى لا يعنى الأمة الفرنسية • فالأمة تنطوى على المواطنين والحكومة والقوانين ، بل والعادات ، فى حين أن كلمة « شعب » بأوسع معانيها لا تدخل فيها الحكومة ، الأمر الذى أدى الى جميع الأخطاء فى العقد الاجتماعى » •

ويحاول فيفييه بعد ذلك أن يدلل على أن الشعب لا ارادة له لأنه ليس وحدة • ولكن الأمة يمكن أن تكون لها ارادة لانها تضم الشعب والحكومة التى تحكمه •

وكثيرا ما استخدم المدافعون عن الملكية صعوبة تصور كيف أن مجموعة من الارادات المختلفة يمكن ان تتحد فى ارادة عقلية واحدة ، فى القول بأن النظام الملكى وحده هو الذى يستطيع أن يضمن وحدة الارادة القومية • بيد أن بسمارك أشار فى مذكراته الى أن القرارات التى يتخذها الملوك فى الملكيات المطلقة كثيرا ما تكون نتيجة لمؤثرات مختلفة تماما من جانب أشخاص غير مسئولين (٢) ، ويظهر التاريخ أن السياسة فى الدول المحكومة أوتوقراطيا كثيرا ما تتذبذب جدا تبعا لتغير نفوذ الجماعات والأفراد المتنافسين •

وينطوى تكوين ارادة جماعية معقولة على مهمتين : أولاهما هى وضع

---

(١) ج • فيفييه «Lettres sur l'Angleterre et reflexions sur la philosophie de XVIIIe siècle» ١٨٠٢ ص ١٥ •

(٢) بسمارك «Gedanken und Erinnerrungen» ١٨٩٨ المجلد الاول ص ٢٧٨ وكذلك ص ١٥ •

خطة يغلب أن تدعم المصالح الحقيقية للمجتمع ، والثانية هى حمل أعضائه على قبولها • ويزيد الأمل فى حل هاتين المشكلتين أو ينقص مع صعوبة المشاكل الاجتماعية والسياسية التى يتعلق بها الأمر ومع عدد الناس الذين يشتركون فى تحديد السياسة • وتواجه الأمم الآن فى المجتمع الحديث مشاكل أكثر عددا وتعقيدا من أى وقت مضى • فنشاط الحكومات زاد كثيرا وظهرت مشاكل كثيرة من الصعب جدا اصدار حكم فيها ، مثل مشاكل السياسة الدولية • ومن ناحية زاد عدد الناس الذين يشتركون فى السياسة اليوم أكثر بكثير مما كان فى العهود الماضية ، وقليلون جدا من الناس هم من لديهم الوقت والقدرة على التفكير السياسى المعتنى • وفى مثل هذه الظروف لا أمل فى أن يتوقع من الناس أن يكونوا ارادة قومية معقولة واحدة ، وينطبق هذا على الطبقات المثقفة ذات التعليم العالى أكثر مما ينطبق على الجماهير • ووظيفة الأحزاب أن تكون ارادة موحدة فى قطاع من الناس على الأقل ، أو على الأصح أن تكسب ثقة قطاع منهم وتحصل على توكيل ضمنى بتكوين ارادة لاعضاء الحزب قد لا تكون بالضرورة متفقة تماما مع ما يريده هؤلاء الأعضاء حقيقة • ومع ذلك فان البحث فى السيكلوجية السياسية للطبقات والجماعات المختلفة يؤدى الى أن الأغلبية الكبرى ما زالت تظهر قدرا كبيرا من الأفكار الغامضة غير المتناسق بعضها مع بعض ، والجنوح الى التفكير فى القياس والرمز والتأثر بشدة بالأوهام والتحيزات (١) •

وفكرة الارادة القومية بوصفها ارادة الشعب كله لم تتحق قط بعد• وقد حلت محلها فكرة أن ارادة الأغلبية تمثل ارادة الأمة كلها ، وواضح أن ذلك غير حقيقى • فضلا عن أن هناك حالات معينة تستثنى من قاعدة أن الأغلبية هى التى تقرر ، مثل حقوق الأقليات القومية • ومبدأ الأغلبية بصفة عامة ينطوى ضمنا على شرط عدم استخدامه بطريقة اضطهادية • بالاضافة الى أنه حتى فى البلاد الديموقراطية كثيرا ما استبعدت قطاعات كبيرة من الأمة من حق الانتخاب ، كالنساء مثلا ، وأحيانا كان أسلوب التصويت يؤدى الى حصول أقلية من أصحاب الأصوات على أغلبية المقاعد فى البرلمان •

وفى الولايات المتحدة انتخب الرئيس عدة مرات بواسطة الأقلية ،

---

(١) جراهام واللاس « الطبيعة البشرية فى السياسة » ١٩١٠ • و ج • برايس « الديمقراطيات الحديثة » المجلد الثانى ص ٦٠١ •

مما يرجع السبب الرئيسى فيه الى نظام الانتخاب غير المباشر (١) • وقد كان أهم انتخاب عرفه التاريخ الأمريكى هو انتخاب ابراهام لنكولن فى سنة ١٨٦٠ • وقد انتخب لنكولن بواسطة ١٨٨٦٤٥٢ من أصحاب الأصوات فى حين حصل منافسوه على ٢٧٨٧٧٨٠ ، أى بزيادة ما يقرب من المليون صوت • وفى سنة ١٨٧٦ انتخب هيز بواسطة أقلية وكذلك هاريسون فى سنة ١٨٨٠ • وفى سنة ١٩١٣ صار وودرو ويلسون رئيسا بحصوله على ٦١٥٧٨٠٠ صوتا فى حين حصل المرشحون الآخرون على ٨١٣٩٠٠٠ صوتا ، ولم يصوت ثلاثة ملايين من الناخبين لأحد • ومن ثم فاذا كانت الارادة القومية تعنى ارادة مجموع الناخبين ، فانه لم يكن ممثلا الا ثلثهم فحسب • واذا اعتبر السكان البالغون من النساء والرجال معا وباستثناء الأجانب ، هم الأمة فان ويلسون كان يمثل ١٢ فى المائة منها فحسب •

وأكبر أداة لتكوين ارادة الأمة اليوم هى نظام « مجلس الوزراء » الذى نما فى فترة حكم الأحرار فى القرن الثامن عشر • ولكن من المشكوك فيه جدا ما اذا كانت الأمة كلها كانت تريد حقيقة هذا التطوير الضخم فى ذلك الوقت • فلو لم يتخلص الارستقراطيون الأحرار من ذلك العدد الكبير من « الدوائر العفنة » لكان المحافظون حصلوا على الأغلبية ، ويغلب أنهم كانوا يحظون بتأييد الأغلبية العظمى من الشعب (٢) • وما كان المحافظون ليؤكدوا سلطة البرلمان بتنمية حكم « مجلس الوزراء » • فضلا عن انهم كانوا يعتقدون أن « التجارة فيها دمار للأمة الانجليزية وعارضوا تحويل انجلترا الى جمهورية تجارية مثل هولندا » (٣) •

ويخلص برايس فى مؤلفه الضخم عن الديموقراطية الى أن « الحكم الحر لا يمكن أن يكون الا حكم قلة داخل ديموقراطية ، ولم يكن فى أى وقت من الأوقات غير ذلك » ــ لا حكم قلة طبقى ولكن حكم قلة يقوم على الموهبة الطبيعية • ووظائف الشعب أساسا هى الرقابة ، وهى سلبية أكثر منها ايجابية ، بمعنى أن « الشعب يسهل عليه أن يرفض سياسة مقترحة

---

(١) وحتى روسو كان من رأيه أن الديمقراطية لاتضم بالضرورة جميع الشعب . فيمكن أيضا قصرها على نصفه • وفى فرنسا لم تحصل النساء قط على حق التصويت.

(٢) ليكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر » الفصل الاول والثانى • وفيما يتصل بالتكوين الانتخابى لانجلترا أنظر ل • ب • ناميه « البناء السياسى عند تولى جورج الثالث العرش » ١٩٢٩ المجلد الاول ص ٧٩ •

(٣) جورج ماكولى تريفيليان «انجلترا فى عهد ملوك ستيوارت» ١٩٠٦ ، ص ٤٧٧ •

أكثر مما يستطيع اقتراح سياسة أفضل » • وبرغم هذه الحدود فان الديموقراطية الحديثة لها سجل مجيد وبخاصة فيما يتعلق بالتقدم الاجتماعى والثقافى للشعب • والرأى المنتشر من أن حكم الديموقراطية يحول دون صعود الشخصيات العظيمة الى الزعامة ينقضه ذلك العدد الذى لا يحصى من الساسة الديموقراطيين المبرزين • وصحيح أن الديموقراطية وحدها لا تكفى ، فلابد أن تتعاون قوى تاريخية واجتماعية ومعنوية عديدة لكى تحقق نموا ناجحا • وقبل كل شىء آخر يجب ألا يزيد التنافس بين الطبقات بحيث يؤدى الى استبعاد قدر معين من التضامن والثقة بينها • وقد كانت الرغبة فى الوحدة الداخلية والاتساق مصدر الوحى لكثير من المفكرين والزعماء فى تكوين فكرة الأمة بوصفها تضامنا وثيقا ذا ارادة واحدة • وهذا المثل الأعلى لا يمكن أن يتحقق ، الا فى حالات استثنائية ، ولكن يمكن أن تحل محله روح الحل الوسط والتسامح • بل ان فكرة الارادة القومية الموحدة كانت سببا فى أضرار كثيرة ، وبخاصة فى الحكم على الأمم الأخرى وتفسير تصرفاتها باعتبارها نتاج طابع قومى لا يتغير •

ان فكرة الأمة تضم كلا من التنظيم السياسى للدولة والتنظيم الاقتصادى والثقافى للمجتمع ، والمفروض أن الارادة القومية وظيفة كليهما • وهناك عدة أنماط من مفهوم الأمة كل منها ينطوى على وجهة نظر خاصة فى الارادة القومية • فقد كانت الدولة قبل ظهور الجنسية تتصور على أنها نظام قدسى صاحب السيادة الوحيد فيه هو الله • وعندما صارت الأمة تعتبر صاحبة السيادة أخذت عن الملكية طابعها الصوفى المقدس وعزا بعض الفلاسفة الى الأمة طابعا قدسيا ورسالة وسلطة قدسيتين •

وترى النظريات المحافظة فى الدولة شخصية تاريخية مكونة من مراتب مختلفة لكل منها وظيفتها المنفصلة • فهى توحد بين الارادة القومية والتقاليد القومية وحكمة الآباء ، وتفسيرها هو مهمة الملك والارستقراطية • والمجتمع فى هذه النظريات لا يكاد ينفصل عن الدولة • فالكنيسة والدولة والحقوق الخاصة والعامة متشابكة بعدة طرق • وتوحد اللبرالية بين الدولة والمجتمع للمحافظة على « حكم القانون » و « حقوق الانسان » المتأصلة فى العقل البشرى • وتفترض أن الجنسية تخضع للعقل والأخلاقيات ولا تكاد تعنى أكثر من العضوية الاختيارية فى المجتمع للدفاع المتبادل • ولكن المجتمع بالنسبة للتحرريين (اللبراليين) أهم بكثير جدا من الدولة • والمتحدثون باسم الأمة هم الطبقة الوسطى المستنيرة وأصحاب المهن

الذهنية والبورجوازيون الأغنياء ، ولكن كثيرين من التحرريين كانوا يتوقعون أن توزيع الثروة وانتشار التعليم سيؤدى الى توسيع المشاركة السياسية. وتعتبر أيديولوجية الديموقراطية جميع سكان الدولة هم الأمة وتنبذ فكرة الطبقة الرائدة ، وان كان المواطنون المختلفون فى اللون أو اللغة كثيرا ما أنكر عليهم أنهم جزء من الأمة حقيقة فى بعض الدول الديموقراطية. ويعتبر المجتمع خاضعا للدولة ويؤدى ذلك الى تحويل الديموقراطية الى اشتراكية • ثم يوحد ثانيا بين الأمة وطبقة معينة ذات رسالة • ان ماركس أعلن فى « بيانه الشيوعى » أن العمال لا وطن لهم • فالبروليتاريا عليها أولا أن تستولى على السيطرة السياسية ، وترفع نفسها الى مرتبة الطبقة القومية ، وتجعل من نفسها الأمة ، وتظل بذلك قومية ولكن بمعنى غير المعنى البورجوازى» • ولكن ماركس يتنبأ بأن الغاء التقسيمات الطبقية الداخلية عن طريق انتصار البروليتاريا سيؤدى الى اختفاء العداء بين الأمم. وأخيرا ، ان النزعة القومية الحديثة ترى جوهر الأمة فى شرفها وقوتها وتجعل الجنس أساس الجنسية • ونظريتها فى الدولة تسلطية بحتة والمجتمع خاضع تماما للدولة • وفى هذه الناحية ، وفى غيرها أيضا ، تختلف النزعة القومية عن التسلطية المحافظة • فليس الملك والارستقراطية التاريخية هما اللذين يمثلان روح الأمة ولهما الحق فى التعبير عنها ، بل ارستقراطية عنصرية مؤلفة من عناصر من مختلف الطبقات • ولكن القوة الدافعة الحقيقية للنزعة القومية كانت فى كل مكان قطاعا من المثقفين والطائفة العسكرية مع معاونين من الطبقات الأخرى •

وفى أيديولوجية كل أمة تجتمع بصورة تزيد أو تنقص عدة مفاهيم مختلفة عن الأمة • وكما أشرنا من قبل ، تتماسك الأمة برباط من التقاليد والمصالح والمثل العليا • ويؤكد المفهوم المحافظ على التقاليد ، ويحس أنصاره بأنهم أعضاء فى أمة ما لأنهم أساسا فخورون بماضيها المجيد ، واذا نبذت دولة ما هذا التراث بدا لهم ذلك كأنه نهاية للأمة • ويؤكد المفهوم الديموقراطى على المصالح ، ويميل الى الرأى القائل بأنه لا يكاد يكون هناك أمة ما دامت جماهير الشعب الكبرى ليس لها نصيب مناسب فى الثروة القومية والمدنية القومية (١) • ويؤكد المفهوم اللبرالى المثل الأعلى « للحقوق » • ففى هذا الرأى ليست هناك أمة اذا لم يوجد « حكم القانون » • بالاضافة الى أن كثيرين من التحرريين عزوا الى الأمة رسالة نشر مثل عليا معينة فى العالم ، وهى حق تقرير المصير القومى وتحقيق

(١) أوتوباور . «Die Nationalitaetenfrage und die Sozialdemokratie» ١٩٠٧

النظام الدولى الذى يؤدى الى السلام والنوايا الطيبة • ويتحقق اثبت تضامن قومى اذا استخدمت المفاهيم الثلاثة جميعا فى بناء الأيديولوجية القومية •

والارادة القومية من عمل نخبة رائدة مؤلفة من عناصر مختلفة مثل البيت المالك وخدامه أو الكنيسة أو الطبقة الحاكمة أو الحزب • ولكى تستحق الارادة وصف « القوميـــة » يجب أن يقبلهـــا ، أو على الأقل لا يعارضها ، قطاع كبير من الأمة لابد أن تكون لديه القدرة والسلطة على جعل هذه الارادة ، سائدة بين الأمة • ولا بد أيضا أن تكون متسقة مع وجود الأمة ، لأنه لا يمكن تصور أن الأمة لديها ارادة الانتحار ، وتنطوى هذه الشروط على وجود قدر معين من الوحدة فى التطلعات بين الأحزاب والطبقات المختلفة فى الأمة تسمو على ما بينها من عداء • فعندما لاتكون هناك عوامل مشتركة بينها لا تكون هناك ارادة قومية ولا أمة •

٨ ـ تقرير المصير القومى

لقد أصبح تقرير المصير القـومى عقيدة رئيسية فى السياسة الحديثة فجميع الأمم والأحزاب تقريبا تعترف بذلك ، نظريا على الأقل ، ولكنها تضع تفسيرات مختلفة تماما للمبدأ • وتقرير المصير يعنى أن الأمة فى ذاتها هى السلطة النهائية فى شئونها دون تدخل أجنبى ، ولما كان الاقليم مرتبطا ارتباطا وثيقا بفكرة الأمة فان ذلك يعنى الحق فى استخدام اقليم معين • ويبدو تقرير المصير بهذا المعنى العام طبيعيا للادراك العادى بحيث أن مناقشته تكاد تكون غير ممكنة ، الا من جـانب أولئك الذين يدعـون لأنفسهم رسالة مقدسة أو حق التفوق العنصرى ، أو مجرد حق القوة ، فى فرض ارادتهم على شعب آخر •والواقع أن مبدأ حق الشعب فى أرض موطنه كان معترفا به باستمرار، وان لم يطبق عمليا دائما (١)• والمفهوم الجديد مجرد تفسير جديد لمبدأ قديم •

ومطلب تقرير المصير يقــدم عادة كمطلب للحــرية .ومع ذلك فان تقرير المصير القومى ليس نفس الشىء كالحرية السياسية . فهو لاينطوى

---

(١) يقول ماثيوباريس ، برغم انه كان يميل الى العداء نحو أهل ويلز ، فى كتابه « التاريخ الانجليزى » (ترجمة جايلز المجلد الثالث ص ٢٣٨) انهم فى صراعهم ضد الاضطهاد الانجليزى بدت قضيتهم عادلة حتى لأعدائهم ، وكان العامل الذى أيدهم وشجعهم هو فكرة انهم انما يكافحون ، مثل أسلافهم الطروادين ، فى عزم وقوة جديرين بالاعجاب من أجل القوانين والحريات التى ورثوها عن آبائهم •

بالضرورة على فكرة النظام الديموقراطى ، بل مجرد الاستقلال عن التدخل الاجنبى • فالارلنديون لم تنقصهم الحرية السياسية عندما كانوا متحدين مع انجلترا واسكتلندا وويلز • بل الواقع أنه كان لهم عدد من المقاعد فى البرلمان أكبر مما يقابل نسبتهم فى السكان (١) ، كما زاد نفوذهم السياسى أكثر لأنهم كثيرا ماكانوا فى وضع يجعل فى وسعهم ترجيح احدى الكفتين بين الحزبين الكبيرين . ولم تهمل مصالحهم القومية والاجتماعية بأى حال فى العصر الحديث ، حيث بذلت الحكومة البريطانية جهودا كبرى لكسب الايرلنديين بالاستجابة الى مطالبهم فى التحسين الاجتماعى . بيد أن ماكان الايرلنديون يريدونه ليس الحكم الصالح بل حكومة قومية (٢) •

وتنطوى فكرة تقرير المصير على ثلاث مسائل :

١ ـ معيار تحديد الجنسية .

٢ ـ وسيلة تكوين الارادة القومية والتعبير عنها .

٣ ـ أغراض الارادة القومية وحدودها .

ويمكن أن يتم تحديد الأمة اما على أساس المبدأ الاقليمى أو المبدأ الاتنوغرافى • فهو اما أن يجعل الأمة هى سكان اقليم بالذات ، أو يجعلها جماعة معينة بصرف النظر عن الاقليم ولكن لها سمات اتنوغرافية معينة .

والاقليم يمكن أن يعنى دولة او مقاطعة تاريخية ، أو منطقة تتكون منها وحدة طبيعية بصرف النظر عن الحدود التاريخية . والجماعة الاتنوغرافية يمكن أن تتميز بالجنس أو اللغة والدين أو المدنية أو المهنة ، ويمكن اما الاستناد الى الأوضاع الحاضرة أو الى أوضاع عصر أسبق . والآن ، ان نتيجة الارادة القومية ، سواء أخذت عن طريق الاستفتاء أو عن طريق آخر ، تتوقف بوضوح على تحديد الجماعة التى تعتبر أمة .

وقد جرت العادة فى أغلب الحالات على الاستناد الى الأقاليم التاريخية،

---

(١) فى ١٨٨٤ كان عضو البرلمان يقابل ٤٩٥٠٠ من السكان فى ارلندا و ٥٣٢٠٠ فى انجلترا و ٦٢١٠٠ فى اسكتلندا • وفى ١٨٨٥ ارتفعت النسبة فيما يتعلق بالاسكتلنديين• انظر س• باكستون « مرجع للمسائل السياسية الراهنة » ١٩٠٣ ص ٥ •

(٢) انظر • مانسيرج « ارلندا فى عصر الاصلاح والثورة » ١٩١٠ •

وان كان الغزاة العظام مثل نابليون كثيرا ما استخدموا قوتهم فى خلق حدود جديدة تماما على أسس استراتيجية أو سياسية أو ادارية او اقتصادية • فاذا كانت هذه الأقاليم متجانسة اتنوغرافيا أيضا فان ذلك كثيرا ماعتبر حجة اضافية ، وان بدا أحيانا من المرغوب فيه أكثر ضم شعوب مختلفة فى دولة واحدة حتى يمكن الاستعانة بالواحد منها ضد الآخر • بيد أنه مع نمو قوة المشاعر الديموقراطية والقومية أثير مطلب ممارسة تقرير المصير القومى بصرف النظر عن الاقاليم • فالدول والأقطار القائمة تقسم تبعا لمعايير اتنوغرافية وتكون كل من الوحدات الجديدة عندئذ حرة فى الانضمام الى الأمم التى تحس باتصالها بها • ولكن لسوء الحظ ظهر أنه من المستحيل عمليا العثور على معيار يقبله الجميع • والمثال الكلاسيكى للصراع بين وجهات النظر التى لايمكن التوفيق بينها فى هذه النقطة هو مقدونيا (١) • ففى سنوات ماقبل الحرب الكبرى الأولى كانت هناك ست أمم تطالب بالمقدونيين أو بقطاعات منهم ، باعتبارهم منها ، وحاربت بعضها بكل سلاح فى متناول يدها • وكانت مسألة تحديد الجنسية التى ينتمى اليها المقدونيين حقيقة عقدة العقد التى يئس منها الاتنوغرافيون وصارت كابوسا بالنسبة لكل حكومات أوربا • وأقدم المطالب هو مطلب اليونانيين الذين سيطروا على الكنيسة والمدارس أمدا طويلا وما زال لهم مركز قوى فى الميدانين • ولكن العدد الأكبر من المقدونيين لا يتحدث اليونانية ، غير أن الدعاة اليونانيين يشيرون الى أن مدينتهم يونانية • وقال البلغاريون : ان الأغلبية بلغارية اللغة والعواطف • وقد جادل الصربيون فى ذلك وقالوا : ان بعض السمات المعينة فى اللهجات المقدونية ، وكذلك الادب الشعبى ، أقرب الى الصربية منها الى البلغارية • وذهب الالبانيون الى أن الأمر الجوهرى هو الجنس ، والمقدونيون يتنمون الى الجنس الألبانى الخشن لا الى اليونانيين المخنثين وقال الرومانيون : ان قطاعا معينا من السكان مرتبط بهم فى اللغة والمدنية وأخيرا ، فان للأتراك أيضا ، وكانوا حكامهم ، بعض الأقارب والاتباع بين السكان • بيد أن حجتهم الرئيسية كانت أنهم وحدهم يستطيعون توفير الحكم غير المتحيز لأى من الجنسيات المتصارعة • وقامت جميع الجنسيات بدعايات لا تنقطع تتسم بأقصى عنف وقسوة • واستخدم الارهاب والرشوة على نطاق واسع ، وبنجاح كبير أحيانا • فكثيرا ما تتحول قرية بأكملها من

---

(١) انظر • بريلزفورد « مقدونيا ، أجناسها ومستقبلهم » ١٩٢٤ •

جانب الى جانب لتتجنب التعرض للاغتيال او ، وهو أكثر ، لمكسب مادى • وقد لعبت الدوافع المثالية أيضا دورها بطبيعة الحال • ولكن كان من الواضح أن قسما كبيرا من السكان ليس لديه وعى قومى راسخ يحدد جنسيته ، فالقرية بالنسبة لهم كانت هى الأمة • وآخرون كانوا يتحدثون أكثر من لغة واحدة أو لديهم ارتباطات بأمم مختلفة فى مجالات مختلفة •

وكثيرا ما زادت مجموعة المعايير المتصارعة فى تحديد الجنسية بالقول بأن الوضع الحاضر لنسبة الجنسيات فى السكان ليس هو المهم ، بل الوضع الذى كان موجودا قبل أن تخضع البلاد لنفوذ سيطرة أجنبية • ويذهب أصحاب هذا الرأى الى أن كل أولئك الذين جاءوا بعد هذا التاريخ دخلاء لابد من طردهم أو اخضاعهم لاجراءات المصادرة ويجب استبعادهم من الاشتراك فى الاستفتاء • بيد أنه فى الحالات التى استمر فيها الحكم الأجنبى مدة طويلة يكاد يكون من المستحيل تنفيذ هذا المبدأ دون قدر كبير من التحكم والظلم •

وهناك صعوبة أخرى فى تحديد الأساس الاقليمى لأمة ما تبعا للمبادىء الاتنوغرافية وهى أنه كثيرا ما يحدث أن تعيش جنسيات مختلفة مختلط بعضها ببعض بحيث يستحيل تكوين أقاليم كبيرة دون ادخال أقليات كبيرة فيها • ويمكن طبعا من الناحية النظرية منح حق تقرير المصير لهذه الجيوب أيضا • بيد أن ذلك يؤدى الى أوضاع مستحيلة عمليا• فالدولة الحديثة والمجتمع الحديث لا يمكن بناؤهما فى اقليم صغير جدا محوط بجيران أعداء • وقد كان للدول الصغيرة فرصة أفضل للبقاء فى الوقت الذى كان التوازن الأوربى وحرية التجارة فيه ما زالا موضع التطبيق • ولكن بعد الحرب الأخيرة ضعفت هذه الفرص بسبب القضاء على توازن القوى وصعود النزعة القوميةالاقتصادية العدوانية • فضلا عن أنه يجب التأكيد على أن تقرير المصير القومى يقصد به بصفة عامة الأمم وليس شذرات من أمم • فانه يكون بالتأكيد من السخف أن يسمح لكل مقاطعة أو مدينة أو قطر بالادعاء بحق الانفصال • فان ذلك يؤدى الى عدم استقرار يشمل كل شىء والى الانحلال السياسى والاجتماعى • بيد أن هذا التحديد لحق تقرير المصير يفترض تحديد الجنسية بصورة واضحة لا نزاع حولها • فنحن لا نستطيع أن نحدد ما هو الجزء اذا لم تكن لدينا فكرة مستقرة عما هو الكل •

ان دعاة القومية الارلندية يقولون : ان ارلندا كلها تكون اقليما طبيعية

لايمكن تقسيمه • وتبعا لوجهة نظرهم يؤلف شعب الســـتر ـ الذى يعارض ثلثاه فى الاندماج فى دولة ارلندا الحرة الحاليــة ـ جزءا من الأمة الأرلندية التى لا تنقسم ومن ثم لا حق له فى ممارسة تقرير المصير الذاتى الذى لا ينطبق الا على الأمة ككل • ويقال أيضا : ان شعب الستر من أحفاد الاسكتلنديين والانجليز الدخلاء الذين استوطنوا فى ارلنــدا فى عهــود الاضطهاد • وتنبذ الستر طبعا هذه التفســيرات لتقرير المصير الذاتى وتطالب بتطبيق مبدأ الشخصية الاتنوغرافية • وموقف « ســـين فين » لا يختلف عن مطالب دعاة القومية الألمانية فى الالزاس • فهذا البلد كانت اللغة السائدة فيه دائما هى الألمانية ، وكانت مشاعره ألمانية أيضا قبل أن يضمه لويس الرابع عشر ضد ارادة الشعب • ولكن الأغلبية صارت فيما بعد فرنسية المشاعر دون اكراه مباشر • ومن ثم فان الالمان يقولون الآن : انه بالاضافة الى وحدة اللغة تعتبر الارادة الشعبية قبل الضم لفرنسا هى العامل الحاسم ، فى حين يذهب الفرنسيون الى أن ارادة السكان الأخيرة هى التى تحسم الموقف • وقامت حرب البوير بسبب مطالبة عناصر قريبة بالاستيطان بالحقوق السياسية فى الترنسفال ـ وهى مطالبة ايدتها الحكومة البريطانية • ويطالب اليهود أيضا بفلسطين على أسس تاريخية ، فى حين أن العرب ينبذون هذه الحجة • ومطالبة التشيكيين بالسيطرة فى سيليزيا، وليس فحسب فى بوهيميا ومورافيا حيث يؤلفون أغلبية السكان ، برغم أنهم أقلية صغيرة فيها (١) كانت تقوم على أساس الوحدة التاريخية الطبيعية لجميع بلاد تاج بوهيميا ، وبحجة أن الألمان استوطنوا هنــــاك فى العصور الوسطى أو بعد ذلك فى حين أن المطالبة بسلوفاكيا قامت على المبـــدأ الاتنوغرافى المضاد • وفى مملكة هنغاريا السابقة انحدرت الأقلية الصربية من لاجئين جاءوا الى هنغاريا عندما غزا الأتراك الصرب • وفى هذه الحالة لم تعترف « معاهدة الصلح » بالوحدة التاريخية والقومية لهنغاريا ، بل ضمت السكان غير المجريين الى أقاربهم طبقا للمبدأ الاتنوغرافى ، مع قسم كبير من الأقليات المجرية •

بالاضافة الى أن تحقيق « تقرير المصير الذاتى » يتوقف على أسلوب تكوين الارادة القومية والتعبير عنها • ففى العصور السابقة كانت هذه الارادة هى ارادة الطبقــات الحــاكمة الى حد كبير • فحتى اليوم تفترض

---

(١) فى اقليم سيليزيا النمساوى السابق كان التشيكيون يؤلفون ٢٤ فى المائة والبولنديون ٣٢ فى المائة والالمان ٤٤ فى المائة من السكان •

الأيديولوجيات القومية لدى كثير من الأمم الديموقراطية أنه في صراعات العصور السابقة كان النبلاء يقاتلون أساسا في سبيل القضية القومية . فتمرد البارونات الانجليز ضد هنرى الثالث بسبب تفضيله للأجانب في خدمته يبدو في عصرنا صراعا قوميا ، برغم أن البارونات أنفسهم انحدروا من الغزاة الأجانب وهوجم زعيمهم سيمون دى مونفور من جانب أعدائه على أساس أنه أجنبى ويريد الاستيلاء على السيادة في المملكة كلها ، كما يقول ماتيوباريس . والصراع من أجل استقلال ارلندا كان فيما مضى صراع الطبقات العليا الانجلوارلندية أساسا . وفي تمرد نبلاء بوهيميا ضد حكم هابسبورج في سنة ١٦١٨ كان بعض المبرزين جدا من زعماء التمرد ألمانا ، مثل تيرن وفلز ، في حين كان زعماء الحزب الامبراطورى هم التشيكيين : زدنك لبكوفيتز ومارتينتز وسلفاتا (١) .

ومع صعود الديموقراطية بدت طريقة الاستفتاء هي الطريقة السليمة أكثر فأكثر لتحقيق تقرير المصير الذاتي . ومع ذلك فان الاستفتاء لم يطبق الا في حالات قليلة بعد الحرب الكبرى الأولى . فلم يعتبر اجراء استفتاء ضروريا للتأكد من ارادة الشعب كقاعدة عامة واستخدم الحلفاء أدلة أخرى . بل ان الرئيس ويلسون رأى أنه ينبغى اعطاء سيليزيا العليا كلها لبولندا بدون استفتاء ، ولكن لويد جورج أصر على أخذ الأصوات ، وكانت النتيجة أن ٦٠ في المائة من الأصوات ذهبت الى ألمانيا . وقسم البلد بين ألمانيا وبولندا تبعا للحدودالاتنوغرافية بقدر الامكان، برغم أنه نجمت عن ذلك صعوبات اقتصادية كبيرة. وفي هذه الحالة بذلتعناية كبيرة لتأمين حرية التصويت وتخفيف عواقب التقسيم . بيد أن الاستفتاءات بصفة عامة نادرا ما أثبتت أنها أسلوب يمكن الاعتماد عليه في التأكد من الارادة الحقيقة للناس . فالتاريخ يبين أنه استخدم أساسا بواسطة الدكتاتوريين لضمان الموافقة الشعبية لاستيلائهم على السلطة أو الضم . وكان نابليون الأول والثاني ناجحين جدا في استخدام الاستفتاءات التي كانت تسفر دائما عن أغلبيات ساحقة لمصلحتهما ، كما أدخل هتلر تحسينات على أسلوبهما . وقد لعبالارهاب طبعا دورا كبيرا في استفتاءات هتلر ، ولكن تنويم الجماهير مغناطيسيا بواسطة أساليب ماهرة جدا من الايحاء كان له أكبر الأثر. فالخطابات الحماسية والمقالاتالزاخرة بالشعارات التيتدير الرءوس والاغراءات الماهرة والتهديدات المستترةوالراديو بمكبرات صوت في كل شارع واللافتات الهائلة والرموز المجسمة والدعاية

(١) آدم وولف «Geschichte Bilder aus Oesterreich» ١٨٧٨ ص ٣٠٩ .

بالسينما وسحر الجماهير وهى تسير بخطى عسكرية تهتف وتغنى وصوت الطبل الكبير والموسيقى العسكرية وسيل الأعلام والأنوار الباهرة وزئير قاذفات القنابل فى الهواء وقعقعة العربات المصفحة والمدافع فى الشوارع والاحساس بأن المرء محاط بأعين متجسسة فى كل لحظة ، ليلا ونهارا ، كل ذلك يخلق جوا تتطلب مقاومته مزيجا من الذكاء الناقد والطاقة غير العادية والاستعداد للتضحية بكل شيء •

وواضح أن تقرير المصير الذاتي يفترض سبقا ظروفا تجعل فى وسع الناس أن تكون رأيا حرا بلا ضغط أو ارهاب أو ايحاء أو تحيز أو جهل • وفى الأوقات العادية لا يوجد ارهاب والأخطاء فى الحكم السياسى يمكن اصلاحها دون ضرر كثير ، ولكن قضايا تقرير المصير تثير دائما الانفعال الى درجة كبيرة ويكون حساب النتائج عسيرا فى حالات كثيرة والأخطاء فى الحكم نادرا ما يمكن اصلاحها بطريقة سلمية •

والأمر الثالث الذى تنطوى عليه مشكلة تقرير المصير الذاتى هو أهدافه وحدوده المشروعة • فالأمة لا تستطيع تفسير هذا الحق بمعنى السلطة المطلقة فى أن تفعل ماتشاء ، على الأقل دون أن تجلب على نفسها خطر الدمار • وقد نمت فى هذه المجال عدة قواعد فى القانون الدولى ولا حاجة بنا هنا للدخول فى التفاصيل • فاعادة حكم القانون بعد هذه الحرب « الحرب العالمية الثانية » ستواجه الضرورة الملحة لتقييد السيادة القومية أكثر مما حدث فى أى وقت مضى • فتجربة التاريخ القريب المريرة لا تترك مجالا للشك فى أن فكرة السيادة غير المحدودة التى كانت تختفى وراء ستار تقرير المصير الذاتى أسفرت عن كوارث . فعندما أعاد هتلر تسليح أرض الراين بالرغم من القانون الدولى اعتبر الرأى الديموقراطى فى بعض البلاد أن ذلك له ما يبرره فى مبدأ تقرير المصير الذاتى . والآن يدرك كل الناس أنه كان الخطوة الأولى نحو هدف هتلر لاستعباد العالم • وقبل الحرب الأخيرة لم تنبذ الامبراطورية الروسية الضخمة قط التزاماتها بمقتضى معاهدة باريس بالامتناع عن تحصين جزائر الآلاند ، كما احترمت فرنسا حياد سافوى العليا الذى أقره مؤتمر فينا . ان فكرة حكم القانون تنطوى على أنه لا يحق لأحد أن يمارس حقوقه بطريقة تضر المصالح الحيوية للآخرين . فلا يحق لأحد أن يشعل النار فى منزله اذا كان ذلك من الممكن أن يدمر منازل مجاورة .

والواقع ان المرات التى أنكر فيها حق تقرير المصير كثيرا ما كانت

حجة الدفاع عن هذا الانكار على أساس أن المصالح الحيوية لأمة أخرى تصبح مهددة بالخطر اذا أقر ، وكثيرا ما أسيء أستخدام هذه الحجة فى أغراض التوسع والسيطرة . وكان أكثر هذه الحالات متعلقا بالمطالبة بحدود استراتيجية أو بطريق الى البحر أو بامتلاك موارد طبيعية . بيد أن اختراع الطائرات والمصفحات والغواصات قلل كثيرا من قيمة الحدود الاستراتيجية ، ويعتمد الدفاع الآن أولا على الامكانيات الصناعية والقوى العاملة .

ولن يكون فى وسع الأمم الصغيرة أن تقاوم معتديا قويا الا بتكتيل قواها وتكوين فدرالات واقامة حكم القانون الدولى . فالوصول الى البحر والمواد الأولية يمكن أيضا تحقيقه بوسائل غير ضم الأقاليم وانكار حق تقرير المصير .

هذا بالاضافة الى أن حق تقرير المصير كثيرا ما أنكر على أساس أن أمة أخرى اما فتحت البلد فى الماضى للمدنية أو أنها خير من يستطيع أن يفعل ذلك فى المستقبل . ويتوقف وزن هذه الحجة على عدة ظروف. وقد يكون لايقاف حق تقرير المصير ما يبرره أيضا عندما تصير أمة غير قادرة مؤقتا على تكوين ارادة قومية سليمة . وسيكون هذا هو وضع ألمانيا وبعض الدول الأخرى بعد هذه الحرب . اذ أن هتلر قد سار شوطا كبيرا فى استئصال تلك العناصر من خصومه التى يعد وجودها ضروريا لتكوين ارادة قومية ، وسيتطلب الأمر وقتا حتى تعوض هذه الخسارة . فالارادة القومية الحقيقية لا يمكن أن تتكون بواسطة كتلة متميعة غير محدودة الكيان ، اذ هى تعتمد على تكوين قومى معقد جدا لا يمكن اعادة بنائه على الفور اذا تعرض للدمار .

٩ ـ حقوق الأقليات القومية

ان البلاد التى تضم سكانا متجانسين فى الجنسية قليلة فى العالم . فكثير من البلاد فيها أقليات قومية نشيطة وبعضها فيه أقليات كامنة . ففى أوربا تعد أمم الغرب بصفة عامة أكثر تجانسا من أمم الشرق (١) ، ويرجع ذلك الى أن شرقى أوربا فى الماضى كثيرا ماتعرض لغزوات من شعوب حربية من آسيا ولحركات كبرى واختلاط فى الأجناس من ناحية ، ومن ناحية أخرى الى أن الدولة القومية نمت فى الغرب قبل

(١) انظر بصفة خاصة العرض الممتاز لهذه الظروف الذى كتبه ش.أ. ماكارتنى فى « الدول القومية والأقليات القومية » ١٩٣٤ .

الشرق بكثير ونجحت فى ادماج شعوب صغيرة كثيرة فى وحدات قومية كبيرة . وعندما حاولت الأمم الشرقية فيما بعد أن تحذو حذو الغرب بادماج أقلياتها فشلت بسبب ان كل شعب فى هذه الأثناء كان قد نمى لديه وعى قومى شديد وأن صعود المبادىء التحررية جعلت امتصاص أية أقلية كبيرة بالضغط الرسمى مستحيلا تقريبا ٠

وأفضت « معاهدات السلام » فى ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ الى تكوين عدد من الدول القومية الجديدة ، ولما كانت هذه الدول تضم أقليات قومية كبيرة فانها فرضت عليها أيضا التزامات معينة قصد بها حماية هذه الأقليات ضد التجريد من القومية ٠ وقد جاءت هذه الالتزامات ضمن عدد من المعاهدات والبيانات ، وعهد الى عصبة الأمم بالرقابة العليا على تنفيذها . بالاضافة الى ابرام بعض الاتفاقات بين دول مختلفة بهدف المحافظة على وضع أقليات معينة ٠ والواقع أن عصبة الأمم بذلت جهودا كبيرة لحماية حقوق الأقليات ، ولاشك فى أنها تركت أثرا مفيدا (١) واذا كان دورها مع ذلك قد تعرض لكثير من النقد ورئى أنه غير فعال ، فان ذلك لا يرجع الى نقص الحماسة أو الكفاية لدى العصبة ، بل للصعوبات الضخمة المتأصلة فى المشكلة ٠

وكانت حقوق الأقلية التى تضمها معاهدات الصلح مقتصرة على مجال ضيق جدا ، ولا شك أن القدر الفعلى من الحماية الذى حظيت به الأقليات مثلا فى الدولة النمساوية السابقة كان أكبر ما تضمنته المعاهدات ، وان كانت بعض الدول المنبثقة منها قد منحت أقلياتها حقوقا أوسع شيئا ما من الحد الأدنى الذى وضعته المعاهدات . بيد أن معظم الدول المنبثقة نفرت من القيد على سيادتها الذى تنطوى عليه معاهدات الأقليات ، وعارض بعضها بشدة الخضوع لأية رقابة دولية على أساس أنها لا تتفق مع استقلالها القومى ، ومن ثم حاولت التهرب من التزاماتها . بل ان بولندا نبذت علنا التزاماتها بمقتضى المعاهدة . وتذمرت الدول المنبثقة بصفة خاصة من أن الدول الكبرى لم تفرض عليها أية التزامات مماثلة لمصلحة الأقليات ٠ والواقع أن ايطاليا ارتكبت أسوأ أعمال الاضطهاد ضد الألمان النمساويين والسلوفينيين من الأقليات

---

(١) وصفت انجازات عصبة الامم وأسلوب عملها بواسطة لوسى ب٠ ماير « حماية الأقليات » ١٩٢٨ ٠ ونوقشت الاجراءات بتفصيل فى كتاب يوليوس ستون « الضمانات الدولية لحقوق الأقليات» ١٩٣٢ .وانظر كذلك و.أسوليفان مولونى «الجنسية ومعاهدات الصلح » ١٩٣٤ ٠

التى ضمت اليها بعد الحرب . ولم تخضع ألمانيا أيضا لمثل هذه القيود باستثناء فى سيليزيا العليا ، ومن ثم استطاع النازيون معاملة الأقليات بوحشية . وأخيرا ، كانت سياسة العصبة عامة تتسم بالتردد والضعف فى معاقبة التصرفات التحكمية من جانب الدول الأعضاء واصلاح الأخطاء . وكان ذلك نتيجة لابد منها لدستور العصبة نفسه ونقص أية سلطة حقيقية فيه .

ان بنود المعاهدات التى وعدت الأقليات حقوقا مدنية مساوية وتسهيلات لاستخدام لغتهم فى المحاكم وفي مدارسهم الابتدائية (ولكن ليس .. الثانوية) وما الى ذلك برغم أنها ثمينة فانها لم تمس سوى أطراف المشكلة . وحتى عندما عقدت اتفاقات خاصة منحت الأقليات أكثر من الحد الأدنى من الحقوق ، فان مركزها الفعلى ظل فى حالات كثيرة سيئا . فهى تشكو من أنها لا تحصل على نصيبها المناسب فى الخدمة المدنية ، وبخاصة فى المراكز العليا ، وأن مصالحها الاقتصادية والثقافية الخاصة تهمل أو يعتدى عليها ، وأنها لا تملك أى نفوذ سياسى ، وأن توجيه السياسة الخارجية متعارض مع عواطفها القومية، وأن كثيرين من الموظفين يظهرون تحيزا كبيرا وعداء فى معاملتهم . ولاشك أن كثيرا من هذه الشكاوى له مايبرره وأن كثيرا منها أيضا مبالغ فيه بشكل متطرف . ان العلاقات بين الأمم يسرى فيها عدم الثقة والغيرة والمحاولة المستترة أو الصريحة للسيطرة الى حد أن الأمم المتنازعة تنظر الى كل مسألة من زاوية مختلفة تماما . ومصاعب حماية الأقليات ناجمة عن أن الدول اليوم لديها سلطة السيطرة على حياة المواطن بأكملها تقريبا وأنها بذلك تملك امكانيات لا نهاية لها فى التمييز ، وأن أية حماية خاصة للأقليات تحت الرقابة الدولية تنطوى على تحديد لكل من السيادة القومية ومبدأ الأغلبية الذى يعتبر ضروريا للديموقراطية . ومن ثم فان حل المشكلة يتطلب أن تتشرب كل من الأغلبية والأقلية بروح الاحترام لحقوق الانسان وبالفهم المتعاطف كل منهما نحو الأخرى، وهو أمر مع الأسف لا يتحقق الا نادرا جدا . ان الديموقراطية من الناحية النظرية ذات اتجاه عالمى ، ولكنها ، عملا ، كثيرا ما تعجز ، حتى فى الأمم ذات التقاليد الديموقراطية والانسانية الراسخة ، عن التغلب على التحيزات والعداوات القومية . ويبدو ذلك واضحا فى معاملتها العنصرية للعناصر التى تختلف فى اللون أو التى يفترض أنها من « دم » مختلف . وهناك مثال آخر فى موقف كثير من الديموقراطيات الحديثة بالنسبة للأجانب الذين لا يؤلفون أقلية قومية ولكنهم يريدون الاستقرار

فى البلد كأفراد ليكسبوا عيشهم بالعمل الشريف وليصيروا مواطنين واعضاء فى الأمة . ان موقف قطاعات كبيرة وذات نفوذ من هذه المشاكل كثيرا ما اتسم بضيق غير عادى فى الأفق من مزيج من الغيرة الاقتصادية والعجرفة القومية . وهناك قطاعات أخرى من نفس الأمة كثيرا ما أظهرت فى نفس الوقت روحا مختلفة تماما وفعلت كل ما فى وسعها لمقاومة التحيزات العنصرية والقومية ولتتيح للأجنبى فرصة عادلة .

والأفراد الذين انبثقوا من أمة أقلية أو عاشوا بين أمة أجنبية أسهموا بنصيب كبير جدا فى صعود النزعة القومية . ففى ألمانيا كان انتشار مشاعر الوحدة الألمانية ونمو العداء نحو روسيا والسلافيين قبل الحرب الكبرى الأولى الى حد كبير من عمل الألمان من اقاليم البلطيق التابعة للامبراطورية الروسية . فألمان البلطيق كانوا يؤلفون مجموعه نشيطه جدا وحية ثقافيا ، ذات تقاليد ارستقراطية ، وقد ظلوا مدة طويلة يمدون قياصرة روسيا بضباط ممتازين كثيرين ورجال ادارة وعلماء وصناعيين . وقد حد نمو النزعة القومية الروسية من دورهم كثيرا وأدى الى اجراءات أضطهادية ضد الأقليات الألمانية . وهاجر كثيرون منهم الى ألمانيا حيث كانت لهم علاقات عائلية مع النبلاء وحصلوا على مراكز ذات نفوذ فى الجيش وفى الخدمة المدنية والحياة الثقافية . وكان نصيبهم فى اثارة النزعة القومية الالمانية كبيرا جدا . وقد قام المثقفون الألمان من الأقاليم المختلطة فى النمسا والمجر ، الذين تحدوهم ذكريات عدد لا يحصى من النزاعات المحلية مع السلافيين والمجريين ويملؤهم العداء المرير نحوهم ، بدور كبير مماثل . ان أدولف هتلر لا يمكن فهمه على أساس سليم الا كنتاج لعقلية هذه الجماعة وقد كيفت نفسها مع الطبقة الدنيا من أشباه المثقفين . وقد كان الألمان المقيمون بالخارج أيضا ، أو على الأقل قطاع كبير منهم ، من الدعاة المتحمسين بصفة خاصة للنزعة القومية ، وبجانب هتلر نفسه كان عدد كبير من أقرب معاونيه ، مثل روزنبرج وهيس وداريه ، من هذه الفئة .

بيد أن هذه الظاهرة ليست مقتصرة على الألمان وحدهم . ففى الأمم الاخرى تظهر لدى الافراد الذين يعودون الى وطنهم الاصلى بعد اقامة طويلة فى الخارج ، حيث كثيرا ما احتلوا مراكز متميزة وواجههم العداء القومى والموجة الصاعدة لشعب آخر ، كانوا قد أصبحوا ينظرون اليه على أنه أدنى . ويقال : ان كثيرين من الموظفين والضباط المتقاعدين الذين كانوا يعملون فى المستعمرات لديهم احتقار نحو الأجناس الملونة بصفة خاصة .

الفصل السابع

الخلفية الاجتماعية للنزعة القومية الحديثة

١ - الآراء المختلفة فى أسباب ظهور النزعة القومية : أثر الطبقات الحاكمة

تختلف الآراء حول أسباب صعود النزعة القومية العدوانية فى عصرنا اختلافا بينا بسبب الاختلافات فى الأيديولوجية السياسية أو فى الاتجاه الفلسفى أو الاجتماعى . والأحزاب السياسية مرغمة على تبسيط الوقائع الاجتماعية أكثر مما ينبغى وأن تنظر اليها من زاوية واحدة . وكذلك المفكرون التجريديون أيضا كثيرا ما يجنحون الى اضفاء أهمية أكثر مما ينبغى على عامل واحد . بيد أن الصعود الأخير للنزعة القومية لا يمكن ارجاعه الى سبب واحد فحسب ، والبحث الموضوعى يجب أن يدخل فى اعتباره عدة قوى كثيرة .

ان التحرريين والديموقراطيين يعـزون هذه الظاهرة الى مطامع الملوك والارستقراطيين والجنود المحترفين ، وهم يرون فى صعود النزعة العدوانية نكسة الى روح الماضى ، ويؤكدون أيضا تأثير الضائقة الاقتصادية ونقص التربية السياسية . ويشير المحافظون الى أن صعود النزعة القومية اتفق حدوثه مع هبوط الملكيات والدين وأن ما جعل فى حيز الامكان هذه الثورة الجامحة للعداوات القـومية والحروب القومية الحالية هو بالذات بعض تلك الانجازات الحديثة مثل أساليب الانتاج الحديثة والدعاية .

ويحمل الاشتراكيون الرأسمالية العبء فيفسرون المنافسات الدولية باعتبارها صراعا بين الرأسماليين من مختلف الأمم لاحتكار الأسواق ، واعتبروا شعارات الشرف القومى والوحدة القومية مجرد وسائل لتحطيم قوة الطبقة العاملة . أما دعاة القومية فانهم من ناحيتهم



يحبون وصف سياستهم بأنها تهدف الى تحقيق الحرية السياسية والاقتصادية لامتهم •

وعند مناقشة هذه الأقوال سنجد أنها جميعا تمزج الحقيقة بغير الحقيقة وأنها جميعا تبسط المشكلة أكثر مما ينبغى • ففيما يتعلق بالنزوع الى القتال لدى الحكام والطبقات الحاكمة يعطينا التاريخ فى الواقع عدة أمثلة بارزة • ففى العصور السابقة كانت الارستقراطية أساسا طبقة من المحاربين ، وكثيرا ما كان الملوك مضطرين الى شن الحروب لكى يستخدموهم فى الخارج ويمنعوهم من تدمير ممالكهم نفسها وبذلك يقضون على الوحدة القومية . بيد أن الملوك كانوا أحيانا أكثر ميلا الى القتال من الطبقات المتميزة . وبصفة عامة كان البيت المالك الجديد ، وبخاصة اذا بدأ بمغتصب للعرش ، فى حاجة الى الحروب لاستقرار حكمه وبسط نفوذه أكثر من البيت المالك القديم . لقد قال نابليون فى ١٨١٢ للسفير الأسبانى ، الأمير شوارزنبرج الذى عرض وساطته : انه لن يقبل قط صلحا مهينا لأن ذلك يقلب عرشه . لقد كان مغتصبا ويعتمد على الرأى العام • والفرنسيون لديهم خيال حى ، وكانوا يحبون المجد والاستثارة ومزاجهم عصبى . ان السبب الحقيقى فى قلب حكم البوربون على يد الثورة الفرنسية هو هزيمة روسنباخ (١) • ويرجع جزء من عدم الشعبية الذى تعرض له بيت

(١) جون هوللاندروز « نابليون الاول » المجلد الثانى الفصل ٣٣ .

سيتوارت المالك ، وأدى الى الوثرة الانجليزية ، الى سياسة جيمس الأول السلمية والهزائم العسكرية التى لحقت شارل الأول . وكان السبب الرئيسى فى سقوط لويس نابليون سنة ١٨٤٨ هو عدم رضا اليسار عن سياسة الحكومة السلمية · ويقول بسمارك فى مذكراته (١) : انه بين شعوب أوربا بصفة عامة كان أكثر الملوك شعبية هم أكثرهم ميلا للقتال، مثل شارل الثامن ملك السويد ولويس الرابع عشر ونابليون · ثم يقول : انه لا توجد حالة واحدة فى تاريخ الشعوب الأوربية رضيت فيها هذه الشعوب عن الاهتمام الدائب برفاهيتها سلما بقدر ما ارضى مجد الحرب والمعارك المنتصرة وغزو الأقاليم الأجنبية شعورها .

وقد تغيرت روح الطبقة الأرستقراطية المحاربة مع الوقت تغيرا كبيرا ، وتكيفت مع العقلية العامة فى بلاد مثل بريطانيا وفرنسا . وكان هذا هو الوضع أيضا بدرجة تزيد أو تنقص بالنسبة للجنود المحترفين، ولا يمكن أن يؤخذ رأى السلميين من أن الروح العدوانية متأصلة فى كل جيش وأسطول وأن جميع الأمم التى لم تنزع سلاحها تحدوها النزعة الحربية ، مأخذ الجد . فالجندى يميل بطبيعة الحال الى النظر للسياسة من زاوية عسكرية ، الأمر الذى يؤدى بسهولة الى النزعة العسكرية ،ولكنه من الواضح أن القوى المضادة فى الرأى العام فى بلاد مثل بريطانيا وفرنسا تأثرت بها تماما . وحتى فى ألمانيا لم تشارك الأرستقراطية كلها فى التقاليد الحربية لليونكرز البروسيين . فالمجموعات « الضخمة »من الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بأصل الحرب الكبرى الأولى تدل على أن الأغلبية العظمى من الدبلوماسيين الأرستقراطيين كانوا أصدقاء مخلصين للسلام فعلوا كل ما فى طاقتهم لمنع وقوع الحرب . وينطبق هذا حتى على ممثلى ألمانيا الرئيسيين فى بريطانيا مثل هاتزفلد وايكارد شتاين ورولف مترنيخ وليكنوفسكى .

ومع ذلك فان الملوك ومستشاريهم كان لهم دور ضخم من وقت لآخر ، حتى فى العصور الحديثة ، فى زيادة حدة التوترات القومية واشعال الحروب . فليس هناك باحث معتن للوثائق الدبلوماسية المتعلقة بالحرب الكبرى يستطيع انكار أن الامبراطور وليم الثانى يقع عليه عبء المسئولية البالغة فى العداء العميق بين الألمان والأمم الأخرى والانفجار الكبير . ولم يكن طبعا المذنب الوحيد فى ألمانيا ، ويستطيع

(١) بسمارك «Gedanken und Errinnerungen» المجلد الثالث ١٩١٩، ص ١٢٣ .

المرء أن يجادل فى أنه كان يريد الحرب حقيقة • ومع ذلك فان دوره فى حتمية اشعالها كان حاسما . ويجب البحث عن الأسباب العميقة لسياسته فى تخيلاته الشديدة ونفسيته المريضة وتأثير الأفكار القومية والعسكرية على عقله . وفى رغبته فى ايقاف التقدم السريع للروح الديموقراطية فى ألمانيا بسياسة براقة من التوسع والمجد الحربى . ومن المفيد أن نقارن موقف القيصر هذا بموقف ابن عمه القيصر نقولا الثانى الذى كان يخشى أيضا نمو القوى الديموقراطية فى امبراطوريته . لقد كان نيقولا أقل ذكاء بكثير من وليم ، ومع ذلك فقد أدرك أن الحرب قد تدعم ، الى حد كبير جدا ، الحركة الثورية وبذل كل مافى وسعه لتجنبها • وقد دلت الأحداث على أنه كان أبعد نظرا فيما يتعلق بنتائج الحرب من قيصر ألمانيا .

والرأى القائل بأن نمو النزعة القومية العنيفة يرجع الى بعض الانجازات التى يشاد بها كثيرا فى مدنيتنا ينطوى على بعض الحقيقة ، بيد أنه يجب عدم المبالغة فيه . فلا يكاد يكون هناك أى انجاز حضارى لم يسأ استخدامه فى الحرب أو فى أغراض شريرة أخرى • ومع ذلك فليس هناك بديل لذلك . وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نبين أن هناك خطرا ونحاول تجنبه ، ولكن ليس هناك انسان مالك لقواه العقلية يقترح أن ندمر كل المصانع الكيمائية لأنها قد تستخدم فى صنع الغازات السامة .

٢ – أثر الرأسمالية • الحرب والرأسمالية

هناك رأى منتشر على نطاق واسع جدا بين الناس يذهب الى أن النزعة القومية العدوانية ليست أكثر من شعار أيديولوجى للمصالح الرأسمالية الأنانية . فالرأسمالية ، تبعا لهذا الرأى ، هى التى تؤدى بالضرورة الى الحروب ، ولما لم يكن هناك من يقاتل لمجرد زيادة مكاسب المشروعات الاقتصادية الكبرى فان أقطاب المال لا بد أن يستخدموا شعارات تجتذب الجماهير مثل الأمن القومى أو المصالح القومية أو الشرف القومى . ولا يبشر بهذه النظرية الشيوعيون والاشتراكيون وحدهم ، بل انها وجدت قبولا أيضا فى دوائر واسعة من الطبقة الوسطى لا تعتبر اشتراكية صراحة ، وبخاصة بين المثقفين ودعاة السلام ، كما يحب دعاة القومية أيضا أن يستغلوا النفور العام ضد الرأسمالية • ان هتلر وموسولينى يندذان بالديموقراطيات الغربية على أنها « ديموقراطيات زائفة » أو باعتبارها أدوات لليهود

الرأسماليين مثيرى الحروب • ولكن فيما يتعلق بتحديد ما هى الرأسمالية ولماذا تؤدى الى الحرب ، وكيف تؤدى اليها ، تختلف الآراء الى حد كبير •

ويبدو أن أوضح صلة بين مصالح الرأسماليين والحرب هى حالة صناعات الأسلحة (١) • اذ يبدو جليا لمعظم الناس أن صانعى المدافع لابد أن تكون لهم أكبر مصلحة فى زيادة الطلب على المدافع وأن الدعاية من أجل الحرب هى افضل استثمار بالنسبة لهم • وهناك مجموعة أخرى من النظريات لا تقتصر فيها المسئولية على هذه الصناعة بالذات بل تحاول اثبات ان النظام الرأسمالى فى ذاته يولد الحروب • وبعض هذه التفسيرات أساسها نظرية العجز فى الاستهلاك التى وضعها الاقتصاديون فى صور مختلفة • ولب هذه النظرية هو أن الرأسمالية تعمل على تخفيض أجورالعمال الى أدنى حد وبذلك تقلل من قوتهم الشرائية أيضا . وتكون النتيجة أنهم لا يستطيعون شراء سلع كافية من المنتجين الصناعيين والزراعيين وتحدث الأزمات الاقتصادية وتنتشر البطالة • والصناعيون الذين لا يستطيعون بيع كل منتجاتهم للطبقات العاملة ذات الأجور المنخفضة فى بلادهم مضطرون للبحث عن أسواق فى الخارج ، ويثير ذلك المنافسات بين الأمم الصناعية فى سبيل أكتساب أقاليم جديدة وينتهى الأمر بالحرب . وأهم ممثل لأصحاب هذه النظرية فى البلاد التى تتحدث الانجليزية هو : ج . أ . هوبسون (٢) . بيد أن بعض الاقتصاديين استخدموا هذه الحجة لمجرد تفسير البطالة دون أن يصلوا الى حد تأكيد أن عجز الاستهلاك يؤدى الى التسابق على التوسع والحرب .

وتقدم هيلفردنج ولنين بنظرية أخرى تعزو مسئولية الحروب الى مصدرى رأس المال ، الى رأس المال المالى ، أو المصارف الكبرى وليس الى مصدرى السلع • فهما يذهبان الى أن تركيز الانتاج ورأس المال يؤدى الى تكوين مشروعات كبرى تحاول الحصول على احتكارات بتنمية انتاج المواد الحيوية فى جميع أنحاء العالم وتركيزه فى أيديها • وينتج عن هذه المحاولات تصادم بين الجماعات المتنافسة ثم الحرب فى النهاية للاستيلاء على الأقاليم الغنية بالموارد والصناعات • وهناك نظرية ثالثة تضع الثقل الرئيسى على محاولة الرأسماليين اخماد الحركة العمالية

---

(١) عالج فيليب نويل بيكر نظرية ان صناعات الاسلحة هى سبب الحرب بعناية وبطريقة مفيدة فى كتابه « صناعة الاسلحة الخاصة » المجلد الاول ١٩٣٦ •

(٢) ج•أ• هوبسون « الامبريالية » الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٨ •

فى بلادهم . فالخوف من الاشتراكية والنقابات هو الذى يدفعهم الى تأييد حركات من شأنها أن تحول أنظار الجماهير عن مصالحها الحقيقية ، وتعمل على القضاء على الحرب الطبقية باثارة الأحقاد القومية والحروب ضد الأمم الأخرى واقامة الديكتاتورية .

والواقع أن صناعات الأسلحة لابد ، حتى تبيع منتجاتها ، أن تظل على صلة وثيقة بالدوائر العسكرية العليا ويغلب أن تشارك هذه الدوائر فى اتجاهها وتؤيد سياستها الى حد معين . وصحيح أيضا أن كثيرا من الحروب كانت مصدر ثراء كبير ، لا لمنتجى الأسلحة وحدهم ، بل أيضا لموردى السلع الأخرى الضرورية للحرب وكذلك لرجال المال (١) . ولكن فى عهدنا الحالى تغيرت الظروف كثيرا ، مما يرجع بعضه الى التجارب التى تجمعت من الحروب القديمة وبعضه الى صعود الديموقراطية . فالصناعات الحربية الخالصة ليست سوى جزء صغير من صناعات أى بلد ، وما تكسبه عن طريق الحرب يقل كثيرا عما تخسره الصناعات الأخرى بسبب ظروف الحرب . فضلا عن أن معظم الأسلحة تنتجها مصانع تنتج فى نفس الوقت سلعا لا تلقى رواجا الا فى وقت السلم . ومن ثم فان مصلحتها منقسمة ، وقد تخسر بسبب هبوط الاستهلاك المدنى والاستثمار فى انتاج سلع مثل السيارات أو مواد البناء أو عربات السكك الحديدية ، أكثر بكثير مما يمكن أن تكسبه من زيادة انتاج الأسلحة . ان وقت الأرباح الكبيرة بتوريد مؤن الجيوش قد انتهى . لقد كانت ممكنة فى وقت لم تكن فيه الحكومات قد اكتسبت خبرة كبيرة فى المحافظة على مصالحها المالية ولم يكن فى وسعها ، أو لم ترد ، أن تسير شوطا بعيدا فى السيطرة على الصناعات. ان رد الفعل لدى الجماهير من فضائح مكاسب الحرب والتطور السياسى بعد الحرب الكبرى الأولى أحدثا تغييرا جذريا فى الموقف . ففى البلاد الديمقراطية اتخذت اجراءات قاسية لتقييد مكاسب الحرب الى ادنى حد ممكن بواسطة ضرائب الأرباح الزائدة وتثبيت الأسعار والحد من الائتمان لأغراض المضاربة ومنع التضخم ، وهكذا . وأوضح دليل على أن الرأسماليين بصفة عامة لا يؤمنون بالحرب كوسيلة لزيادة أرباحهم هو واقعة أن مجرد خطر قيام الحرب ، وأكثر من ذلك نشوبها فعلا ، كان يؤدى فى العهود الأخيرة الى سقوط كبير فى أسعار الأسهم

---

(١) وصف فرنر سومبارت العلاقة بين الرأسمالية والحرب بتفصيل كبير فى «Der moderne Kapitalismus» ، ١٩١٢ ، ثم فى «Krieg und Kapitalismus» فى ستة مجلدات .

الصناعية فى السوق المالية ، حتى أسعار صناعات الأسلحة ، والى فترات طويلة من الهبوط الاقتصادى العام .

وقد يعمل منتجو الأسلحة أحيانا على زيادة التوتر باستغلال عدم الثقة القائم بين بعض الأمم المعينة لحملها على شراء مدافع أو أدوات حربية أخرى كثر . بيد أن دراسة الأدلة المتاحة تدل على أن تأثيرهم فى اشعال الحروب بولغ فيه كثيرا . وما كان امتلاك الدولة لمصانع الأسلحة ليغير من الموقف فى أى شىء . ان فكرة أن زيادة الأسلحة هى السبب الرئيسى الذى يؤدى الى الحرب تنبثق من أيديولوجية تسىء فهم الدوافع الحقيقية للنزعة القومية العدوانية .

كما أن البحث التاريخى لا يؤيد الرأى القائل بأن الحروب الحديثة هى أساسا صراع من أجل الحصول على الأسواق أو على الموارد الطبيعية . لقد كانت هذه الدوافع تلعب فعلا دورا كبيرا فى اثارة الحروب فى العصر المركانتيلى ، ولكن الظروف الأساسية للتجارة تغيرت تماما منذ ذلك الوقت كما سنبين حالا . كما أن نظرية عجز الاستهلاك بصفة خاصة أماد حضتها فى جميع صورها أبحاث التحليل الاقتصادى (١) ، أو لاتؤيد هذه الأبحاث التهمة الموجهة الى الرأسمالية بل تدين النظام النقدى فحسب . وثانيا : يدل البحث التاريخى فى أصل الحروب الحديثة على أنه فى الأغلبية الساحقة من الحالات لم يكن لهذه الحروب شأن بالصراع من أجل الاسواق ، او كانت صلتها به ضعيفة جدا . ويعرض الأستاذ روبينز فى كتابه الممتاز ، المشار اليه فى الهامش ، أمثلة كثيرة تجعل ذلك الرأى واضحا تماما ، ومن السهل أن يعثر المرء على أضعاف هذه الأمثلة .

فبعد الحرب الكبرى ، وكذلك بعد بعض الحروب الأخرى ؛ نشرت جميع المراسلات الدبلوماسية والعديد من المذكرات فى البلاد التى يتعلق بها الأمر لتوضيح موضوع « جريرة الحرب » . ودراستها بعناية ضرورية تماما لاصدار حكم صحيح فيما يتصل بأسباب الحرب. ومع ذلك فان هذه الوثائق لا تنطوى على أدلة تثبت أنه كان هناك تأثير صناعى أو مالى كبير فى اشعال الحروب . وصحيح أن الحكومات اتخذت أحيانا من ضرورة حماية تجارة الصادر حجة للتسليح أو لاتباع سياسة

---

(١) ليونل روبنز « الاسباب الاقتصادية للحرب » ١٩٣٩ ، وهيللموت جوتشالك «Die Kaufkraftlehre» ١٩٣٢ .

حربية ، ولكن فى معظم الحالات كان ذلك مجرد دعاية لاكتساب تأييد قطاعات من الشعب لاتهمها سياسة النفوذ والقوة . وفى حالات المشروعات الاستعمارية الكبرى كثيرا ما كانت الحكومات هى التى دفعت فى مبدأ الأمر المصارف أو المشروعات الصناعية الى القيام بهذه المغامرات، وكثيرا ما كانت هذه المصارف والمشروعات لا تقدم عليها الا فى تردد . وكانت الدوافع الحقيقية لدى بعض الحكومات هى زيادة القوة والهيبة القوميتين وكانت المصالح الاقتصادية المزعومة مجرد أعذار . ان رجال المال والصناعيين من أمم مختلفة كانوا عادة راغبين فى التعاون بعضهم مع بعض وأن يشتركوا فى مخاطر تنمية موارد البلاد المتخلفة ، وكانت الحكومات هى التى كثيرا ما اعترضت لأسباب سياسية . وتدل الوثائق بالاضافة الى ذلك على أن كبار الماليين ورؤساء المشروعات الكبرى ، مثل آل روتشيلد (١) وكاسل وباللين وشواباخ وسيمنز وجوينر وويجاند وكايو ، كانوا ينفرون بشدة من السياسة التى قد تؤدى الى حرب ، وبذلوا ما فى وسعهم لتهدئة التوترات الدولية وتحقيق السلام .

وكانت هناك حالة خاصة هى التى دافع فيها أقطاب صناعة الحديد الالمان فى أرض الراين ووستفاليا وبعض الصناعيين الالمان الآخرين الذين كانوا يؤيدون « رابطة الجامعة الألمانية » عن سياسة تقوم على النزعة القومية العدوانية . فقد حاول الاخوة مانزمان ، بمساعدة « الرابطة » ، حمل الحكومة الألمانية على الدفاع عن حقوقهم فى التعدين فى مراكش ضد الحكومة الفرنسية ، وكان ذلك فى الواقع من المحتمل أن يؤدى الى صراع خطير . ولكن الحكومة لم تؤيدهم ووجه المستشار بثمان هوللويج تقريعا شديدا الى « الرابطة » بسبب دعايتها وذهب الى حد رفض احتجاجها . ومما له مغزى أن هيجو ستينز ، الذى كان أبرز رجال الصناعة من أنصار « رابطة الجامعة الألمانية » وقف الى جانب المستشار تماما وندد بهجماتها عليه . ويقول رئيس « الرابطة » وزعيمها ، هينريخ كلاس ، فى مذكراته : ان ستينز قال له صراحة : ان سياسته كلها القائمة على وضع الثقل على القوة السياسية خطأ . وقال : ان القوة الاقتصادية أكثر أهمية بكثير ، وكان يشترى باستمرار مناجم وصناعات فى جميع أنحاء أوربا . ولم يكن الامر يتطلب ، كما يقول ، سوى بضع سنوات من السلام حتى تحصل ألمانيا

---

(١) هـ . ايكار دشتاين «Lebenserinnerungen» ١٩١٩ المجلد الاول ص ٢٦٨ .

فى هدوء على السيطرة الاقتصادية على أوربا . وكانت الدعاية الصاخبة التى أثارتها « الرابطة » للحصول على نصيب فى موارد مراكش أمرا مزعجا . وقد اتخذ الاخوة مانزمان طريقا بدائيا واقرب الى تصرف البهائم . ولو لم تثر « الرابطة » الرأى العام فى الخارج فيما يتصل بموارد مراكش الفنية لحصل ستينز فى هدوء على المناجم ومعها مساحات كبيرة من الأرض (١) . وقد انزعج كلاس طبعا لهذا التقريع ، وقال : ان هذا الموقف كشف عن أن المرء يستطيع أن يصير أكبر تاجر وأنجح رجال الصناعة فى ألمانيا بحيث يتفوق على الآخرين بشوط كبير ومع ذلك تنقصه قدرة الحكم فى الشئون السياسية تماما . والواقع أن هذه الواقعة ذات مغزى كبير ، وان كان ذلك فى غير المجال الذى يعنيه كلاس . لقد كان ستينز من أنصار الجامعة الألمانية وأيد فى أثناء الحرب خطط الضم . ولكنه كان منظما صناعيا ذا تجربة واسعة أكثر منه داعية قوميا ، ولهذا السبب كانت عقليته تختلف تماما عن عقلية الداعية القومى العادى الذى يعتقد أن الوسيلة الوحيدة لدعم المصالح القومية هى التهديد باستعمال العنف . وقد ظهر ذلك بدرجة كبيرة عند أصحاب المصارف الذين كانوا أقل تأثرا بفكرة الجامعة الألمانية . وقد ذكر أحد وزراء الخارجية الألمان : « بمجرد أن تذكر مراكش تقوم المصارف على الفور باضراب » .

وقد ساعد كثير من أعداء بريطانيا بصفة خاصة على نشر الاعتقاد بأن السبب الأساسى فى الحروب هو صراع مصالح الرأسماليين ، وقد أرادوا بذلك اخفاء جشعهم وتلهفهم على الغزو بوضع المسئولية على عاتق الجانب الآخر . والحجتان التقليديتان اللتان استخدمتا مئات المرات هما : الحسد المزعوم من جانب انجلترا نحو منافسيها وحرب البوير . وقبل الحرب الكبرى الأولى كان دعاة القومية الألمانية هم الذين استخدموا بلا تورع هاتين الحجتين ، وان لم يكونوا وحدهم فى ذلك . كما أن السياسيين الانجليز الذين عارضوا سياسة شمبرلين وضعوا الثقل هم أيضا على فكرة أن أصل حرب البوير المصالح الرأسمالية . ومع ذلك فان الحركة ضد حكم القلة الذى أقامه كروجر لم يكن العامل الأول فيها من عمل الرأسماليين . فالزعماء كانوا فى أول الأمر من الطبقة العاملة وهاجموا الرأسماليين الذين ظلوا بمعزل عن

(١) هاينريخ كلاس «Wider den Storm. Vom Werden und Kacksen der Nationalen Opposition in Alten Reich» ١٩٣٢ ص ٢١٧ .

الحركة . وقد تغير هذا الوضع فيما بعد بتدخل سيسل رودز الذى حمل بعض أصحاب المناجم على تأييد الحركة ، فى حين ظل غيرهم محايدا ، بل ان بعضهم اتخذ منها موقف معاديا . ووصف رودز بأن دوافعه الأساسية رأسمالية هراء . ان الحرب فى الحقيقة كانت صراعا بين حركتين قوميتين تسعى كل منهما الى السيطرة (١) . وأسطورة أن الحسد التجارى من جانب بريطانيا هو السبب فى الصدام بين ألمانيا وانجلترا لا أساس لها أيضا من الصحة . وقد تناولت هذا الموضوع بتفصيل فى كتاب آخر (٢) ، وأثبت أن هذه الأسطورة لا تتفق مطلقا مع الوقائع . وبعد الحرب الكبرى نبذت هذه الأسطورة حتى من جانب المؤرخين الألمان .

وهناك قدر أكبر من الحقيقة فى حجة أن أصحاب الأعمال ايدوا الحركات الفاشية ماليا لتحطيم قوة العمال المنظمين ، بيد أن ذلك لا يثبت أنهم كانوا يريدون الحرب : ولعل الرأى القائل بأن هتلر هو مجرد اداة الرأسماليين الذين أيدوه ماليا لأغراضهم الاقتصادية هو أكثر الآراء انتشارا فيما يتصل بأسباب النازية . ومع ذلك فان هذا الرأى خطأ تماما . انه يخفى الطبيعة الحقيقية للحركة ويجنح الى أن يؤدى الى موقف سياسى من شأنه اضعاف الكفاح ضد النزعة القومية والفاشيه . فبرغم أن هتلر كان شغوفا دائما بعقد صلات مع الأغنياء الذين كان يحصل منهم على نقود (٣) فانه لم يكن ألعوبة فى يدهم قط ، كما ان تمويل حزبه لم يكن وقفا عليهم . فالقسم الاكبر من الأرصدة التى كانت تتطلبها حملة الدعايات الضخمة كان يجىء من أعضاء الحزب نفسه وبتأثير هتلر كخطيب ومنظم سياسى . ففى ١٩٣١ كان الحزب يضم ٨٠٠ر٠٠٠ عضو مسجل كان كل منهم يدفع على الاقل ١٢ ماركا فى السنة ، كما كان الحزب يحصل على مبالغ ضخمة اخرى من بيع الكتب والصحف « وتذاكر » الاجتماعات . ومعذلك فان الحزب كاد يفلس فى ١٩٣٢ ، وقدرت ديونه بمبلغ ١٢ مليون مارك . وفى هذا المأزق

---

(١) وتوجد الأدلة على ذلك فى كتاب ادوارد كوك « الحقوق والاخطاء فى حرب الترنسفال » ١٩٠٢ ص ٢٥٠ ، وكذلك فى كتابى
«Recht und Unrecht im Boerenkriege»
الذى عارضت فيه تشويه أنصار الجامعة الالمانية لاسباب الحرب بهدف اعداد الشعب الالمانى للصراع مع بريطانيا .

(٢) ف . هرتز «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ المجلد الاول ص٢٦٢ .

(٣) كونراد هايدن «هتلر» (ترجمة انجليزية) ١٩٣٦ ص ١٠٠ و ٢٣٢ — ٢٤١ .

بذل هتلر جهودا جبارة لاجتذاب رجال الصناعة للحصول على مساعدات مالية على نطاق واسع . وكان وسيطه هو أوتو ديتريش ، الذى كانت له صلات قربى بأقطاب الحديد والفحم وكان قد قدمه فعلا الى بعضهم . ويعطينا ديتريش وصفا شائقا للطريقة التى اجتذب بها هتلر رجال الصناعة (١) . وكما يقول : رفضت الأغلبية العظمى منهم قبل ١٩٣٢ أن يثقوا فى هتلر وتمسكوا بنظام جمهورية ديمار . وفى ٢٧ يناير ١٩٣٢ ، عقد النادى الصناعى فى دسلدورف اجتماعا القى فيه هتلر خطابا . وكان معظم الأعضاء قد جاءوا الاجتماع لمجرد حب الاستطلاع وبروح الشك ، وفى البداية كانت الاغلبية الكبرى تنظر باستعلاء وبتحفظ فى برود . « واستقبل هتلر استقبالا فاترا » ، ولكن الاجتماع بدأ يأخذ طابعا آخر بعد ذلك . فقد قارن هتلر بين مثالية الشباب الألمانى وأنصاره من العمال وانكارهم لذاتهم بمادية البورجوازية الثرية وعدم تفهمها للأمور . وفى النهاية ، كما يقول ديتريش ، « نجح هتلر فى اختراق درع اقطاب صناعة المانيا الغربية » ، وكانت النتيجة مماثلة فى اجتماعات تالية عقدت فى أماكن أخرى . بيد أن هايدن يؤكد عن ثقة أن ثلث المستمعين فحسب أبدوا موافقتهم . أما الأغلبية فقد ظلت عازفة أو سلبية (١) . وأيا كان الأمر فان هتلر منذ ذلك الوقت تلقى مساعدات مالية ضخمة من منظمات أصحاب الأعمال . فقد أعطاه فرتيزتيسن ، أكبر أقطاب الحديد وأغنى رجل فى المانيا — وكان من انصاره المتحمسين — مبالغ وصل مجموعها الى مليون مارك فى عدة سنوات ، كما أن بعض الصناعيين الآخرين أعطوه مبالغ ضخمة (٣) . فقد أسهمت اتحادات أصحاب الأعمال فى رصيد جمعه هوجنبرج ووضع خمسه تحت تصرف هتلر . وكان مجموع ما تلقاه النازى من الصناعة الثقيلة ، كما يقول يتسن ، حوالى مليونى مارك سنويا الى جانب بعض المساهمات الأخرى فى أغراض خاصة .

وقد أرضى هتلر توقعات بعض رجال الصناعة بأن قضى على النقابات والاشتراكيين وادت سياسته الاقتصادية الى زيادة نصيب الأرباح فى الدخل القومى فى حين ظل نصيب الأجور ثابتا تقريبا (٤) . بيد أن الأرباح كانت أساسا من نصيب صناعات الأسلحة ، فى حين

---

(١) أوتو ديتريش « مع هتلر فى الطريق الى السلطة» ١٩٣٤ .

(٢) كونراد هايدن «Geburt des Dritten Reichs» ١٩٣٤ ص ٤١ .

(٣) فرتزيتسن « دفعت لهتلر » ١٩٤١ ص ١٣٣ .

(٤) س. جيللبود « انتعاش ألمانيا الاقتصادى » ١٩٣٩ ص ٢٤٤ .

ظل انتاج السلع الاستهلاكية متخلفا جدا . ولكن سياسة هتلر الاقتصادية فى المدى الطويل اغضبت رجال الصناعة الى حد كبير جدا . وقد هرب يتسن الى فرنسا وهاجم النظام النازى بشدة فى مذكراته . وانتهى الى أن هذا النظام دمر الصناعة الألمانية (ص١٨٨) ، وهو يؤيد رأيه بأدلة كافية .

ومن ثم فان الوقائع التاريخية تثبت أن هتلر تلقى معونات كبيرة من رجال الصناعة الأغنياء أنقذته من مشاكل مالية كبيرة ودعمت قوته الضاربة . ولكن هذه المعونات أعطيت عندما كانت حركته قد صارت فعلا أكبر حزب سياسى فى ألمانيا كما ظهر فى انتخابات سنة ١٩٣٢ . وواضح أن كثيرين من رجال الصناعة اعتقدوا أن المراهنة على الحصان الرابح صفقة طيبة . أما معظم المال الذى جعل فى وسع هتلر أن يفوز فى السباق من أجل السلطة فجاء من الجماهير . ويبين كونراد هايدن، الذى كتب أفضل تاريخ لصعود هتلر (١) ، أن موجة عاتية من مناهضة الرأسمالية والمشاعر الاشتراكية هى التى حملت هتلر الى مقاعد السلطة . فقد استغل هتلر بمهارة كل من قوى الاشتراكية والرأسمالية، ولكنه لم يقع أسيرا لأى منهما . ويستطيع المرء أن يقول : انه خان الرأسمالين والاشتراكيين من أنصاره وقادهم فى طريق لم يتوقعوه ولم يريدوه ، وأن كانت أعداد كبيرة من القطاعين أدارت انتصاراته التى لم يكن لها مثيل رؤوسها وجرفها التيار .

ان رجال الأعمال المتزنين وبعيدى النظر كانوا يدركون عادة أنه ما من شيء أخطر على مصالحهم من السياسة العسكرية . ففى ظروف وقتنا لا تلبث مكاسب الحرب أن تتبدد ، فهى وهمية الى حد كبير ، فضلا عن أن كل حرب تنطوى على احتمال أن النصر له ثمنه فى شكل تنازلات ، للطبقات العاملة وأن الهزيمة قد تؤدى الى ثورة اجتماعية (٢) . وقد دفعت هذه الاعتبارات الطبقات المحافظة والرأسمالية فى بريطانيا وأمريكا

(١) ك. هايدن «Geburt des Dritten Reichs» ص ٣٨ و ٤٨ و ٨٨ و ٢٣٣ .

(٢) قال وزير خارجية ألمانيا كيدرلن واشتر فى حديث سرى ١٩١٠ ان من الاسباب التى تجعله ضد الحرب تماما هو ان النصر كان دائما من صنع الشعب الذى يجب أن يتقاضى الثمن بتوسيع حقوقه . فقد اضطرت ألمانيا أن تدفع ثمن نصر ١٨٧٠ بمنح حق الانتخاب العام ، وأى نصر جديد سيجلب الحكم البرلمانى الذى يعتبره ضررا لا يعوض. انظر كيدرلن واشتر «Briefweschsel und Nachlass hsg. von E. Jackh» ١٩٢٤ ص ٢٣٤ .

فى السنوات الأخيرة قبل الحرب العالمية الثانية الى تأييد سياسة التهدئة والانعزالية بأى ثمن تقريبا وحتى آخر لحظة ممكنة • وكان هتلر يعرف جيدا أنه يستطيع الاعتماد على خوف كل من الرأسماليين والطبقات العاملة فى البلاد الديمقوقراطية من الحرب . وهناك أيضا أمثلة كثيرة لرأسماليين كبار ، مثل : كارنيجى وروكفلر ونوبل وروودز ونفيلد وروزنوالد ، اقتنعوا بأن السلام العالمى هو الضرورة الأولى للتقدم والمدنية ، وقدموا معونات سخية لمؤسسات تعمل لهذا الهدف أو ساعدوا أنشطة هذا هدفها • و « جمعية الاصدقاء » التى تنادى بالسلام الى حد متطرف تضم أيضا عددا كبيرا من رجال الصناعة الأثرياء جدا •

ولاشك أن هذه الجماعات المختلفة من الرأسماليين المحبين للسلام أكثر من ذوى النزعة الحربية بينهم •

أما موضوع ماذا كان النظام الاقتصادى الحاضر ، وهو رأسمالى جزئيا فقط ، يدعم بصورة غير مباشرة ولا واعية نمو القوى التى تهدد السلام فهو موضوع مختلف تماما . فنظام الحماية المتطرف السائد فى وقتنا لاشك أنه يسهم فى اثارة النزاعات الاجتماعية والبطالة على نطاق واسع وهما اللذان مهدا السبيل لهتلر • بيد انه ليس من الاكيد مطلقا ان هذه الظواهر ترجع أساسا الى الرأسمالية ، كما أنها لا توجد فقط فى البلاد الرأسمالية • فالاتحاد السوفيتى يقيد الواردات والهجرات أكثر منها ، وليس خاليا من البطالة المقنعة .

ووجهة النظر القائلة بأن النزعة القومية العدوانية والحروب .. مصدرها الوحيد هى الرأسمالية جعلت الناس يغفلون عن القوى التى تؤدى الى الحرب حقيقة . فكثير من الاشتراكيين مثلا لم يصدقوا أن خطر النزعة القومية يمكن أن تنتقل عدواه الى الطبقات العاملة ، وكانوا على ثقة من أنها فى مأمن من شعاراتها بحيث لم يروا من الضرورى ان يتخذوا الاحتياطات الضرورية .

٣ ـ العلاقة بين النزعة القومية والديموقراطية والتحررية والاشتراكية :

ان روح التحررية (الليبرالية) والديموقراطية والاشتراكية دخلت عليها مع الوقت تغيرات كبرى • فالديموقراطية لم تكن قديما تحررية وعالمية ومحبة للسلام ، بل كانت متعصبة وقومية عدوانية • وكانت

اشتراكية افلاطون والفلاسفة الآخرين ارستقراطية . والأصل القديم للتحررية هو «الرواقية» ، وكانت الرواقية عالمية وعقدت آمالها على الروح المستنيرة للحكام المطلقين فى الامبراطوريات العظمى . والأسباب الرئيسية لهذه الاختلافات بالمقارنة بوقتنا هى أن الاغريق والرومان لم تكن لديهم أوضاع تقارن من أية ناحية بالتصنيع والتجارة العالمية ، وأن روحهم الدينية كانت مختلفة . وترجع نزعة السلام التى تنطوى عليها الديموقراطية الحديثة ، واعترافها بحقوق الانسان التى لاتنفصم عنه ، أساسا الى تأثير المسيحية والنمو الاقتصادى الحديث . فقبل الثورة الفرنسية كانت التحررية تتسم بطابع أرستقراطى وعالمى ، ولكنها صارت فيما بعد حركة الطبقة الوسطى تحدوها الاتجاهات الديموقراطية وانغمست فى مذهب « الأمة » والاشادة الرومانسية بالفردية القومية . ففى القرن التاسع عشر ارتبطت الحركات التحررية والديموقراطية والقومية بعضها ببعض بصورة وثيقة (١) وقام تحالفها على أساس عدائها المشترك نحو الامبراطوريات الاوتوقراطية التى تحكم عدة جنسيات مختلفة وضرورة مقاومة قوى «الفردية» السياسية التى كانت تهدد بأن تؤدى الى فوضى . فقد كانت الملكيات القديمة تقوم على دعامة الولاء للأسرة المالكة الذى يستمد مشروعيته من الدين ، ولكن مع هبوط هذه القوى أصبح الأمر يتطلب ولاء جديدا . وصارت الجنسية « دينا » . وآمن التحرريون والديموقراطيون بأن كل أمة تتحرر من السيطرة الأجنبية وتؤلف دولتها القومية الخاصة بها ستكون محبة للسلام والتسامح ، وأن انتصار مبدأ الجنسية سيفتح عهدا جديدا من الحرية والاخاء والمساواة . وكان ظهور الاشتراكية ينطوى على تغيير جديد فى الأيديولوجية اذ احتل مبدأ التضامن الطبقى مركز الأولوية بالنسبة للتضامن القومى ، ولكن فى السياسة العملية استمرت الاشتراكية الديموقراطية الى حد كبير فى تقاليد الديموقراطية التحررية فيما يتصل بالجنسية .

وبرغم أن الديموقراطية الحديثة تعارض العدوان والغزو ، فانها حبذت الحرب دفاعا عن الديموقراطية أو التحرير القومى . فضلا عن أن الثورة الفرنسية لجأت الى الحرب لكى تحول دون هبوط الروح الثورية . فقد أراد اليعاقبة الحرب كأداة للدعاية والاثارة ، ولكن حروب التحرير التى قاموا بها سرعان ماتحولت الى حروب غزو . وقد سيطر

---

(١) ج . فيل «L'Europe du XIXe siècle et l'idée de nationalité» ١٩٣٨ .

التقليد اليعقوبى على الفكر الديموقراطى فى فرنسا وغيرها أمدا طويلا . ويعد لويس بلان نموذجا لهذا الاتجاه ، وهو أحد الاشتراكيين المبرزين فى ثورة ١٨٤٨ ، وكان يدعو الى شن حروب لاشعال الثورة فى أوربا وكذلك للغزو على نطاق واسع . ووجه نقدا شديدا لاتجاه لويس فيليب والسياسيين البورجوازيين السلمى ، وتبدو دعوته الى الحرب مثل عبارات الشوفينيين المسعورين وان كان يستعمل حججا ديموقراطية واشتراكية (١) .

وعقد مؤسسو الاشتراكية الألمانية : ماركس وانجلز ولاسال وليبنخت وغيرهم ، أملهم على حروب كبرى تؤدى الى هزيمة روسيا والدول الرجعية الأخرى عسكريا وتتيح لهم فرصة اشعال الثورات . فكانت أفكارهم كلها عن السياسة الدولية تهدف الى قيام مثل هذه الحروب . ولم يعترف ماركس بحق كل أمة فى تقرير مصيرها ، وكان رأيه فى كل امة بذاتها يتوقف على قدرتها فى دعم الثورة العالمية . ولما كانت معظم الشعوب السلافية فى الامبراطورية النمساوية تبدو له مؤيدة للمحافظة والرجعية ، فانه تحدث عنها بازدراء شديد وأنكر عليها حق تقرير المصير القومى . وقد تقدم كل من ماركس ولاسال أحيانا بأفكار تشبه الى حد كبير أفكار الجامعة الألمانية وان كانت دوافعهما مختلفة . وكذلك الراديكاليون الايطاليون والسلافيون كثيرا ماجمعوا فى مذاهبهم بين الأفكار الديموقراطية والاشتراكية والقومية وبشروا بحروب عدوانية وتوسعية . وفى الحروب بين الولايات المتحدة وبريطانيا (١٨١٢) وبينها بين أسبانيا (١٨٩٨) لاشك فى أن الديموقراطية الأمريكية كانت هى المعتدية .

وبرغم أن الديموقراطية الحديثة تحدوها الرغبة فى السلام ، وبرغم ايمانها بالمساواة بين الأمم ، فانها مع ذلك أسهمت بطرق كثيرة فى صعود النزعة القومية العدوانية . فالعقيدتان الرئيسيتان فى الديموقراطية هما : سيادة الشعب والمساواة ، وقد أدى كلا المذهبين الى مذهب السيادة المطلقة للدولة الذى يشجع صعود النزعة القومية . وكثيرا مابدا للديموقراطيين والاشتراكيين ان مطلب التحرر من تدخل الدولة بمثابة

(١) يعرض كارل كاوتسكى موقف الديموقراطية والاشتراكيين من الحرب والجنسية بعناية ويناقشه فى كتابيه المهمين «Krieg und Demokratie» ١٩٣٢ و «Sozialismus und Krieg» ١٩٣٧ .

المطالبة بوضع متميز ، ومن ثم فهو مناقض لكل من سيادة الشعب والمساواة • بالاضافة الى ان العمل على تحقيق المساواة كثيرا ما كان مغالى فيه الى حد أن نتائجه بدت لخصومه نوعا جديدا من عدم المساواة ، مثل محاولة تجاهل التفاوت المفروض أن جذوره متأصلة فى حقوق الفردية وفى التكوين الوظيفى للمجتمع • وكثيرا ما أدت الاتجاهات التى تعمل على القضاء على التفاوت الى صراعات عنيفة بين الطبقات والى تفكك الوحدة القومية ، ويجعل ذلك عادة فى وسع الحاكم الطموح أو القائد أو الزعيم الديماجوجى أن يستولى على السلطة العليا ويصير دكتاتورا باثارة الانفعالات القومية ضد الأمم الأجنبية وباستخدام الحروب أداة لاعادة الوحدة القومية •

وتتطلب الديموقراطية والاشتراكية مساواة الأفراد فى مجتمع معين ، ولكنهما تتراجعان عادة عن توسيع هذا المطلب ليسود فى العلاقات الدولية ، أو تقتصران على تقديم مقترحات ليست فعالة أو مستحيلة التحقيق . والواقع أن هناك تفاوتا ضخما بين الأمم ، وهو يرجع الى حد كبير اما الى الغزو أو الى النمو الاقتصادى فى الصورة الرأسمالية . وليست الطبقات العليا فى الأمم المالكة هى وحدها المستفيدة من هذا التفاوت ، بل ان الأمم ككل هى التى تتأثر بكون بعضها يملك أرضا وافرة ورأسمال وموارد طبيعية وبعضها لا يملك الا النزر اليسير ، وبأن بعضها متقدم فى المدنية وبعضها متخلف ، بأن بعضها دائن والبعض مدين • وفى عصر التحرر لم يعتبر هذا التفاوت ضارا فى نظر الرأى العام فى معظم الأمم • فالتحرريون لم يحقدوا على أمة لأن ثروتها أكبر أو انها اكثر تقدما فى مضمار المدنية ، او على الأقل لم يعتبروا مثل هذا التفاوت سببا مشروعا لاتباع سياسة عدوانية • بالاضافة الى أن بلادا كثيرة كانت مفتوحة ، بدرجة تزيد أو تنقص ، للاجانب الذين يريدون بيع سلعهم أو الحصول على عمل . وكان من نتيجة هذه الاوضاع أن بريطانيا ، التى كانت فى ذلك الوقت متفوقة على جميع الأمم الأخرى فى الثراء والاتساع الاقليمى وحرية التجارة ، صارت محل عطف الكثيرين ، وان كان الشعور بالتنافس موجودا فى بعض البلاد . وزاد هذا الشعور بالتدريج مع صعود النزعة القومية لدى الأمم الأجنبية وداخل الامبراطورية البريطانية نفسها ، كما دعمه أيضا موقف الاشتراكيين من الرأسمالية الانجليزية • فماركس وانجلز مثلا كثيرا ما صوروا انجلترا على أنها أمة رأسمالية تستغل كل الأمم

الأخرى وتحط من قدرها بحيث تصل الى مرتبة البروليتاريا (١) . وأشارا أيضا الى أن الطبقة العاملة الانجليزية استفادت من هذا الوضع، ومن ثم صارت غير مهتمة بالاشتراكية فترة ، وان كان ذلك سيتغير عندما يهبط العمال الانجليز أيضا الى مستوى منخفض بفعل التطورات التالية للنظام الرأسمالى . بيد أن ماركس وانجلز لم يرجعا ذلك الى امتلاك انجلترا للمستعمرات ، ولم يهتما باعادة توزيعها . فهو فى نظرهما يرجع الى ان انجلترا كانت رأسمالية أكثر من أى بلد آخر فى العالم . ولم يدع ماركس او الديموقراطيون الاشتراكيون الألمان قط الى استخدام القوة لتحرير الأمم البروليتارية من «الاستغلال» الانجليزى . فهذه الحجة استخدمها فيما بعد دعاة القومية الألمانية وغيرهم ممن رفضوا الاكتفاء بالفرص الاقتصادية التى اتاحتها سياسة « الباب المفتوح » البريطانية ، ونددوا بالامبراطورية البريطانية باعتبارها احتكارا اضطهاديا . ووصف الفاشيون صراعهم ضد بريطانيا فى عبارات الصراع الاجتماعى بوصفه قومة الأمم البروليتارية التى لا تملك ضد الأمم الرأسمالية التى تملك وكانت هذه الحجة طبعا مجرد شعار للدعاية فى الحقيقة ، وان كان شعارا فعالا جدا . واذا سلمنا بأن عدم المساواة فى الثراء يبرر تجريد الاغنياء، بصرف النظر عن الطريقة التى حصلوا بها على ثرواتهم أو الغرض الذى يستعملونها فيه (٢) ، فان كثيرا من الناس سيجدون من الصعوبة بمكان أن يفهموا لماذا لايجب أن يطبق هذا المبدأ على العلاقات بين الأمم . وقد دعا بعض ذوى النوايا الطيبة الى فكرة جعل المستعمرات دولية وبذلك تضمن المساواة فى الفرص لجميع الأمم . ولكن هذه الخطة لاأمل فى نجاحها مطلقا فى عصر النزعة القومية ، فهى لن تنجح ولن ترضى دعاة القومية ، كما أنها ستضر بحق السكان الوطنيين فى الحكم الذاتى . وعدم المساواة فى امتلاك المستعمرات هو مجرد شكوى واحدة من شكاوى دعاة القومية ، وفى كثير من حالات الصراع لادور لها مطلقا . ففى صراعات قومية كثيرة ، كصراع الارلنديين والهنود وأمم وسط وشرقى أوربا المختلفة مثلا ، تتهم كل أمة الأمة الأخرى بأنها رأسمالية مستغلة وأنها حصلت على مركزها بالغزو والاضطهاد . فالهندوس فى الهند يستخدمون

---

(١) انظر أقوال انجلز وماركس فى هذا الصدد فى كتاب هينريخ جونو «Die Marxsche Geschichts Gesellschafts und Staatstheorie» ـ ١٩٢١ المجلد الثانى ص ٢٥ . ويتضمن هذا الكتاب أيضا عرضا طيبا لأفكار ماركس وكبار الماركسيين عن الجنسية .

(٢) صاغ ت.هـ. هكسلى هذه الحجة فى صورة ماهرة . انظر مورلى المجلد الثانى ٢٦٣ .

هذه الحجة ضد البريطانيين ، ولكن المسلمين الذين يكافحون ضد ادعاء الهندوس بحق السيطرة فى الهند كلها ، والذين يريدون دولة اسلامية مستقلة ، يتهمون الهندوس بأنهم مغتصبون رأسماليون يعيشون على جهد الفلاحين المسلمين الفقراء (١) .

وفى العهود الأخيرة صارت الحركات الديموقراطية والاشتراكية تنفر من الحروب الثورية . ويرجع بعض السبب فى ذلك الى أن نمو الحرية السياسية أحرز تقدما كبيرا نحو المساواة الديموقراطية التى استبعدت دوافع الثورة . ومن ناحية أخرى حدث تغيير كبير فى الزعامة. ففى العهود الماضية كان زعماء الديموقراطية والاشتراكية من المثقفين الذين كان معظمهم من تلامذة روسو وفيخته وهيجل ، وكانت ميولهم الثورية راجعة الى خلفيتهم الثقافية والاجتماعية . ولم يكن بين مؤسسى الاشتراكية الحديثة بصفة خاصة أى بروليتاريين تقريبا . فقد كان معظمهم من الطبقات العليا . وبعد ذلك نمت النقابات والتنظيمات العمالية الأخرى . وصعد عدد كبير من العمال أو العمال السابقين الى مراكز الزعامة فى الحركة العمالية . وكانت هذه الطبقة الجديدة من الزعماء تتسم بالامانة وحسن التدريب والكفاية ، وليست لها مصلحة فى النشاط الثورى وان كانوا كثيرا مايتشدقون بالمذاهب الماركسية . وكانوا قبل كل شيء سلميين تماما ويدعون الى السلام والعالمية . وموطن الضعف فيهم أنه لم يكن لديهم فهم كاف لقضايا السياسة الدولية وسياسة القوة ، وهم يكرهون النزعة العسكرية والنزعة القومية ويعتبروهما مجرد ستار للمصالح الرأسمالية أو الأرستقراطية التى لايمكن أن تغزو مطلقا جمهرة الناس ولاتستطيع أن تنافس قوى الديموقراطية . وعندما حدث تهديد بخطر الحرب كانوا مقتنعين بأن عمال البلاد التى يتعلق بها الأمر سيضربون ويجعلون الحرب مستحيلة .

وقد ظهر عدم واقعية هذه الاتجاهات فى سنة ١٩١٤ عندما استخدم العسكريون الالمان فجأة الصراع النمساوى الصربى لجر أوربا الى الحرب ،

---

(١) ان العداء نحو السامية الذى تتسم به جميع الحركات القومية العنيفة كثيرا ما يساق في الدفاع عنه أيضا حجج الحرية الاجتماعية والمساواة . وقد أعلن الحزب الديموقراطى الاشتراكى فى ألمانيا فى مؤتمر كولونيا سنة ١٨٩٣ ان العداء للسامية منبثق من الثورة ضد الرأسمالية. بيد أنها ثورة سارت في الطريق الخطأ . وقال زعيم بارز من الزعماء الاشتراكيين فى مناسبة أخرى ان العداء نحو السامية هو اشتراكية البلهاء .

وفى ٢٥ من يولية احتج الحزب الديموقراطى الاشتراكى فى بيان قوى جدا ضد سياسة الحرب التى اتبعتها الحكومة النمساوية ووصفوها بأنها وحشية مثيرة واجرامية . وطالبوا بأن تستخدم الحكومة الألمانية كل نفوذها من أجل السلام ، وأن تمتنع عن الاشتراك فى هذه الحرب الشائنة اذا نشبت وكان هذا الموقف مخلصا تماما . ومع ذلك فان الديموقراطيين الاشتراكيين صوتوا بالاجماع فى ١٤ من أغسطس الى جانب أعتمادات الحرب فى البرلمان (١) . وكان السبب الأساسى فى هذا التحول هو أن الحكومة أقنعت الشعب بمهارة كبيرة بأن روسيا هاجمت ألمانيا فجأة وبخيانة . وكان ذلك كذبا ، ولكن الحيلة نجحت تماما .

وكانت النتيجة انفجار هائل للانفعال الشعبى حمل موجته الاشتراكيون فى البرلمان . فقد رأوا فى أذهانهم بلادهم وقد اجتاحها العدو وبيوتهم وأسرهم تحت رحمة عدو قاس يكرهه جميع الديموقراطيين لطغيانه . ومن ثم فان الخطأ الأساسى من جانب الزعماء أنهم لم يقاوموا وقع هستيريا الجماهير ، ومن الناحية الأخرى واضح ان جماهير الشعب كانت غير قادرة بتاتا على معرفة الحقيقة والتصرف على هديها فى تلك اللحظة الحرجة . فالأغلبية الساحقة لم تهتم أى اهتمام بالشئون الدولية ولم تكن لديها أية فكرة عن حقيقة الموقف . وحتى معظم الزعماء الديموقراطيين كانوا جاهلين الى حد ما فى هذا المجال وتأثر بعضهم بعدوى النزعة القومية . فضلا عن أن رجل السياسة الديموقراطى المتوسط نشأ على الاعتقاد بأن الشعب على حق دائما ، وأن واجبه ببساطة هو أن يفعل مايريده الشعب ــ وفى الأوقات العادية ليس فى هذا الوهم خطر كبير لأن أخطاء الرأى العام يمكن نقدها بجميع وسائل المناقشة العامة وبذلك تنتشر الآراء الصائبة قبل فوات الأوان . ولكن فى تلك اللحظة كان ذلك مستحيلا حيث كانت الحكومة تملك قوة اخماد كل نقد . بيد أن المسئولية الكبرى تقع على كاهل أكبر العلماء والكتاب والفنانين الألمان الذين تنافسوا فى التعبير عن أعنف النزعات القومية وتوجيه أشنع الشتائم الى الأعداء والاغراق فى اسخف أنواع مدح الذات (٢) .

---

(١) انظر فيما يتصل بأسباب هذا التغيير الفجائى ك. كاوتسكى «Sozialisten und Krieg» ص ٤٣٨ وما بعدها . وك. جروبنرج «Die Internationale und der Weltkrieg Materiallen» ١٩١٦ المجلد الاول .

(٢) توجد ادلة كثيرة على ذلك فى مؤلف عالم عارض العقلية الحربية لدى الاغلبية العظمى من زملائه . انظر جورج ف. نيقولاى «Biologie des Krieges» المجلد الاول ص و ٣١١ .

وظهر العجز الفاضح للأحزاب الديموقراطية الكبرى فى لحظة حرجة جدا مرة أخرى بعد الحرب . ففى ١٩٣٠ كان الديموقراطيون الاشتراكيون لايزالون يسيطرون على الحكومة المركزية فى ألمانيا . وأرغمت الأزمة الاقتصادية الحكومة على التقدم بمشروع قانون يتعلق بالتأمين ضد البطالة ولو أنه نفذ لكان العمال أرغموا على التضحية بما يوازى اثنين فى المائة من أجورهم .

ووافق جميع الوزراء الاشتراكيين باستثناء وزير العمل على المشروع ، ولكن معارضة النقابات أرغمت الاشتراكيين على الاستقالة . ومن ثم استقالوا نهائيا مختارين وبذلك مهدوا السبيل لأعداء الديموقراطية (١) . وفى بروسيا بقيت حكومة ديموقراطية اشتراكية بعض الوقت ، ولكن بابن عزلها ولم يعرف الوزراء الاشتراكيون أسلوبا للمقاومة أكثر فعالية من الالتجاء الى المحكمة العليا لاعلان أن هذا التصرف من أعمال العنف غير المشروعة . بيد ان هذا العجز لم يظهر من جانب الديموقراطيين الاشتراكيين وحدهم . ان العالم لديه سنوات أخرى يحكم فيها على أهداف هتلر ووسائله . ومع ذلك فان الأمم ورجال السياسة فى الديموقراطيات الغربية الكبرى تمسكوا بوهم أن هتلر يطلب السلام ويمكن الثقة فيه ، وأنه يمكن تهدئة الوحش النازى بالكلمات الطيبة وقطع السكر . وحتى بعد ان أصبحت أهداف هتلر واضحة بما لاشك فيه ظلت أمم ديموقراطية كثيرة كبيرة وصغيرة ، تؤمن بحكمة اخفاء الرؤوس فى الرمال والانعزالية .

الا أن البلشفية كانت عاملا أقوى فى تمهيد السبيل للفاشية والهتلرية . ففى روسيا القيصرية جاء نمو الحركة العمالية الديموقراطية ، وظهور طبقة من الزعماء من بين الجماهير متأخرا جدا . وكانت الاشتراكية

---

(١) يلقى أوتو براون ، الزعيم الاول للاشتراكيين ، اللوم على التصلب المذهبى لتلك النقابات التى أرادت البعد عن مسئولية الحكم خوفا من الشيوعيين. انظر أوتوبراون «Von Weimar zu Hitler» ١٩٤٠ ص ٢٩٢ . وفى النمسا بعد الحرب حدث فى مبدأ الأمر تحالف بين الحزبين الكبيرين ، الديموقراطيين الاشتراكيين والاجتماعيين المسيحيين ، وقام الديموقراطيون الاشتراكيون بالدور الرئيسى . بيد أنهم سرعان ماتركوا الحكم وتحولوا الى المعارضة تحت ضغط جناحهم اليسارى أساسا ، وبرغم أنه بدا من جانبهم ميل فيما بعد الى تكوين ائتلاف جديد فان ذلك لم يتحقق بسبب مقاومة الزعيم الاجتماعى المسيحى د.زيبل . ولكن زيبل فى سنة ١٩٣١ أراد من الاشتراكيين الانضمام الى الحكومة ولكنهم رفضوا . وشجع عدم التعاون بين الحزبين على صعود الحركة الفاشية التى صارت من القوة بتأييد ايطاليا ، بحيث انتهى الامر باخماد الديموقراطية بالعنف.

الروسية تحت السيطرة الكاملة للمثقف الثورى من النمط القديم • ويقول اسكندر كيرنسكى ، أحد زعماء الديموقراطيين فى مذكراته (١) : ان الاشتراكية الروسية ليست حركة طبقية بروليتارية ، بل هى حركة مثالية وأخلاقية • فالزعماء الذين احتلوا الصدارة جاءوا جميعا من طبقة أعلى ، ولم يكن بينهم عمال أو فلاحون تقريبا • وعندما تحطمت القوة العسكرية الروسية فى الحرب مع ألمانيا والنمسا تألفت حكومة برياسة كيرنسكى وانتخبت جمعية تأسيسية بالانتخاب العام وكان البلاشفة فيها لا يتجاوزون الخمس • واستولى لنين ، الذى كان قد وصل الى روسيا فى سنة ١٩١٧ ، على الحكم بالقوة ، وهجر الحلفاء الذين كانوا قد دخلوا الحرب وبذلوا تضحيات كبيرة لكى يساعدوا روسيا ، وأقام النظام البلشفى بالارهاب على نطاق لم يسبق له مثيل • وقد وضع البلاشفة مبادىء الاسلوب الارهابى التى حاكاها فيما بعد الفاشيون والنازى • ولا يدخل فى نطاق هذا الكتاب سرد تاريخ البلاشفة أو مناقشة مزايا ونقائص هذا النظام (٢) • ان ما يهمنا هنا هو أثر البلشفية فى صعود النزعة القومية العدوانية . ويعبر هذا التأثير عن نفسه بطرق مختلفة. فالبلشفية قسمت الحركات الاشتراكية فى كثير من البلاد الى قطاعات مختلفة أخذ بعضها يصارع البعض بقسوة بسبب تعصب الشيوعيين • وفى ألمانيا وجه الشيوعيون هجومهم الرئيسى ضد الديموقراطيين الاشتراكيين وضد الجمهورية الديموقراطية . وبذلوا كل ما فى طاقتهم لتدمير الديموقراطية وعملوا لمصلحة النازى • واضطر الديموقراطيون الاشتراكيون الى التعاون مع دعاة القومية والرجعيين من أجل تكوين أغلبية فى البرلمان وللحيلولة دون وقوع الفوضى ، وشل ذلك الدفاع عن الديموقراطيين • وفى بلاد كثيرة انضمت قطاعات كبيرة من الشعب ، ولا سيما الفلاحين والطبقات الوسطى والمثقفين ، الى معسكر الأحزاب الرجعية كارهة ، وكانت من قبل تعطف على الديموقراطية بدرجة تزيد أو تنقص ، أو على الأقل لا تقف منها موقف العداء • بالاضافة الى أن البلاشفة بينوا كيف تستطيع أقلية صغيرة أن تحكم ، بالدعاية التى لا تقف عند حد ، بلدا ضخما دون أن تسمح

(١) أ• كيرنسكى « صلب الحرية » ١٩٣٤ •

(٢) ولكن انظر كولين كلارك « نقد الاحصائيات الروسية » ١٩٣٩ و « شروط التقدم الاقتصادى » ١٩٤٠ ص ٨٦ • ود • ادوارد آمند « الحياة البشرية فى روسيا » ١٩٣٦ • ووليم هـ• شمبرلين « الطوبيا الكاذبة » ١٩٣٧ • وسير والتر كيترين « انى أبحث عن الحقيقة فى روسيا » ١٩٣٨ . وسير جون ماينارد «الفلاح الروسى ودراسات أخرى» ١٩٤٢ •

بأية حرية سياسية . ففكرة حكم القانون ، بصرف النظر عن الطبقة والحزب ، التى لم يجرؤ حتى أكثر السياسيين رجعية على انكارها صراحة، اعتبرت سخفا . وقد تعلم الفاشيون هذا الدرس من البلاشفة ، وصار البروليتاريين ، موسوليني وهتلر تلميذى المثقفين ، لنين وتروتسكى . وبعد صعود الفاشية فى بلاد كثيرة بدأت قطاعات من السكان تعطف على الدكتاتوريين وواجهت الديموقراطية خطر وجود أعداء سريين أقوياء داخلها .

وكان من نتيجة هزيمة الديمقراطية أن كثيرا من الناس فى بعض البلاد اما صارت فكرتهم سيئة جدا عن الأحزاب الديمقراطية المهزومه بل واتهموها بأنها لم تأخذ الديمقراطية مأخذ الجد قط ، أو ألقوا اللوم على الديمقراطية نفسها . وكلا الرأين خطأ ومضلل . ولا ريب فى أن انجازات الديموقراطية فى كثير من الميادين أكثر من نقائصها ، بل ان السبب الرئيسى فى هذه النقائص لا يبرر الحط من قيمة الديموقراطية ذاتها . ولكنه يكون من الخطأ أيضا افتراض أن الاحزاب الديموقراطية التى دمرها أعداؤها لم تفعل شيئا دفاعا عن الديموقراطية . فقد بذلت فى الحقيقة عدة محاولات جادة ومخططة وان كان الناقد يستطيع الآن أن يقول عندما ينظر الى الوراء : كان المجهود متأخرا عما ينبغى وأقل مما ينبغى . ولكن بصرف النظر عن هذه القضية التاريخية ، يوحى استعراض السياسات الديموقراطية فى جميع أنحاء العالم بأن أيديولوجية الديموقراطية وأجهزتها السياسية فى حاجة الى اصلاحات كبرى . فالديموقراطيون فى البلاد المختلفة ينبغى أن ينبذوا أوهام الانعزالية السياسية والاقتصادية وأن ينبذوا التحيز العنصرى والاجتماعى ، وأن يتخذوا وجهة أكثر واقعية فى الطبيعة البشرية وتعقيد المشاكل السياسية والاقتصادية وسيكولوجية الأمم الأخرى بصفة خاصة .

٤ ــ القوى العقلانية واللاعقلانية فى النزعة القومية

يظهر فى النزعة القومية الحديثة خليط عجيب من العناصر العقلانية، واللاعقلانية ، وتعتمد قوتها ذاتها على اتحاد البدائية العقلية مع جميع الأدوات التى يقدمها العلم والتكتيك الحديث . ففى جميع الحركات القومية كان الدور الرائد للطبقات المثقفة من الأساتذة والطلبة والمحامين والموظفين والأطباء والمدرسين والكتاب والصحفيين ، وكانت قطاعات منهم أيضا هى القوة المحركة فى النزعة القومية العدوانية فى حين كانت الجماهير غير المتعلمة أدوات فى يدها . وبرغم الطابع المثقف للنخبة الرائدة كانت

مذاهبها عادة تندد بالعقل وتشيد بالانفعالات والغرائز ، ومع ذلك فان النزعة القومية لا يمكن أن تكون مجرد نتاج الغرائز ، حيث أنها فى هذه الحالة تكون متساوية القوة فى جميع الأوقات ولدى جميع أفراد النوع . فلابد أن تكون هناك عوامل اجتماعية تفسر تنوعها تبعا للوقت والامة والطبقة . ويرى كثير من الكتاب أن النزعة القومية من بقايا البربرية البدائية فى حين يفسرها آخرون على أنها نتاج المجتمع الحديث وقد أتخمتها نزعته المثقفة ونفرتها نتائجه .

والممثل النموذجي للمدرسة القائلة بأنها بقايا البربرية البدائية هو هـ . هاكنز ، الذى يعرف النزعة القومية فى كتابه بأنها تأكيد الذات من جانب ذلك الكائن الشائن « رجل الكهف فى داخلنا » (١) . ففى رأيه أن عقلية النزعة القومية نمت استجابة لظروف عصر سابق وظلت باقية فى « العقل الجماعى » الذى يوجد « مستقلا عن العقل الفردى » وخارج « الجهاز العصبى للفرد وجسده » . ويحاول المؤلف دعم هذه النظرية بمقابلات مستمدة من عادات القبائل البدائية وعرفها وسلوك الحيوانات. ومن ممثلى المدرسة الاخرى كأولين بلاين التى فسرت النزعة القومية وروح القتال فى عدة كتب هامة (٢) على أنهما « مرض عصابى اجتماعى سببه ضغط الحياة وتوترها » . ويبدو لها تفسير الميول البدائية والتعصبية التى تظهر اليوم بأنها رجوع الى البربرية ، أبسط مما ينبغى . والمرض العصابى الذى تنبثق منه الحرب يعود الى « ما تتعرض له الاجهزة العصبية لدى الناس من استهلاك بسبب الضغط والتعقيد وامتلاء الحياة بصفة عامة » . وقد وضعت هذه النظرة فى صورة تفصيلية محكمة بواسطة تحليل الآثار السيكلوجية للتغييرات الاجتماعية . وقد تتبع كارل ما نهايم فى دراسة عميقة لمجتمع الجماهير الحديث وأرجع نمو النزعة العدوانية الى التحلل الاجتماعى (٣) .

وقد عبر أيضا بعض رجال السياسة عن وجهة النظر التى تربط العدوانية بالعوامل الاجتماعية . فقد كان سير ادواد جراى يعتقد أن الحرب

(١) هانبورى هانكنز « النزعة القومية والعقل الجماعى » ١٩٣٧ ص ١٥١ و ١٨٣ و ١٨٧ و ١٩٣ .

(٢) كارولين أ. بلاين « الأمراض العصبية فى الأمم ، المرض العصبى الألمانى والفرنسى قبل الحرب » ١٩٢٥ . و « عقل ماقبل الحرب فى بريطانيا » ١٩٢٨ . و «المجتمع فى الحرب» ١٩٣٠ .

(٣) كارل مانهايم « الانسان والمجتمع فى عصر التعمير » ١٩٤٠ ص ١٢٦ وما بعدها.

الحديثة ، وهى أبشع الاشياء عنده ، هى النتاج المنطقى لعقل الآلة (١) • فضلا عن أنه كان مقتنعا بأن كل أمة ترغب فى الحرب من وقت لآخر لمجرد القتال • وقد كتب فى سنة ١٩٠٦ فى كتاب الى الرئيس روزفلت : « اننا ينبغى أن نكره الحرب فى كل مكان • وليس ذلك لأننا صرنا ضعفاء أو جبناء ، بل لأننا شبعنا من الحروب فى جيل واحد • فقبل حرب البوير كنا نتلهف على القتال وأية حكومة خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضى كانت تستطيع أن تدخل حربا معنا بأن ترفع أصبعها • وكان الشعب سيرحب بها • فقد كان الناس يتشوقون الى الاثارة وصعود الدماء الى الرؤوس • أما الآن فان هذا الجيل قد شبع اثارة وفقد شيئا من الدماء وصار عاقلا وطبيعيا » •

وهناك حجج كثيرة يمكن الاستعانة بها فى تأييد كل من المدرستين. فهناك فعلا أوجه شبه كثيرة بين النزعة القومية الحديثة وسلوك القبائل البدائية ، مثل فاعلية القوى اللاعقلانية ، والانفعالات والتقاليد ، والاعتقاد فى الغيبيات والجماعية . وقد كان كثير من البدائيين يعتقدون أن أسماءهم أو ظلالهم مقدسة ، ويعتقدون أنها تتعرض لعطب اذا داس شخص على ظلهم أو نطق أسماءهم بشر • ويزيد البدائيون من كثافة مشاعر الجماعة وروابطها بالاحتفالات والرقص واستخدام المواد المخدرة لانتاج درجة مرتفعة من الاثارة العصبية . وهذا يشبه أساليب النزعة القومية ، التى بلغت درجة الكمال على يد هتلر ، فى اثارة انفعالات الجماهير ودفعها الى حالة من الهياج الجنونى بواسطة الرموز والأردية العسكرية والموسيقى والرقص والطبل والترديد المستمر للشعارات والطوابير الجماهيرية وما الى ذلك • ولا تجتذب مثل هذه الوسائل القطيع العام وحده . فكثير من كبار الفلاسفة الألمان والكتاب والرجال العاملين ممن بلغوا أعلى درجة من الثقافة أشادوا المرة تلو المرة بالحرب ، على أساس أنها تولد نوعا من البهجة الصوفية وتجعل الافراد أكثر وعيا بتكاملهم القومى •

والنزعة القومية الحديثة والراديكالية الحديثة على استعداد دائما لنبذ حجج العقل والتجربة والاشادة بنداء روح الجماعة والدافع الغريزى وصوت الدم . ويتفق كل من دعاة القومية الحديثين

---

(١) جورج ماكولى تريفيليان «Grey of Fallodon» ١٩٣٧ ص ٥٣ • وفيما يتصل بالفقرات التالية انظر ص ١١٥ و ١٥٥ •

والبدائيين الى حد ما فى رفض التجديدات التى تعتبر غريبة أو متعارضة مع التقاليد . فالنازيون مثلا يندون بالديموقراطية على أنها اختراع انجليزى فرنسى يهودى دخيل تماما على العبقرية التيوتونية القديمة . وفى كثير من القبائل البدائية تلعب الجمعيات السرية دورا كبيرا ، وكثيرا ما تكون هذه الجمعيات مؤلفة من شبان يقومون برقصات روحانية ويتدربون على أعمال القسوة بسفك الدماء وتحمل الألم ، ويرهبون من هم أضعف منهم ويغتصبون ما لهم ، ويحاولون الحصول على مركز متميز لانفسهم . وفيهم أوجه شبه كثيرة ببعض منظمات الشباب القوميين وبخاصة فى ألمانيا .

ومع ذلك فلا يمكن أن تفسر النزعة القومية الحديثة بأنها مجرد رجوع الى البربرية البدائية . فهى تنطوى أيضا على قدر كبير من الثقافة التى يساء استخدامها وتستخدم نتائج التقدم الفكرى . فتأملات كثيرين من كبار المفكرين وتقدم العلم واتساع المعرفة أسىء استخدامها جميعا فى تكوين أيديولوجيات قومية . ويبدو أن هناك عوامل بيولوجية أسهمت أيضا فى تقدم النزعة القومية . والشباب عادة أسهل تأثرا بالنزعة القومية ممن هم أكبر سنا وأكثر رزانة ، بسبب فورة مزاج الشباب ونقص تجربته وميله الى الأساليب البسيطة العنيفة . فالأولاد يغرمون بالقتال بلا سبب خاص ، كمجرد تعبير عن مزاج معين . ويبدو سن المراهقة مواتيا بصفة خاصة لعدوى النزعة القومية . وقد بدأ صعود هتلر باستيلائه على قسم كبير من الشبان . وكانت القوة الرئيسية للنازيين فى مبدأ الأمر تتألف من أولاد المدارس وصغار الشبان . أما جمهرة الكبار فقد تم غزوها فيما بعد ، عن طريق نشاط المراهقين الى حد كبير . ومن العوامل المهمة الأخرى فى استيلاء هتلر على القوة أصوات النساء ونفوذهن وبخاصة غير المتزوجات . فقد أشعل هتلر بديماجوجيته الهستيرية عواطف النساء ، كما آثارها الشبان بضوضائهم واستعراضهم لأنفسهم كأبطال يحملون الخناجر والمسدسات . ان كتاب النازى أنفسهم كثيرا ما تباهوا بأن أتباع هتلر يكادون يكونون جنسا منفصلا ، نخبة من الشبان الشجعان ذوى الاقدام الذين لا تقيدهم العقد النفسية . ومن المؤكد أن دعوة هتلر التى وجهها الى غرائز الجماهير والى العنصر المتوحش المختفى وراء طلاء المدنية ، كانت نتيجتها انتقاء أكثر العناصر وحشية وقسوة من جميع طبقات المجتمع . فقد تكتلت القوة الغاشمة ضد العقل . وكان من الطبيعى أن الجماعات التى تضم نسبة أكبر من هذه العناصر وفرت لهتلر عددا

من الأعوان أكثر من غيرها . ولكن بصفة عامة لا يمكن القول بأن أتباع هتلر الحقيقيين جاءوا أساسا من هذه الطبقة أو تلك . فقد جاءوا من جميع الطبقات ، وبذلك دحضوا نظرية أن الطبقة هى العامل الحاسم الوحيد فى السياسة . الا أنه يبدو أن الانتقاء تم الى حد كبير على أساس المعيار البيولوجى المشار اليه . وتدل الاحصائيات الخاصة بالانتخابات التى جعلت فى وسع هتلر الاستيلاء على السلطة (وان لم يحصل قط على أغلبية الأصوات) ، على أن الاصوات التى كسبها لم تكن على حساب الحزبين الكبيرين المنظمين : الاشتراكى والكاثوليكى . فقد جاءته الزيادة فى الأصوات اما من الأحزاب القومية الأخرى ، ولم يكن لها مغزى سوى انتشار التطرف بين دعاة القومية ، أو من أشخاص كانوا يعطون أحزابا صغيرة من المخرفين أصواتهم قبل ذلك أو لم يعطوها لأحد أصلا .

هذا بالاضافة الى أن هناك طبقات معينة من المثقفين تؤلف عنصرا هاما فى كثير من الحركات القومية . بيد أن الأمم تختلف من هذه الناحية . ففى حين كانت الجامعات وقطاع كبير من الطبقات التى تمتعت بالتعليم العالى ــ مهدا للنزعة القومية فى المانيا ، فانه لا يمكن أن يقال ذلك عن انجلترا مطلقا . وحتى فى ألمانيا كانت النزعة القومية التى أنتشرت بين رجال الجامعات من النوع المحافظ وليست من النوع الهتلرى المبتذل . وكان ذلك النوع من النزعة القومية الذى اعتنقته الطبقات المثقفة فى المانيا الى حد كبير من أعراض العقلية الطبقية والعنجهية . فكانت تعنى معارضة الاتجاهات الديموقراطية والتحررية والاشتراكية والدولية التى اعتبرت مما لا يتفق والوقار الاجتماعى . غير أن اتجاه الطبقات المثقفة نحو النزعة القومية له أيضا جذور أعمق .

ان النمو الاجتماعى والثقافى يقترن بزيادة الرغبة فى الفردية . وفى العصور السابقة كانت حياة الجماعة كلها تنظمها التقاليد . فالآباء كانوا يحددون من يتزوج أبناءهم أو بناتهم وأى المهن يشتغلون فيها . ولا يقبل الشباب الحديث مثل هذا التدخل ويعترض على حكم التقاليد والعرف حتى اذا كان لمصلحتهم ويريد أن يعيش « حياته الخاصة » . ويؤدى اكتساب المعرفة ونفوذ الصحافة والديموقراطية وعدة عوامل أخرى الى زيادة تقدير الناس لأهمية أنفسهم ورغبتهم فى تأكيد ذواتهم . ولكن ظروف الحياة الحديثة تجعل من الصعوبة بمكان كبير جدا بالنسبة

للأفراد أن يصيروا أكثر من جزء صغير جدا فى آلة هائلة . فبرغم أن الديموقراطيات الحديثة تحاول أن تجعل فى وسع المواطنين أن ينموا شخصياتهم وتجعل الكنوز الثقافية للأمة فى متناول الجميع ، فان التطلع الى المثل العليا فى الشخصية كثيرا ما يتعرض للاخفاق لأسباب اجتماعية .

وهذا الاخفاق فى السعى نحو استكمال الشخصية الفردية يعوضه جزئيا التأكيد على الشخصية الجماعية ، وبخاصة شخصية الأمة أو الحزب . فالشخصية والنفوذ اللذان لا يستطيع الفرد تحقيقهما باسمه شخصيا قد تتاحان له فى صورة شخصية جماعية له فيها نصيب. والأفراد الذين تكونت لهم شخصية ثقافية غنية خاصة بهم وحصلوا بها على اعتراف كاف بشخصيتهم لا يهتمون عادة بالمشاركة فى هيبة الجماعة . بيد أن معظم الناس يحسون أنهم مضطرون الى التأكيد على انتمائهم الى جماعة أكبر للحصول على الاعتراف بوجودهم .

وقد لعبت أيضا بعض التيارات الفكرية المعينة دورا كبيرا فى جعل المثقفين يميلون الى النزعة القومية بتحطيم الايمان بالمسيحية وبالعقل والتقدم والانسانية والحقوق الطبيعية للانسان وتضامن جميع الأمم التى تقوم عليها اللبرالية ، فكثير من المثقفين خاب أملهم فى ثمار المدنية ، وبصفة خاصة فى نتائج مجهوداتهم . وحتى أولئك الذين كرسوا جزءا كبيرا من الوقت والتفكير بحثا عن الحقيقة كثيرا ما أحسوا أنهم فشلوا . وبدا لهم أن العقل غير قادر على حل معميات العالم وعلى تحقيق حالة مرضية للمجتمع ، وبدا أنه لم ينجح الا فى تدمير المعتقدات دون أن يقدم لها بديلا . وبدا أن الفكر لا يؤدى الا الى نزاعات لا نهاية لها وشكوك ، وانتهى كثير من المثقفين الى العدمية المعنوية واليأس . وكثيرا ما بدءوا يحنون الى العودة الى البدائية ، واعتقدوا أنهم سيجدون دينا جديدا فى الاحساس بحماسة الجمهرة ، وفضيلة جديدة فى الخضوع للنظام الحديدى لنوع من الجماعة العسكرية ، وبديلا للعلم فى روحانية الجنس والعنصر . فضلا عن أن هذه العقلية دعمتها زيادة الاحساس بالقوة والوعى بالانتماء الى الجمهرة المتأصلين فى عصرنا .

ان الميل الى النزعة القومية يعد الى حد كبير نتاج روح العصر ، ومن ثم فهو يتسرب الى جميع الطبقات بدرجة تزيد أو تنقص ، ولكن مدى تحول هذا الميل الى عمل يتوقف على الظروف الخاصة بالأمة . وانتشار النزعة القومية الكامن على هذا النطاق الواسع عامل ذو مغزى

خاص كثيرا ما لا يحظى بالتقدير الكافى . فقبل ظهور الدكتاتوريين لم يكن عدد دعاة القومية المتطرفين كبيرا جدا فى بلادهم . وكان تطرفهم ينيح لخصومهم حججا طيبة ضدهم . بيد أنه كانت هناك أعداد كبيرة من جماهير الناس الذين كانت نزعتهم القومية مبهمة الى حد يصعب معه ايجاد حجج قوية ضدها ، أو لم تكن لديهم أية آراء سياسية واضحة وبذلك كانوا ضحية سهلة للديماجوجيين الذين لديهم موهبة أثارة انفعالاتهم الكامنة . وفى بلاد أخرى أيضا أثبتت التجربة أن هناك نوعا من النزعة القومية المعتدلة تصعب مهاجمتها أكثر من النوع المتطرف . وينطبق ذلك أيضا على النزعة القومية الداخلية مثل اضطهاد الأقليات ونزعة مناهضة السامية والنزعة ضد الغرباء . فليس المناهضون الخطرون للسامية مثلا هم الذين ينددون باليهود ، بل هم بعض الأشخاص المتسللين الذين يسممون الجو ويمهدون السبيل للهتلرية .

بالاضافة الى ان انتصارات النزعة القومية المتطرفة والعنصرية المتطرفة فى وقتنا ساعد فى تحقيقها موقف كثيرين من رجال الدولة والسياسيين الذين لم يكونوا أصلا من العاطفين على أهدافهما ، ولكنهم اما اعتقدوا أن اتخاذ اجراءات قوية ضدهما خطر جدا على مراكزهم او مراكز أحزابهم ، أو أعتبروهما من الشرور الضرورية . والحقيقة أن السياسية تنطوى على عوامل كثيرة هى فى ذاتها شر ولكن لا يمكن استئصالها دون التعرض لشرور أكبر . فكثير من رجال الدولة ينفرون من النزعة القومية ، ولكنهم مع ذلك يعتقدون أنها أخف الضررين . كما أن من العادات الأخرى المتأصلة فى السياسة الحديثة اتجاها الى تبسيط أكثر مما ينبغى للقضايا المعقدة . فمعظم القضايا السياسية اليوم معقدة جدا ، فهى تنطوى على خليط معقد من الصواب والخطأ ومن الحجج المتعارضة وعلى مخاطر لا حصر لها . ومن الناحية الأخرى لابد من جعلها مفهومة لدى جميع من لهم نفوذ على السياسة ، ولابد أن تكون الحلول المقترحة مهضومة لدى عقلية الناخبين ، وذلك يجعل من الضرورى طرحها فى صورة مبسطة جدا . وليست جماهير عامة الناس وحدها هى التى لا تستطيع أن توفر اهتمامها للخطط المعقدة التى لا تمس مصلحتها الحيوية المباشرة . بل ان المتعلمين تعليما عاليا أيضا كثيرا جدا ما يعزفون عن التفكير طويلا فى المشاكل السياسية ، وبخاصة مشاكل

الأمم الأخرى ، ويفضلون تصديق ما يتفق مع رغباتهم هم (١) ٠

٥ ـ اقتصاديات النزعة القومية

ان كلا من الليبرالية والاشتراكية يعتبران النشاط الاقتصادى وسيلة لتوفير أكبر قدر ممكن من السلع المطلوبة للناس بالعمل السلمى والتعاون ، فى حين ينظر اليه دعاة القومية على أنه أساسا وسيلة لزيادة قوة الأمة وهيبتها ٠ بل ان انتاج الثروة لمجرد غرض تحسين ظروف المعيشة يبدو للمتطرفين من ذوى النزعة القومية مهنة حقيرة ، ويأخذ النشاط الاقتصادى فى أيديولوجيتهم طابع الصراع من أجل السيطرة والاستغلال بالقوة . ومذهب الليبرالية هو أن جميع من يعملون فى انتاج السلع المفيدة وتبادلها يكسبون من هذا العمل ، وأن الزيادة فى ثروة أمة من الأمم فيه ميزة لجميع الأمم الأخرى أيضا لأن الأمة المزدهرة تستطيع أن تشترى منها أكثر ٠ فضلا عن أن الليبرالية تفترض أن اتساع نطاق التجارة العالمية هو أكبر ضمان للسلام لأنه يجعل كل الأمم يعتمد بعضها على بعض أكثر فأكثر ٠ أما النزعة القومية فانها تجنح الى المذهب المركانتيلى الذى يذهب الى أن الامة لا تصيب ثراء الا على حساب أمة أخرى ، وأن ما تكسبه واحدة لابد أن تخسره أخرى . وكان الهدف الأساسى من المذهب المركانتيلى هو زيادة قوة الدولة ٠ وقد قام هذا المذهب داخل الدولة القومية الناشئة بوظيفة التوحيد الاقتصادى عن طريق تحطيم الحواجز الداخلية والاحتكارات المحلية ، ولكنه شجع على احتكار الاسواق فيما يتصل بالعلاقة بين الأمم، وكثيرا ما ساعد على قيام الحروب ٠

وفى خلال القرن الثامن عشر هاجم كثير من المفكرين المذهب المركانتيلى ، وأثبت آدم سميث أن الحرية فى الانتاج أجدى من التنظيم « بواسطة » الدولة وأن المنافسة أفضل من الاحتكار ، وأن هناك تضامنا كبيرا بين المصالح الاقتصادية لجميع الأمم لأن الرخاء يعمها كلها بتبادل سلعها بحرية ٠ وفى القرن التاسع عشر حل محل الانعزالية الاقتصادية بين الأمم قدر أكبر من الحرية فى التجارة والاتصال . وكسبت حرية التجارة أكبر انتصاراتها فى بريطانيا ، كما اتبعت دول

---

(١) انظر التحليل الدقيق للعقلية التى كانت الى حد كبير السبب فى فشل الامم الديموقراطية فى المحافظة على السلام فى كتاب ادوارد هـ. كار « أزمة العشرين عاما » ١٩١٩ - ١٩٣٩ ٠

أخرى كثيرة سياسة تجارية لبرالية . الا أن موجة جديدة من الجنوح الى « الحماية » جاءت بعد حرب الانفصال الأمريكية وبعد الحرب الفرنسية الألمانية فى ١٨٧١ . وكانت الحرب الأخيرة بداية عهد من الزيادة السريعة فى التسليح ، ودافع أنصار هذا الاتجاه عن الزيادة فى التعريفات المفروضة بأن العائد منها سيساعد فى دفع نفقات التسلح وأن الأمن القومى يتطلب أن يتم صنع السلع الأساسية فى الداخل . ولكن نمو « الحماية » خفف من حد الرأى العام اللبرالى ، فقد كانت كل أمة الى حد كبير تنتج السلع التى تلائم ظروفها أكثر من غيرها واستفاد الجميع من تبادل سلعهم . وأصبح العالم كله يؤلف نظاما اقتصاديا واسعا تعاونت فيه كل الأمم تعاونا وثيقا لمنفعتها المتبادلة . وكانت السلع والعمل ورأس المال تنتقل بحرية من بلد الى بلد . وكان كل انسان يستطيع أن يذهب الى أى بلد تقريبا دون حاجة الى جواز سفر ويكسب عيشه هناك بالعمل الشريف . وأدى هذا النظام للاقتصاد العالمى اللبرالى الى زيادة كبيرة فى الدخل القومى ، وبخاصة فى الأجور .

ولم يكسب بلد فى ظل هذا النظام أكثر من ألمانيا . فكانت سلعها تستطيع أن تدخل بريطانيا ومستعمراتها (وان لم تدخل بلاد « الدومينيون ») دون دفع أية رسوم ، فى حين كانت السلع الانجليزية المستوردة فى ألمانيا تدفع رسوما عالية وأحرزت التجارة الالمانية تقدما هائلا فى جميع أسواق العالم . فكان الألمان يملكون فى كل مكان صناعات مزدهرة ومصارفا وخطوطا بحرية ومناجما ومشروعات أخرى . وكان الموظفون والكتبة الألمان يجدون أعمالا ذات أجور طيبة فى كل البلاد . ومن ثم فان الاقتصاد العالمى اللبرالى أتاح مجالا واسعا جدا للحياة للشعب الألمانى ، ولم يكن تقدمه الاقتصادى مضرا بالامم الأخرى لانها كانت مزدهرة أيضا . وبرغم ذلك هاجم دعاة القومية الألمانية بعنف الاقتصاد العالمى وتقسيم العمل الدولى باعتباره خطرا يهدد ألمانيا لأنها كانت تعتمد على سلع أجنبية مستوردة قد يقف ورودها فى الحرب . ومن الواضح أنهم لم يقدروا المكاسب الاقتصادية والاجتماعية التى كان الشعب الألمانى يتمتع بها فى ظل هذا النظام . لقد كانوا يريدون القوة حتى يصيروا فى المرتبة الأولى بين العالم بحد السيف ، وكانوا مقتنعين بأن ذلك هو السبيل الى ثروات العالم أيضا .

وكثيرا ما أدى نظام الحماية الذى طبق قبل الحرب الكبرى الأولى الى اساءة استخدام التعريفات الحامية لأغراض عدوانية . فقد جعل

ارتفاع التعريفة فى وسع المنتجين أن يرفعوا أسعارهم فى السوق الداخلى ، وبخاصة عن طريق تكوين الكارتل ، وأن يستخدموا أرباحهم للبيع بأسعار أقل من منافسيهم فى الأسواق العالمية عن طريق ما يسمى « بالاغراق » . وكانت خسارتهم فى الخارج تعوض بأكثر منها بالمكاسب فى الداخل ، واستطاعوا بغزوهم للأسواق العالمية الانتاج على نطاق أوسع بكثير وبتكاليف أقل بكثير . وقد بلغت صناعات الحديد الكبرى فى ألمانيا قوتها الضخمة بواسطة مثل هذه الاساليب التى اعتبرها المنتجون فى البلاد الأخرى التى تأثرت بها أساليب غير عادلة . فقد اشتكوا من أن « الحماية » الألمانية لا تقفل فى وجوههم الأسواق الألمانية فحسب ، بل تساعد رجال الصناعة الألمان أيضا على هزيمتهم فى أسواقهم ذاتها . بيد أن النزعة القومية الاقتصادية لم تنتصر فى ألمانيا وحدها . ففى عقلية دعاة القومية فى جميع الأمم تلعب الغيرة من الدول الغنية دورا مسيطرا .

ان تشجيع الصناعات الجديدة بواسطة التعريفات قد يحقق أهدافه فى ظروف معينة لا نستطيع مناقشتها هنا . ولكن الأثر الطيب للتعريفات محدود جدا فى الوقت والدرجة . ومن السمات المميزة للنزعة القومية الاقتصادية أنها تنبذ هذه الحدود وتحاول استبعاد السلع الاجنبية بصفةدائمة وتحقيق أكبر قدر ممكن من الكفاية الذاتية او التحكم من جانب واحد . ويجد الاقتصاديون اثبات أن هذه الطريقة لا تؤدى الى ارتفاع فى الدخل القومى أو تحسين الأجور الحقيقية أمرا سهلا . ولكن حججهم لا تجدى لأن دعاة القومية لا يعلقون الأهمية الأولى على الأهداف الاقتصادية . فهم من ناحية يفضلون القوة على الثروة ، ومن ناحية أخرى يعتبرون أن انتاج كل شىء داخليا بصرف النظر عن التكلفة مسألة قومية . واكثر حججهم ترديدا هى : لماذا لا نصنع جميع السلع بأنفسنا بدلا من شرائها من الأجانب ؟ أليس من الشائن أن يعتقد الناس أننا لا نستطيع انتاج ما نحتاج اليه ؟ (١) وبالاضافة الى ذلك ، ألا يخلق ذلك أعمالا ويرفع الأجور ؟ وهذه الحجة بدائية من وجهة النظر الاقتصادية ولكن يبدو مع ذلك أنها لا تقاوم .

---

(١) منذ القرن الثامن عشر فرضت فلورنسا تعريفات عالية جدا على السلع الاجنبية ودافعت عن ذلك بحجة « انه لما يحط بكرامة الصناعات الفلورنسية وسمعتها اذا قيل انه فى بلد مثل فلورنسا لايوجد من يستطيع أن يصنع الاقمشة على طريقة بربيجنان برغم أنها تصنع فى كل مكان آخر فى ايطاليا » .

والسبب فى أن حجج أنصار الحماية ذات فعالية أكثر من حجج أنصار حرية التجارة أنها أكثر اجتذابا للعقل غير المدرب على التفكير الاقتصادى وأن وراءها أنانيــة أفراد أقوياء وجمـــاعات قوية وأنانية المشاعر القومية . ان النظرية الاقتصادية تبحث فى آثار السياســة الاقتصادية على رفاهية الشعب ككل ، ولـكن ذلك أصـــعب مما ينبغى بالنســبة للرجل المتوســط ، بالاضافة الى أن انتشار النزوع الى « الحماية » تدعمه جدا ضرورة الرد على الاعتداء الحقيقى أو المزعوم . والنزوع الى « الحماية » مرض معد جدا . فاذا طبقت الحماية على صناعة طلبت كل الصناعات الأخرى نفس المعاملة ، وهى تحصل عليها عادة برغم أن كل انتشار لمبدأ الحماية الى صناعات أخرى لابد أن يقلل أرباح الصناعات المحمية فعلا ، وبرغم أن الحماية الشاملة تقضى على كل المكاسب الفردية تقريبا . كما أنه عنــدما ترفع أمة التعريفات أو القيود تحذو كل الأمم الأخرى حذوها عادة . وحتى اذا لم تكن الأسس الاقتصــــادية التى يقوم عليها هذا الاحتذاء غير مقنعة فان الحوافز السيكلوجية لا تغلب . وأخيرا ، دلت التجربة على أنه يكاد يكون من المستحيل تحويل التيار والغاء الحماية متى قررت لأنها تكون قد خلقت مصالح قائمة لا سـبيل الى مقاومتها . وبرغم أن مزايا الحمـاية كثيرا ما تكون وهمية ، فان الطبقات التى تنعم بها تتمسك بها باصرار قوى ويعلو صوتها وضــجيجها على أصــوات من يقاســون من آثارها . والخلاصـــة ، أن تحالف الأنانية الفردية والأنانية القومية يبدأ حركة متزايدة فى أبعاد كل شيء غريب . وهى تستمر بطريقـــة آلية فى زيادة مستمرة ، كثافة ومدى .

وبعد الحرب الكبرى انتشرت النزعة القومية والجنوح الى الحماية انتشارا كبيرا كان العامل الاكبر فيه هو نتائج الحرب ومعاهدات الصلح والأزمة الاقتصـــادية الكبرى التى اندلعت فى سنة ١٩٢٩ . ومن بين العوامل التى أسهمت فى هذا التطور بصفة خاصةخلق عدد كبير منالدول الصغرى أرادت كلها أن تؤكد استقلالها القومى باتباع سياسة الابعاد (١).

وأدت زيادة قوة الحركة العمــالية الى فرض قيود على هجرة العمال الأجانب والى استبعاد الأجنبى من العمل . وهذه السياسة فى جوهرها هى سياسة الحماية التى يلجأ اليها أصحاب الأعمال الصناعيون

---

(١) ليوبافولسكى « النزعة القومية الاقتصادية فى دول الدانوب » ١٩٢٨ .

والزراعيون ،وتقوم على أسس خداعة بنفس القدر . وعمت سياسةاعطاء كل طبقة مركزا احتكاريا أو متمـــيزا جدا ، ولعبت دورا حاســـما فى وقوع أزمة ١٩٢٩ التى أنهكت العالم عدة ســنوات . وكانت أخطر سمات هذه الأزمة هى انتشار البطالة على نطاق لم يسبق له مثيل ، مما مهد الســـبيل للهتلرية وللحرب الحالية . لقـد كان من الدلائل المؤسفة جدا على الحجاب العقلى الذى تفرضه النزعة القومية أن علاج الأزمة اتجه الى حد كبير الى زيادة الحماية والاحتكار ، وذلك برغم التحذيرات التى لا عدد لها من جانب أكبر الثقاة الاقتصاديين .

وكان من بين العواقب المميتة للحرب الكبرى التضخم الذى رجع بعضه الى انحلال التنظيم الاقتصادى بسبب الحـرب ، وبعضــه الى عوامل سياسية . وكان للتضخم نتائج اجتماعية وسياسية كبرى فى كثير من البلاد عملت على نمو النزعة القومية المتطرفة . فقد بلغ انخفاض قيمة العملة أحيانا الى حد الافلاس اللاارادى الذى فرضته على الناس ضرورة لا قبل لهم بها ، ولكن فى عصر النزعة القومية كثيرا ما كان راجعا الى انحلال فى الأخلاق الاقتصادية ويمكن ان يسمى بحق افلاسا بالغش . وكان التضخم مخدرا خطرا يجعل التداول أسرع ويخلق انطباعا بأن الأمور مزدهرة ، ولكنه بعد ذلك يتجه الى الهوة والخراب الكامل . وكانت من نتائجه محق قطاع كبير من الطبقات الوسطى وانتشار المذاهب المتطرفة بين الشـــبان . ومهد كلا الأمرين لمجىء الدكتاتوريين الذين اختلف أتباعهم بعضهم عن البعض بلون قمصانهم ولكنهم لا يعرفون مبدأ ولا رحمة ويحدوهم الازدراء الكامل لكل التزام أخلاقى .

ومن أسوأ عواقب النزعة القومية الاقتصـــادية بعد الحرب زيادة الاحساس بعدم الأمن فى جميع البلاد . فالانتاج والتجارة لا يزدهران الا فى ظل حكم القانون واحترام قواعد الأخلاق المبدئية . وقد هاجمت النزعة القومية المتطرفة هذه الشروط الأساسية هجوما متزايدا وعملت على تدميرها . وكانت النتيجة أن الاستثمارات الجديدة تعرضت لمخاطر غير عادية فى كثر من البلاد بسبب أن المستثمر لا يستطيع الاعتماد على حماية القوانين القائمة وعلى عدم تحيز الموظفين وحسن الثقة بالدولة. وكانت حالة عدم الشعور بالأمن العامة هذه وما نجم عنها من نقص فى الاستثمـــارات الجديدة من العوامل الاخرى التى أدت الى البطـــالة .

وعامل آخر هو انفاق أجزاء كبيرة من الدخل القومى ورأس المال فى أوجه غير اقتصادية ، فى الاسلحة بكميات هائلة والانتـــاج بدون مبرر

اقتصادى والمبانى العامة الضخمة لمجرد أغراض الدعاية والهيبة. وصحيح أن الدكتاتوريين من دعاة القومية يفخرون بأنهم قضوا على البطالة بهذه الوسائل نفسهـا ، وصدقهم بعض السياسيين الديموقراطيين فى تأكيداتهم . ومع ذلك فان هـذه الدعوى وهمية وباطلة . فالبطالة لم يقض عليها بمثل هذه الوسائل ، بل أخفيت فحسب . لأنه اذا أنفق قسم أكبر مما ينبغى من العمل القومى فى أعمال غير منتجة فسيقل مقدار السلع الاستهلاكية . واذا أدت سياسة وضع الاستقلال العسكرى فى مركز الأولوية الى انتاج سلع بديلة كثيرة التكلفة بدلا من استيراد السلع الأجنبية الرخيصة ، كانت نتيجة ذلك أيضا نقص المقادير ، وفى الظروف العادية يؤدى ذلك الى بطالة . ولكن الدكتاتوريين كانت لديهم القدرة على اخفائهـا باستخدام العمال فى جميع أنواع الأعمال الكاذبة وبتوزيع العمالة الأقل والمقادير الأقل على مجموع العمال . فمن السهل جدا « الغاء البطالة » اذا كانت لدى الحكومات سلطة ارغام كل عامل على قبول أى عمل فى أى مكان وبأى أجر وبأية شروط . وقد بدا أن كثيرين من مثل هؤلاء العمال يعملون وهم فى الحقيقة لايعملون بالمعنى الاقتصادى ولا فرق هناك مطلقا بين أن يأخذ الانسان أجرا عن عمل غير اقتصادى أو أن يأخذه بلا عمل . لقد أخفيت البطالة فى الدول الدكتاتورية وراء شعار من الأعمال غير الاقتصادية وان كانت على حساب خفض مستوى معيشة الشعب . وأدى النقص فى استهلاك الشعب الى رد فعل فى البلاد الأخرى التى كانت حتى ذلك الوقت تمدها بالسلع . اذ انكمشت الواردات وكان من نتيجة ذلك أن هذه البلاد أيضـا تأثرت بالبطالة . وقد ظلت العواقب الوخيمة لهـذه السياسة خافيـة بعض الوقت نتيجة لاجراءات مختلفة مثل نهب الطبقات التى لا حول لها مثل اليهود ، أو نهب الدائنين الأجانب بعـدم دفع القروض أو بوسـائل تنطوى على استهلاك رأس المال القومى ، ثم أخيرا بغزو البلاد الأضعف .

وفى النهاية أدت النزعة القومية الى تدمير الثروة وكل الأسس المعنوية الضرورية لانتاج الثروة ، وهى السلام وحكم القانون وحسن الثقة والاحساس بالأمن ، تدميرا كاملا . ان نظامنا الاقتصادى الحديث كان نتاج حرية الابتكار والمبادأة والعمل . ومع صعود دول العبودية الشمولية الحديثة صار الاقتصاد العالمى أنقاضا أكثر فأكثر . فقد اضطرت معظم الدول الى أن تحول نفسها الى قلاع مجهزة لحصار أبدى وهجمات مفاجئة من الأرض والبحر والجو .

ومن العوامل التى ساعدت أيضا على قيام الحواجز بين الدول وعلى القضاء على التعاون الدولى ، نمو صناعات الدولة والقواعد الضيقة التى تضعها الدول للصناعات على حساب المشروع الفردى . ومن المستحيل أن ندخل هنا فى مناقشة حول ما اذا كان التخطيط المركزى أو التخطيط الفردى أكثر انتاجية وأفضل من الناحية الاجتماعية . فأكبر الثقات الاقتصاديين اليوم متفقون على أن لكل من النظامين مزاياه وعيوبه وأن الجمع بينهما بصورة ما أمر مرغوب فيه أو حتمى . أن ما سنناقشه هنا هو أثرهما فيما يتصل بالنزعة القومية. والآن لا ريب فى أن وجود نفوذ بعيد المدى للدولة على الانتاج يجنح الى نقص التبادل الدولى للسلع ورأس المال والعمل . وفى عدة فروع لا يستطيع انتاج الدولة أن ينافس المشروع الفردى فى السوق الحرة ؛ ومن ثم فانه يؤدى الى اجراءات يقصد بها استبعاد السلع الأجنبية من السوق الداخلى أو اغراق الأسواق الأجنبية بالصادرات بخسارة ؛ ومن الطبيعى أن يثير ذلك الدول التى تتأثر بهذه المعاملة الى حماية نفسها ضد المنافسة غير العادلة . وفضلا عن ذلك فان مجرد دخول دولة أجنبية فى منافسة مع أبناء البلاد يثير غيرة قومية أكثر مما تثيره منافسة التجار الأجانب . وكقاعدة عامة يفسر هذا الدخول فورا على انه حركة سياسية ذات أهداف شريرة . فالتاجر الخاص على استعداد للبيع أو للشراء حيثما كان فى ذلك ربح له ، فى حين أن احتكار الدولة للتصدير يؤدى الى عزوف شديد عن أخذ القدر المناسب من البضائع الأجنبية فى مقابل صادراته . كما ان خطط «المقايضة» التى تمت بين الدول بنوايا طيبة لم تؤد حتى الآن الى نتائج طيبة الا فيما ندر .

ومن نتائج زيادة نشاط الدولة فى الانتاج وفى تنظيم الانتاج تضاعف عدد الموظفين الذين يؤلفون فى كثير من البلاد طبقة سريعة التأثر بالنزعة القومية . اذ أن سيكلوجية موظفى الدولة كثيرا ما تنطوى على تغلب الاحساس بالقوة ، ويميل كثيرون منهم بطبيعة الحال الى استعراض وظائفهم بوصفهم أصحاب القوة . وصغار الموظفين والأقل تعليما بينهم معرضون لذلك عادة أكثر من أولئك الذين يتحملون مسئوليات كبرى (١) . والآن ان تطورنا الاجتماعى يؤدى الى زيادة

---

(١) لقد اقتنعت بعد ملاحظة طويلة فى بلاد مختلفة فى وسط أوربا وشرقها أن أكثر طبقة تضم نسبة ضخمة من ذوى النزعة القومية المتعصبين فى طبقة صغار موظفى الدولة . وقد انبثقت معظم الصراعات القومية فى هذه المناطق أساسا من التنافس بين أشباه المثقفين على وظائف الحكومة .

سريعة فى عدد الأفراد الذين يملكون قدراً من التعليم ويمكن أن يطلق عليهم اشباه المثقفين . وهذا الانتشار فى التعليم مفيد جداً من وجوه كثيرة ، والأمل أن يزيد بنسبة أكبر . ولكن يجب ألا نغفل عن أن من نتائجه أيضا زيادة عدد الاشخاص الذين لديهم طموح للحصول على مركز ذى نفوذ وسلطة . وفى حالات كثيرة كانت حالة طبقة شبه المثقفين الذين لا يجدون فرصا مناسبة لاشباع طموحهم مشكلة اجتماعية كبرى . والنظام الاقتصادى الذى يتيح مجالا للابتكار الفردى يؤفر لكثيرين منهم فرصة النجاح فى مهنة ما وأن يصيروا قياصرة فى متجر أو مصنع بقدر ما يسمح البرلمان والنقابات . بيد أن تركيز النشاط الاقتصادى فى يد الدولة أكثر فأكثر يضيق هذا المجال ولابد أن يحول الطموح الى السياسة وخدمة الدولة ، الأمر الذى قد ينطوى على زيادة حدة النزعة القومية والصراع من أجل السلطة . وانه لمن المشكوك فيه أن تكون الشيوعية الكاملة مما يتفق مع أية صورة من صور الديموقراطية . فضخامة مشكلة تنظيم حياة الشعب كلها وتعقيدها لابد أن تثير انقسامات واختلافات لا نهاية لها فى الآراء ، ويشتد الصدام بين المصالح والمطامح بحيث لا يمكن التغلب عليها الا بالدكتاتورية .

الفصل الثامن

الفكر السياسي والأيديولوجية القومية

١ ـ تاثير الفكر على السياسة

ان الفلاسفة والمؤرخين كونوا عدة وجهـــات نظر مختلفة فيمــا يتعلق بالصـلات بين الفكر والحيـاة ، وبـدور الأفكـار فى وضــع السياسات (١) . وفى الأزمنة السابقة كثيرا ما كانوا يغالون فى دور الأفراد فى توجيـه مصير الامم ، وأدى ذلك الى وجهـة النظر القائلة بأن التاريخ أساسا نتيجة للاســتهداف والتخطيط الفرديين ، أما فى العهود الحديثة فان هنـاك ادراكا متزايدا لتأثير القوى الاجتماعيــة الجماعية فى التـاريخ ، وينطـوى ذلك على الاعتراف بأثر الانفعـالات والمصالح . وقد أثبت علماء الاجتماع الحديثون أن برامج الأحزاب ، بل ونظريات كبار المفكرين ، تتحدد الى حد كبير ببيئتها الاجتماعية ، وبالأوضـــاع التاريخية الخاصـــة بهــا . بيد أن القوى العقــلانية واللاعقلانية متشـابكة كقاعدة عامة بحيث لايكاد يمكن فصلها . والعالم الحقيقى يحاول وضع الحقيقـة فوق أعز مثله العليا ومصالحه الجوهرية ،

---

(١) أرنست ترولتش «Der Historismus und seine Probleme» ١٩٢٢ ، وفردريكماينكه مجلدان «Die Entstehung des Historismus» ١٩٣٦ ، و ج. جولد فريدريك Die Historische Ideenlehre in Deutschland» ١٩٠٢ . كما أن الاهمية الكبرى للافكار أكدها لورد آكتون فى كثير من تاملاته التى جمعها أولريخ نواك وفسرها فى «Geschichtswissenschaft und Warheit» ١٩٣٥ . وقد أجيب عن السؤال الخاص بدور فلاسفة الاستنارة فى قيام الثورة الفرنسية بصفة خاصة بعدة طرق مختلفة . انظر كنجسلى مارتن « الفكر الفرنسي التحرزى في القرن الثامن عشر » ١٩٢٩ ص ٦٦ .



ولكن حتى هو لا ينجح تماما فى القضاء على التحيز دائما · بيد أن الداعية يستخدم الفكر والمعرفة كمجرد أدوات للدفاع عن أهدافه المتصورة . ونوع تفكيره يسمى عادة أيديولوجية اليوم لتمييزه عن التفكير العلمى غير المتحيز . وفى حالات كثيرة لا يكون الفرق الا فى الدرجة ويصعب تحديد الحد الفاصل .

وكانت الطبقات المثقفة هى دائما القوة الدافعة فى السعى من أجل الجنسية ومنها زعماء هذا السعى ، ومن الجلى أن هذه الطبقات معرضة بصفة خاصة لتأثير المذاهب التى يكونها المفكرون والحالمون ويدافع عنها كتاب وخطباء وفنانون كبار . وكثيرا ما اجتذبت حماسة المثقفين التى يزيدها الفلاسفة اشتعالا فكر الجماهير وحملته معها ،برغم أن الجماهير لا تكاد تعرف شيئا عن الخلفية الفلسفية لمذهبهم . بيد أن الأفكار الاصلية للمفكرين السياسين فيما يتصل بأهداف الجنسية ومغزاها كانت تتغير عادة فى أثناء تحقيقها الى حد أن النتيجة كانت تجىء مختلفة ، بل ومناقضة ، لما توقعوه · ومن ثم فانه من الضرورى عند محاولة تحديد مدى تأثير المذاهب على عقلية الشعوب ألا يقتصر البحث على نظريات الفلاسفة ، بل يشمل ايضا تعديلاتها فى أيديولوجيات الطبقات والشعوب ·

وقد اكد الكثيرون أن كل طابع قومى يعبر عن نفسه فى خطة

فلسفية معينة ، ولكن فى الحقيقة نجد أن النمو الفلسفى لكل أمة ينطوى على أنواع كثيرة مختلفة من الفكر . ومع ذلك فانه صحيح أن نوعا معينا من الفكر كانت له الغلبة عند كل أمة ، وأن هذا الفكر تأثر بقوة عوامل سياسية واجتماعية معينة ، وأن كل امة اليوم تعتبر نمطا معينا سمة مميزة لجنسيتها ، فيما يتعلق بكل من المدنية والسياسية. فالانجليز يعتبرون التجريبية والنفور من النظريات المجردة من سماتهم القةمية المميزة ، ويربطونهما بتفضيلهم للحلول الوسطى والتحررية والديمقراطية . ويفخر الفرنسيون بتقليدهم العقلانى العظيم والدور المسيطر الذى يحتله العقل فى سياستهم . ويفخر الألمان بفلاسفتهم الميتافيزيقين العظماء وبالعناصر المثالية والتصوفية والرمانسية فى فكرهم ، ويؤكدون أيضا الارتباط الوثيق بين فلسفتهم القومية وسياستهم .

بيد أن الارتباط بين الفلسفة والسياسة لم يقل به الكتاب الذين تحدوهم روح الفخر القومى وحدهم ، بل كثيرا ما كان موضع التأكيد بقصد القاء مسئولية السمات الشريرة فى التطور القومى لأمة ما على فلسفتها. وفى الحرب العالميةالأولى بصفة خاصةاتهم كثير من العلماء الألمان الانجليز والفرنسيين بأنهم وضعوا نظما من الفكر تدعم نمو الرأى العام والمذاهب السياسية التى تؤدى الى الحرب . ومن الناحية الأخرى أكد بعض العلماء الفرنسيين والانجليز المبرزين أن الفكر الفلسفى الالمانى بالذات هو الذى صاغ العقلية السياسية التى أنبثقت منها الحرب الكبرى . ومن ثم فان كلا من الطرفين حاول اثبات أن الحرب لم تكن مجرد حادث نجم عن أخطاء رجال الدولة والدبلوماسيين ، بل انها متأصلة الجذور فى العداء القائم بين المثل العليا والمعتقدات التى تدين بها الشعوب والتى يتعلق بها الأمر (١) ، وقد تأكدت هذه الحجة

---

(١) من الناحية الالمانية انظر

ويلهلم واندت ١٩١٥ «Die Nationen und ihre Philosophie»

ماكس شيلر ١٩١٥ «Der Geniusdes rieges und der deutsche Krieg»

ماكس شيلر ١٩٢٣ «Nation und Weltanschawung»

فرنرسومبارت ١٩١٥ «Handler und Helden»

أما من الناحية الفرنسية فانظر ليون ديجوى ١٩١٧ «Rousseau, Kant et Hegel»

ليون ديجوى ١٩٢٧ «Revue du droit publique et de la science polit.»

لويس برتراند ١٩١٥ «Revue des deux Mondes»

فكتور باسك ١٩٢٧ «Les doctrines politiques des philosophes classiques de l'Allemagne»

فى ألمانيا بصفة خاصة وحظيت فكرة ان الحرب هى فى نهاية المطاف صدام بين عقليتين لا تتفقان ، كثير ما وصفتا بأنهما المثالية الألمانية والمادية الغربية ، بانتشار واسع بين المثقفين (١) .

وكل هذا الجدل بين ممثلى الامم المتعادية كان مصدر وحيه طبعا هو الانفعالات السياسية والتحيزات . ومع ذلك فلا يمكن انكار أن هناك صلة ما بين الفكر الفلسفى والأيديولوجيات السياسية . وصحيح أن بعض الفلسفات قامت بدور أكبر من غيرها فى صعود النزعة القومية العدوانية . ولكن من الناحية الأخرى من الخطأ أن نفترض ان نوعا من الفكر الفلسفى هو الذى شجع هذا التطور . فمن الحقائق الغريبة أن عددا كبيرا من التيارات الفكرية والمشاعر والمصالح اشتركت كل منها فى نمو النزعة القومية من ناحية وقاومت آثارها من ناحية أخرى . فالمثالية والمادية والحتمية واللاحتمية والعقلانية واللاعقلية والتفاؤل والتشاؤم والفردية والجماعية والدين واللادين ـ كلها شجعت الزيادة فى العدوانية القومية وعبادة الذات من ناحية وعارضتها من ناحية . اذ أن كل مدرسة فكرية تنطوى على اتجاهات مختلفة فى النمو ، وكثيرا ما أيقظ بعض المفكرين الكبار افكارا فسرت فيما بعد بواسطة اتباعهم بمعنى مختلف تماما عما قصدوه .

وليس الغرض من الملاحظات التالية هو تتبع الارتباط بين بعض الفلسفات بذاتها وجميع جوانب الطابع القومى . فهذه المهمة تتطلب كتابا منفصلا لكل مفكر بمفرده . ان هدفنا هو مجرد عرض أفكار كبار الفلاسفة عن بعض المشاكل الرئيسية فى الجنسية. بالاضافة الى أن الطابع القومى تأثر بالفكر فى صورة الدين والشعر والفن ، وكأن تأثير مثل هذه العوامل عادة أقوى بكثير جدا من تأثير الفلسفة نفسها . وقد ناقشنا دور الدين فى فصل منفصل ، ولكن دور الشعر والفن لا يمكن مناقشتهما هنا الا بصورة عابرة من وقت لآخر .

٢ ـ الفكر فى العصور الوسطى عن الجنسية والدولة والسلام والحرب

كثيرا ما يقال اليوم : ان العصور الوسطى لم تعرف الجنسية ، وان

---

(١) من أكثر دعاة هذه النظرية تعصبا ستون ستيوارت شمبرلين فى كتابات مختلفة نشرها ابان الحرب وفى مراسلاته مع القيصر وليم (نشرت ١٩٢٨) .

كان الأقرب الى الصحة القول بأن فكرة العصور الوسطى عنها تختلف عن الفكرة الحاضرة • فالناس بالتأكيد كانت تشعر بعاطفة نحو أرض الموطن ونحو العشيرة والقبيلة والعادات القديمة ، وكانوا يفخرون بموطنهم الصغير وهيبته ويبدون الكراهيةوالتحيز نحو الأعداء • ولكن التضامن كان قليلا بين مراتب الناس المختلفة ، ولم توجد فكرة الولاء غير المحـــدود للقضية القومية ، وكان الدين يعتبر قطعـا فوق المشاعر القومية ، على الاقل من ناحية المبدأ ، وان انتشرت في أواخر العصور الوسطى حركة قومية ضد اساءات البابوية • وكان السعي العدواني للتوسـع والسـيطرة كثيرا ، ولكنه نادرا ما كان ينطوي على اتجاه قومي صريح ، ولم يكن الهدف هو فرض جنسية المنتصر على الشعب المهزوم • كما لم يكن هناك تعصب كثير تجاه الأجانب المسالمين لمجرد لغتهم (١) أو عاداتهم ، وكثيرا ما سمح لهم بأن يعيشوا في جماعات منفصلة كادت تكون دولا داخل الدول • وكانت لغة الدولة والكنيسة والجامعات هي اللاتينية • وكانت المشـاعر القومية الموجودة في الغالب أكثر تلقـائية واخلاصا من كثير من مظاهر النزعـة القومية الحديثة التي تعتبر الى حد كبير نتـاج الاثارة المصطنعة بواسطة الدعاية •

وكان العامل الرئيسي في تحديد الفكر السياسي هو تعاليم الكنيسة ، وتعبر عن موقفها الأساسي هذه الكلمات التي استعملها في سـنة ١٠٩٥ البابا يوربان في خطابه الشهير الذي يحث فيه المسيحيين على القيـام بالحروب الصليبية : « لا تدعوا التصاقكم بأرض مواطنكم يقف عائقا : لأن من وجهات النظر المختلفة تعد الأرض كلها منفى للمسيحي وكل العالم موطنه » (٢) •

وينطوي هذا الموقف على مبدأين : أن وحدة المسيحية لها الأولوية على الاختلافات القومية ، وأن السلطة الروحية للكنيسة مفروض أنها فوق السلطة الزمنية للحكومات • فالوطن الحقيقي للمسيحي هو النعيم ، ومن ثم فان الموطن الأرضي ثانوي في الأهمية • فضلا عن أن العقل في العصور

---

(١) وان كانت الاسباب المالية والتجارية أدت أحيانا الى صراعات عنيفة •

(٢) وليم أوف مالسبري (كرونيكل) ترجمة جايلز ١٩١١ ص ٣٦٣ • ويؤكـد مسجل التقويم « كرونيكل » ان النص أخذ من مصادر موثوق بها • والغالب ان وجهة نظره الخاصة لم تكن مختلفة تماما • ففي مكان آخر (ص ٢٨٥) يذكر كيف أن ادجار ، وهو انجلوساكسوني من دم ملكي هرب الى القارة بعد مقاومة غير ناجحة لوليم الفاتح ، لقي ترحيبا عظيما وتكريما ولكنه مع ذلك عاد الى انجلترا « لأن حب الوطن يخدع حقيقة بعض الناس الى درجة أنهم لايسرون بشيء الا اذا كانوا يتنفسون هواء بلادهم» • ويقول مسجل التقويم ان ادجار « كان مخدوعا بهذه الرغبة السخيفة » •

الوسطى تأثر بعمق بتصور القديس أوجستين للدولتين على الأرض : مجتمع الله ومجتمع الشيطان • وبرغم أن أوجستين لم يحدد هذين المجتمعين بأنهما الكنيسة والدولة ، فانه افترض صلة معينة بين كل منهما • فالدولة الأولى أسسها قاتل أخيه ، وهو قابيل ، وجاءت كل الدول بعد ذلك ملوثة وتحدوها بالدماء شهوة السلطان والمجد والسيطرة والاغتصاب •

وقد بينا من قبل أن الصراع بين السلطتين الروحية والزمنية كانت له أهمية كبرى فى نمو الدولة القومية • فقد حاول البابوات والأباطرة والملوك ، كل بدوره ، أن يكسبوا تأييد الشعوب ضد خصومهم ، وبذلك عملوا — برغم ارادتهم — على نمو أفكار الاستقلال القومي والحرية والسيادة القوميتين • وكانت وحدة الكنيسة تتطلب امبراطورا عالميا يدافع عن هذه الوحدة بالسيف عندما يتهددها الخطر • ولكن ذلك لم ينطو على فكرة السيطرة العالمية بالمعنى الحديث ، بل كان أقرب الى سلطة الحكم الأعلى بين الحكام المسيحيين والى سيادة الشرف ، وان كان بعض الأباطرة سعى الى تحقيق أهداف أكثر طموحا • ففكرة السيادة بمعنى السلطة غير المحدودة والسعى الى التوحيد ، وهو المعنى الذى يسيطر على أيديولوجية الجنسية الحديثة ، كانت غريبة عن الفكر فى العصور الوسطى • فكان المجتمع يعتبر مؤلفا من جماعات كثيرة ، لكل منها بعض الحقوق الخاصة التى تعد مقدسة مثل حقوق الحكومة ، وكانت سلطة جميع الحكام الدنيويين مقيدة «بقانون الناس» والعادات القديمة والامتيازات الفيودالية ، وفوق كل شيء آخر بالقانون الالهى والطبيعى الذى يعتبر وحده معقد السيادة (١) • وصحيح أن البابوات ادعوا سلطة غير محدودة ابتداء من جريجورى السابع ومن بعده ولكنهم كانوا يتصرفون بوصفهم ممثلين لله ، وكانوا بطبيعة الحال مقيدين بمبادىء المسيحية والقوانين الأساسية للكنيسة ، ولم تحظ ادعاءاتهم ولا ادعاءات منافسيهم ، التى تقدم بها الفقهاء باسم الأباطرة ، بقبول عام •

ان البناء الفدرالى لمجتمع العصور الوسطى لم يكن متفقا مع فكرة

---

(١) انظر ر• وأ• كارلايل « تاريخ النظرية السياسية فى الغرب فى العصر الوسيط » المجلد الرابع ١٩٢٢ ص ٣٦ و٦٨ و ٨٥ • وأوتو جيركه « النظريات السياسية في العصر الوسيط » ترجمة ومقدمة بقلم ف.و.ميتلاند ١٩٠٠ ص ٧٣ • وكذلك عدة مقالات بقلم كتاب مختلفين فى « الافكار الاجتماعية والسياسية لبعض كبار مفكرى العصور الوسطى » • أشرف على تحريرها أ• هيرنشو ١٩٢٣ •

«الأمة الموحدة ذات السيادة» الحديثة • ومعذلكفان مبدأ السيادة الشعبية لم يكن غير معروف • فقد كانت له جذور فى القانون الرومانى والقانون الجرمانى ، وكان تأييده بالامثلة من الانجيل والتاريخ السابق ممكنا • فقد اعتبر أن الملك منتخب بواسطة الشعب ، ممثلا فى أقطابه ، واذا هو خرق واجباته أمكن عزله •

وأعلن جريجورى السابع أن السلطة الروحية للبابا أعلى من كل الحكومات الزمنية ، ووصف حكمالملوك فى خطابه الشهير الى أسقف متز فى الفاظ فظيعة على أنه من عملالشيطان أصلا وطبيعة معتبرا الدولة ومدينة الشيطان ، التى قال بها أوجستين ، شيئا واحدا تقريبا • وصاغ جون سالسبورى النظرية الرئيسية لجريجورى فى صورة أكثر اعتدالا وبروح عملية ، ووصف الدولة الطيبة ككائن عضوى يمثل فيه رجال الكنيسة الروح ، والحاكم الرأس الذى لا بد أن يخضع لحكم الروح (١) • وقورنت أجهزة الدولة والمجتمع المختلفة بالأجزاء الأخرى للجسم • وقد أخذت هذه المقابلة من مصدر قديم زائف هو أحد المؤلفات التى عزيت الى بلوتارخ ، وقد حذا عدد كبير من الكتاب حذو جون سالسبورى• وتبعا لمايقوله هدف الدولة هو أن تجعل فى وسع كل فرد أن يحقق خلاصه بأن يعيش عيشة مسيحية حقة فى وضعه الخاص • ومن ثم فان دولته دولة دينية ولا علاقة بينها وبين الدولة القومية الحديثة • فهو لا يكاد يعرف الأمة ، وقد اخضع حكمها على أى الأحوال للسلطة العليا التى يمارسها رجال الكنيسة • وبرغم أن جون كان من عدة وجوه انجليزيا حقيقيا فانه عاش فيما بعد فى الخارج بوصفه أسقف شارتر بالقرب من باريس • وعندما قام البارونات القوميون فى سنة ١٢٨٥ بقيادة مونفورت وبيجود بطرد الاساقفة الاجانب من انجلترا ، برروا ذلك فى خطاب الى البابا بالاستشهاد بقول جون سالسبورى : ان الدولة ينبغى أن تكون وحدة عضوية وأن التناسق يجب أن يسود بين أعضاء الجسم الواحد (١) •

---

(١) انظر فيما يتصل بجون أوف سالسبورى كارلايل المجلد الرابع ص ٣٣٠ ، والمقال الذى كتبه أ•ف• جاكوب فى كتاب هيرنشو السابق ، وبول جنريخ «Die Staats und Kirchenlehre Johanns von Salisbury» ١٨٩٤ •

(٢) يملأ الصراع ضد الاجانب فى عهد هنرى الثالث صفحات قسم كبير من كتاب مايتو باريس «التاريخ الانجليزى» (ترجمة جايلز ثلاثه أجزاء ١٩٥٤) • ويظهر فى هذا الكتاب أشد عداء ممكن ضد جميع الاجانب سواء كانوا من نبلاء بواتفان أو غسقونيا ، أو كبار الشخصيات والماليين الايطاليين ، أو التجار الألمان • ويوصف الاسبان بأنهم « حثالة البشر وجوههم قبيحة وسلوكهم مزر وأخلاقهم كريهة » • وينعى المسجل =

وعندما عرف كتاب السياسة لأرسطو على نطاق واسع بالنص الأصلى وترجمته أدى ذلك الى اثارة الفكر السياسى فى القرون الوسطى والى دعمه ، وحاول توماس الأكوينى (١٢٢٦-١٢٧٤) الجمع بين اتجاه أوجستين لما وراء الطبيعة وآراء أرسطو • وقد تأثرت فكرته الاجتماعية أيضا بروح الجمهوريات المدن فى ايطاليا وبالعهد القديم والفلسفة العربية واليهودية (١) • فالمسيحيون جميعا يؤلفون شعبا واحدا أولا عنده ، أما انقسامهم الى دول فهو أمر ثانوى ، وكل الدول المسيحية تؤلف عائلة واحدة • والاشتراك فى حرب عادية خطيئة وان كان من يقاتلون فى سبيل الله لا لوم عليهم • والمجتمع تنظيم تنازلى عضوى من المراتب الوظيفية ، وأفضل نوع من الحكم هو الملكية المنتخبة • وما زال فكر الأكوينى هو مذهب الكنيسة الكاثوليكية • وتحدوه روح النفور من الدولة الموحدة القوية التى تقوم على السيطرة والهيبة ، وتفضيل المجتمعات المسالمة الصغيرة التى تعيش على العمل بالذهن واليد والطوائف المهنية المستقلة تحت توجيه الكنيسة • أما آجيديوس أوف روما فبرغم أنه من المدافعين الأشداء عن سيادة البابا فانه يؤكد مزايا الملكيات الوراثية الكبرى كما يعتنق مبدأ سيادة الشعب ، الذى قال به ارسطو ، وهو المبدأ الذى سرعان ما سيعلنه كل من مارسيليوس أوف بادوا ونيقولا أورزميوس (٢) فى صورة أكثر تطرفا• وكانت الدولة القومية النامية قد أثبتت فعلا أنها

= باستمرار استعباد الاجانب لانجلترا بأخذهم كل مافيها من مال الى الخارج • ويندد بالزواج بالاجنبيات ، بل ويقول ان الاجانب قاموا بمؤامرة لتسميم الانجليز ، وبخاصة النبلاء ، وان كثيرين ماتوا فعلا • ويؤكدان ان السم ، وهو سائل أزرق ، مزج فى منزل الياس بيشوب وبرضاه ، وهويهودى من لندن آنقذ حياته بأن اعتنق المسيحية (المجلد الثانى ص ٢٩٦ و ٣١٤) • ويذكر ماتيوباريس أيضا (فى المجلد الثانى ص ٢٤٨) أن ملك فرنسا أوفده الى هاكون ملك النرويج يعرض عليه قيادة الاسطول الفرنسى كله فى حرب مقدسة ولكن هاكون رفض هذا الشرف لأن النرويجيين والفرنسيين ذوى طبيعة تجعل أى نزاع يؤدى حتما الى أضرار لا اصلاح لها • ويكفى ماتيوباريس وحده لدحض أسطورة أن الكراهية القومية لم تكن معروفة فى العصور الوسطى •

(١) أنظر بخاصة أ • ترولتش «Die Soziallehren der Christlichen Kirchen» ١٩١٢ ص ٢٥٦ (وهو مترجم الى الانجليزية أيضا) • و أ• شيللنج «Die Staats — und Soziallehren des hlg. Thomas von Aquin» ١٩٢٣ •

(٢) أنظر فيما يتصل بالكتاب السياسيين فى آخر فترة من العصور الوسطى كارلايل المجلد الخامس • وهيرنشو المرجع السابق • وبول جانيه «Histoire de la Sc. Polit.» المجلد الخامس • وهيرنشو المرجع السابق •وبول جانيه «Die Publizistik zur Zeit Philip des Sohönen» ١٩٠٢ •

أقوى من الامبراطورية العالمية التى نادى بها البابا والامبراطور · وقد دافع دانتى عن الملكية العالمية التى يرأسها الامبراطور على أساس أنها وحدها تستطيع المحافظة على السلام والوفاق بين الشعوب · وأعلن أسفه لتمزيق الجنس البشرى شذرا بالنزاع المستمر · وقال : ان الرجل الذى ينظر الى موطنه ولغته الأصلية باعتبارها أسمى من جميع اللغات والمواطن الأخرى أحمق · وأضاف دانتى أن حبه لفلورنسا جلب عليه النفى والظلم ، وأنه يفضل من ناحية رفاهته الشخصية أن يعيش فيها أكثر من أى مكان آخر ، ولكنه ينظر الى العالم باعتباره موطنه وهو مقتنع بأن شعوبا كثيرة لديها بلاد أجمل وأنبل ولغات أجل وأكثر فائدة ·

وكان التنافس والمباهاة والأزدراء كثيرة بين شعوب القرون الوسطى ، وان كانت الوحدات وقتئذ أصغر حجما من الأمة الحالية (١) · كما كانت توجد أيضا أيدلوجيات لتبريرها ، وبخاصة فكرة الرسالة القومية · ولما صارت الامبراطورية الرومانية فى أيدى الألمان جعلهم ذلك يتيهون فخرا وأدى الى ظهور نظريات مختلفة عن حقهم فى السيطرة العالمية · وأعلن الكتاب الألمان أن الامبراطورية « أعطيت » للألمان ورياسة الكنيسة للايطاليين والقيادة فى المعرفة للفرنسيين · بيد أن هذه الرسالة وحدها لم تكن كافية لطموح الفرنسيين الذين كانت تحدوهم فكرة قيام فرنسا القوية العظيمة ·

وممن يمثلون وجهة النظر هذه تماما الفقيه الملكى بيير ديبوا (٢) · وكان أحد تلامذة توماس الأكوينى · ولعل نفوذ أستاذه هوالذى يظهر فى تأكيده على السلام بوصفه الخير الأسمى ، وفى خططه لتكوين فدرال بين جميع الحكام المسيحيين وانشاء محكمة دولية للمحافظة على السلام والقيام بجهاد مشترك ضد الأتراك · ولكنه يختلف عن القديس توماس اختلافا كبيرا فى أنه حاول تبرير السيطرة العالمية ، أو على الأقل السيادة فى

---

(١) فى الجامعات الكبرى مثل باريس وأوكسفورد حيث إختلط الطلبة من بلاد عديدة وأنحاء مختلفة من البلد الواحد كانت تقوم صراعات عنيفة بين الطلبة الذين ينتمون الى أصول مختلفة . وفي جامعة باريس كان الطلبة يعزون رذائل معينة الى كل أمة ، وقد سجل هذه الرذائل جاكوبوس دى فيترياكو . انظر أ. بودنسكى «Die Universitat Paris und die Fremden an derselben in Mittelalter» ١٨٧٦ ص ٤٦ ·

(٢) أنظر فيما يتصل بديبوا ايلين باور مرجع هيرنشو السابق ص ١٣٩ ، وجاكوب تيرمويلن «Der gedanke der internationalen Organisation in seiner Entwiklang» ١٣٠٠ ـ ١٥٠٠ ـ ١٩١٧ وكريستيان لانج «Histoire de l'internationalisme» ١٩١٩ المجلد الاول ·

أوربا ، لملك فرنسا وفى اقتراحه توسيع السيطرة الفرنسية بشكل كبير جدا على حساب البابا وألمانيا واسبانيا ٠

وقد أثارت مشكلة الطابع القومى أيضا انتباه كتاب العصور الوسطى٠ ففى القرن الثالثعشر كان الانجليز مينورايتبارثلميو ، وهو عالم مبرز عمل أستاذا فترة ما فى ألمانيا وفرنسا، وقد وصف طابع عدة شعوب أوربية (١) ٠ وبدا له الألمان بصفة خاصة عنيفين وميالين الى القتال ، وان كان قد استثنى منهم شعوب أرض الراين والأراضى الواطئة وميسينا ، ساكسونيا الحالية ، الذين كانوا متمدينين ٠ واسترعى نظر روجر بيكون الاختلاف فى الطابع القومى حتى بين الشعوب المتجاورة مثل البيكارديين والفرنسيين والنورمانديين والفلمنكيين والانجليز ٠ وانتهى الى نتيجة أن الاختلاف راجع الى ترتيب النجوم (٢) ٠ وقرابة نهاية العصور الوسطى دعمت الدراسات الانسانية وصعود الشعور القومى الاهتمام بهذه المشاكل الى حد كبير ٠

وكانت الصراعات العنيفة كثيرا ما تناقض وجهة نظر العصور الوسطى من أن المسيحية كلها تؤلف شعبا واحدا ، ولكن هذه النظرة لم تكن بلا تأثير تماما على العلاقات بين الشعوب ٠ فقد تناول المدرسيون والعلماء مشاكل القانون الدولى بالبحث ، وكان للتحكيم الدولى دور ضخم ٠ ويناقش نوفاكوفيتش ، الذى قام بدراسة خاصة لهذا الموضوع ، أكثر من ١٥٠ رسالة وحالة من حالات التحكيم وقعت فى الفترة من ١١٤٧ : ١٤٧٥ ، ولا تعتبر قائمته كاملة (٣) ٠ وقد كان السبب الرئيسى بالتأكيد هو عدم وجود أية دول قومية كبرى بعد ٠ فقد كانت الأقطار صغيرة ويحكمها أمراء تحدوهم التقاليد الفدرالية بدرجة تزيد أو تنقص ٠ وكثيرا ما أثيرت فكرة التضامن بين جميع الأقطار المسيحية وبخاصة فى مواجهة الخطر التركى ٠ وقد تقدم ملك بوهيميا ، جورج أوف بوديبرادى ، بخطة تنظيم فدرالى لأوربا عرضها على لويس الحادى

---

(١) أنظر «علوم العصور الوسطى ، منتخبات من دائرة معارف بارثلوميو انجليكوس» بقلم روبرت ستيل ١٨٩٣ ٠ وانطون شونباخ «Mitteilungen des Instituts fur Oesterreichische Geschichtsforschung» ١٩٠٦ ٠

(٢) أنظر روجر بيكون «Opus Majus» اشرف على تحريره أ٠هـ٠ بريدجز ١٨٩٧ المجلد الاول ص ١٣٨ و ٢٥٠ و ٢٥٤ و ٣٧٩ و ٣٩٣ والمجلد الثانى ص ٣٦٦ ٠

(٣) نوفاكوفيتش «Les compromis et les Arbitrages internationaux du 12e au 15e siècle» ١٩٠٥ (أورده لانج ص ١٢٣) ٠

عشر ملك فرنسا (١) • وبعد العصور الوسطى بفترة قصيرة وصل الأمر الى حد وضع مبدأ الفدرال الدائم فى وثيقة رسمية هامة هى وثيقة « السلام العالمى » التى تم الاتفاق عليها فى لندن سنة ١٥١٨ ، بدعوة من البابا ليو العاشر والكاردينال ولسلى ، بين الملك هنرى الثامن ملك انجلترا والملك فرانسيس الأول ملك فرنسا ، وانضم اليهم شارل الأول ملك اسبانيا (الامبراطور شارل الخامس فيما بعد) والبابا • وفى هذه المعاهدة اتفق الملوك على سلام وتحالف دائمين ، لا ضد الأتراك فحسب بل ضد كل معتد • فاذا هوجم أحدهم بواسطة دول أخرى تقرر المعاهدة أن حلفاءه الآخرين عليهم أولا أن يتدخلوا دبلوماسيا وان فشل ذلك أن يرسلوا اليه مساعدة عسكرية على الفور • وكانت كل الدول الأخرى تستطيع الانضمام الى الحلف • بيد أن هذا الاتفاق « بالأمن الجماعى » لم يوضع موضع التنفيذ سوى فترة قصيرة • فقد تحطم بموت الامبراطور مكسيمليان الأول واندلاع الصراع الطويل على القوة بين فرنسا واسبانيا•

فجنوح الملوك الى السلام لم يكن قط عاملا موثوقا به فى السياسة الدولية ، لا بسبب وجود بعض الملوك فى كل وقت يسعون الى توسيع سلطتهم بالحرب فحسب ، بل كذلك لأنهم كانوا مضطرين الى الالتجاء الى الحرب اذا أرادوا المحافظة على السلام فى الداخل • ان لويس التاسع (القديس لويس) كثيرا ماشكا من أن اعتزاز الفرنسيين ، وبخاصة كبار النبلاء ، يهدد سلام العلاقات الدولية• فقد كان بناء الدول القومية يتطلب سلاما داخليا ، وكان من الضرورى استنفاد الانفعالات الحربية فى حروب خارجية ، وكانت هذه الحروب، فضلا عن ذلك ، تساعد على تكوين وحدة القومية ودعمها باثارة الانفعالات القومية ضد عدو مشترك • ولكن الى جانب الشك فى أن الملوك سيجنحون الى السلام كانت هناك رغبة مخلصة وشديدة فى السلام والاخاء الانسانى فى الدوائر الدينية والانسانية •

فقد شغل الفكر المسيحى باستمرار بمشكلة الحرب وحاول أن يجد لها حلا تحدوه روح المسيح • ففى القرن الثانى نبذ مارسيون العهد القديم بأكمله بسبب ما يشيع فيه من روح حربية ، فى حين حاول أوريجين أن ينقذه بتفسير هذه الحروب على أنها رمزية تعنى الصراعات

---

(١) انظر لانج ص ١٠٨ ، وتيرموبلن ص ١٠٨ • وقد وضع المشروع انطونيوس مارينى ، أحد رجال الصناعة الفرنسيين ، الذى كان مستشارا للملك بوهيميا • بيد أن الملك كانت لديه خطط طموحة جدا حاول دعمها بهذه الحركة • وقد فشلت الخطة بجهود حزب البابا فى البلاط الفرنسى • وفيما يتصل « بالسلام العالمى » فى ١٥١٨ انظر لانج ص ١١٨ •

بين المؤمن والاغراءات والخطايا الدنيوية • وفى العصور الوسطى اعتنقت عدة شيع ، مثل : الكاثاريين والوالدانيين وقسم من الاخوة المورافيين واللا معمدانيين ، الدعوة الى السلام المسيحى وعدم القتال ومارسته •

وعلم وايكليف أنه تبعا لتعاليم الانجيل يعتبر سفك الدماء مما لايتفق مع روح المسيح(١) • وقد تركت تعاليمه أثرا كبيرا فى بعض الشيع المشار اليها • وفى انجلترا أعلن أول «معترض على القتال بسبب الضمير»، وهو وليم هوايت الذى اختبره أسقف نورويتسن فى سنة ١٤٢٨ ، أن قانون المسيح يحرم قتل الكائنات البشرية ، حتى المجرمين الذين أدينوا ، وأنه لا يسمح بالقتال حتى دفاعا عن ميراث الانسان أو وطنه • وكان هناك مصدر آخر لمعارضة الحروب والعنف هو المعتقد الانسانى فى كرامة الانسان وفى ضرورة السلام لنمو ملكاته الروحية •

٣ ـ النزعة القومية والعالمية فى عهد « الانسانية »

ان الفترة التى حول سنة ١٥٠٠ تحدد مرحلة مهمة جدا فى نمو الدول القومية والتطلعات القومية • ففى بلاد كثيرة قويت الوحدة القومية على يد الملوك الذين دخلوا فى خصومات دولية كبرى من أجل السلطة والهيبة مستخدمين اختراعات جديدة ضخمة فى الأساليب الحربية • وكان اكتشاف العالم الجديد بداية مرحلة جديدة من التجارة والاستعمار تنطوى على بذور التنافس بين الأمم • وتقدم العلم والمعرفة بسرعة ، وأتاح اختراع آلة الطباعة للمصلحين والكتاب أداة ذات قوة ثورية ، وبلغت مدنية عهد « النهضة » ذروة بهائها • ولم تكن « النهضة » مجرد احياء للدراسات الكلاسيكية ولكن كان يحدوها تطلع نحو ميلاد جديد للجنس البشرى(٢) • ونمت طبقة جديدة من المثقفين اعتنقت فكرة « الانسانية » ، التى تعنى الجوانب الفلسفية والأدبية من « النهضة » وتؤكد « الانسانية » فى الطبيعة البشرية بوصفها مصدرا للقيم بدلا من وحى ما وراء الطبيعة • وكانت الكنيسة وفلسفة العصور الوسطى تبشر الى حد كبير بعدم الثقة فى الطبيعة البشرية ، وحاولا أن يقيدا العقل والعواطف والارادة بنظام مشدد ، وكانت « النزعة الانسانية » تمردا فكريا ضد هذا الكبت للطبيعة البشرية أثارته الحماسة للفكر والحياة القديمين •

---

(١) انظر فيما يتصل بنزعة السلام فى العصور الوسطى لانج ص ٥٩ • ومن المفيد مقارنة موقف وايكليف بموقف لوثر الذى كان كثير التردد والارتباك • انظر فيما يتصل بلوثر هانز بروتز «Die Friedensidce» ١٩١٧ ص ٧٣ ولانج ص ٢٢١ •

(٢) ك • بورداخ «Reformation, Renaissance, Humanismus» ١٩١٨ •

وقد أثار بحث « الانسانيين » عن فلسفة جديدة للحياة بدلا من الصيغ « المدرسية » الجامدة مشكلة : كيفية تفسير الطبيعة البشرية . هل الانسان فى جوهره كائن عقلانى أو لا عقلانى؟ هل هناك «كرامة للانسان» من نوع خاص يميزه عن كل المخلوقات الأخرى ؟ وهل تشيع فى وجوده شرارة من العقل الالهى ، أم هل الانسان مجرد حيوان أعلى مرتبة تدفعه الشهوات الحسية والغرائز العمياء وشهوة القوة ؟ وتفرعت « الانسانية » الى عدة فلسفات مختلفة ذات دلالات ثقافية وسياسية واسعة الاختلاف . بيد أن بعض الاهتمامات المعينة ظلت مشتركة بين أغلبية « الانسانيين » وبخاصة الاهتمام بالدراسة المقارنة للفردية البشرية وللأنماط المختلفة من البشر ولاختلافات الأمم . وبدأ ينمو قدر ضخم من الكتابات عن الطابع القومى ، وصفا لعادات الشعوب وتقاليدها وبعضها محاولة فى تفسير أصلها وبعضها أيضا تعبير عن أحكام على مزايا وعيوب الأمم (١) .

كما تأثرت النزعة « الانسانية » نفسها بالاختلافات القومية وبالتطلعات القومية . فقد كانت وطنية الاغريق والرومان موضع اشادة فى كل مكان واعتبرت نموذجا ، ولكن نزعتهما « العالمية » أيضا كانت موضع اعجاب ومحاكاة . وأسهمت وجهات النظر القديمة فى طابع الشعوب فى تكوين الأيديولوجيات القومية . وربط الايطاليون بالرومان والفرنسيون بأهل الغال والتيوتون بالألمان ، وحث الكتاب فى كل مكان شعوبهم على الاقتداء بفضائل أسلافهم المزعومين وعلى أن تصيغ طابعها على نمطهم . وفى كل بلد أضفى التكوين الاجتماعى والتقاليد الثقافية لونا معينا على « الانسانية » .

وكانت صفوف « الانسانيين » ورعاتهم فى المجتمع تضم البابوات والأباطرة والملوك ورجال الدولة والموظفين والمؤرخين وعلماء وشعراء وخطباء آخرين . ففى ايطاليا كان بلاط الملوك والأمراء كلهم وقصورهم والجامعات تزخر بهم . وكان كثير من « الانسانيين » لا يكلون من مديح الحكام والنبلاء واستدرار فضلهم ويعدونهم بتخليد أسمائهم فى كتاباتهم . وقد لام آنيا سيلفيوس الأمراء الألمان لانصرافهم عن الاهتمام بالمحافظة على الأخلاق . وقال : انهم يهتمون بخيولهم وكلابهم فحسب وأن الأجيال التالية ستنساهم كما تنسى الخيل والكلاب . وبالاضافة الى أن كثيرين من « الانسانيين » كانوا من دعاة السعى لتحقيق الهيبة القومية ، فقد أعلن

---

(١) انظر عرض تاريخ هذه النظريات فى كتابى «Archiv für Sozialwissenschaften» ١٩٢٦ .

« الانسانيون » الايطاليون أن شعبهم ينحدر من الرومان ومن ثم فهو متفوق على جميع الشعوب الأخرى ، التى اتهموها بأنها برابرة وحكموا عليها بعداء وازدراء شديدين . وأثار ذلك ثائرة « الانسانيين » فى البلاد الأخرى وسارعوا بالرد على هذه الاهانات وتأكيد تفوق أممهم (١) .

وفى ألمانيا كان الامبراطور مكسمليان من كبار رعاة « الانسانيين » واستخدم كثيرين منهم فى تحقيق طموحه السياسى والثقافى . وكتابات هذه المجموعة تشيع فيها روح الفخر القومى الشديد(٢) . وقبل ذلك بفترة قصيرة كان أحد « الانسانيين » الايطاليين قد اكتشف فى دير ألمانى النسخة الباقية الوحيدة من كتاب تاسيتوس « جرمانيا » الذى يصف فيه حياة الألمان القدماء وعاداتهم بطريقة تجعلها مثلا عليها وبمقارنة واضحة بفساد المجتمع الرومانى . وأثار هذا الكتاب حماسة هائلة بين « الانسانيين » الألمان الذين سرعان ما كتبوا مؤلفات كثيرة تشيد بالفضائل التيوتونية القديمة وتعلن تفوق الأمة الألمانية على جميع الأمم الأخرى بروح تذكرنا بدعوة الجامعة الألمانية الحديثة . بل ان بياتوس رينانوس يذكر فعلا فى خطاب كتبه سنة ١٥٣١ جماعة من « الانسانيين » فى أوجسبورج يطلق عليها جمعية « الجامعة الألمانية » (٣) . ووجدت حركة «الانسانيين» الألمان اتباعا أيضا بين النبلاء ورجال المدن ، ولكنها ظلت بصفة عامة محدودة فى دوائر العلماء الذين كان بعضهم ، مثل سباستيان فرانك من أنصار « الكونية » صراحة(٤) . ولكن لوثر كان يقف موقف العداء الشديد

---

(١) انظر فيما يتصل بالمشاعر القومية والعداء القومى لدى كثيرين من الانسانيين « ج . فويت «Wie der belebung des Klassischen Altertums oder das erste Jahrhundert des Humanismus» الطبعة الثالثة ، ١٨٩٣ المجلد الثانى ص ٣٠٩ وأماكن أخرى كثيرة . وجاكوب بوركهارت «Cultur der renaissance in Italien» الطبعة الثامنة ١٩٠١ ص ١٣٦ و ٣٢٩ .

(٢) ج . كنيبر «Nationaler gedanke und Kaiseridee bei den elsassischen Humanisten» ١٨٩٨ . وبول يواشيمسن «Geschichtauffassung und Geschichtsschreinbung in Deutschlandunter dem Einfluss des Humanismus» وفيما يتصل بوصف الطابع القومى انظر اريك شميدت «Deutsche Volk skunde im Zeitalter des Humanismus und der Reformation» ١٩٠٤ .

(٣) تيوبالد بيدر «Geschichte der Germanenforschung» المجلد الاول ص ١١ .

(٤) ج . كتنيبر «Keltanschawung und Analyse des Menschen seit Renaissance und Reformation» ١٩١٤ ص ٨١ . ويتضمن هذا الكتاب تحليلا عميقا « للانسانية » ونموها التاريخى .

من « الانسانية » ، وسرعان ما أخمدت فى ألمانيا تحت وطأة عواصف حركة الاصلاح الدينى والحركات المضادة ٠

ولم يبق سوى الدراسات الكلاسيكية التى كانت بمعزل عن القضايا المناهضة للأورثوذكسية والسلطات الحاكمة٠وفى ايطاليا نفى«الانسانيون» المفكرون الأحرار أو أخمدت أصواتهم ٠ بيد أن نوعا من النزعة «الانسانية» المسيحية وجد تربة طيبة فى انجلترا والأراضى الواطئة وبولندا ، كما اعتنقه أيضا المصلح السويسرى زوينجلى ٠ وقبل مناقشة المغزى القومى « للانسانية » فى فرنسا وانجلترا يجب أن نركز الانتباه على مفكرين اثنين يمثلان نوعين متعارضين من التفكير الانسانى فى مشاكل الجنسية ٠

٤ ـ مكيافللى وارازموس

شـهد نيكولو مكيافللى (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) غزو ايطاليـا بواسطة الفرنسيين وما أدى اليه هذا الغزو من صراعات لا نهاية لهـا بين الدول الكبرى كانت ضحيتها ايطاليا ٠

وكان أكثر ما يتوق اليه هو أن يرى مدينته فلورنسا وايطاليـا كلها حرة ومحترمة مرة أخرى ، ولكنه أدرك أن الموقف يكاد يكون ميئوسا منه وأن أكبر عقبة تكمن فى الطابع القومى للايطاليين ٠ وكانت عظمـة روما القديمة تملأ جوانحه بالاعجاب والفخر ، والفرق بين دورها فى العالم ودور ايطاليا يثير الأسى لديه ٠

وكان يرى أن الرومان مدينون بخلودهم « لفضيلتهم » ، وكان يقصد بهذه الكلمة الطاقة السياسية والطموح العظيم والجرأة والحكمة والمهارة فى تحقيق الخطط الكبرى والقدرة على السيطرة والبطولة والتضـحية بالنفس والولاء للوطن ٠ وأهم عنصر من عناصرها المختلفة هو الدين الملائم كما أثبت الرومان من قبل ٠ بيد أن هذا العنصر هو ما كانت تفتقـده ايطاليا قبل كل شىء آخر ـ فالكنيسة كانت فاسدة تمـاما عن طريق البابوية ، كما أن سياسة البابوات تقع عليها المسئوليـة الأولى فى عدم الوحدة القومية فى ايطاليا ٠ فضـلا عن أن المسيحية لم تكن الدين الملائم مطلقـا لدعم البطولة الوطنية ٠ ان عبادة الأوثان خلقت من الرجال آلهة كسبت المجد الدنيوى مثل القادة ورجال الدولة ٠ أما المسيحية فقد توجت فضائل التواضع والتأمل أكثر من العمل الايجابى ، فقد حظى فيهـا بالتقدير التواضع واحتقار عروض الدنيا ، لا العقل العظيم والقوة البدنية

وكل الصفات التي تجعل الرجال مهيبين والتي مجدتها عبادة الأوثان القديمة. وذهب الى ان الدين المسيحي أوهن عزائم الناس وجعلهم عرضة لأن يقعوا ضحايا في أيدي الأشرار . وقد بدا التاريخ والسياسة لمكيافلي مجرد آثار لفعل قوى طبيعية لا تسمح بمجال لفعل القانون الأخلاقي ، وان كان بعض الحكام قد يستغلون هذا الوهم لتحقيق أغراض سياسية . وكان من نواحي الضعف المميتة في السياسة الايطالية تلك الحرب الطبقية التي تدور رحاها في الجمهوريات ، المدن ، بين الأغنياء والفقراء . بيد أن مكيافلي اعتبرها عملية تكاد تكون حتمية ، بل وأن لها ميزة اثارة الناس الى سياسة توسعية عدوانية كما ثبت من أمثولة الرومان .

والشعب الفاسد لاسبيل الى اصلاحه بالوسائل المعنوية . وكان الخلاص الوحيد في نظر مكيافلي هو قيام أمير عظيم يغير طابع الشعب بأن يبث فيه فضائل الرومان. وكل وسيلة عنده لها مايبررها في هذا الهدف. فللأمير أن يستخدم الكذب والخداع والقسوة : ان له أن يستخدم الارهاب والخيانة على شرط أن يكون ذلك في خدمة الهدف الكبير . ويجب عليه أولا أن يجعل الأمة حربية ويدربها على حمل السلاح . فضعف ايطاليا مرجعه الرئيسي هو عادة ترك الحرب للجنود المرتزقة ، ومن ثم كان مكيافلي يتطلع الى مجيء زعيم أو دكتاتور عظيم يحرر ايطاليا ويوحدها ، ربما في صورة فدرال ، زعيم يجعل الايطاليين أمة ويمنحهم القوة والهيبة اللتين كانتا لأسلافهم الرومانيين . والعداء العميق بين نزعته القومية والمعايير المسيحية واضح . وقد أعلن موسوليني أن هذا الفلورانسي العظيم من آباء الفاشية . بيد أن هذا غير صحيح الا بصورة جزئية . فمكيافلي كان ينظر الى دكتاتورية الأمير باعتبارها أداة مؤقتة فحسب . أما في صميم قلبه فكان جمهوريا ، وان لم يضع ثقته في الشعب . انه كان يكره قيصر أشد الكره باعتباره قاتل الحرية في روما ، في حين أن موسوليني يمجده بوصفه ذروة مجد روما .

ان مفهوم الطبيعة البشرية الذي يقوم عليه هذا المذهب هو أن الانسان أساسا كائن لاعقلاني تدفعه أولا شهوة القوة والنفوذ . ويجعل ذلك كل الدول في تنافس مستمر لا تستطيع أية دولة أن تنسحب منه دون أن تعرض نفسها للتدمير . وسرعان ما سمى مذهب مكيافلي بمذهب « حجة الدولة » «Raison d'Etat» وقد هاجمه ودافع عنه وعدله كتاب

لا حصر لهم (١) • وهو يتضمن نواة النظرية الأساسية للنزعة القومية التى تعتبر الدولة كائنا عضويا لا تنطبق عليه المعايير العادية التى تنطبق على الأفراد ، بل له معايير وأخلاقيات خاصة به أسمى من معايير الفرد وأخلاقياته •

أما أرازموس أوف روتردام (١٤٦٥ ـ ١٥٣٦) فقد كان أعظم ممثل « للانسانية » المسيحية وأول عالم فى عصره (٢) • وكان ناقدا شديد الوطأة لكل المساوىء التى شوهت الكنيسة والدين، مثل المعتقدات الخرافية والطقوس الميكانيكية والجدل حول الموضوعات التى لا حل لها واثارة الحرب والجشع المادى وشهوة القوة من جانب البابوات وكبار رجال الكنيسة والرهبان • وكان السلام والوئام بالنسبة له هما جماع الدين ، وبدا له أن الحياة بروح المسيح أكثر أهمية من جميع القضايا اللاهوتية • ان أعظم المفكرين فى العصور القديمة كانوا يعيشون بروح مسيحية حقيقية ولعلهم كانوا قديسين دون اعتراف رسمى من جانب الكنيسة • وعندما أراد البابا جوليوس الثانى أن يطرد الغزاة الأجانب من ايطاليا بحرب كبرى عهد الى أرازموس أن يكتب كتابا فى تأييد سياسته ولكن ارازموس كتب كتابا يندد فيه بالحرب بقوة ، الأمر الذى أغضب البابا بشدة •

وتشيع فى كتابات ارازموس كلها كراهية الحرب • فهى فى نظره تدعم العنف والطغيان فى الخارج وفى الداخل • والغاء الحرب يتوقف على التغلب على العداء القومى بروح المسيح والتضامن الدولى • ان نهر الرين يفصل الفرنسيين عن الألمان ولكنه لايفصل المسيحى عن المسيحى • والأمراء ينبغى ألا يكون لديهم حق اعلان الحرب بدون رضا الأمة كلها • ويقترح ارازموس انشاء محكمة تحكيم دولية وتجنيد كل القوى المعنوية فى المجتمع للمحافظة على السلام • وينبغى ضبط تعليم التاريخ فى المدارس الذى يثير الانفعالات القومية ، ومثله الأعلى السياسى هو الملك المستنير الذى تحدوه

---

(١) هناك وصف ممتاز لنمو فكرة « حجة الدولة » من ميكافللى الى العصر الحديث فى كتاب فردريك ماينكه «Die Idee der Staatsraison in der neueren geschichte» ١٩٢٤ • ويحاول الاستاذ ماينكة فى كتابه أيضا أن يتتبع أصول الاختلاف فى الفكر السياسى بين الامم الغربية والالمان •

(٢) ج• فرود « حياة ارازموس وخطاباته » ١٨٩٥ • س• هيس «Erasmus von Rotterdam» مجلدان ١٧٩٠ • وبيير مستار «L'essor de la philosophie politique au XVIe siècle» ١٩٣٦ •

العدالة والرحمة والتسامح والاخلاص لواجبـــاته ويستمع الى اراء أحكم المستشارين ويحترم حقوق الشعب والبرلمانات المحلية ·

وكان تأثير ارازموس على الفكر السياسى كبيرا ، برغم أنه لم يضع مذهبا أو يؤسس مدرسة · ولكن روحه أثرت فى العديد من المفـــكرين والمصلحين الذين كانوا يتطلعون الى حكم العدالة والسلام وحسن النوايا بين الكائنات الآدمية والذين يؤمنون بتضامن الجنس البشرى ويعملون على تحقيق هذه المثل· ومما يسترعى الانتباه أن نقد اراموس وهجومه، اللذين بلغا أقصى درجات المصارحة ضد الفساد فى الكنيسة ، وتنديده بالحرب لم يمنعا حكام الكنيسة والدول من الاعجاب به وحمايته · وكان البابا ليو العاشر والامبراطور شارل الخامس بصفة خاصة يميلان اليه · وكان فى وسع ارازموس أن يحتل مركزا كبيرا فى الكنيسة ، ولكنه رفض · وكان البابوات والأباطرة والملوك ورجال الدولة من عدة أمم يتنافســـون فى الاستئناس برأيه ومحاولة كسبه الى جانب قضـاياهم · وكان ارازموس عالميا تماما ويصعب جدا تحديد الأمة التى ينتمى اليها ، اذا كان انتمى لأمة وكان يحب انجلترا أكثر من غيرها ، وان أشاد بأشياء طيبة كثيرة فى غيرها ولكنه لم يعرف الانجليزية ولا الايطالية ولا الفرنسية ولا الالمانية · وفى كتاباته يسجل عدة ملاحظات عن السمات القومية ، ولكنه لم يتحيز قط · ومع ذلك فانه ينج من تهمة العداء القومى · فعندما نقـد المبالغة فى رفع قيمة شيشرن ومحاكاته أثار ذلك عاصفة من الهجوم فى فرنسا وايطاليا ، وأطلق عليـه اتيـين دوليه اسم عدو الأمة الفرنسـية · ودفعت ملاحظة ارازموس عن أن الايطاليين نادرا ماكانوا شعبا حربيا بسر كيرسيوس الى مهاجمته بوصفه عدوا للأمة الايطالية · وقد رد عليه ارازموس بالتعبير عن اعجابه الكبير بالانجازات الثقافية التى حققها الايطاليون ·

٥ ـ الانسانية والجنسية فى فرنسا : بودان وبوستل ومونتانى

فى حين كان الحكام والنبلاء ورجال المدن الأغنياء والعلماء فى ايطاليا تسودهم روح النهضة واشتركوا جميعا بدرجة تزيد أو تنقص فى الانجازات الثقافية فى هذه الفترة ، كانت فرنسا متخلفة بالمقارنة بمعظم الأمم الكبرى الاخرى · فلم يبد البلاط والنبلاء اهتماما كبيرا « بالانســانية » فى مبدأ الأمر ، بل وذهبوا الى أن الفرنسيين جنس محارب ولا اقبـــال له على

الدراسات والآداب التى يصلح لها الايطاليون أكثر بكثير (١) . وتمسكت الجامعة « بالمدرسية » ووقفت موقف العداء الشديد من « الانسانية » . والى سنة ١٥٢٧ أصدرت السوربون حكمها ضد رسالة ارازموس ، بما فيها وجهات نظره عن الحرب ، باعتبارها « هرطقة » وبائية وفى ١٥٢٩ أعدم لويس دى بيركان ، أحد المستشارين الملكيين العلماء ، على المحرقة لأنه ترجم بعض كتابات ارازموس ولوثر الى الفرنسية . وفى سنة ١٥٣٠ حرم تفسير النص الاغريقى والنص العبرى للانجيل (٢) . اذ أن قوة الملكية الصاعدة كانت تعمل ضد الابتكار الثقافى الذى اعتبر موضع ريبة كقوة هدامة . ولم يكن الملك فرانسيس الأول يعرف اللاتينية ، وفى سنة ١٥٣٥ حرم طبع أى كتاب وجعل عقوبته الاعدام ، وان كان برلمان باريس قد خفف من حدة هذا الاتجاه (٣) .

ومع ذلك فان « الانسانية » سرعان ما شقت طريقها بأن تحالفت مع السياسة الملكية فىعملية التوحيدوالتوسع والهيبة، ومع التطلعاتالقومية بصفة عامة (٤) . وسرعان ما حلت محل الانسانية المسيحية التى عبر عنها أمثال جاجين وليفيفر ديتابل وبوديه وغيرهم ممن ازدروا التطلع الوثنى للمجد ، انسانية دافعها الأول المطامح القومية ، وبخاصة الرغبة فى اثبات أن العبقرية الفرنسية ليست أدنى من الأمم الأخرى فى المعرفة والشعر ، والعمل على تنمية اللغة الفرنسية وانتزاع الايطالية من مركزها المسيطر فى المجتمع الراقى ، وهدف السيادة الثقافية والسياسية فى العالم .

وصارت الفرنسية اللغة الوحيدة فى المحاكم القضائية ، وانتصرت «الانسانية» على السوربون عن طريق انشاء الكوليج دى فرانس. وسرعان

---

(١) لويس ديلارويل و ج . بوديه «Etudes sur l'humanisme français» ١٩٠٧ ص ١٦٠ ـ ١٦٣ .

(٢) س. هيس «ارازموس» ١٧٩٠ المجلد الاول ص ٤١٧ . و ش. ينسار «Le triumvirat (J. Lipse, F. Scaliger, J. Casaubon) littéraire au XVIe siècle» ١٨٥٦ ص ١١.

(٣) أ. راميو «Histoire de la Civilisation française» ١٩١١ المجلد الأول ص ٤٨٢ .

(٤) ك . فوسلر «Frankriches Kultur im Spiegel Reiner Spachentwiklung» ١٩١٣ ص ٢١٩ . و ٢٤٩ ، وفيما يتصل بالشعور القومى انظر ديلارويل ص ٣٤ و ٩٠ و ١٣٢ . و أ . رينوديه «Péréforme et Humanisme à Paris pendant les premières guerres de l'Italie» ١١٩٦ ص ٢٥٦ . وأ. جاكيه . «Le sentiment rational au 16ème siècle, la Revue des questionshistoriques» ١٨٩٥ (عن seyssel أساسا) .

ما تفوقت فرنسا على جميع البلاد الأخرى فى الدراسات الكلاسيكية ، وكان لذلك أكبر الأثر فى المدنية الفرنسية بأكملها ، وأثرت اللغة بادخال كلمات لاتينية كثيرة ، مثل كلمة « الوطن » ، وصارت أكثر طواعية بالترجمات للمؤلفين القدماء • بل ان بعض « الانسانيين » حاولوا الربط بقدر الامكان بين الفرنسية واللاتينية ، وانتشرت فكرة أن القدر أعد للفرنسيين دور الرومان الجدد • وفى ١٧٥٩ نشر هنرى أتيين كتابا يحاول اثبات أن الفرنسية أفضل من الايطالية ومن جميع اللغات الحية الأخرى (١) •

وكان الضرر الذى ألحقته حركة الاصلاح الدينى « بالانسانية » فى فرنسا أقل مما أصابها فى ألمانيا • وقد كان كالفن نفسه فى شبابه « انسانيا » وكتب تعليقا على سينيكا ، وكانت عقليته متأثرة بالقانون الرومانى • فضلا عن أن الكلفنية التى ارتبطت بسياسة قطاع كبير من النبلاء ، كانت بذلك تهدد الوحدة القومية وبدت للأغلبية فى الأمة ضد القومية ، فى حين كانت « الانسانية » أداة طيبة جدا فى خدمة قضية الملكية والوحدة القومية •

ويمكن تمييز عدة أنماط مختلفة من « الانسانيين » فى القرن السادس عشر ، لعبت جميعها دورا عظيما فى نمو الفردية القومية الفرنسية • وفى ذلك الوقت تفوقت فرنسا على كل الأمم فى دراسة القانون الرومانى والرياضيات ، كما تفوقت من قبل فى « المدرسية » ، وشجع ذلك الاتجاه الى التفكير الحاد المجرد الذى مهد السبيل لصعود العقلانية الفرنسية فى القرن السابع عشر • ومع ذلك فقد كانت هناك عدة صور مختلفة من اللاعقلانية ، مثل الصوفية ورفع قيمة القوى اللاعقلانية فى التاريخ والمذهب الحسى •

وكان جين بودان « ١٥٣٠ ــ ١٥٩٦) عالما أتقن كل معرفة عصره ، وكان كذلك رجل دولة ومفكرا • وهو مشهور فى تاريخ السياسة بنظريته فى السيادة التى تصورها باعتبارها السلطة التشريعية العليا التى لاتنقسم ولا بد منها للوحدة القومية والتناسق (٢) • بيد أن السيادة عنده لم تكن سلطة تحكمية ، فقد كان يؤمن بالملكية المحدودة بالدين والالتزام الأخلاقى وبالقانون الطبيعى وبالتقاليد الأساسية لفرنسا • والفكرة المركزية فى

---

(١) هـ• اتيين «Le precellence du langage français» طبعة جديدة باشراف أ• هيجويه ١٨٩٦ ص

(٢) روجر شوفيريه «J. Bodin» ١٩١٤ • ون• رنز «J. Bodin» ١٩٠٥ • وبياتريس رينولدز « دعاة الملكية المقيدة فى القرن السادس عشر » ١٩٣١ •

تفكيره هى حكم القانون ، وهو يقاوم بشدة اتجاه مكيافللى فيما يتصل بالقانون والأخلاق • فالملك عنده أول خادم للدولة عملا ، وقد تصور الدولة كعائلة كبيرة تهدف الى السلام والتقى والعدالة والفطنة •

وكان لديه احساس قوى بالبناء العضوى والفردية التاريخية للأمم، ووضع نظرية عن الطابع القومى كنتاج للقوى الطبيعية والاجتماعية كان لها تأثير كبير على مونتسكيو والمؤسسين الآخرين لعلم الاجتماع الحديث • وكان بودان فخورا بالمدنية الفرنسية ، ولكنه أحب مدنيـة الأمم الأخرى وأعجب بها ، وتنبأ بأن التقدم السريع الذى لم يسبق له مثيل فى التجارة العالمية واكتشاف أمريكا سيؤديان الى السلام العالمى والوفاق • وعنـدئذ ستؤلف الدنيا كلها جمهورية كبرى يكون لكل أمة فيها وظيفتها تبعـا لقدراتها الخاصة •

وكان جيوم بوستل (١٥١٠ ــ ١٥٨١) من علماء الرياضيات وأستاذا للغات الشرقية وصوفيا ومن علماء الفلك وكاتبا سياسيا (١) • وقد راوده الأمل فى تحقيق السلام والوفاق بين جميع الأمم فى العالم بانتشار دين عالمى واحد وقانون واحد ولغة واحدة • وعنده أن رسالة الجنس الفرنسى، أو الغالى ، أن يقود العالم نحو الهدف ، وأطلق على نفسه « الغالى العالمى »، وعقد أمله على اتساع سلطة الفرنسيين • ورأى أن ملك الفرنسيين له الحق فى السيطرة على العالم ، وينبغى ارغام من يقـاومون على ذلك أو حتى استئصالهم • بيد أن الملك لم يهتم بمشروعه • وقد شارك بوستل كثير من الكتاب الفرنسيين اللاحقين فى الاعتقاد الغيبى فى رسالة فرنسا فى تحقيق الوحدة العالمية بنشر لغتها ومدنيتها ، والربط بين هذه الرسالة وسياسة التوسع السياسى •

وكذلك كان الاهتمـام بالطبيعـة البشرية والفردية الذى أثارته « الانسانية » مصدر وحى « المقالات » التى كتبها ميشيل دى مونتـانى (١٥٣٣ ــ ١٥٩٢) • وكان مونتانى من أهل غسقوينا من أسرة بورجوازية حصلت على لقب نبالة كانت لها صلات قرابة فى انجلترا ، وكانت أمه أسبانية يهودية اعتنقت المسيحية • واستخدم والد مونتانى مدرسا ألمانيا لا يعرف كلمة من الفرنسية للاشراف على تربية ابنه ، وتكلم مونتانى الصغير اللاتينية قبل الفرنسية بكثير • وكان بين المشرفين التربويين الآخرين عليه

---

(١) بييرسنار «L'Essor de la philosophie politique au XVIe siècle» ١٩٣٦ ص ٤٣٢ •

عدد من العلماء المشهورين منجنسيات مختلفة، وكانالمبدأ الذى قامتعليه تربيته هو التربية عن طريق الحنان والرقة • وكان مونتانى من أنصار مذهب الشك فى كل المبادىء السامية التى يقاتل النـــــاس بعضهم البعض فى تعصب واضطهاد من أجلها ، واعتبر الانسان كائنا تحدوه الخيلاء السخيفة والتقلب المستمر • وكانت قاعدة حياته ابيقورية ــ « أحصد حديقتك » ــ المبدأ الذى فضله كذلك فولتير وأناتول فرانس ، والذى يعد المثل الأعلى للشعب الفرنسى ــ بصورة روحية أقل • وقد بدت الحياة لمونتانى حلما ، وجزء كبير منها كابوس (١) • وقد كره مونتانى الحرب والعنف والقسوة أكثر من أى شىء آخر ، وأحس بعطف عميق على الناس العـــاديين وكل المضطهدين والمظلومين • وكان اهتمامه شديدا بحياة البدائيين وعاداتهم ، وانتهى الى أن الأمم المتمدينة أشد بربرية ممن يسمون بدائيين •وقد هاجم الخيلاء القومية بشدة فى مقالاته وهزأ منها • وقال مونتانى : ان اللغـــة الفرنسية أفقر من الأسبانية ، واعترف بأنه فرنسى بسبب باريس وحدها لأنه أحبها من كل قلبه • وهو يستشهد بملاحظة للمستشـــــار العظيم أوليفييه دى لويفيل الذى قارن الفرنسيين بالقردة التى تتسلق شـــجرة وتقفز من فرع الى فرع ولا تقف حتى تصل الى قمتها ومنها يستعرضـــون أردافهم بفخر • وكان مونتانى مغرما جدا بالسفر الى البلاد الأجنبيـــــة حيث يدرس طابع شعوبها • ويصدر أحكامه على الأمم الأخرى فى انصاف عظيم وعطف ويعلن أنه مواطن عالمى بكل قلبه •

وفى القرن السابع عشر ابتكر ديكارت نظاما عقليا ترك أثرا حاسما فى الفكر الفرنسى وامتزج بالمحاكاة « الانسانية » للشعر والفن القديم فأدى الى ظهور أسلوب قومى عظيم سمى « بالكلاسيكية » • وكانت سيادة العقل والمنطق الواضح والقواعد الثابتة والميل الى الأنماط المجردة والمثـــل الأعلى للفخامة المهيبة وازدراء كل ما هو مبتذل وشـــعبى وغامض هى المعايير التى تصدر على أساسها الأحكام فى اللغة والشعر والفن والحب والدين والمجتمع والسياسة •

---

(١) وقد عبر شيكسبير أيضا عن هذه الفكرة فى « هاملت » و « العاصفة » • ولقد أتى جون م• روبرتسن فى (فونتانى وشيكسبير ١٨٩٧) بأدلة مقنعة على وجهـــة نظره من أن الكاتب الفرنسى أثر الى حد كبير جدا فى فكر شيكسبير • أنظر أيضا اليزابيث روبينز « صلة شكسبير بمونتانى » (مطبوعات اتحاد اللغة الحديثة في أمريكا المجـــلد السابع عشر ١٩٢٠) • وقد انتهل هوكر الى رأى أن روبرتسن بالغ في تقدير تأثير مونتانى ، ولكن يبدو أنها هى نفسها تبالغ فيما قاله روبرتسن حقيقة •

وكانت خلفية أسلوب « الكلاسيكية » هذا هي الملكية المطلقة القوية، التي نجح ريشيليو أخيرا في بنائها •

٦ ـ « الانسانية » والجنسية في انجلترا : بيكون وشكسبير

حظيت « الانسانية » في انجلترا منذ وقت مبكر برعاية قوية بين النبلاء المتنورين وكبار رجال الكنيسة ، وصارت النمط السائد في بلاط هنري الثامن واليزابث • وقد أعجب أرازموس بعلم « الانسانيين » الانجليز الذين كان يدين لهم بجزء كبير مما عرفه عن الاغريق والذين أثاروا لديه روح الانسانية المسيحية ، وقد تركت في نفسه مجموعة الأشخاص المبرزين الذين يحيطون بالبلاط وقعا عميقا ، وأعلن أنه لا يوجد بلد في العالم يقارن بانجلترا • ففي حين أن صعود الملكية المطلقة في القارة ونمو التعصب البروتستانتي والكاثوليكي وضعت قيودا على حرية نمو الفكر والفن ، استطاعت « الانسانية » في انجلترا أن تبلور نفسها بحرية، وأدى ذلك مع الوقت الى تطور روح كل من الاستنارة والرومانسية •

وكان هنري الثامن مطابقا الى حد بعيد لنموذج الأمير الذي وصفه مكيافللي • فكان نظامه ينطوي على الفكرة الجوهرية في الدول الشمولية ، وهي فكرة أن الدولة في ذاتها هي أسمى الأهداف وأنها تفوق بكثير أخلاقيات الأفراد ورفاهتهم ، وأنها تتضمن الارادة القومية ، وأن هذه الارادة يضعها دكتاتور • وكان الملك في الواقع دكتاتورا (١) ، ولكنه استعمل البرلمان والرأي العام بمهارة بحيث بدت دكتاتوريته، زعامة وكان بصفة عامة مقبولا بل محبوبا • وكانت وسيلته في ذلك هي استخدام مشاعر الكرامة الوطنية ودعم الرفاهية المادية ، وبخاصة لدى النبلاء والطبقة الوسطى الغنية • واتبعت اليزابث نفس السياسة • وكان كبار « الانسانيين » في عهد تيودور تحدوهم في الغالب روح العالمية المسيحية والرواقية ، ولكن نزعة مكيافللي القومية « الانسانية » حظيت أيضا بأنصار ممن اعتقدوا أن الانجليز هم الرومان الجدد (٢) •

ويقول فرانسيس بيكون ، وهو أحد كبار المعجبين بمكيافللي : ان

---

(١) أ•ف• بوللارد « هنري الثامن » ١٩١٩ ص ٦٢ ، ٤٣٥ •

(٢) أنظر فيما يتصل بمظاهر الشعور القومي ايزميه وينجفيلد ستراتفورد « تاريخ الوطنية الانجليزية» المجلد الاول •

النقطة الرئيسية فى بلوغ العظمة لأية دولة هى أن تكون لديها سلالة من الرجال العسكريين • فانجلترا متفوقة جدا على فرنسا فى القوة العسكرية لان أوساط الناس جنود ممتازون ، فى حين أن الفلاحين الفرنسيين ليسوا كذلك • ويستطرد الى أن من أهم الأشياء للامبراطورية والعظمة أن تتخذ الأمة السلاح شرفا ودراسة ومهنة • فالأمم التى تطلب العظمة ينبغى أن تكون سريعة الاحساس بالأخطاء التى ترتكب ضدها وألا تتهاون فى أى تحد • ولا يستطيع الانسان أن يظل صحيح الجسم الا بالتدريب ، والتدريب الحقيقى للمملكة أو الدولة هو الحرب العادلة المشرفة • ويعبر بيكون فى هذه الكلمات عن آراء صارت السمات الرئيسية للنزعة القومية الحديثة • ومع ذلك فانه لم يكن داعية قوميا خالصا • فهو يعتبر أن بلد الانسان له عليه بعض الحقوق الخاصة أكثر من بقية العالم ، وحبذ العمل على توسيع سلطة بلد الانسان وامبراطوريته على الجنس البشرى كله ، ولكنه كان يرى أن الأسلم والأنبل هو العمل على توسيع امبراطورية البشر عموما على الكون عن طريق تقدم المعرفة والعلم • وفى السياسة العملية لم يدع الى سياسة عدوانية • وفى أخريات حياته أعرب عن اشمئزازه لأنه ضيع وقته فى تأليف الكتب الانجليزية بدلا من اللاتينية ، التى اعتبرها اللغة العالمية • وقال : ان الكتب الانجليزية لن تستطيع أن تكون مواطنة فى العالم كله •

أما شيكسبير فانه لم يقتصر على التعبير عن سمات الطابع الانجليزى والاسهام فى تنميته ، ان بداهته السيكلوجية شملت الطبيعة البشرية مكتملة) وكانت «انسانيته» الفنية عاملا قويا جدا فى صوغ الروح الحديثة • وقد ظهرت مشاعره الوطنية أساسا فى مسرحياته التاريخية • ان مديح جون جونت وهو على فراش الموت لانجلترا وخطاب الملك هنرى الخامس قبل يوم آجينكورت يعتبران من أعظم نماذج الشعر الوطنى فى أدب العالم • ولكن شيكسبير كان يؤمن مثل جميع كبار الشعراء والمفكرين بالوحدة الأساسية للجنس البشرى وكان متحررا من الخيلاء والعدوان القوميين • وعندما يقدم الأجانب فى مسرحياته كثيرا ما يميزهم بسمات قومية فريدة (١) • وكان أحيانا يردد التحيزات الانجليزية السائدة • بل انه فى مسرحيته المبكرة « هنرى السادس » يوجه أقذع الألفاظ لشخصية جان دارك ، وقد يكون أحد أعوانه هو الذى كتب هذا الجزء • ومن الناحية

---

(١) كمبرلاند كلارك «شكسبير والطابع القومى» ١٩٣٢ و «شكسبير وعلم النفس» ص ٩٤ •

الأخرى كثيرا ما ينتقد عيوب الانجليز ، وفى « هاملت » يقول ان هاملت انما أرسل الى انجلترا لأن الناس هناك مجانين مثله •

وكثيرا ما اتهم الشاعر بأنه متحيز للأرستقراطية ، ومن الطبيعي أنه ما كان ليستطيع أن يتجنب الحدود التى تفرضها بيئته وعصره (١) • ولكنه كقاعدة عامة تسامى الى حد كبير جدا عن مستوى السياسة وفسر الطبيعة البشرية بعطف وفهم لجميع جوانبها • وهو يصور ديناميكية الانفعال وعواصف الطموح ، وعدم جدوى التحيزات الاجتماعية وبشاعة الشهوات الحيوانية فى الانسان ، وأنانية جميع الطبقات والأحزاب الضيقة وغرورها البدائى ، والستار الأيديولوجى بالألفاظ الضخمة باسم الشرف والحرية والمساواة ، وفردية أمثال ريشارد الثالث وكوريولانوس المبالغ فيها التى تدمر ذاتها ، وكذلك العقلية الجماعية التى يثيرها ديماجوج مثل جاك كيد أو انطونيوس التى تدمر أيضا ذاتها • وفى « العاصفة » يسبق جونزالو العجوز روسو فى تصور مجتمع مثالى يعيش فيه الناس على الفطرة البريئة لم تفسدهم المدنية والملكية الخاصة والحكم • بيد أن المثل الأعلى لدى شكسبير لم يكن المساواة الكاملة • ففى كوريولانوس يقص السيد المرح منينوس أجريبا على الشعب المتمرد قصته المشهورة التى يقارن فيها ألوان التفاوت الاجتماعى بالاختلافات الوظيفية بين أعضاء الجسم ويدافع عن الحل الوسط • وفى « ترويلوس وكرسيدا » يفسر أوليسس أن العالم كله يعتمد على تفاوت منظم بين الناس ، على التفاوت فى الدرجة والأولوية والمركز ، والفصول والصور ، والوظائف والعادات • فاذا قضى على هذا التفاوت نجمت الفوضى والخراب • وبعد ذلك يتحدث أوليسس عن فن الحكم قائلا :

هناك سر غامض فى روح الدولة
لا يجرؤ أحد على التحرش به
سر ذو فعالية أكثر قدسية
من أن يستطيع اللسان أو القلم التعبير عنه •

ولم يفكر شيكسبير فى وضع مذاهب سياسية •• ومع ذلك فان

(١) أنظر فيما يتصل بهذا الجدل هـ.ب. شارلتون « سياسة شيكسبير وسياسته » ١٩٢٩ . والبرت تولمان « هل شيكسبير ارستقراطى ؟ » في مطبوعات اتحاد اللغة الحديثة الامريكى ١٩١٤ • وف• تابر « غوغاء شيكسبير » فى نفس المطبوعات ١٩١٢ •

ملاحظاته العميقة عن الطابع الانسانى لابد أثارت الفكر السياسى أيضا • وكانت وجهة نظره العامة فى البشر والمجتمع ضد التبسيطات المجردة والأوهام من أى نوع • فالخير والشر والخطأ والصواب ، مختلطان فى كل قضية بصورة متشابكة لا فكاك منها •• ويستبعد ذلك فكرة تحقيق المثل العليا الطوبائية على الأرض ، ولكنه يجعل فى وسعنا أن نشعر بشىء من العطف على خصومنا السياسيين ويشجعنا على الوصول الى حل وسط معه أكثر مما يدفعنا الى فرض ارادتنا بالقوة •

٧ ـ التطهرية والمركانتيلية والنزعة القومية فى القرن السابع عشر

ان الحركات الثورية التى أدت الى انشاء الكومنولث الانجليزى لم تكن نتاج ضائقة اجتماعية أو مصالح اقتصادية ، ولا كانت تنطوى على صراع بين الطبقات • ان العوامل الاقتصادية والاجتماعية لعبت طبعا دورا معينا ، ولكنه لم يكن حاسما قط • وبين العوامل التى أدت الى الثورة كانت التطهرية تحتل مركز الصدارة • وتضم التطهرية صورا كثيرة مختلفة تشترك فى قدر معين من الفردية الدينية وفى شعور قوى بالمسئولية نحو الله وعدم الثقة فى الطبيعة البشرية • وكان معظم التطهريين متأثرين بروح «العهد القديم» أكثر مماتأثروا بروح المسيح، وبروح القتال المقدس أكثر منهم بالحب ، ووضعوا الثقل الأكبر مثل اليهودية على مسئولية كل فرد عن خلاص المجتمع باتباع السنن الالهية حرفيا ، وليس عن خلاص روحه هو وحده • وبدا أن هذا التركيز على الأهداف فوق الطبيعية، وهو نقيض « الانسانية » ، يحط من شأن الجنسية ، ولكن التطهرية كانت مرتبطة بالتطلعات القومية عمليا من عدة نواح • فقد كان كثير من الناس متطهرين أساسا لأنها رمز للاستقلال القومى عن روما والعداء العنيف للسلطات الكاثوليكية فى أسبانيا وفرنسا ، اللتين كانتا العدوتين القوميتين لانجلترا وخصميها فى الصراع من أجل السيطرة البحرية والاستعمارية • ولم يحظ ملوك ستيوارت بشعبية بسبب أصلهم الأجنبى الاسكتلندى ، وبسبب محاولاتهم فى تهدئة التوتر الدولى ، ولأنهم لم ينجحوا فى الحروب التى أرغموا على القيام بها لارضاء المشاعر القومية •

وقد عبر عنصر القومية العبرى فى التطهرية عن نفسه فى الاعتقاد بأن الأمة الانجليزية هى « الشعب المختار » الجديد ، وفى المحاولات المتعددة لبناء كومنولث انجيلى أو « القدس الجديدة » التى كان لها أثر كبير فى

انشاء مستعمرات المتطهرين فى أمريكا (١) • وأدى العنصر فوق القومى المسيحى ، الذى كان أيضا من أصل عبرى ، الى فكرة رسالة انجلترا فى أن تصير زعيمة الأمم البروتستانتية كلهـا وحاميتها • ومن النـاحية الأخرى أثارت الفردية المسـيحية والمذهب الكالفينى الاعتقـاد بأن من يختارهم الله ، « القديسين » ، هم وحدهم الذين يحملون هذه الرسالة ، ومن ثم فهم الذين يمثلون الأمة • بيد أن فكرة الرسالة القومية لم تكن مقتصرة على التطهرية بل لقد دعمها أيضا الاعجاب « الانسانى » بروما ورسالتها الامبراطورية • فضلا على أن عناصر تطهرية وانسانية على السواء أسهمت فى صعود الأفكار الجمهورية والديموقراطية والتحررية التى صارت تيارات قوية فى الفكر السياسى الانجليزى واندمجت على نطاق واسع فى فـكرة الرسالة القومية • وقد جنحت معارضـة الحق الالهى للملوك الى تحويل انجلترا الى جمهورية برلمانية ، وهدفت التطلعات الديمـوقراطية الى جعل الشعب كله أو قطاعات كبيرة منه ، معقد السـيادة الحقيقى ، وكانت المطالبة بالتسامح وبحقوق الانسان تنطوى على فكرة أن السيادة القومية محدودة « بقانون الطبيعة » ووضعت أسس الفكر التحررى(٢) •

وهناك عامل ثالث ذو أهمية قصوى هو المركانتيلية التى تنطـوى على نزعة قومية اقتصادية ذات اتجاه احتـكارى ، وعـدوانى فى كثير من الأحيان • وكان نمو الدولة القومية مصحوبا فى كل مكان بالمركانتيلية ، وفى انجلترا يرجع تاريخ كليهما الى عهد سحيق (٣) بيد أن القرن السابع عشر كان ذروة هذا التطور ، ففى ذلك الوقت كانت السياسة الدوليه متأثرة بدوافع مركانتيلية • ولب السياسة المركانتيلية هو أن التجارة أولا وسيلة لزيادة قوة الدولة وعظمة الامة ، وليست وسيلة لربح التجار الافراد أو مد الشعب بالسلع المطلوبة بأفضل طريقة ممكنة (٤) • وكان الهدف الأسمى لكل من تنظيم التجارة والسياسة الاستعمارية هو جعل الدولة مستقلةعن البلاد الأخرى وزيادة قوتها العسكرية والبحرية والسياسية(٥)

---

(١) يؤكدارنست باركر الاتصال بين الطابع العبرى للتطهرية والجنسية فى كتابه « كومويل والشعب الانجليزى » ١٩٣٧ ص ٢٤ و ٨٢ و ١٠٤ •

(٢) ج•ب• جوش « الأفكار الديمـوقراطية الانجليزية فى القـرن السابع عشر ١٩٢٧ ، و « الفكر السياسى الانجليزى من بيكون الى هاليفاكس » ١٩١٤ ــ ١٩١٥ •

(٣) ج•و• هـوروكس « تاريخ قصـير للمركانتيلية » ١٩٢٥ • و أ• هكشـير « المركانتيلية » ١٩٣٥ •

(٤) انظر ما أورده هكشير عن كنتجهام وآخرين ص ٢٨ •

(٥) أنظر فيما يتصل بهدف القوة فى المركانتيلية الاستعمارية ج•ل• بير «أصول النظام الاستعمارى البريطانى » ١٩٠٨ •

وبرغم أن بعض القطاعات في التجارة استفادت من هذا النظام فان التجارة ككل كانت الخاسرة بالتأكيد وبخاصة باندلاع الحروب التى أسهمت فى قيامها المركانتيلية • وقد تعرضت تجارة الصوف ، وهى أهم فرع بما لا يقاس فى التجارة البريطانية ، للخسارة الشديدة بصفة خاصة بسبب الحروب التى شنتها اليزابث وكروموبل ضد أسبانيا لأسباب سياسية ، ومن ثم فان التجار كثيرا ما احتجوا ضد السياسة الحربية (١) • وقد وضع سير توماس رو قاعدة لشركة الهند الشرقية أن تتجنب استخدام القوة للحصول على الامتيازات التجارية حيث أن التجارة والحرب لا يتفقان ، كما عبر كثير من الكتاب عن هذا الرأى أيضا • ولكن مذهب القوة والهيبة القومية الذى تتألف منه النزعة القومية حظى بتأييد قوى من أشخاص من جميع الطبقات • وكان أحد مبادئه الرئيسية هو الادعاء القديم بالسيادة على البحار الذى أكده ملوك ستيوارت والكومنولث • وكان يراد به فى أول الأمر البحار الضيقة حول انجلترا ، ولكن سرعان ما امتد على نطاق أوسع بكثير (٢) ، وفى حالات كثيرة فرض بطريقة عدوانية تماما • وفى عهد « عودة الملكية » أعلن موللوى أن القوة البحرية هى القوة العالمية وأن انجلترا حذت حذو الرومانيين الذين أقاموا صرح امبراطوريتهم على التجارة والأسطول •

وكانت سياسة كروموبل تجمع بين دوافع دينية وسياسية وتجارية الى حد أن المؤرخين اختلفوا حول أى هذه الدوافع كان هو السائد • بيد أنه يمكن أن يقال عنه على أى حال انه كان قوميا • وصحيح أنه قال هو نفسه ان مصلحة المسيحية لها الأولوية على المصلحة القومية ، ولكن دينه كان يشيع فيه الايمان برسالة أمته العظيمة واستخدام قوتها لنشر الدين الحقيقى فى العالم وحمايته فى كل مكان • وقد أراد أن يجعل انجلترا زعيمة فدرال من جميع الدول البروتستانتية ضد بيت هابسبورج • وادعى حق حماية البروتستانتيين فى فرنسا وفى البلاد الاخرى ولكن مع التحالف مع فرنسا الكاثوليكية ضد أسبانيا • وقد احتلت دنكرك « لكبح جماح الهولنديين و •• باب يفتح الطريق الى القارة » ، وهوجمت المستعمرات الفرنسية والاسبانية وتم الاستيلاء عليها برغم أن انجلترا كانت فى حالة سلام معهما • وجلبت أول حرب هولندية الى انجلترا

(١) جين ماكلاكلان «التجارة والسلام مع أسبانيا القديمة منذ ١٦٦٧ الى ١٧٥٠ ١٩٤٠ » ص ١٩ • وهوروكس ص ٩٤ • وبوللارد « هنرى الثامن » ص ١٣٧ و ٢٥٠ • وجيمس وليامسون « عصر دريك » ١٩٣٨ ص ١٣ و ٤٩ • وفيرث «كروموبل» ص ٣٨٧ •
(٢) سير بتلر وس • ماكوبى « نمو القانون الدولى » ١٩٢٨ ص ٤٠ •

أسطولا قويا ، أسر معظمه من الهولنديين ، وتداول كرومويل مع مجلسه: هل تعطل هذه السفن أو تستعمل فى مشروع مفيد ؟ وفى هذه الحالة هل تستعمل ضد فرنسا أو أسبانيا ، وأشار كرومويل الى أن المشروع لن يكلف أكثر من نفقات تجهيز السفن كثيرا ، وأن هناك فرصة لربح ضخم، وأنه مما لا شك فيه أن وجود هذه القوة البحرية فى يد انجلترا ينطوى على توجيه من العناية الآلهية (١) • وليزيل الشك الذى ساور ملك أسبانيا بسبب ارسال الأسطول الى البحر الأبيض ، أكد له أن ذلك لا ينطوى على أية نية سيئة وأن الحكومة تعتبره من أصدقائها • وقد وضع كروموبل سياسته الخارجية بقصد تحقيق ما كان يباهى به من أنه أراد أن يجعل اسم الانجليز موضع رهبة فى العالم • كما كان اسم الرومان من قبل • وأدى نجاحه فى زيادة هيبة انجلترا ونفوذها الى نمو الشعور بالفخر القومى • وقد أشاد ادموند وللر به لأنه جعل من انجلترا دونه مجيدة ومركزا لامبراطورية ولانه أرغم جميع الأمم على تحية كل سفينة من السفن الانجليزية • وقال : ان العناية الالهية أرادت لانجلترا « أن تضع قوانين لحفظ التوازن فى أوربا ودولها بالرهبة » وان المضطهدين من جميع البلاد سيلجئون الى انجلترا فى طلب العدالة ، وأن حاميها سيعرف عندئذ بأنه حامى العالم •

وكانت فكرة ميلتون عن رسالة انجلترا هى أنها ستنشر الحرية والمدنية بين المواطنين والممالك والأمم ، ورأى فى مخيلته « أمة نبيلة قادرة تقوم مثل رجل قوى بعد النوم وتنشر سهامها التى لا تغلب » • وقد بدت له انجلترا روما أخرى فى الغرب • ومع ذلك فقد خص الطابع القومى الألمانى والفرنسى والأسبانى والايطالى أيضا بكلمات الاعجاب • وكتب هارينجتون فى ١٦٥٦ أن واجب الكومنولث الحر هو تحرير الشعوب المضطهدة ونشر الحرية والدين الحقيقى فى البلاد الأخرى • « فانجلترا لم توجد لنفسها فحسب ، بل ينبغى أن تكون منفذة للارادة الالهية على الأرض بهدف أن تسود التقوى فى حكم العالم كله » • ثم قال : ان الدولة الجامدة مصيرها الحتمى أن تضعف • ويجب أن تهدف سياسة الجمهورية الى الزيادة لا الى مجرد المحافظة على ما هو قائم • فاذا قيض لها البقاء يجب أن تشيد أسسا عظيمة للأبدية • واذا أريد لها أن تكون قوية يجب أن يتوفر لها مجال للنمو • « انك لا تستطيع أن تزرع شجرة بلوط فى

---

(١) جون مورنى « كروموبل » ١٩٠٠ ص ٤٥٨ •

اناء زهور ، فلابد أن تتوافر التربة لجذورها والسماء لفروعها » (١) .
ويقول فيرت : ان هارينجتون عبر بهذه الآراء عن اتجاهات معاصريه .
ويبدو أنه كان أول من وضع نظرية « المجال الحيوى » للأمة ذات الرسالة العظيمة . وكتب نيقولا باربو فى ١٦٩٠ أن انجلترا ، بواسطة أسطولها وروح القتال لدى شعبها الحر المزدهر ، هى أصلح الدول لتأسيس امبراطورية عالمية . واقترح اصدار قانون بمنح الجنسية لجميع الأجانب الذين يشترون أرضا فى انجلترا . وسيكون ذلك حافزا لأعداد كبيرة من الأشخاص الأجانب الذين كانوا مضطهدين ومستبعدين بواسطة حكامهم أن يهاجروا الى انجلترا وبذلك تزيد قوتها بحيث تنشأ امبراطورية لا تقل عظمة وتزيد ضخامة من امبراطوريتى الاسكندر وقيصر (٢) .

ويمكن أيضا تتبع فكرة رسالة انجلترا العالمية لدى كتاب كثيرين آخرين فى ذلك العهد ، وكانت مرتبطة أحيانا بالنزعة القومية وأحيانا أخرى « بالعالمية » (٣) . وسرعان ما جنح اتساع التجارة العالمية الى اثارة النقد ضد النزعة القومية الاقتصادية وبدأ التجار بعيدو النظر يقترحون تحرير التجارة من أغلال الميركانتيلية . فقد كتب سيردود لى نورث فى ١٦٩١ « ان العالم كله فيما يتصل بالتجارة ليس سوى أمة واحدة أو شعب واحد والأمم فيه كالأفراد » (٤) .

وكانت وجهات نظر توماس هوبز فى الطبيعة البشرية تشبه آراء مكيافللى ، وكانت متأثرة الى حد كبير جدا بتجربة الحروب الدينية والأهلية التى لا نهاية لها والتى دمرت أوربا فى حياته الطويلة . فقد بدا له الانسان أنانيا ومغرورا وعدوانيا تتسلط عليه شهوة القوة والهيبة . وأعتقد أنه لا يضمن الأمن والسلام الا دولة ذات سلطة شاملة . ولكن هذه الدولة ليست كائنا عضويا علويا ، وأهدافها ليست العمل على زيادة هيبتها وسيطرتها ، ولا تنظيم جميع الشئون . فالدولة لا توجد الا لرعاية مصلحة الأفراد وينبغى ألا تتدخل بقدر الامكان فى شئون المواطنين وألا

---

(١) فيرث « كرومويل » ص ٣٨٩ و ٣٩٣ . انظر أيضا جيمس هارنجتون «أوسيانا وأعمال أخرى » طبعة جديدة ١٧٣٧ ص ١٩٤ . وه٠ف٠ رسل سميث «هارينجتون وأوسيانا » ١٩١٤ .

(٢) نيقولاس باربون « حديث التجارة » ١٦٩٠ (طبعة جديدة ١٩٠٥ ص ٣١) .

(٣) ف٠ براى «Imperialistische Stroemengen in der englischen literatur» فى دورية « انجليا » المجلد الاربعين ١٩٤٦ .

(٤) سير ددلى نورث « أحاديث عن التجارة » ١٦٩١ (طبعة جديدة ١٩٠٧ ، ص ١٣ .

تتورط فى حروب عدوانية • ومن ثم فان هوبز لا يتفق مع ميكافللى فيما يتعلق بأهداف الدولة •

٨ ــ نمو النزوع الى السلام والقانون الدولى

أثارت الثورة الدينية أيضـــا حركات تســـتبشع الحرب وأى عنف باعتباره شيئا لا يتفق مع روح المسيحية مطلقا • وكان اللامعمدانيون فى ألمانيا والمينونيون فى هولندا والأخوة البولنديون والسوسينيون فى بولندا والأخوة المورافيون فى بوهيميا والكويكريون فى انجلترا هم أكثر الشيع التى اعتنقت هذه الأفكار أهميـــة • وبعض الشـــيع لم تقتصر على رفض الخدمة العسكرية ، بل دعت أيضا الى رفض دفـــع الضرائب التى كانت تستخدم فى تكوين الجيوش ، أو حتى نبذ كل حكم يقـــوم على الاكراه وكل أنـــــواع عدم المســـاواة الاجتماعية • وأنكر فاوستو سوتزينى أن المسيحى ينبغى له أن يفضل وطنه على البلاد الاخرى اذا كانت هذه البلاد أفضل من ناحية ما • وأعلن أن وطنه الحقيقى هو السماء(١) •

وكذلك أدت الحروب المدمرة ونمو الرغبة فى السلام الى نمو فكرة القانون الدولى • وكان رواد هذه الروح من العلماء الأسبان ، وبخاصة فرانسيسكوز فكتوريا الدومينيكانى وفرانسيسكوز سواريز الجزويتى • وأكمل الايطالى البريكوجنتيليس عملهما وأضاف اليه ، وكان أستاذا فى أوكسفورد ، وكذلك الهولندى هيجوجروتيوس الذى صار أول مـــرجع كلاسيكى «لقانون الأمم» وكانوا جميعا متأثرين جدا بتقاليد ارازموس(١)• وسار بعض المصلحين شوطا أبعد حتى من ذلك بأن وضعوا خططا لتنظيم محكمة دولية أو لعصبة أمم أو لفدرال من الدول المسيحية • وقد أشرنا من قبل الى اقتراح البابا ليو العـــاشر بتأليف فدرال شامل للأمـــراء المسيحيين لاقرار السلام فيما بينهم • وفى القرن السادس عشر والثامن عشر اقترحت عدة خطط من هـــذا النوع بواســـطة علمـــاء كاثوليـــك ،• مثل ، كامبا نيللا وكروتشه وبوستل والقديس بيير ، كما اقترحها أيضا بروتستانتيون ، مثل : جروتيوس وبين وبللرز وآخرين (٣) •

(١) كريستيان لانج «Histoire de l'internationalisme» ١٩١٩ ص ٢٣٠ـ ٢٥٢ ، وهو يصف نمو الشيع ذات النزعة السلامية وأفكارها •

(٢) لانج ص ٢٦٢ • وب • مسـنار «L'Essor de la philosophie politique au 16e siècle» ١٩٣٦ ص ٤٥٤ و ٦١٧ •

(٣) لانج ص ٢٧٢ • و ت • تيرمويلن «Der Gedanke der internationalen Organisation in seiner Entwicklung» ١٩١٧ ص ١٤٨ • فيت فالنتين «Geschichte des Voelkerbundgedamkens in Deutschland» ١٩٢٠ •

٩ ـ الجنسية والاستنارة فى انجلترا : لوك وشافتسبرى وبولنجبروك

كانت الصراعات العنيفة بين الأحزاب الدينية والسياسية وبين الأمم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر مصحوبة بنمو صامت للفلسفة والعلم · ففى جميع الأمم شغل مفكرون عظام بالتفكير فى أصل المجتمع والحكم وطبيعتهما · وقد تصوروا المجتمع اما على أنه عقد بين المواطنين وبينهم وبين الملك، أو قارنوه بكائن عضوى· وأمكن تفسير هذين الاتجاهين على السواء اما بمعنى ملكى أو بمعنى جمهورى ، وان بدا أن نظرية العقد تؤيد قضية الشعب ـ الذى كان يعنى عمل الطبقات العليا · بيد أنه كانت هناك أيضا فكرة تذهب الى أن المجتمع فيه شيء من كل من العقد والكائن العضوى ، وأنه ينطوى على كل من الخضـــــوع الارادى وادراك الضرورة الوظيفيــة ، وكان لــكلا الرأيين تأثير كبير على أفــكار السيادة القومية ·

وقد انتصر هذا المبدأ فى الثورة الانجليزية الثانية ، وقد أذهلت النتائج العالم · فقد بدا أن انجلترا عثرت على حل المتناقضات التى بين الحرية القومية والوحدةالقومية ، وبين الحرية والسلطة · ففى خلال القرن الثامن عشر نما فيها الحكم البرلمانى ، وصارت دولة قوية فى العــالم ، وأثرت ثراء ضخما ، وأنتجت مدنية براقة ، وفتحت آفاقا واسعة جديدة للفكر · وصحيح أن نموها كان له جانب آخر أيضا · فالحرية القومية لم تعن حــكم الأمة كلها ، بل حــكم فئة قليلة ، وكانت الوحدة القومية مهددة فى كثير من الأحيان بالنزاع الحزبى العنيف ، وتعرضت فيما بعد للخطر بسبب الهوة العميقة التى خلقتها الثورة الاقتصادية بين الطبقات · وأثارت ســياسة انجلترا فى القارة وتوسعها الاستعمــارى والاحتــكار الاقتصادى الذى بلغته العداوات والانفعالات القومية · ولكن الانجازات الايجابية فاقت جوانب الضعف بكثير فقد صارت انجلترا موضع الاعجاب والحسد باعتبارها نموذج الأمة الفخورة الحرة المتــحدة ، وعندما كان الفرنسيون يشكون من أنهم ليسوا أمة وانغمسوا فى التطلع والتفكير المستمر فى « الوطن » ، كان نموذج انجلترا يراود أخيلتهم ·

بيد أن أعظم الانجازات جميعا كان دورا انجلترا فى صعود روح الاستنارة التى بدت لجميع الناس المتمدينين كانجيل جديد ، والتى بدأت بسرعة تحول أفكار الأمم كلها ومعتقداتها · وقد استمرت الاستنارة فى وجهة النظر العامة « للانسانية » وثقتها فى الطبيعة البشرية ، وانبثقت

منها عدة فلسفات مختلفة تماما مثل « الانسانية » • لم تكن مذهبا واحدا بل حركة من أجل التحرر من سلطان التقاليد والأنظمة التى لم تعد صالحة • وكان المفكرون المنتمون اليها يختلفون بعضهم عن بعض فى عدة نقاط ، ولكنهم اتفقوا فى ثقتهم فى قدرة العقل على ادراك الحقيقة ، وكان هذا العقل هو عقل الفرد وليس أى عقل جماعى تتضمنه القوانين والمعتقدات القديمة • فلم يكن هناك قانون أو معتقد مقدس الى حد يجعله بمأمن من التفكير الناقد • بالاضافة الى أن روح الاستنارة كانت تنطوى على الاعتقاد بوجود قوانين للطبيعة والمجتمع يمكن دراستها بالأساليب التجريبية ، وعلى الأمل فى أن حكم العقل سيؤدى الى التقدم والسعادة • وكان معظم فلاسفة الاستنارة ،وليس كلهم ، ذوى اتجاه متفائل ، وأيدوا كلهم التسامح والانسانية العملية (١) •

وقد صورت الاستنارة بواسطة أعدائها على أنها مبالطة فى الجنوح الى الفكر ، بمعنى الحساب الآلى البارد ، واتهموها باهمال القوى اللا عقلانية مثل العاطفة والخيال • وأشادوا بالرومانسية لأنها تغلبت على النفعية الضيقة والمفهوم ذى الجانب الواحد للطبيعة البشرية اللذين عزوهما الى فلسفة الاستنارة • بيد أن الحقيقة هى أن كبار ممثلى هذه الفلسفة لا تنطبق عليهم هذه الصورة المشوهة • فكثير منهم كانوا يدركون وجود القوى اللا عقلانية فى الانسان ، وقدروها حق قدرها مثل العقل تماما • فقد كانت العقلانية واللا عقلانية على السواء تحاولان تحرير الفرد من أغلال الماضى • وقد شهد عصر الاستنارة أيضا أصل المحاولات اللا عقلانية التى سميت فيما بعد بالرومانسية ونموها ، ولكنها لم تكن قد اعتبرت بعد عدوة لحكم العقل اذ ظلت فى مكانها اللائق وداخل اطار الحدود الصحيحة لها •

وقد صاغ لوك المذاهب الأساسية للتحررية • ففكرته عن الأمة تنطوى على حكم القانون والحقوق الطبيعية للانسان والحكم بالرضا وفصل السلطات واخضاع المصالح القومية لمصلحة البشرية . وهو يقول : ان الجنس البشرى كله يؤلف بمقتضى قانون الطبيعة مجتمعا واحدا ، ولولا الفساد والدناءة التى يتسم بها المنحطون بين الناس لما كانت هناك حاجة لأى مجتمع آخر ، ولا ضرورة لأن ينفصل الناس عن هذا المجتمع الطبيعى العظيم ويتجمعوا فى اتحادات أصغر منقسمة على نفسها •

---

(١) انظر التفسير العميق لروح الاستنارة الذى كتبه ارنست كاسيرر «Die Pilosophie der Aufklärung» ١٩٣٢ •

وكانت فلسفة شافتسبرى ينبوعا ضخما من اللا عقلانية التى تخفف الاستنارة من حدتها • فهو ، مثل ليبنتز وسبينوزا وهردر ، يجمع بين المبادىء الأساسية للاستنارة والأفكار التى صارت فيما بعد انجيل الرومانسيين • وقد تعلم على يد لوك وعمل معه من أجل الحرية الدينية والتسامح • ولكنه يختلف مع كثيرين من أصحاب المذهب الفكرى المتشددين فى تأكيده لأهمية العواطف والخيال والانفعالات • فالفضيلة عنده ليست نتيجة التأملات العقلية ، بل مثل الجمال توافق فى الروح وحماسة نبيلة • والانسان ليس مدفوعا الى الحياة الاجتماعية أساسا بحساب المصالح ، ولكن بغرائزه الاجتماعية المتأصلة ، وهو يملك احساسا معنويا يجعله يشعر بالحق والخطأ دون حاجة الى تفكير عقلى كثير • وتبدو الطبيعة والشخصية البشرية والمجتمع لشافتسبرى وحدات حية تحدوها روح قدسية خلاقة ، أو كما ينبغى أن نقول ، كائنات عضوية وليست آلية • والمجتمع لا يقوم على عقد ، فحتى الحيوانات تعيش فى مجتمع •

ويرى شافتسبرى الصفة الجوهرية فى الأمة فى « الروح العامة » أو « الاحساس بالخير العام » الذى يسميه باختصار « العموم » ، والذى يمكن أن نعرفه بأنه وطنية روحية • والمجتمع ، أى « الأخوة القومية » ، توحد بين الناس لسعادة كل منهم ومساندته ومن أجل أسمى نوع من أنواع السعادة والمتعة « اللقاء بين العقول ، والاستخدام الحر لعقولنا ، ولتبادل الحب والصداقة » • والحكم الصالح والروح العامة مرتبطان ارتباطا وثيقا بالأخلاق • فليس هناك حب حقيقى للفضيلة دون معرفة « الصالح العام » • ويقول شافتسبرى : ان حب الوطن هو أنبل العواطف البشرية جميعا • ولكن ذلك لا يعنى المكان الذى نعيش فيه • فهو حب لشىء معنوى واجتماعى « لحالة من حالات المجتمع البشرى المدنية والسياسية بطبيعتها تسمى الشعب » • و « الجمهرة التى تربطها القوة ليست متحدة اتحادا حقيقيا ، ولاتؤلف مثل هذه المجاعة شعبا • انها العصبة الاجتماعية، والاتحاد القائم على الرضا المتبادل ، اللذان يستهدفان الخير المشترك أو المصلحة المشتركة ، هما ما يربط أعضاء المجتمع ويؤلف الشعب • السلطة المطلقة تقضى على الروح العامة ، وحينما لا توجد روح عامة أو دستور لا يوجد فى الحقيقة وطن أو أمة » • ويشكو شافتسبرى من أن اللغة الانجليزية ليس فيها لفظ مثل « الوطن » ، وان كان فخورا بأن لانجلترا روحا عامة ، ومن ثم فهى أمة بفضل دستورها وما ينطوى عليه من توازن سعيد للقوى بين الأمير والشعب • فالحكم المطلق مدمر للأخلاق والدين « والصالح العام » •

ومع ذلك فان شافتسبرى يعارض كل خيلاء قوميـــة أو أنانية قومية (١) ٠

« ما الدناءة سوى ضيق الأفق ، أى أن يكون شخصى ومالى ضد المال العام وعائلتى ضد العائلة العامة ، وما الفرق بين هذا وأن تكون أمتى أو مجتمعى ضد العالم وقوانين بلادى ضد قوانين الكون أو أوهامى ضد ارادة الكون ؟ »

«هذه الخصومات حول التجارة والأسبقية والشرف والعلم٠ انجلترا، سيدة العالم ! تعطى العالم القوانين ! ولكن أين العدالة والايمان والأمانة والروح العامة » ٠

« انك تريد أن تخدم بلدك ٠٠ حق ٠ ولــكن فكر كيف تفعل ذلك واسأل نفسك : هل أنت على استعداد للتحيز والرياء والكذب والتملق وأن تنحط وتنحل لتخدمها ؟ أما أنا فلا ٠ ولكنى اذا فكرت فى خدمتها كما هو مطلوب منى الآن ، فلابد أن يحـــدث كل هذا بالضرورة ٠ لأنى لابد أن أمتهن عقلى ٠ فلابد أن أصير فاسدا وذا مصلحة ومرائيا ، وأين اذن هذه الخدمة التى سأقدمها ؟ » ٠

ويعلن شافتسبرى ان الامبراطوريات الكبرى غير طبيعية لان السلطة فيها كلها لا بد أن تقــع فى يد قلة ولا بد أن تؤدى ذلك الى تدمير الروح العامة ٠ والامبراطورية الرومانية دليل واضح على ذلك ٠

ان بولنجبروك يقول فى « رسائل عن دراسة التاريخ واستخدامه» « ان من المزايا الرئيسية التى يمكن الحصول عليها من دراسة التاريخ أن التاريخ يطهر العقل من تلك التحيزات والتجنيات القوميـــة التى نتعرض لها فى تربيتنا والتى تؤيدها تجاربنا فى الغالب بدلا من أن تزيلها » ٠

« لا تكاد توجد رذيلة أو حماقة أكثر انتشارا بين الناس من الخيلاء السخيفة المضرة التى قد تجعل شعب كل بلد يفضل نفسه على كل شعب آخر ، وأن يجعل سلوكه وأفكاره وعاداته معايير الخطأ والصـــواب والحق والباطل ٠٠ والآن ، ليس هناك ما يمكن أن يسهم فى الحيلولة دون تلوثنا بهذه الخيلاء أكثر من أن نعود أنفسنا مبكرا التفكير فى أمم الأرض المختلفة،

---

(١) « حياة انطونى ، ايرل شافتسبرى وخطاباته غير المنشورة ونظامه الفلسفى » ، باشراف ب٠ راند ١٩٠٠ ص ١٠٣ و ١١٥ ٠ وشافتسبرى « سمات » ١٧٣٢ المجلد الاول ص ١٠٦ والمجلد الثالث ص ١٤٣ ٠

فى تلك الخريطة الشاسعة التى يعرضها التاريخ أمامنا ، وفى صعودها وسقوطها ، وفى حالاتها المتمدينة والبربرية ، وفيما بينها جميعا من اوجه شبه وأوجه اختلاف ، وبتحديد هذا المفهوم باستمرار فى أذهاننا لن يبدو لنا المكسيكى بقبعته المصنوعة من الريش وهو يضحى بقربان بشرى لربه أكثر وحشية من الأسبانى بقبعته على رأسه والمحرمة على كتفيه وهو يضحى بأمم بأكملها لمطامعه وجشعه ، بل ولمجرد اشباع ما فيه من قسوة » ٠

ثم يستطرد قائلا : ان التاريخ لا يسهم الى حد كبير جدا فى تحرير عقولنا من التحيز السخيف لبلدنا فحسب ، بل انه يخلق أيضا فى عقولنا تفضيلا عاطفيا له ٠ وليس هذا الشعور غريزيا ، بل تكونه التربية والعادة والالتزام والمصلحة ، ولا غنى عنه لرفاهة جميع المجتمعات وعظمة بعضها (١) ٠

١٠ ـ الجنسية والاستنارة فى فرنسا : لويس الرابع عشر ومنتسكيو وفولتير

فى فرنسا صار لفظا : « الأمة » و « الوطن » شعارا لمعارضة الملكية المطلقة ٠ فقد أكد لويس الرابع عشر أنه وحده صاحب القوة التى تنطوى عليها كلمة « أمة » قائلا : « ان الأمة ليس لها كيان خاص فى فرنسا ٠ انها تنحصر كلها فى شخص الملك » وفى تعليماته الى ابنه ٠ ان الرأس فى الجسم هو وحده صاحب حق التأمل واصدار الأحكام ، وجميع الأعضاء الاخرى ليس لها سوى وظيفة تنفيذ أوامره(٢) ٠ وتبعا لوجهة النظر هذه يعد « الملك » هو فعلا الامة أو الدولة ٠ بل ان لويس الرابع عشر كان يعتبر تكرار لفظ «دولة» فى حضرته أمرا غير لائق كما يقول بولنجبروك٠ وهو يتحدث أحيانا فى مذكراته عن الشعوب الأجنبية كأمم ٠ ولكنه يطلق على الفرنسيين باستمرار لفظ «شعوبى» وعلى فرنسا٠٠ «ولاياتى»٠ ومن ثم فانه حتى ممثل المركزية المطلقة هذا كان يعزف عن استعمال لفظ ينطوى على الوحدة القومية التى قد تعرض سلطته لخطر ٠ وفى سنة ١٧٥٤ كتب ماركيز دارجنسون : « لم يحدث من قبل أن تكرر استعمال لفظى : **أمة**

(١) هنرى سان جون « فيكونت بولنجبروك » أعماله ١٨٠٩ المجلد الثالث ص٣٣٢٠

(٢) أنظر «Oeuvres de Louis XIV» ١٨٠٦ المجلد الثانى ص ٢٦ ٠ وكان هذا هو مذهب بوسويه أيضا ، أنظر كنجسلى مارتن « الفكر التحررى الفرنسي في القرن الثامن عشر » ١٩٢٩ ص ٢٦ ٠

ودولة بكثرة مثل الآن · ان هاتين الكلمتين لم تستخدما قط فى عهد لويس الرابع عشر ، بل ان فكرتهما لم تخطر على بال أحد » ·

ان الغـــاء « مرســـوم نانت » ، الذى كان هنرى الرابع قد منح البروتستانيين بمقتضاه التسامح ، وما تلاه من اضطهاد الهيجونوت ، أدى الى هرب ٤٠٠٠٠٠ منهم الى الخارج · ووجد معظمهم ملجـــأ فى انجلترا وهولندا وسويسرا وبروسيا حيث أدخلوا صناعات جديدة كثيرة ·

بالاضافة الى أنه كان بينهم عدد كبير من المثقفين المتحمسين اعجابا بانجلترا التى بدت لهم بلد الحرية والانسانية والتسامح · وصاروا دعاة لا يكلون لانجلترا وأفكار الاستنارة الانجليزية التى قارنوها بالحكم المستبد وظلام الجهل فى فرنسا (١) · وانتشر اللاجئـــون الهيجونوت فى جميع أنحاء أوربا بكتبهم ودورياتهم وترجماتهم عن الأدب الانجليزى · وسرعان ما انتقلت عدوى الاعجاب بانجلترا الى فرنسا بصفة خاصة بل وبلغ حد الجنون بكل ما هو انجليزى · وسار أكبر الكتاب الفرنسيين ، من أمثال: فولتير وديدرو وروسو ومنتسكيو ، فى الطريق الذى رسمه الهيجونوت · وحتى عندما اشتبكت انجلترا وفرنسا فى حروب كبرى عانت فيها فرنسا الهزيمة المهينة ، كان المثقفون الفرنسيون متحمسين الى حد كبير للأنظمة والأفكار والمدنية الانجليزية ·

وحاول الكتاب الفرنســيون فى ذلك العهد الجمع بين الوطنيـــة والعالمية (٢) · وكانت صورة الأمة فى مخيلتهم صورة شعب حر مستنير متحد فى وفاق ، وكان اعتقادهم أن الانســـان لا وطن له فى ظل النظم

---

(١) انظر بصفة خاصة جوزيف تكست «Reausseau et les origines du Cosmopolitanism» ١٨٩٥ · وكذلك ش· باستير «Anglais et Français du XVIIe siècle» ١٩١٢ ص ١٦٧ · وكان مركز الهيجونوت فى لندن فى مقهى رينبو · وقد أثر كتاب «Histoire de l'Angleterre» الذى كتبـــه الهيجونوتى اللاجىء ، رابين دى توبراس ، تأثيرا حاسما في وجهات النظر السائدة في ذلك العهد في التاريخ الانجليزى · انظر أ · فوتير «Geschichte der newren Historiographic» ١٩١١ ص ٣٢٠ ·

(٢) ان أفيد تحليل للفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر فيما يتعلق بالجنسـية بقلم ايفا هوفمان لنيك فى كتابها «Zwischen Nationalismus und Demokratie, Gestallen der franzoesischen Vorr evolution» ١٩٢٧ · وكذلك هـ · ستيوارت و ب · ديجاردان « الوطنية الفرنسيه فى القرن التاسع عشر (١٨١٤ ـ ١٨٣٣) » ١٩٢٣ وهو يتضـــمن عرضـــا مفيدا لآراء القرن الثـامن عشر أيضـــا · ومن الأمثلة الواضحة على الاتجاه الحـديث الى التنديد بأكثر فترات الروح الفرنسية تميزا نظرية العالم الفرنسى العظيم اميل فاجيه التى تذهب الى أن القرن الثامن عشر كانت تنقصه الروح الوطنية ولا يعرف الجنسية الفرنسية · انظر اميل فاجيه «Dix-huitième siècle, études littéraires» ١٨٩٠ ·

الاستبدادية • وكانوا فخورين بانجازات فرنسا الممتازة ، وأرادوا المحافظة على تفوقها الثقافى ، ولكنهم كرهوا الحرب والغزو والتحيز القومى • وكان كثيرون منهم ارستقراطيين ويؤمنون برسالة الطبقات المتعلمة فى قيـــادة الشعب • وكان يحدوهم أعمق العطف على الطبقات الدنيا وما تعــانيه ، وكثيرون منهم كان على استعداد للتنازل عن امتيازاتهم لمساعدتها •

وكان أبرز دعاة الفكر التحررى هو منتسكيو (١) • فقد أثبت للعالم أن الحرية هى المبدأ الدافع للتقدم فى كل ميدان ، وأن الحرية تعتمـد على توازن السلطة فى الشئون الداخلية والخارجية على السواء •

وكان الدستور الانجليزى بالنسبة له أفصح نموذج لهذا الحكم • وجاء تفسيره للسياسة الانجليزية كشفا جديدا حتى للانجليز ، وأشاد به أعظم علمائهم وساستهم بحماس • وقد تعلم منتسكيو كثيرا من انجلترا ، وكان له أيضا تأثير عميق جدا على الفكر والسياسة الانجليزيين (٢) • وكان قد درس أنظمة أمم كثيرة بروح مقارنة ، واعترف بأنه أحس بنفس العطف الشديد نحو كل شعب رحل بينه • وبرغم اعجابه بانجلترا لم يكن فى اعتقاده من الممكن وجود نظام سياسى واحد صالح لجميع الأمم ، بل يجب أن يطابق الدستور روح الشعب ، وأن المشرع لا يستطيع تغيير العادات والتقاليد الا ببطء وحذر شديدين • وقد علم بودان وغيره من الكتاب ذلك أيضا ، وحاولوا تفسير السمات القومية بتأثير البيئة الطبيعية ، وبخاصة تأثير « الطقس » ، على المزاج البشرى • وقبل منتسكيو هذه النظرية ، وهى نقطة من أضعف نقاط نظرياته • ولكنه ابتكر وجهة نظر ذات أهمية كبيرة بتأكيده لأهمية تأثير الأنظمة الاجتماعية والتقاليد التاريخية على روح الأمم أكثر مما فعل سابقوه . فالدول والمجتمعات لا تصنع ولا تصاغ بعقد ، بل تتأثر الى حد كبير بظروف خارج متناول ســيطرة الأفراد : انهــا تظل قائمــة بواســطة التضــامن العضوى ولــكل نظام سياسى عقليته الخاصة . وحالت المبالغة فى أهمية العوامل الجوية وغيرها دون ادراك منتسكيو لكامل دلالات النظرة العضوية ولكنه كان من رواد تفهم السياسة والتاريخ بعمق أكثر .

---

(١) أ٠ سوريل «Montesquieu»

(٢) ج٠ ذديبه. «Montesquieu et la tradition politique anglaise» ١٩٠ وقد بين فيه تأثير انجلترا فى منتسكيو ، وكتاب ف٠ فلتشر « منتسكيو والسياسة الانجليزية » ١٩٣٩ يذكر تأثير منتسكيو فى انجلترا •

وكثيرا ما قورن فولتير بارازموس لشمول معرفته وحدة ملاحظاته وتهكمه وصلاته بالحكام الأقوياء • ولكن كان ينقصه الايمان الديني العميق الذى يتسم به ارازموس فقد كان لا أدريا ومن أهل الشك • فهو لم يشد بقدرة العقل ولم يؤمن بأن الطبيعة البشرية خيرة ، وان أظهر الكثير من العطف العملى على المعانين والمضطهدين •

فضلا عن أنه كان يكره المتعصبين والمتطرفين ، ولا يثق بالشعب ، واعتبر حكم الملك المتنور المتسامح أفضل حكم • ولسوء الحظ كان معظم الملوك يحبون الحرب والمجد • وكان هو يعتبر الحرب شيئا بشعا • وقد كتب عبارات مريرة عن المطامح الحربية للملوك ، وعن غباوة الناس فى اعجابهم بالغزاة • وكان من رأيه أن الفلاسفة لا ينتمون الى أى وطن أو حزب • ومع ذلك فقد كان فخورا بتفوق فرنسا فى المدنية ، ومن وقت لآخر كانت الحروب تنتزع منه الرغبة فى نجاح فرنسا أو الفخر بالانتصارات الفرنسية . وكانت رغبته فى السلام حقيقية ووصلت أحيانا الى حد قريب من النزعة المتطرفة الى السلام • ومع ذلك فقد كان يشك فى قيمة خطط السلام الدائم ، واعتقد أن نزع السلاح والايمان بقانون الأمم يؤديان الى دمار الدولة (١) .

وقد عرض فولتير وجهة نظره فى مقال فى مؤلفه «القاموس الفلسفى» قائلا :

« من الذى له وطن حقيقة ؟ هل هو اليهودى الذى يعدم على المحرقة ؟ أم هم القتلة فى ملابسهم الرسمية الذين يبيعون أنفسهم لأى أميركان ؟ أو العامل الشاب الذى لا يملك أى شىء فى أرض مولده ، بل وليست لديه أية فرصة لأن يملك شيئا ؟ أو هو الباريسى المنغمس فى لذاته الذى لا يحب سوى حياته للمتعة ؟ أو لعله رجل المال الذى يحب وطنه ؟ أو الضابط والجنود الذين ينهبون الفلاحين اذا لم يمنعهم مانع ؟ •• ان يوربيدس كان أول من كتب : ان الوطن هو كل تربة تمنحك الغذاء • بيد أنه كلما كان الوطن أكبر قلت قدرة الانسان على حبه • فالحب يقل مع الاتساع • ان الأسر الكبيرة العدد جدا بحيث لا يكاد الواحد من أبنائها يعرف الباقين لا تثير فى النفس الحب العميق • فضلا عن أن الوطنية كثيرا ما تجعل ، الانسان عدو الناس الآخرين كلهم • فمن الواضح أن أى بلد

---

(١) بول ساكمان «Voltaires Geistesart und Gedankenwelt»

١٦١٠ • جورج براندز «فولتير»

لا يكسب الا على حساب آخر • ورغبة المرء فى عظمة بلاده تعنى الرغبة فى الاضرار بجيرانه • وليس هناك من هو عضـــو فى المجتمع الا من يملك نصيبا فى أرض حوله أو يملك شيئا آخر مطمئنا لحماية القانون ، ونصيبا فى الحقوق السياسية ، وهو وحده الذى له وطن » (١) •

ومن ثم فان فولتير يعتقد أن الناس الذين يملكون شيئا ويتمتعون بالأمن والحرية هم وحدهم الذين يستطيعون الشعور بالوطنية ، وهم الذين يؤلفون الأمة • وهو أحيانا يتحدث عن « الطبقة الثالثة » باعتبارها الأمة •

١١ - روسو والجنسية

لعل جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) ، بين الكتاب السياسيين فى جميع العصور ، هو أكثر من كان له نفوذ على عصره ومن بعده على جميع العصور بصورة غير مباشرة • فأثره فى أيديولوجية الديموقراطية الحديثة والاشتراكية والجنسية ضخم ،وان كان ربما سينكر بعض نتائجه لو عاش ليراها • وينطوى مذهبه كذلك على معظم الأفكار الجوهرية فى الفلســـفة السياسية عند فيشته وهيجل ومازينى والاشتراكيين • فضلا عن أنه كان من أشد نقاد الاستنارة عنفا ومؤسس الرومانسية التى ارتطبت بنمـــو الأفكار الحديثة عن الجنسية • ولم يؤلف روسو مذهبا منسقا تمــــاما ، مثله فى ذلك مثل جميع المفكرين الكبار ، وتضم فلسفته اتجاهات مختلفة تعكس الاتجاهات المتصارعة فى شخصيته وفى الطبيعة البشرية عموما • ولم يكن فكره موجها بدراسة منتظمة ، فهو مدين بالفضل فى معظمـــه لحساسيته البالغة وبداهته ، ولتجارب حياته الغريبة • فهو من عدة جوانب نموذج لقطاع من المثقفين الحديثين الذين كثيرا ما كان لهم تأثير غير عادى على العقل العام •

وكانت روح الاستنارة قد أثارت عدة وجهات نظر مختلفة عن الدولة والمجتمع قبل أن يبدأ روسو فى الـــكتابة • فكان هوبز قد وضع نظرية الحاكم المستبد المستنير التى تقوم على مفهوم متشائم تماما للطبيعة البشرية•

---

(١) أنظر « كتابات ج•ج•روسو السياسية» مع مقدمة وهوامش بقلم ش•أ• فوجهام مجلدان ١٩١٥ • وج• مورلى «روسو» مجلدان • واميل فاجيه «Rousseau Penseur» ١٩١٠ • وبول جانيه Histoire de la science politique المجلد الثانى•وج• لانسون «Histoire de la litérature française» الطبعة العاشرة ١٩٠٨ . وهارالد هوفدينغ «Rousseau» ١٨٩٧ ، وفرانز هايمان «Rousseau's Sozialphilosophie» ١٨٩٨ • وارنست سيير «Philosophie de l'impérialisme» المجلد الاول •

فلا يمنع الانسان من قتل ونهب الآخرين الا الرعب من السلطة • ودولته ، كما قال ج • جوش ، « مجرد رجل شرطة أضخم من الانسان حجما وفي يده عصا »(١) • وكانت وجهة نظر لوك فىالطبيعة البشرية على النقيض من ذلك : فقد كان يؤمن بأن الانسان فى جوهره مسالم معقول ودولته فى جوهرها هى حماية للملكية ، ويمكن مقارنتها بشركة تأمين ذات سلطات محدودة جدا ، فهى تقابل المثل الأعلى للحكم لدى « الهويج » الأحرار •

وكان منتسكيو قد وضع نظرية نسبية ، فكان الناس فى نظره لاهم أشرار ولاهم أخيار ولكن طابعهم يتوقف على بيئتهم ، فروح الامة نتاج الجو والبيئة الجغرافية والتاريخ • وكانت لجميع هذه الآراء ميزاتها ولكن ليس من بينها ما يشجع الروح الوطنية الايجابية والشعور القومى • فلم يكن لنظرية هوبز أو لوك فى الدولة صلة بالجنسية • فلا رجل الشرطة ولا شركة التأمين من الشخصيات التى يمكن المرء أن يحبها ويفخر به ويضحى من أجلها بكل شىء • وصحيح أن منتسكيو أدخل فى الاعتبار الى حد كبير عنصر الاختلافات القومية ، ولكنه نظر اليها أساسا باعتباره عالم اجتماع يحاول تفسير أسبابها دون الانحياز الى أى جانب ، وليس فى نظريته تبرير للشعور القومى ، بل لعلها أميل الى تشجيع « العالمية » •

أما روسو فكان كيانه كله يتحرق الى الحب والحماسة ، وكان يكره الحساب العقلى البارد وتمرد على طغيان المجتمع وسطحيته القاسية • وكان الذوق السائد بين فلاسفة وقته هو عدم الثقة فى الحماسة وتسخيفها والاشادة بالعقل ، وكانوا يؤمنون بأن التقدم والمدنية سيجعلان الانسان حكيما وسعيدا • وجاء روسو فهاجم مذهب العقل ونمو المدنية أعنف هجوم واعتبرهما لعنة على البشرية . ان الطبيعة جعلت الانسان طيبا ومسالما ومتساويا وحرا وسعيدا ، ولكن المجتمع والمدنية جعلاه شريرا وأنانيا ومغرورا وغير متساو وغير حر وغير سعيد . والأسباب الرئيسية فى الفساد العميق فى الانسان هى عدم المساواة الاجتماعية ، وبخاصة نشوء الملكية الخاصة والجنوح الى المغالاة فى الفكر • ان نمو الانقسامات الطبقيه بين الأغنياء والفقراء وبين الحكام والمحكومين ، وبين المتعلمين والأميين ، وظهور الحكومات والمراتب الاجتماعية والحرب والزراعة والصناعة والتجارة والعلم والفلسفة والفنون والترف وحياة المدن دمرت البراءة الأصلية فى

---

(١) ج• جوش « هوبز والدولة المطلقة » (في دراسات في الدبلوماسية وسياسة الدول » ١٩٤٢ ص ٣٥٩) •

الحياة الطبيعية جعلت الانسان فى شقاء وانحراف متزايدين • فالبدائيون والفلاحون والأطفال وحدهم فيهم الخير الأصلى فى الانسان (١) •

والى هنا يبدو أن فردية روسو العاطفية تؤدى الى الفوضى ، ولكنه يتحول فجأة ويعلن أنه لا ينقذ الانسان سوى اندماج الفردية الخاصة فى الكائن العضوى الجماعى لدولة قومية • اذ كان بلوتارك قد أشعل فيه الحماسة للوطنية البطولية فى العالم القديم الذى رآه فى صورة رومانسية • فيطالب المواطن بضرورة اخضاع مصالحه الخاصة اخضاعا كاملا « للصالح العام » • والمواطنون اذ يفعلون ذلك يظلون أحرارا لأنهم يطيعون قانونا صنعوه بأنفسهم ويمثل ارادتهم الحقيقية • فالحكم يجب أن تحدده الارادة العامة ، التى تعنى ارادة الجميع وارادة المصلحة الجماعية العامة • ولكنها ليست دائما ارادة الأغلبية ، التي قد تضللها الانفعالات والجهل • وقد نبذ فكرة الحكم البرلمانى الذى كان ينمو في انجلترا وفكرة توازن القوى داخليا ، وبدا كأنه يعتبر التشريع المباشر بواسطة الشعب ـ كما هو الحال في بعض كنتونات سويسرا ـ هو الحكم النموذجي •• ان المساواة السياسية والاجتماعية هى الهدف الأسمى من تنظيم الدولة ، ومن مهام المجتمع أن يربى جميع أعضائه على المواطنة والأخلاق والجنسية • وقد سبق روسو هيجل فى رأيه من أن الحرية هى الحرية المعنوية وأن للدولة الحق فى ارغام المواطنين على أن يكونوا أحرارا حقيقة بتكوين ارادتهم فى اتجاه الأخلاق وأنه ليس هناك أخلاق خارج الدولة ، وأن اختصاص الدولة غير محدود تقريبا ، بل انه سار أحيانا أبعد من هيجل • ففى مشروعه لدستور كورسيكا يقول : انه أراد أن يجعل صلاحيات الدولة أكبر وأقوى ما يمكن ، وأن تكون صلاحيات الفرد أقل وأضعف ما يمكن ، الامر الذى ينطوى على الاشتراكية ، وان كان مدى اشتراكيته موضع جدل • ومن المحتمل أنه كان يريد مجرد المساواة فى توزيع الممتلكات بين جميع أعضاء الدولة وليس تأميم الانتاج • واعتقد روسو ، مثل هيجل فى شبابه ، أن المسيحية لا تتفق مع الوطنية المتحمسة • فهى تعتبر السماء الوطن الحقيقى وتبشر بالخشوع والعدالة والسلام والاخوة العالمية التى تفيد الانسانية ككل ، ولكنها تؤدى الى ضعف الدولة وتحلل المجتمع • ومن ثم أراد أن تحدد الدولة حدا أدنى من الدين المدنى ثم تتسامح فيما عدا ذلك فى جميع

---

(١) يشير فاجيه الى أن روسو اتخذ قصة الانجيل الخاصة بخطيئة آدم أساسا عن غير وعى منه • فالانسان يغريه الشيطان ويعده بأن المعرفة ستجعله مثل الله ومن ثم يفقد البراءة وسعادة الحياة فى النعيم •

المعتقدات باستثناء الكاثوليكية والالحاد واللاأدية ، وكان روسو يكره المسيحية لأنها تجنح الى اقامة دولة داخل الدولة ·

وكانت روح الاستنارة تميل الى اعتبار الدولة مجرد شر ضرورى والشعور القومى تحيزا · أما روسو فعلى النقيض من ذلك رأى فيهما أكبر القيم · فقد عاد الى نظرية أفلاطون التى بدت فيها الدولة كائنا عضويا معنويا هو منبع الأخلاق كلها ، والى وجهة نظر أرسطو الذى نظر الى الدولة باعتبارها سابقة الوجود على الفرد والضامن الذى لاغنى عنه للحياة الطيبة · ان « فرديته » حولت نفسها من كل جانب الى « جماعية » متصلبة ·

والوطنية فضيلة بطولية عظيمة · فهى الحب الفعال الوحيد للبشرية، لأنه ليس من الممكن أن يشمل المرء العالم كله بحبه · ولذا يجب أن يركز عواطفه على مجال أضيق هو الوطن · ففى المجتمع البدائى كان وطن الانسان هو القبيلة · وكانت الحرية والمساواة والاخاء سائدة ، ومنها يتألف الوطن · ولكن ظهور الملكية فى الأرض أثار الجشع وأدى الى الحروب والى نمو طائفة المحاربين وتدمير الحريات القومية والمواطنة · وفى النهاية لم يعد هناك من يهتم أى اهتمام بالوطن · فبالنسبة للخاضعين كان الأمر لديهم سيان أن يكون مضطهدهم طاغية من أهل البلاد أو أجنبيا · ولم يعد للوطن وجود · فالحرية والمساواة وحدهما يثيران الوطنية الحقيقية ·

وكان روسو يعجب بصفة خاصة بأسبرطة فى عهد ليكورجوس بنظامها الجديد ووطنيتها الجارفة وبطولة التضحية بالنفس ـ أسبرطة التى استبعدت الفنون والعلم وصارت فى مستوى أعلى من أثينا ، ومن روما بعد ذلك ، اللتين اهتمتا بهما ونسيتا نظامهما الحربى ووطنيتهما وحرصهما· ان ليكورجوس علم شعبه الوطنية فى كل شىء ، فى القوانين وفى الألعاب والاحتفالات وفى الشئون الخاصة ، وحتى فى الحب · فلم يترك لأبنائه لحظة راحة يهتمون فيها بأنفسهم فحسب ، وانبثق من هذا الاكراه المستمر حب قوى للوطن كان أقوى عاطفة لدى الاسبرطيين ، أو العاطفة الوحيدة ، وجعلهم كائنات فوق الآدميين · وأغمض روسو ، فى تحمسه لأسبرطه ، عينيه عن أنها لم تقم على حرية الجماهير ومساواتها · بل كانت تحكمها طائفة حربية تضطهد السكان الخاضعين ، الذين ربما بلغ عددهم عشرين مثل عدد سادتهم ، اضطهادا بلا رحمة ·

وفضلا عن ذلك يؤكد روسو ضرورة التقاليد القومية كأداة لزيادة

التضامن بين المواطنين ودعمه • وينبذ اتجاه « العالمية » السائد الذى لافائدة منه سوى اتخاذه عذرا للتخلص من واجبات الانسان تجاه أمته ، ويهاجم بصفة خاصة تلك العادة الضارة السائدة فى أوربا كلها من تقليد العادات الفرنسية تقليدا أعمى • والوطنيون بالضرورة متحيزون وغير عادلين وخشنون فى معاملتهم للأجانب ، ولهم العذر فى ذلك لأنه نتيجة لحبهم الجارف لأمتهم • والأنظمة والتقاليد القومية والعرف والعادة هى ما يتألف منه طابع الشعب ، والتفرد بهذا الطابع عماد الوطنية • وعندما سأله البولنديون المشورة فى وضع دستورهم اهتم اهتماما بالغا بمنحهم ملامح خاصة تميزهم عن كل الشعوب الأخرى • فالبولندى الذى بلغ العشرين يجب أن يكون بولنديا ولا شىء آخر • والطفل عندما يفتح عينيه يجب أن يرى الوطن ولا شىء آخر حتى يموت • بيد أن روسو فى بعض كتاباته الأخرى يلجأ الى نغمة أكثر اعتدالا من عدة جوانب • فهو لايعارض كلية فى الأهداف التى تسمو على القومية ، ويعترف بأن رفاهة البشرية فوق رفاهة أية أمة بذاتها • وبصفة عامة يخفف روسو كثيرا من حدة عدوانيته النظرية عندما يناقش موضوعات محدودة • فهو عندئذ يدخل فى الاعتبار الاختلاف والتفاوت بين الشعوب وداخلها ويعقد الآمال على التحسن التدريجى • فلم يكن مثله الاعلى عمليا فى الحياة هو الرجل البدائى ، بل ربما مجتمع الفلاحين الحر بدون استغلال اجتماعى ولا مطامح مغرورة ، يعيشون فى سعادة وتدبير • ويقول : « ان أهل الريف هم الذين تتألف منهم الأمة » • فالحياة فى المدن تفسد الانسان • ومع ذلك فان « حديث فى أصل عدم المساواة » الذى يتضمن هجومه على المدنية والذى جعل روسو مشهورا ، أهداه الى مدينة جنيف التى يشيد بدستورها فى تقريظ طويل اشادة فائقة باعتباره أقرب شىء الى مجتمعه النموذجى ، برغم أن جنيف فى ذلك الوقت كانت تخضع لحكم كله رأسمالى •

وبرغم أن روسو أشاد بالتحيز القومى و « الانغلاق » (exclusiveness) فانه كان معارضا تماما للمبدأ الجوهرى فى النزعة القومية الحديثة ، وهو عبادة القوة والهيبة • اذ أن أصله السويسرى وحماسته للجمهوريات المدن القديمة جعلاه يؤمن ايمانا راسخا بالدولة الصغيرة التى لا يحقق الحرية والمساواة سواها • فقد كان مقتنعا بأن الدولة الكبيرة لايمكن أن تكون الا استبدادية ، وتظل دائما حربية عدوانية • وكان روسو يستبشع الحرب والاضطهاد ، ويرحب بتقسيم الدول الكبيرة الى دول صغيرة تؤلف فيما بينها فدرالا للمحافظة على السلام •

ان نقد روسو الشديد للمجتمع ودعوته الى المساواة الاجتماعية ، وبخاصة أفكاره عن التربية أثارت ضمائر الناس وأفكارهم مما أدى الى تحقيق اصلاحات مفيدة جدا . ومن الناحية الأخرى شجع الاتجاهات العدوانية التى كانت السبب الرئيسى فى الضعف البالغ فى الديموقراطية الحديثة فى صراعها مع عدوها المميت . لقد كان فكره ينطوى على كل من الفردية المتطرفة والجماعية المتطرفة ومن ثم اتجه تلامذته اما الى مذهب من الفوضى أو الى مذهب الدولة المطلقة القوة . وقد جعله ايمانه بطبيعة الانسان المسالمة الخيرة لايقدر عنصر العدوانية والمقاتلة فيها، فلم يدرك بدرجة كافية أن المطالبة بالمساواة الاجتماعية الكاملة قد تؤدى الى حرب طبقية مريرة والى خسارة كاملة للحرية والوحدة القومية ، كما لم يتبين الخطر الذى تنطوى عليه اثارة المشاعر القومية المتحيزة وزيادة قوة الدولة . بيد أن بعض ملاحظاته تبين أنه لم يكن غافلا تماما عن هذه الأخطار . ففى مواجهة الموت اعترف بأنه « منذ طفولته حالت ظروف كثيرة بينه وبين العالم الحقيقى وصعد الى مناطق « أثيرية » حيث كون آراء رومانسية غير صحيحة عن الناس والمجتمع ، لا تنفع جميع الكوارث فى علاجها تماما » .

١٢ ـ الثورة الفرنسية والجنسية

يتلخص انجيل روسو فى شعار الثورة الفرنسية «الحرية ، المساواة، الاخاء » . فتعاليمه كانت مصدر وحى لزعماء الثورة . لقد آمنوا بأن الحروب والاضطهاد والسيطرة سببها الوحيد هو الحاكم المستبد والطبقات المتميزة، وأن جميع الأمم ، بعد أن تحصل على حريتها ، ستحقق حكم المساواة والاخاء داخل كل أمة وبين الأمم . وكان كثير من المثقفين فى البلاد الأخرى يشاركونهم فى هذا الأمل .

وقد نشر الأب سييز كتيبه المشهور « ما هى الطبقة الثالثة ؟ » فى بداية الثورة . وهذا اللفظ يعنى نظريا الطبقة الوسطى ، من سكان المدن والريف ، وان كانت عمليا تعنى المثقفين والبورجوازيين الذين هم أحسن حالا . والكتيب وثيقة اتهام عنيفة ضد الطبقتين المتميزتين ، الارستقراطية ورجال الدين . وهو يصف ألوان الظلم والشقاء الفاضحة بسبب امتيازاتهما ، ويؤكد أن الطبقة الوسطى هى العنصر السليم الذى له قيمة فى الدولة . أما الارستقراطيون فهم أحفاد الغزاة الأجانب ، كما يفخرون هم أنفسهم ، ويجب طردهم . والطبقات المتميزة سم يسرى فى الكائن العضوى القومى . وينبذ الكتيب فكرة الدستور على النمط الانجليزى

بمجلس البرلمان • فوقت الحلول الوسط قد فات • ان « الطبقة الثالثة » وحدها هى االأمة ولا بد أن تؤلف «الجمعية الوطنية» . والأمة صاحبة السيادة وسلطاتها مطلقة وقراراتها لاتخطىء •

وسرعان ما جعلت « الطبقة الثالثة » نفسها « الجمعية الوطنيـــة » • واقترح ميرابو أن تختار لنفسها اسم « تمثيل الشعب الفرنسى » ، ولـكن خيلاء البورجوازية جرحها لفظ «شعب» الذى تفوح منه رائحة «الغوغاء» فى لغة ذلك العهد . ورد ميرابو بأن الانجليز والامريكيين يستخدمون لفظ «شعب» دائما بمعنى أنبل • ويجب اختيار هذا اللفظ واضفاء طابع النبل عليه لأنه لا يلقى التقدير الكافى فى فرنسا بالذات • بيد أن خطابه أثار عاصفة بين المندوبين . وكان الخلاف فى قراراته خلافا حول معنى (الأمة) . فلقد كان الاتفاق عاما على أن الأمة هى صاحبة السيادة . ولكن أى الطبقات تتألف منها الأمة ؟ وكيف يمكن التأكد من الارادة القومية ، « الارادة العامة » عند روسو ؟ ومن الجلى أن فكرة الأمة التى يقوم عليها النظام البرلمانى الانجليزى فى ذلك الوقت تختلف عن فكرة الثوريين •

وكان سييز قد أشار الى ادعاء بعض المتحدثين باسم الارستقراطيين بأنهم حفدة الغزاة الفرانك ، ومن ثم فهم الامة الحقيقية ولهم الحق فى حكم الجنس الذى غزوه (١) • ولكن عندما قامت الثورة عطف قسـم كبير من الارستقراطيين ورجال الدين على أهدافها ، وكان منهم بعض أحسن كتاب الثورة وسياسييها • بالاضافة الى أن الطبقتين المتميزتين سرعان ما انضمتا الى الجمعية العموميـــة • ومع ذلك فان فكرة الاختـــلاف العنصرى بين الارستقراطية والطبقة الوسطى ، ودلالاتها فيما يتصـــل بفكرة الأمة ، استمرت تلعب دورا ضارا فى مناقشات السـياسة الفرنسية طوال جزء كبير من القرن التاسع عشر •

وقد عقد تلامذة روسو الأمل فى تحقيق المثل الأعلى للوحدة الروحيـة الوثيقة والاخاء العام بوسيلتين : الأولى هى فرض المساواة على الفور باخماد كل امتياز • واستخدمت الطبقة الوسطى البورجوازية هذه السياســـة للتخلص من نفوذ الارستقراطية • وقد أيدتها فى ذلك الطبقات الدنيـا ، البروليتاريا الوليدة • ولكن سرعان ما وجدت هـذه الطبقات زعماء بدءوا يهاجمون الطبقة المتميزة الجديدة ، البورجوازية . وأعلن «مارا» أن الفقراء لاوطن لهموقد حكمعليهم بالعبوديةوالاضطهاد على يد الطبقاتالمالكة •

---

(١) هذا الكتاب ، الفصل الثانى ، (٦) .

وصارت المطالبة بالمساواة موجهةضد البورجوازية، وأدت فى النهاية الى ظهور فكرة الشيوعية • وأصبح مبدأ المساواة صاحب الصـــــدارة فى أيديولوجية الثورة • ولكنه لم يؤد الى الحرية والوحدة والاخاء ، بل سرعان ما أدى الى اندلاع الحرب الطبقية والفوضى وصعود حكم استبدادى عسكرى جديد •

وكانت الوسيلة الثانية فى تحقيق الوحدة القومية ، التى أوصى بها روسو نفسه هي تشجيع الناس على حب تقاليدهم والفخر بها واستبعاد النماذج الأجنبية ونبذ العالمية• وقد أعلن الثوريون أنهم من أنصار العالمية، ودعوا الى مبدأ تقرير المصير ، ونادوا جميع الأمم أن تنفض عن نفسها نير طغاتها • ولكن سرعان ما ظهر فى كلماتهم وتصرفاتهم تيار من التعصب القومى والعدوانية • وقد وصفنا من قبل كيف حاولوا القضاء على جنسية الأقليات التى تعيش فى فرنسا ، والامر الذى لم يحاول النظام القديم أن يفعله قط (١) • وكانت سياستهم هى السبب فى الحرب ضد الملكيات • وقد أثبت جين جوريه مرة أخرى فى مؤلفه العظيم عن الثورة أن الجيروند، حزب البورجوازيين الأثرياء والمثقفين ، هم الذين فعلوا كل ما فى وسعهم لاشعال الحرب فى حين كان خصومهم ـ الدول الملكية الاجنبية ـ تنفر نفورا شديدا من السياسة الحربية •

وكان هدف الجيروند هو اتاحة دفعة جديدة لروح الحماســـة الثورية التى كانت قد أخذت تخبو ، وأن يدعموا قبضتهم على الأمة . ومن أجل هذا الغرض أثاروا الغرور القومى والرغبة الجارفة فى الهيبة والقوة ، وادعوا أن الأمة مهددة بالخطر من جانب اعدائها ، وأعلنوا أن الحرب ستؤدى الى تحرير جميع الشعوب •

ويقول جوريه :

« وبهذه الطريقة أراد الجيروند استخدام الحرب مناورة ضخمة فى السياسة الداخلية • فأية مسئولية فظيعة هذه ، وعندما نفكر فى أن تصرف لحظة كان ثمنه عشرين عاما من الحكم القيصرى الدموى ، وأن فرنسا بعد ذلك ظلت من ١٨١٥ الى ١٨٤٨، أو حتى من ١٨١٥ الى ١٨٧٠، أقل حرية

---

(١) جين جوريه «La Législative» (Histoire Socialiste. Tome II) ص ٧٩١ ـ ٩٥٨ • بيد أن جزءا من المسئولية يقع على عاتق جماعة حول الملك كانت تأمل أن تؤدى الحرب الى استعادة السلطة الملكية ، وعلى عاتق الملك الذى قبل مشورتهم •

مما كانت فى ظل دستور ١٧٩١ .. واذا أدرك الانسان أن الدعاية المسلحة للمبادىء الثورية أثارت ضدنا الشعور القومى لدى الشعوب الأخرى وحملتنا تلك الأعباء العسكرية الفظيعة التى ترزح تحت وطأتها جميع الأمم ، فان المرء يتساءل هل كان للجيروند الحق فى القيام بهذه المغامرة » .

وفى خضم الحرب سرعان ما صرف النظر عن كل النوايا الطيبة لمنح حق تقرير المصير لجميع الأمم المحررة ، وصارت سياسة الجمهورية الفرنسية نحو بلجيكا وايطاليا قومية واضطهادية صراحة .

١٢ ـ بيرك وفكرة الجنسية

تعرضت مبادىء الثورة الفرنسية وفلسفة روسو السياسية لنقد قاس على يد ادموندبيرك (١) . وقد كتب مؤلفه المشهور « تأملات فى الثورة الفرنسية » سنة ١٧٩٠ فى وقت لم تكن الثورة فيه قد انحطت بعد فصارت حكم ارهاب وحروب غزو ، ويثبت ذلك أن تأملاته لم تثرها مجرد مشاعر الاستبشاع وخيبة الأمل مثل كتابات كثيرين من الناقدين اللاحقين . وينبثق رفض بيرك للتجربة الكبرى ، التى كانت وقتئذ موضع عطف جميع ذوى العقول المتحررة تقريبا ، من خطة مختلفة تماما فى التفكير السياسى يمكن وصفها بأنها تمرد ضد عقلانية القرن الثامن عشر وتفاؤله وايمانه بالقدرة اللانهائية لعقل الفرد وبطيبة الطبيعة البشرية وامكان التقدم السريع بتحطيم جميع أغلال الماضى .

وكان منتسيكو قد بدأ فعلا الاتجاه الى نبذ الأسلوب التجريدى فى الفكر السياسى وأكد النسبية التاريخية والاجتماعية لجميع المبادىء والنمو العضوى للمجتمع والأثر القوى للطابع القومى فى تحديد الدساتير والتشريع . وقد لقى مذهبه ترحيبا حماسيا فى انجلترا وصار بيرك تلميذه المتحمس (٢) .

وعند بيرك أن الشعب أو الأمة ليسا مجرد جمهرة من الكائنات البشرية تعيش معا ، بل شخصية تاريخية ذات بناء سياسى واجتماعى خاص بها ويوحدها نوع من الرضا الضمنى وتقودها طبقة صغيرة مدربة

---

(١) جون مورلى « بيرك » ١٨٨٨ ، وجون ماكون « فلسفة بيرك السياسية » ١٩١٣ . والفرد كوبان « أ . بيرك والتمرد على القرن الثامن عشر » ١٩٢٩ ، هارولد لاسكى « بيرك » .

(٢) ف . فلتشر « منتسكيو والسياسة الانجليزية » ١٩٣٩ .

على السياسة والخدمة العامة وتتجسد فيها التقاليد القومية . وقد استخدم بيرك مصطلحات لوك التى ألفها « الهويج » (الأحرار) فوصف المجتمع بأنه عقد ، بل ويقارنه بشركة محدودة تتحدد فيها الحقوق بواسطة الميثاق الأصلى وتتناسب مع مقدار الاسهم التى تحملها كل فئة .

بيد أن دولة لوك محدودة بحماية الأمن والملكية ، وأعضاؤها هم الجيل الحى من المواطنين الذين لديهم مطلق الحرية فى أن يفعلوا ما شاءوا بالدولة . أما مفهوم بيرك عن الدولة فهو مفهوم المشاركة فى جميع المساعى الروحية والمعنوية التى تربط الأحياء وأسلافهم ومن يأتون بعدهم . فالدولة بالنسبة له مقدسة بقدر ما هى مقدسة عند هيجل . وهى تخضع لقوانين معنوية أبدية ، وأعضاؤها ليسوا أحرارا فى حلها أو تعديل دستورها تعديلا جذريا لأنه يتضمن تجربة وحكمة أجيال كثيرة .

وأهم عنصر فى الأمة أرستقراطية طبيعية تملك كل الصفات اللازمة للزعامة . تؤلف روح الأمة وبدونها لا تكون هناك أمة . وعندما هرب كثيرون من الارستقراطيين فى أثناء الثورة الفرنسية الى ألمانيا وأنشئوا مقر قيادة فى جوبلنز قال بيرك فعلا : ان الأمة الفرنسية هناك . وتضم هذه الطبقة الرائدة النبلاء وسادة الريف والتجار وأصحاب المصانع المزدهرة وأوساط الناس . والأرستقراطية الطبيعية بالمولد والثراء والعبقرية تحمل أمانة بالنيابة عن الشعب وتمارسها تبعا لما تراه هى ولا تقيدها تعليمات ناخبيها . وقد عارض بيرك باستمرار أى توسيع لحق الانتخاب ، بل وكان يفضل تقليل عدد الناخبين . وبداله الدستور البريطانى مزيجا طيبا جدا من القوى والمبادىء يفوق كثيرا أى دستور صيغ طبقا لمذاهب مجردة . وهو يشيد بصفة خاصة فى طابع الشعب الانجليزى « رهبة من الملوك والقساوسة » و«مقاومته الباسلة لكل تجديد» و « اصراره على التمسك بحكمة التحيز » .

وبمصطلحاتنا الحاضرة تعنى وجهة نظر بيرك فى الأمة أنها كائن عضوى روحى نتاج نمو عضوى طويل . بيد أنه كان يدرك تماما مخاطر مقارنة الأمة بكائن عضوى طبيعى التى تنطوى على أن الأجزاء ليست لها ارادة مستقلة وأن الكل ليس له هدف سوى بقائه . ففى وجهة نظره ،

للأرستقراطية الطبيعية ارادة مستقلة، وهدف الدولة هو رفاهة مواطنيها. ورأيه الخاص فى أن الأنظمة الانجليزية هى نتاج النمو العضوى صحيح فى جوهره، ولكنه بالغ فى هذه النقطة . فانجلترا أيضا مرت بثورات وعزلت أو قتلت عددا من ملوكها ولم تكن أقل من الثورة الفرنسية فى مصادرة أموال الكنيسة : بيد أن خوف بيرك من الثورات كان ينصب فقط على الثورات التى تهدد بأن تتحول الى ثورات اجتماعية ، فى حين أنه وافق صراحة على عدة ثورات قامت بزعامة الأرستقراطية .

وكانت روح الاستنارة تجنح الى اعتبار كل معتقد لايقوم عليه دليل من المنطق الواضح أو ضد معايير «الادراك العقلى» تحيزا أو خرافة . وينقد هيوم فى مقاله « عن التحيزات المعنوية » تلك « المحاولات الفلسفية الجادة فى سبيل الكمال التى تهاجم ، بحجة اصلاح التحيزات والأخطاء ، أقرب المشاعر الى القلوب وجميع التحيزات والغرائز المفيدة التى يمكن أن تحكم المخلوق البشرى» . بل ان كثيرين من دعاة الاستنارة لم يوافقوا على تنوير الطبقات الدنيا التى اعتقدوا أنها فى حاجة الى تحيزات معينة من أجل سعادتها وليظل حكمها ممكنا .

وكانت هذه هى التربة التى نبتت فيها الرومانسية . وقد دافع بيرك بقوة عن التحيزات بشرط أن تكون قد ثبتت بالعرف الطويل وبالاختبار . وقد كان بينه وبين روسو عدة أوجه شبه برغم أنه قاتله كعدو شديد .

فهو يؤكد مثل روسو أهمية المشاعر والتحيزات باعتبارها روابط للمجتمع ، ويقدر الجنسية (١) ، ويجنح الى وجهة نظر عضوية فى الدولة ويؤمن بأن الحرية الحقيقية لاتتحقق الا عن طريق الدولة . وفى حين أشاد بالبدائى النبيل أشاد بيرك بفروسية العصور الوسطى . ولكن روسو يدعو الى المساواة ويندد بالملكية الخاصة فى حين يرى بيرك فى عدم المساواة سنة الهية ويعتبرها كما يعتبر الملك ضمانا لابد منه للمجتمع المتوازن السليم .

---

(١) فيما يتعلق بالتفاصيل انظر كوبان ص ٩٧ .

وكان بيرك أساسا من المؤمنين بقيمة التقاليد ويبجل الحكمة الجماعية المنحدرة من الماضي ولايثق بحكمة الافراد ، فى حين كان روسو رومانسيا يؤمن بالخير الجوهرى فى الطبيعة البشرية وافترض أن عامة الناس الذين لم تفسدهم المدنية أكثر من احتفظ بهذا الخير الأصلى . فضلا عن أن روسو لم يكن متسقا فى رومانسيته وغرق الى حد كبير فى التأملات التجريدية واعتقد أن الدولة المطلقة السلطة ستجعل المواطنين أحرارا وفضلاء وسعداء .

وقد بذل بيرك كل مافى وسعه لاثارة انجلترا الى الحرب ضد فرنسا الثورية ، ولكنه لم يكن من الدعاة القوميين ذوى النزعة العدوانية . فموقفه من مسائل الثورة الامريكية والعدالة نحو الهند يثبت أن الهيبة والقوة لم تكونا بالنسبة له أهدافا أولى .

وكانت لديه نظرة أوضح فى طبيعة المشاعر القومية من روسو ، وأدرك تماما أن التطلع الى التفوق والسيطرة يمكن أن يوجد فى كل الطبقات (١) . « ان الرغبة فى أن يكون هناك من هو أدنى تصل الى أدنى الناس جميعا » .

وقد نشر فى شبابه كتابه «تبرير المجتمع الطبيعى» الذى يقول فيه ان مجرد انقسام الناس الى مجتمعات منفصلة فى ذاته مصدر احقاد وخلافات دائمة بينهم . فالتاريخ يبين أن الاغلبية الساحقة من النزاعات بين الأمم المختلفة لايكاد يكون لها من سبب سوى أن هذه الأمم مؤلفة من مجموعات مختلفة من الناس وتطلق عليها أسماء مختلفة . فبالنسبة للانجليزى يثير طبعا اسم فرنسى أو اسبانى أو ايطالى أفكار الكراهية والازدراء . ومع ذلك فان مجرد اسم رجل ما ، اذا استخدم بطريقة سليمة لا يثير الا أثرا طيبا .

ومن المعترف به الآن أن هجمات بيرك ضد مبادىء الثورة الفرنسية كان يحدوها تعصب بالغ بحيث تجاوزت هدفها . ومع ذلك فيجب القول بأن التقليد الانجليزى الذى اتبعه بيرك فى تعريف الأمة أثبت فى المدى الطويل أنه يؤدى الى الوحدة والتضامن والحرية القومية أكثر من تقليد الثورة الفرنسية ، وان كان يجب ألا نغفل أن هذا التقليد الاخير كان له تأثير ضخم على انجلترا أيضا . وعندما جاء فردريك جنتز ، أحد كبار

---

(١) مورلى ص ١١٣ .

المعجبين ببيرك ، الى انجلترا غمره الانطباع الذى تركته القومية الانجليزية فى نفسه باعتبارها كائنا عضويا • وهو يشيد فى خطاباته بانجلترا بوصفها كلا كاملا والامة الحقيقية الوحيدة الموجودة ذات الطابع المحدود والدستور الشامل لكل شىء والمتداخل فى كل شىء• وقال: انه اذا ضاعت انجلترا فى أى وقت من الاوقات فان ذلك المشهد البهيج للعظمة القومية والسعادة لن يتحقق ثانية قط فى أى مكان على وجه البسيطة •

وقد ظل تأثير بيرك مدة طويلة أعمق فى المفكرين السياسيين فى القارة منه فى البريطانيين (١) . اذ رأى الرومانسيون الالمان والتقليديون الفرنسيون فى كتاباته انجيلهم • وتماثل فلسفة هيجل السياسية الى حد كبير جدا فلسفة بيرك ، وان كان هيجل يجمع بينهما وبين بعض تقاليد الثورة ونابليون .

١٤ ـ الفكر الألمانى قبيل الثورة الفرنسية وبعدها

فى أثناء القرن الثامن عشر تسربت أفكار الاستنارة والرومانسية المبكرة ، كما عبرت عنها كتابات الفلاسفة والشعراء وكتاب القصة الانجليز ، والفرنسيون ، الى الطبقات العليا والوسطى فى المانيا والبلاد المجاورة وقوبلت بحماسة . وسرعان ماحدثت حركة احياء غير عادية فى كل ميدان فى الفكر والادب الألمانيين . وكان الكتاب الألمان الى حد كبير متأثرين بنماذج أجنبية ، ولكن كثيرين منهم لم يستمروا مجرد مقلدين بل أظهروا أصالة عظيمة . وبذلك دخلت ألمانيا عصرها الكلاسيكى فى كل من الفلسفة والادب .

وكان الشعور العام بين الطبقات المتعلمة عالميا وبعيدا تماما عن أية نزعة قومية سياسية . فالتعصب المحلى والتنافس بين الأقطار الألمانية الكبرى ، وحتى بين الاقطار الصغرى (٢) ، والصلات الأسرية

---

(١) فريدا براون «Burke in Deutschland» ١٩١٥ • مورلى ص ٣١٢ •

(٢) وحتى فى القرن الثامن عشر كانت هناك حروب صغيرة كثيرة بين الامراء الصغار . وقد أعلن أحد البارونات ، بارون فلمنج ، الحرب على دوقة ساخن ويسنفلز لانها أمرت بذبح كبش فى اقليمه • وفى ١٧٤٧ نشبت حرب بين ساخن جوتا وساخن ماينتجن بسبب شجار بين اثنين من النبلاء حول حق التقدم فى البلاط • وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع فى كتاب ماكس فون بوهن «Deutschland im 18 Jahrhundert, Das heilige Roemische Reich» ص ١٣ •

بين ألمانيا والاقاليم الاجنبية ، وعوامل أخرى استبعدت كل احتمالات اتباع سياسة عدوانية . وقد شكا بعض الكتاب من عدم وحدة الشعوب الألمانية وعدم وجود سلطة مركزية مناسبة وتدخل الدول الأجنبية فى شئون ألمانيا ، ولكن لايكاد يوجد أثر للنزعة القومية السياسية بمعنى التطلع الى القوة القومية . كما لم تكن هناك أية نزعة حضارية بمعنى التحيز ضد المدنيات الاجنبية والمبالغة فى الاشـادة بالنفس . بل ان الطبقات العليا كانت تفضل كل ماهو فرنسى ، وعندما أسس فردريك الثانى أكاديمية برلين جعل الفرنسية لغتها الرسمية وعين لها سكرتيرا فرنسيا . وفى سنة ١٧٨٣ وضعت الاكاديمية جائزة لمقال عن أسباب انتشار اللغة الفرنسية عالميا ، وحصل على الجائزة انطوان ريفارول (١) الذى عزا انتشار اللغة الفرنسية عالميا بين الطبقات المتعلمة الى صفاتها المتفوقة ولا سيما وضوحها ومنطقها اللذين تفوقت فيهما على جميع اللغات الاخرى . وحظى ريفارو بتكريم عظيم من الملك والاكاديمية من أجل مقاله .

بيد أن المركز المسيطر الذى احتلته اللغة والادب الفرنسيان سرعان مادفع الكتاب الى تأكيد مزايا لغتهم ، ويمكن تفسير اشادة فيشته المبالغة باللغة الالمانية كرد فعل متأخر لريفارول .

وقبل الثورة الفرنسية كانت المشاعر والافكار التحررية والجمهورية منتشرة فعلا بين الطبقات العليا والوسطى فى الامبراطورية ، وان كان المجال ضيقا للنشاط السياسى فى الهيئات النيابية . وفى سنة ١٧٩٠ عرض الامبراطور ليوبولد الثانى مذهبه السياسى بتفصيل كبير فى خطاب الى أخته ماريا كريستانا(٢) . وكان مذهبه برنامجا من الدستورية

(١) أ. ريفارول «Oeuvres choisies» ١٨٨٠ المجلد الاول . وكانت معرفة اللغات الاخرى منتشرة جدا فى ألمانيا أيضا أكثر من أى بلد آخر . وقد جاء فى تقرير رسمى أعد لنابليون « لايكاد يكون هناك ألمانى يتعلم لا يستطيع قراءة الفرنسية والايطالية والانجليزية واللاتينية أيضا » . انظر هـ.أ.ل. فيشر « دراسة فى السياسة النابليونية فى ألمانيا » ١٩٠٣ ص ٥ . ويتضمن هذا الكتاب كثير من الوقائع المفيدة عن ظروف ألمانيا قبل الثورة وبعدها .

(٢) أ. ولف «Leopold II und Maria Christine, ihr Briefwechsel»
ص ٨٠ .و أ. ولف وهـ. تسويدنك سود نهورست
«Oesterreich unter Maria Theresia, Joseph II und Leopold II»
١٨٨٤ ص ٣٢٥ ومما له مغزى أن كبار الموظفين فى الحكومة النمساوية كان معظمهم يحبذون منح حق التمثيل فى الدايت للطبقات الوسطى وحتى للفلاحين . انظر ولف وتسويدتيك ص ٣٦٧ . وحتى الارشيدوق فرانز ــ الذى صار فيما بعد وهو امبراطور من غلاة الرجعيين ــ كان يميل فى ذلك الوقت «للحزب الديموقراطى».

التحررية . فقد اعتبر الامبراطور نفسه نائبا أو موظفا لشعبه مقيدا بأن يراعى بكل دقة العقد الاصلى الذى منحه الشعب به السلطة ، وعرضه للعزل فى حالة اخلاله بالعقد . وقال ان السلطة ، التنفيذية بيد الحاكم ولكن السلطة التشريعية والاشراف على السلطة التنفيذية بيد الشعب أو ممثليه . بيد أن ليوبولد لم يحكم سوى عامين ، فقد مات فجأة مباشرة قبل أن تعلن فرنسا الثورية الحرب التى بذل جهده لتجنبها . وقد أينعت الآراء التحررية والجمهورية فى بروسيا وأجزاء اخرى من ألمانيا أيضا ، وكثيرا ما طرحت بصراحة غريبة برغم الرقابة (١) . فقد شجع تعدد الاقطار المنفصلة على نوع من حرية التعبير . اذ كان هناك حكام يسمحون بنشر كل الآراء التقدمية بدافع من الاستنارة من ناحية ، ولكى يزعجوا الأمراء المجاورين الذين كانت تهرب الكتب الى بلادهم أيضا .

كان جوهان جوتفريد هردر (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) من كبار رواد الفكر الرومانسى مثل روسو ، وقد ظل كذلك مخلصا للمبادىء الأخلاقية الجوهرية للاستنارة (٢) . وكان البادىء بالاهتمام الحماسى « بروح الشعب» كما تعبر عنه اللغة والشعر والفن والتقاليد . وقد بجل بصفة خاصة التراث الثقافى العظيم الماضى المانى ، وكان يتوق بحرارة لاحياء مجدها فى ميدان الادب والفن والعلم . ولم يجذبه الجانب السياسى الجنسية كثيرا . فقد اعتبر الدولة مخلوقا مصطنعا جمعته الحرب والغزو اللذان كرههما . وكانت عواطفه مع الامة ، التى رأى فيها نموا طبيعيا مثل العائلة والتى اعتبرها مجتمعا مسالما أساسا . وقد تركزت فلسفة هردر التاريخية فى فكرة الانسانية ، وكان اهتمامه بالجنسية ثقافيا فى الغالب وكان مقتنعا بأن كل شعب مهما كان صغيرا ومتخلفا يملك شعلة مقدسة من الجمال والخير ، وهى شعلة لم تخمد فى الشعوب البدائية الى الحد الذى بلغته فى المجتمعات المتمدينة المعروفة . وكان السلافيون حتى ذلك الوقت يعتبرون فى نظر الأمم الأخرى أقرب الى البرابرة وأن مصيرهم هو أن يظلوا أقنانا الى الأبد . ولكنه اكتشف فيهم أحب الصفات ، وبخاصة الرغبة فى السلام وتنبأ لهم بمستقبل عظيم . وهكذا

---

(١) «Deutschland vor 100 jahren, Politische Meinungen und Stimmungenbeim Anbruch der Revolution» ولف وتسويدنك ١٨٨٧ ـ المجلد الاول ص ١٨ و ٤٧ و ٦١و ٦٩ و ٢٠ و ٢٣٢ والمجلد الثانى ص ١٠ و ١٥ و ٢٧ و ٨٢ .. الخ .

(٢) ف.ر. هايم «Herder» ١٨٨٠ ـ ١٨٨٥ . وأ . كونمان «Herder» ١٩١٢ .

صار حامل لواء البعث القومي السلافى وكان له تأثير قوى جدا على أفكار الاحياء الثقافى للشعوب السلافية .

وكان اهتمام الكتاب الكلاسيكيين الألمان بالدلالات السياسية للجنسية ضعيفا جدا اذ كانوا قد اهتموا بها أصلا ، وكانوا فى ذلك يعكسون روح عصرهم (١) . فقد كتب ويلاند فى سنة ١٧٩٣ أنه لم يسمع قط فى شبابه عن أى واجب بأن يكون وطنيا ألمانيا وأن لفظ ألمانى بالمعنى السياسى لم يكن معروفا . وكتب لسنج سنة ١٧٥٨ فى خطاب ، « ليست لدى أية فكرة عن حب الوطن ويبدو لى أن هذا الحب على أحسن الحالات ضعفا بطوليا يسرنى أنى لا أعانيه » • وأعلن شيللر أن الروح المثقفة للفرد ذات قيمة أكبر من أعظم مجتمع أو دولة بوصفهما هذا . وكتب فى ١٧٨٩ : ان الاهتمام بالوطن مهم بالنسبة للامم غير الناضجة فحسب أى لشباب العالم . أما الرجل الحديث فأهدافه أسمى ؛ والكتابة عن أمة واحدة مثل أعلى صغير وتافه ، فحتى أهم أمة فى العالم ليست سوى شظية متغيرة وعرضية وتحكمية من الانسانية ، ولايستطيع العقل الفلسفى الاهتمام بها الا فى حدود ما تخدم تقدم الانسانية •

وعندما غزت الجيوش الفرنسية المنتصرة أرض الراين الألمانى فى سنة ١٧٩٥ واحتلتها لم يزعج ذلك شيللر كثيرا • فقد كتب فى خطاب : « لابد أن نظل بأجسامنا مواطنين لعصرنا حيث لايوجد أمامنا بديل لذلك • ولكن فى الروح من واجب الفيلسوف والشاعر الا ينتمى الى أى شعب أو عصر وان يكون معاصرا لكل العصور بالمعنى الحقيقى للكلمة» . وفى السنوات التالية هددت انتصارات نابليون البناء السياسى لألمانيا بالانحلال : ففى فترة قصيرة انتهت أيام الامبراطورية ووقعت ألمانيا

---

(١) فيما يتصل بالافكار السياسية والقومية والعالمية للشعراء الكلاسيكيين أنظر كارل برجر «Schiller» ١٩١١ المجلد الثانى ص ٥٧٤ • و ج• فولتر «Staatideale unserer Klassiker» ١٩١١ • وأوتو جونتر «Schiller über Volk, Staat» وأ• روه «Schiller Einfluss auf die Entwicklung des deutschen Nationalgefuhl, und des Gesellschaft» ١٨٨٧ ـ ١٨٩٢ • وفردريك جاندولف «Goethe» ١٩١٦ ص ٥٣٦،٠٠ و٦٨١ • والبرت بيلشوفسكى ««Goethe» الطبعة الثلاثين ١٩١٧ المجلد الأول ص ٣٢٣ والمجلد الثانى ص ٢٥١ و ٣٢٦ • وهاينريخ شميدت «Goethe Lexicon sub, Internationalismus» وف• ج• وينتر «Goethe deutsche Gesinnung» ١٨٨٠ • ورينهولد آريس « تاريخ الفكر السياسى فى ألمانيا من ١٨٧٩ الى ١٩١٥ » ١٩٣٦ ص ١٦٦ • وكونو فرانكه « تاريخ الادب الألمانى وتأثره بالعوامل الاجتماعية «الطبعة العاشرة ١٩١٦» •

تماما تحت أقدام نابليون . فى ذلك الوقت فكر شيللر فى كتابة قصيدة عن مصير ألمانيا ، ولكنه نبذ الفكرة ، وقد وجد بين أوراقه مشروع غير كامل لها بعد وفاته بعدة سنوات . وفيها يحاول الشاعر أن يقنع الألمان بالرضا بمصيرهم بالاشارة الى أن الشرف الألمانى والعظمة الألمانية ليسا مرتبطين بدولتهم ولكن بثقافة الأمة وطابعها . وللألمان أن يفخروا بانجازاتهم الروحية والمعنوية ، بأنهم أول من بدأ حركة الاصلاح الدينى ، وبحماستهم للقيم المثالية كالحرية الفكرية ، وبفلسفتهم ، وبصفة خاصة بلغتهم التى ستسيطر على العالم فى المستقبل . فمن يتفوق فى تثقيف الروح سيسيطر فى النهاية ، ويجب على الألمان ألا يحذوا حذو الامم الأخرى فى تمجيد أوثان الثراء المادى والمظاهر البراقة ، فمهمتهم هى أن يتبنوا كل الانجازات الثقافية العظيمة لدى الأمم الأخرى ويصنعوا منها كلا متكاملا ، « أن يوحدوا كل أشعة الضوء فى صورة جميلة واحدة للانسانية » . ولا تكاد هناك ضرورة للقول بأن تصوره خال تماما من أى أثر للنزعة القومية السياسية .

وقد أعرب جوته كثيرا عن اتجاهه العالمى وتقديره العميق لانجازات الأمم الأخرى وعدم رضاه عن التحيز القومى . وقرب نهاية حياته أعلن أن الكراهية القومية توجد فى أقوى وأعنف صورها لدى المستويات الدنيا من الثقافة ، وانها تختفى كلية عند مستوى عال معين . فالمرء يقف عندئذ فوق الجنسية ويشعر بآلام الامم المجاورة وأفراحها بنفس الطريقة التى يشعر بها اذا حدثت لأمته . وقال: ان ذلك هو مايلائمه(١) . وكثير من الاقوال الاخرى أيضا تجعل من الواضح أن جوته أحس أولا بأنه مواطن عالمى بوصفه عضوا فى تلك الجماعة الروحية الكبيرة التى تؤلف من الفن والفكر والتطلعات السامية لجميع الأمم .

ولكن ذلك لايعنى أنه كان عديم الاهتمام بألمانيا ، ولكن فكرته عن الوطنية هى التفكير فى رفاهة مواطنيه وثقافتهم وليست العداء نحو الأمم الأخرى . وحتى واقعة « أن نابليون أخضع ألمانيا » لم تزعجه ، وظل معجبا بحماسة بالامبراطور وصديقا لفرنسا . وعندما اندلعت حرب التحرير لم يشارك فى المشاعر القومية ضد الحكام الفرنسيين فقد ظل بمعزل عنها ومنع ابنه من الانخراط فى الجيش .

وعندما رجحت كفة حرب التحرير واصبحت فى حكم المنتهية فى

---

(١) ج.ب. ايكارمان «Gespraeche mit Goethe» (١٤ من مارس ١٨٣٠)

مصلحة الألمان أعرب فى حديث مع الأستاذ لودن عن أنه لايستطيع أن يرى فائدة ذلك كله . فصحيح ان المانيا تحررت من نير أجنبى .

ولكن هل ضمن ذلك الحرية من كل سيطرة أجنبية ؟ لقد اختفى الفرنسيون ، ولكن حل محلهم الآن جنود روس ونمساويون وبروسيون. وكان جوته قد أصبح يكن كراهية عميقة لبروسيا . وقال للودن أيضا: انه يفهم الشعور بالفخر فى الانتماء لأمة كبيرة قوية مهيبة ، وأنه يؤمن بمستقبل المانيا العظيم . ولكن ربما كان ذلك لمجرد ارضاء الاستاذ الذى كان داعية قوميا متحمسا . فبعد ذلك بخمسة عشر عاما ناقش جوته ، فى سنة ١٨٢٨ ، موضوع وحدة ألمانيا مع ايكرمان وقال : انها لابد أن تتحقق عن طريق التحسن فى الطرق وانشاء السكك الحديدية فى المستقبل ، وليحب الالمان بعضهم بعضا وليتكاتفوا ضد الأعداء الأجانب ، ومن المرغوب فيه أيضا أن تكون لهم عملة واحدة وموازين ومقاييس واحدة وأشياء كثيرة من هذا النوع . ومن المفيد جدا أن تمر أمتعته عبر حدود جميع الأقطار الألمانية الست والثلاثين دون أن تفتح ، وأن يكون جواز سفر المواطن من فيمار ساريا فى جميع المانيا - ولكنه وقف تماما ضد أى مركزية سياسية . فقد كان يؤمن ايمانا راسخا بأن اللامركزية فى المانيا هى العامل الرئيسى فىانتشار التربية والمدنية على أوسع نطاق . فكل حاكم قد حاول انشاء مؤسسات ثقافية مثل الجامعات والمكتبات والمتاحف والمسارح والمدارس الفنية ومدارس الشعب .

ومثل هذه الاقوال تبين أن جوته كان يرحب بالوحدة القومية فى حدود مصلحة الأمن والتجارة والانتقال فحسب ، ولكنها تبين أيضا أنه لم يكن راغبا مطلقا فى المركزية السياسية وزيادة السلطة .

وقد افتتح أمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) ، الذى كان جده اسكتلنديا ، صفحة جديدة فى تاريخ الفلسفة (١) وقد فسرت بعض

---

(١) كان أعظم سابقيه هو ليبنيز الذى تجب الاشارة اليه هنا بوصفه مؤسس اتجاه فكرى قومى تميزت به الفلسفة الألمانية عن فلسفة فرنسا وانجلترا ، وأيضا لدفاعه عن الجنسية الألمانية ضد الخطط الفرنسية للسيطرة العالمية وان كانت معظم كتب ليبينز باللغة الفرنسية واللاتينية . انظر كونو فيشر «Leibniz» ١٩٢٠ . وف. باش . «Les doctrines politiques des philosophes classiques de l'Allemagne» ١٩٢٧ . وويلهم متزجير «Gesellschaft, Recht und Staat in der Ethik der deutschen Idealismus» ١٩١٧ و ك . فيشر «Kant» مجلدان ١٨٩٨ . وآريس المرجع السابق . وورودلف كريس Die Soziologischen Gedanken Kants ١٩٢٩ .

نقاط فلسفته السياسية ، التى لم يعرضها الا فى شيخوخته ، بطرق مختلفة ، والغالب أنه كانت لديه أسباب تدعوه الى التحفظ فيما يتصل ببعض المسائل . ولكن الامر الذى لاريب فيه هو أن هدف «كانت» الرئيسى فى السياسة هو «حكم القانون» الذى فهم به أن يتوفر للفرد أكبر قدر من الحرية يتفق مع حرية كل الآخرين .

ومن ثم فان «كانت» كان تحرريا وصارت فلسفته فيما بعد انجيل التحررية الألمانية . وليس هناك أسخف من الرأى الذى قيل أحيانا من ان «كانت» هو رائد الجامعة الألمانية الحديثة أو أن مفهومه عن «الالزام الجغرافى » متطابق تماما مع الدولة البروسية العسكرية (١) . فقد رحب «كانت» بالثورة الامريكية والفرنسية ، وبرغم أنه فيما بعد أعلن اشمئزازه من ارهاب اليعاقبة ، وندد فى محاضراته بكل تمرد ، فان أصدقاءه المقربين يعرفون أنه كان لايزال يؤمن بأن الثورة الفرنسية كانت فى جوهرها حق ويأمل أن تستمر فى طريقها التقدمى نحو مثله العليا .

وكانت تحدوه رغبة جارفة فى السلام الدائم ووضع مشروعا لتحقيقه يقول فيه : ان الجمهوريات وحدها هى التى يمكن أن تكون مسالمة . بيد أنه اعترف أيضا بأن الحرب قد تربى أيضا فى الناس صفات نبيلة ويمكن ان تكون أداة تقدم .

وقد كان مثل جميع كبار المفكرين والشعراء الالمان فى ذلك العصر مواطنا عالميا ويعادى كل صور النزعة القومية . وهو يشير فى وصفه المثير للطبائع القومية الى أن من الجوانب الطيبة فى الطابع الألمانى أنهم لايشعرون بالفخر القومى وأنهم عالميون (٢) . ومع ذلك فهو يفترض أن العناية خلقت الفخر القومى والتحيز القومى لتقسيم الجنس البشرى الى أمم مختلفة . وكل أمة يحدوها وهم أنها افضل من الأمم الأخرى فى ناحية ما ، وتحبذ الحكومات مثل هذه الأوهام .

بيد أن مثل هذه الغرائز العمياء التى تعمل فى الجانب الحيوانى

---

(١) ان مفهومه عن الواجب مختلف تماما عن النظام الآلى الذى فرض فى بروسيا.
انظر أ٠أ٠ ماير «Kants ethik und der preussische Staat in der Festschrift für Erich Narhs»

(٢) جمعت هذه الاوصاف فى كتاب ك. فورلاندر «Kants Weltanschaung aus seiner Werken» ١٩١٩ ص ٢٥٧ ـ ٢٦٨ .

من طبيعتنا لابد أن يتحكم فيها العقل . « ومن ثم فان هـــذا الجنون القومى يجب ازالته وأن تحل محـــله الوطنية والعـــالمية » . ومن رأى «كانت» أن الغرائز والصراعات القوميـــة قد تكون ضرورية للتقـــدم فى المراحل البدائية من النمو ، ولكن على أن يتولى العقل القياد مع تطور المدنية .

وكانت التحررية هى مذهب «ويلهلم فـــون همبولت» (١٧٦٧ — ١٨٣٥) أيضا ، وهو مفكر عميق وعالم كبير ورجل دولة بروسى مبرزا(١) . وهو يعبر فى كتابه « حدود الدولة » عن عدم ثقته المطلقة فى كل توسيع لنشاط الدولة خارج نطاق المحافظة على الأمن والعدالة . وكان هدف الحياة عنده هو النمو المتناسق لكل قوى الفرد .

وبعد سقوط نابليون أدرك أن ألمانيا فى حاجة الى قوة ما لأغراض الدفاع ولارضاء الوعى الذاتى لديها ، ولكنه لم يرد أن يجعلها موحدة أكثر مما ينبغى لأن ذلك سينطوى على المخاطرة بتحولها الى دولة غازية «الأمر الذى لايريده اى المانى حقيقى » والذى يعـــرض النمو الفـــكرى والعلمى للشعب الالمانى للخطر (٢) .

وعندما قامت الثورة الفرنسية أثارت حماسة فى ألمانيا (٣) . وقد سجل « هيجل » ، الذى صار منذ وقتها الداعية لمجد الملكية « البروسية » وللدولة القوية ، انطباعه عن الثورة الفرنسية فى عقله كشـــاب بعد ذلك بعدة سنوات قائلا : « ان فكرة الحق أكدت ذاتها وانهـــار نسيج الظلم القديم ، لقد كان اشراقا مجيدا . وقد احتفلت كل الكائنات العاقلة بهذا الحدث . وساد فى هـــذه الفترة شعور نبيل وانتعش العـــالم بحماسة روحية .

وكان «فردريك جنتز» ، الذى صار فيما بعد أحد عمد سياسة مترنيخ الرجعية ، من المعجبين المتحمسين بالثورة أيضا ، ولكنه تحول الى روح الدســـتور الانجليزى بتـــأثير «بيرك» . وكان «جنتز» موظفا حكوميا فى بروسيا ولكنه غادرها أساسا اذ بدا له أن الروح الثورية قد غزت الدوائر العليا أكثر مما ينبغى . فقد أكد أن الأمر لم يقتصر على

(١) أ. هارناك «W. von Humboldt» ١٩١٣ .

(٢) ف. ماينكه «Weltburgertum und Nationalstaat» ص ١٩٥ .

(٣) ج. ب. جوش « ألمانيا والثورة الفرنسية » ١٩٢٠ .

ان رجال الدولة ذوى النفوذ ، مثل ، «بيم» «ولومبارد» أصبحوا من أصدقاء الثورة ، بل ان تسعة أعشار موظفى الحكومة صاروا أيضا من الثوريين صراحة بجانب عدد لايحصى من الناس الآخرين بينهم علماء وأعضاء من طبقة النبلاء العليا والجيش (١) .

وقد خيب العنف المتزايد فى الثورة واندلاع حكم الارهاب أمل كثير من المتحمسين للمبادىء الثورية . ومع ذلك فان عددا كبيرا لم يراوده اليأس حتى عندما صارت السياسة الفرنسية سياسة غزو وأسلاب واضطهاد قومى بصورة متزايدة . وحتى صعود نابليون الى السلطة واستبداده السافر لم يؤديا مباشرة الى التمرد القومى . فقد ظل قسم كبير من الطبقات العليا والوسطى فى المانيا سنوات خاضعة طواعية للسيطرة الفرنسية وغرقت فى اعجاب لاحد له «بنابليون» باعتباره سوبرمان .

فقد انتشرت بين المثقفين فكرة أن الفرنسيين ، «الرومان الجدد» سيسيطرون على العالم فى حين ستتمتع المانيا بمزايا السلام والنظام وتتفوق فى المدنية كما فعل الاغريق فى الامبراطورية الرومانية . ومضى وقت طويل قبل أن يصير رد الفعل القومى للسيطرة والاضطهاد الاجنبيين قوة لاتقاوم ، ولكن عندما اندلعت حرب التحرير انتشرت الكراهية القومية وبلغت ذروة عالية .

١٥ ــ فيشته والجنسية

يعتبر الكثيرون فى الوقت الحاضر الفيلسوف «جوهان جوتليب فيشته» (١٧٦٢ ــ ١٨١٤) أهم الرواد الاول للنزعة القومية الألمانية الحالية ، ويمجده القوميون الالمان باعتباره منهم ومن أنشط اجهزة دعايتهم جهاز يسمى « عصبة فيشته » . بيد أن هذا الرأى لا يشارك فيه العلماء الذين قاموا بدراسة وثيقة لحياته وفكره .

فقد انتهى الاستاذ فكتورباش ، وهو عالم فرنسى مختص بصفة

(١) فريدا براون «Burke in Deutschland» ١٩١٥ ص ١٦٨ . ويتضمن هذا الكتاب عرضا طيبا تماما لتأثير بيرك على الرأى فى ألمانيا فيما يتصل بالثورة ، ولنمو الافكار السياسية الالمانية عموما . وقد كان تأثير بيرك على الرومانسية الرجعية الالمانية ضخما . بيد أنه مما له مغزى ان معظم أتباعه والمعجبين به وجدوا ان هجماته على الثورة مغالى فيها وأعنف مما ينبغى .

خاصة ، الى أن جميع أفكار الجامعة الالمانية الحالية غريبة عنه ، وأنه نبذها جميعا وقاتلها (١) • ويقول عالم فرنسى آخر ،هو اكسافيين ليون الذى يعتبر مؤلفه الكبير عن « فيشته » الكتاب المرجع ، أن فيشته ظل منذ شبابه حتى موته تلميذ المثل العليا التى أعلنتها الثورة الفرنسية والداعية المتحمس لها فى المانيا •

وقد نشأ «فيشته» من الطبقات الدنيا من المجتمع وعمل فى صباه راعى أوز • وساعده أحد النبلاء الخيرين ، الذى أعجب بموهبة الفتى الخطابية ، على الدراسة – ونمى « فيشته » مذاهب « كانت » فى الحرية الانسانية والخلق والطاقة المعنوية الى أقصاها – وكان شجاعا متهورا قوى الشخصية ، وكانت تشيع فى أفكاره المثالية الصلبة . فضلا عن أنه كان خطيبا انفعاليا ، الامر الذى يجب أن ندخله فى الاعتبار عند دراسة أفكاره • وعندما اندلعت الثورة الفرنسية امتلأ حماسة ودافع عنها ضد أعدائها من الألمان • وسرعان ما اكتسب شهرة بأنه يعقوبى خطر •

وعندما غزا الفرنسيون ألمانيا رغب فى انتصارهم الساحق وأعرب عن عدم اهتمامه المطلق بمصير الالزاس . بل ان هناك خطابات اكتشفت حديثا تثبت أنه كان يريد بشدة أن يصير مواطنا فرنسيا وأن يكرس حياته لخدمة الثورة . فقد كانت رغبته ان يكون استاذا فى جامعة تحت الحكم الفرنسى حيث يربى الطلبة الالمان على أن يكونوا مواطنينا ألمانا صالحين وأن يعملوا من أجل «الثورة» فى ألمانيا . وقد ظلت افكار الثورة من كراهية للامراء والطبقات المتميزة والجنود وعدم المساواةالاجتماعية تحدوه طوال حياته .

وكان يجنح ، مثل روسو – الذى يبدو فيه كثير من أوجه المقابلة معه – نحو الاشتراكية بمعنى المساواة الاقتصادية عن طريق عمل الدولة .

وفى سنة ١٨٠٠ نشر «فيشته» كتابا عن الدولة الكاملة اقترح فيه نظاما من المساواة الاجتماعية الكاملة والاكتفاء الذاتى وسيطرة الدولة

---

(١) فيكتوريا ش «Les doctrines politique de philosophes Classiques d'Allemagne» ١٩٢٧ ص ٩٧ – ١٠٢ •

(٢) يثبت اكزافييه ليون أن « فيشته » قد تأثر الى حد كبير فى أفكاره بالاشتراكى الفرنسى بأبيف وبتشريعات الثورة •

على الحياة الاقتصادية . ويجب ضمان العمل والمعيشة للجميع . وتعزل الامة عن الامم الاخرى للقضاء على المنافسة التجارية التى اعتبرها مصدر حرب . وكان يعتقد ، مثل افلاطون ، أن التجارة تفسد الاخلاق وتخلق عدم المساواة الاجتماعية وتهدد أسس المجتمع . ولهذا السبب طالب بأن تحتكر الدولة التجارة وبعملة منفصلة . ورأى أن خطته تدعم الوحدة والاتجاه الروحى وتخلق درجة عالية من الاخلاق والطابع القومى . ولم يكن الهدف من الاكتفاء الذاتى الاستقلال العسكرى والقوة ، كما فى الدول القومية والعسكرية الحالية ، بل هو هدف أخلاقى بحت .

ومع ذلك فان «فيشتة» يقترح أيضا أن على الدولة ، قبل أن تعزل نفسها ، أن تحتل قدرا كافيا من الاقليم داخل الحدود الطبيعية ، ثم تعطى بعد ذلك جميع الحكومات ضمانا أكيدا بأنها لن تحاول التوسع بعد ذلك ولا تشترك فى أى حرب أو شئون خارجية . وقد فسر ر. بتلر (١) هذه الفكرة على أنها الصيغة التى تقوم عليها سياسة هتلر فى الحصول على « مجال حيوى » بواسطة الغزوات الفجائية بالخديعة . بيد أن « فيشته » كان أساسا معارضا فى سياسة الغزو والهيبة وكثيرا ما ندد بها فى عبارات عنيفة جدا . واذا بدا أنه انحرف عن هذا المبدأ فى هذه الحالة ويضع مبدأ الحدود الطبيعية فى مستوى أعلى من مبدأ تقرير المصير ، فان ذلك يتفق مع مذهب روسو وزعماء الثورة ونتيجة من نتائج اشتراكية الدولة . وقد أعلن الثوار أن فرنسا لها حق مقدس فى حدودها الطبيعية التى تضم أرض الراين الألمانى ووافق فيشته على هذه الفكرة ، بل وفكر فى أن يستقر فى أرض الراين تحت الحكم الفرنسى . فضلا عن أنه من الواضح أن الدولة الاشتراكية يجب أن تعزل نفسها ضد تجارة العالم الحرة وتحتكر التجارة الخارجية والداخلية . ولكن الاكتفاء الذاتى واشراف الدولة الشامل لا يمكن أن يتحققا الا فى اقليم كبير يؤلف وحدة طبيعية من نوع ما . وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت مؤلفة من حوالى ١٨٠٠ قطر كان معظمها مكونا من بضع قرى ولا تختلف كثيرا عن الضياع الخاصة . وحتى معظم الأقطار الكبيرة كانت مؤلفة الى حد كبير من تجميع ممتلكات لا رابط بينها مع قدر كبير من الفجوات الأجنبية والحدود التى لا تتفق مع مطالب الادارة الحديثة . ولم يكن لدى معظم السكان أى شعور قومى

---

(١) ر. بتلر « جذور الاشتراكية الوطنية » ١٩٤١ ص ٤٣ .

حقيقى . كما أن الاشتراكية فيما مضى كان لا يمكن تصورها دون توسع بصورة دورية . ويتضح ذلك من « طوبيا » توماس مور التى لعلها كانت مصدر الوحى لفيشته . فشعب « طوبيا » ، برغم نفوره من الحرب ، اعتبر غزو المجال الحيوى لتوطين الفائض من سكانه فى البلاد المتخلفة أمرا مشروعا (١) . بيد أن مور يقترح هذه السياسة بصفة دورية تبعا لزيادة السكان ، فى حين يرفض فيشته أى توسع جديد بعد الحصول على الاقليم المطلوب .

وفى كتابات مختلفة فى هذه الفترة عرض فيشته عدة خطط أخرى مثل تأليف « عصبة أمم » بل وحتى خطة لدولة عالمية موحدة . كما أعلن أيضا أنه من المستحيل أن تعلن أمة حرة الحرب لمجرد الحصول على أسلاب، فان ذلك لايجدى أصلا. ان من يشعلون الحروب هم عدد قليل من المضطهدين وحتى ذلك الوقت كان ينظر الى الدولة باعتبارها شرا ضروريا ، وتصور زوالها تدريجيا مع نمو حرية الفرد. بيد أنه فى كتاباته المتأخرة أكد أن مصير الفرد أن يخضع ، بل أن يضحى بنفسه ، للمجتمع . ولكن ذلك لا يعنى أن الدولة أو الأمة فى صراع لا حل له مع البشرية . فقيمة الجنسية فى نظره انما يحددها السعى الى الأهداف التى تشترك فيها كل الأمم . ففى سنة ١٨٠٤ أعلن أن وطن كل أوربى متمدين حقيقة هو أوربا ، وبخاصة تلك الدولة التى هى أكثر الدول مدنية ، وتحدث فى ازدراء عن الوطنية التى ترتبط بالتربة . وبعد ذلك بعامين حدد العلاقة بين النزعة العالمية والوطنية . ففكرة الانسانية سامية ، ولكننا لا نستطيع أن نخدمها الا فى وطننا . ومن ثم فان الوطنية هى العمل على تحقيق الخير ، بين أمة المرء أولا ، ثم نشره بين البشر عندما تصبح الوطنية نزعة عالمية . ووضع وطنية أثينا الواضحة ذات النزعة العالمية فوق الوطنية الضيقة الجامدة فى دولة أسبرطه العسكرية .

وفى هذه الأثناء كان نابليون يصعد كالشهاب فى أوربا . وقد قاومت النمسا وبريطانيا وروسيا مطامعه بشدة وحاربته المرة تلو المرة .

---

(١) يعتقد هرمان أونكن فى مقدمة لطبعة ألمانية من «طوبيا» (ترجمة جيرهارد ريتر ١٩٢٢) أن موراس له علاقة بمشروع توطين المستعمرين الانجليز في ارلندا عرض على الحكومة ، ويبدو ذلك من أن بعض العبارات في « طوبيا » تتشابه مع مذكرة تتعلق بهذا المشروع .

بيد أن بروسيا اتبعت سياسة حياد وبذلت كل جهدها للاحتفاظ بعلاقات طيبة بالدكتاتور بأمل الحصول من وراء رضاه على هانوفر وبعض الأقاليم الأخرى كمكافأة • وكان فردريك وليم الثالث ومعظم وزرائه يكرهون الحرب ويؤمنون بسياسة السلام بأى ثمن تقريبا ، وأهملوا المحافظة على القوة العسكرية والأمن وكانوا يعطفون على الاتجاهات الفرنسية(١) • وهكذا نظرت بروسيا فى هدوء الى نابليون وهو يغزو البلد بعد البلد ويسيطر على قسم كبير من المانيا • وفى النهاية بلغ به الأمر أن جعل جيوشه تزحف عبر الأراضى البروسية ، وعندما احتج الملك طلب نابليون نزع سلاح بروسيا وغزاها وحطم جيشها فى جينا « ١٨٠٦ » • وصارت بروسيا بعد صلح تيليست فى نصف حجمها الأول وتعرضت لمطالب مالية فادحة وبقيت البلاد محتلة فترة طويلة •

وكان وقع ما وصل اليه مصير البلد الذى اتخذه فيشته موطنا شديد العمق فى نفسه وجعله يتحول تحولا مذهلا • فحتى ذلك الوقت كان يتصور الدولة مجرد نظام للدفاع عن حكم القانون وتربية المواطنين على الأخلاق ، وبدت الدولة له ، بصرف النظر عن الجنسية ، أفضل من يقوم بهذه المهمة بكفاية •

واذا انهارت دولة تقدمية لسوء حظها السياسى فان ذلك لا يعد خسارة لا تعوض ، لأن دولة أخرى ستحل محلها سريعا •

بيد أن الكارثة التى حاقت ببروسيا وألمانيا علمته أن الدولة فى حاجة أيضا الى القوة، وعندئذ درس كتابات مكيافللى التى تركت فى نفسه أثرا كبيرا •

وكانت المقابلة بين ظروف أيطاليا فى عهد مكيافللى وألمانيا فى عهد فيشته واضحا •

وفى سنة ١٨٠٧ نشر بحثا يتضمن فقرات مترجمة من مكيافللى ، وكان القصد من تعليقاته عليها أن تكون درسا فى سياسة الدولة لملك بروسيا (٢) •

وفى هذا البحث قبل فيشته وجهة نظر مكيافللى من أنه لا وجود

---

(١) هانز بروتز «Preussische Geschichte» ١٩٠١ المجلد الثالث ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦ •

(٢) فيشته «Machiavell» تحت اشراف هـ• شولتز ١٩١٨ • وهـ• فرايز فى «Verhandlungen der sächischen Akademie der Wissenschaften» ١٩٣٦ •

لحكم القانون الثابت بين الامم ، بل أن بينها حربا مستمرة سافرة أو كامنة • « فكل أمة تريد أن تنشر السمات الطيبة التى تفردت بها على أوسع نطاق ممكن ، وأن تدمج فى ذاتها الجنس البشرى كله بقدر ما يستطاع تحقيقه » • وقد غرس الله هذا السعى فى الطبيعة البشرية وهو الذى يحدد طابع مجتمع الأمم وانقساماتها وتقدمها •

ويجعل هذا السعى الصراع على مجالات النفوذ حتميا ، حتى اذا سادت أنقى الاتجاهات الروحية وبرغم النيات الطيبة وكانت كل أمة مقتنعة باخلاص بحقها •

ومن ثم فان الدول مرغمة على الاحتفاظ بقوتها وزيادتها باستمرار اذا أرادت أن تهرب من اندمار • فهى لاتستطيع أن تنتظر ببساطة حتى يهاجم عدو حدودها ، بل يجب أن تبذل عناية فى المحافظة على قوتها وهيبتها عموما •

كما أنها لا تستطيع الاعتماد على وعود الدول الأخرى وتضع ثقتها فى حسن نواياها ، أو تحاول تهدئة هذه الدول بالخضوع لها • فتوازن القوة بين الدول هو أفضل ضمان للسلام • فبين الدول لا يحسم الأمور سوى « حق القوة » والحاكم لا يخضع للصيغ الأخلاقية التى يخضع لها الأفراد • ومع ذلك فان «فيشته» لم يرد مطلقا أن تكون هناك حربا دائما بين الدول المتمدينة • فالشباب الأوربى يجب أن يحتفظ بقوته الحربية للصراع مع البرابرة ، فى القارات الأخرى ، الذين اعتبر أن مصيرهم على أى الأحوال هو الاندماج فى المدنية الأوربية ، فى حين يعم السلام الوطن الأوربى . وكان هذا الوصف للعلاقات الدولية متفقا تماما مع الواقع التاريخى لعصره • اذ أن نابليون وسابقيه الجمهوريين كانوا قد اتبعوا سياسة من الغزو بلا تورع ، فضلا على الحروب بين الأسر المالكة فى القرن الثامن عشر • وكان المقصود بهذا البحث أن يكون نداء للعمل فى ساعة حرجة وليس معالجة علمية شاملة للعلاقات الدولية • بالاضافة الى أنه لم يستمر فى هذا الاتجاه من التفكير ، فقد غير الاتجاه فى كتاباته المتأخرة •

وفى سنة ١٨٠٧ ــ ١٨٠٨ ألقى فيشته « خطاباته » المشهورة الى الأمة الألمانية • وعزا فيها الكارثة المروعة التى حاقت بألمانيا الى انحطاط الخلق الألمانى، وبخاصة الىأنانية الطبقاتالعليا والىعدم تقدميةالجيل الأكثر تقدما فى السن • (١) وعقد كل آماله ، مثل روسو ، على الطبقات الدنيا

(١) فى موضع آخر يعتبر فيتشه من دون التدليل منغمسين فى السن ويقول « انه لمن الأفضل لسمعتهم الخاصة وللعالم كله ان يموتوا » انظر لذ• فيشر ص ٦١٥ •

والشباب الذين لم يفسدوا نسبيا • بيد أن ما كان يفكر فيه ليس اعادة بناء الأمه الألمانيه فحسب • فالشعب الالمانى له رساله روحية وأخلاقية كبرى عليه آن يحملها لمصلحه الجنس البشرى • وهى وحدها التى تصلح للقيام بهذه المهمة حيث أنها احتفظت بلغتها الأصلية فى حين أن الفرنسيين والانجليز ، الذين انحدروا ايضـــ من اصل المانى ، هجروها الى لغات مختلطه جزء منها اجنبى • ويقول فيشته ان الألمان وحدهم لديهم لغة حية وشعبية وخلاقة ، أما الأمم الأخرى فقد لحقها العجز فى التفكير الدينى والفلسفى وفى الشعر بلغاتها • فمدنيتها مقتصرة على الطبقات العليا ، فى حين كان الشعب محروما من التعليم بلغة تعتبر غريبة على فكره ومشاعره • وقد سرت الى الألمان أنفسهم عدوى الاعتقاد بأن هناك لغة أجنبية وثقافة أجنبية تفوق لغتهم ومدنيتهم • وعزلت الطبقات العليا المتعلمة نفسها عن الشعب باستخدام لغــة أجنبية (الفرنسية) بدافع التعــالى ، واحتقرت الشعب باعتباره « غوغاء » •

وقد كانت وجهة النظر الخاصة بأن « اللغة الأصلية » خلاقة متأصلة الجذور فى الفكرة الرومانسية بوجود علاقة وثيقة بين اللغة وروح الشعب• اذ كانت فلسفة الاستنارة موجهة أساســا الى الطبقات العليا المتعلمة ، ودعمت بين هذه الطبقات روح العالميـــة وفضلت لغة عالمية على اللغات المحلية • وعندما بدأ الرومانسيون يمجدون الشعب والجنسيةولغة الشعب كان من الطبيعى أن يعزوا قيمة خاصة لكل لغة محلية مؤكدين أنها وحدها يمكن أن تعبر عن روح الشـــعب • ومن ثم فان اشـــادة فيشــته باللغة الألمانية كان لها مغزى قومى واجتماعى • ويغلب أنه أخذ أفكاره عن تفوق اللغة الالمانية والرسالة العالمية للشعب الألمانى من أ•و• شليجل رائد الرومانسية الألمانية • ولكنه كان يعارض الرومانســيين بقوة فى معظم الجوانب الأخرى ، وبخاصة فى أحلامهم باعادة الامبراطورية العالمية التى عرفتها القرون الوسطى الى الحياة ، وفى كاثوليكيتهم الجديدة ، والمزيج الذى عرفوا به من الروحانيــة والحسيه ، واعتقادهم فى رســالة صاحب العبقرية العظيم رجل القدر ، وكذلك فى ميلهم الى الملكية والارستقراطية •

وأهم سمة مميزة فى الروح الألمانية فى رأى فيشته هى تلك الجدية فى الأخلاق والدين التى عبرت عن نفســـها فى حركة الاصلاح الدينى والمثالية الألمانية • فضلا عن أن ألمانيا وحدها استطاعت أن تحل مشـــكلة الدستور الجمهورى الصالح ، وذلك فى مدن الجمهوريات التى قامت على

روح التقى والأمانة والتواضع والايثار التى اتسم بها تجار المدن وحرفييها •

ثم يناقش فيشته طبيعةالوطنية والطابعالقومى • وعنده أن الشعب لا يكون شعبا الا اذا كان لديه طابع قومى ، أى الاعتقاد فى مهمة أو رسالة خاصة هى تعبير عن الارادة الالهية • « ان الالمانى وحده ــ أى الرجل الأصلى الذى لم تخنقه القواعد التحكمية ــ له شعب حقيقى فى حين أن الأجنبى ليس له شىء من ذلك • ومن ثم فالروح الألمانية وحدها هى التى تستطيع أن تنطوى على حب لشعبها حقيقة ولديها الوطنية الحقيقية » • والفرد باندماجه فى روح الشعب أو الطابع القومى يجعل حياته دائمة ويبلغ الأبدية فى هذه الأرض •

فالوطنية شعور دينى •

ولكن حب المرء لبلاده لا يتعارض مع حب الانسانية • ويعتبر « فيشته » أن الشعب الألمانى قد قدر له أن يعيد بناء الجنس البشرى دينيا وفلسفيا وأخلاقيا ، وذلك وحده هو ما يجعل له قيمة خاصة • ولم يهتم بالوطنية العادية والفخر القومى الذى لا يرتبط بالرسالة الروحية للشعب •

ويتحقق خلاص الأمة الالمانية ، والجنس البشرى كله ، عن طريق التربية العامة التى تتركز فى تكوين ارادة نقية غير أنانية قائمة على التفكير ، مع استخدام أفكار بتسالوتزى التربوية وعلى أن تقوم الدولة بتنظيمها • وكان العالم التربوىالسويسرى بتسالوتزى ، الذى كانفيشته يكن له اعجابا عظيما ، يريد مساعدة الفقراء عن طريق التربية على أسس واقعية حديثة على هدى ما اقترحه روسو ، وأكد الاهمية التربوية للمشاهدة الشخصية والعمل اليدوى • وأراد فيشته أن تنظم المدارس على هيئة مجتمعات صغيرة تنفق على نفسها وتتمتع باستقلال ذاتى ويتكون فيها التلاميذ على أساس الايثار والتضحية بالنفس من أجل البشرية •

وخططه التربوية ديموقراطية تماما .

وهو يرفض بشدة النظام الملكى والمركزى فى ألمانيا ، لا بسبب أى تعلق ببيت منالبيوت الحاكمة أو تقاليد التعصبالمحلى ، ولكن لأن التنظيم الفدرالى « لجمهورية الشعوب الألمانية » هو وحده الذى يسمح بالنمو الحر لجميع اتجاهات الشعب •

ويكرر فيشته تحذيراته ضد الأوهام السياسية التى بدت له كريهة وأبعد ما تكون عن الاتفاق مع الطابع الألمانى ، وهى سياسة القوة ، المتنكرة فى ثوب المحافظة على ميزان القوى ، والمشاركة فى التجارة العالمية التى تشجع على الأنانية والحرب والسعى الى السيطرة العالمية • وهو يؤكد أنه ما من شىء تنفر منه الروح الالمانية مثل الامبراطورية العالمية التى تدمر الحياة الروحية وتقضى على نفسها بنفسها ، لأنه لا يمكن ربطها بعضها ببعض الا بالضراوة والقسوة البربرية والأنانية التى لا تتورع عن شىء • فبهذه الطريقة قد يكون من اليسير نهب العالم واشاعة الخراب فيه وسحقه ، ولكن لن يمكن قط اقامة ملكية عالمية جيدة التنظيم • وهو يندد أيضا بالعادة المنتشرة على نطاق واسع من الاعجاب «بصاحب العبقرية العظيم» الذى بيده السلطة ، أى نابليون ، فهو ينطوى على نوع من العظمة ليس المانيا • فالنوع الالمانى هو الحماسة للأفكار المفيدة للشعوب •

وفى سنة ١٨١٣ اندلعت حرب التحرير التى كان فيشته يتلهف عليها • ولكن حماسة الوطنيين لم تجرفه فى التيار ، فهو لم يمجد الحرب أو يثير المشاعر ضد العدو •

وفكر فى موضوع ما اذا كانت الحرب قومية حقيقية أو هى مجرد حرب أسرية • فالامة يفترض فيها نظام للتمثيل النيابى الذى يقوم على الحرية والمساواة المدنية والثقة المتبادلة ، فى حين ينطوى النظام الارستقراطى على العبودية والاضطهاد واستغلال الشعب •

وكان الأمل يراوده فى أن يوحد ملك بروسيا ألمانيا ، ولكن على أن تقوم بعد وفاته جمهورية بلا أمراء ولا نبلاء • وستعود بروسيا ، وهى أكثر الأقطار فى ذلك الوقت استنارة ، الى السلام وتقنع باستعادة أقاليمها القديمة • وقال فى نفس المشروع أيضا : ان الأمر لا يتعلق بمصير ألمانيا وحدها •

فاذا كانت مصالح ألمانيا وحدها هى موضع الاعتبار فلا فرق بين أن يحكم قسما من ألمانيا قائد فرنسى مثل برنادوت الذى مر على الأقل بتجربة تخيل فيها رؤيا الحرية ، وأن يحكمها نبيل ألمانى منتفخ الأوداج وغير متمدين وتملؤه الوحشية المخجلة والعجرفة . وفى مؤلف آخر قال فيشته فى سنة ١٨١٣ : ان الهدف النهائى للنمو السياسى هو بلوغ عهد من العدل الشامل .

عهد ينتصر فيه حب السلام على الروح الحربية ·

ويكون حكم القانون والعقل هو أول خطوة فى تحقيق مملكة المسيح ·

وكان فيشته ينوى الاشتراك فى الحرب كمبشر بمبادئه ، كما تدرب أيضا فى « الحرس الوطنى » وان كان يحس بأن استخدام الأسلحة شيء غريب عليه ·

بيد أنه سرعان ما راح ضحية لمرض وبائى ·

وقد أثار فيشته مثل جميع كبار المفكرين عدة تيارات مختلفة تماما من الفكر ، ولم يكن فكره خاليا من التناقض وعدم الاتساق · وقد أساء بعض دعاة القومية اللاحقين لأفكاره (١) ·

ولكن مثله العليا الاساسية كانت تتعارض تماما مع عقلية النزعة القومية الحاضرة القائمة على القوة والهيبة · ويعد مازينى أكثر زعماء القومية الحاضرة اللاحقين شبها بفيشته ، والواقع أنه تأثر به كثيرا · بيد أن فيشته لم يكن رجل سياسة ، فهو بصفة خاصة ماكان يستطيع قط أن يوافق على بعض تنازلات بذاتها ، فى حين أن رجل السياسة لايستطيع أن يهرب منها · فقد بنى ، أولا وقبل كل شيء ، مذهبا جديدا يؤمن بقدرة الارادة البطولية النقية والعقل الواضح على تغيير الجنس البشرى وتحقيق المثل العليا للانسانية · ولا يضيره أن تلاميذه شوهوا آراءه تشويها شديدا فهذا مصير يشترك فيه مع كثير من الأنبياء ·

---

(١) تمثل الكتابات النازية مثلا فيشته بوصفه حاقدا على اليهود · وصحيح أنه فى بعض كتاباته الأولى ندد باليهود والضباط والنبلاء بعنف شديد لانفصاليتهم بحيث صارت كل فئة منهم دولة داخل الدولة · بيد أنه غير وجهة نظره فى اليهود فيما بعد · وعندما انشئت جامعة برلين كان أول مدير منتخب لها · وقد تدخل بقوة بوصفه مديرا للجامعة ضد مناهضة السامية التى كان يدعو اليها قطاع من الطلبة الذين أساءوا معاملة اليهود ودخل فى نزاع حاد مع مجلس الشيوخ الذى حاول التخفيف من جرم هؤلاء الطلبة وأراد أن تكون العقوبة بسيطة · انظر ماكس «Geschichte der Universität Berlin» ١٩١٨ · وج· ليفى «Fichte und die Juden»

وقد ظل فيشته طوال حياته الاكاديمية يحارب بلا هوادة العادات الوحشية والفساد بين الطلبة الألمان « السكر والعربدة والمبارزة والارهاب .. الخ » .. وجعله ذلك يتورط فى نزاعات كبرى مع الطلبة وحماتهم · ومع ذلك فان تعاليمه فى هذا الجانب أيضا أدت الى آثار لم يكن يقصدها · ويقول تريتشكه ان فيشته مسئول الى حد ما عن « البربرية النبيلة » لدى الألمان · انظر تريتشكه فى «Historische und Politische Aufsatz» ١٨٦٥ ص ١٤٩ ·

١٦ – مذهب هيجل فى الدولة وموقفه من القومية ·

كان جورج وليم هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) من أهالى دور تمبرج فى جنوبى ألمانيا · والتركيب الفريد لفكره ، ذلك المزيج من العقلانية واللاعقلانية ، والراديكاليةوالمحافظة ، تبدو فيه صلة الشبهبثقافة موطنه بما تنطوى عليه من خليط من الانسانية العقلانية والاورثوذكسية والتقى الروحانى ، والايمان بالتقدم وحب الماضى · وقد أثارت لديه الظروف الدينية والسياسية فى بلاده تفكيرا ناقدا منذ وقت مبكر ·

وكان يحكم وورتمبرج دوق ، ولكن برلمانها كان له نصيب كبير فى الحكم · وكان يتألف من ممثلين للمدن ورجال الكنيسة البروتستانت ، فى حين لم يكن للنبلاء ممثلون(١) · وقد قارن عضو الهويج (الاحرار) العظيم شارلس جيمس فوكس دستورها بدستور انجلترا · والواقع أن الدستور كان على الأقل يمثل حكم قلة بقدر ما يمثله الدستور الانجليزى برغم أنه كان أكثر بورجوازية من الدستور الانجليزى بكثير ·

ودرس هيجل علوم اللاهوت البروتستانتية والفلسفة وصار يكن اعجابا عميقا بالثقافة الاغريقية والحياة العامة عندهم، وبعقلانية الاستنارة وبفلسفة كانت وبالحماسة للثورة الفرنسية(٢) · وكان بين زملائه أكثرهم حماسة فى الحديث فى المطالبة بالحرية والمساواة · وقد بدت له الدولة الحديثة طغيانا يضطهد الفرد فى حين أن المواطنين فى الدولة المدنية الاغريقية اخضعوا أنفسهم طواعية للمجتمع · وأوحت اليه كل هذه المؤثرات بموقف ناقد للمسيحية الأرثوذكسية وكل فكرة الحياة فيها ، وزادت معارضته عندما عرف مذهب سبينوزا فى وحدة الوجود · وقال : ان تعاليم المسيح قد أفسدتها اليهودية والكنيسة اللتان أدخلتا أفكارا شرقية على عقول الشعوب الأوربية وبذلك أفقدتاها جنسيتها · والعقائد

---

(١) ك· ويللر «Würtenbergische Geschichte» ١٩٠٩ ص ١٢٧ ·

(٢) ويلهلم ديلتى «Die jugen geschichte Hegels» ١٩٠٦ · وفيما يتصل بهيجل بصفة عامة انظر كونوفيشر «Hegels Leben werke und Lehre» مجموعتان · وهرمان جلوكنر «Hegel» مجلدان ١٩٢٩ · وك· روزنكرانز «Hegel als deutscher Nationalphilosoph» ١٨٧٠ وبصفة خاصة النقد الذى جاء فى كتاب رودلف هايم Hegel und seine Zeit ١٨٥٧ . وتوجد الكتابات السياسية فى «Hegels Schriften Zur Politik und Rechtphilosophie» تحت اشراف ج· لاسون ١٩١٣ · وفيما يتعلق باتجاهات هيجل السياسية انظر فرانز روزنزفايج «Hegel und der Stät» ١٩٢ ·

المسيحية الدوجماسية نتاج عهد زائل حاول أن يهرب من هذا العالم الى عالم من ورائه • أما الأديان القديمة فانها كانت عقيدة الشعوب الحرة التى جسدت أفكارها الأخلاقية فى آلهتها ، انها كانت تشتعل حماسة للوطن ، فى حين أن المسيحية جاءت نتيجة ذبول الحرية والجنسية ، ولعلها لا تتفق مع الدولة • وكان كثيرون من مفكرى عصر الاستنارة يعتنقون آراء مماثلة ، وقد تأثر هيجل بصفة خاصة بجيبون• كما أن مونتسكيو وهردر أثارا احساسه التاريخى ، وأشعل روسو وشيللر وفيشته لديه الرغبة فى العمل من أجل نظام اجتماعى وسياسى جديد يقوم على الايمان بكرامة الانسان وخيره وقدرته على الخلق وتكون دعامته دينا وأخلاقا جديدة متحررة من العقائد الجامدة التى عفى عليها الزمن وتتفق مع حياة المسيح والمثل المجيد الذى ضربته اليونان وتعاليم سبينوزا وشافتسبرى وكانت •

وبهذه الطريقة اتخذ هيجل منذ وقت مبكر مذهب وحدة الوجود الغيبى فكرة أساسية فى فلسفته • فقد بدت له الدنيا كلها تعبيرا عن الروح ، ككائن عضوى تام تتفتح فيه الأفكار الكامنة فى الروح بحركة جدلية ، فكل فكرة لابد أن تلد نقيضها وأن تتحد معه مرة أخرى فى فكرة أعلى • وعلى هذا الأساس بنى هيجل بناء فخما ساحرا من المفاهيم التى جمعت فى أسلوب جدلى الاستنارة والرومانسية ، وهدفت الى الحكم المتناسق لروح العقل والحب فى العالم (١) •

والفلسفة التى ترى كل شيء تعبيرا عن « المقدس » تجنح بطبيعة الأمر الى انكار المفهوم المألوف للأخلاق ، وبخاصة تطبيق المعايير الأخلاقية العادية على التطور التاريخى • فضلا عن أن معظم معتنقى وحدة الوجود من الميتافيزيقيين لا يهتمون كثيرا بالتاريخ • بيد أن هيجل كان من كبار دارسى التاريخ والسياسة ، وكانت لديه معرفة واسعة جدا بوقائعهما وأعمق الفهم لمشاكلهما• وقد كان من أثر حكم الارهاب فى فرنسا أن قضى بسرعة على حماسته للثورة فى شبابه • ولكنه لم يفعل مثلما فعل معظم الرومانسيين من تمجيد الماضى والاشادة بالقوى التى أطاحت بها الثورة• اذ أقنعته ملاحظاته الخاصة فى سويسرا والمانيا ودراساته بأن الحكم الملكى المطلق وحكم القلة الفيودالى ليس لهما تبرير ، وأن الديموقراطية لا يمكن تحقيقها فى الأمم التى لم تتعلمها قط •

(١) فيما يتصل بالحب أنظر هايم ٩٨ ـ ١٠١ •

وفي ذلك الوقت بزغ نجم نابليون بونابرت من بين الأنقاض التي انتهت اليها الثورة • وحطمت انتصاراته البناء الأوربى كله وانهارت الامبراطورية الرومانية المقدسة تحت وطأة ضرباته •

وقد فكر هيجل في دمارها وسجل أفكاره في مقال هام (١٨٠٢) يقول فيه : ان ألمانيا لم تعد دولة . فالدستور السياسى الألمانى ينطوى على كثير من السخافات التاريخية وعدم تنظيم شديد وأقصى درجات الضعف • والسبب فى نهاية المطاف هو الرجل الألمانى العنيد الذى يسعى للحرية ، وعدم القدرة على اخضاع بعض المصالح بذاتها للمصلحة العامة • وقد حول الدستور الشئون العامة الى تيه من الحقوق الخاصة التى أدت فيما بعد الى قيام العديد من الامارات الصغيرة ذات السيادة • والدولة لاتستطيع البقاء اذا لم تكن لديها قوة الدفاع عن نفسها • ولكن هيجل لم يعجب بالدولة القوية لذاتها • وقد بدت له الدول التى سادت فيها المركزية أكثر مما ينبغى مثل فرنسا الجمهورية وبروسيا ذات الحكم المطلق مجرد آلات تنظم فيها الشرطة كل شيء ولا تترك حرية للفرد • وكان هيجل يرغب فى أن يتمتع المواطنون بحكم ذاتى فى جميع الشئون التى لا تمس الأمن العام ، حيث أن اشتراكهم المباشر فى الحكم كما كان الحال فى المدن الاغريقية ليس ممكنا فى الدول الحديثة الكبيرة • ولكن النظام النيابى الجرمانى لا غنى عنه من أجل الحرية •

وقد تأثر هيجل مثل فيشته بحجة مكيافللى ــ أن علاج الانحلال السياسى والأخلاقى للأمة لايمكن أن يتم الا « بواسطة » دكتاتور قوى • ولا سبيل الى وحدة ألمانيا الا باستيلاء بروسيا أو النمسا على السلطة العليا • وكان هيجل يفضل النمسا ، أساسا لأنها احتفظت بمجالسها الاقليمية القديمة (دايت) وأنها كانت أقل خطرا على الأقطار الصغرى ومنحت الشعب حقوقا وفتحت الطريق أمام الجميع للوصول الى أسمى المراكز • وكانت بروسيا قد أخمدت الجمعيات النيابية وعقدت صلحا منفصلا مع فرنسا وهجرت كل الألمان الآخرين وأثارت بينهم نفورا شديدا • ولم ينشر هيجل هذا المقال لأن الأحداث سرعان ما سبقته •

وكان روسو قد علم هيجل أن الأخلاق والحرية توجد بالدولة وعن طريق الدولة فحسب وأنهما والارادة العامة شيء واحد • فالحرية هى الخضوع الارادى لهذه الارادة العامة التى تتضمن الارادة الحقيقية للفرد خالية من خداع الانفعالات والأنانية • وكانت الثورة قد أخفقت فى

تحقيق هذه الارادة العامة وأدت الى الفوضى • وبدا الآن نابليون كمخلص للمجتمع ، ووريث المبادىء العظيمة للثورة ، وتجسيد العقل والارادة العامة • وصحيح أن سياسته لم تكن متفقة مع القواعد المألوفة للأخلاق الخاصة ، ولكن من الجلى أن الدولة لا تخضع لهذه القواعد ، فهى التعبير الذاتى للعقل الكبير الذى يلهم العالم ، وأدواته هم عظماء الرجال الذين يسوقهم القدر •

وعندما حطم نابليون بروسيا سنة ١٨٠٦ فى معركة جينا كان هيجل فى جينا ونهب الجنود الفرنسيون كل مالديه من مال • ورأى الامبراطور راكبا عبر المدينة وأذهله ، كما كتب فى خطاب له ، أن يرى روح العالم على ظهر جواد • ثم أضاف : « ان الجميع يرجون الآن ، كما فعلت أنا من قبل ، التوفيق للجيش الفرنسى ، وبالنظر للفارق الضخم بين قادته وجنوده وبين أعدائهم لا ريب فى أنهم سيوفقون • ومن ثم فان مكاننا سرعان ما سيتحرر من هذه الطغمة » • وكتب فيما بعد أن الانتصار الفرنسى « هو الدليل المقنع على أن المدنية تهزم الفجاجة ، والروح تنتصر على الرياء والخداع » وهناك خطابات أخرى تثبت عطفه على الغزاة الفرنسيين •

وعاش هيجل من ١٨٠٧ الى ١٨١٦ فى بافاريا ، كمحرر لجريدة يومية فى مبدأ الأمر ، ثم فى خدمة الحكومة كناظر مدرسة . وكان نابليون قد وسع بافاريا جدا وجعلها مملكة ، وكانت من أخلص البلاد التابعة له • وانتشرت فى ذلك الوقت بصورة رسمية نظرية أن البافاريين ليسوا من أصل ألمانى بل من السلت ، ومن ثم فهم أقارب الفرنسيين• وكان عمل هيجل كمحور هو أساسا اعادة طبع الأنباء ومقالات الدعاية من صحيفة « المونيتور » فى باريس ، وهى صحيفة نابليون الرسمية ، بكل ما تنطوى عليه من تمجيد للامبراطور . وقد هاجم هيجل نفسه معارضة الألمان لنابليون واعتبرها « وطنية شمال ألمانيا » • وليس هناك أى شك فى أن ولاءه للنظام النابليونى كان مخلصا تماما • فهى فى نظره قد حفظت الأفكار المعقولة فى الثورة الفرنسية ونمتها ، وبخاصة «حقوق الانسان»، وتساوى الفرص لكل مواطن تبعا لما يستحقه •

وكان يتلهف على تطبيق مجموعة قوانين نابليون فى ألمانيا ودعا الى القيام بدعاية واسعة فى كل شئون الدولة ، كما كان الحال فى انجلترا وفرنسا ، لتربى الشعب على الوطنية• بالاضافة الى أنه كان يريد بحماسة أن يمنح الشعب نوعا من التمثيل البرلمانى على نمط الدساتير التى منحها

نابليون فى فرنسا وايطاليا واستفاليا(١)٠ وكانت هذه البرلمانات تتألف من ممثلى أصحاب الأراضى والتجار والصناعيين والمهن الثقافية ، وكانت تعتمد على الحكومة اعتمادا كليا ٠ وقد أدخلت حكومتا بافاريا وورتمبرج عدة اصلاحات أثارت مقاومة عنيدة من جانب الطبقات المتميزة، التى أثارت شعارات أن الحرية والتقاليد ودين الشعب معرضة للخطر ٠ وقد انحازت الجماهير العريضة فى البلدين الى جانب الطبقات المتميزة بصورة عنيفة ، برغم أن الاصلاحات المقترحة كانت بالتأكيد لمصلحتها ٠ وفى هذه الصراعات دافع هيجل عن قضية الحكومتين اللتين كانتا تمثلان فى نظره التقدم الحقيقى ٠

وقد حدث انتصار نابليون فى نفس الوقت الذى وضع فيه هيجل المذاهب الأساسية فى مذهبه نهائيا ٠ وكان الوقع العميق الذى تركه نابليون فى عقل هيجل هو خليفة تفكيره ، وبخاصة فى فلسفة التاريخ والسياسة ٠ ولم يغير هيجل ، كما لم يغير جوته ، موقفه الأساسى قط ، وفى سنة ١٨١٣ عندما أفل نجم نابليون لم يصدق هيجل مطلقا امكان حدوث ذلك ٠ وقد تحدث فى سخرية عن « التحرير » الذى حمل من أجله الشعب الألمانى السلاح ، وحاول اقناع الشباب من أصدقائه بعدم الانضمام الى الجيش (٢) وعندما هزم الامبراطور نهائيا أحس هيجل باخفاق عميق ، وفسر سقوطه على أساس أن بعضه يرجع الى تدمير الرجل العظيم لذاته ، بعد أن حقق رسالته ، وبعضه الى انتصار الجماهير التافهة على العبقرية ٠

وبعد هزيمة بروسيا وضع مصلحون كبار، مثل : شتاين وهاردنبرج والتنشتاين وهمبولت أسس بروسيا جديدة تلهمهم الأفكار التقدمية ومتأثرين الى حد كبير بالنموذجين الانجليزى والفرنسى ٠ وبدا أن بروسيا صارت أكثر أقطار ألمانيا استنارة ، وكان هناك أمل فى أنها ستطبق أيضا الأساليب البرلمانية ، ولكن قوى الرجعية كانت قوية أيضا ، وقد انتصرت فى النهاية ٠ وفى سنة ١٨١٧ عين هيجل أستاذا للفلسفة فى جامعة برلين وسرعان ما بلغ ذروة شهرته ٠ وأصبح يعتقد الآن فى رسالة بروسيا فى تحقيق الأفكار السياسية التى كان قد صاغها فى الفترة السابقة ٠

---

(١) لقد اعتبر دستور مملكة وستفاليا أكمل ما أنتجته سياسة نابليون ، أنظر ل ٠ فيشر « دراسات فى سياسة نابليون فى ألمانيا » ١٩٠٣ ص ٢٤٤ ٠

(٢) روزنزفايج المجلد الثانى ص ٢٧ ٠

ولم يكن للجنسية فى فكر هيجل نفس المغزى الذى لها فى فكر فيشته ، فالدولة هى التى يتجسد فيها العقل والأخلاق الموضوعية • بيد أن الفيلسوف كان مدركا تماما لأن روح الدولة تحـــددها الفردية القوميــة ومرحلة نموها • وهدف الدولة هو تحقيق « العقل » كما تحدده العوامل الطبيعية والتاريخ والتكوين الاجتماعى ، وليس « العقل » كفكرة مجردة• وليست الدساتير والقوانين هى التى تضمن تحقيق «العقل» ، بل روح الشعب كلها • وكانت فكرة تدخل الدولة بصورة مطلقة تحكمية ، أو سياسة القوة والهيبة الطموحة بعيدتين عن تفكير هيجل ، فقد علم أنه فى الدولة المتمدينة لايمكن أن يكون التشريع سوى تنميــة القوانين القائمة ، وأن ما يطلق عليه القوانين الجديدة يجب أن يقتصر على تحديد التفاصيل والحالات الخاصة التى يكون السبيل قد مهد لها من قبل أو فصلت فيها المحاكم فعلا بصورة مؤقتة • والدولة تحتاج الى القـــوة فى أغراضها ، ولكن هيجل لم يعتبر القوة هدفا فى ذاتها • ولم يكن لديه اهتمام خاص بقيام وحدة سياسية وثيقة لألمانيا أو بقوتها • ولكنه آمن بأن رسالة الشعب الألمانى هى قيادة العالم فى الفلسفة •

ولقد كانت الدولة فى فكر هيجل كائنا عضويا روحيا وتعبيرا عن «ذكاء العالم » ومن ثم فان لها سلطة وجلالة قدسية . وهى لا تخضع لقواعد الأخلاق البورجوازية المألوفةولكن أهدافها تجسيد الروح الأخلاقية وحرية الأفراد وارادتهم الأساسية • فغرض الفرد هو أن يعيش حيــاة كونية ، أى أن يعيش فى اتصال عضوى مع جيرانه • وصحيح أن دولا كثيرة لا تحقق هذا الهدف تحقيقا كاملا ويشوه نشاطها الخطأ والحوادث التاريخية • بيد أن الدولة لا تعتبر منظمة حقيقية الا عندما يتحالف هدفها الكونى معحرية الأفرادالكاملة ورفاهيتهم• فالدولةالتى تكبتحريةمواطنيها واهتمامهم هى قلعة بنيت فى الهواء • اذ أنمجرد القوة الخارجية لا فعالية لها فى المدى الطويل (١) • وليست ارادة أغلبية الشعب بالضرورة هى الارادة العامة الحقيقية • فالشعب بدون تنظيم الدولة كتلة لا صورة لها

---

(١) « الاخلاق عند هيجل » منتخبات مترجمة من كتابه «Recht philosophie»بقلم ج • ماكبريد ستيريت ١٨٩٣ ص ١٨٩ و ١٩٤ و ٢١٤ . وقد أستخدمت هذه الترجمة فى أماكن أخرى أيضا . أنظر كذلك هيوريبون « نظرية الاخلاق عند هيجل » ١٩٢١ ص ٢٢٠ و ٢٢٨ فيما يتصل بموقف هيجل من الحقوق الاساسية للانسان • وينبغى الا نغفل عن ان هيجل يفهم الحرية على أنها حرية الروح لا حرية الانفعالات التحكمية اللاعقلانية .

ولا يستطيع التعبير عن ارادته الحقيقية • وهذا هو مهمة ممثلية الذين ينبغى أن يكونوا أحكم الناس فيه • والجمعية النيابية يجب أن تتألف من مندوبين عن الطبقات الاجتماعية المنظمة وينبغى أن يكون لهم نصيب فى تكوين الارادة القومية ، وان كان ذلك لا يتم الا عن طريق المناقشات العامة والنقد • وتتمثل وحدة الارادة فى العاهل ، الذى لديه سلطة مطلقة • ولكن الملك لا يفعل كقاعدة عامة سوى اصدار الأمر • أما الجهاز الرئيسى للتأكد من الارادة العامة وصياغتها عند هيجل فهو « الحكومة » المؤلفة من أشخاص مختارين بعناية ولديهم شعور ضخم بالواجب والمسئولية ومؤهلات علمية وعملية واسعة • انها صيغة حديثة من تصور أفلاطون لحكم الرجال ذوى الحكمة •

وقد بدا هذا النوع من الحكم لهيجل أصلح بكثير لتحقيق المصلحة العامة من النظام البرلمانى الانجليزى الذى لا يؤدى فى نظره الا الى نمو المصالح الاقتصادية أكثر مما ينبغى والتأكيد المبالغ فيه لحقوق الملكية •

وفى مقال عن « مشروع الاصلاح الدستورى » وصف الظلم والفساد اللذين كانا فى ذلك الوقت يشوهان صورة انجلترا السياسية والاجتماعية • وقد اعترف بأن الاصلاح الانتخابى المقترح سيجعل الأحوال أفضل ، ولكنه ينطوى من ناحية أخرى على خطر الديمقراطية التى يمكن أن تؤدى بسهولة الى الثورة •

وللسيادة المطلقة أثر حاسم أيضا على العلاقات بين الدول المختلفة • فليس هناك أساس ثابت للقانون الدولى ، والحرب هى الوسيلة الوحيدة لتسوية النزاعات الخطيرة بين الدول • بالاضافة الى أن هيجل يعزو الى الحرب وظيفة انعاش الأخلاق الموضوعية والوطنية ، لدى المواطنين ، التى تعرضت للخطر بسبب طول فترة السلام وسيادة المصالح الأنانية• وأشار الى ما ذكره جيبون عن أثر عصر الأنطوانين على الطابع الرومانى • وقد قال جيبون انه مما لا شك فيه أن هذا العصر كان أسعد فترة فى تاريخ البشر وأكثر فتراته رخاء ، ولكن السلام الطويل والحكومة الموحدة أدخلا أيضا سما بطيئا وخفيا فى عصب حياة الامبراطورية وجرد طابع الشعب من العزيمة • وقد عرض آدام فيرجسون أيضا ، الذى درس هيجل بحثه «مقال عن تاريخ المجتمع المدنى» ، فكرة أن روابط المجتمع تنهار أو تضعف بدون الحرب •

ولكن برغم أن هيجل اعترف بفائدة الحرب فى اثارة الوطنية

والرجولة أو تقويتهما فانه لم يكن بأى حال متحمسا للحرب أو للمجد والغزو • ولم تكن فكرته عن الوطنية من النوع البطولى • فهو يعرف الوطنية بأنها نشاط متناسق مع عادات الدولة وأنظمتها وبأنها ثقة فى الدولة ، تصل الى درجة البصيرة المثقفة الى حد يزيد أو ينقص • ويستطرد قائلا : اننا لا ينبغى أن نفهم الوطنية على أنها أعمال وتضحيات غير عادية • فهى أساسا انجاز الواجبات اليومية للمواطن • ولكن لما كان الناس يجدون أنه أسهل عليهم ان يكونوا ذوى شهامة من أن يكونوا عادلين فانهم يقنعون أنفسهم بسهولة أن لديهم وطنية بطولية لكى يوفروا على أنفسهم وطنية العمل اليومى •

وكان من ثمار عمل هيجل فى برلين فلسفته فى التاريخ التى لعلها أبعد أعماله أثرا فى عصره وفى الأجيال التالية • والتاريخ فى نظره يتألف من تطور « روح العالم » نحو وعى متزايد باستمرار بالحرية ، أى « الحرية الروحية » • ويظهر فى تطور العالم تقدم منتظم من حكم الغرائز المظلم الى حكم العقل الواضح وتتم هذه العملية بترتيب منطقى ، ولكن تدفعها الى حد كبير قوى لا عقلانية • أى أن « روح العالم » تستخدم الانفعالات البشرية لتنظيم العالم على أساس عقلانى بصورة متزايدة باستمرار • وهذا التناقض طبعا مجرد صيغة جديدة للفكرة القديمة من أن الله يسمح بوجود الشر لتحقيق خطته • والأبطال العظماء بصفة خاصة مثل نابليون ، يعملون بدافع من طموحهم كأدوات غير واعية « لروح العالم » ويحققون أيضا الارادة الحقيقية لشعوبهم • ولكل شعب روحه المتميزة التى تسرى فى مدنيته كلها ، وهى نتاج الجو والتربة والجنس والدين والتنظيم السياسى والاجتماعى • فضلا عن أنه فى كل عصر يتفوق شعب بذاته على كل الشعوب الأخرى عن طريق تحقيق مستوى أعلى من العقل ويبدو ممثلا « لروح العالم » فى عصره • وليس للشعوب الأخرى حقوق قبل الشعب القائد ، الذى يسيطر على العالم ولكنه يسقط بعد أن يحقق رسالته ويحل محله فى قيادة العالم شعب آخر • ومنذ نهاية العالم القديم تحتل الشعوب الجرمانية التى تضم معظم الأمم الحديثة مركز الصدارة ، وتتصدرها الأمم البروتستانية وبخاصة بروسيا • بيد أن ذلك لا ينطوى على ادعاء بالسيطرة السياسية على العالم ، اذ أن تأملات هيجل فيما يتصل بكثير من الأحداث التاريخية ، وبخاصة صعود الامبراطورية الرومانية وسقوطها، لاتدع مجالا للشك فىأنه اعتبر سياسة التوسع على نطاق كبير كتدمير للذات • فقد بدأ الرومان كدولة تقوم على السلب ، وحدد ذلك معايير دولتهم كلها ، ونتج عن ذلك تلك الروح

المجردة التى وصفها هيجل بأنها تراث الرومان المميت فى العالم الحديث وبخاصة فى المدنية الفرنسية .

وتتضمن فلسفة التاريخ هذه عدة أفكار عميقة وصيغ باهرة . بيد أن الحجج التى يسوقها هيجل لا تؤيد نظرياتها الرئيسية ، وكثيرا ماكانت هذه الحجج مجرد تلاعب سفسطائى بالألفاظ . ولكنها مع ذلك أثرت كالسحر فى كثير من الفلاسفة والعلماء والكتاب فى جميع أنحاء أوربا .

وبرغم أن هيجل لم يكن من دعاة القومية فان بعض تعاليمه أسهمت فى ظهور الأفكار التى يتألف منها لب النزعة القوميـــة ، مثل تقديس الدولة ومذهب سمو أخلاقياتها ومحو العقل الفردى والأخلاق والمصالح الفردية ، والاشادة بالحرب وبالسوبرمان ، وفكرة الأمم ذات الرســـالة المقدسة . ومن الناحية الأخرى كانت فلسفة هيجل لا تتفق مع المعتقدات الأساسية فى النزعة القومية . فقد كان يحكم على الأمم بدرجة العقل التى بلغتها دولها ومدنياتها ، وكان بعيدا عن التطلعات القومية الألمانية فى عهده كما نبذ الرومانسية السياسية بشدة . وكانت البيروقراطية العليا ، التى بدت له أداة الارادة القومية ، غير محتمل فى ذلك الوقت أن تشجيع النزعة القومية العدوانية ، بل انها حاربت الحركة القومية الألمانية، وقد حبذ هيجل هذا الموقف تماما .

وكان فكر الفيلسوف يتضمن بذورا نمت فى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف . فقد جمع بين عناصر محافظة وتحررية وكان جوهره هو الاعتقاد فى النمو العضوى البطىء المستمر للعادات والأنظمة الصالحة . وحتى فى شيخوخته حافظ هيجل على عادة الاحتفال كل عام بيوم ســقوط الباستيل بزجاجة من الخمر الطيب ، وتظهر فى تعليقاته على نشـــوب الثورة فى « تاريخ الفلسفة » عواطف عميقة .

وكان بين تلامذة هيجل محافظون وأحرار وراديكاليون ، واعتبر كل فريق منهم نفسه المفسر الحقيقى لتعاليم الأستاذ . بيد أن الراديكاليين سرعان ما تفوقوا وأثروا فى الرأى العام أكثر بكثير من الباقين .

وكان بينهم علماء مبرزون هاجموا الأسس التاريخية للمسيحية ، فى حين نقد آخرون منهم الأخلاق المسيحية ودلالاتها السياسية . اذ أن مذهب الوجود يطمس الفرق بين الخطأ والصواب (١) . وصار كثير من

---

(١) أنظر نقد اكتون للهيجلية فى كتاب أولريخ نواك .
١٩٣٥ ص ٧٠ — ٧٣ — ١٠٧ — ١٤٣ — ١٥٨ — ١٨١ .
«Geschichtswissenschaft und Warheit nach den Schriften von John Dalberg-Acton»

المثقفين الألمان اما فرديين متطرفين ، مثل : شتيرنر ونيتشه ، وكرسوا أنفسهم لمذهب السوبرمان ، أو صاروا جماعيين متطرفين ، وجعلوا من العنصر أو الأمة أو الطبقة آلهة • وقد اختفى سحر أفكار هيجل بصعود العلوم الطبيعية وبعوامل أخرى ، وأعقب دمار كل مذهبه المثالى الشامل ازدراء عام للمثالية والفلسفة ، ومذهب النجاح وسباق القوة المالية أو العسكرية • واستخدم كارل ماركس ، أحد تلامذة هيجل ، صولجان الجدل السحرى الذى اخذه عن استاذه وحول تفسيره المثالى للتاريخ الى تفسير مادى •

١٧ ـ الرومانسية والسياسة

نما الفكر الرومانسى فى الفن والحياة فى عصر الاستنارة كتيار سفلى فى أول الأمر تحت سطح من العقلانية ثم تمرد على سيطرتها مع الوقت(١) • وفى حين كان العقلانيون يطالبون بتحرير عقل الفرد من أغلال الماضى التى علاها الصدأ ، تاق الرمانسيون الى حرية الخيال والعواطف والانفعالات • وقد كرسوا سعيهم فى أول الأمر لاصلاح الشعر ثم وجه بعد ذلك ضد متواضعات المجتمع أيضا ، ثم امتد أخيرا الى السياسة • وأصبح روسو هو لواء الرومانسية السياسية •

ومن وجهة النظر الاجتماعية تنطوى الرومانسية على تمرد من الشباب ضد الشيخوخة وعلى رد فعل من المثقفين ضد المتواضعات المصطنعة التى تقوم عليها المجتمعات والمدنية وحنين الى نعيم الرجل الطبيعى المفقود ، وان كان كثيرون من الرومانسيين ليسوا من السذاجة بحيث يصدقون أن هذا النعيم وجد حقيقة فى أى وقت من الأوقات • ومع ذلك فقد أحبوا أن يتوهموا وجوده ، أو « الأسطورة » على حد قول خلفائهم الحديثين • فمأساة الثورة الفرنسية قضت الى حد كبير على الاعتقاد فى الخير الطبيعى فى الانسان وفى قدرة الأمم على تحقيق خيرها • وسرعان ما أثار غزو نابليون وسيطرته الاحساس بالجنسية والطموح القومى فى جميع أنحاء أوربا •

وتحولت الرومانسية ، التى كانت قد بدأت كمذهب ثورى ، الى قوة محافظة ، بل ورجعية الى حد كبير فى السياسة على الأقل •

---

(١) فيما يتصل باصل الرومانسية أنظر بول فان يتجم،
«Le mouvement romantique» «Le preromantisme»
١٩٢٣ • و ج • ر • روبرتسون « دراسات فى أنواع النظرية الرومانسية فى القرن الثامن عشر » ١٩٢٣ •

وكثيرا ما رأى الملاحظون السطحيون الرومانسية فى هذه الصورة الأخيرة فحسب • وحاول آخرون أن يعثروا على خطة من المذاهب المتسقة تتميز بها ، ولكن ليس هناك تعريف على أساس مذهبى محدود يمكن أن يشمل كل الظواهر التى تندرج تحت هذاالاسم• ومن الجلىأن الرومانسية هى مجرد نمط سيكلوجى يجمع بين السعى الانفعالى نحو الحرية العاطفية وخيبة الأمل فى العقل الانسانى ، ومحاولة التغلب على النتائج المتشائمة والفوضى الناجمة عن هذه التجارب • وتستطيع هذه العقلية لدى المثقفين الذين أداروا ظهورهم للعقل ، والتى تبحث فى يأس عن مذهب ما ، أن تعتنق أى برنامج سياسى تقريبا • ومن ثم فان الرومانسيين يظهرون عادة خليطا من الاتجاهات غير المتناسقةمطلقا وتغيرات فجائية فى الأيديولوجية، كما يعكسون أيضا الاختلافات فى الاتجاهات السائدة فى الأيديولوجيات القومية •

ولم يكن معظم الرومانسيين سياسيين عمليين أو دارسين جادين لعلم السياسة • اذ كانوا فى الغالب شعراء ونقادا أدبيين وفلاسفة ، أو مثقفين يعملون بمهنة أخرى ويكتبون فى السياسة عرضا • وقد بدأت الحركة الرومانسية فى الأدب كاحتجاج ضد القواعد الصلبة للكلاسيكية وضد العقلانية الباردة التى تكتب حرية الخيال والعواطف • وكان الرومانسيون يكرهون أكثر من ذلك المجتمع المتحذلق والأفكارالبورجوازية عن الحياة السعيدة الفاضلة • ان ما كانوا يتوقون اليه هو الغريب والغامض واللاعقلانى والخيالى ويأملون الحصول عليه فى البلاد الأجنبية والشعوب البدائية ، فى الطبيعة والانسان البريئين من الفساد ، وفى الأطفال والشباب والفلاحين الذين لم يفسدوا ، وفى المنبوذين من المجتمع وفى أحط طبقاته وفى العصور الوسطى ، فى الأناشيد القديمة والقصص الخرافية والاداب الشعبية الأخرى ، وفى عصر ذهبى طوبائى فى الماضى أو المستقبل ، وفى النساء المتحررات وفى التصرفات غير المألوفة ، وفى التصوف وفى العاطفية المختلطة بالسخرية والتهكم على الذات . وكان العقلانيون لا يضفون أية قيمة الا على الأفكار الأبدية المتماثلة فى جميع الأمم وكل الأزمنة . أما الرومانسيون فوضعوا الثقل على الفردية القومية أو التاريخية أو الشخصية وعلى السمات المتميزة فى الشخصية الفريدة• وفى حين أن العقل المحلل يجنح الى تصور المجتمع والطبيعة كآلات ، كان الرومانسيون يحبون وصفهما باعتبارهما من الكائنات الحية • وبدت عقلية الرجل المتوسط وأخلاقياته للرومانسيين كئيبتين • وقد أشادوا بالحماسة والبطولة والعبقرية الخلقية لدى السوبرمان الذى يرتفع فوق التزامات

الأخلاق العـادية . وكان كثير من الرومانسـيين المشهورين فى شـبابهم حليعين ومستهترين تماما ، فى حين مجد غيرهم ـ ممن كانوا أشخاصا خجولين وضعفاء ـ الحرب والقسوة والتحرر من كل قيد أخلاقى . وقد منحهم مذهب وحدة الوجود وعبادة قوة الطبيعة المقدسة رداء ملائما، وكثيرا ما انتهى نموهم « بالعدمية » الكاملة واليأس الشامل ، ثم تحولوا فجأة فهاجمـوا ونددوا بكل صور الفردية وأغرقوا شـخصيتهم فى الجماعية باحثين عن ملجأ أما فى الكنيسة أو التصوف الدينى أو فى مذهب الدولة أو فى دين النزعة القومية .

وكان بين الرومانسيين ثوريون ورجعيون ، ومؤمنون بجلالة الشعب أو بجلالة الملوك ، وممجدون للتعصب المحلى الفيودالى أو دعاة نظام اشتراكى جديد ودعاة الجنسية ودعاة الاخاء العالمى . وكان أقل المذاهب قبولا لديهم هو التحررية ، وبخاصة الديموقراطية التحررية . فهـذا النظام الأخير يقوم من ناحية المبدأ على العقل والتفاهم والتسامح ، ولكنه بدا لمعظم الرومانسيين ممثلا لحكم النزعة التجارية الحاسبة .

١٨ ـ الرومانسية والجنسية فى ألمانيا

فى الأيديولوجية القومية الأخيرة فى ألمانيا صار نوعا من الدوجما أن الرومانسـية هى التعبير الحقيقى للروح الألمانية . وحاول كثير من الكتاب أن يثبتوا أن الألمان كان لديهم طوال تاريخهم اتجاهات رومانسية الكتاب أن يثبتوا أن الألمان كان لديهم طوال تاريخهم اتجاهات رومانسية، وأن هذه الاتجاهات ، بناء على ذلك ، لا بد أنها تقابل طابعا أصيلا فيهم . وفى الحقيقة ان نمو التصوف ، الذى يرتبط الى حد ما بالرومانسية ، وجد تربة ملائمة فى بعض المراحل المعينة فى الظروف السياسية والاجتماعية فى ألمانيا وكان له بعض التأثير على اللوثرية . ولكن الرومانسية الحديثة جاءت متأخرة شـيئا ما فى ألمانيا (١) ، وقد استوردت فى مبدأ الأمر من

(١) فيما يتصل بالرومانسية الالمانية أنظر رودولف هايم «Die romantische Echule» الطبقة الرابعة ١٩٢٠. وأوسكار والزل Deutsche Romantik الطبعـة الخامسة ١٩٢٣ ويوليوس بيترسن «Die Wesensbestimmung der deutschen Romantik» ١٩٢٦ . وكونوفرانكه « تاريخ الادب الالمانى وتأثره بالقوى الاجتماعية » الطبعـة العاشرة ١٩١٦ . ص٣٩٩ . وفردريك مايتكه «Weltburgertum und Nationalstaat» ١٩٠٥ . ويلهم ميتزجر «Gesselschaft, Recht und Staat in der Ethik des deutschen Idealismus» ١٩١٧ . وجاكوب باكسا «Gesselschaft, Recht und Staat im Spiegel deutscher Romantik» ١٩٢٤ . وهانز تيمه «Deutscher Volksgeist in der Zeit der Romantik» ١٩٢٥ . وأوتوبراندت A.W. Schlegel der Romantik und die Politik» ١٩١٩ .

الخارج وبخاصة من انجلترا ، ونظرت اليها السلطة بريبة • ففى ١٧٢٥ قررت الكنيسة فى زيوريخ أنه لا يمكن السماح بطبع ترجمة بودمر لكتاب « النعيم المفقود » حيث انه يتناول الموضوعات المقدسة بأسلوب رومانسى أكثر مما ينبغى (١) . ولم تكن الريبة الرسمية بلا أساس لأن الادعاء بالحرية العاطفية فى الأدب كانت بالنسبة لكثير من الشباب المثقفين بديلا للمطالبة بالحرية السياسية التى لم يكن فى وسعهم العمل من أجلها بعد • وقد كانت العقلانية فى الفكر والكلاسيكية فى الفن المذهبين المرتبطين ارتباطا وثيقابالسلطات الحاكمة، الملوك والارستقراطية• وكانت الاتجاهات الرومانسية فى القرن الثامن عشر عادة رداء السعى الانفعالى من أجل الحرية الأدبية والفنية والاجتماعية • وقد أدت هذه الاتجاهات أحيانا الى اهتمام جديد تماما بماضى ألمانيا ، وان كانت فيودالية العصور الوسطى أقل جاذبية للشباب من الأبطال التيوتونيين ، مثل هرمان ، الذين اعتبروا أنصارا للحرية القومية والسياسية •

وقد شارك معظم الرومانسيين الألمان طبعا فى الحماســـة للثورة الفرنسية والنزعة العالمية العامة السائدة فى ذلك الوقت • وتحت حكم نابليون صاروا أكثر قومية ، وفى حرب التحرير ضد الامبراطور كتب كثير من الرومانسيين ، مثـل أرندت وكلايست وكيرنر وآرنيم وكيريز ، قصائد أو كتيبات تفوح منها رائحة الكراهية نحو الفرنسيين وتمجـد الفضائل الألمانية • بيد أن الاسهام الرئيسى للفكر الرومانسى فى الأيدلوجية القومية كان التأكيد على الفردية القومية ومحاولة وصف فردية الألمان ومقارنتها بغيرها من الأمم • ولكن عرض أفكارهم يتطلب مكانا أكبر بكثير مما يتاح هنا (٢) . ولم تكن الرومانسية نظاما محدود المعالم بل روح حنين لا يقر له قرار وتخمر عبر عن نفسه بطرق مختلفة تماما كثيرا ما كانت غير متسقة • ونادرا ما وضع أنصارها أفكارهم السياسية بطريقـة منظمة ، بل كانوا يرمزون اليها عرضا فى قصائد أو روايات أو مقـالات نقد • وأدرك الفلاسفة منهم أن العاطفية الرومانسية ليست كافية لفلسفة وحاولوا أن يدمجوا مع أفكارهم عناصر عقلانية ولا عقلانية • ومن ثم كان

(١) ج • جنى «Miltons Verlorenes Paradies in der deutschen Literatur des 18 Jahrhunderts» ١٨٩٠ ص ٢١ •

(٢) لقد عرضت بعض أفكار الرومانسيين عن الطابع القومى فى دراسات نشرت «Archiv für Socialwissenschaft» فى المجلد ٤٥ لسنة ١٩٢٦ ص ٦٧٠ _ ٧١٥ •

من العسير ، ان لم يكن مستحيلا ، تحديد أين تبدأ الرومانسية وأين تنتهى ، ومن ينتمى اليها (١) .

وقد احتفظ أهم المفكرين الرومانسيين ، مثل الأخوين : أوجست ويلهلم وفردريك شليجل ، بقدر كبير من النزعة العالمية باستمرار . وقد كتب أ . و . شليجل فى ١٨٠٣ :

« هل نقص الفخر القومي عيب كبير حقيقة ؟ أليس من الواضح أنه لدى الأمم الأخرى كثيرا ما يقوم على التفكير من زاوية واحدة وضيق الأفق بل وحتى مجرد الأوهام ؟ واعتقادى أنه فيما يتصل بأسمى الاهتمامات للطبيعة البشرية ، ونمو أنبل قواها مثل الفن والمعرفة ، يكون أقرب الى الروح الألمانية ألا يسأل المرء : هل هذا الشيء ألمانى أو أجنبى ؟ وأن يكتفى بالسؤال : هل هو أصيل وعظيم وممتاز فحسب ؟ وألا يخشى أن يحط الاعتراف المتحرر بالانجازات الأجنبية من قدر الانجازات الألمانية. أن النزعة العالمية والكونية هى السمة الألمانية الحقيقية » .

وقال نوفاليس : « ان الألمانى يوجد فى كل مكان ، والنزعة الألمانية مثل الرومانية والاغريقية والبريطانية ليست محدودة بدولة معينة . فهى أنماط بشرية عامة . ان النزعة الألمانية هى العالمية ممزوجة بفردية قوية » . وأشار العديد من الرومانسيين والمفكرين المثاليين الى أن القدر أعد الألمان لتنمية عالمية الطبيعة البشرية وجماعيتها ، ولاعتناق أسمى القيم الثقافية لدى كل الشعوب وتنميتها ، وللسيطرة عن طريق الروح لا عن طريق السيف . وكثيرا ما عبروا عن أملهم فى أن يقود الألمان كل الشعوب الى أسمى مراتب البشرية وأن تصير الألمانية لغة الثقافة العالمية .

وقد عرض فردريك شليجل فى كثير من كتاباته أفكاره عن الفردية القومية التى لخصتها فى مكان آخر . وتقوم وجهات نظره على دراسات تاريخية واسعة وتنطوى على فهم سيكلوجى واجتماعى عميق . ولم يضف على الطابع القومى التاريخى فى ذاته قيمة كبيرة . فالفكرة الألمانية ليست مجرد نتاج ماض بل مثل أعلى للمستقبل . « يقولون ان الألمان هم أول شعب فى العالم فيما يتعلق بالاحساس بالفن والعلم . هذا صحيح

---

(١) يقول كونوفرانكه فى فصوله الممتازة عن الرومانسية : « ان تكوين عصبة دولية للقضاء على تعبيرى « الرومانسية » و « الكلاسيكية » يبدو لى عملا خيريا حقيقة » .

ولكن ليس هناك سوى ألمان قليلين جدا » • « ليس هرمان ووطان هما الآلهة القومية للألمان ، بل الفن والعلم » • وقد وضع فردريك فى مبدأ الأمر الفن فوق مستوى السياسة بكثير• ولكنه فيما بعد ندد بشدة «بالحلم العالمى الجماعى» و «خداع وحدة الوجود» اللذين كانا قد سادا أنبل الأرواح الألمانية طوال السنوات الخمسين السابقة بلا استثناء تقريبا، واللذين يرجع أصلهما الى كبت الحياة السياسية • وقال مرة ان الأسد الألمانى القائم قد يستيقظ يوما ويزخر تاريخ المستقبل بالانجازات الألمانية •

وكان فردريك شليجل أكثر المفكرين تفوقا بين الرومانسيين وبدأ داعية جمهوريا قويا • وفيما بعد صار كاثوليكيا ومحافظا مثل كثيرين غيره من نفس المدرسة ، ودخل السلك الدبلوماسى النمسوى • وترجم أوجست ويلهلم شيكسبير وشعراء أجانب آخرين الى الألمانية ، واتصل مدة طويلة بمدام دى ستايل ، ويبدو أن له بعض التأثير فى كتابها الشهير عن المانيا • وقد صار فيما بعد أستاذا جامعيا فى بروسيا •

وقد حدث انشقاق بين صفوف الرومانسيين أيضا بسبب الجدل الكبير حول من الذى ينبغى أن يحقق وحدة ألمانيا — بروسيا أو النمسا • فقد راود الأمل الكثيرين فى عودة الامبراطورية الرومانية المقدسة القديمة وروح العالمية والفيودالية التى سادت العصور الوسطى فى ظل سيادة النمسا ، فى حين وضع آخرون آمالهم فى الرسالة القومية لبروسيا • وكان الجناح المناصر للنمسا محافظا وكاثوليكيا ويفكر فى اطار فوق الدول، فى حين كان أنصار بروسيا ، بصفة عامة ، أكثر تحررية وقومية من القطاع الآخر • وكان عالم اللاهوت شلاير ماخر من كتاب الفريق الثانى، وفى وقت حرب التحرير كان يؤكد على الفردية القومية • ولكنه سرعان ما أعلن بعد ذلك أن الفيلسوف لا يمكن أن يكون ألا عالميا ، وأن الجنسية مجرد مرحلة من مراحل التطور ، وأنه من المؤكد أن تختفى الاختلافات القومية تدريجيا (١) •

وكان أهم أصحاب النظريات السياسية والاقتصادية الرومانسية هو آدم موللر (٢) • وقد ولد فى برلين ابنا لموظف حكومى ودرس فى

(١) متزجر ص ٢١٦ و ٢٨٩ و ٢٩١ وتيودور كابشتاين «Schleirmachers Weltbild und Lebensanschanung» ١٩٢١ ص ١٤٩ و ٢٩٨ •

(٢) لقد ظل آدم موللر فترة طويلة منسيا تقريبا ثم اعيد البحث في دراساته مؤخرا واعتبر أعظم ممثل للفلسفية الالمانية ، وبخاصة من جانب أوثمارسبان ومدرسته. وقد نشرت طبعه مختصرة لاهم كتاباته بواسطة فردريك بولوف بعنوان Adam Muller «Vom Geiste der Gemeinschaft» ١٩٣١ . أنظر كذلك ملخص نظرياته في البحث الذى نشر لى فى «Archif für Sozialwissen schaft» ١٩٣٦ ص ٦٩٦ •

جامعة جوتنجن حيث عرف نظريات آدم سميث ومنتسكيو وبيرك • وقد ظل فترة شديد الاعجاب بسميث ، ومعارضا بروحه لفكرة فيشـــته عن الدولة شبه الاشتراكية المكتفية بذاتها • بيد أنه تحول فيما بعد بصورة متزايدة الى العداء نحو تحررية سميث الاقتصادية ، وصار بيرك مثله الأعلى في السياسة • وأشاد به باعتباره أعظم سياسي في القرون الثلاثة السابقة ، وفي محاضراته حث المستمعين اليه على قراءة بيرك المرة بعـد المرة ، بل وحفظ كتاباته عن ظهر قلب • وأخذ آدم موللر عن أستاذه معارضته لمبادىء الثورة الفرنسية(١) ،ومفهوم الدولة والأمة ككائن عضوى روحى ، والاعجاب بالأنظمة الفيودالية ، وتبجيل التقاليد القومية القديمة• وبدت انجلترا له ، كما بدت لصديقه الوثيق جنتز ، أكمل أمة تمثل الكائن العضوى ، فى حين كثيرا ما انتقد بشدة ونفور كبير « الدولة الآلة » التى خلقها فردريك الثانى الذى كان يزدريه • وقد عارض أيضا فى اعادة تنظيم بروسيا ، بعد هزيمتها ، على أسس تحررية ، واختلط باليونكرز الرجعيين الذين عارضوا اصلاحات هاردنبرج • وحال ذلك دون الحاقه بالخدمة الحكومية البروسية ، وفى ١٨١٥ دخل السلك الدبلوماسى الألمانى حيث صار أداة فى يد مترنيخ • وكان قبل ذلك بعشر سنوات قد صار كاثوليكيا واختلطت بأفكاره السياسية مسحة صوفية متزايدة •

وكانت لدى آدم موللر فكرة سامية جدا عن الجنسية ، اذ تصورها تناسقا مقدسا وتفاعلا متبـادلا بين جميع المصـالح الخاصة والشخصية ، وحلقة تربط الفرد بالانسانية والسمة القومية المتميزة هى أسمى قيمة بالنسبة للأمة ، وهى ذات اتجـاه توسعى • والحرب وسـيلة لا غنى عنها لتحقيق الوحدة ودعمها وللتربية والنمو • والدولة كائن عضوى يتضمن كل قوى الأمة ، ويجب على الفرد أن يضحى من أجلها بأى شىء • وفى محاضراته سنة ١٨١٠ انتقد بروسيا بصفة خاصة لأن حكومتها اعتبرت الجيش شرا لابد منه كوسيلة لتجنب الحرب • ولكنه كان يعتقد أن الدولة القومية لا يمكن أن تقوم الا فى اقليم غير كبير جدا • فالدولة الكبيرة جدا لا يمكن أن تبلغ الوحدة القومية الحقيقية • وكان موللر يرغب ، الى جانب ذلك ، فى قيام فدرال عظيم من الشعوب الأوربية بزعامة الألمان •

---

(١) فيما يتصل بتأثير بيرك انظر فريدا براد «E. Burke in Deutschland» ١٩١٧ ص ١٨٣ • بيد أن موللر حكم على الثورة الفرنسية باعتدال أكثر من بيرك وبروح منزهة أكثر منه •

وقد بدت له الفدرالية والاهتمام بالزراعة تحقيقا للمبادىء الألمانية والموسوية ، في حين بدت حركة الاصلاح الديني والاستنارة والدولة الآلة المركزية والسعى الى السيطرة العالمية والتصنيع والرأسمالية والثورة الفرنسية كلها نتائج الروح الرومانية الكئيبة كما تتجسد فى الامبراطورية الرومانية والقانون الروماني ٠

ومن العسير أن نقول كيف تتفق وجهات النظر هذه مع اعجابه بانجلترا التى كانت بروتستانتية تماما وتحررية ومركزية وقوة عالمية ورأسمالية ٠ وقد وضع أيضا نظاما اقتصاديا مناهضا للفردية تماما ومركزا فى مصالح الدولة القومية والثقافة القومية اللتين كانتا تبدوان له متقابلتين الى حد كبير مع المصالح الزراعية ضد التصنيع ٠ ومن النقط الرئيسية فى نظريته تفضيل العملة الورقية القومية على العملة الذهبية الدولية ٠

ولم يكن الرومانسيون هم زعماء الحركة القومية الصاعدة ، ولم يكن لهم نفوذ كبير على الرأى العام فى المسائل السياسية ، فقد كانوا يؤلفون نخبة مثقفة صغيرة ٠ وكانوا من ناحية يفضلون الفن والأدب على السياسة، ومن ناحية يؤيدون نظام مترنيخ والحكومات الرجعية الأخرى فى الفدرال الألماني ، وهى الحكومات التى حاولت اخماد الحركة القومية ٠ ومع ذلك فقد أسهموا فى تكوين أيديولوجية صارت فيما بعد أساس النزعة القومية الألمانية ٠ فقد ساعدت مدرسة الفقه التاريخي وكثير من العلماء الآخرين فى ميدان التاريخ والفلسفة فى ألمانيا على نمو الفردية العضوية للأمة واثارة الحماسة لتقاليد ألمانيا القومية ، وعلى العمل من أجل توحيد الشعب الألماني روحيا وسياسيا ٠

وتقهقرت الحركة الرومانسية عندما وضعت الحركة القومية مطلب الحرية السياسية فى الصدارة ٠ ولكن هزيمة ثورة ١٨٤٨ جعلت كثيرا من المثقفين ييئسون مرة ثانية من العقل وشجعت التشاؤم ، الذى كانت له أسباب أخرى أيضا ٠ وفى هذا الوقت صار شوبنهور أكثر الفلاسفة شعبية ، ولم يحظ أى كاتب فلسفى آخر بما حظى به من قراء فى ألمانيا ٠ وكان شديد الازدراء للميتافيزيقيين والرومانسيين الألمان ، وان كان هو نفسه لابد من اعتباره واحدا منهم (١) ٠ وقد بدت له الدنيا كابوسا

---

(١) عرض كارل جويل لرومانسية شوبنهاور ونيتشه فى كتابه «Nietzsche und die Romantik» ١٩٠٥ ٠

كئيبا لا يحكمه العقل بل الغريزة الجشعة العمياء البدائية التى تسمى ارادة الحياة ، والمهرب الوحيد من هذا الجحيم هو الرحمة بالنسبة لجميع الكائنات الحية والخلق الفنى وبخاصة الموسيقى • وكان لوثر أيضا من المعتقدين بأن الطبيعة البشرية شريرة فى أساسها ، ويؤدى هذا الاعتقاد بصورة طبيعية الى نبذ الحرية السياسية • ويحارب شوبنهور بعنف فكرة الله والمسيحية والتربية والتقدم والديموقراطية • وأعلن أن اشادة هيجل بالدولة بوصفها تجسيدا للأخلاق ودفاعه عن الحرب هراء تماما • وكره شوبنهور الحرب وسخر بالفخر القومى واعتبره صفة نموذجية فى الشخص الأبله الذى ليس لديه شىء آخر يفخر به •

وكان يعطف على الانجليز أكثر من أية أمة أخرى باستثناء كنيستهم وريائهم الدينى ، وكان حكمه سيئا جدا على الألمان ، وأعلن فى ورقة عثر عليها بعد وفاته أنه يحتقرهم لغباوتهم الشديدة ويخجله الانتماء اليهم • بيد أنه فى كتابات أخرى اعترف بأن هناك على الأقل بعض المزايا فيهم ، وهى لغتهم وعدم وجود الاحساس بالفخر القومى لديهم ، وهو دليل على اخلاصهم ، وكذلك حقيقة أنه يوجد ملحدون بينهم أكثر من أى شعب آخر •

وكان نيتشه وريثا آخرا للرومانسية على غير ارادة منه• وكان هو أيضا يعتقد أن العالم لا يسيره العقل بل الارادة ، التى عرفها بأنها ارادة القوة • وقد جاءته هذه الفكرة فى حرب ١٨٧٠ عندما رأى الجنود الألمان يهرعون الى ساحات القتال • وبرغم أنه كان معجبا بالبطولة الحربية من زاوية جمالية ويحترم النظام العسكرى ، فقد أعلن شكه فى أن الحرب لها أثر نبيل • وأيا كان الأمر فان الروح الألمانية انحطت فى رأيه بالانتصار على فرنسا • وأعلن ازدراءه للميتافيزيقيين والرومانسيين الألمان ونبذ مذهب الدولة واعتبر الوطنية والجنسية سخافة وعقبات فى سبيل نمو الفردية والثقافة الحقيقية • وبرغم أنه كان عازفا عن الديموقراطية تماما فانه كان يذكر من وقت لآخر بعض المزايا فيها وبخاصة فى حدود ما تفسح الطريق للأفراد الأقوياء •

وروح العسكرية من الأعراض المكروهة فى المجتمع البربرى ، وكان نيتشه يحلم بشعب فى ذروة قوته ويحطم سيفه طواعية • والمرض الأكبر فى العصر هو النزعة القومية ، وقد اشمأز بصفة خاصة لاعجاب الألمان بذاتهم عنصريا • ويعلن أنه أوربى طيب ويرغب فى القضاء على الاختلافات القومية • وكل عبقرى عظيم كان يسمو على القوميات فى مزاياه ويعتبر

قوميا فى رذائله٠ والانجازات الثقافية الفرنسية أعظم من الالمانية٠ واحتقر النفعية الانجليزية والديموقراطية الانجليزية ٠ فالانسان لا يسعى الى السعادة بل الى القوة ويحب القسوة ٠ والمسيحية والأخلاق المسيحية أيضا ستار للسعى الى القوة من جانب الضعفاء ورجال الدين ٠ وكان غرضه الرئيسى هو تحطيم الايمان بالأخلاق والمسيحية ٠

ويزخر فكر نيتشه بالمتناقضات الظاهرية والحقيقية ، ويستطيع المرء أن يفسر فلسفته بصور مختلفة تماما ٠ ولا شك فى أن بعض وجهات نظره الرئيسية أثارت الى حد كبير الازدراء للعقل البشرى وللسعادة والتمرد ضد كل « الكوابت » الاخلاقية التى أصبحت سمة نموذجية فى النزعة القومية الالمانية ٠ وانها لسخرية ومأساة أنه بهذه الطريقة دعم عقلية النزعة القومية الألمانية التى ازدراها وكرهها أكثر من أى شىء آخر ٠

وكان ريتشارد فاجنر ونيتسه فى وقت ما صديقين وثيقى الصلة ٠ وفيما بعد هاجم نيتشه فاجنر بشدة ورأى فى موسيقاه وأفكاره أخطر تعبير عن النزعة القومية الألمانية والخداع الرومانسى ٠

وكان نيتشه على حق فيما يتصل بالتأثير العام لفاجنر على العقل الألمانى ، وان لم تكن موسيقاه هى التى تضمنت بذرة الشر ٠ فقد تأثر فاجنر نفسه بفلسفة شوبنهور ، التى لم تكن قومية بالتأكيد بل تتركز فى الرحمة ٠ ومع ذلك فان فاجنر كان يؤمن أيضا بالراديكالية ، وقد كان تأثير كل من جوبينو وهوستون ستيوارت شمبرلين سيئا فى الشعب الألمانى عن طريق صلتهما بفاجنر والدائرة المحيطة به ٠ وبعد موته بوقت طويل صار هتلر هو الشخص المفضل لدى عائلة فاجنر وتلاميذه ، وكان لرعايتهم له فضل كبير عليه ٠

ويمثل كل من شوبنهور ونيتشه نوعا من الرومانسية عدله المذهب الطبيعى الحديث ٠ ففلسفة المثالية والرومانسية تقوم على الاعتقاد بطبيعة الانسان الروحية العليا التى تعبر عن نفسها اما فى العقل الفردى أو العقل الجماعى ٠ ولكن فى فلسفة المذهب الطبيعى الرومانسى يبدو الانسان حيوانا بلغ درجة كبيرة من النمو تدفعه غرائزه ، فنيتشه ينتعش اعجابا بالوحش الآدمى الكاسر العجيب ٠ وقد لعبت أفكار البيولوجيا الحديثة ، وبخاصة فكرة « الصراع من أجل البقاء » فى غير ما انقطاع وقوة الوراثة كأداة فى القوة والتقدم العنصرين ، دورا كبيرا فى نمو أيديولوجية النزعة القومية الحديثة ٠ وبعد الحرب الكبرى نشر أوزوالد شبنجلر كتابه:

« أفول الغرب » ودعا فيه ، وفى كتابات أخرى له ، الى فكرة دكتاتورية عسكرية قومية على أساس فلسفة المذهب الطبيعى والرومانسية • وكان لكتاباته تأثير كبير على المثقفين الألمان • ودعت كتب أخرى تسودها نفس الروح بقلم مؤلفين آخرين لقضية النزعة القومية وضد الديمقراطية (١)، وأسهمت فى تسميم عقل الشباب الألمانى مما جعل فى وسع هتلر الاستيلاء على السلطة • وكانت الروح الرومانسية فى مبدئها الجو السائد بين نخبة من المثقفين المثاليين • وفى النهاية أدت الى شعارات ديماجوجية استخدمت فى تخدير شباب ينقصه كل احترام للروح وصار فيما بعد أدوات فى يد أقوى نخاسى العبيد فى التاريخ وأشدهم مناهضة للثقافة •

١٩ ـ الفردية والرومانسية والجنسية فى بريطانيا

كان منتصف القرن الثامن عشر بداية لحركات اصلاحية كبيرة بدأها انتعاش النزعة الانسانية المسيحية وصعود « النفعية » • وكان كلاهمـا الى حد يزيد أو ينقص رد فعل ضد العقلانية ذات الجانب الواحد التى سادت بين كثيرين من دعاة الاستنارة • كذلك كثيرا ما نمت الرومانسية التى تمثل تمرد المشاعر ضد العقل وضد المدنية المصطنعة فى نفس الوقت وفى تحالف وثيق مع التقليدية • وكانت كل هذه القوى الروحية تنطوى على فهم أفضل لبعض جوانب الجنسية والعطف على القوميات التى تسعى الى الحرية والرغبة فى دعم الوحدة بين الطبقـــات داخل الأمة الواحدة وتحسين العــلاقات بين الأمم • فضــلا عن أنهـا كانت ذات أثر كبير فى تشكيل شخصية الأمة • ففى القرن التالى تميز الطابع القومى الانجليزى أساسا بثلاث سمات ظهرت فيه بوضوح أكثر من الأمم الأخرى : النفعية والانسانية المسيحية والتقليدية •

ويشير هيوم فى مقاله « عن الطابع القومى » الى أن السمات القومية كثيرا ما تتغير بسرعة شديدة، ويدلل على ذلك بمثال أن الانجليز فى القرن السابع عشر كانوا « مشتعلين بحماسة ضــارية ، واستقر بهم الحال الآن على عدم مبالاة باردة تماما فيما يتصل بالشئون الدينية أكثر مما تتسم به أية أمة فى العالم » • بيد أنه حدثت فى ذلك الوقت بدايات انتعاش فى الحماســة الدينية مهدت لهـا كتابات جون وشارلس ويسلى وهوايتفيلد وتلامذتهم • وكان للنظـامين والـكويكريين النصيب الأوفى فى ايقـاظ

(١) روهان بتلر « جذور الاشتراكية الوطنية » ١٩٤١ • و س. د. ستيرك « الروح البروسية » ١٩٤١ .

الضمير المسيحي وما أدى اليه من ثورة أخلاقية لا تقل ضخامة عن الثورة الصناعية فى ذلك العهد (١) ٠

وكان جون ويسلى لا يثق بالحكومات والسلطات الحاكمة وبالشعب، « ذلك الوحش ذو الرءوس المتعددة » ، كقوة سياسية ٠ وفى نظره كان اصلاح الانسان أخلاقيا أهم بمالا يقاس من الاصلاحات السياسية ٠ ولكن انجازاته الكبرى فى اثارة مشاعر الاخوة والطاقة المعنوية مهدت السبيل لفكرة أوسع نطاقا وأنبل عن الأمة وساعد على انقاذ بريطانيا من مذاهب الحرب الطبقية المسمومة والثورة ٠

وقد عرض كثير من المفكرين البريطانيين مبدأ «أكبر قدر من السعادة» فى القرن الثامن عشر (٢) ٠ ولكن نبيه الحقيقى كان جيريمى بنتام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) الذى كان له نفوذ مسيطر فى جزء كبير من القرن التاسع عشر(٣)٠ وكان هو وتلامذته هم الذين جعلوا «النفعية» سمة قومية لبريطانيا الحديثة فى الفكر والسياسة ٠ وقد بدأ بنتام بوجهات نظر محافظة ثم تحول أكثر فأكثر الى العداء نحو كل التقاليد التى أصبحت غير ذى موضوع ووضع قسما كبيرا من أيديولوجية الأحرار والديموقراطيين فيما بعد ٠ بيد أن النفعية ليست هى التحررية فحسب ٠ فقد كان مبدأ السعادة مصدر وحى لكثير من الحكام الأوتوقراطيين الخيرين وهو يؤلف اليوم الصورة الخلفية للاشتراكية ٠ كما أن بنتام لم يشارك فى المذهب الأساسى للتحررية ، وهو الاعتقاد فى الحقوق الطبيعية للانسان والقيمة السامية للحرية (٤) ، ولم يدع الى توسيع حق الانتخاب الا فى أخريات حياته ٠ وكانت عواطفه عالمية بقوة وأراد أن يكون خادما لجميع الامم التقدمية ٠ وقد عرضت عليه الجمعية الوطنية الفرنسية أن يكون مواطن

---

(١) و ٠ وارنر « حركة وبسلى في الثورة الصناعية » ١٩٣٠ ٠ وروبرت فيرماوت « حركة المنهجيين الدينية وحركات الطبقة العاملة فى انجلترا ١٨٠٠ ـ ١٨٥٠ » ٩٣٧ ٠

(٢) أنظر فيما يتعلق بتاريخ الفكر السياسى الانجليزى البحث الممتاز بقلم روبرت موارى « دراسات في المفكرين السياسيين والاجتماعيين الانجليز في القرن التاسع عشر » مجلدان ١٩٢٩ ٠ وفيما يتصل بالحماسة الوطنية أنظر ايزمه وينجيفلد ستراتفورد «تاريخ الوطنية الانجليزية» ١٩١٣ المجلد الثانى الانجليزى ويقول وينجيفيلد فى كتاب تال ، هو « أسس الوطنية البريطانية والجنسية فى انجلترا » انه أعاد النظر في رأيه ٠

(٣) يطلق دبسى على الفترة من ١٨٢٥ الى ١٨٧٠ عهد البنتامية أو الفردية ، أنظر ف ٠ ديسي « محاضرات عن العلاقة بين القانون والرأى العام في انجلترا » ١٩٠٥ ص ٦٣ ٠

(٤) اتكنسون « جيرمى بتنام ، حياته وعمله » ١٩٠٥ ص ١٠٤ ـ ١٠٨ ٠

شرف فرنسيا ، وقد قبل ذلك محتفظا بولائه لبلاده الأصلية • وبرغم أنه أعلن أنه أمريكى أكثر منه انجليزى وفضل دستور الولايات المتحدة على الدستور البريطانى ، فانه كان فخورا بالمثل العليا البريطانية واللغة الانجليزية (١) • وقد دافع عن حق تقرير المصير القومى وعن تحرير المستعمرات • وذهب الى أن الأمم ينبغى أن تحكمها مبادىء أخلاقية، وكان أول من استخدم مصطلح « القانون الدولى » ، وان كان قد أشار الى أنه يسمى قانونا من باب الرمز فحسب لأنه لايملك نفس قوة القانون القومى• وكانت وجهات نظره فى نزع السلاح والأمن الجماعى والدبلوماسية السرية و « الاخاء الأوربى » بين الأمم هى وجهات نظر النزعة العالمية الحديثة • وقد اعترض بنتام على مصطلحات مثل « بلادى على حق أو خطأ » كما تبدو فى « سوء التصرف على نطاق واسع » الذى يأخذ أحيانا اسم « روح الفريق » فى الجنسية وأحيانا أخرى اسم « الوطنية الرفيعة » •

وقد وضعت هزيمة نابليون سنة ١٨١٥ حدا لصراع بين بريطانيا وفرنسا استمر أكثر من ١٢٦ سنة كان أكثر من نصفها سنوات حرب سافرة • وكانت بريطانيا قد حصلت فى هذه الفترة على امبراطورية شاسعة وصارت أكبر دولة صناعية عظمى • وفى خلال القرن أدت التغييرات التى حدثت فى التكوين الاجتماعى الى تحويل جذرى للبناء السياسى فى بلاد كثيرة • وفى بريطانيا وحدها حدثت هذه التغييرات دون ثورة ، وأثبت ذلك أن وحدتها القومية تقوم على أساس راسخ أكثر من الأمم الأخرى • وقد وفر عليها تاريخها السعيد كثيرا من المشاكل التى أدت فى أمم أخرى الى مناقشات لا نهاية لها • وحمتها حدودها التى صنعها البحر من الغزو ، ولم يكن هناك بريطانيون يعيشون فى مكان آخر تحت سيطرة أجنبية ، وباستثناء ارلندا لم تكن لديها صعوبات خطيرة مع أقليات قومية أو دينية • ولم يكن المفكرون السياسيون فى بريطانيا مضطرين الى التفكير فى حقوق الولاءات المتعارضة ، كما فى ألمانيا وايطاليا حيث كان التعصب المحلى يتصارع مع مشاعر الوحدة القومية الصاعدة ، كما لم يكونوا مضطرين الى تكريس وقت طويل فى التفكير فى مشكلة كيفية تهدئة الشقاق الاجتماعى كما فى فرنسا• ولم ينغمس الشعب البريطانى، على خلاف الأمم الأخرى ، فى التأملات حول طابعه القومى ورسالته

---

(١) المر • ل • كايزر « المشروع الاجتماعى العظيم ، دراسة عن بنتام فى علاقته بالنزعة القومية التحررية » ١٩٣٢ ص ٣٢ •

القومية (١) ، فمركزهم فى العالم كان يجعل مثل هذه التأملات تبدو بلا مسوغ • وكانت هناك وجهات نظر أساسية معينة فى الطابع القومى مسلم بها من الجميع تقريبا • ففى مواجهة العقلانية الفرنسية والميتافيزيقية الألمانية أكد البريطانيون حقيقة أنهم تجريبيون فى طريقتهم القوميه فى التفكير وأنهم ينفرون من المبادىء المجردة ويؤمنون بالادراك السليم والحلول الوسط • بيد أن مبدأ « أكبر قدر من السعادة » النفعى لم يكن بأى حال أقل تجريدا وابهاما من المذاهب الفرنسية الثورية فى الحرية والمساواة ، كما لم يكن الضمير المسيحى الذى تقوم عليه النزعة الانسانية البريطانية أقل تأصلا فى الافتراضات الميتافيزقية من النظم الأخلاقية الألمانية • وبرغم أن المحافظين والأحرار على السواء كانوا يخشون الديموقراطية تماما (٢) وبذلوا ما فى وسعهم لمنع تقدمها ، فان تحويل النظام الأرستقراطى الى حكم الطبقة الوسطى ، والتقدم التالى نحو الديموقراطية تما بسهولة مذهلة ، فقد اقتنعت الأمة كلها كنتيجة لنمو الثروة وتقدم الديموقراطية أن المصلحة الأولى هى السلام • بيد أن الزيادة التى لم يسبق لها مثيل فى الثروة صاحبها نمو فى البروليتاريا الصناعية التى تعيش فى ظروف بشعة • وكان مصدر وحى مجهودات روبرت أوين تفسيرا اشتراكيا للمذهب النفعى • ولكن التفسير السائد لهذا المذهب كانت تشيع فيه روح الرأسمالية الراضية عن نفسها التى كان لها تأثير كبير على الأفكار السائدة عن الطابع القومى البريطانى • ويقول لسلى ستيفنسن : ان الانسان عند بنتام هو « المواطن المحترم ما دام رجل

---

(١) نشر بولوير ليتون (لورد ليتون فيما بعد) كتابا فى ١٨٣٣ عن الطابع القومى الانجليزى « انجلترا والانجليز » يعد من الكتب الممتازة ويتضمن عدة ملاحظات سيكلوجية دقيقة . وقد أعيد طبعه بعد نشره مباشرة ، ولكن لم يطبع ثانية الا بعد واحد واربعين عاما . وهو يقول : « الرجل الانجليزى فى نظر نفسه هو محور كل شىء ــ مركز المجموعة الشمسية » . « فى بعض البلاد تعد المتعة هى الهدف الأسمى، وفى بعضهايعد المجد وتطلعات الفخر الدينوى هى الهدف ، ولكن عندنا المال هو أعظم الآلهة » . « فى البلاد الاخرى يعد الفقر من سوء الطالع ، أما عندنا فانه جريمة » والعيشة المحترمة على قدر كاف من الثراء هى الفضيلة العليا . ويسجل المؤلف بعض الملاحظات المهمة عن السيطرة الضخمة التى تمارسها الارستقراطية على عقل الامة وتأثيرها على طابع جميع الطبقات .

(٢) وحتى ماكولى داعية الحرية بالمعنى التحررى كتب أنه لا يوجد لديه أى شك في أن الحكم الديمقراطى في انجلترا ، كما في أى بلد آخر ، ستؤدى الى نهب الاغنياء بواسطة الفقراء والى تدمير الحرية والمدنية . أنظر آرثر بريان « ماكولى » ١٩٣٢ ص ١٤٤ .

الشرطة بالمرصاد • ومثل هذا الرجل يغلب حقا أن يعتقد أن الأمانة هي خير سياسة ، ولديه قدر كاف من العطف ليكون رفيقا بأمه العجوز ويعاون صديقا في ضيق ، ولكن الحاجه الى السلوك السامي والرومانسي نادرا ما تخطر له على بال ، ويبدو له العمل البطولي استثناء لا يختلف كثيرا عن الحماقة » (١) • وبصفة خاصة كان معظم النفعيين يعتقدون أن كل حكومة هي في ذاتها شر كبير واسع النطاق • وكانت هذه العقلية هي ما هاجمه الرومانسيون بعنف •

وقد بدا وردزوورث وكولريدج وساوثي جميعا دعاة متحمسين للثورة الفرنسية ، بل ان وردزوورث أراد أن يكون نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية (٢) • وعندما نشبت الحرب مع فرنسا كانت عواطفهم في الجانب الفرنسي ، ولكن الاتجاه تغير عندما صار اليعاقبة ونابليون أكثر عدوانية واضطهادا بصورة متزايدة • وكانت الحرب في اسبانيا وموجة التمرد القومي الصاعدة ضد السيطرة الفرنسية علامة على مغزى الجنسية كقوة تعمل للتحرير • وأعلن وردزوورث رغبته في اعادة بناء أوربا على أساس مبدأ الجنسية ، وبخاصة فيما يتصل بالوحدة القومية في ايطاليا وألمانيا • « ان الأقطار الصغيرة يجب أن تختفي وتندمج في أمم كبيرة ولغات منتشرة على نطاق واسع » • وفي ذلك الوقت ربط الجنسية بالحرية ، ولكن في فترة رد الفعل بعد الحرب عدل الشاعر عن هذه الافكار وصار معارضا لكل اصلاح • وصار ساوثي وكولريدج أيضا من غلاة المحافظين • ووقع كولريدج تحت تأثير قوى من الصوفية والميتافيزيقية الالمانية وصار من أنصار ألمانيا • وفي ذلك الوقت كان الرومانسيون قد صاروا يكرهون التصنيع والنفعية والتحـ ـة وأخذوا يشيدون بالعهود الفيودالية القديمة والأرستقراطية من سادة الأراضي والريفيين البسطاء • وقد تأثر ساوثي وكولريدج تأثرا عميقا بمعاناة العمال الصناعيين وأسهموا في ايقاظ الوعي الاجتماعي • وبدا لهما أن استعمار الامبراطورية بواسطة العمال البريطانيين المتعطلين مهمة ملحة ، وبهذه الطريقة ساعدا أيضا على تمهيد السبيل للامبريالية الجديدة • ومنذ ١٨١٢ كانت تراود ساوثي رؤيا

---

(١) لزلي ستيفن «النفعيون الانجليز» ١٩٠٠ المجلد ص ٢١٤ •

(٢) أنظر فيما يتصل بالرومانسيين كرين برينتون « الافكار السياسية لدى الرومانسيين الانجليز » ١٩٢٦ • والفرد كوبان « بيرك والتمرد على القرن الثامن عشر، دراسة في التفكير السياسي والاجتماعي لدى بيرك ووردزوورث وكولريدج وساوثي » ١٩٢٩ • ومواري ص ١٦١ • وجورج برانديز « التيارات الرئيسية في أدب القرن التاسع عشر » ١٩٠١ •

لكومنولث الأمم البريطانية • وكان لفكرة بيرك عن الدولة والأمة بوصفهما كلا عضويا نفوذ كبير فى تفكيرهما • وهناك تقابل وثيق بين نمو هذه المدرسة والرومانسية الألمانية، ولكن هناك كتاب انجليز اخرون، مثل : بيرون وشيللى ، ظلوا على اخلاصهم للروح الثورية الأصيلة فى الرومانسيه •

وقد بلغ الفكر الرومانسى ذروة قوته وبهائه فى شخصية توماس كارلايل • وكثير من اتجاهاته الاجتماعية والسياسية مشتركة بين معظم الرومانسيين ، مثل كراهية المادية والنفعية ، والنقد المرير للانجازات الحديثة والعطف على الماضى • وقد تصور كارلايل المجتمع ككائن عضوى ، ولكنه ظل مع ذلك فرديا ، على الأقل فيما يتصل « بالرجل العظيم » ، والرجال الذين ولدوا زعماء ، فى حين كانت فكرته عن الجماهير سيئة جدا • وفى عدة مرات عرض مذهب « الحق للقوة » (١) • وكان أول كاتب حديث كبير يشيد بالبطل ، بالسوبرمان ، ومؤلفاته عن عبادة البطولة ، عن فردريك الاكبر وكروموبل ، وضحت مذهبه • وكان يعتقد أن الجماهير تتوق الى الزعيم العظيم ، ولكن هذا الزعيم لا يمكن اختياره بواسطة أصوات الأغلبية • وكانت الحرية والبرلمان والديموقراطية موضع سخريته ، وعندما منح دزرائيلى فى ١٨٦٧ حق الانتخاب للعمال الصناعيين بدت له هذه الخطوة الجريئة مثل « اطلاق النار على نياجرا » • وفى ١٨٥٠ طالب بتأليف مجلس وزراء تنفيذى من أحكم الناس فى الشعب البريطانى تحت قيادة دكتاتور يطرح البرلمان جانبا ، اذا تطلب الأمر ، ويعالج المشاكل القومية بصورة حاسمة ، وبخاصة البطالة والهجرة • وبداله سير روبرت بيل الرجل الصالح للدكتاتورية ، ولكنه مات فى هذا الوقت بالذات وتأثر كارلايل وغرق فى يأس كبير • وبعد ذلك بوقت قصير أعرب عن أمله فى أن يكون ملوك بريطانيا فى المستقبل من نوع فردريك الاكبر ، الذى كان حاكما مطلقا (٢) • وكان كالاريل شديد الادراك للشرور الاجتماعية البشعة فى عهده وطالب بتدخل الدولة لتحسين حال العمال ، عن طريق الهجرة المنظمة الى الأجزاء المتخلفة فى الامبراطورية أساسا • ولكنه أعرب عن كراهيته للنزعة الانسانية ، مثل وردزوورث التى أدت الى تحرير العبيد وشجعت على اصلاح القانون الجنائى والسجون • وذهب الى أن العبيد يجب أن يضربوا بالسياط

(١) جون نيكول « كارلايل » ١٨٩٢ ص ١٩٩ • وجون م روبرتسون « الانسانيون المحدثون » ١٨٩٥ ص ١٩ •

(٢) أمرى نيف « كارلايل » ١٩٣٢ ص ٢٣٢ و ٢٤٢ •

ويحكموا بيد حديدية ، بل كان يريد اخضاع العبيد المحررين لعبودية من نوع جديد • وكان وصفه لزنوج جامايكا المتمردين والهندوس والشعب الارلنـدى بازدراء كبـير ، وبدا له التشيكيون الذين قابلهم فى رحلة فى بوهيميا أسوأ حتى من الارلنديين • ولم تثر فيه الحركة الايطالية فى طلب الحرية والوحدة أيضا سوى الاستهزاء ، وان كان قد أحب مازينى كرجل•

وكانت صيحة « الجنسيات المضطهدة » بالنسبة له مجـرد رياء • فأولئك الذين سمحوا لأنفسهم بأن يخضعوا يستحقون مصيرهم• فالطبيعة قد جعلت مصيرهم العبودية ، وكان كثير العطف على الحكم الاوتوقراطى الروسى الذى اضطهد البولنديين والجنسيات الأخرى بقسوة ، وبدت له سياسة روسيا الطريقة الصحيحة لحكم البرابرة • وكان كارلايل متحمسا للأدب الألمانى والفلسفة الألمانية وأغرق فى تمجيد الجنس التيوتونى الذى اعتبره متفوقا بكثير على السلت • وفى ١٨٧٠ عندما انتشر فى انجلترا الشعور بالعطف على فرنسا لهزيمتها ، دافع كارلايل بقوة عن قضـية ألمانيا وسياسة بسمارك • ولكن برغم اعجاب كارلايل بالأبطال الحربيين فانه كان يكره الحرب ، وقد ندد بالسياسة البريطانية التى أدت الى حرب القرم وأعرب عن تحبيذه الكامل « لمؤتمر السلام بلندن » فى ١٨٥١ (١)• بيد أننا يجب أن نشـير الى أنه برغم تنـديده العام الشديد بالحركات الانسانية فانه قام بأعمال خيرية شخصية كثيرة • ويغلب أن عبادة القوة وحكمه القاسى على معظم عظماء الرجال فى عهده وما الى ذلك من شذوذ ترجع الى حد كبير الى مزاجه العصبى وسوء الهضم المزمن وتلك الحساسية الشديدة التى يتميز بها كثير من الرومانسيين •

ولم يكن كارلايل من دعاة القوميـة برغم ما كان لديه من تحيزات قومية وعنصرية ، ولكن لا شك أن فلسفته ساعدت على ضـعف الروح التحررية والانسانية وانتشار الرغبة فى دكتاتورية الأبطال الأقوياء • وفى بريطانيا حالت التقاليد القومية ونمو الديموقراطية دون نمو هـذه الاتجاهات • ولـكن تعاليم كارلايل اسـتخدمت فى بلاد أخرى بواسـطة دعاة القومية فى صياغة أيديولوجيتهم (٢) •

(١) لخص جـاك باردو موقف كارلايل وكثير من الكتاب الانجليز الآخرين من موضوع الحرب والهيبة القومية فى «Essai d'une psychologie de l'Angleterre Contemporaine, Les crises belliqueuses» ١٩٠٦ ص ١٧٩ و ٢١١ • وقد وصف تأثير الرومانسيين الالمان على كارلايل بتفصيل ليون كللنر فى «Die englische Literatur der neuesten zeit» ١٩٢١ ص ٨٣ •

(٢) فى الوقت الذى كان الفاشيون والنازيون يستعدون فيه للاسـتيلاء على السلطة حدث اهتمام كبير جدا بكارلايل فى ايطاليا والمانيا •

ويجب دراسة نمو الفكر فيما يتصل برسالة بريطانيا فى العالم وبالعلاقات الدولية بصفة عامة على ضوء السياسة الخارجيـة التى ظلت تسيطر عليها مدة طويلة أفكار كاننج وبالمرستون . وكان هدف هـذه السياسة هو المحافظة على أمن بريطانيا ومركزها بوصفها الأمة الأولى عن طريق مبدأ توازن القوى التقليدى . وأدى ذلك الى تورط بريطانيا فى عداء مستمر مع الاوتوقراطيات الأوربية الكبرى ، والى سياسة قصـد بها الحد من توسع هـذه الدول وتحرير الامم الصـغرى من سيطرتهـا وضغطها . ومن هذه الناحية كانت سياسة بالمرستون متفقة الى حد مـا مع تحررية عصره وتطلعات الشعوب التى تسعى فى طريق القومية، وأشاد بها الأحرار فى كثير من البلاد . بيد أن هدف بالمرستون لم يكن أساسا مساعدة الجنسية والحرية فى الخارج بل تأكيد هيبة بريطانيا . ومن ثم فان سياسته كانت تنطوى على عنصر قوى من النزعة القومية ، وان لم تهدف الى التوسع الاقليمى أو المجد العسكرى . وكانت نتيجتها حرب القرم ، وكثيرا ما ورطت بريطانيا فى توترات دوليـة خطيرة ودفعتها الى حافة الحرب مع فرنسا وبروسيا وأمريكا . وكان أقوى خصوم هـذه السياسة هما كوبدن وبرايت .

وقد هوجمت أفكار ريشارد كوبدن وعمله من جانب أنصار الحماية ودعاة القومية والاشتراكيين بحيث يبدو أن جيلنا يفسرها الى حد كبير على أنها أيديولوجية فات أوانها قصـد بهـا خدمة مصالح الرأسـماليين البريطانيين (١) فى عهده . ولكن برغم أن كوبدن كان يشايع فى الآراء السائدة المدرسة التحررية بين الاقتصاديين من أن مصالح جميع الطبقات متوافقة وأن أى تدخل فى السير الطبيعى للعرض والطلب خطأ ، فان دافعه الأساسى لم يكن العطف على الرأسمالية . فهو لم يكن أساسا من رجال الاقتصاد الرأسمالى ، كما لم يكن داعية لحكم طبقة مثل بيرك وماركس . فقد كان أولا عالميا متحمسا وداعية للسلام وحسن التفاهم بين الأمم ، ويرى أن ذلك لا يمكن أن يتم الا بواسطة حرية التجارة (٢) . وكان كوبدن يعتبر نفسه كما قال هو نفسه مسيحيا وعالميا أكثر منه بريطانيا ، وان كان لا يمكن وصفه قط بعدم المبالاة نحو أمته . وتنطوى مراسلاته وكتاباته

---

(١) قال ماركس فى خطاب عن حرية التجارة فى بروكسل ١٨٤٩ ان الشعب يعتبر دعاة حرية التجارة « أشد أعدائه وأكثر المنافقين قحة » .

(٢) ثبت ذلك بصورة حاسمة في الكتاب الممتاز الذى كتبه ـ . أ هويسون « كوبدون ، الرجل الدولى » ١٩١٩ . أنظر كذلك ج . مورلى « حيـاة كوبدون » الطبعة العاشرة ١٩٠٣ .

على هجمات كثيرة على أمته (١) ، بل انه كتب أن بلاده فى الحروب الخارجية « أكثر أمة تحت الشمس تتسم بالعدوانية والميل الى المشاحنة والنزعة الحربية الدموية » ، وكان مثل كل تحررى حقيقى شديد الريبة فى الدولة لذاتها • فالدولة تعنى تراكم سلطة متزايدة فى أيد قليلة وما ينطوى على ذلك من اغراء لا يقاوم لسوء استخدام هذه السلطة فى الاضطهاد ، وتضليل الأفراد وافسادهم فيبعثرون حياتهم ومالهم وتتورط الأمم فى الحروب والعداوات والغيرة المستديمة • ولهذا السبب وضع قاعدة : « أقل قدر ممكن من الاتصال بين الحكومات ، وأكثر صلات ممكنة بين أمم العالم » • وفى سنة ١٨٥٩ كتب : « انى يائس تماما من تحقيق السلام والوئام عن طريق جهود الحكومات والدبلوماسيين • ان شعبى الأمتين (فرنسا وبريطانيا) يجب أن يزداد الاعتماد المتبادل بينهما على تزويد كل منهما الآخر بحاجاته • وليس هناك سبيل آخر لمواجهة العداء اللغوى والجنسى • أن أسلوب الله نفسه يؤدى الى (وفاق ودى) ، وليست هناك خطة أخرى تستحق التشجيع » • وكان هذا هو الدافع الذى حفزه الى بدء المعاهدة التجارية مع فرنسا وابرامها فى ١٨٦٠ ، وقد كان لها فعلا أثر طيب جدا على العلاقات بين الأمتين •

وبرغم ايمان كوبدن بالسلام وقيمته التى لا تقدر فانه لم يكن من رجال « السلام بأى ثمن » • فهو لم يكتف بتبرير الحروب التى تثار دفاعا عن النفس ، بل انه حبذ أيضا فى حالات نادرة حتى الحروب التى يقصد بها حماية أمة أضعف أو تحرير شعب مضطهد • ولكنه عارض بشدة الاتجاه الشعبى الى تبنى قضية كل أمة مضطهدة وتعريض السلام للخطر بقذف الاهانات فى وجه الخصوم أو تشجيع التمردات القومية والثورات • وقد ندد أكثر من ذلك بسياسة بالمرستون القائمة على توازن القوى والهيبة القومية متنكرة فى ثياب حماية الجنسيات التى تكافح من أجل الحرية • وقد ذهب أحيانا الى حد الاعراب عن دهشته كيف أن الناس العاديين يفضلون حكومة سيئة من أبناء جنسهم على حكومة أفضل بواسطة أجانب • وكتب يقول : « ان الوطنية أو الجنسية صفة غريزية تحرق أحيانا ألمع ما فى العقول البدائية التى لا تفكر ، ولا تتناسب تعبيراتها مع قيمة الممتلكات التى يدافع عنها أو الغرض المراد تحقيقه » •

وفى رأى كوبدن أن اهتمام بريطانيا يجب أن يتجه أولا الى جعل

---

(١) ان عادة الامريكيين فى المبالغة فى الاشادة بالذات قوميا مثلا أثارت « دماءه البريطانية » ودفعته الى الدفاع بحرارة عن الانجازات البريطانية • مورلى ص ٣٣ •

شعوب امبراطوريتها حرة وسعيدة • وأراد أن يعطى « ارلندا للارلنديين » بتحطيم الضياع الكبرى فى أيدى الملاك الانجليز ونقل الأرض الى أيدى الفلاحين(١) • ولكندا أن تقرر بنفسها هل تبقى فى الامبراطورية أو تنضم الى الولايات المتحدة • وقد أثار ضرب كانتون بالمدافع والحرب مع الصين غضبا شديدا لدى كوبدن وأعلن أن المصلحة المركانتيلية هى المسئولة عن ذلك • وبدا له الحكم البريطانى فى الهند أمرا غير طبيعى وينطوى على اضطهاد ومصيره الفشل • وكان يخشى أنه لا بد أن يفسد الطابع القومى كما أفسد الرومان ودمرهم غزوهم وسيطرتهم على امبراطورية عالمية •

والواقع أن معيار كوبدن النهائى فى السياسة كان أخلاقيا • فكان يحكم على كل اجراء أولا تبعا لما اذا كان سيثير غرائز العدوان والاضطهاد والقسوة فى الطبيعة البشرية أو يخمدها • وكان فى مبدأ الأمر يرى أن الارستقراطية أساسا هى « التى استغلت الروح العدوانية فى الجيش الانجليزى لأغراضها الخاصة» وأن أفرادها «يستعرضون عطفهم على شكاوى الأجانب بدلا من أن يقوموا بأعمال الحرية فى الداخل »• ولكن حرب القرم أثبتت له أن حمى الحرب يمكن أن تسيطر على الأمة كلها (٢) • فقد كانت جميع الطبقات ، وبخاصة تلك التى تسمى الطبقة الوسطى المحترمة ، فى حالة هياج جنونى وفى « نوبة شيطانية » • وفى عام ١٨٥٧ نشبت الحرب الثانية مع الصين واندلعت حركة التمرد الهندية • وعندما انتصر كوبدن فى مجلس العموم باصدار قرار يلوم الحكومة فى سياستها نحو الهند ، التجأ بالمرستون الى الناخبين • وفى الانتخابات تعرض كوبدن

---

(١) فيما يتصل بموقف كوبد من ارلندا أنظر مورلى ص ٣٨٨ و ٥٥٢ •

(٢) لقد أثبت كنجسلى مارتن بشكل حاسم ان نشوب حرب القرم لم يكن السبب الاساسى فيه الحكومتين البريطانية والروسية اللتين بذلتا جهودا كبيرة لتجنبها ، ولا تصادم المصالح بصورة لا يمكن التوفيق بينها ، بل ضغط الرأى العام الذى كان تأثرا ضد القيصر بسبب سياسته الاضطهادية والمناهضة للديمقراطية بصفة عامة . وقد كان « لتوازن القوى » طبعا دوره أيضا ، واستغل بالمرستون اتجاه الرأى العام لمجده الشخصى وفى معارضة الاتجاه المسالم تماما من جانب رئيس الوزراء لورد أبردين وزملائه ، ولكن العامل الحاسم كان انفجار التعصب العام لدى الشعب ضد روسيا مضطهدة الحرية والعطف على « الاتراك المناضلين » الذين لم تكن معاملتهم للشعوب الخاضعة بالتأكيد أقل اضطهادا من معاملة القيصر . وعندما نشبت الحرب اشاد كتاب مشهورين مثل تنيسون وكنجسلى وكثير من رجال الكنيسة بالحرب ومجدوها باعتبارها بركة ، وعلى أنها تبعث روح البطولة وتنقذ الامة من التحلل بسبب النزعة التجارية الشريرة السائدة ، وعلاج ضد « سرطان السلام الذى دام طويلا جدا جدا » أنظر كنجسكى مارتن « انتصار لورد بالمرستون » ١٩٢٤ .

وأصدقاؤه لهزيمة ماحقه ـ فقد جاءت استفتاء شعبيا لبالمرستون الذى كان أكثر من يتمتع بالشعبية فى البلاد لأنه استطاع ، كما قال أحد الكتاب الحديثين ، أن يمثل الأسد البريطانى • وحتى منشستر ، مركز مصالح حرية التجارة ، تخلت عن كوبدن فى جهوده من أجل سياسة سلام • وأظهرت برمنجهام ، موطن راديكالية منتصف العهد الفكتورى الصاعدة ، أنها أكثر اخلاصا للمبادىء الديموقراطية • ووجد كوبدن أن ذلك يرجع الى أن صناعة الأدوات المعدنية « يقوم بها صغار أصحاب المصانع والحرفيون فى حين يؤلف الرأسماليون الكبار فى منشستر أرستقراطية تشربت « بالتعاظم الارستقراطى » والتحيزات المضادة للديمقراطية (ص ١٩٤) • ويقول هوبسون(ص ٣٩٤) : ان اقتناع كوبدن بافضلية تفوق الطبقة الوسطى « تغير بطريقة محسوسة فى السنوات المتأخرة من حياته بسبب خيبة الأمل فى المشاعر الحربية والامبريالية التى أبداها كثيرون من أنصاره فى حركة « حرية التجارة » من ناحية ، وكذلك بسبب تزايد ادراكه لأن توسيع حق الانتخاب ، الذى كرس له صديقه برايت جهوده ، حق ومفيد » • وصار أكثر أملا فى الادراك السليم للطبقة العاملة واتجاهاتها السلمية أكثر من القطاعات الاخرى فى المجتمع • بل انه كتب فى ١٨٦١ : « انى لأعجب كيف يحتفظ الشعب العامل بهذا الهدوء فى مواجهة الاثارة والاهانات الموجهة اليه • آلا يوجد بينهم سبارتكوس يقود تمرد طبقة العبيد ضد معذبيهم السياسيين ؟ »

وفى حرب الانفصال الأمريكية وقف ، بعد تردد قصير ، الى جانب الشمال الذى كان يدعو الى الغاء الرق ، برغم أن المصلحة الاقتصادية لتجارة القطن البريطانية وقضية حرية التجارة ومبدأ تقرير المصير كانت كلها تدفعه الى جانب الجنوب • وهذا يثبت مرة أخرى أن المعايير الأخلاقية لا الاقتصادية ، كان أثرها حاسما فى تفكير كوبدن • وفى هذه الحرب عارض بقوة المشاعر المناهضة لأمريكا السائدة بين الطبقات الوسطى والعليا وعمل من أجل التحكيم واصلاح قانون الأمم البحرى •

ويعد فكر كوبدن أكمل نموذج للتحررية • فاتجاهه نحو السياسة الدولية كان يقوم على عدم التدخل ، أو الانعزالية ، ونزع السلاح وتنمية القانون الدولى والتحكيم . بيد أننا ينبغى أن نتذكر ان سياسة الانعزالية كان لها ما يبررها فى ذلك الوقت أكثر من الوقت الحاضر . فلم يكن أمن بريطانيا قد صار معرضا بعد للخطر بواسطة الغواصات والطائرات

وظهور الدول القومية الشمولية العدوانية · وكانت اللبريالية صاعدة فى كل مكان ، وكان من الممكن أن يأمل المرء فى أن تتشرب الامم تدريجيا بحسن النية بعضها تجاه بعض · ولم تساعد روح كوبدن وبرايت على تشكيل حزب الأحرار وتمهيد السبيل لانجازات جلادستون فحسب ، بل انها أثرت فى الأحزاب الاخرى أيضا وبذلك اسهمت فى نمو آراء وتطلعات مشتركة بين الأمة كلها ·

وقد رفع جلاد ستون ودزرائيلى الى مصاف الأوثان القومية بواسطة المعجبين بهما وقبلت قطاعات كبرى من الأمة هذا التبجيل · ومن ثم فاننا نستطيع أن نعتبر أفكارهما ممثلة للعقلية القوميه فى عهدهما ·

وبرغم الاختلاف الكبير بين شخصيتهما وبين فلسفتيهما فانهلايوجد تعارض كبير بين المبادىء الأساسية لسياستهما العملية (١) · ففى فكر جلادستون كانت المعايير الأساسية للمسيحية تحتل أسمى مركز · فقد كان يؤمن ، مثل ميلتون ، برسالة انجلترا النبيلة ، وكثيرا ماوضع الاخاء الانسانى والعدالة فوق اعتبارات القوة والهيبة ، وبخاصة فى محاولة رفع المظالم القديمة التى تعرضت لها ارلندا · وكان دزرائيلى تقليديا أكثر ، ومع ذلك فقد كان هو الذى منح عمال المدن حق الانتخاب وأتاح لهم قدرا كبيرا من الحقوق الاجتماعية التى تهدف الى خلق أمة واحدة من الأمتين اللتين وصفهما فى احدى قصصه · وقد ساعد العنصر الرومانسى لديه على اقناعه بأن الخيال هو الذى يحكم الجنس البشرى وليس العقل البارد ، اذ ظهرت لديه كمؤلف روائى عدة سمات رومانسية ، ولكنه كسياسى كان أحرص فىواقعيته من ان ينغمس فى أية تجارب رومانسية · وقد أظهر جلادستون أيضا قدرة ضخمة على الخيال من بعض النواحى ، وان كان بشكل مختلف عن دزرائيلى · فقد كان قمينا باستمرار بأن يشتعل حماسة من أجل قضية الجنسيات المضطهدة · أما دزرائيلى فكان يدرك أكثر المخاطر التى تنطوى عليها الجنسية ، وقد تحدث فى ١٨٤٥

---

(١) أنظر المقابلة بين حياتى رجلى السياسة بقلم د · سومرفل « درزائيلى وجلادستون » ١٩٢٠ · وكان كلاهما شديدى الاهتمام فى ميدان السياسة الدولية بالمحافظة على السلام ، وان كانا قداختلفا شيئا ما فىأساليبهما · أنظر أقوالجلادستون فيما يتصل بوجهات نظره فى كتاب ج· مورلى «حياة جلادستون» ١٩٠٥ ص ٩٥٠ الجزء الاول و ص ١٨٧ الجزء الثانى ، وآراء دزرائيلىفى كتاب هـ · أ · ايجرتون « سياسة بريطانيا الخارجيه ي أوروبا » ١٩١٨ ص ٢٧٨ · وي كتاب والتر سيشل «زرائيلى» ١٩٠٤ ص ١٩٩ و ٢٠٩ و ٢٢٣ ·

بسخرية عن « مبدأ الجنسية العاطفى الحديث » • وكان اعتقاده أن السمة السائدة فى السيكلوجية القومية الانجليزية منذ حركة الاصلاح الدينى هى تراكم الثروة الذى أداته الصناعة • والحرية وحكم القانون قيمتها الاساسية عند الشعب الانجليزى انهما يوفران الظروف لاقتناء الثروة ــ وهى وجهة نظر ليس فيها شىء من الرومانسية مطلقا .

وقد ثبت أن الفردية المتطرفة التى اعتنقها معظم النفعيين لا يمكن الدفاع عنها فى المسائل الاجتماعية وفيما يتعلق بالامبراطورية • وقد تعدلت أكثر فأكثر بصعود اتجاهين جديدين : الاشتراكية والامبريالية • وقد أشرنا من قبل الى علاقتهما بمشاكل الجنسية • بيد أن الامبريالية مصطلح غامض تماما • ولا نجدها فى صورتها العدوانية لدى المفكرين الانجليز المبرزين • فبريطانيا الحديثة لم تنتج أية فلسفة عسكرية أو قومية يمكن القول بأنها أثرت فى الأيديولوجية القومية • فامبريالية دزرائيلى وديلك وشيللى وفرود وكثيرين غيرهم كانت مجرد سعى لدعم الامبراطورية وتنميتها . وكانت امبريالية رودس وتشمبرلين تنطوى فعلا على التوسع ، ولكن الأفكار التى قامت عليها لا تمكن مناقشتها الا فى ضوء سياسة هذين السياسيين بأكملها ، وهذا خارج نطاق هذا الفصل(١)

٢٠ ــ نمو الأيديولوجية القومية الفرنسية منذ الثورة

دارت فى فرنسا ، طوال القرن التاسع عشر وبعده ، مناقشات مستمرة حول مدى تحقق الأهداف التى تنطوى عليها فكرة الأمة بواسطة الثورة التطورات السياسية اللاحقة (٢) • ففى أيديولوجية الثورة كانت الأمة مجتمعا مترابطا داخل حدود طبيعية ويقوم على الحرية والمساواة والاخاء ويتسم بتضامن قوى ورسالته أن ينشر هذه المثل العليا فى العالم • وكان الاعتقاد الراسخ أن الأمة الحرة تستطيع أن تكون

---

(١) أنظر مع ذلك العرض الذى جاء فى كتابى «Nationalgeist und politik» المجلد الاول ص ٣٠ و ٢٤٠ ، وكذلك الفصل الرابع (١٣) من هذا الكتاب .

(٢) أنظر فيما يتصل بالفصل التالى كله كتاب أ. فاجيه «Politiques et Moralistes au 19e siècle» ٣ مجلدات وهنرى ميشيل . «L'idée de l'Etat, essai critique sur l'histoire de théories sociales et politiques en France depuis la Révolution

١٨٩٦ • وروجر سولتاو « الفكر السياسي الفرنسي في القرن التاسع عشر » ١٩٣١ • وفيما يتصل بالتقليديين أنظر ألفونسي روش « أفكار التقليديين فى فرنسا من ريفال الى موراض » ١٩٢٧ • و ج • براندير « التيارات الرييسيه في أدب القرن التاسع عشر » ١٩٠١ • وهارولد لاسكى « السلطة في الدونة الحديثة » ١٩١٩ •

ارادة هــامة حقيقيــة تمثــل ارادة جميع المواطنين وتضــمن ســعادتهم وفضيلتهم . ولكن سير الأحداث خيب أمل كثيرين من أنصار الثورة . فأعلن ل . كارنو ، اليعقوبى الوطنى ، فى ١٨٨٤ أنه لا توجد فى فرنسا روح قومية كما فى انجلترا ولا اســتعداد لتضحية بالمصــالح الخاصة فى سبيل المصلحة العامة . وسار المدافعون عن النظام القديم شوطا أبعــد ونبذوا الفكرة الثورية عن الأمة بأكملها . وعلم كونت جوزيف دى مايستر أن هناك « عقلا قوميا » متفــوقا بكثير على العقل الفــردى ، وانه يتألف من « العقــائد القوميــة » و « والتحيزات المفيــدة » . والعقــل البشرى لا يستطيع ابتكار أنظمة سياسية صالحة . والعــوامل الفعالة الباقيــة الوحيدة هى الحقوق والعادات القديمة التى يكشــفها الله عن طريــق الابطال والانبياء والملوك والمشرعين والتى تتأصــل جذورها فى طابــع الشعب . ومن الافكار المفضلة لديه ان الله يستخدم الشر فى خـــلق الخير ، بل انه يشيد بالجلاد بوصفه أداة العــدالة الســماوية . وقــد وضعت الدساتير الثورية للانسان بصفة عامة ، ولكن الانسان المجرد لا وجود له . فالانسان دائما فرد من أمة معينة والدستور الحقيقى للأمة يتحدد بتقاليدها التى تتجســد أســاسا فى الأرستقراطية . بل ان هذا المؤلف يقول : « ما هى الأمة ؟ انها الحاكم والنبلاء » .

وكان من أكثر دعاة الفكر التحررى تفوقا مدام دى ستايل(١) . ولم يكن دورها العظيم فى مشكلة الجنسية فى ميدان النظرية بل فى ميدان علم النفس . فكثير من كتاباتها تتضمن ملاحظات قيمة عن الســمات القومية وأرادت بذلك أن تشجع نمو روح أوربية فوق القومية . وأشهر أعمالها هو كتابها عن ألمانيا الذى نشر لأول مرة فى ١٨١٣ . وقد عرضت فيه صورة مثالية للمدنية الألمانية التى كانت فى ذلك الوقت فى عصرها الذهبى، وقارنت بينها وبين الروح الفرنسية، وسبقت بذلك الى نظريتين فى «الروح الكلاسيكية» .وكانت أشد رغبات مدام دى ستايل هى أن تقدر كلا من الأمتين : الفرنسية والألمانية الصفات الطيبة فى طابع الأخــرى وأن تندمج معــرفة الفرنســيين بالعــالم وذوقهم ووضوحهم مع العمــق والاخلاص والحماسة الألمانية .

وقد تعرض دستور فرنسا ابان السنوات المائة التى أعقبت سقوط نابليون خمســة تغيرات عنيفــة جذرية ، دورات من الثورة وعودة النظام القديم ، وبدت البلاد عدة مرات على شفا الثورة أو الدكتــاتورية . وبين

---

(١) البرت سوريل «Mme de Staël» ١٨٩٠ . وفاجيه وبراندبز « المرجع السابق » .

هذه الأحداث عوق النزاع الداخلى دعم أى نظام للحكم وكثيرا ما أدى الى عدم استقرار الحكومات • وكانت جميع هذه الثورات من صنع أقليات صغيرة • أما الأغلبية العظمى من الشعب ، ولا سيما الفلاحين الذين كانوا أكثر من استفاد من انجازات الثورة العظيمة ، فقد أظهروا عقلية محافظة تماما • وعندما أنشئت « الجمهورية الثالثة » فى ١٨٧١ كان للملكيين أغلبية فى الجمعية الوطنية ، ولكنهم كانوا منقسمين الى بونابرتيين وأنصار أسرة البوربون وأولئك الذين أرادوا ملكا من أسرة أورليانز • وكان الجمهوريون أيضا منقسمين الى أحزاب متعددة • وفى الانتخابات التالية سرعان ما حصل الجمهوريون على أغلبية الأصوات ، وان كان السبب فى الغالب هو أن قسما كبيرا من الناخبين لم يدلوا بأصواتهم وان النساء لم تكن لهن أصوات • وقد حصلت الأحزاب الجمهورية أولا على الأغلبية بين أصوات الناخبين فى ١٨٩٣ ، وحصل اليسار على أول أغلبية فى مقاعد البرلمان ١٩٠٢ •

وفى ميدان الشئون الخارجية ظلت فرنسا تتمسك مدة طويلة بمذهب القوة العسكرية والمجد • وبعد هزيمة نابليون بذل الحلفاء عناية كبيرة فى تجنب ما قد يسىء الى المشاعر القومية الفرنسية فى تسويات الصلح (١)• ومع ذلك ، وبرغم مماعاناه الشعب تحت حكم نابليون ، فان اسمه لم يفقد سلطته السحرية علىعقول قطاع اوسع من الشعب• فقد أحرزت الأسطورة النابليونية التى تمثلالامبراطور باعتباره الصديقالوحيد للشعب شعبية ضخمة (٢) • واستمر الجمهوريون فى التقاليد اليعقوبية الخاصة بالحدود الطبيعية ورسالة فرنسا فى تحرير الأمم الأخرى من طغاتها والعداء نحو انجلترا وروسيا والنمسا • وبدا فى أيديولوجيتهم خليط غريب من الاشادة بالديموقراطية والسلام والمدنية ، والنزعة القومية العسكرية المقنعة فى صورة رسالة قومية للسيطرة على العالم (٣) • وقد وجه تيير فى ١٨٥٣ نظر ناساوسينيور الى : « الحاجة المتأصلة فى الفرنسيين الى الاثارة وكيف تعبر عن نفسها طوالالتاريخ الفرنسى منحروب ايطاليا الى حروب لويس الرابع عشر ونابليون ، مكتفية أحيانا بالتعبير فى صراع الأفكار ولكنها عادة تتطلب تعبيرا نهائيا فى الحرب فعلا » ، وأضاف أن الحكم

---

(١) ك • ويبستر «السياسة الخارجية لكاسلرى» ١٩٢٥ •

(٢) البير جيرار «تأملات فى الاسطورة النابليونية» ١٩٢٤ • وجولز ديكامب «Sur la legende de Napoléon» ١٩٣١ •

(٣) سولتاو ص ٩٧ و ١٠٨ و ١٢١ و ١٢٦ • وهـ • سيتوارت وب • ديجاردان الوطنية الفرنسية فى القرن التاسع عشر (١٨١٤ – ١٨٣٣) ١٩٢٣ ص ٢٥٤ •

المطلق « للامبراطورية الثانية »، وقد جاء عقب الصراعات البرلمانية ، جعل الأمر يتطلب حربا جديدة . ولم يكتف جيزو فى حديث آخر مع سينيور بتأييد تحليل تيير ، بل أعلن أنه « فى حين تكره الامم الأخرى الحرب ، تحبها فرنسا فعلا . وأنه لمن الممتع أن نرى فرنسا وهى مضطرة الى رفض الحرب ، ولكنها تفعل ذلك دائما بأسف. انها تخضع للسلام بنفس النفور الذى تخضعون (الانجليز) به للحرب. ان سياسة السلام توصف، وهى بمعنى ما كذلك ، بأنها ضد القومية » .

بيد أن عصر « الملكية البورجوازية » والامبراطورية الثانية تميزت أيضا بصعود القوى العاملة من أجل السلام . فقد قويت المعارضة ضد نابليون الثالث ، ووجه بعض السياسيين من ذوى النفوذ نقدا شديدا لسياسة الامبراطور الخارجية ولنزوعه العسكرى . وهاجم مؤرخون كبار الأسطورة النابليونية وحاولوا اظهار كيف دمر نابليون فرنسا بسياسته العدوانية .وكان أعظم العلماء والكتاب الفرنسيين متحمسين بشدة للعلوم الألمانية والشعر ورغبوا باخلاص فى صداقة وثيقة بين الشعبين الفرنسى والألمانى (١) . وكان النمو الاقتصادى على أشده ، ودخلت البلاد فترة من الرخاء لم يسبق لها مثيل ، وكانت الطبقة الوسطى الصناعية والتجارية تريد السلام لتكسب وتتمتع بالحياة . وانتشرت الاشتراكية والنزعة الى السلام. وعارض برودون، أكثر المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين أصالة، الحماسة العامة لتحرير ايطاليا وبولندا والأمم الأخرى وتوحيدها ، اذ لم ير فى مبدأ الجنسية سوى أنه اداة لدوام سلطة النزعة العسكرية وزيادتها حدة ونواة لحرب لا نهاية لها . وقد كره الدولة المركزية ذات السلطة المطلقة وسخر من روسو واليعقوبية وكانت سويسرا هى مثله الأعلى ، وكان هو من الرواد الاول للسندكالية . وكانت الامة الفرنسية فى نظرة تتألف من عشرين أمة متميزة على الأقل لكل منها سماتها الواضحة المتميزة ، ولا يجمعها سوى القوة . وأراد أن تنقسم فرنسا الى اثنى عشرة دولة مستقلة وأن تتكون أوربا من فدرال للفدرالات . وكان برودون يكره الحرب ، ولكنه فى كتابه « الحرب والسلام » (١٨٦١) أشار الى أن الحرب عامل من اقوى العوامل المؤدية الى تقدم المدنية ، وان غريزة الجماهير فيما يتصل بأن الحرب مشروعة أحكم من العقل الفردى الذى ينبذها . والأمة كائن جماعى لديه ارادة التوسع ولا يعترف بأية سلطة قضائية فوقه .. بيد أنه كان يأمل أن تنظيم المجتمع على أسس عادلة سيؤدى الى اختفاء أسباب الحرب ويحل العمل محل

(١) فيما يتعلق بالتفاصيل أنظر كتابى «Nationalgeist und politik» ١٩٣٧ المجلد الاول ص ٢٧٦ .

العنف • وقد أراد أوجست كونت أيضا تقسيم الأمة الكبرى الى عدد كبير من الجمهوريات المستقلة تتألف كل منها من حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ عائلة ولا تربطها سوى الروابط الروحية • فتقسم فرنسا الى سبع عشرة جمهورية ، وعليها أيضا أن تسرح جيشها وأن ترد الجزائر الى العرب •

وكأى عقلية قومية كانت عقلية فرنسا فى ذلك الوقت تنطوى على اتجاهات متناقضة ، فمن ناحية كانت هناك رغبة مخلصة فى السلام ومن ناحية أخرى مثل أعلى من الهيبة القومية ينطوى على خطر الحرب • وفى ١٨٧٠ كان بسمارك هو الذى أشعل الحرب التى أرادها لتحقيق الوحدة الألمانية تحت السيطرة البروسية • ولكن الخيلاء القومية الفرنسية والانفعال الفرنسى أسهم بنصيب كبير فى اشتعالها ، اذ أن فرنسا هى التى أعلنت الحرب دون أن تبذل جهدا كافيا لتجنبها • فقد لوح بسمارك بخبث بخرقة حمراء أمام ثور النزعة القومية الفرنسية فأثاره وجعله يندفع برأسه الى المصيدة •

وأثارت هزيمة فرنسا الرغبة القوية فى « الانتقام » ، واستعادة الاقليم المفقود وهيبة الجيش الفرنسى • وقد ظلت النزعة القومية العنيفة متحالفة مع جميع قوى الرجعية زمنا طويلا ومصدر تهديد للنظام الجمهورى، ولم ينته الخطر تماما الا بعد أزمة دريفوس(١) • ثم أثار الصراع مع الألمان حول المغرب النزعة القومية شيئا ما ، ولكنها نادرا ما سيطرت على الموقف ثانية • فتقدم الروح الديموقراطية والاشتراكية والنزعة الدولية قطعت السبيل على قوى النزعة العسكرية والقومية •

ولم يتميز عهد الجمهورية الثالثة بالانجازات الثقافية والاقتصادية الفائقة فحسب ، بل كذلك بالتوسع العظيم فى امبراطورية فرنسا الاستعمارية وباستعادتها لمركز قوى ومحترم بين الأمم • مع ذلك فان الروح العامة كانت تتميز باستمرار بعدم استقرار شديد والنزاع الداخلى • وقد انتهى أحد الدارسين الانجليز للسياسة الفرنسية ، هوج• بودلى، فى تحليل نفاذ لفرنسا الحديثة(٢) الى أن « الفرنسيين يبدون عداء ووحشية وظلما نحو أنفسهم أكثر مما يبدون نحو أى شعب أو جنس آخر » • ويرجع بأصول هذه الروح الى « الثورة » التى أعلنت مبدأ الاخاء بوصفه الهدف الأسمى • « وعندئذ اكتسب الشعب الفرنسى عادة ، لم

---

(١) فيما يتعلق بتفاصيل هذه الموضوعات أنظر ج • جوش «العلاقات الفرنسية الالمانية ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ » في « دراسات الدبلوماسية والسياسة » ١٩٤٢ ، وكذلك كتابى «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ ص ٢٧٢ •

(٢) جون أ • بودلى «فرنسا» (طبعة منقحة ١٨٩٩) •

يفقدها قط ، هى اعتبار كل جدل سياسى صراعا بين عناصر لا تتلاقى ، كل سلاح مشروع فيه ، وتتجاهل فيه كل روابط القربى » • والنتيجة ، كما يقول بودلى ، أن الجو يسوده التشاؤم وأن الأغلبية العظمى صارت لا تبالى بأى شىء له صلة بالسياسة •

ويمكن تتبع العنف البالغ فى النزاعات الداخلية خلال قرون طويلة من التاريخ الفرنسى • وقد كان السبب الرئيسى منذ طويلة هو عقلية الأرستقراطيين التى تنظر الى الحياة السلمية بازدراء على أنها لا تليق بقدر الرجل النبيل ، والتى اعتبرت الأرستقراطيين من دم أسمى من الطبقات الأخرى• وفى القرن الثامن عشر وبعده كان أنصار الأرستقراطية لا يزالون يدافعون عن امتيازاتها ويدعون أنهم من سلالة الغزاة الفرانك (١) وأثاروا بذلك احتجاجات عنيفة من جانب البورجوازية • وأدى ذلك الى نزاع طويل ناقش فيه كثير من المؤرخين المشهورين والكتاب السياسيين موضوع ما اذا كانت الامة الفرنسية تتألف من جنسين أو أمتين : جنس الغزاة وجنس المهزومين • وبعد ثورة ١٨٤٨ عدل كونت جوبينو وآخرون النظرية الأرستقراطية القديمة الى نظرية عامة للجنس ، وجعل الطبقات العليا من الآريين النبلاء والدنيا من عناصر أدنى سابقة على الآريين • بيد ان هذه النظرية لم تحظ بانتشار كبير فى فرنسا قط •

غير أن التقاليد المسيطرة على عقلية قطاع من الارستقراطية لم تكن السبب الوحيد فى مرارة النزاع الحزبى • فبعد الثورة الكبرى رأى كثيرون من الكتاب السبب الرئيسى فى ذلك فى أثر الروح الثورية ، وبخاصة المبالغة فى مبدأ المساواة وايمان بالحلول الحاسمة بواسطة العنف • وحملت كل ثورة أو كارثة سياسية بعد ذلك كبار المفكرين على البحث فى التقاليد القومية الأساسية • وانتهى ارنست رينان فى ١٨٥٩ الى أن « الفلسفة الثورية ، برغم عظمتها ودعوتها للحرية ، تنطوى على سم خفى : اعتقاد فى العنف وفكرة عن العدالة تقوم على مفهوم مادى للملكية واهمال الحقوق الخاصة ولكنها تحمل بذور الدمار وتؤدى الى سيادة التفاهة واختفاء الابتكار، وكل ذلك من أجل راحة جثمانية سطحية شروطها فى الواقع تدمر ذاتها » • وبعد هزيمة ١٨٧١ سجل تفكيره فى أسبابها فى كتاب ، وانتهى الى آراء مشابهة • وسرعان ما بدأ تين ينشر مؤلفه العظيم « أصول فرنسا الحديثة » (ستة مجلدات ١٨٧٦ — ١٨٦٢) وتبعه عدد

---

(١) الفصل الثانى (٤) من هذا الكتاب •

لا يحصى من الكتاب يناقشون تأثير تاريخ فرنسا ، وبخاصة « الثورة » على العقلية السياسية فيها • وفى رأى تين أن مصدر مصائب فرنسا كلها هو « الروح الكلاسيكية » وبخاصة صورتها المتميزة: روح اليعقوبية (١)• وقد وجه نقد كثير الى أرائه ، ولكنها تركت آثارا عميقة • ورأى سيبل فى جميع الأحداث الكبرى فى تاريخ فرنسا نوعان ، نوع تحدوه الروح التسلطية والأخر تحدوه الروح الثورية ، واعتبرهما تنويعا لنفس « العقلية الرومانية » ، التراث الروحى للامبراطورية الرومانية الذى أقحمته الكنيسة على الروح القومية الفرنسية (٢) • والنوعان على السواء يسودهما التعصب والدوجماسية ومناهضة التحررية •

وكثيرا ماقارن نقاد التقاليد القومية الفرنسية هذه التقاليد بالتقاليد الانجليزية • لماذا تجنبت انجلترا ذلك التقلب المستمر بين الفوضى والاستبداد • ، ومرارة النزاع الحزبى ، واذلال الهزيمة ؟ لماذا استطاعت انجلترا أن تتفوق على فرنسا فى نمو الرثوة وبناء امبراطورية عالمية وفى الهيبة الدولية ؟ وقد جعل المؤرخ والسياسى الكبير جيزو الثورة الانجليزية والثورة الامريكية موضع دراسة عميقة وطويلة انتهت الى بعض أعماله الكبرى ونشر مجموعة كبيرة من المصادر التاريخية • وقد وجد أن الثورة الانجليزية تختلف اختلافا كبيرا عن الفرنسية بسبب روحها الدينية واحترامها للماضى وتأكيدها على حكم القانون وخلوها من الصراع المرير بين الطبقات الاجتماعية (٣) • وعندما انهارت جمهورية ١٨٤٨ وجد كثير من الجمهوريين ملجأ فى انجلترا وتوفرت لهم فرصة مقارنة السياسة الانجليزية والفرنسية • وكتب الزعيم الديموقراطى المبرز ليردو رولان كتابا (٤) يصف فيه الظروف السياسية والاجتماعية الانجليزية فى صورة كالحة • فانجلترا يحكمها الأرستقراطيون والرأسماليون الذين يستغلون العالم كله ويضطهدونه ، ونظامها يتميز بعدم المساواة البالغة ، فى حين أن فرنسا تحدوها روح المثل العليا للمساواة والعدالة والانسانية• وتنبأ ليردو رولان بالدمار العاجل لقوة انجلترا وثروتها• ونشر لويس بلان زعيم الاشتراكيين أيضا انطباعاته التى كانت أبعد عن التحيز وأكثر عطفا

---

(١) ج• جوش « التاريخ والمؤرخين فى القرن التاسع عشر » ١٩٢٠ ص ٢٣٨ و ٢٥٨ •

(٢) بول سيبل «Les deux Frances et leurs origines historiques» ١٩٠٥

(٣) جوش ١٨٧ و م • باردو « جيزو » ١٨٩٤ ص ١١٩ و ١٢٢ و ١٣٥ •

(٤) ليردو رولان «De la Decadence de l'Angleterre» مجلدان ١٨٥٠ •

على انجلترا (١) • وقام تين فى عدد من مؤلفاته بتحليل المدنية الانجليزية والتأكد من سماتها المميزة (٢) • وقد كان من كبـار المعجبين بانجلترا وتأثر الى حد كبير ببيرك وهيجل فى أرائه عن الطابع القـومى • وقرابة نهاية القرن كان الرأى المنتشر فى فرنسا أن انجلترا قد تفوقت عليها فى التقدم الاقتصادى والسياسى وأن ذلك راجع الى اختلاف أساسى فى طابعهما القومى • وقد ناقش ديمولان ، تلميذ ليبلاى ، هذا الموضوع فى كتاب حظى بانتشار كبير (٣) • وعزا تفوق الانجلوساكسون أساسـا الى نظام التربية عندهم وحياتهم المنزلية وتقاليدهم السياسية التى تدعم كلها روح الفردية الجادة والابتكار ، فى حين يتطلع الفرنسـيون فى كل شىء الى الدولة • وبحث المؤلف أيضـا فى تأليف البرلمانين الفرنسى والانجليزى تبعا للمهن ووجد أن ثلثى النواب تقريبا فى فرنسا من المشتغلين بالمهن الحرة ، أكثرهم من المحامين والصحفيين والموظفين السابقين ، فى حين أن أغلبيـة أعضـاء البرلمان الانجليزى من المشـتغلين بالزراعة والصـناعة والتجارة • ومن ثم فان الحياة السياسية فى فرنسا سيطر عليها المثقفون الذين يلعـب بينهـم اليسـاريون دورا بارزا • والاختـلاف فى تأليـف البرلمانين الانجليزى والفرنسى له مغزاه فيما يتصل باختلاف الروح ، وقد بحث كتاب كثيرون آخرون أيضا فى الانظمة والتقاليد البريطانية وقارنوها بالأنظمة والتقاليد الفرنسية وحاولوا تتبع السمات القومية (٤) •

وقد كرس الفرد فوييـه ، وهو عالم ممتـاز ، عدة كتب لمشـكلة الطابع القومى وبخاصة الطابع الفرنسى (٥) • وهو يفترض أن للمزاج

---

(١) لويس بلان «Lettes sur l'Angleterre» مجلدان ١٨٦٦ •

(٢) هـ • تين «Notes sur l'Angleterre, 1872» «Histoire de la Littérature Anglaise» ١٨٦٣ •

(٣) ادموند ديمولان «A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons» (ترجمة انجليزية من الطبعة العاشرة الفرنسـية ١٨٩٩) وهناك كتاب آخر بقلم كاتب من مدرسة ليبلاى يناقش أصل الاختلافات الاساسية في سـيكلوجية الامـة الانجليزية الفرنسية وبعض الامم الأخرى هو كتاب هنرى دى توكفيل «Histoire de la formation particulariste, l'origine des grands peuples actuels»

(٤) ماكس ليكليرك «L'éducation des classes moyennes et dirigeantes en Angleterre» ١٩٠١ ، و «Les professions et la société en Angleterre» ١٩٠١ واميل بوتمى «Essai d'une psychologie politique du peuple anglais au XIXe siècle» ١٩٠٣ وجاك باردو «Essai d'une psychologie de l'Angleterre contemporaine». مجلدان ـ ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧

(٥) الفرد فوييه «Psychologie des peuples européens» «L'idée moderne du droit en France, en Angleterre et en Allemagne» «Psychologie du peuple français»

والجو تأثيرا قويا على الطابع القومى ، وهى وجهة نظر سادت فى فرنسا أكثر من البلاد الاخرى • وينتهى المؤلف الى « أن فرنسا عهد ثورة ١٧٨٩ هى التى ستسود فى النهاية وتثبت صحتها برغم أخطائها ونقائصها ونكساتها » • وعلى النقيض من ذلك كون جوستاف لوبون نظرية عن السيكلوجية الجماهيرية تتسم بالطابع اللاديموقراطى بشكل حاسم ، كما أكد أيضا أهمية الجنس (١) • ومن الجلى أن وصفه المتشائم جدا لعقلية الجماهير متأثر الى حد كبير جدا ببعض المراحل المعينة من الثورة الفرنسية •

وكان أهم ممثلين للنزعة القومية الفرنسية الحديثة هما : موريس باريه وشارل مورا • وكان باريه كاتبا قصصيا ممتازا كما اشترك أيضا فى السياسة (٢) • وقد بدأ حياته العاملة عالمى النزعة وفرديا متطرفا ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالفن والفلسفة الألمانيين • وأيقظت أزمة بولانجيه وصعود النزعة القومية الألمانية الشعور القومى لديه وحاول وضع مذهب للقومية يصلح مذهبا لحركة تهدف الى اقامة دكتاتورية • وكتاباته المتأخرة تتميز بكراهية البرلمانية والديموقراطية والنفور من الألمانية والأجانب واليهود والبروتستانت ، والتطلع الى اعادة ادماج الالزاس واللورين وبشوفينية مهذبة بصفة عامة • وكان شعار نزعته القومية هو : الموتى والتربة • ويدين باريه فى تفكيره بالكثير للرومانسية الألمانية وكان أساسا من النوع الرومانسي، وان كان قد أعلن أنالكلاسيكية هىالتقليد الفرنسى الحقيقى • وكان معبوده هو نابليون وأشاد بتقاليد فرنسا الحربية العظيمة، ولكنه لم يدع الى سياسة عدوانية • وقبل الحرب الأولى كان له بعض النفوذ على الشباب المثقف • ولكن النزعة الجمالية والرومانسية عنده لم تجدا صدى لدى الجماهير ، وكانت نزعته القومية أساسا محاولة للهرب من خطر الفوضى والعدمية الذى تنطوى عليه ذاتيته المتطرفة •

وكون شارل مورا مذهبا سماه « القومية المتكاملة » صار بعد ذلك برنامج حركة أطلق عليها « العمل الفرنسى » (٣) • وهو يرى مصدر كل

---

(١) فيما يتعلق بجوستاف لوبون أنظر الفصل الاول (٥ ـ أ) من هذا الكتاب.

(٢) هناك عرض مفصل لآراء باريه فى كتابى «Nationalgeistund Politik» ص ٢٩٥ ، م • باريه «Scènes et doctrines du Nationalisme» مجلدان، وسيلفرباكنج « م • باريه » ١٩٣٣ • و أ • كيرتيوس « باريه » ١٩٢١ . وفيما يتصل ودعاة القومية الآخرين أنظر د • بارودى «Traditionalisme et démocratie» ١٩٠٩ • وجورج جى جران «La philosophie nationaliste» ١٩١١ •

(٣) شارل مورا «Romantisme et revolution» ١٩٢٥ • و م • دى رو «Maurras et le Nationalisme de l'Action Françalse» ١٩٢٧ •

الشرور التى تشوه الحياة السياسية والاجتماعية فى فرنسا الحديثة فى الفردية المتطرفة التى تؤدى الى الفوضى • وتظهر هذه الفردية فى صور متعددة مثل الرومانسية والفلسفة الألمانية والتقليد الثورى والماسونية والبروتستانتية والمسيحية واليهودية • والتقليد الحقيقى لفرنسا هو الكلاسيكية كما تتمثل فى الانجازات العظيمة فى عهد الملكية القديمة ، الكنيسة الفرنسية والأدب والفن فى القرن السابع عشر • فالفرنسيون هم الخلفاء الروحيون للاغريق القدامى والرومان ومن ثم هم ضد الروح العبرية فى المسيحية والروح الألمانية والفرنسية فى حركة الاصلاح الدينى والرومانسية • ويكره مورا بصفة خاصة روسو ، أبا الرومانسية والثورة • وهدف « العمل الفرنسى » هو اقامة دكتاتورية تمهد السبيل لعودة الملكية التى لا يتفق مع الروح الفرنسية غيرها • ولكن هذه الحركة لم تلق نجاحا قط • وهناك كتاب آخرون عرضوا أيضا فكرة أن روسو هو المسئول الأساسى عن الرومانسية والديمقراطية والانحلال القومى (١).

ولم يكن الهجوم على تقاليد الجمهورية الفرنسية من جانب كتاب اليمين وحدهم ، بل ان كتابا من اليسار المتطرف هاجموها أيضا • فجورج سوريل فى كتبه يعرب عن أشد ازدراء للبرلمانية وللايمان بالعقل والحل الوسط • وبدت له التحررية والديمقراطية من نتاج الطبقة البورجوازية الوجلة والمخدوعين فيها ، الاشتراكيين المعتدلين (٢) • وكان سوريل مثقفا واعتنق برنامج السند كاليه الثورية • وطالب أن توقف النقابات الحياة الاقتصادية كلها باعلان اضراب عام وأن تستخدم فترة الفوضى الناجمة عن ذلك فى الاستيلاء على الحكم بالقوة واقامة دكتاتورية بواسطة الارهاب • فالبروليتاريا لن تستطيع قط الاستيلاء على الحكم بالأساليب السلمية ولا بمجرد الحجج العقلية • وكل ما يمكن أن تأمله هو تحقيق الاشتراكية بالعنف تحت تأثير نزعة من الايمان الصوفى المسكر أو الرؤيا التى أطلق عليها سوريل « الأسطورة الاجتماعية » •

وقد تأثر فكره أساسا بماركس ونيتشه ، كما اعتنق ايضا بعض أفكار من هيجل وبرودون وبرجسون • ورفض الاشتراكيون أفكار سوريل ،

---

(١) أرنست سييرا «Le péril mystique dans l'inspiration des démocraties contemporaines» ثلاث مجلدات • وبيير لاسير «Le romantisme Français»

(٢) جورج سوريل «Reflexions sur la violence» ١٩٠٨ • وبيير لاسير «Sorel théoricien de l'impérialisme» ١٩٢٨ ، وسلتاو ص ٤٤٢ •

ولكن اليمين المتطرف اهتم بها اهتماما بالغا • وقرابة نهاية حياته أعرب سوريل عن اعجابه بالبلشفية • بيد أن أكثر تلامذته تحمسا كان موسوليني الذى يدين بأيديولوجيته السياسة كلها تقريبا لسوريل وباريتو •

وقد هاجم كل أعداء النظام الجمهورى ، اليمينيين واليساريين على السواء ، البرلمان بوصفه المصدر الرئيسى لعدم الاستقرار والفساد وانعدام التنظيم • وكانت فى حججهم طبعا مبالغات شديدة (١) ، ولكن المشكلة تظل مع ذلك لماذا تظهر فى الروح العامة كل هذه العداوة الحزبية وعدم الرغبة فى التعاون ، وكذلك ذلك القدر الكبير من التشاؤم والشك واللامبالاة فيما يتعلق بالسياسة عموما • وقد رأى بعض الملاحظين السبب فى وجود ميول أصيلة افترضوها فى المزاج والعقل الفرنسيين ، وأكد آخرون قوة تأثير التقاليد أو الصراعات الاجتماعية • وكان من العوامل الغريبة التى ذكرت الكنيسة • فطوال القرن كان قسم كبير من الصراعات السياسية يدور بين المدافعين عن الكنيسة وأعدائها بصورة لا نجد لها مثيلا فى التاريخ الانجليزى أو الألمانى المعاصر (٢) • وكان روسو قد فكر فى وضع دين مدنى جديد بدلا من الكاثوليكية يحقق الوحدة القومية والوفاق ، وحاول روبسبير تطبيق فكرته • ويرجع بعض السبب فى عدوانية الصراعات السياسية الى أنها كانت صراعا بين مذهبين ، الكاثوليكية واليعقوبية • بيد أن بعض المفكرين انتهوا الى أن الدين القديم قضى عليه فى قلوب الناس دون أن يجدوا معتقدا جديدا حقيقة ، وأن عدم وجود أى روح دينية هو أعمق الأسباب فى العدمية الأخلاقية والفوضى السياسية السائدة • ان كونت أعلن أن التاريخ يتألف من احلال العلم محل الفكر الدينى والميتافيزيقى ، ولكنه كان هو نفسه داعية دين جديد• وأراد مورا ، وان لم يكن من المؤمنين بالمسيحية ، التى كان ينفر منها بوصفها «اختراعا يهوديا» ، أراد أن يعيد سلطة الكنيسة الكاثوليكية التى اعتبرها ضرورية للوحدة القومية والنظام والعظمة • ولا ريب أيضا فى أن التفوق الساحق فى العدد للمحامين والصحفيين والمثقفين الآخرين فى البرلمان دعم اتجاهات الجموح والتآمر الطموح • فقد كان كثير من المثقفين

---

(١) ج • برايس «الديمقراطيات الحديثة» ١٩٢١ ــ المجلد الاول عن الديمقراطية الفرنسية •

(٢) باستثناء الـ «Kulturkampf» فى عهد بسمارك ، وهو لم يستمر الا لفترة قصيرة •

لأسباب مختلفة غير مبالين بالديموقراطية أو يقفون منها موقف العداء • فالاكاديمية الفرنسية ، ذلك المجمع الرفيع المؤلف من أعظم العلماء والكتاب ، كانت فترة طويلة معقل نزعة قومية وعسكرية مهذبة ، وكان كثير من أعضائها يتوقون الى دكتاتورية قائد عسكرى • بيد انه مع مرور الوقت زاد عدد المثقفين المبرزين الذين اعتنقوا قضية الديموقراطية والتقدم الاجتماعى والنزعة الدولية • ولعل أعظم شخصية فى ميدان الفكر كانت شارل رينوفيبيه ، وكان أعظم ممثل للروح الجديدة فى ميدان العمل هوجين جوريه بشخصيته العظيمة (١) • وبعد الحرب الاولى أدى صعود البلشفية والفاشية فى العالم الى تدهور الجو السياسى ثانيا • ويرجع السبب الأساسى فى كارثة سقوط فرنسا فى هذه الحرب الى بعض التقاليد المعينة فى حياتها السياسية •

وقد عرض اندريه سيجفريد بعد الحرب الأولى وصفا شائقا للعقليه الفرنسية (٢) • فهو يؤكد أهمية أن فرنسا لا تزال أساسا بلد صغار الفلاحين الملاك وأصحاب الحرف ، وان كانت الصناعات الكبيرة زادت فى العصر الحديث زيادة ضخمة • والطابع القومى متأثر الى حد كبير جدا بعقلية الفلاحين وصغار التجار ، وهو يختلف تماما عن الصورة التى لدى معظم الأجانب عن الطابع الفرنسى بانطباعاتهم بالحياة فى باريس • والأغلبية الكبرى ليست مستهترة ومتقلبة وثورية ، بل متشبعة باحساس قوى بالأسرة والملكية والتطلع البورجوازى الى التميز الاجتماعى « من أجل الأولاد » والشك السياسى والنزعة الفردية واللامبالاة الكاملة بالشئون الخارجية والأسواق الأجنبية والمستعمرات • والشعب الفرنسى ، كما يقول سينوبوس ، يستبشع الحرب ولكنه لا يعرف مطلقا كيف يتجنبها • ويقول الأستاذ سيجفريد أيضا أن المبادىء والمثل العليا هى قلب السياسة الفرنسية وروحها ، وبخاصة كموضوعات للبلاغة ، ولكن الناخبين يعطون أحد الأحزاب الكثيرة أصواتهم لأنهم يحبون أو يكرهون أسلوبا معينا من الحياة ، وبخاصة لأنهم يحتقرون أى تمييز فى الملبس والمهنة والأفكار • والراديكالية السياسية كثيرا ما تقترن بالمحافظة الاجتماعية ، فالرجل الفرنسى يضع قلبه فى اليسار وكيس نقوده فى اليمين ، ولكل فرنسى تقريبا كيس •

---

(١) انظر فيما يتصل بنقد رينوفيبيه الشديد ضد النزعة القومية سلتاو المرجع السابق ص ٣٠٦ و ٣١٦ – ٣١٩ •

(٢) أندريه سيجفريد « فرنسا ، دراسة في الجنسية » ١٩٣٠ • وهناك دراسة مهمة جدا أيضا كتبها كرلتون هيز فى « فرنسا ، أمة الوطنيين » ١٩٣٠ ، وهى نصف أساسا الاساليب التى تكونت بواسطتها الوطنية الفرنسية واشتثيرت بواسطتها.

٢١ ـ مازينى

مهد كثير من المفكرين السبيل لتوحيد ايطاليا ، ومن بينهم روسمينى وجيوبرتى وكلاهمـا من رجال الدين الكاثوليك ، وكانا يدعوان لانشاء كونفدرال ايطالى يتولى البابا رياسته الشرفية · وقد أعلن جيوبرتى فى مؤلفة «التفوق الاخلاقى والمدنى للايطـاليين» (١٨٤٣) أن رسـالة الامة الايطالية هى أن تقود العالم روحيا نحو الوحدة والوفاق ، وتصور قيام عصبة أمم تحت رياسة البابا ·

وكان جيسبى مازينى (١٨٠٥ـ١٨٧٢) من أكثر شخصيات عصر البعث الايطالى سحرا (١) · وقد كرس حياته كلها لتحرير ايطاليا وتوحيدها ، وكان يأمل أن تتولى ايطاليا قيادة تحرير جميع الشعوب المضطهدة وتوحيد الجنس البشرى فى صورة اتحاد من الامم الحرة تحت زعامة ايطالية · ولهذا الغرض عمل باستمرار فى وضع الخطط وتنظيم الجمعيات السرية والمؤامرات والثورات، لا فى ايطاليا وحدها بل فى بلاد أخرى أيضا · وفى ١٨٤٩ كان روح « الجمهورية الرومانية » ولـكنه عاش الجزء الأكبر من حياته فى المنفى ، فى انجلترا غالبا ، وحتى بعد تحرير ايطاليـا ظل منفيا رسميا ولم يستطع زيارة ايطاليا الا متنكرا فى هيئة رجل انجليزى ·

وكانت الجنسـية عند مازينى دينا · ومن الافكار الاساسية فى مذهبه أنه لا يمكن وجود مجتمع ولا تقدم مهم دون اعتقاد دينى قوى · فلا مذهب حقوق الفرد الذى أعلنته الثورة الفرنسية ولا مبدأ أكبر قدر من السعادة الذى علمه بنتام ولا مادية الاشتراكيين يمكن أن يقوم عليهـا أساس فلسفى لمجتمع منظم يستطيع الناس أن ينموا فيه كل ملكاتهم · فاذا كانت حرية الفرد وسعادته هما الهدف الأسمى فكيف يطالب الافراد باخضاع مصـالحهم لمصلحة المجتمع ويضحون بأنفسـهم لرفاهتـه ان واجبات الانسان نحو المجتمع تسبق حقوقه ، وفكرة الواجب تنطوى على مشروعية دينية فوق الطبيعية · فالناس لا توجد لتكون سعيدة أو لتفعل ما تراه ، بل لتحقيق رسالة فى خدمة الانسانية · والحرية هى القدرة على

---

(١) تاريخ حياته بقلمه «حياة جوزين مازينى وكتاباته» (بالانجليزية) ستة مجلدات ١٨٦٤ ـ ١٨٧٠ و « خطابات مازينى الى عـائلة انجليزية » تحت اشراف أ ، ف · ريتشاردز ، ثلاثة مجلدات ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣ · وبولتون كنج «مازينى» ١٩٠٢ · وجويليم جريفيث « مازينى ؛ نبى أوروبا الحديثة » ١٩٣٢ ·

الاختيار بين الاساليب المختلفة فى تأدية الواجب على أفضل صورة تتفق وميولنا الخاصة ·

بيد أن الدين عند مازينى ليس دين الكنائس التى عاشت أكثر مما ينبغى فى نظره · وكان يكره البابوية واعتبرها مقضيا عليها ، وانتقد المسيحية لأنها فردية أكثر مما ينبغي وتنقصها الوطنية والاهتمام السياسى والاجتماعى بصفة عامة · والثورة الفرنسية وما تمخضت عنه من «حقوق الانسان» نتاج المسيحية ، وسرعان ما أدت الى المادية · والمادية والفردية لا يتفقان مع الديموقراطية · فهما يؤديان اما الى الفوضى أو الاستبداد · وقد ظل مازينى يكافح باستمرار من أجل وضع دين جديد تتوحد فيه الانسانية والجنسية فى وئام تام · وبدا له تقدم المدنية أسمى هدف ، والجنسية هى الوسيلة التى أعدها الله لتحقيق هذا الهدف ، ومن ثم فهى مقدسة · بيد أن محاولته من أجل وضع دين جديد لم تؤد الى اتجاهات واضحة محددة ، بل انتهت بموقف متردد بين المسيحية ومذهب وحدة الوجود · وتقدم المدنية هو دلالة الذات الالهية على نفسها فى جنسيات مختلفة ، لكل منها رسالتها المنفصلة ·

وهناك تقارب واضح بين فلسفة مازينى والميتافيزيقين الالمان ، وبخاصة فيشته وهيجل(١) · والواقع أن مازينى بذل جهودا فى دراسة بعض أعمالهما كما تشرب الهيجيلية عن طريق كوزان · وقد أشعل هردروفيكو الحماسة الصوفية نحو الانسانية لديه · وكذلك كان للرومانسية الالمانية والفرنسية أيضا تأثير كبير جدا فى صياغة أفكاره · وقد كان مازينى يفضل ، مثل جميع المثاليين ، التفكير المجرد على الدراسة التجريبية للحقائق الاجتماعية والتاريخية المجسمة · وكان مثل الرومانسيين قمينا بأن يضع البصيرة الداخلية والخيال فوق العقل الجاف ، وآمن بأن عبقرية الشعب وادراكه العادى كافيان لاكتشاف الحقيقة دون دراسة كبيرة · وكان هو نفسه واسع الاطلاع ومفكرا سياسيا ثاقبا ·

وفكرة الامة التى كان مازينى يفكر فيها هى المجتمع الوثيق الترابط المؤلف من أكفاء يتعاونون فيما بينهم ومع الامم الأخرى من أجل السمو بالجنس البشرى روحيا ومعنويا · وتتكون الأمم بارادة الشعوب فى تكوين أمة وبرسالة أخلاقية معينة · ومن ثم فان الامة ليست نتاجا تحكميا من الدولة ، فهى متأصلة الجذور فى الظروف الجغرافية والتاريخية وفى التقاليد التى تكونها هذه الجذور · وأول ضرورة للأمة هى الوحدة ،

(١) أوتو فوسلر «Mazzini's politisches Denken und Wollen» ١٩٢٧ ·

بالمعنى السياسى القائم على توحيد كل الشعب الذى يتكلم نفس اللغة وله نفس التقاليد فى دولة واحدة ، وبالمعنى المعنوى القائم على تحويلهم الى كل متجانس عن طريق وحدة المبادىء • وقد بدت الوحدة لمازينى أهم هدف ، وحارب بشدة خطط توحيد ايطاليا فى صورة فدرال • وكان اعتقاده أن ايطاليا الفدرالية ستظل دائما ضعيفة لا تستطيع تحقيق رسالتها • فضلا عن أن الامة يجب أن تكون مستقلة لا تخضع لحكم أو نفوذ أجنبى • وحدة فى أنظمتها الداخلية التى لا يمكن أن تكون الا ديموقراطية •

وقد وضع مازينى حدا فاصلا بين الجنسية والنزعة القومية • فالجنسية تعنى المساواة والسلام والتعاون الأخوى بين جميع الامم • وكل أمة حرة عليها واجب أن تساعد الامم المضطهدة على نيل حريتها • وقد هاجم بشدة سياسة انجلترا القائمة على العزلة وعدم التدخل واعتبرها سياسة مادية أنانية قصيرة النظر وتحط من قدرها وتجعلها دولة من الدرجة الثالثة •

ويرجع التنافس والحروب بين الامم فى رأيه الى مجرد طموح الملوك والارستقراطيين • ومتى تحررت جميع الامم فستعيش فى سلام كامل وتؤلف فدرالات اقليمية كبرى وعصبة أمم • وكان مازينى يكره العمل من أجل القوة القومية والسيطرة على حساب الامم الاخرى ووصف ذلك بأنه انحراف للجنسية ونزعة قومية ضيقة تعسة • هذه « الجنسية المتوحشة العدوانية المشاكسة » التى خلقها الملوك وأنصارهم أصبحت الآن من ظواهر الماضى • وقد سرت العدوى الى الشعوب أيضا ، ولكن «النزعة القومية لدى الشعوب كانت تختفى بسرعة » • وفى مكان آخر يقول مازينى « ان جنسية الشعوب لم توجد بعد — فهى من أمور المستقبل ونحن لا نجد جنسية فى الماضى باستثناء تلك التى يحددها الملوك » •

وقد أظهر مازينى فى كل كتاباته غيرة من فرنسا التى بدت له تمثل « المعارضة » لماديتها وشهوة القوة والسيطرة والخيلاء لديها • ولا شك أن هذه المحاولة فى تبرير موقفه كانت مخلصة وصحيحة الى حد ما • ولكن خلفيتها كانت بالتأكيد الشعور بالحسد نحو المركز التاريخى العظيم الذى تحتله فرنسا والرغبة فى تحقيق التجانس الروحى على الأقل لايطاليا • وكان مازينى يعتقد أن مهمة ايطاليا هى تحقيق الوحدة المعنوية لأوربا والجنس البشرى كله • فمجلس الامم مركزه فى روما ، المدينة الأبدية ذات الجلالة • فقد تصور أنه ستوجد بعد روما الاولى فى

عهد القياصرة وروما الثانية فى عهد البابوات روما ثالثة فى عهد الشعب الايطالى ، وستكون « روح العالم » و « كلمة الله بين الامم » ، ومركز دين انسانية جديد ٠

وعندما أنشأ مازينى جمعيته السرية «ايطاليا الفتاة» حدد الهدف من الثورة التى يسعى اليها بهذه الكلمات « ما الذى نريده ؟ اننا نطالب بأن نوجد ٠ اننا نطالب باسم ٠ نحن نرغب فى أن نجعل بلدنا قويا ومحترما وحرا وسعيدا » ٠ وطالب بالوحدة لأنها تنطوى على قوة أكبر ، وأعلن أن قوة الامة غير محدودة ٠ ويجب أن تكون الدولة قوية ، وقد رفض مازينى الفكرة التحررية التى تنكر القوة على الدولة بانشاء توازن قوى داخلى وبالكوابح والوسائل التى تمنع تركيز القوة فى يد واحدة ٠

وصحيح أن رغبة مازينى فى قيام دولة قوية لم يكن هدفها الغزو والسيطرة ٠ لقد كان كل ما يريده هو تحقيق الاستقلال القومى واستخدام سلطة الدولة فى تحسين حال الجمهرة الكبرى من الشعب ٠ فقد كان مازينى يعطف بانفعال على جميع المضطهدين وخصوصا من لا نصيب لهم فى المجتمع ، وأدرك ضرورة الاصلاحات الاجتماعية الكبيرة وتنبأ بصعود العمال للاستيلاء على السلطة السياسية ٠ وقد دعا أيضا الى حد ما الى الاشتراكية وان لم يرد الشيوعية المطلقة ٠ ولكنه عارض بشدة وجهة النظر المادية فى الماركسية والمذاهب الاشتراكية الاخرى وفكرة صراع الطبقات ٠ والثورة الفرنسية أيضا اعتمدت على مصالح الانسان الانانية والشخصية ووعدت الناس حقوقا وسعادة أدت الى فشلها ٠ أما الثورة الايطالية فانها ستهدف الى مثل أعلى أسمى من ذلك بكثير ٠

ولم يضح مازينى بالاخلاقيات الفردية فى مقابل أخلاقيات جماعية أسمى كما فعل هيجل ، فكل من الحياة الخاصة والعامة يحكمها قانون أخلاقى واحد لا تستطيع حتى ارادة الشعب أن تلغيه ٠ فحرية الشعب مقدسة فى حدود ما تتفق مع الحريات الاساسية للانسان ، اذ كان مازينى يدرك خطر ارادة الشعب عندما تضلل ٠ وأشار محذرا الى أمثولة الجمهورية الفرنسيه الثانية حيث باع الحرفيون حقوقهم السياسية للويس نابليون مقابل وعد ببعض الميزات الاجتماعية ، بضع قطرات من الاشتراكية ٠ ومن ثم فان أكبر مهمة للدولة هى التربية ٠ فالديموقراطية ليست مجرد وجود أنظمة حرة فحسب ، بل توجد فى روح الشعب التى لا يمكن خلقها الا بسياسة تربوية كبرى ٠ وتتطلب ذلك اصلاحات اجتماعية بعيدة المدى ٠

وقد عقد مازيني كل آماله مثل معظم الرومانسيين على الشباب والشعب • وقد استبعدت الرابطة « ايطاليا الفتاة » التى أسسها للدعوة لمبادئه من عضويتها كل من تجاوز الاربعين • وقد كتب «ضع الشباب على رأس الجماهير المتمردة ، فانت لا تعرف مقدار القوة الكامنة فى هذه العصابات الشابة ، ومدى التأثير السحرى لأصوات الشباب على الجمهرة• انك عندئذ تجدهم وقد تحولوا الى رهط من الأنبياء يدعو لدين جديد • ولكن الشباب يحيا فى الحركة ويصير عظيما بالحماسة والايمان • كرسهم لرسالة سامية ، وأشعل حماستهم بالثناء والتقدير ، وانشر بين صفوفهم كلمات النار وكلمات الالهام ، تحدث اليهم عن الوطن والمجد والقوى والذكريات العظيمة » •

وكان مازيني يعتقد أن الشعب أيضا كثيرا ما تكون لديه بصيرة جماعية تستوعب الحقيقة أفضل من عقل الفرد • والثقة فى الشعب والشباب تنطوى على الثقة فى العواطف والانفعالات والحماسة والتطرف والنشاط والبطولة • أما الدبلوماسية الحذرة والحساب اليقظ لكل الظروف فهما أسلوب الشيوخ وهم قلة • فالجماهير لا تستثيرها الحجج المتوازنة بعناية والعمل لا يثيره سوى العمل والطاقة لا تثيرها الا الطاقة • وقد دعا مازيني الى تجنب الحلول الوسط ، فهى لا أخلاقية دائما تقريبا •

وكانت الضرورة الاولى لتحقيق خطط مازيني هى الاستقلال القومى، وكان لا بد من الحرب مع النمسا لتحقيق ذلك • وكان مازيني يتوق لهذه الحرب، وأمل أن تكون اشارة لفورات فى كل البلاد التى تعيش فيها شعوب يضطهدها الملوك والأرستقراطية • فكان يتعجل باستمرار اثارة الشعوب الى التمرد حتى تدخل ايطاليا الحرب ضد النمسا دون حساب للقوى العسكرية فى الجانبين أو الحصول على حلفاء أقوياء • فالشعب الايطالى فى رأيه سيحقق الحرية بقوته وحدها دون مساعدة من أية دولة أجنبية أو ملك ايطالى • واقترح لتحقيق ذلك شن حرب عصابات « بالخناجر ضد المدافع » اذا تطلب الامر • وسيستطيع الشعب فى أثناء الحرب الاستيلاء على مخازن السلاح وسيفر الجند ، ومعظمهم من السلافيين والهنغاريين والايطاليين ، من الجيش وسرعان ما ستثور الشعوب المضطهدة فى كل مكان وتحطم الامبراطورية • والحرب ليست الأداة التى لا غنى عنها للتحرير فحسب ، بل هى أيضا وسيلة للبعث الاخلاقى • فستعيد لايطاليا احترامها لذاتها مرة أخرى وحقها فى احترام الشعوب الاخرى• وقد سخر مازيني من دعوة أنصار كوبدن السلامية • وأثارت الاساليب

التي دعا اليها مازيني في حرب التحرير كثيرا من النقد حتى بين أصدقائه. فتبعا لتعليماته ، التي طبعت بين « مجموعة أعماله » ، يجب على عصابات المقاتلين أن تحارب بدون لباس رسمي أو علامة مميزة تمكن رؤيتها من بعيد، على الأقل في الفترة الاولى من الحرب. بالاضافة الى أنه يجب اشعال الحرب بهجوم مفاجيء على ضباط العدو وجنوده وقتلهم تبعا لأمثولة الصقليين في تمرد ١٢٨٢ . ويذكر أوروسيني في ذكرياته عن مازيني التعليمات التي أصدرها في ١٨٥٤ باغتيال جميع كبار الضباط النمساويين فجأة كمقدمة للثورة(١) . وقد فشلت هذه الخطة ولكن بعض المدنيين طعنوا جنودا وأثار ذلك عدة انتقامات . وفي ١٨٥٦ هاجم البطل القومي الكبير دانيلي مانين علنا «نظرية الخنجر» وقال : انها «من أكبر أعداء ايطاليا» . واحتج مازيني على هذا النقد وحاول أن يثبت أنه لا يعتقد في الاغتيال السياسي ، الا في حالات استثنائية جدا، وأن الهجوم على الجنود النمساويين حرب مشروعة وان لم تكن نظامية . وكان هو شخصا رقيق القلب جدا ، وقد عدل عن دراسة الطب لأنه كان يغمى عليه في غرفة التشريح .

وفي السنوات التالية أعرب عن اشمئزازه من اراقه الدماء وجميع أنواع الارهاب الذي تقوم عليه خطط مثل أفكار الانتقام والعقاب في القانون الجنائي . ولكنه فشل في ادراك الفرق بين قتل طاغية قاس خارج على القانون ، الذي أقره أو تسامح فيه كتاب دينيون كبار في الماضي، والهجوم على أفراد لمجرد أنهم دعاة نظام سياسي . بيد أننا ينبغي أن نؤكد ان مازيني كان يريد قصر هذه الاعمال على أقل قدر ممكن ، وأنه رفض الاغتيال لمجرد الانتقام ، وان كان قد اعترف في مذكراته بأن بعض الجماعات المحلية من اتباعه قد تجاوزت تعليماته . ولم يتشوه البعث الايطالي بكثير من أعمال العنف . بيد أن فكرة أن قضية حركة التحرير القومي تبرر أية وسيلة ، وأن رسالة الشباب هي اثارة الجماهير بأعمال بطولية ، كان لها نفوذ كبير فيما بعد في كثير من الحركات القومية ، وكان

---

(١) ف . أورسيني «ذكريات ومغامرات» (ترجمة انجليزية) ١٨٥٧ ص ١٣١ . وفيما يتصل بموقف مازيني من الاغتيال السياسي عموما انظر كتاباته المجلد الاول ص ٢٢١ ، المجلد السادس ص ٢٦٦ ، وبولتون كنج « تاريخ الوحدة الايطالية » و «مازيني» ص ١٦٤ . ومن المفيد مقارنة مؤامرة مازيني في ميلانو وموقف فيشته في مناسبة مماثلة. فعندما اكتشف فيشته ، الذي يوجد في أفكاره وأعماله تشابه قوى بأفكار وأعمال مازيني في ١٨١٣ ، ان الوطنيين الالمان يعدون خطة للهجوم على الحامية الفرنسية في برلين واغتيال أفرادها أبلغ الشرطة على الفور وفشلت الخطة وان كان اهتم بألا يتعرض القائمون بها لخطر .

لها أثر ضخم في مصير الانسانية • ففي سنة ١٩١٤ أطلق شاب ، عمره ثمانية عشر عاما ، النار على وريث عرش النمسا المجر وزوجته ، بعد عدد كبير من الاغتيالات ومحاولات اغتيال ارتكبها في الغالب طلبة ، وأدى ذلك الى نشوب الحرب الكبرى التي قضت على حياة عشرة ملايين أو أحد عشر مليونا من الجنود (١) ، بالاضافة الى ألوان المعاناة الأخرى ، وبصورة غير مباشرة ، الى الحرب العالمية الثانية التي انبثقت عن الاولى •

وكان من نتيجة اهمال الواقع في كثير من الحالات أن مازيني اتخذ مواقف من المسائل السياسية العملية تبدو متعارضة تماما مع مثله العليا• وكما أشرنا من قبل كان مازيني يعتقد أن لكل أمة مهمتها الخاصة ورسالتها • ولعل هذه الفكرة جاءت من هردر وفيشته وهيجل • ولكن هؤلاء المفكرين لم يعلموا أن الامة التي بلا رسالة لا حق لها في البقاء ، وان كان هيجل على الاقل فكر أن الامة ، التي تعبر في مرحلة ما عن « الارادة المقدسة » ، تستطيع أن تطالب بالزعامة • وكانت أفكار مازيني عن الرسالات المحدودة للأمم مبهمة شيئا ما • فرسالة انجلترا كانت « الصناعة والمستعمرات » وروسيا « استعمار آسيا » وبولندا « قيادة السلافيين »• ووظيفة ألمانيا الخاصة هي «الفكر» وفرنسا «العمل» وايطاليا «الفكر متحدا بالعمل» • وكان مازيني كذلك يحبذ تكوين أمم كبيرة ، واعتبرها أكمل من الامم الصغيرة • وأنكر على الشعب الارلندى حق تكوين أمة منفصلة لانه رأى أنها لا تملك فكرة معنوية معينة تمثلها ولا رسالة تاريخية (٢)• ومن الجلي أن هذا المبدأ يفتح الباب الى أحكام تحكمية تماما على حق الامم وأنه يمكن استخدامه في تبرير أي انكار تقريبا لحق تقرير المصير الذاتي •

واعتقد مازيني أن معظم الامم الصغيرة اما ستندمج مع أمم أخرى أو تدخل معها في فدرال ، وأن أوربا ستتألف من عدد صغير من الفدرالات الكبرى • فكل من ايطاليا وألمانيا ، وكانتا مقسمتين وقتئذ الى عدد كبير من الاقطار الصغيرة ، ستؤلف أمة • وبدا له السلافيون أيضا وحدة ، وان كان فيما بعد افترض أن هناك أربعة أفرع للعائلة السلافية ، وهي البولنديون والروس والتشيكيون والسلافيون الجنوبيون ، سيكون

---

(١) س.ديماس و ك. فيدك بيترسن «الخسائر في الحياة بسبب لحرب» (نشرته مؤسسة كارينجى) ١٩٢٣ ص ٣٨٠ •

(٢) ب • كنج « مازيني » ص ١٠٧. ونيقولا مانسير « ارلندا في عصر الاصلاح والنورة » ١٩٤٠ ص ٤٦ و ٥٥ • ويبين هذا الكتاب أن دعاة الجنسية الايطالية كانوا يعارضون عادة مطلب ــ ارلندا القومى ، وان السبب الرئيسي في ذلك هو شعورهم المعادى للبابا والموالى للانجليز.وقد أطلق كافور أيضا على التطلعات الايطالية انها وهم.

مصـــيرها ان تؤلف كل منهـــا أمة ثم تتحد في كونفدرال ســـلافى كبير • ومن ثم فان عددا كبيرا من الشـعوب السلافية مثل الأوكرانيين والكروات والصربين والسلوفينيين والبلغار والسلوفاك ستضحى بجنسيتها المنفصلة من أجل جنسية أوسع • وكان يتوقع من الهنغاريين والرومانيين أن ينضموا الى السلافيين الجنوبيين • ولم يأت ذكر لشعوب البلطيق مثل الفلنديين واللاتفيين والاســتونيين • ولكن الليثوانيين يؤلفون جزءا من بولندا • وتتحد الشعوب السكندنافية الثلاثة في أمة اسكندنافية موحدة• وليس لبلجيكا مستقبل كأمة وان لم يقل مازينى شيئا عن مصيرها •ولعلها كانت ستقسم بين هولندا وفرنسا • ويتحول الاسبانيون والبرتغاليون الى أمة واحدة • وتجاهل مازينى القطلونيين وأهل الباسك • وينبغي أن تتحد مع اليونانيين جميع الشعوب التى تتــحدث اليونانية في الامبراطورية العثمانية وأن يغزوا القسطنطينية ، وبعد ذلك يؤلفون فدرالا مع السلافيين الجنوبيين • وتصير ســويسرا نواة لفدرال ألبى يكون حاجزا بين الدول الكبرى المجاورة ، الامر الذى لا يتفق مطلقا مع فكرة أن هذه الدول ستصير أمما حرة ومسالمة عن طريق صعود الديموقراطية• وبصفة عامة كان مازينى يعتقد أن الجنســيات الصغيرة حاجز ضد عدوان الدول الكبرى • وقد جربت هذه الفكرة في معـــاهدات الصلح فى ١٩١٩ ولكنها لم تنجح • وستدمر الامبراطوريتان : النمساوية والعثمـانية • وفى الحرب الاهلية الامريكية دافع مازينى عن قضية الشمال ، برغم انها كانت معارضة لمبدأ حق تقرير المصير • ولكنه رأى أيضا ، بصورة متناقضة تماما ، ان أمريكا من الاتساع بحيث تكفى تكوين كونفدرالين أو ثلاثة • ويبدو انه لم يتطرق الى ذهنه قط ان شعوب آسيا وافريقيا يمكن أن تطالب أيضا بحق الامم • ومن الواضح أن رأيه كان أن يستعمر الاوربيون آسيا ، وبخاصة الانجليز والروس •

وعندما تم تحقيق الوحدة الايطالية بواسطة قدرة كافور السياسية رفض مازينى الاعتراف بالاوضاع الجديدة • اذ كانت فى نظره « شبح وأضحوكة ايطاليا » • بل انه عارض فى اتحاد روما مع مملكة ايطاليا لأنه رفض التضحية بمثله الأعلى لروما الجمهورية ورسالتها العالمية من أجل الوحدة القومية مع ملك • وفى الحرب الفرنسية الالمانية فى ١٨٧٠ وقف مازينى الى جانب بروسيا • وكان منذ عدة سنوات يتآمر مع بســمارك ، الذى كان موضع اعجابه الكبير ، ضد ملك ايطاليا الذى كان يشك فيه على أن لديه ميولا فرنسية ، وكان على استعداد لو أمده بســمارك بالسلاح والمال أن يشعل ثورة ضد الملك ويبدأ حربا أهلية • واشـــتكى من أن

ايطاليا الجديدة تلقت وحيهـا من مكيافللى لا من دانتى . وسـخر من السياسة التى تتركز فى الرفاهة الاقتصادية والتى ضحت رسالة ايطاليا العالمية من أجلها فى رأيه . وقد كتب قائـلا : « ان نصيبى أن استغرق أيامى الاخيرة فى حزن عميق حقيقة بالنسبة لشخص يحب حقيقة ، أو أرى الشيء الذى أحبه أكثر من أى شيء آخر أقل من مستوى رسالته » .

٢٢ ـ النزعة القومية الألمانية فى القرن التاسع عشر

أدت سيطرة نابليون وحرب التحرير ضده الى حركة لاقامة ألمـانيا قوية موحدة . بيد أن هذه الخطة واجهت صعوبات كبرى . فقـد كان الالمان يعيشون فى أقطار كثيرة وكانت تعرقل التوحيد الوثيق مصالح الاسر الحاكمة فضلا على الولاء الاقليمى لدى شعوبها . بالاضافة الى أن الصراع الكبير بين الدولتين القويتين النمسا وبروسـيا وقف حاجزا ضد الوحدة حيث لم يكن من الدولتين من تريد اخضـاع نفسـها للأخرى أو لدولة ثالثة . وأخيرا ، فان الشـعور القومى كان الى حد كبير مرتبط بتقاليد الامبراطورية الرومانية المقدسة ومن ثم تصور الاتحاد الجديد فى صـورة فدرال فضفـاض من أمم ألمانية وغير ألمانية مختلفة أكثر منه فى صـورة دولة قومية ألمانية . وقد استطاعت الامبراطورية القديمة الاحتفاظ بطابعها فوق الدولى وصلاتهـا بالأسر المالكة مع جميع دول أوربا تقريبا لمجرد أن تكوينها كان يسـمح لكل من أقطارهـا بالتصرف فى شـئونه الخاصة والاهتمام بها وحدها . ولم يكن رجال السياسة البروسيين الذين حملوا لواء الاحيـاء القومى قد فكروا بعـد فى تأليف ألمانيـا كدولة قومية بحتة مستقلة تماما عن كل الدول الأخرى . فقد أراد جنيسناو مثلا فى ١٨١٢ أن يغرى انجلترا بالقتال ضد نابليون بحصولهـا على أقاليم واسـعة فى شـمال ألمانيا تصبح بعد ذلك جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية وتبقى سعيدة فى ظل دستور حر . وبعد سقوط نابليون أراد شتاين أن يؤلف فدرالا ألمانيا تحكمه « ادارة » مؤلفة من النمسا وبروسيا وبافاريا وهانوفر . وبذلك يكون لملك بريطانيا العظمى ، بوصفه ملكا لهـانوفر نفس النفوذ فى الشئون الألمانية مثل ما للنمسـا أو بروسـيا . وعندما أسس الكونفدرال الألمانى فى مؤتمر فينـا ، وقع ثلاثة حكـام أجانب على الاتفاق وصاروا أعضاء بسبب ممتلكاتهم الالمانية ، وهم ملك بريطانيـا والدانمارك والأراضى الواطئة . بالاضافة الى أن الاتفـاق أدمج فى بنـود مؤتمر فينا وأصبح بذلك تحت ضمان الدول الكبرى كلها ، ومن ثم كان

من الممكن بالنسبة للدول العظمى أن تطالب بحق التدخل فى الشئون الألمانية (١) • واقترح القانونى الكبير ثيبو وضع قانون مدنى مشترك لجميع الأقطار الألمانية كخطوة نحو الوحدة، ولكنه اقترح أيضا أن تضمن جميع دول الحلفاء ، وفيهم انجلترا وروسيا هذا التقنين • وفى كتابه عن هذا الموضوع أشاد بالتعصب المحلى الألمانى بوصفه نعمة ، وقال : ان الوحدة السياسية الكاملة قد تحط من ألمانيا وتجعلها دولة أدنى فكريا •

وقد حمل تقليد الامبراطورية القديمة كثيرا من الكتاب أيضا على التقدم باقتراحات لادماج بلاد كثيرة كانت فى وقت ما تنتمى للامبراطورية، مثل : هولاندا وبلجيكا وسويسرا والألزاس وحتى بورجنديا • بالاضافة الى أن بعضهم تجاوز فى المطالبة حتى بأقاليم لم تكن متصلة بالامبراطورية فيما مضى ، واقترحوا اتحادا مع الأمم الألمانية أو إتساعا لألمانيا فى الشرق وانشاء مستعمرات ألمانية • ومن ثم فان بذور تطلعات النزعة القومية اللاحقة والرغبة الشديدة فى القوة والسيطرة كانت موجودة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر(٢) • وفى أوقات التوتر عبرت عن نفسها فى انفجارات بلاغية أو شعر وطنى أو تأمل فى ماضى الأمة العظيم ومستقبلها • ولكن هذا الشعور لم يكن قد صار بعد عاملا فعالا فى السياسة العملية • لقد كانت الحكومات وجمهرة المحافظين تعارض فى انتهاج السياسة العدوانية ، التى بدالها أنها تدعم القوى الثورية وتهدد تضامن القوى الرجعية الكبرى الذى يعتبر العمود الفقرى « للحلف المقدس » • والواقع أن بعض دعاة الثورة كانوا يأملون نشوب حرب بين الدول الرجعية قد تؤدى الى تدمير كل منها للأخرى ، ولكن هؤلاء الكتاب لم يجدوا وراءهم حزبا • أما التحرريون فكانوا بطبيعة الحال يكرهون سياسة العدوان لأنهم كانوا يخشون النزعة العسكرية أكثر من أى شىء آخر •

---

(١) عندما أقرت الجمعية العامة للكونفدرال الالمانى فى اجراءات قاسية ، تحت تأثير النمسا وبروسيا ، ضد حركة الحرية السياسية احتج بالمرستون رسميا مشيرا الى هذا الضمان ، وتحدث الدبلوماسيون الفرنسيون بأسلوب تهديدى. بيد أن وتربنخ رفض لاحتجاج الانجليزى. انظر لفردستين «Geschichte Europas von 1830 bis 1848» المجلد الاول ص ٢٢٠ •

(٢) هناك أمثلة كثيرة لذلك فى كتاب شارلس آندلر «الرابطة الالمانية» ١٩١٥ • وفي «Collection des documents sur le pangermanisme» ٤ مجلدات ١٩١٥ — ١٩١٧ •

وقد اتجه الشعور القومي بعد سقوط نابليون أساسا الى الحصول على الحرية السياسية والوحدة القومية • وكان أنصارها متذمرين بمرارة من أن الأمم الأخرى تزدرى الالمان لأنهم بلاحرية ولا وحدة (١)• وتمخضت الرغبة فى الحرية السياسية عن تخمر ثورى وفورات (٢) ، وراود الأمل كثيرا من الراديكاليين الألمان فى أن تساعدهم فرنسا فى تأسيس جمهورية ألمانية بالقوة المسلحة • وفضل كثيرون أيضا الحرية على الوحدة • وبعد تحرير ألمانيا من نير نابليون سرعان ما انتشرت الأسطورة النابليونية ومذهب الامبراطور بين الطبقات الوسطى الألمانية ثانية على نطاق واسع (٣) • بيد أن كثيرين من التحررين أدركوا أن الفرنسيين لن يأتوا كمحررين بلا أنانية ولكن أساسا لاعادة غزو أرض الراين •

وكانت ثورة ١٨٤٨ فى ألمانيا محاولة لتحقيق الوحدة القومية والحرية والقوة بوسائل سلمية وبروح أخوية نحو الأمم الأخرى (٤) • وكان بين زعمائها عدد كبير من المؤرخين والمحامين المبرزين والمديرين والرجال الممتازين الآخرين • ومع ذلك فقد فشلت الثورة لعدة أسباب •

---

(١) لاحاجة لنا هنا الى مناقشة ماإذا كان ذلك هو الحقيقة أو الى أى مدى هو صحيح . فقد كان التذمر على أن الاحوال عاملا أيديولوجيا . ويعلق أحد الوطنيين المتحمسين ، الناشر فردريك بيرتس ، فى العشرينات على هذه المشاعر فى مراسلاته • وهو يحاول أن يدحض تفصيلا وجهة النظر السائدة من أن ألمانيا كانت فى موقف مذل ، ويذكر أنه يبدو أن كثيرين لا من الشباب فحسب ، بل كذلك بين الرجال ذوى المعرفة والتجارب ، هجروا القضية الوطنية يائسين ، وأخذوا يعزون أنفسهم بالخمر والشعر والعلم والحياة العائلية . فيقول : « ان جذور هذا الشعور يبدو لى أنه جنون المجد القومى الكاذب الذى لايهدأ مادامت ألمانيا لاتلعب دورا كبيرا فى أوربا ، وربما أن تسيطر على أوربا . بيد أن هؤلاء الرجال بالذات سيتراجعون مشمئزين اذا واجهوا ماتنطوى عليه السيطرة على أوربا » أنظر المجلد الثالث ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ من
«Friedrich Perthes Leben»

(٢) وقد هزم الثوريون ألمان وهرب معظمهم الى سويسرا حيث أسسوا فى سنة ١٨٣٤ مع الثوريين الايطاليين والبولنديين جمعية « أوربا الفتاة » . وأعلنوا أن الجنسية مقدسة على أن تعيش كل الشعوب في حرية ومساواة واخاء . أنظر أ و . ب . باور ١٨٤٥ المجلد الثالث ص ٣٥٨ •
«Geschichte der constitutionellen und revolutionären Bewegungen im sudlichen Deutschland in den Jahren 1831-34»

(٣) بيرتس ص ٢٨١ . وكان هذا الشعور مرتبطا بكراهية انجلترا لدورها في هزيمة نابليون . ومن الحالات النموذجية في ذلك موقف هاينه .

(٤) أنظر المؤلف العظيم الذى كتبه فيت فالنتين
«Geschichte der deutschen Revolution»
١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ مجلدان ١٩٣٠ •

فبرغم الرغبة الحادة فى اقامة علاقات دولية طيبة وحكم العدل فانها أثارت على الفور الانفعالات القومية فى كل مكان • وأعادت الثورة الفرنسية ، التى كانت قد بدأت أيضا بالدعوة للاخاء بين الأمم ، نفسها • فقد صعدت قوى النزعة القومية اللاعقلانية والتى لا ضابط لها ، لا بين الألمان وحدهم بل كذلك بين الأقليات القومية فى ألمانيا والدول المجاورة وأدت الى نزاعات حادة هددت بتوريط أوربا فى حرب (١) • فضلا عن أن الثورة أيقظت قوى الراديكالية السياسية والاجتماعية التى أحدثت انقساما بين أصدقاء الحرية • وقد أخمدت فى النهاية بواسطة الرجعية بالقوة المسلحة ، وبخاصة الجيش البروسى •

وكانت عواقب هذه الكارثة مميتة مثل انهيار تطلعات الثورة الفرنسية عن طريق الفوضى والنزعة العدوانية والاستبداد العسكرى • وفى السنوات العشر التالية للثورة الألمانية هاجر أكثر من مليون ألمانى الى أمريكا • وقد غادر أفضل الديموقراطيين والتحرريين ألمانيا يائسين ، ولعبوا فيما بعد دورا فى حياة الولايات المتحدة (٢) • وانسحب كثيرون آخرون من السياسة كلية ، فى حين بدأ آخرون أيضا يتجهون نحو اليمين وعقدوا آمالهم فى الوحدة القومية على العسكرية البروسية المنتصرة • وصار بسمارك وريث هذه الثورة ، كما كان نابليون وريث الثورة الفرنسية •

لقد انهار الأمل فى تحقيق الوحدة القومية بوسائل انسانية وسلمية ولم يعد هناك فيما يبدو سوى الحرب • وكان لفكرة أن ألمانيا لن تتوحد الا بالحرب أنصار من قبل ، ولكنها منذ ذلك الوقت انتشرت انتشارا واسعا حتى دوائر ليست متشبعة بالنزعة العسكرية • فأول شىء كان موضوع من الذى تكون له السيطرة فى ألمانيا : بروسيا أم النمسا ؟ مما لا يمكن تسويته الا بالحرب • وثانيا بدا لكثير من الألمان أن الحرب مع

---

(١) وقد نشبت هذه الصراعات أساسا بسبب تحول الدول الاسرية القديمة الى دول قومية • ومن الامثلة النموذجية لعدد كبير من النزاعات الصراع الالمانى الدنمركى• ففى ظل النظام القديم كانت دوقيتى شلفيج وهولشتاين ، واللغة السائدة فيهما هى الالمانية ـ وان كانت بهما أقلية دنماركية كبيرة العدد ، تحت حكم ملك الدنمارك الذى كان باعتباره دوقا عليهما عضوا فى الكونفدرال الالمانى • بيد أن النزعة القومية الصاعدة فى الدنمارك وألمانيا أرادت ضمهما بصورة نهائية الى دولة واحدة فحسب ، وأدى ذلك الى حربين كادتا تنتهيان بانفجار فى أوربا :

(٢) فالنتين ، المجلد الثانى ، ص ٥٥٢ •

دولة كبرى ثانية ضرورية للتغلب على التعصب المحلى الألمانى . وصحيح أن التاريخ يدل على أن كل الأمم تغلبت على التعصب القطرى واندمجت عن طريق حروب كبرى . وفى ألمانيا كانت العداوة الشديدة لا تزال قائمة بين كثير من شعوبها (١) ، ولم يكن أى شعب منها على استعداد للحصول على الوحدة القومية بثمن الخضوع للسيطرة البروسيه . وكانت هناك أسباب أخرى تجعل الحرب تبدو مما لا يمكن تجنبه اذا أريد تحقيق الوحدة القومية ، وهى التنافس بين الدول الكبرى الأجنبية ، الذى كان ينطوى على تعارض فى المبادىء السياسية الأساسية . فكان كثيرون من التحرريين يعتقدون أنه يمكن توحيد ألمانيا بحرب ضد روسيا، التى كانت فى ذلك الوقت حامية الرجعية فى كل مكان . وبالتأكيد لم تكن روسيا لتتسامح فى قيام ديموقراطيه فى ألمانيا ، الأمر الذى كان ينطوى على تشجيع للقوى الثورية فى عقر دارها . وابان الثورة الفرنسية عرض وزير خارجية بروسيا ، كونت فون ارينم ، على حكومة فرنسا الثورية خطة للقيام بحرب مشتركة ضد روسيا وتحرير بولندا وتوحيد ألمانيا تحت سيطرة بروسيا (٢) . بيد أن فرنسا لم تقبل هذا الاقتراح . وفى حرب القرم حاول التحرريون والسفير البروسى فون بونسن ، تحقيق هذه الفكرة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على بسمارك . وكان المحافظون طبعا يستفظعون أى حرب مع روسيا وحبذوا الحرب مع فرنسا ، التى كانت تبدو لهم كريهة بسبب اتجاهاتها التحررية . واختار بسمارك فيما بعد هذا الطريق لتوحيد الشعوب الألمانية تحت زعامة بروسيا وتأسيس الامبراطورية .

وسياسة بسمارك وأثرها فى النزعة القومية الألمانية معروفان تماما ولا حاجة بنا الى تسجيلهما هنا (٣) . وقد أثار ضم الأقاليم التى يسكنها فرنسيون فى ١٨٧١ هواجس فى نفسه ولم يوافق الا تحت ضغط العسكريين الألمان . ورفض أيضا أية سياسة تؤدى الى تصادم مع روسيا أو انجلترا . وبعد سقوطه زادت النزعة القومية الألمانية تطرفا باستمرار بزعامة « الرابطة الألمانية » . ونميت أيديولوجيتها على يد

---

(١) أ . فايزر «Briefweschsel zweirer Deutschen» ١٨٣٢ ص ٣٢٣ .

(٢) فالنتين ، المجلد الاول ، ص ٥٣٨ — ٥٤٤ .

(٣) لقد وصفت تاريخ النزعة الالمانية وسيكلوجيتها فى عهد بسمارك ووليم الثانى فى كتاب «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ المجلد الاول .

تريتشكه وعدد كبير من الأســـاتذة والكتاب الألمان ، واتخذت طابعا عدوانيا عن طريق انتشار العنصرية •

٢٣ - هنريخ فون تريتشكه

لقد خلقت النزعة القوميـــة الألمانية بواســـطة تطلعات المثقفـــين الى حد أكثر مما حدث فى كثير من الأمم الأخرى ، ويفسر ذلك الدور الكبير للفلاسفة والمؤرخين فى نموها • بيد أن هذه التطلعات كانت مختلفة تماما• فكثير من التحرريين وضعوا الحرية فوق الوحدة ، ونظروا الى كل خطة لاقامة سلطة مركزية قومية لألمانيا كلها بريبة ونفور • وفى ١٨٤٨ أعلن أحد زعمائهم فى ساكسونيا أنه يفضل أن يكون ساكسونيا حرا على أن يكون عبدا ألمانيا • واعتقد آخرون أن الوحدة والقوة تأتيان بالضرورة فى المكان الأول ثم تعقبهما الحرية •

وأعلن عدد من المؤرخين المبرزين أن رسالة بروسيا هى خلق ألمانيا القومية الموحدة التى تتمتع أيضا بالحرية السياسية (١) • وكان أبعدهم صيتا هو هنريخ فون تريتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) (٢) • وقد ولد فى ساكسونيا وكان أبوه ضابطا فى جيشها وصار فيما بعد جنرالا • وكان أجداده من البروتستانت التشيكيين الذين هاجروا الى ساكسونيا بعد انتصار الحركة المضادة للاصلاح الدينى فى بوهيميا ، وبدا شعره الأسود وملامحه وسماته الأخرى لصديقه هاوسترات « سلافية لاشك فيها » • وبرغم أن تريتشكه كان متحيزا جدا ضد السلافيين فانه كان فخـــورا بأجداده وأشاد بالتشيكيين لأنهم حاربوا آل هابســـبورج الذين كان

(١) فيما يتعلق بهذه المدرسة انظر ج • جوش « التاريخ والمؤرخين فى القرن التاسعءشر » الطبعة الثالثة ١٩٢٠ ص ١٣٠ • و أ• فريتر «Geschichte der neueren Historiographie» ١٩١١ ص ٤٩٢ و ٥٣٣ • و أ • جيلند «L'Allemagne nouvelle et ses Historiens» ١٨٩٩ • وقد أدلى لورد أكتون بكثير من الملاحظات المفيدة عن المؤرخين الالمان، وجمعت في كتاب أولريخ نواك «Geschichtswissenschaft und Warheit» ١٩٢٥ •

(٢) انظر فيما يتعلق بتريتشكه الفصل الممتاز جدا عنه فى كتاب ج • جوش - المرجع السابق - ص ١٤٧ • وهناك تقييم لاعمال تريتشكه بالانجليزية بقلم أدولف هوسرات فى «تريتشكه، حياته وأعماله» ١٩٤٠ ، وكذلك ت. شيمان «Treitschke's Lehr und Wanderjahre» ١٨٩ • وقد نشر كورنيـــليوس خطاباته في ثلاثة مجلدات ١٩١٣ - ١٩٢٠ • كما يوجد تحليل مفيد جدا لفكر تريتشكه فى كتاب ارنست ... «Trietschke im deutschen Geistesleben des 19 jahrhunderts» ١٩٣٥ • ويضم كتاب أرنست لبيراند «Trieschke im englischen Urteil» ١٩٢١ عرضا للكتب الانجليزية عن تريتشكه •

يكرههم • وقد كان من أسباب حزنه العميق أنه حرم الدخول فى السلك العسكرى بسبب صممه ، الذى أصيب به فى شبابه ، ومن ثم صار أستاذا وعلم التاريخ والعلوم السياسية فى عدة جامعات ، وأخيرا فى برلين • وكان له بوصفه هذا نفوذ ضخم على الشباب الأكاديمى والطبقات المثقفة بصفة عامة• وكان تريتشكه منأقوى الكتاب والمتحدثين السياسيين فى تاريخ ألمانيا • وكانت موهبته البلاغية بصفة خاصة ساحرة وكان المستمعون اليه يقعون تحت تأثيره تماما • ولم يكن نفوذه ككاتب أقل من ذلك كثيرا • وقد اكتملت الانتصارات التى أحرزها بسمارك فى السياسة بانتصارات تريتشكه المقابلة لها ، ونجح مجهودهما المشترك فى وضع أسس النزعة القومية الألمانية الحديثة •

بيد أن الرجلين لم يتفقا فى مبدأ الأمر فيما يتعلق بالخطط السياسية • فقد كان تريتشكه تحرريا ، وان كان تحرريا محافظا جدا ، وظل فترة ما يعارض سياسة بسمارك المناهضة للتحررية • ولكنه فيما بعد انضم الى أفكار بسمارك وصار أكثر اتباعه حماسة • والسبب فى هذا التحول هو أن تريتشكه كانت تسيطر عليه رغبة جارفة من أجل ألمانيا القوية الموحدة تحت زعامة بروسيا وكان على استعداد لاخضاع كل شىء آخر لتحقيقها •

وفى ١٨٦١ كتب تريتشكه مقالا ممتازا عن الحرية قال فيه : ان كل شىء جديد خلقه القرن التاسع عشر هو نتاج التحررية • بيد أن فكرته عن الحرية لم تكن فكرة الثورة الفرنسية التى جعلتها والمساواة شيئا واحدا وانتهت بحكم استبدادى بشع • فقد كانت فكرته هى المفهوم الانجليزى عن الحرية والحكم الذاتى المحلى الذى بدا له مفهوما مثاليا. وبعد ذلك بعامين صار تريتشكه أستاذ العلوم السياسية فى جامعة فرايبورج • وكان الرأى العام فى جنوب ألمانيا كله وما وراءه يسيطر عليه الولاء للوطن الأصغر تحت حكم الحكام التقليديين • وكانت الكنيسة الكاثوليكية المسيطرة على الناس تعارض بطبيعة الحال فى سيادة بروسيا البروتستانتية على ألمانيا ووقفت الى جانب قيام رابطة وثيقة بين الأقطار الألمانية الصغيرة والنمسا • بالاضافة الى أن الآراء التحررية والديموقراطية كانت واسعة الانتشار فى جنوبى ألمانيا وكثيرا ماكانت متصلة بعطف شديد على فرنسا • وقد اجتمعت كل هذه العوامل لخلق جو معاد تماما لبروسيا ولتقاليدها ولفكرة رسالتها القومية فى ألمانيا . وقد كانت هذه التجربة سببا فى غضب تريتشكه الشديد • وفى خطاب الى

جوستاف فريتاج كتب أنه صار من الواضح له تماما أنه لا سبيل الى تحقيق وحدة ألمانيا فى مواجهة هذا التعصب المحلى فى جنوبى ألمانيا الا بالغزو ولهذا السبب فان سياسة بسمارك فى زيادة قوة بروسيا صحيحة • وحتى اذا كانت بروسيا تملك أفضل حكومة مؤلفة من رجال من نوع شتاين وهمبولت ، فان كراهية ألمان الجنوب وغيرتهم من بروسيا لن يقلا • فقد كانوا جميعا يعتقدون أنهم الألمان الحقيقيون . أما الشمال فمازال نصفه غارقا فى الهمجية • « صدقنى أن سيف الغازى وحده هو الذى يستطيع دمج هذه البلاد مع الشمال » .

وفى سنة ١٨٦٤ كتب تريتشكه مقاله المشهور عن « الدولة الفدرالية والدولة الموحدة » وكان نداء قويا لتوحيد ألمانيا برياسة بروسيا ، وكان له أثر ضخم على الرأى العام • وقد حارب بقوة جميع حجج اللامركزية فى تاريخ ألمانيا • وكانت رغبته أن تكتسح بروسيا الأسر المالكة المختلفة والأقطار الصغيرة وتوحد ألمانيا كلها تحت حكم أسرتها المالكة • فالكونفدرال الألمانى الذى خلقه مؤتمر فينا ليس اتحادا حقيقيا • فهو مجرد تحالف الأسر المالكة ضد حرية الشعوب ، ولا يستطيع أن يمنح ألمانيا مركزا قويا محترما . وفكرة انه يمكن تحويله الى وحدة حقيقية ، وشعار التطور العضوى ، اللذين قال بهما الرومانسيون مضللين ، فالدولة يمكن أن تكون فى حاجة الى طاقة ثورية • وكذلك اهتم تريتشكه بدحض حجة أن التعصب القطرى الألمانى مفيد للحرية والثراء والثقافة وحاول اثبات أن التوحيد القومى وحده يستطيع أن يضمن تقدمها • وألمانيا لا تستطيع منافسة الأمم البحرية الاستعمارية الكبرى ، ولكنها تستطيع على الأقل أن تبلغ مركزا محترما ، وان لم يكن مسيطرا ، فى أوربا • ولهذا الغرض يجب أولا استبعاد النمسا من ألمانيا• فالنمسا دولة الطابع الغالب فيها غير ألمانى، ومنذ قرون أخذت تبعد عن الأمة الألمانية ونمت لها تقاليدها الخاصة وولاؤها الخاص • وبروسيا وحدها هى التى قدر لها أن تحقق الوحدة الألمانية فمنذ قرون كانت الانجازات السياسية الكبرى من صنعها ، وهى نفسها أعظم انجازات الشعب الألمانى•

وبحث تريتشكه بالاضافة الى ذلك فى المقال موضوع ما اذا كان ممكنا تحقيق الوحدة الالمانية فى صورة فدرال ، وانتهى الى جواب سلبى • وكان الاعتقاد السائد أن الحرية والقوة لا تجتمعان الا فى فدرال من الاقطار الصغرى • وفى الجمعية الوطنية فى ١٨٤٨ أراد اليسار المتطرف أن يقسم الاقطار الالمانية الكبرى الى جمهوريات صغرى •

وكانت هناك مدرسة من مدارس الفكر السياسي ، وهي التي مثلها بصورة ممتازة المؤرخ التحرري جيرفينوس ، تأمل أن تتحول دول أوربا الكبرى كلها الى فدرالات • بيد أن الجماعات الصغيرة لا تستطيع القيام بأعباء المهام المتعددة الملقاة على الدولة ، ولا يمكن أن تكون قوية • والمنظرون الذين تجاهلوا الفروق التاريخية بين الدول نسوا الحقيقة الأساسية للتجربة من أن طبيعة الدولة هي القوة أولا وثانيا وثالثا • ولكن تريتشكه طالب بروسيا بأن تعود الى أوضاع الدستورية الشرعية التي خرقها بسمارك حتى تكسب الرأى العام وتزيد بذلك قوتها • وقال : « ان الأغلبية الساحقة من الألمان مشبعون أساسا بالتحررية ويعتبرون قوة الوطن مسألة ثانوية » • وقد يكون ذلك مما يؤسف له ولكن يجب ألا يغفل عنه • وأدرك تريتشكه « أن اسم بروسيا يبدو كريها للشعب الألماني » • وحركة الوحدة القومية لا تتمتع بتأييد قوى من الجماهير ومن المشكوك فيه أن يكون لدى الشعب في أى وقت من الأوقات الطاقة للقيام من أجلها • والسبيل الوحيد الى الوحدة الألمانية هي السياسة التي اتبعها ملك سردينيا وكافور في تحقيق وحدة ايطاليا ، أى الغزو المقرون بالتحررية •

وفي هذه الأثناء كان بسمارك قد صار في ١٨٦٢ رئيسا للحكومة البروسية • واشتبك على الفور في صراع حاد مع التحرريين الذين كانوا يسيطرون على ثلثي الأصوات في البرلمان ، ولم يأبه بالقانون الدستورى في القضاء على مقاومتهم • وهاجمه تريتشكه بعنف باعتباره « اليونكر الذى يفخر بالحديد والدم » • بيد أن بسمارك سرعان ما حقق ادعاءه في عدة حروب متعاقبة انتهت الى انتصار لا مثيل له وحطم بذلك أيضا قوة التعصب القطرى والتحررية • والتغير في الاتجاه الذى ظهر عند تريتشكه يشاركه فيه قسم كبير من الطبقة الوسطى الالمانية. وزعزعت الحرب ضد الدانمارك وما تمخضت عنه اعتقاده التحررى في السياسة التي تقوم على المشروعية والأخلاق وأثارت أمله في تحقيق الوحدة القومية بحد السيف البروسى • وفي ١٨٦٦ عرض عليه بسمارك مركزا مغريا جدا ، وكان عليه في هذا المركز أن يستخدم قلمه القوى في خدمة قضية بروسيا • ولكن برغم الاغراء الكبير رفض تريتشكه المنصب بسبب بقايا التحررية فيه. وكتب في خطاب أنه يبدو ان رجل الدولة هذا لا فكرة لديه عن قوة القوى المعنوية في العالم ، ولكن بسمارك كان يدرك تماما تأثير سياسة الدم والحديد السحرى على العقول •

ويمكن تصوير التحول الضخم فى العقلية السياسية الألمانية تحت تأثير نجاح سياسة بسمارك بالعديد من الأمثلة . وقد استمر ج . ج . جيرفينوس ، أكثر المدافعين عن اللامركزية الألمانية اتساقا ، فى المعارضة وتنبأ مصيبا بأن سيادة بروسيا تنطوى على أكبر خطر على السلام فى أوربا وكذلك على السلام الداخلى . فهى لا يمكن أن تؤدى الا الى الاستبداد والنزعة العسكرية والراديكالية الاجتماعية فى أوربا . وقال جيرفينوس انه لم يكن أحد تقريبا يحبذ هذا الحل قبل أن يشرع بسمارك فى سياسة تحقيق الحكم الألمانى الموحد بالقوة . ولكن نجاحه حول عددا كبيرا من الناس الى جانب برنامجه ، برغم أن ذلك كان مناقضا لأقوى اتجاه فى الطابع القومى الألمانى (١) . ولم يقتصر التغيير على السياسيين وعلى قطاع كبير من الرأى العام . بل انه أثر أيضا فى تفكير علماء جادين فيما يتصل بمشاكل سياسية رئيسية . ولابد أن بذور الأفكار الجديدة كانت موجودة فى بعضها من قبل . ولكن الأحداث السياسية دفعتهم الى وضع مذاهب واعتناق مذاهب كانت من قبل كامنة فى عقولهم . ومن الأمثلة البارزة على ذلك ج . هـ . فون كيرشمان ، وهو قاض بروسى كبير،كانت الحكومة قد عزلته لآرائه المتطرفة وكان سياسيا مبرزا من سياسيى اليسار. ونشر أيضا كثيرا من الكتب الفلسفية وأشرف على تحرير سلسلة كبيرة من أعمال الفلاسفة العظماء مع تعليقاته، وظلت هذه السلسلة تستخدم فترة طويلة بواسطة طلبة الفلسفة . وفى سنة ١٨٦٩ أبدى فى تعليقه على كتاب « جروتيوس » قانون الحرب والسلام أكبر ازدراء بالقانون الدولى وحب جروتيوس للسلام ، ومجد الحرب بحرارة على أساس أنها أعظم متعة للجنس الجرمانى الهندى الذى يحتاج اليها ليتمتع بطاقاته . والفضيلة لا تسرى على الأمم . وأشار كيرشمان المرة تلو المرة الى حرب بسمارك فى ١٨٦٦ كدليل على هذه النظرية (٢) . وفى ١٨٦٨ نشر أ. لاسون كتابا عن الحرب باعتبارها أكثر العوامل فائدة فى التطور الثقافى .

---

(١) ج . ج . جيرفينوس «Hinterlassene Schiften» ١٨٧٢ ص ١٣ . وفيما يتصل بجيرفينوس أنظر جوش ص ١٠٨ .

(٢) ما أوردته من كتاب كيرشمان فى كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول ص ١٢٨ : وفيما يتعلق بكيرشمان كفيلسوف أنظر كتاب موريتز براخ « «Die philosophie der gegenwart» » ١٨٨٨ ص ٥٩١ .

وسرعان ما صار تريتشكه من أنصار بسمارك المتحمسين ، برغم انه لم يسر فى اخماد التعصب القطرى الى المدى الذى أراده تريتشكه وترك قدرا معينا من الاستقلال الذاتي للأقطار التى لم تضم الى بروسيا • بيد أن بسمارك سار في سياسة اجتذاب الجماهير بمنحها حقوقا سياسية مدى أكثر مما يقبله تريتشكه . اذ أن امثولة نابليون الثالث كانت قد أقنعته بأن أفضل وسيلة لسحق التحررية هى الالتجاء الى الجماهير ، وكان هذا هو السبب فى أنه طبق حق الانتخاب لجميع الرجال • بل انه حاول كسب الاشتراكيين واتصل بلاسال وقام بمحاولة غير ناجحة بعد موته للاتصال بماركس •

وليس من الضرورى أن نبين هنا بتفصيل كيف تحول تريتشكه عن مبادئه التحررية خطوة بخطوة ، وتقدم فى أواخر حياته بوجهات نظر على النقيض تماما من تلك التى تقدم بها فى أوائلها • ففى محاضراته المشهورة عن السياسة التى ظهرت بعد وفاته ككتاب (١) ، وفى مقالاته ، وأخيرا فى أعظم مؤلفاته « التاريخ الألمانى » الذى لم يكمل ، نمى افكارا صارت الأساس الذى قامت عليه النزعة الألمانية الحديثة وكان لها أثر مدمر على عقلية قسم كبير من الطبقات الوسطى والعليا فى ألمانيا • وصحيح أن تريتشكه لم ينبذ من فكره قط قدرا ما من بقايا ماضيه التحررى • فحتى ١٨٧٩ كان ينتمى لحزب الأحرار القومى وأحد نوابه فى الرايخستاج • وكان من وقت لآخر يشير الى الأثر السيىء على الأخلاق للحروب الطويلة، ويظهر فهما لانجازات الأمم الأخرى ويعطف عليها ، كما ظل فترة طويلة من المدافعين الأشداء عن حرية التجارة • وبدت له «التيوتونية السخيفة» التى ينادى بها ياهن وأتباعه وتعصبهم ضد فرنسا انحرافا (٢) ، وقد حاول أيضا معارضة محاولة « البتيوتونيين المفترسين » فى تنقيـة اللغة الألمانيــة من كل الألفاظ التى من أصــل أجنبى • وكذلك بدا له اعتراف مكيافللى بأن السعى الى القوة هو هدف السياسة ، دون أى تبرير أخلاقى شيئا فظيعــا • ففى نظره لا يبرر القوة سوى الهدف الأخلاقى • ولــكن مذاهب تريتشكه فى التطبيق لم تختلف كثيرا عن مبادىء مكيافللى • فقد كانت سياسة القوة والهيبة التى تنتهجها بروسيا صحيحة دائما، فى حين

(١) فون تريتشكه «Politik» مجلدان ١٨٩٧ – ١٨٩٨ .

(٢) يوجد في كتاب ايرمجارد لودفيج «Treitsche und Frankreich» ١٩٣٤ وصف لموقف تريتشكه من فرنسا ، وكان يسود موقفه منها العداء .

هاجم بعنف الدول الأخرى اذا فعلت ما تفعله بروسيا · وكان القانون الدولى ، والأخلاق فى السياسة ، والانسانية فى القانون ، والحرية السياسية ، والمساواة الاقتصادية ، وحقوق المرأة ، والحركة العمالية ، ونشر الثقافة بين الجماهير ، والكنيسة الكاثوليكية كلها كريهة لديه · وقد وصف ألمان الجنوب والنمساويين والأمم الأخرى بعداء شديد · وكانت صعود موجة جنون الخوف من الانجليز ومناهضة السامية أيضا من صنع تريتشكه الى حد كبير ·

ولم تحظ آراء تريتشكه فى معظم نواحيها بتحبيذ الأغلبية الكبرى من العلماء والمثقفين الألمان ،الذين كانوا لا يزالون متشبعين بالأفكار التحررية ، وتعرض مؤلفه فى التاريخ لنقد شديد واعتقد كثير من المؤرخين أن تريتشكه كان صحفيا سياسيا لديه معلومات ضخمة عن التاريخ أكثر منه مؤرخا منزها · وفى ١٨٧٢ ألف بعض كبار علماء الاقتصاد « اتحاد الاصلاحات الاجتماعية » ووضعوا له برنامجا من الابحاث فى أحوال الطبقات العاملة بغرض وضع مقترحات للتشريع الاجتماعى وبذلك تخف حدة التوتر الاجتماعى، وسرعان ما اتهمهم تريتشكه بالميل الى الاشتراكية، وأكد أن تخفيف الصراع الطبقى ليس أمرا مرغوبا فيه · فالتفاوت الاجتماعى شىء سليم · فالملايين يجب أن تكدح لتجعل فى وسع بضعة آلاف أن تحكم وتنتج ثقافة · وأثار هذا الموقف معارضة شديدة وانضم معظم علماء الاقتصاد الى «الاتحاد» وتعاونوا فى الأبحاث الاجتماعية التى مهدت السبيل لكثير من الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المهمة ·

وفى ١٨٧٩ بدأ تريتشكه يهاجم اليهود . وفى مبدأ الأمر أكد انه يعارض الكراهية العنصرية وأى تمييز فى الحقوق المدنية ، وأن كل ما يريده هو أن يهجر اليهود سماتهم المميزة ويصيروا ألمانا طيبين · بيد أن عداءه للسامية زاد مرارة فيما بعد ـ · وقد ساد الشعور ، وكان على حق ، بأن هدفه الحقيقى من حملته ليس اليهود بل التحررية (١) ، وأن اليهود دائما استخدموا كوسيلة لاثارة الرأى العام ضد مبادئها الأساسية· ولم تحظ هذه الحملة بقبول واسع بين كبار المثقفين ولم يقف الى جانبه عالم مبرز واحد · وظهر بيان عام وقعه عدد كبير من الشخصيات المبرزة يعبر عن عدم القبول المطلق لها · ولام أعظم علماء الالمان ، تيودور مومسن، تريتشكه على موقفه ومعاداته للسامية عموما فى عدة تصريحات بلهجة

---

(١) وقد أقر ذلك ليبراند الذى يتفق مع تريتشكه في وجهات نظره · أنظر «Treitschke im deutschen Geistesleben» ص ١٧٨ و ١٨٦ حيث توجد تفاصيل كثيرة عن هذه الحملة ورد الفعل لدى الرأى العام بالنسبة لها .

شديدة وازدراء كبير (١) • وأعلن برنس فردريك ، ولى العهد ، أن عداء السامية فضيحة لألمانيا • ومع ذلك فقد قبلها قسم من طلبة الجامعات بحماسة • واستخدمها ستويكر وبعض رجال الدين البروتستانت للدعاية بين الطبقة العاملة التى كانوا يريدون اجتذابها ، وان ذهبت جهودهم أدراج الرياح • وانضم تريتشكه ، الذى كان دائما من أنصار مذهب وحدة الوجود وكان مفكرا حرا وهزأ بالكنائس، الى هذه الجماعة «للدفاع عن المسيحية » •

وكانت ألمانيا قد صارت ، بواسطة سياسة بسمارك ، امبراطورية قوية واحتلت مركز الصدارة فى التقدم المادى • بيد أن جميع من راودتهم الآمال فى أن توحيدها سيؤدى الى نهضة أخلاقية وروحية كبرى خاب ظنهم • وقد رأى جاكوب بيركهارت ذلك من البداية وأعلن أن التفوق السياسى والثقافى لا يتفقان • ووصف صديقه فردريك نيتشه الانحطاط الروحى فى ألمانيا فى أبشع صورة ، وأصيب كثيرون غيره بخيبة أمل مماثلة • وحتى تريتشكه وجد أن حرب ١٨٧٠ قتلت المثالية فى ألمانيا ، وتحدث فى مرارة عن انتصار الغوغائية والمادية والديماجوجية • وبدا له الملق البيزنطى الذى وجه الى الملك الشاب ويليم الثانى عرضا من أعراض العبودية •

وأكثر جوانب ميراث تريتشكه ضررا لعصرنا الحاضر هو التعصب ضد الانجليز الذى نما لديه فى أواخر حياته ، والذى كان له نصيب كبير فى تمهيد السبيل للحرب العالمية الأولى • وقد كان تريتشكه فى فترته التحررية من المعجبين المتحمسين بالحرية الانجليزية ووحدة انجلترا القومية • وأشاد بالنظام البرلمانى الانجليزى والحكم الذاتى وبالطابع القومى والثقافة الانجليزيين • وفى ذلك الوقت كان يكره روسيا وفرنسا والنمسا ، وبدا له أن أفضل سياسة لألمانيا هى التحالف مع بريطانيا • ولكنه منذ الحرب الفرنسية الألمانية اتخذ موقفا عدائيا من انجلترا • فقد أثار ثائرته حيادها فى الحرب والعطف السائد فيها على فرنسا ، وزاد غضبه حدة سياسة انجلترا فيمايتعلق بالشرق• وكانت العوامل الرئيسية

---

(١) وبخاصة فى رسائله . أنظر أيضا رأيه فى هرمان باهر «Der antisemetismus» ١٨٩٤ ص ٢٨ . بيد أن العداء للسامية لم يكن له قط دور كبير فى السياسة الالمانية قبل هتلر ، وان كان له نفوذ اجتماعى معين . ويوجد وصف لأصل العداء للسامية فى ألمانيا ودوافعه في كتاب كورت فارسنيك «Die Entstehung des deutschen Antisemitenpartein» ١٩٢٧ .

فى هذا التحول فى المشاعر تحــوله عن التحررية ونمو الديمــوقراطية فى بريطانيا ، وكذلك توسعها الاستعمارى ، وخيبة أمله فى تحقيق رغبته الجارفة فى قيام امبراطورية استعمارية ألمانية كبرى . اذ كان من الواضح أن هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق الا على حساب الامبراطورية البريطانية. وكان تريتشكه قد وضع أمله فعلا فى البوير ، الذين أراد استخدامهم فى اخراج الانجليز من جنوبى افريقيا واقامة محمية ألمانيا هناك . بيد أن رغبته فى التوسع لم تقتصر على الممتلكات البريطانية . اذ عندما حصل بسمارك على الكمرون لألمانيا قال تريتشكه : « الكمرون ؟ ماذا نفعل بهذه الرمال الجرداء ؟ دعنا نأخذ هولندا ، وعندئذ ستكون لنا مستعمرات » . وفى ١٨٧٦ كان قد كتب فى خطاب أن الأسطول الألمانى عليه أن يحصل على أول أكاليل الغار بمحاربة الأسطول البريطانى ، حيث أن بريطانيا تريد تدميره . وأعرب فى محاضراته فى السياسة عن أمله فى أن تصير ألمانيا يوما ما أكبر قوة بحرية . وصـــار عداؤه لانجلترا جنونا ، وصار يرسم صورة السياسة البريطانية والطابع البريطانى زاخرة بالسمات المنفرة . واتهم انجلترا بأنها كانت تعمل منذ قرون على اثارة العداوات بين أمم القارة لتطلق يدها فى الحصول على امبراطورية ضخمة بالسرقة وحدها . وكان السبب الحقيقى لغضب تريتشكه الجائح هو طبعا أن بريطانيا كانت عقبة فى سبيل صعود ألمانيا الى السيطرة العالمية .

٢٤ ـ الرابطة الألمانية والراديكالية فى القرن العشرين

فى سنة ١٨٩١ تألف اتحاد فى فرانكفورت بغرض الدعوة لسياسة من النزعة القومية العدوانية ، وفى ١٨٩٤ اتخذ اسم « عصبة الرابطة الألمانية » (١) . وكان المؤسس الرئيسى هو الفــرد هوجنبرج موظفا بروسيا صغيرا فى ذلك الوقت ، وفى ١٩٠٩ كان أول مدير لمؤسسة كروب . ولم يكن للعصبة فى أى وقت أعضاء كثيرون ، ولكنها كانت

---

(١) أنظر كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول من ٤٥٢ . وأ. يونهارد «Geschichte des alldeutschen verbandes» ١٩٢٠ . و م . س فيرتايمر « عصبة الرابطة الالمانية » ١٩٢٤ . وشارلس آندلر « الرابطة الالمانية » ١٩١٥ . و «Collection des documents sur le pan-Germanisme» ١٩١٥ ـ ١٩١٧ . و «20 Jahre alldeuscher arbeit und Kampfe» ١٩١٠ . و هـ . كلاس «Widerden Storm» ١٩٣٢ وجونيوس آلتر «Nationalisten» ١٩٣٠ . وأرنيم بيلو «Deutschantionale Köpfe» ١٩٢٨ .

تضم عددا غير صغير من الاعضاء ذوى النفوذ ، مثل قواد الجيش وكبار الموظفين وكبار الصناعيين ورؤساء تحرير الصحف والأساتذة وما الى ذلك . وفى وقت من الأوقات كان ٨٤ عضوا فى الرايخستاج من المنتمين اليها . وكان رئيسها حتى ١٩٠٧ البروفسور أرنست هاس ، وعندما توفى خلفه هانيريخ كلاس . وقد لعبت « العصبة » دورا شريرا فى السياسة الألمانية بالحث على انتهاج سياسة لا تحررية فى الشئون الداخلية ، وعلى التوسع العدوانى فى الخارج . وكانت مركزا لمجموعة الجمعيات الوطنية ، مثل « عصبة الأسطول » و « ألمانيا الفتاة » الخ ، التى كانت تضم فيما بينها ملايين الأعضاء ويوجهها او يشرف عليها موظفون من قبل « عصبة الرابطة الألمانية » . ونستطيع أن نقارن « العصبة » بهيئة أركان حرب النزعة القومية المتطرفة . وكانت علاقاتها بحكومة الامبراطورية غريبة فى طبيعتها . فقد كانت « العصبة » فى المعارضة باستمرار تقريبا لأن الحكومة لا تستجيب الى طلباتها بدرجة كافية . والواقع انه ما من حكومة كانت تستطيع تنفيذ مطالب « العصبة » دون التعرض لخطر الحرب والأزمات الخطيرة . وكان معظم السياسيين المسئولين عن سياسة ألمانيا الخارجية ينظرون الى « العصبة » باعتبارها مصدر ازعاج وخطر ، وأحيانا كانوا ينتقدون نشاطها عندما تثيرهم بهجومها على سياستهم . بيد انهم كانوا يدركون من الناحية الأخرى أن « العصبة » تحظى بتأييد دوائر قوية يخشون استثارة غضبها ، ومن ثم حاولوا تجنب الصدام معها . فضلا عن أنه كان هناك دائما وزراء وقواد « وشخصيات كبيرة أخرى » يميلون جدا الى العصبة ، حتى عندما كان زعماؤها يهاجمون السياسة الرسمية . وكان رئيس البحرية الاميرال تيربيتز بصفة خاصة على علاقة وثيقة بانصار الرابطة الالمانية واستخدامهم للقيام بالدعاية على نطاق ضخم من أجل التسليح البحرى . وكان ولى العهد أيضا يميل الى «العصبة» بصفة خاصة .

وقد وضع الأفكار التى قامت عليها العصبة رئيسها الاستاذ هاس، أولا فى محاضراته فى جامعة ليبزيج ، ثم فى مؤلفه «Deutsche Politik» فى اجزاء كثيرة . واعلن هاس ان ألمانيا لابد ان تحصل على امبراطورية كبرى فى أوروبا وعبر البحار ، وقد أخل توسع بريطانيا بميزان القوى، وهو ينطوى على انكار للحقوق المساوية لألمانيا . وصحيح أن التجارة الالمانية أحرزت تقدما ضخما برغم احتكار انجلترا الاستعمارى ، ولكنه تقدم مبنى على أسس غير ثابتة . فهو يعتمد على استمرار

سياسة « الباب المفتوح » من جانب بريطانيا والأمم الأخرى ، ولابد أن تلجأ هذه الأمم الى مقاطعة البضائع الألمانية مما يؤدى الى دمار ألمانيا واجبارها على الحرب . ومن ثم ينبذ هاس مبدأ « الباب المفتوح » « التعس » كلية وطالب بأن تقصر ألمانيا نشاطها الاقتصادى على منطقة أصغر خاصة بها وحدها . ودعا الى تكوين اتحاد جمركى أوربى من ألمانيا والنمسا والمجر وبلجيكا وهولندا ومعظم الدول الصغيرة الأخرى فى أوربا . ولكن هذا الاتحاد لن يقتصر على الأهداف الاقتصادية وحدها. وتقوم فيه ألمانيا بدور « الحامى » . بالاضافة الى حصولها على أجزاء كبيرة من الصين وتركيا وتكون هى صاحبة النفوذ الوحيد فى هذه المنطقة الشاسعة . وقد وسع بعض كتاب الرابطة الألمانية هذا البرنامج الطموح اكثر من ذلك ، وليست هناك أجزاء كثيرة من العالم لم تعتبر من مناطق النفوذ الألمانى فى نظر كاتب أو آخر منهم .

وهناك كتاب آخر يمثل عقلية أنصار الرابطة الالمانية بقلم أحد خلفاء هاس ، هو هاينريخ كلاس ، ظهر فى ١٩١٢ تحت اسم مستعار هو دانيل فريمان بعنوان : « لو كنت امبراطورا » وصدرت منه عدة طبعات وأثار ضجة كبرى . ويقول كلاس : ان موقف الأمة الألمانية حرج للغاية . فجميع الطبقات أصيبت بخيبة أمل عميقة وشاع فيها التذمر بسبب السياسة الوجلة الضعيفة التى تنتهجها الحكومة . وحتى القيصر اتهمه بتفضيل يحط بالكرامة للسلام والهدوء . فجميع الدول المجاورة لألمانيا توسع مجالات نفوذها ، وألمانيا وحدها خاوية الوفاض ، برغم أنها فى حاجة ماسة للتوسع . بالاضافة الى أن الموقف الداخلى كئيب جدا ، بل وميئوس منه . وأسباب ذلك هو صعود الديموقراطيين الاشتراكيين والتأثير الانحلالى للراسمالية واليهود وانهيار الطبقات الوسطى . ومن الضرورى جدا الغاء حق الانتخاب لجميع الرجال المعمول به ، بالعنف اذا لزم الأمر . وأفضل وسيلة لتحقيق ذلك هى الحرب ، وكل شخص يحب الشعب الألمانى لابد أن يرغب فى الحرب . فاذا كسبت ألمانيا الحرب فستعم موجة من الحماس الوطنى بحيث يحصل القوميون فى الانتخابات على أغلبية فى البرلمان ، ويجب استخدام هذه الأغلبيه فى الغاء حق الانتخاب الديموقراطى . بيد أنه اذا هزمت ألمانيا فى الحرب فان ذلك سيكون سوء حظ عابر . والهزيمة تؤدى الى الفوضى الداخلية ، ولا يمكن استعادة النظام الا بواسطة دكتاتور قوى يؤيده الجيش ، وهذا أيضا يتيح الفرصة للحد من حق الانتخاب . وفى حالة عدم امكان قيام حرب فان حق الانتخاب ينبغى

تحديده بأية وسيلة ولو بانقلاب . وعندما يتم ذلك سيتعين على الامبراطور أن يسمح بالحكم البرلمانى ، حيث أن النظام الحالى للحكم «غير محتمل» وبرنامج النظام المقبل يتضمن اخماد « النشاط الثورى » (أى الاشتراكيين) بقوة ومعاملة اليهود كأجانب ، واخماد الأقليات القومية بلا رحمة ، وتقييد الهجرة الداخلية وتحريم انشاء المتاجر الكبرى ، واهم من ذلك جميعا زيادة الجيش والأسطول الى أقصى حد . فوجهة النظر التى تذهب الى أن الغرض منهما هو مجرد الدفاع شائنة ويرثى لها . ان أكثر ما تريده ألمانيا هو « سياسة نشيطة ــ أو بصراحة عدوانية » . فتوسع المانيا ينطوى على عداء نحو انجلترا ، والحل الوحيد هو الحرب . ويشير كلاس الى أن كل شخص متعلم فى ألمانيا يحب انجلترا ويعجب بها ، ولكن ليس سياستها . ولم تكن الصناعة فى أى من الدولتين مصدر ضرر حقيقى للصناعة فى الأخرى ، والغالب أن ذلك لن يحدث . ومن ثم فانه بعد الصراع الكبير يمكن أن تصبح انجلترا وألمانيا صديقتين مرة أخرى . ويشيد المؤلف أيضا ببعض السمات الطيبة فى فرنسا . وبخاصة وطنيتها واستعدادها للقيام بتضحيات للضرورات الحربية . ومع ذلك فان أمن ألمانيا يتطلب سحق فرنسا وأن تتنازل لها عن أقاليم واسعة وأن يجلو السكان الفرنسيون عن هذه الأقاليم لتوطين الألمان فيها . وليس لبلجيكا وهولندا الحق فى البقاء ، وينبغى ادماجهما فى ألمانيا برغم أن الألمان ليس لديهم ما يدعوهم الى الترحيب بذلك لأن سكانهما قد انحلوا أخلاقيا الى أقصى حد بسبب سيادة المصالح التجارية فترة طويلة . فاذا خضعوا بارادتهم ربما أمكن السماح لهم باستخدام لغاتهم الى حد ما والا فلا . والنمسا وهنغاريا فى حاجة الى دكتاتورية ألمانية لكبح جماح السلافيين والهنغاريين ، وفيما يتعلق بروسيا ليس هناك ما يدعو الى العراك معها . فكلاس ، مثل هاس ، لا يحسد روسيا على امبراطوريتها ، بل انه ينصح ألمان البلطيق بالهجرة اذا عملت روسيا على خنق جنسيتهم . ولكن حقد روسيا على كل ما هو ألمانى سيؤدى فى الغالب الى الحرب . ويعتبر المؤلف الحرب علاجا لا غنى عنه لمنع الانحلال الأخلاقى .

وقد تقدم كثير من الكتاب الآخرين بمثل هذه الآراء أو ما يماثلها فأعلنوا حق ألمانيا فى السيطرة على العالم وأغرقوا فى الاشادة بمزايا

الحرب سياسيا وأخلاقيا ولكن لا حاجة بنا الى أمثلة جديدة حيث أنها لم تضف جديدا لأفكار تريتشكه وهاس وكلاس (١) .

وقد ركزت « عصبة الرابطة الألمانية » كل جهودها فى زيادة قوة ألمانيا . ففى أيديولوجيتها بدت القوة فى ذاتها الهدف الأسمى ، وهى وجهة نظر حتى تريتشكه أعلن انها فظيعة ومنفرة عندما ناقش فلسفة مكيافللى . وهى لا تتفق مطلقا مع مبادىء المسيحية والروح العالمية للمفكرين الكلاسيكيين والشعراء الكلاسيكيين فى المانيا ـ القوى الروحية التى كانت لا تزال تملك تأثيرا ضخما على قطاعات كبيرة من الشعب الألمانى . وكان هوستون ستيوارت شمبرلين هو أكثر من عمل على شل هذا التأثير بواسطة نزعة قومية ثقافية جديدة تتركز فى فكره التفوق الكبير « للجنس الآرى » على كل الأجناس الأخرى (٢) . وكان جوبينو وغيره قد دعوا من قبل الى هذه الفكرة ولكن فى صورة لا تتيح لها أية فرصة للنجاح . ففى رأى جوبينو كان المصير الحتمى للجنس الآرى هو الانحطاط بسبب الاختلاط الذى لا يمكن تجنبه مع الأجناس الأدنى وكانت وجهة نظره متشائمة بالاضافة الى أنه لم يقل ان الألمان لديهم نصيب كبير من « الدم الآرى » واعتبر الانجليز أفضل أصلا . أما شمبرلين فبرغم أنه انجليزى فقد اعتبر الألمان « الشعب المختار » وانغمس فى توجيه الاتهامات الى انجلترا الحديثة (٣) ، ووضع خطة عنصرية كانت أكثر ملاءمة من أية خطة أخرى لاجتذاب العقل الألمانى. ولعل دعوته للرابطة كانت أكثر تعصبا وضررا حتى من دعوة تريتشكه ، ولكنها لم تكن سياسية وبروسية مثلها ، وكانت أكثر جاذبية بالنسبة للعقول المهتمة بالقضايا الثقافية . وتترك كتب شمبرلين فى عقل معظم

---

(١) هناك أمثلة عديدة فى كتابى «Nationalgeist und politik» المجلد الاول ص ٤٦٤ وكذلك م . هوبوم و ب . رورباخ «Chauvinismus und weltkrieg» مجلدان ١٩١٩ . و أ. نيوبولد «Der Deutsche Chauvinismus» ١٩١٣.

(٢) هذا الكتاب ، الفصل الثانى (٤) .

(٣) انظر رأيه في الطابع الانجليزى في كتابه «Kriegsaufsätze» ١٩٤١ ص ٤٤ . وفى مقال آخر (ص ٢٤) أعاد نظرية فيشته الغريبة عن التفوق الفريد للغة الالمانية وقال ان الشعب فى انجلترا لايصل اليه أثر للثقافة لان اللغة غير صالحة لذلك . ومن ثم فان أهم المهام هى فرض اللغة الالمانية على العالم . فكل الامم يجب أن تدرك انمن لا يعرف اللغة الالمانية منبوذ . وفى مقال آخر ذهب الى حد القول بأنه لا يمكن التعبير عن اية فكرة سامية باللغة الانجليزية .

القراء انطباعا بأن كان كاتبها ذا عقلية موسوعية ، بواسطة رجل عميق الدراية بكل ميادين الثقافة والمعرفة . والواقع أنه كان واسع الاطلاع جدا ولديه موهبة تفسير مختاراته من التاريخ والفلسفة والدين والفن والأدب بحيث تؤيد العنصرية . ولكن هذه الواجهة الضخمة أقيمت باهمال تام للتفكير الناقد وعدم اهتمام حقيقى بالحقيقة (١) . وكان شمبرلين مثل تريتشكه كاتبا ذا قدرة غير عادية ، فأسلوبه ساحر ومقنع ويشيع فيه انفعال شبه دينى . وفى كتابه : « أسس القرن التاسع عشر » وفى كتبه عن المسيح وجوته وكانت حاول أن يبين أن جميع العبقريات الحقيقية كانت تعبيرا عن الروح الآرية ، وأن تعاليمها لا تتفق مع المعتقدات الأساسية للتحررية والديموقراطية ، وأن اليهود هم أشد أعداء الآريين وأنهم يمثلون كل شيء دنيء ومنحرف . وكان الامبراطور ويلهلم الثانى صديقا وثيق الصلة بشمبرلين ومؤمنا متحمسا لنظرياته التى عمل على نشرها بكل الوسائل الممكنة . ولا عجب أن شمبرلين نجح فى تخدير قطاع كبير من المثقفين الألمان وجعلهم يتشعبون بقدر هائل من الفخر بالجنس والجنسية والازدراء « للأفكار الغريبة » الانجليزية والفرنسية ، التى جعلها تبدو الى حد كبير نتاج الرأسمالية اليهودية ، وبهذه الطريقة صار شمبرلين أهم رائد للهتلرية وتنبأ هو نفسه بأن هتلر سيصير « منقذ ألمانيا » .

---

(١) هناك أدلة كافية على ذلك في كتابى « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ .

الخاتمة

سيتوقع كثيرون من قراء هذا الكتاب ان يجدوا الفصل الأخير تلخيصا موجزا لمحتوياته ، وعرضا لنظرياته الرئيسية ومقترحاته العملية لعلاج الشرور التى ناقشها • وتشير « المقدمة » الى أن المؤلف يعتبر هذا الكتاب دراسة فى الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى ، وقد يبدو أن ذلك ينطوى على وعد بنظرية أو خطة من التعميمات تحدد اتجاهات أساسية • والواقع كان هدف المؤلف أن يسهم بنصيب فى وضع مثل هذه النظرية ، ولكنه يرى أنه من الخطأ جدا محاولة صياغة ما انتهى اليه من آراء فى بضعة تعميمات قليلة ، فى حين أن تسجيل الاتجاهات العامة بعناية يتطلب مجالا أوسع بكثير مما يسمح به المجال الحالى • بالاضافة الى أنه لما كان المؤلف يعد للنشر قريبا دراسات أخرى عن موضوع الجنسية فانه يبدو أن التلخيص والمقترحات العملية ينبغى تأجيلها • بيد أنه قد يكون من المفيد تلخيص بعض النتائج السلبية على الأقل ، وكشف طرق تناول الموضوع التى ثبت أنها مضللة ، واضافة بعض ملاحظات أخرى •

ومشكلة الجنسية تنطوى على مجموعة من المشاكل المحيرة التى تمتد عبر كل ميادين الحياة وفى جميع العصور ، وهى معقدة وعسيرة بحيث ان محاولة وضعها فى صيغة موحدة تنطوى على جرأة • والحقيقة الأساسية هى الوعى القومى الذى اتخذ عبر التاريخ عدة صور مختلفة ، من شعور غامض بالقرابة الى السعى المتميز لتحقيق الشخصية القومية الى مثل أعلى للمجتمع الوثيق الصلة على أساس التضامن غير المحدود • والوعى القومى النامى ينطوى على هيكل من الأفكار فيما يتصل بحدود الأمة وتكوينها وطابعها ورسالتها ، وبعلاقاتها بالأمم الأخرى • وهذه الأفكار تؤلف الأيديولوجية القومية • وتتألف سيكلوجية الوعى القومى من بناء معقد جدا من التطلعات وتظهر فى صور مختلفة تماما ، فقد تكون مسالمة أو عدوانية ، تقدمية أو رجعية ، متسامحة أو متعصبة •

ولا بد أن تكون أول خطوة نحو الفهم الحقيقى هى الوصول الى مصطلحات ملائمة غير غامضة • ومعظم الكتاب فى المسائل العامة الخاصة بالجنسية أهملوا هذه القاعدة واستخدموا مصطلحات متعددة المعانى •

وكانت نتيجة ذلك أن الكتاب والقراء سرعان مالفهم ضباب كثيف ، لم يكن دائما موضع نفور من جانب الكتاب . ومن الأشياء التى يؤسف لها بصفة خاصة عادة اطلاق لفظ (Nationalisme) النزعة القومية ـ على كل مظاهر الوعى القومى .

وفى هذا الكتاب تعنى النزعة القومية نوعا معينا من الوعى القومى يتركز فى التفوق والهيبة والقوة والسيطرة . ومثل آخر فى هذا الموضوع نراه فى طريقة استخدام « الطابع القومى » . ويفهم معظم الناس من هذا المصطلح أنه ينطوى على طابع خلقى يتكون من عدد من الغرائز ، ويؤدى ذلك الى اكذوبة العنصرية لعنة البشرية . والنزعات الأولية طبعا وراء جميع ألوان النشاط البشرى ، تماما كما أن الانسان لا يستطيع أن يعيش أو يفكر أو يتصرف بدون الطاقات التى تولدها العناصر الكيميائية فى جسمه . ولكن من السخف أن تصف أعمال شيكسبير واتجاهات الأمة وانجازاتها على أساس أنها غرائز ، بقدر ما هو سخيف أن نصفها على أساس أنها كربون وأيدروجين وأكسجين . ومع ذلك فان عادة تفسير التطلعات والاختلافات فى الأمم والصراع باعتبارها نتاج ميول عنصرية ، تسيطر على أيديولوجية كل الأمم . ان بدائية هذه الفكرة هى التى تجعلها شعبية ولا تقاوم .

وقد دفع سوء تفسير لفظ « الطابع القومى » النقاد الى مهاجمة المصطلح ، بل ومهاجمة فكرة أن الأمم بينها اختلافات عميقة الجذور ، وبذلك انتقلوا من أقصى طرف الى أقصى الطرف الآخر . فمثل هذه الاختلافات لا شك موجودة ولها أثر كبير فى مصير الأمم . وهى متأصلة فى التقاليد والبناء الاجتماعى للأمم . ولعل لفظ « التقاليد القومية » هو أفضل بديل ممكن « للطابع القومى » . بيد أن التقاليد وحدها بالضرورة قوية ومستمرة . فهى تكتسب قوتها كعوامل سياسية عن طريق ارتباطها بمصالح الجماعات الاجتماعية ذات النفوذ . ويجد معظم الناس صعوبة فى فهم المغزى الكامل للتقاليد بالنسبة للحياة السياسية للأمم ، وحتى اذا اعترفوا بتأثيرها فانهم عادة لا يستطيعون أو لا يميلون الى تكريس وقت كاف لدراسة التاريخ كما يتطلبه الفهم الحقيقى للتقاليد ، التى تعد مشكلة من أصعب مشاكل البحث التاريخى .

ويمكننا أن نلاحظ تفصيل التفسيرات البدائية أيضا فى الآراء عن أسباب اكتساب النزعة القومية العدوانية كل تلك السيطرة لدى شعوب معينة ، برغم أن المصالح الحقيقية للأغلبية الساحقة متعارضة بالتأكيد مع

هذه الأهداف • وأى شخص يعرف عقلية العمال والفلاحين فى بعض البلاد المعينة ، مثل ايطاليا ، يجد صعوبة فى تصديق أنهم كانوا يتحرقون للتضحية بحياتهم فى سبيل المجد وأسلاب الحرب • فالمشكلة اذن هى أية قطاعات المجتمع تقع عليها المسئولية الأساسية ؟ وما دوافعها ؟ وكيف استطاعت أن تحمل الطبقات الأخرى على التضحية بكل شىء فى سبيل أهداف من الواضح أنها غريبة عن رغباتهم الحقيقية الى حد يزيد أو ينقص؟ وقد يفسر الارهاب والغش ذلك الى حد ما ، ولكن لا شك فى أنهما ليسا العاملين الوحيدين • وقد أجيب عن هذه الأسئلة عدة اجابات مختلفة •

فلكل حزب سياسى أو طبقة اجتماعية ولكل مدرسة من مدارس التاريخ أو الاجتماع أو علم النفس تفسيرها الخاص بها ، أو التفسير الذى تميل اليه • بيد أن كل هذه التفسيرات تقريبا تخلط بعض الحقيقة بقدر كبير من غير الحقيقة • وكلها ترتكب خطأ المبالغة فى تبسيط الأمور وتأكيد عامل ما بوصفه السبب الوحيد أو الرئيسى فى النزعة القومية • وأكثر الطرق استخداما هى القاء المسئولية كلها على أمة أخرى أو طبقة أخرى • وانى آمل أن يكون هذا الكتاب قد أوضح أن النزعة القومية ليست نتاج عصر واحد أو أمة أو طبقة أو حزب أو دين أو فلسفة واحدة ، بل ان كل جانب أسهم فى نموها ، واعترض نموها جزئيا ، وان كان ذلك بدرجات مختلفة تماما • وفى حالات كثيرة دعمت طبقة أو حزب أو مدرسة فكرية ، على غير وعى منها ، اتجاهات غريبة عن أهدافها ، وان كانت بعض قطاعات الأمم كان لها دور خاص فى نمو النزعة القومية ، مثل الطوائف العسكرية والمثقفين والأجيال الشابة • بيد أن بذور النزعة القومية توجد فى جميع مراتب المجتمع ، وعندما تحدث أزمة كبرى فقد ينفجر الانفعال القومى بقوة لايستطيع أحد أن يتنبأ بها • والعامل الحاسم هو الأيديولوجية القومية التى يمكن أن نقارنها بشبكة هائلة وقعت فى حبائلها جميع الطبقات فى حين تمسك بحبالها فئة قليلة • فضلا عن أن « روح العصر » هى التى لها النفوذ الأول على مصير الجنس البشرى • وكلتا هاتين القوتين نتاج مجموعة لا تعد من العوامل •

ومن ثم فلا يمكن تشخيص أسباب النزعة القومية أو صعود روح الجنسية عموما فى بعض عبارات قليلة • فكلاهما مرتبط ارتباطا وثيقا بجميع فروع الحياة والفكر بحيث كأننا نحاول أن نضغط تاريخ العالم كله فى بضعة سطور • ومن الممكن طبعا وضع بعض النتائج العامة ، ولكنها لن تنقل فهما حقيقيا للمشكلة • والصيغ المجردة التى تنطوى على ضغط قدر ضخم من الملاحظات فى أوجز صورة ، يرحب بها المنظرون ، ولكن فائدتها

لدارس الجنسية قليلة. فالتنافسات القائمة بين الأمم أو السمات الفريدة التى تتميز بها تقاليدها وتطلعاتها لا يمكن فهمها الا بدراسة التاريخ بروح مقارنة واجتماعية دراسة معتنية ٠

وهناك أسباب مماثلة تثبط أية محاولة لصياغة « علاجات » مختصرة للنزعة القومية ٠ وقد أصبح من المعترف به عموما أن مجرد وجود جهاز لمنظمة دولية لا يجدى اذا لم توجد الروح الملائمة ٠ ولكن كيف يمكن خلق هذه الروح وتقويتها ؟ واضح أن مجرد اعلان مبادىء عامة غير كاف ٠ كما لا يكفى أن نقول : انه يجب تربية الأمم فى اتجاه هذه الروح اذا لم تكن هناك خطة عملية لتنفيذ ذلك أو عدد كاف من المربين الصالحين ٠ وعادة تناول مثل هذه المسائل بطريق غير واقعية وبعدم اكتراث لا بد أن يؤدى الى الفشل وخيبة الأمل و « الكلبية » ٠

فضلا على أن التربية من أجل المواطنة العالمية ليست مجرد شأن من شئون المدارس٠ فهى مرتبطة بجميع القضايا الكبرى فى الحياة السياسية والاقتصادية ، ولا سبيل الى حلها الا اذا انتهجت جميع الأمم الرائدة خططا تفصيلية تقوم على مبادىء متماثلة ٠ ولعل هذه الملاحظات توضح لماذا قاومت اغراء التقدم باقتراحات عملية فى فصل قصير أخير ٠

ومع ذلك فحتى النتائج السلبية من النوع النظرى قد تكون لها قيمتها فيما يتعلق بأغراض السياسة العملية ٠ فالمرض لا يمكن علاجه بالطريقة الصحيحة الا بعد اكتشاف أسبابه ٠ وعلم الدواء الحديث لم يستطع النمو ما دام الناس يؤمنون بأسباب خيالية للأمراض ، مثل الأرواح الشريرة ٠ والخطوة التالية ، وان لم تكن الأخيرة ، هى تقييم شامل للأسباب الحقيقية٠ والصعوبة الرئيسية هى قوة التميزات والأنانية والتمنيات وعدم استعداد كثير من السياسيين لانتهاج خطط معقدة لاتؤتى ثمارها الا فى المستقبل والتى يمكن أن تثير التحيز القومى والانفعالات القومية ٠

فهـــرس

الغلاف... د. خالد سرور

الثمن: ستة جنيهات

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com